نظم الدرر

في تناسب الآيات والسور

للإمام المفسر
برهان الدين أبي الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي
المتوفى سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م

دار الكتاب الإسلامي
بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فاطر[1] و تسمى الملائكة

هى ختام السور[2] المفتتحة باسم الحمد ، التى[3] تقدم عن الشيخ سعد الدين التفتازانى أنه فصلت فيها النعم الأربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة ، و هى الإيجاد الأول ، ثم الإبقاء الأول ، ثم الإيجاد الثانى المشار إليه بسورة سبا ، ثم الإبقاء الثانى الذى هو أنهاها و أحكمها ، و هو الختام[4] المشار إليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء الدال عليه بأنهى القدرة و أحكمها ، المفصل أمره فيها فى فريق السعادة و الشقاوة تفصيلا شافيا على أنه استوفى فى هذه السورة النعم الأربع كما يأتى بيانه فى محاله ، فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله تعالى اللازم منها تمام القدرة[5] على البعث الذى عنه يكون أتم الإبقائين الإبقاء بالفعل دائما أبدا بلا انقطاع و لازوال و لا اندفاع فى دار المقامة التى أذهب عنها الحزن و النصب و اللغوب ، و دار الشقاوة الجامعة لجميع الأنكاد و الهموم ،

---

(١) الخامسة و الثلاثون من سور القرآن ، مكية ، و آيها ست و أربعون فى المدنى الأخير و الشامى ، و خمس و أربعون فى الباقين - راجع روح المعانى ٧ / ١٥٧ (٢) فى ظ : السورة (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الذى . (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ختام (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المقدرة .

و لاسم السورة أتم مناسبة لمقصودها لأنه لا شیء يعدل ما فی الجنة من تجدد الخلق فانه لا يؤكل منها[1] شیء إلا عاد كما كان فی الحال، و لا يراد شیء[2] إلا وجد فی أسرع وقت، فهی دار الإبداع و الاختراع بالحقيقة وكذا النار "كلما نضجت جلودهم بدلنٰهم جلودا غيرها"؛ وكذا تسميتها بالملائكة فانهم يدعون خلقا جديدا كل واحد منهم على صورته التی أراد الله كونه عليها، لا يزاد فيها و لا ينقص. كلما أراد الله ذلك من غير سبب أصلا غير إرادته المطابقة لقدرته سبحانه و عز شأنه، و هم من الكثرة على وجه لا يحاط به "و ما يعلم جنود ربك الا هو" ﴿ بسم الله ﴾ الذی أحاط دائرة قدرته بالممكنات ﴿ الرحمن ﴾ الذی أتم بالبعث عموم الرحمة ﴿ الرحيم ٥ ﴾ الذی شرف أهل الكرامة بدوام الإقامة فی دار المقامة .

و لما أثبت سبحانه فی التی قبلها الحشر الذی هو الإيجاد الثانی، و دل عليه بجزئيات من القدرة على أشياء فی الكون، إلى أن ختم بأخذ الكفار أخذا اضطرهم إلى الإيمان بظهور الحمد لهم أتم ظهور . و بالحيلولة
٣١١ / بينهم و بين جميع ما يشتهون[3] / كما كانوا متعوا[4] فی الدنيا بأغلب ما يشتهون من كثرة الأموال و الأولاد . و ما مع ذلك من الراحة من أكثر الأنكاد، و كان الحمد يكون بالمنع و الإعدام، كما يكون بالإعطاء و الإنعام، قال تعالى ما هو نتيجة ذلك : ﴿ الحمد ﴾ أی الإحاطة بأوصاف

(١) من ظ و م و مد، و فی الأصل : فيها (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و م و مد، و فی الأصل : يشتهونه (٤) من م و مد، و فی الأصل و ظ : سقو .

الكمال

الكمال إعداما و إيجادا ﴿ لله ﴾ أي وحده .

و لما كان الإيجاد من العدم أدل دليل على ذلك، قال دالا على استحقاقه للحامد: ﴿ فاطر ﴾ أي مبتدئ و مبتدع ﴿ السموت و الارض ﴾ أي المتقدم أن له ما فيهما بأن شق العدم باخراجهما منه ابتداء [1]على غير[1] مثال سبق [كما تشاهدون. و لما كانت الملائكة إفرادا و جمعا مثل الخافقين في أن كلا منهم مبدع من العدم على غير مثال سبق -[2]] من غير مادة، و كان قد تقدم أنهم يتبرؤن من عبادة الكفرة يوم القيامة، و كان لا طريق لعامة الناس إلى معرفتهم إلا الخبر، أخبر عنهم بعد ما أخبر عما طريقه المشاهدة بما هو الحق من شأنهم. فقال مبينا بتفاوتهم في الهيئات تمام قدرته و أنها بالاختيار: ﴿ جاعل الملئكة رسلا ﴾ أي لما شاء من مراده [و -[3]] إلى ما شاء من عباده ظاهرين للأنبياء منهم و من لحق بهم و غير ظاهرين ﴿ اولي اجنحة ﴾ أي تهيؤهم لما يراد منهم؛ ثم وصف الأجنحة فقال: ﴿ مثنى ﴾ أي جناحين جناحين لكل واحد لمن لا يحتاج فيما[4] صرف فيه إلى أكثر من ذلك، و لعل[5] ذكره للتنبيه على أن ذلك أقل [6]ما يكون بمنزلة اليدين. و لما كان ذلك[6] زوجا نبه على أنه لا يتقيد بالزوج فقال: ﴿ و ثلث ﴾ أي ثلاثة ثلاثة لآخرين منهم. و لما كان لو اقتصر على ذلك لظن الحصر فيه، نبه

(١-١) من ظ و م و مد، و في الأصل: لا على (٢) زيد من ظ ومد (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و مد، و في الأصل و م: لما (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: لعله (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من ظ .

بذكر زوج الزوج على أن الزيادة لا تنحصر فقال: ﴿ و ربٰع[4] ﴾ أى أربعة أربعة لكل واحد من صنف آخر منهم.

و لما ثبت بهذا أنه فاعل بالاختيار دون الطبيعة و غيرها، و إلا لوجب كون الأشياء غير مختلفة مع اتحاد النسبة إلى الفاعل، كانت نتيجة ذلك: ﴿يزيد فى الخلق﴾ أى المخلوقات من أشياء مستقلة و من هيئات للملائكة[1] و غيرهم، و معانى لا تدخل تحت حصر من الذوات و الألوان و المقادير و الأشكال و خفة الروح و اللطافة و الثقالة و الكثافة و حسن الصوت و الصيت و الفصاحة و السذاجة[2] و المكر و السخاوة[3] و البخل و علو الهمة و سفولها - و غير ذلك مما يرجع إلى الكم و الكيف مما لا يقدر على الإحاطة به غيره سبحانه، فبطل قول من قال: إنه فرغ من الخلق فى اليوم السابع عند ما أتم خلق آدم فلم يبق هناك زيادة، كاليهود و غيرهم على أن لهذا المذهب من الضعف و الوهى[4] ما لا يخفى غير أنه سبحانه أوضح جميع السبل، و لم يدع بشىء منها لبسا: ﴿ ما يشآء ﴾ فلا بدع فى أن يوجد دارا أخرى تكون[5] لدينونة العباد، ثم علل ذلك كله بقوله مؤكدا لأجل إنكارهم البعث: ﴿ ان الله ﴾ أى الجامع لجميع أوصاف الكمال ﴿على كل شىء قدير﴾ فهو قادر على البعث فاعل له لا محالة.

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: للملائكة (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الساذجة (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الشجاعة (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الهوى (٥) زيد فى الأصل: له، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

و قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما أوضحت سورة[1] سبا أنه سبحانه مالك السماوات و الأرض، و مستحق[2] الحمد فى الدنيا و الآخرة، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه. و أنه الأهل للحمد و المستحق، إذ الكل خلقه و ملكه. و لأن السورة [الأولى -[3]] تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه و خلقه دارت آيها على تعريف عظيم ملكه، فقد أعطى داود و سليمان عليهما السلام ما هو كالنقطة من البحار الزاخرة، فلان الحديد و انقادت الرياح و الوحوش و الطير / و الجن و الإنس مذللة خاضعة " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموٰت و لا فى الارض و ما لهم[4] فيهما من شرك و ما له منهم من ظهير " - تعالىٰ ربنا عن الظهير[5] و الشريك و الند، و تقدس ملكه عن أن تحصره العقول أو تحيط به الأفهام، فتجردت [سورة -[3]] سبا لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، و تجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع و الخلق. و يشهد لهذا استمرار آى سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف و تنبيهها[6] على الابتداءات كقوله تعالىٰ " جاعل الملٰٓئكة رسلا اولى اجنحة مثنى " الآية، و قوله " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها هل من خالق غير الله يرزقكم " و قوله " افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا " الآية، و قوله " الله الذى أرسل[7] الريح فتثير سحابا " / ٣١٢

---

(١) سقط من ظ (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : يستحق (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : له - خطأ (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل : النظير (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل : تنبيها. (٧) من م و مد و القرآن الكريم ؛ و فى الأصل و ظ : يرسل .

الآية " و الله خلقكم من تراب يولج اليل فى النهار و يولج النهار فى اليل"، " الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرت مختلفا الوانها - [١] "، " هو الذى جعلكم خلئف فى الارض" " ان الله يمسك السموت و الارض ان تزولا و لئن زالتا " فهذه عدة آيات معرفة بابتداء الخلق[٢] و الاختراع أو مشيرة و لم يقع من ذلك فى سورة سبا آية واحدة ، ثم إن سورة سبا جرت آيها على نهج تعريف الملك و التصرف فيه و الاستبداد[٣] بذلك و الإبداد ، و تأمل افتتاحها و قصة داود و سليمان عليهما السلام ، و قوله سبحانه " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة " الآيات يتضح لك ما ذكرناه و ما انجر فى السورتين مما ظاهره الخروج عن هذين الغرضين فلتحم و مستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآى - [٤]رزقنا الله الفهم عنه بمنه و كرمه[٤] - انتهى.

و لما وصف سبحانه نفسه المقدس بالقدرة الكاملة ، دل على ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من السعة و الضيق مع العجز عن دفع شيء من ذلك أو اقتناصه ، فقال[٥] مستأنفا أو معللا مستنتجا[٦] : ﴿ ما ﴾ أى مهما ﴿ يفتح الله ﴾ أى الذى لايكافئه شيء . و لما كان كل شيء من الوجود لأجل الناس قال : ﴿ للناس ﴾ و لما كان الإنعام مقصودا

---

(١) زيد من ظ وم و مد و القرآن الكريم (٢) من ظ وم ومد ، و فى الأصل : الابتداء (٣) زيدت الواو فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها . (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ وم ومد (٥) تكرر فى الأصل فقط (٦) فى ظ : مستفتحا.

٦ بالذات

بالذات محبوبا ، و كانت رحمته سبحانه قد غلبت غضبه ، صرح به فقال مبينا للشرط في موضع الحال من ضميره [أي يفتحه كائنا - [1]] : ﴿ من رحمة ﴾ أي من الأرزاق الحسية و المعنوية من اللطائف و المعارف التي لاتدخل تحت حصر دقت أو جلت فيرسلها ﴿ فلا ممسك لها ﴾ أي الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد في نفسه من[2] أنه إذا حصل له خير لايعدم من يود أنه لم يحصل ، و لو قدر على إزالته لأزاله ، و لايقدر على تأثير ما فيه .

و لما كان حبس النعمة مكروها لم يصرح به[3] ، و ترك الشرط على عمومه بعد أن فسر الشرط الأول بالرحمة دلالة على مزيد الاعتناء بها إيذانا بأن رحمته سبقت غضبه فقال : ﴿ و ما يمسك[4] ﴾ أي من رحمة أو نعمة باغلاق باب الخلق عنه ﴿ فلا مرسل له ﴾ أي الذي أمسكه بمثل البرهان الماضي في الرحمة .

و لما كان ربما ادعى أحد فجورا حال إمساك الرحمة أو[5] النقمة أنه هو الممسك قال : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد إمساكه ، فمن كان في يده شيء فليمسك ما أتى به الله حال إيجاده بأن يعدمه . و لما كان هذا ظاهرا في العزة في أمر الناس و الحكمة في تدبيرهم عمم فقال : ﴿ و هو ﴾ أي [6] هو فاعل [6] ذلك و الحال أنه وحده ﴿ العزيز ﴾ أي [3] القادر على

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد . و في الأصل : في (٣) سقط من ظ (٤) في ظ « و » (٥) زيد في الأصل : او ارساله ، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها (٦-٦) من ظ و م و مد ، و في الأصل : الفاعل .

الإمساك و الإرسال الغالب لكل شيء و لا غالب له ﴿ الحكيم ﴾ الذي يفعل في كل من الإمساك و الإرسال و غيرهما ما يقتضيه علمه به و يتقن ما أراد على قوانين الحكمة، فلا يستطاع نقض شيء منه .

و لما بين بما يشاهده كل أحد في نفسه أنه المنعم وحده، أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه، فإن الذكر يقود إلى الشكر، و هو قيد الموجود، و صيد المعدوم المفقود، فقال: ﴿ يٰأيها الناس ﴾ أي الذين[1] فيهم أهلية الاضطراب عامة ﴿ اذكروا ﴾ بالقلب و اللسان ﴿ نعمت الله ﴾ أي الذي لا منعم في الحقيقة سواه . و لما كانت نعمه عامة غامرة من كل جانب قال: ﴿ عليكم ﴾ أي في دفع ما دفع من المحن[2]، و صنع ما صنع من المنن، على ما تقدم في الفتح و الإمساك لتشكروه و لا تكفروه، و الذي يخص أهل مكة - بعد ما شاركوا به الناس - إسكانهم الحرم، و حفظهم من جميع الأمم، و تشريفهم بالبيت . و ذلك موجب لأن يكونوا أشكر الناس .

و لما أمر بذكر نعمته، أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته و حكمته، فقال منبها لمن غفل، و موبخا لمن جحد، و رادا على أهل القدر الذين ادعوا أنهم يخلقون أفعالهم، و منبها على نعمة الإيجاد الأول: ﴿ هل ﴾ و لما كان الاستفهام بمعنى النفي أكده بـ"من" فقال: ﴿ من خالق ﴾ [أي للنعم و غيرها -[3]]، و لما كانت "من"

(١) من ظ وم و مد، و في الأصل: الذي (٢) من ظ وم و مد، و في الأصل: المحض (٣) زيد من ظ و مد .

للتأكيد ، فكان "خالق" فى موضع رفع ، قرأ الجمهور قوله : ﴿غير الله﴾ بالرفع ، و جره حمزة و الكسائى على اللفظ[1] ، و عبر بالجلالة إشارة إلى أنه المختص بصفات الكمال .

و لما كان الجواب قطعا : لا ، بل هو الخالق[2] وحده ، قال منبها على نعمة الإبقاء[3] الأول : ﴿يرزقكم﴾ اى وحده . و لما كانت كثرة الرزق كما هو مشاهد مع وحدة المنبع أدل على العظمة قال : ﴿من السمآء و الارض[4]﴾ بالمطر و النبات و غيرهما . و لما بين أنه الرزاق[5] وحده انقطع أمل كل أحد من غيره حتى من نفسه فحصل[5] الإخلاص فتعين[6] أنه سبحانه الإله وحده فقال : ﴿لآ اله الا هو ﴾ فتسبب الإنكار على من عبد غيره ظاهرا أو باطنا فقال : ﴿فانى﴾ أى فمن أىّ وجه [و كيف -[7]] ﴿تؤفكون ه﴾ أى تصرفون و تقلبون عن وجه السداد فى التوحيد بهذه الوجوه الظاهرة [إلى -[7]] الشرك الذى لا وجه له .

و لما قررهم على ما تقدم و ختم بالتوحيد الذى هو الأصل الأول من أصول الدين ، نبه[8] على أنه المقصود بالذات بذكر ما يعقبه فى الأصل الثانى ، و هو الرسالة من تصديق و تكذيب ، فقال ناعيا على قريش سوء تلقيهم لآياته ، و طعنهم فى بيناته ، مسليا له صلى الله عليه و سلم .

(١) راجع نثر المرجان ٥/٥٠٢ (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : خالق . (٣) فى ظ : الإيجاد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الرازق (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بجعل (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فتيقن (٧) زيد من ظ و م و مد (٨) سقط من ظ .

عاطفا على ما تقديره : فان يصدقوك فهم جديرون [بالتصديق - ١] لما قام على ذلك من الدلائل ، و شهد به من المقاصد و الوسائل : ﴿ و ان يكذبوك ﴾ أى عنادا و قلة اكتراث بالعواقب فتأسّ باخوانك ﴿ فقد ﴾ أى بسبب أنه قد ﴿ كذبت رسل ﴾ أى بإهم من رسل ! و بنى الفعل للجهول لأن التسلية محطها وقوع التكذيب لا تعيين المكذب ، و نفى أن رسل غيره بعد وجوده بقوله : ﴿ من قبلك ﴾ و أفرد التكذيب بالذكر اهتماما بالتسلية تنبيها على أن الأكثر يكذب ، قال القشيرى : و فى هذا إشارة للحكماء و أرباب القلوب مع العوام و الأجانب من هذه الطريقة فانهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، و أهل الحقائق أبدا منهم فى مقاساة الأذية[٢] ، و العوام أقرب إلى هذه الطريقة من القراء[٣] المتقشفين .

و لما كان التقدير نفيا للتعجب[٤] من التكذيب الجارى على غير قياس صحيح /: فمن الله الذى لا أمر لأحد معه تصدر[٥] الأمور ، عطف /٣١٤
عليه قوله مهددا لمن خالف أمره : ﴿ و الى الله ﴾ أى وحده لأن له الأمور كلها ﴿ ترجع الامور ﴾ أى حسا و معنى ، فاصبر و رد الأمر إلينا بترك الأسباب إلا ما أمرك به كما فعل إخوانك من الرسل .

و لما أشعر هذا الختام باليوم الموعود ، و هو الأصل الثابت[٦] قال مهددا [به - ١] محذرا منه : ﴿ يـٰأيها الناس ﴾ أى الذين عندهم أهلية

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : و الدية . (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الفقراء (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : للتعجيب (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : نقتدر (٦) فى ظ و مد : الثالث .

للتحرك

للتحرك إلى النظر . و لما كانوا ينكرون البعث أكد قوله : ﴿ان وعد الله﴾ أي الذي له صفات الكمال و هو منزه عن كل شائبة نقص ، فهو لايجوز عليه في مجاري العادات للغنى المطلق أن يخلف الميعاد ﴿حق﴾ أي بكل ما وعد به من البعث و غيره و قد وعد أنه ردكم إليه في يوم تنقطع فيه الأسباب ، و يعرض عن الأحساب و الأنساب ، ليحكم بينكم بالعدل ، ثم سبب عن كونه حقا قوله على وجه التأكيد لأجل الإنكار أيضا : ﴿ فلا تغرنكم ﴾ أي بأنواع الخدع من اللهو و الزينة غرورا مستمر التجدد ﴿ الحيوٰة الدنيا ﴾ فانه لايليق بذي همة علية اتباع الدنيء ، و الرضى بالدون الزائل عن العالي الدائم ﴿و لا يغرنكم بالله ﴾ أي الذي لايخلف الميعاد و هو الكبير المتعالي ﴿ الغرور ﴾ أي الذي لايصدق في شيء و هو الشيطان العدو ، و لذلك استأنف قوله مظهرا في موضع الإضمار للتنفير بمدلول الوصف قبل التذكير بالعداوة و وخامة العاقبة فيما يدعو إليه مؤكدا لأن أفعال المشايعين[1] له بما يمنيهم به من نحو : إن ربكم حليم ، لايتعاظمه ذنب ، مع الإصرار على المعصية أفعال المتعقدين لصادقته : ﴿ ان الشيطٰن ﴾ أي المحترق بالغضب البعيد من الخير ﴿ لكم ﴾ أي خاصة فهو في غاية الفراغ لأذاكم ، فاجتهدوا في الهرب منه ﴿ عدو ﴾ بتصويب مكايده كلها إليكم و بما سبق له مع أبيكم آدم عليه السلام بما وصل أذاه إليكم[2] و أيضا « من عادى أباك فقد عاداك »

---

(١) من ظ و م و مد ، و في الأصل : الشائعين (٢) من ظ و م و مد ، و في الأصل : لكم .

و لما كانت عداوته تحتاج إلى مجاهدة لأنه يأتى الإنسان من قبل الشهوات، عبر بصيغة الافتعال فقال: ﴿فاتخذوه﴾ أى بغاية جهدكم ﴿عدوا﴾ و الله لكم ولى فاتخذوه وليا بأن تحروا[1] ما يغيظ الشيطان بأن تخالفوه فى كل ما يريده و يأمر به، و تتعمدوا[2] ما يرضاة الرحمن و نهجه لكم و أمركم به فتلزموه[3]، قال القشيرى: و لا يقوى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب فانه لا يغفل عن عداوتك، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة. ثم علل ذلك بقوله: ﴿انما يدعو حزبه﴾ أى الذين يوسوس[4] لهم فيعرضهم لاتباعه و الإعراض عن الله ﴿ليكونوا﴾ باتباعه كونا راسخا ﴿من اصحب السعير﴾ هذا غرضه لا غرض له سواه، و لكنه يجتهد فى تعمية ذلك عنهم بأن يقرر فى نفوسهم جانب الرجاء و ينسيهم جانب الخوف، و يريهم أن التوبة فى أيديهم و يسوف لهم بها بالفسحة فى الأمل، و الإبعاد فى الأجل، للافساد فى العمل، و الرحمن سبحانه[5] إنما يدعو عباده ليكونوا من أهل النعيم "و الله يدعوا الى دار السلم".

و لما أنهى[6] البيان فى غرض الشيطان إلى منتهاه، نبه على ما حكم
٣١٥/ به هو سبحانه فى أشياعه بقوله مستأنفا: ﴿الذين كفروا﴾ / أى غطوا

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: تحرزوا (٢) من مد، و فى الأصل و ظ و م: يتعمدوا (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فارموه (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يسوس (٥) سقط من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انتهى.

بالاتباع له بالهوى ما دلتهم عليه عقولهم و كشفه لهم غاية الكشف هذا البيان العزيز ﴿لهم عذاب شديد﴾ أى فى الدنيا بفوات غالب ما يؤملون مع تفرقة قلوبهم و انسداد بصائرهم و سفالة[1] هممهم حتى [أنهم -[2]] رضوا أن يكون[3] إلههم حجرا، و انحجاب المعارف التى لا لذاذة فى الحقيقة غيرها عنهم، و فى الآخرة بالسعير التى دعاهم إلى صحبتها.

و لما ذكر جزاء حزبه، أتبعه حزب الله الذين عادوا عدوهم فقال: ﴿و الذين امنوا و عملوا﴾ أى تصديقا لإيمانهم ﴿الصلحت﴾ و لما كان من أعظم مصايد الشيطان ما يعرض للانسان خطأ و جهلا من العصيان، لما له من النقصان ليجره[4] بذلك إلى العمد و العدوان، قال تعالى داعيا له إلى طاعته و إزالة لخجلته[5]: ﴿لهم مغفرة﴾ أى ستر لذنوبهم بحيث [6] لا عقاب و لا عتاب [6]، و ذلك معجل فى هذه الدار، و لو لا ذلك لافتضحوا وغدا، و لولا ذلك لهلكوا. و لما محاها عينا و أثرا، أثبت الإنعام فقال: ﴿و اجر كبير﴾ أى يجل عن الوصف بغير هذا الإجمال[7]، فمنه عاجل بسهولة العبادة و دوام المعرفة و ما يرونه فى القلوب من وراء اليقين، و آجل بتحقيق المسؤل من عظيم المنة، و نيل ما فوق المأمول فى الجنة.

---

(١) من ظ وم و مد، وفى الأصل: سفلة (٢) زيد من ظ وم و مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يكونوا (٤) فى ظ و مد: بهجره (٥) من ظ و مد، و فى الأصل و م: بخجاله (٦ - ٦) من ظ و مد، و فى الأصل و م: لا عتاب و لا عقاب (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الجمال.

و لما أبان هذا الكلام تفاوت الحزبين فى المآل بالهلاك و الفوز، و كان لايقدم على الهلاك أحد فيه حس، و كان الكفار يدعون أنهم الفائزون قناعة بالنظر إلى ما هم فيه، و يدعون أنهم أبصر الناس و أحسنهم أعمالا. و كذا كل عاص و مبتدع، كان ذلك سببا فى إنكار تساويهما[1]، فأنكره مبينا السبب فى ضلالهم بما فيه تسلية للمحسنين و ندب إلى الشكر[2] و حث على ملازمة الافتقار و الذل و سؤال العافية من الزلل و الزيغ فقال: ﴿ افمن ﴾ و لما كان الضار هو التزيين من غير نظر إلى فاعل معين، بنى للمفعول قوله: ﴿زين له سوٓء عمله﴾ أى قبحه الذى من شأنه أن يسوء صاحبه حالا أو مآلا بجمع مال ذاهب أو مذهوب عنه من غير خلة و بيع راحة[3] الجنة المؤبدة بمتابعة شهوة منقضية[4] و إيثار مخلوق فان على ربه الغنى الباقى؛ ثم سبب عنه [5]ما أنهى إليه[5] من الغاية فقال: ﴿ فرءاه ﴾ أى السيئ بسبب التزيين ﴿ حسنا ﴾ أى فركبه، بما أشار إليه إضافة العمل إليه، و طوى المشبه به و هو كمن أبصر الأمور على حقائقها فاتبع الحسن و اجتنب السيئ، لأن المقام يهدى إليه، و تعجيلا بكشف ما أشكل على السامع من السبب الحامل على رؤية القبيح، مُليحا بقوله مؤكدا ردا على من ينسب إلى غير الله فعلا من خير أو شر:

---

(١) من ظ و م و مد. و فى الأصل: تساويهم (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الشاكرين (٣) من م و مد. و فى الأصل و ظ: رائحة (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: مقتضية (٥ – ٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من انها له.

فان

﴿ فان ﴾ أى السبب فى رؤية الأشياء على غير ما هى عليه أن ﴿ الله ﴾ أى[1] الذى له الأمر كله ﴿ يضل من يشآء ﴾ فلا يرى شيئا على ما هو به ، فيقدم على الهلاك البين و هو يراه عين النجاة ﴿ و يهدى من يشآء ز ﴾ فلا يشكل عليه أمر و لا يفعل إلا حسنا .

و لما كان المحب من يرضى بفعل حبيبه ، سبب عن ذلك النهى لأكمل خلقه عن الغم بسبب ضلالهم فى قوله : ﴿ فلا ﴾ و الأحسن أن يقدر المشبه به هنا فيكون المعنى : أفمن غر فعمل القبيح فاعتقده حسنا لأن الله أضله بسبب أن الله هو المتصرف فى القلوب كمن بصره الله بالحقائق؟

و لما كان الجواب : لا ، ليس هما سواء سبب عنه قوله : فلا ﴿ تذهب ﴾ أى بالموت أو[2] ما يقرب منه ﴿ نفسك عليهم ﴾ أى بسبب ما هم فيه من العمى عن الجليات ﴿ حسرٰت ﴾ أى لأجل حسراتك / المترادفة /٣١٦ لأجل إعراضهم ، جمع حسرة و هى شدة الحزن على ما فات من الأمر .

و لما كان كأنه قيل : إنهم يؤذون أولياءك فيشتد أذاهم ، و كان علم الولى القادر بما يعمل عدوه كافيا فى النصرة ، قال : ﴿ ان الله ﴾ أى المحيط بجميع أوصاف[3] الكمال ﴿ عليم ﴾ أى[4] بالغ العلم ، و أكده تنبيها على أن المقام صعب ، من لم يثبت نفسه بغاية جهده زل لطول إملائه تعالى لهم[4] و حلمه[5] عنهم ﴿ بما يصنعون ه ﴾ أى مما مرنوا عليه و انطبعوا فيه من ذلك حتى صار لهم خلقا يبعد كل البعد انفكاكهم عنه .

---

(١) سقط من ظ م و مد (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : « و » (٣) فى ظ و م و مد : صفات (٤) سقط من ظ (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : حمله .

و لما أخبر تعالى أنه لا بد من إيجاد ما وعد به من البعث و غيره، و حذر كل التحذير من التهاون بأمره، و أنكر التسوية بين المصدق به و المكذب، و كان السبب فى الضلال المميت للقلوب الهوى الذى يغشى سماه العقل و يعلوه بسحابه المظلم فيحول بينه و بين النفوذ، وكان السبب فى السحاب المغطى لسماء الأرض المحي لميت الحبوب[1] الهوى، و [2] كان الإتيان به فى وقت دون آخر دالا على القدرة بالاختيار، قال عاطفا على جملة "ان و عد الله حق" المبنى على النظر، و هو الإخراج من العدم مبينا لقدرته على ما وعد به: ﴿ و الله ﴾ أى الذى له صفات الكمال لا شيء غيره من طبيعة و لا غيرها ﴿ الذىٓ ﴾ و لما كان المراد الإيجاد من العدم، عبر بالماضى مسندا إليه لأنه الفاعل الحقيق فقال: ﴿ ارسل الريح ﴾ أى أوجدها من العدم مضطربة[3] فيها، أهلية الاضطراب و السير ليصرفها كيف شاء لا ثابتة كالأرض[4]، و أسكنها ما بين الخافقين لصلاح مكان الأرض .

و لما كانت إثارتها تتجدد[5] كلما أراد أن يسقى أرضا، قال مسندا إلى الرياح لأنها السبب ، معبرا بالمضارع حكاية للحال لتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على تمام القدرة ، و هكذا تفعل العرب فيما فيه

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الجنون (٢) زيد فى الأصل و ظ: لما، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مضربة (٤) من مد، و فى الأصل و ظ و م: كارض (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تجدد .

غرابة تنبيها للسامع على ذلك و حثا له على تدبره و تصوره: ﴿فتثير﴾ أى بتحريكه لها إذا أراد ﴿سحابا﴾ أى أنه أجرى سبحانه سنته أن تظهر حكمته بالتدريج . و لما كان المراد الاستدلال على القدرة على البعث . و كان التعبير بالمضارع يرد التعنت ، عبر بالمضارع . و لما كان[1] سوق السحاب إلى بلد دون آخر و سقيه لمكان دون مكان من العظمة بمكان[2]، التفت عن الغيبة و جعله فى مظهر العظمة فقال: ﴿فسقنه﴾ أى السحاب [معبرا بالماضى تنبيها على أن كل سوق كان بعد إثارتها فى الماضى و المستقبل منه وحده أو بواسطة من أقامه لذلك من جنده من الملائكة أو غيرهم، لا من غيره - [3]]، و دل على أنه لا فرق بين البعد و القرب بحرف الغاية فقال: ﴿الى بلد ميت﴾ .

و لما كان السبب فى الحياة هو السحاب بما ينشأ عنه[4] من الماء قال: ﴿فاحيينا به الارض﴾ و لما كان المراد إرشادهم إلى القدرة على البعث الذى[5] هم به مكذبون، قال رافعا للمجاز بكل تقدير و موضحا كل الإيضاح للتصوير: ﴿بعد موتها﴾ و لما أوصل الأمر إلى غايته، زاد فى التنبيه على نعمة الإيجاد الثانى بقوله: ﴿كذلك﴾ أى مثل الإحياء لميت النبات ﴿النشور *﴾ حسا للأموات ، و معنى للقلوب و النبات . قال القشيرى:

---

(١) سقط من ظ (٢) زيدت الواو بعده فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : منه .
(٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الذين .

إذا أراد إحياء قلب يرسل أولا رياح الرجاء، و يزعج بها كوامن الإرادة، ثم ينشئ فيه[1] سحاب الاهتياج، و لوعة الانزعاج، ثم يأتي مطر الحق فينبت في القلب أزهار البسط و أنوار الروح، و يطيب لصاحبه العيش إلى أن تتم لطائف الإنس.

و لما قرر بهذا كله ما أثبته سابقا من عزته و حكمته و ثبت انه قادر على النشور [2] فثبت أن [2] له العزة في الآخرة كما شوهد ذلك في الدنيا، و كانت منافسة الناس /٣١٧ لاسيما الكفرة في العزة فوق منافستهم [في الحكمة - [3]]، و من نافس في الحكمة فانما ينافس فيها لاكتساب العزة، و كان الكفرة إنما عبدوا الأوثان ليعتزوا[4] بها كما قال "و اتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزا[5]" قال مستنتجا من ذلك: ﴿من كان﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿يريد العزة﴾ أي أن يكون محتاجا إليه غيره و هو غني عن غيره غالبا غير مغلوب ﴿فلله﴾ أي وحده ﴿العزة جميعا﴾ أي فليطلبها منه و لا يطلبها من غيره، فانه لاشيء لغيره فيها، و من طلب الشيء من غير صاحبه خاب؛ قال ابن الجوزي: و قد روى عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز فمن أراد عزة الدارين فليطع العزيز.

---

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: فيها (٢-٢) من م و مد، و في الأصل: و ثبت انه، و في ظ: فثبت أنه (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: ليفتروا (٥) راجع سورة ١٩ آية ٨١.

و لما رغب فى اقتناص العزة بعد ان أخبر أنه لاشيء فيها لغيره، دل على اختصاصه بها بشمول[1] علمه و قدرته، و بين أنها إنما تنال بالحكمة فقال: ﴿ اليه ﴾ أى[2] لا إلى غيره ﴿ يصعد الكلم الطيب ﴾ أى الجارى على قوانين الشرع عن نية حسنة و عقيدة صحيحة سواء كان سرا أو علنا لأنه عين الحكمة، فيعز صاحبه و يثيبه .

و لما أعلى رتبة[3] القول الحكيم، بـين أن الفعل أعلى منه لأنه المقصود بالذات، و القول وسيلة إليه، فقال دالا على علوه بتغيير السياق: ﴿ و العمل الصالح يرفعـه[4] ﴾ هو سبحانه يتولى رفعه، و لصاحبه عنده عز منيع و نعيم مقيم، و عمله يفوز، قال الرازى فى اللوامع: [العلم -[4]] إنما يتم بالعمل كما قيل: العلم يهتف بالعمل، فان أجاب و إلا ارتحل - انتهى، و قد قيل[5]:

لا ترض من رجل حلاوة قوله حـتى يصدق ما يقول فعال
فاذا وزنـت مقـاله بفعـاله فـتوازنا فاخـاه[6] ذاك جمـال

و لما بين ما يحصل العزة من الحكمة، بين ما يكسب الذلة و يوجب النقمة من رديء الهمة فقال: ﴿ و الذين يمكرون ﴾ أى يعملون على وجه

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: شمول (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بهذا (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد فى الأصل: فى معنى ذلك، و لم تكن الزيادة فى ظ وم و مد فحذفناها (٦) من ظ وم ومد، و فى الأصل: فارخاه.

الستر المكرات[١] ﴿ السيئات[٢] ﴾ أي يسترون قصودهم بها ليوقعوها بغتة[٣] ﴿ لهم عذاب شديد[٤] ﴾ كما أرادوا بغيرهم ذلك ، و لا يصعد مكرهم إليه بنفسه و لا يرفعه هو ، لأنه ليس فيه أهلية ذلك لمنافاته الحكمة . و لما كان ما ذكر من مكرهم موجبا لتعرف حاله هل أفادهم شيئا ؟ أخبر أنه أهلكه بعزته و دمره بحكمته فقال : ﴿ و مكر اولـئك ﴾ أي البعداء من الفلاح ﴿ هو ﴾ أي وحده دون مكر من يريد بمكره الخير فان الله ينفذه و يعلى أمره و يجعل له العاقبة تحقيقا لقوله تعالى " و يمكرون و يمكر الله و الله خير المكرين " كما أخرجكم أيها الأولياء من بيوتكم لأجل العير فأخرج[٤] الأعداء[٥] من بيوتهم فوضعهم في قليب بدر ﴿ يبور ﴾ أي يكسد و يفسد و يهلك . فدل ذلك على شمول علمه للخير و الشر من القول و الفعل الخفي و الجلي و تمام قدرته ، و ذلك معنى العزة ، و الآية من الاحتباك : حذف ما لصاحب العمل الصالح و دل عليه بذكر ما لعامل السيء ، و حذف وضعه المكر السيء و دل عليه برفعه للعمل الصالح .

و لما ذكر سبحانه ما صيرهم إليه من المفارقة[٦] في الأخلاق ، أتبعه

---

(١) من م و مد ، و في الأصل و ظ : المكريات (٢) تكرر في الأصل : بعد « يمكرون » (٣) من ظ و م و مد ، و في الأصل : بفتنة (٤) من ظ و م و مد ، و في الأصل : فاخبر (٥) زيد في الأصل : بكم ، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها (٦) من ظ و م و مد ، و في الأصل : المعاونة .

ما كانوا عليه من الوحدة فى جنس الأصل ، و أصله التراب المسلول منه [الماء -[1]] بعد تخميره فيه و إن اختلفت[2] أصنافه ، فقال مبينا لبعض آيات الأنفس / عاطفا على ما عطف عليه "و الله الذى ارسل الريح" / ١٨ الذى هو من آيات الآفاق ، منبها على أنه قادر على التمييز بعد[3] شديد المزج و أنه قدر[4] كل شيء من الأرزاق و الآجال و المصائب و الأفراح ، فلا ثمرة للمكر إلا ما يلحق الماكر من الحرج و العقوبة من الله و الضرر :[﴿و الله﴾ أى الذى له جميع صفات الكمال ؛ و لما لم يدع حاجة إلى الحصر قال - [1]] : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ أى مثلى و إن اختلفت[2] أصنافه بتكوين أبيكم منه فزجه مزجا لا يمكن لغيره تمييزه ، ثم أحاله عن ذلك الجوهر أصلا و رأسا ، و إليه الإشارة بقوله : ﴿ثم﴾ أى بعد ذلك [فى -[1]] الزمان و الرتبة[5] خلقكم ﴿من نطفة﴾ أى جعلها أصلا ثانيا مثليا من ذلك الأصل الترابى أشد امتزاجا منه ثم بعد إنهاء التدبير[6] زمانا و رتبة[7] إلى النطفة التى لا مناسبة بينها و بين التراب دلالة على كمال القدرة و الفعل بالاختيار ﴿ثم جعلكم ازواجا﴾ بين ذكور و إناث ، دلالة هى أظهر مما قبلها على الاختيار و كذب أهل

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اختلف .
(٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بين (٤) زيد فى ظ : على (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : التربية (٦) زيدت الواو بعده فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تربية .

الطبائع، و على البعث بتمييز ما يصلح [1]من التراب للذكورة[1] و الأنوثة. و لما كان الحمل أيضا مكذبا لأهل الطبائع بأنه لا يكون من كل جماع، أشار إليه بقوله مؤكدا ردا[2] عليهم إعلاما بأن ذلك إنما هو بقدرته: ﴿ و ما تحمل ﴾ أي في البطن بالحبل ﴿ من انثى ﴾ دالا بالجار على[3] كمال الاستغراق. و لما كان الوضع أيضا كذلك بأنه لايتم كلما حمل به قال: ﴿ و لا تضع ﴾ أي حملا ﴿ الا ﴾ مصحوبا ﴿ بعلمه ﴾ في وقته و نوعه و شكله و غير ذلك من شأنه مختصا بذلك كله حتى عن أمه التي هي[4] أقرب إليه، فلا يكون إلا بقدرته، فما شاء أتمه، و ما شاء أخرجه.

و لما كان ما بعد الولادة أيضا دالا على الاختيار لتفاضلهم في الأعمار مع تماثلهم في الحقيقة، دل عليه بقوله دالا بالبناء للمفعول على سهولة الأمر عليه سبحانه، و أن التعمير و النقص هو المقصود بالإسناد: ﴿ و ما يعمر من معمر ﴾ أي يزاد في عمر من طال عمره أي صار إلى طول العمر بالفعل حسا، قال قتادة: ستين. أو معنى بزيادة الفاعل المختار زيادة لولاها لكان عمره أقصر مما وصل إليه ﴿ و لا ينقص من عمره ﴾ أي المعمر بالقوة و هو الذي كان قابلا في العادة لطول العمر فلم يعمر بنقص الفاعل المختار نقصا لولاه لطال عمره. فالمعمر المذكور المراد به

(١-١) من ظ و م و مد. و في الأصل: فالتراب من الذكورة (٢) سقط من ظ (٣) زيد في الأصل: و هو، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها. (٤) في الأصل بياض، ملأناه من ظ و م و مد.

الفعل، و الذى عاد إليه[1] [الضمير -[2]] المعمر بالقوة فهو من بديع الاستخدام، و لو كان التعبير بأحد لما صح هذا المعنى، و قراءة يعقوب بخلاف عن رويس بفتح الياء و ضم القاف بالبناء للفاعل تشير إلى أن قصر العمر أكثر . و لما كان فى سياق العلم و كان أضبطه فى مجارى عاداتنا[3] ما كتب قال: ﴿ الا فى كتب[4] ﴾ مكتوب فيه «عمر فلان كذا و عمر فلان كذا و كذا، عمر فلان كذا إن عمل كذا و عمره كذا أزيد أو أنقص إن لم يعمله» .

و لما كان [4]ذلك أمرا[4] لا يحيط به العد، و لا يحصره الحد، [فكان -[2]] فى عداد ما ينكره الجهلة، قال مؤكدا لسهولته: ﴿ ان ذلك ﴾ [5]أى الأمر العظيم من كتب الآجال كلها و تقديرها و الإحاطة بها على التفصيل[5] ﴿ على الله ﴾ أى الذى له جميع العزة فهو يغلب كل ما يريده . خاصة[6] ﴿ يسير ﴾ .

و لما ذكر سبحانه أحد أصليهم: التراب المختلف الأصناف، ذكر الأصل الآخر: الماء الذى هو أشد امتزاجا من التراب، ذاكرا اختلاف صنفيه اللذين يتفرعان إلى أصناف كثيرة، منبها على فعله بالاختيار و منكرا على[7] من سوى بينه سبحانه و بين / شىء حتى أشركه به مع[8] المباعدة التى /١٩

---

(١) فى م و مد : عليه (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل : عادتنا (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الامر (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) سقط من م (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ : عن (٨) سقط من ظ .

لا شيء بعدها و الحال أنه يفرق بين هذه الأشياء المحسوسة لمباعدة ما فقال : ﴿ و ما يستوى البحرٰن ﴾ و لما كانت[1] الألف و اللام للعهد، بينه بقوله مشيرا إلى الحلو : ﴿ هذا عذب ﴾ أى طيب حلو لذيذ ملائم للطبع ﴿ فرات ﴾ أى بالغ العذوبة ﴿ سآئغ شرابه ﴾ أى هنيء مريء هو بحيث إذا شرب جاز فى الحلق و لم يتوقف بل يسهل إدخاله فيه و ابتلاعه لما له من اللذة و الملاءمة للطبع ﴿ و هذا ملح اجاج ﴾ أى جمع إلى الملوحة المرارة[2] فلا يسوغ شرابه، بل لو شرب لآلم الحلق و أجج فى[3] البطن ما هو كالنار، و المراد أنه ميزهما سبحانه بعد جمعهما فى ظاهر الأرض و باطنها، و لم يدع أحدهما يبغى على[4] الآخر، بل إذا حفر على جانب البحر الملح ظهر الماء عذبا فراتا على مقدار صلاح الأرض و فسادها.

و لما كان الملح متعذرا على الآدمى شربه، ذكر أنه خلق فيه ما حياته به مساويا فى ذلك للعذب[5] فقال : ﴿ و من كل ﴾ أى من الملح و العذب ﴿ تاكلون ﴾ من السمك المنوع إلى أنواع تفوت الحصر و غير السمك ﴿ لحما طريا ﴾ أى شهى المطعم، و لم يضر ما بالملح ما تعرفون من أصله و لا زاد فى لذة ما بالحلو ملاءمته[6] لكم. و لما ذكر

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل : كان (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : إلى (٣) سقط من ظ (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ : العذب.
(٥) زيد فى ظ الأصل : أى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٦) زيد فى الأصل : به، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

 من

من متاعه ما هو غاية فى اللين ، أتبعه من ذلك ما هو غاية فى الصلابة فقال : ﴿ و تستخرجون ﴾ أى تطلبون أن تخرجوا من الملح دون العذب [1]و توجدون ذلك الاخراج[1]، قال البغوى[2]: و قيل : نسب [اللؤلؤ-[3]] إليهما لأنه قد يكون فى البحر الملح عيون عذبة تمتزج به فيكون اللؤلؤ من ذلك . ﴿حلية تلبسونها ج﴾ أى نساؤكم من الجواهر : الدر و المرجان و غيرهما ، [4]فما قضى برخاوة[4] ذلك و صلابة هذا مع تولدهما منه إلا الفاعل المختار .

و لما كان الأكل[5] و الاستخراج من المنافع العامة عم بالخطاب ، و لما كان استقرار شىء[6] فى البحر دون غرق أمرا غريبا ، لكنه صار لشدة إلفه لايقوم بادراك أنه من أكبر الآيات دلالة على[7] القادر المختار إلا أهل البصائر ، خص بالخطاب فقال : ﴿و ترى الفلك﴾ ، أى السفن تسمى[8] فلكا لدورانه و سفينة لقشره[9] الماء ، و قدم الظرف لأنه أشد دلالة على ذلك فقال : ﴿ فيه ﴾ أى كل منهما غاطسة إلا قليلا منها .

و لما تم الكلام ، ذكر حالها المعلل بالابتغاء فقال : ﴿ مواخر ﴾

(١ - ١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ذلك الاخراج و توجدون ، و وقعت العبارة فى الأصل قبل « من الملح » (٢) فى معالم التنزيل بهامش اللباب ٥ / ٢٤٦ (٣) زيد من المعالم (٤ - ٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فاقضى روحاه - كذا (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الاصل (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كل شىء (٧) زيد فى م : انه (٨) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : سمى (٩) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : لقهره .

أى جوارى مستدبرة الريح شاقة للماء خارقة للهواء بصدرها هذه مقبلة و هذه مدبرة وجهها إلى ظهر هذه بريح واحدة؛ قال البخارى فى باب التجارة فى البحر[١] : و قال مجاهد : تمخر[٢] السفن الريح ، و "لا تمخر الريح"[٣] من السفن إلا الفلك العظام ؛ و قال صاحب القاموس : مخرت السفينة كمنع مخرا و مخورا[٤] : جرت أو استقبلت الريح فى جريتها ، و الفلك المواخر التى يسمع صوت جريها أو تشق الماء بجآجئها[٥] أو المقبلة و المدبرة بريح واحدة . و فى الحديث : إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح ، و فى لفظ : استمخروا الريح ، أى اجعلوا ظهوركم إلى الريح فانه[٦] إذا ولاها شقها بظهره فأخذت عن يمينه و يساره ، و قد يكون استقبالها تمخرا[٧] غير أنه فى الحديث استدبار[٨] - انتهى كلام القاموس . ثم علق بالمخر معللا قوله : ﴿ لتبتغوا ﴾ أى تطلبوا طلبا شديدا . و لما تقدم الاسم الأعظم فى
٣٢٠/ الآية قبلها ، أعاد الضمير عليه ليعلم شدة ارتباط هذه الآية / بالتى قبلها فقال : ﴿ من فضله ﴾ أى الله بالتوصل بذلك إلى البلاد الشاسعة للتاجر و غيرها و لو جعلها ساكنة لم يترتب عليها ذلك ، و فى سورة الجاثية ما ينفع هنا ﴿ و لعلكم تشكرون ۝ ﴾ أى [و-[٩]] لتكون حالكم بهذه

---

(١) راجع من صحيحه ١/٢٧٧ (٢) من الصحيح ، و فى الأصول : مخر (٣-٣) من ظ و م و مد و الصحيح ، و فى الاصل : لا بمخرج (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مخر (٥) من ظ و م و مد و القاموس ، و فى الأصل : بإجاجيها . (٦) فى القاموس : كأنه (٧) من القاموس ، و فى الأصول : مخرا (٨) من م و مد و القاموس ، و فى الأصل وظ : استبدار (٨) زيد من ظ و م و مد .

النعم

النعم الدالة على عظيم قدرة الله و لطفه حال من يرجى شكره .

و لما ذكر سبحانه اختلاف الذوات الدال على بديع صنعه، أتبعه تغييره المعاني آية[1] على بليغ قدرته، فقال في موضع الحال من[2] فاعل "خلقكم" إشارة إلى أن الله تعالى صور آدم حين خلق الأرض قبل أن يكون[3] ليل أو نهار[3] ثم نفخ فيه الروح آخر يوم الجمعة بعد أن خلق النور يوم الأربعاء، فلم يأت على الإنسان حين من الدهر و هو مقدار حركة الفلك إلا و هو شيء مذكور: ﴿ يولج ﴾ أي يدخل على سبيل الجولان ﴿ الّيل في النهار ﴾ فيصير الظلام ضياء .

[4]و لما كان هذا الفعل في غاية الإعجاب، و كان لكثرة تكراره قد صار مألوفا فغفل عما فيه من الدلالة على تمام القدرة: نبه عليه بإعادة الفعل فقال[4]: ﴿ و يولج النهار في الّيل ﴾ فيصير ما كان ضياء ظلاما. و تارة يكون التوالج[5] بقصر هذا و طول هذا، فدل كل ذلك على أنه تعالى فاعل بالاختيار .

و لما ذكر الملوين ذكر ما ينشأ عنهما فقال: ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ ثم استأنف قوله: ﴿ كل ﴾ أي منهم ﴿ يجرى ﴾ و لما كان مقصود السورة تمام القدرة، و السياق هنا لقسر المتنافرات على [ما -[6]] يزيد،

---

(١) من م و مد، و في الأصل و ظ: انه (٢) زيد في الأصل: موضع، و لم تكن الزيادة في ظ و م ومد فحذفناها (٣-٣) من ظ و م ومد، وفي الأصل: ليلا اونهارا (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من ظ وم و مد، و في الأصل: انتواع (٦) زيد من ظ و م و مد .

و لذلك ختم الآية بالملك الناظر إلى القسر و القهر لم يصلح لهذا الموضع حرف الغاية فقال: ﴿ لاجل ﴾ أى لأجل أجل ﴿ مسمى[1] ﴾ مضروب له لايقدر أن يتعداه، فاذا جاء ذلك الأجل[1] غرب، هكذا كل يوم إلى أن يأتى الأجل الأعظم، فيختل جميع هذا النظام بأمر الملك العلام، و يقيم الناس ليوم الزحام، و تكون الأمور العظام .

و لما دل سبحانه على أنه الفاعل المختار القادر على كل[2] ما يريد بما يشاهده كل أحد فى نفسه و فى غيره، [و ختم -[3]] بما تتكرر مشاهدته فى كل يوم مرتين، أنتج ذلك قطعا قوله معظما بأداة البعد و ميم الجمع: ﴿ ذلكم ﴾ أى العالى المقدار الذى فعل هذه الأفعال كلها ﴿ الله ﴾ أى[4] الذى له كل صفة كمال؛ ثم نبههم على أنه لا مدبر لهم سواه بخبر آخر بقوله: ﴿ ربكم ﴾ أى الموجد لكم من العدم المربى بجميع النعم لا رب لكم سواه؛ ثم استأنف قوله: ﴿ له ﴾ أى وحده ﴿ الملك[1] ﴾ أى كله و هو مالك كل شيء[5] ﴿ و الذين تدعون ﴾ أى دعاء عبادة، ثم بين منزلتهم بقوله: ﴿ من دونه ﴾ أى [من -[3]] الأصنام و غيرها و كل شيء فهو دونه سبحانه ﴿ ما يملكون ﴾ أى فى هذا الحال الذى[6] تدعونهم فيه و كل حال يصح أن يقال فيه لكم هذا الكلام؛ و أغرق فى النفى فقال: ﴿ من قطمير[1] ﴾ و هو كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما:

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اليوم (٢) سقط من ظ و م و مد.
(٣) زيد من ظ و م و مد (٤) سقط من ظ (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م.
(٦) فى م: الذين.

لفاقة النواة[1]، و هى القشرة الرقيقة الملتفة عليها، كناية عن أدنى الأشياء، فكيف بما فوقه [2] و ليس لهم شيء من الملك، فالآية من الاحتباك: ذكر الملك أولا دليلا على حذفه ثانيا، و الملك ثانيا دليلا على حذفه أولا[2]: ثم بين ذلك بقوله: ﴿ ان تدعوهم ﴾ أى المعبودات من دونه دعاء عبادة أو استغاثة ﴿ لايسمعوا ﴾ أى بحس السمع فى وقت من الأوقات ﴿دعآءكم ج ﴾ لأنهم جماد ﴿و لو سمعوا﴾ فى المستقبل ﴿ ما استجابوا لكم[4] ﴾ لأنهم إذ ذاك يعلمون أن إجابتكم لا ترضى الله، و هم مما أبى أن يحمل الأمانة و يخون فيها بالعمل بغير ما يرضى الله / سبحانه، أو يكون المعنى: و لو فرض أنه يوجد[3] لهم سمع، أو و لو كانوا / ٣٢١
سامعين - ليدخل فيه من عبد من الأحياء - ما لزم من السماع إجابة، لأنه لا ملازمة بين السمع و النطق، [و لا بين السمع و النطق -[4]] مع القدرة على ما يراد من السامع[5]، فان البهائم تسمع و تجيب، و [6]المجيبون غيره[6] يجيبون و لا قدرة لهم على أكثر ما يطلب منهم.

و لما ذكر ما [هو على سبيل الفرض، ذكر ما - [7]] يصير إليه بينهم و بينهم الأمر فقال: ﴿ و يوم القيمة ﴾ أى حين ينطقهم الله[8]

(١) نسبه البخارى إلى مجاهد - راجع ٢ / ٧٠٩ من صحيحه (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لم يوجد (٤) زيد من م و مد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: السماع (٦-٦) من م و مد، وفى الأصل: المجنون غيرهم، وفى ظ: المجيهون غيرهم (٧) زيد من ظ و م و مد. (٨) سقط من ظ.

﴿ يكفرون بشرككم ﴾ أى ينكرونه و يتبرؤن منه . و لما كان التقدير : قد أنبأكم بذلك الخبير ، و كانوا لا يقرون بذلك و لا يفهمونه حق فهمه و لا يعملون[1] به ، صرف الخطاب عنهم إلى من له الفهم التام و الطاعة الكاملة ، فقال عاطفا على هذا الذى هدى إلى تقديره السياق : ﴿ و لا ينبئك ﴾ أى إنباء بليغا عظيما على هذا الوجه بشيء من الأشياء ﴿ مثل خبير ﴾ أى بالغ الخبر ، فلا يمكن الطعن فى شيء مما أخبر به ، و أما غيره فلا يخبر خبرا[2] إلا يوجه إليه نقص .

و لما اختص سبحانه بالملك و نفى عن شركائهم النفع ، أنتج ذلك قوله : ﴿ يـٰأيها الناس ﴾ أى كافة ﴿ انتم ﴾ أى خاصة ﴿ الفقرآء ﴾ أى لأنكم لاتساع معارفكم و سريان[3] أفكاركم و انتشار عقولكم تكثر نوازعكم وتتفرق دواعيكم[4] فيعظم احتياجكم لشدة ضعفكم وعجزكم عظما يعد معه احتياج غيركم عدما ، و لو نكر الخبر لم يفد هذا المعنى ﴿ الى الله ﴾ أى الذى له جميع الملك ؛ قال القشيرى : و الفقر على ضربين : فقر خلقة ، و فقر صفة[5] ، فالأول عام فكل حادث مفتقر إلى خالقه فى أول حال وجوده[6] ليبديه و ينشيه ، و فى ثانيه ليديمه و يبقيه ، و أما فقر الصفة فهو التجرد . ففقر العـوام التجرد من المال ، و فقر الخواص التجرد من

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : لا يعلمون (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يخبر (٣) من ظ و م و مد . و فى الأصل : سيران (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : دواعكم (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : صنعة (٦) من ظ و م و مد . و فى الأصل : وجوه .

الإعلال، فحقيقة الفقر المحمود تجرد السر عن المعلولات[1] .

و لما ذكر العبد بوصفه الحقيق، أتبعه ذكر [الخالق باسمه الأعظم على قرب العهد بذكر الإشارة إلى الجهة التى بها وصف بما يذكر، و هى الإحاطة بأوصاف ـ[2]] الكمال فقال: ﴿و الله هو﴾ أى وحده ﴿الغنى﴾ أى[3] الذى لايتصور أن يحتاج [لا ـ[2]] إليكم و لا إلى عبادتكم و لا إلى شيء أصلا . و لما كان الغنى من الخلق لايسع غناه من يقصده، و إن وسعهم لم يسعهم عطاؤه لخوف الفقر أو لغير ذلك من العوارض، و لا يمكنه عموم النعمة فى شيء من الأشياء، فلاينفك عن نوع ذم، و كان الحمد كما قال الحرالى فى شرح الأسماء: [حسن ـ[2]] الكلية بانتهاء كل أمر و جزء، و بعض منها إلى غاية تمامه[4]. فمتى نقص جزء من كل عن غاية تمامه[5] لم يكن ذلك الكل محمودا، و لم يكن قائمه حميدا، و كان الله قد خلق كل شيء كما ينبغى، لم يعجل شيئا عن إناه[5] و قدره، و كان الذم استنقاصا يلحق بعض الأجزاء عند من لم يرها فى كلها و لا رأى كلها، فكان الذم لذلك لايقع إلا متقيدا متى أخذ مقتطعا من كل، و الحمد لايقع إلا فى كل لم يخرج عنه شيء، فلا حمد فى بعض و لا ذم فى كل، و لا حمد إلا فى كل. و لذلك قال الغزالى: الحميد من العباد من حمدت عوائده و أخلاقه و أعماله كلها من غير مثنوية . و كان سبحانه

---

(١) من م ومد، و فى الأصل و ظ: المعلومات (٢) زيد من ظ و م و مد .
(٣) سقط من ظ (٤) من ظ وم ومد، وفى الأصل: تمامه (٥) من م ومد، و فى الأصل و ظ: اياه .

قد أفاض نعمه على خلقه ، و أسبغها ظاهرة و باطنة ، و جعل لهم قدرة على تناولها ، لايعوق عنه إلا قدرته " و ما كان عطاء ربك محظورا " و كان لاينقص ما عنده ، كان إعطاؤه[1] حمدا و منعه حمدا ، لأنه لا يكون مانعا لغرض / بل لحكمة تدق عن الأفكار فقال[2] : ﴿ الحميد ﴾ أى /٣٢٣ كل شيء بنعمته عنده و المستحق للحمد بذاته ، فأنتج ذلك قطعا تهديدا لمن عصاه و تحذيرا شديدا : ﴿ ان يشا يذهبكم ﴾ أى جميعا ﴿ و يات بخلق جديد ﴾ أى غيركم لأنه على كل شيء قدير ﴿ و ما ذلك ﴾ أى الأمر العظيم من الإذهاب و الإتيان ﴿ على الله ﴾[3] المحيط بجميع صفات الكمال [خاصة - [4]] ﴿ بعزيز ﴾ أى بممتنع و لا شاق ، و هو محمود عند الإعدام كما هو محمود عند الإيجاد .

و لما أنهى سبحانه بيان الحق بالدلائل القاطعة و البراهين الساطعة بالتهديد بالأخذ ، و كان الأخذ على وجه التهديد عقابا ، و كان العقاب لا يكون حكمه إلا عند الذنب ، قال دالا على أنه لاينفك أحد عما يستحق به العقاب[5] : ﴿ و لا ﴾ أى يذهبكم عقوبة لكم بأوزاركم و قدرة عليكم و الحال أنه [لا - [6]] ﴿ تزر ﴾ أى تحمل يوم القيامة أو عند الإذهاب ، و لما لم تكن نفس متأهلة للحمل تخلو عن وزر تحمله ، و المعصوم

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عطاؤه (٢) فى ظ : قال (٣) زيد فى ظ : اى (٤) زيد من ظ و مد (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) زيد من ظ و م و مد .

من عصم الله، قال: ﴿وازرة﴾ دون نفس، أى لا تحمل حاملة من جهة الإثم ﴿وزر﴾ أى حمل و ثقل ﴿اخرىٰ﴾ لتعذب بـــه، بل[1] كل واحد منكم له مما كسبت يداه ما تقوم به عليه الحجة فى الأخذ مباشرة و تسببا مـــع تفاوتكم فى الوزر، و لا يحمل أحد إلا ما اقترفه هو، لا تؤخذ[2] نفس بذنب أخرى الذى يخصها كما تفعل جبارة الدنيا.

و لما أثبت أنه لا يؤخذ[3] أحد إلا بوزر، و نفى أن يحمل أحد وزر غيره[4]، و كان ربما أوهم أن ذلك خاص ببعض الأحوال أو الأشخاص، و كان عظم الوزر يوجب عظم الأخذ، نفى ذلك الإيهام[5] و دل على القدرة على المفاوتة بينهم فى الأجر و إن كان أخذهم فى آن واحد بقوله: ﴿و ان تدع﴾ أى نفس ﴿مثقلة﴾ أى بالذنوب سواء كانت كفرا أو غيره، أحدا ﴿الى حملها﴾ أى الخاص بها من الذنوب التى ليست على غيرها بمباشرة و لا تسبب ليخفف عنها فيخفف عنها العذاب بسبب خفته ﴿لا يحمل﴾ [أى -[6]] من حامل ما ﴿منه شىء﴾ أى لا طواعية و لا كرها. بل لكل إمرئ شأن يغنيه أصلا و تسببا ﴿و لو كان﴾ ذلك الداعى أو المدعو للحمل ﴿ذا قربىٰ﴾ لمن دعاه، و حاصل الأولى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره بل بذنب نفسه، و الثانية[7] أنه لا يحط عن أحد ذنبه ليسلم.

---

(١) فى ظ: من (٢) من ظ وم و مد، و فى الأصل: لا تواخذ (٣) من ظ وم و مد، و فى الأصل: لا يواخذ (٤) فى ظ: اخرى (٥) فى م و مد: الابهام.
(٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من ظ وم و مد، و فى الأصل: الثانى.

و لما كان هذا أمرا - مع كونه جليا - خالعا للقلوب ، فكان بحيث يشتد تعجب السامع ممن يسمعه و لايخشى ، فقال مزيلا لهذا العجب على سبيل النتيجة : ﴿ انما تنذر ﴾ أى إنذارا[1] يفيد الرجوع عن الغيّ ، فلاختصاصهم بالنفـع كانوا كأنهم مختصون بالإنذار ، و هو كما قال القشيرى : الإعلام بموضع المخافة . ﴿ الذين يخشون ﴾ أى يوقعون هذا الفعل فى الحال و يواظبون عليه فى الاستقبال . و لما كان أعقل الناس من خاف[2] المحسن لأن أقل عقابه قطع إحسانه قال : ﴿ ربهم ﴾ .

و لما كان أوفى الناس عقلا و أعلاهم همة و أكرمهم عنصرا من كانت غيبته[3] مثل حضوره ، و كان لا يحتاج - مع[4] قول الداعى و ما يظهر له من سمته و حسن قوله و فعله - إلى آية[5] يظهرها و لاخارقة يبرزها ، و إنما إيمانه تصديقا للداعى فى إخباره بالأمر المغيب من غير كشف غطاء قال : ﴿ بالغيب ﴾ أى حال كونهم غائبين عما دعوا إليه و خوفوا به ، أو حال كونه غائبا عنهم او غائبين عمن يمكن مراآته ، فهم مخلصون فى خشيتهم سواء بحيث لايطلع عليهم إلا الله ، و لانعلم[6] أحدا وازى خديجة / و الصديق رضى الله عنهما فى ذلك . و لما كانت /٣٢٣

(١) فى ظ : انذار (٢) زيد فى الأصل : عقاب ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيد فى الأصل : غيبة ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مثال (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : انه (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لا يعلم .

الصلاة

الصلاة جامعة لخضوع الظاهر و الباطن، فكانت أشرف العبادات، و كانت إقامتها بمعنى حفظ[1] جميــع حدودها فى كل حال أدل الطاعات على الإخلاص، قال معبرا بالماضى لأن مواقيت الصلاة مضبوطة: ﴿و اقاموا﴾ [2]أى دليلا على خشيتهم[2] ﴿الصلوٰة﴾ [3]فى أوقاتها الخمسة و ما يتبع ذلك من السنن[3].

و لما كان التقدير: فمن كان على غير ذلك تدسى، و من كان على هذا فقد تزكى، و من تدسى فانما يتدسى على نفسه، عطف عليه قوله، مشيرا بأداة التفعل إلى أن النفس أميل[4] شىء إلى الدنس، فلا تنقاد إلى أحسن تقويم إلا باجتهاد عظيم. ﴿و من تزكّٰى﴾ اى تطهر و تكثر بهذه المحاسن. و لما كان الإنسان ليفيده بالأسباب القريبة قد يغفل عن أن هذا نفع[5] له و خاص به أكده فقال: ﴿فانما يتزكّٰى لنفسه﴾ فانه لايضر و لاينفع فى الحقيقة غيرها ﴿و الى الله﴾ الذى يكشف عن جميع صفاته أتم كشف تحتمله العقول يوم البعث لا إلى غيره ﴿المصير ۝﴾ كما كان منه المبدأ فيجازى كلا عــلى فعله فينصف بينك و بين من خشى[6] ربه بانذارك و من أعرض عن ذلك.

و لما كان التقدير: فما يستوى فى الطبع و العقل المتدسى[7] الذى هو أعمى بعصيانه فى الظلمات و لا المتزكى الذى هو بطاعاته بصير فى

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بحفظ (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من مد (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اصل (٥) من ظ و م ومد، و فى الأصل: يقع (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يخشى (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: للتدسى.

النور و إن استويا فى الإنسانية ، عطف عليه ما يصلح أمثلة للتدسى و المتزكى و ما يكون به التدسية و التزكية ، دلالة على تمام قدرته الذى السياق له من أول السورة ، و تقريرا لأن الخشية و القسوة بيده إبطالا لقول من يسند الأمور إلى الطبائع قوله : ﴿ و ما يستوى ﴾ أى فى حالة من الأحوال . و لما كان المقام لوعظ المشركين ، و كان المتدسى قبل المتزكى على ما قرر قبله ، ناسب أن ينظم على هذا الترتيب قوله مثالا للكافر و المؤمن و الجاهل [و العالم ، و قدم مثال الجاهل - [1]] لأن الأصل عند الإرسال الجهل : ﴿ الاعمى و البصير ﴾ أى لا الصنفان و لا أفرادهما و لا أفراد صنف منهما ، و أغنى عن إعادة النافى ظهور المفاوتة بين أفراد كل صنف من الصنفين ، فالمعنى أن الناس غير مستوين فى العمى و البصر[2] بل بعضهم أعمى و بعضهم بصير ، لأن افتعل هنا لمعنى تفاعل ، و لعله عبر به دلالة على النفى[3] و لو وقع اجتهاد[4] فى أن لا يقع ، أو دلالة على [ان - [1]] المنفى إنما هو التساوى من كل جهة ، لا فى أصل المعنى و لو كان ذلك مستندا إلى الطبع لكانوا على منهاج واحد [بل - [1]] و أفراد كل متفاوتون[5] فتجد بعض العمى يمشى بلا قائد فى الأزقة المشكلة ، و آخر لايقدر على المشى فى بيته إلا بقائد ، و آخر يدرك من الكتاب إذا جسه كم مسطرته من سطر ، و هل خطه حسن أو لا ،

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : البصير .
(٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المنفى (٤) فى ظ : اجتهادا (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : متفاوتون .

و آخر يدرك الدرهم الزيف من غيره، و يميز ضرب كل بلد من غيره، و ربما نازعه أحد مغالطة فلا يقبل التشكيك، و آخر في غاية البعد عن ذلك، و أما البصراء فالأمر فيهم واضح في المفاوتة في أبصارهم و بصائرهم، و كل ذلك دليل واضح على أن الفاعل قادر مختار يزيد في الخلق ما يشاء، و إلا لتساوت الأفراد فكانوا على منهاج واحد.

و لما كان هذا[١] من أغرب الأمور و إن غفل عنه لكثرة إلفه، نبه على غرابته و مزيد ظهور القدرة فيه بتكرير / النافي[٢] في اشباهه[٣] و على أن / ٣٢٤ البصر لا ينفذ إلا في الظلمة، تنبيها على أن المعاصي تظلم قلب المؤمن و إن كان بصيرا، و قدم الظلمة لأنها أشد إظهارا لتفاوت البصر مع المناسبة للسياق على ما قرر، فقال في عطف الزوج على الزوج و عطف الفرد على الفرد جامعا تنبيها على أن طرق الضلال يتعذر حصرها: ﴿ و لا الظلمٰت ﴾ [٤]التي هي مثال للأباطيل؛ و أكد بتكرير النافي كالذي قبله لأن المفاوتة بين افراد الظلمة و افراد النور خفية، فقال منبها على أن طريق الحق واحدة تكذيبا لمن قال من الزنادقة: الطرق [٥]إلى الله[٥] بعدد أنفاس الخلائق: ﴿ و لا النور ﴾ الذي[٦] هو مثال للحق، فما أبدعهما على هذا التضاد إلا الله تعالى الفاعل المختار، و فاوت[٧] بين أفراد النور

(١) بين سطرى م: أى عدم استواء في العمى و البصر (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: الفاء - خطأ (٣) بين سطرى م: أى في العمى و البصر.
(٤) زيد في ظ: اى (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: اى (٧) من ظ و م و مد. و في الأصل: فوات.

و أفراد الظلمة، فما يشبه نور الشمس نور القمر و لا شىء منهما نور غيرهما من النجوم[1] و لا شىء من[2] ذلك نور السراج - إلى غير ذلك من الأنوار، و إذا اعتبرت أفراد الظلمات وجدتها كذلك، فان الظلمات إنما هى ظلال، و بعض الظلال أكثف من بعض.

و لما كان الظلام ينشأ عن الظلال، و هو نسخ النور، قدمه فقال مقدما مثال الخير لأن الرحمة سبقت الغضب: ﴿و لا الظل﴾ أى برده[3] الذى هو مرجع المؤمن فى الآخرة ﴿و لا الحرور ﴿٢١﴾﴾ أى بوهجها، و هى مرجع الكافر، قال البغوى[4]: قال ابن عباس رضى الله عنهما: هى الريح الحارة بالليل، وكذا قال فى القاموس و زاد: و قد يكون بالنهار و حر الشمس و الحر الدائم و النار، فانتفى حكم الطبائع قطعا.

و لما كان المظهر لذلك كله الحياة، قدمها فقال مثالا آخر للمؤمنين[5]، و لذلك أعاد الفعل و هو فوق التمثيل بالأعمى [6]و البصير، لأن الأعمى[6] يشارك البصير فى بعض الإدراكات، و صار للمؤمن و الكافر مثالان ليفيد الأول نفى استواء الجنس بالجنس مع القبول للحكم على الأفراد، و الثانى بالعكس و هو للنفى فى الأفراد مع القبول للجنس: ﴿و ما يستوى الأحياء﴾ أى لأن منهم الناطق و الأعجم، و الذكى و الغبى، و السهل و الصعب،

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: البحور (٢) زيد فى الأصل و م: غير، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يبرزه (٤) راجع معالم التنزيل ٥ / ٢٤٧ (٥) من ظ و مد، و فى الأصل و م: للمؤمن (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من ظ.

فلا

فلا يكاد يتساوى حيان في جميع الحلال[1] ﴿و لا الاموات ط﴾ أي[2] الذين هم مثال للكافرين في صعوبة الموت و سهولته و البلى و غيره مما يخفى و لا يقر به الكفار من الشقاوة و السعادة.

و لما كان ما ذكر على هذا الوجه - من [3]وضوح الدلالة[3] على الفعل بالاختيار و على ضلال من أشرك به شيئا لأنه لا يشابهه شيء - بمكان ليس معه خفاء، و من الإحكام بحيث لا يدانيه كلام يعجب السامع ممن يأباه، فقال مزيلا عجبه مقررا[4] أن الخشية و القسوة إنما هما بيده، و أن الإنذار إنما هو [لمن - [5]] قضى بانتفاعه، مسليا لنبيه صلى الله عليه و سلم، مؤكدا ردا على من يرى لغيره سبحانه فعلا من خير أو شر: ﴿ان الله﴾ أي القادر على المفاوتة بين هذه[6] الأشياء و على كل شيء بما له من الإحاطة بصفات الكمال، و عبر بالفعل إشارة إلى[7] القدرة على ذلك في كل وقت أراده سبحانه فقال: ﴿يسمع من يشآء ج﴾ أي فيهديه و لو لم يكن له قابلية في العادة كالجمادات، و يصم من يشاء فيعميه و ينكسه و يرديه من أحياء القلوب و الأرواح، و أموات المعاني و الأشباح، و المعنى [أن - [5]] إسماعهم[8] لو كان مستندا إلى الطبائع لاستووا إما بالإجابة

---

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: الخلائق (٢) سقط من ظ و م و مد.
(٣ - ٣) من ظ و م و مد. و في الأصل: رضوع الدلائل (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: مقرا (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: هذا (٧) زيد في الأصل و ظ: ان، و لم تكن الزيادة في م و مد فحذفناها (٨) زيدت الواو في الأصل، و لم تكن في ظ و م و مد فحذفناها.

/٣٢٥ أو الإعراض / لأن نسبة الدعوة و إظهار المعجزة إليهم على حد[1] سواء، فالآية تقرير [آية -[2]] " انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ".

و لما كان المعرض قد ساوى الميت فى حاله التى هى عدم الانتفاع بما يرى و يسمع من الخوارق، فكان كأنه ميت، قال معبرا بالاسمية تنبيها على عدم إثبات[3] ذلك له صلى الله عليه و سلم: ﴿ و مآ انت ﴾ أى بنفسك من غير إقدار الله لك، و أعرق فى النفى فقال: ﴿بمسمع﴾ [4] أى بوجه من الوجوه[4] ﴿من فى القبور ﴾ [أى -[2]] الحسية و المعنوية، إسماعا ينفعهم بل الله يسمعهم إن شاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و الآية دليل على البعث.

و لما كان هذا خاصة الإله، أشار إلى نفيه عنه مقتصرا على وصف النذارة، إشارة إلى أن أغلب الخلق موتى القلوب، فقال مؤكدا للرد على من يظن أن النذير يقدر على هداية أو غيرها إلا باقداره: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ انت الا نذير ﴾ [أى -[2]] تنبه القلوب الميتة بقوارع الإنذار، و لست بوكيل يقهرهم على الإيمان.

و لما كان صلى الله عليه و سلم نبى الرحمة، وكان الاقتصار على هذا الوصف ربما أوهم غير ذلك، أتبعه قوله [5] بيانا لعظمته صلى الله[5]

(١) سقط من ظ (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ثبات (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م.

[1]عليه و سلم بالالتفات إلى مظهر العظمة لأن عظمة الرسول من عظمة المرسل فنذارته رحمة[1]: ﴿ انآ ﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿ ارسلنك ﴾ أى إلى هذه الأمة إرسالا مصحوبا ﴿ بالحق ﴾ أى الأمر الكامل فى الثبات الذى يطابقه الواقع، فان من نظر إلى كثرة ما أوتيته من الدلائل علم مطابقة الواقع لما تأمر به، و التقدير [بالمصدر -[2]] يفهم أن الرسالة حق، و كلا من المرسل و الرسول محق ﴿ بشيرا ﴾ أى لمن أطاع ﴿ و نذيرا[4] ﴾ أى لمن عصى، و العطف بالواو للدلالة على العراقة فى كل من الصفتين.

و لما كان مما يسهل القياد و يضعف الجماح[3] التأسية، قال مؤكدا دفعا لاستبعاد الإرسال إلى جميع الأمم: ﴿ و ان ﴾ أى و الحال أنه ما ﴿ من امة ﴾ من الأمم الماضية ﴿ الا خلا فيها نذير ۝ ﴾ أرسلناه إليهم بشيرا و نذيرا إما بنفسه و إما بما أبقى فى[4] أعقابهم من شرائعه من [5]أقواله و أفعاله[5] و رسومه مع ما لهم من العقول الشاهدة بذلك، و النذارة دالة على البشارة، و اقتصر عليها لأنها هى التى تقع بها التسلية لما فيها من المشقة، ولأن[6] من الأنبياء الماضين عليهم السلام من تمحضت دعوته للنذارة لأنه [لم -[7]] ينتفع أحد ببشارته لعدم اتباع أحد منهم له[8].

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الجماع (٤) فى ظ: من (٥ - ٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: أفعاله و أقواله (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: ان.
(٧) زيد من ظ و مد (٨) العبارة من « و لأن » إلى هنا ساقطة من م.

و لما كان صلى الله عليه و سلم شديد الأسف على إبائهم رحمة لهم و خوفا من أن يكون ذلك لتقصير فى حاله، و كان التقدير: فان يصدقوك فهو حظهم[1] فى الدنيا و الآخرة، عطف عليه تأسية له و تسلية قوله[2]: ﴿و ان يكذبوك فقد﴾ أى فتسل لأنه قد ﴿كذب الذين﴾ و لما كان المكذبون بعض الناس، فلزم لذلك أن يكونوا[3] فى بعض الزمان، دل على ذلك بالجار فقال: ﴿من قبلهم ج﴾ أى ما أتتهم به رسلهم عن الله.

و لما كان قبول الرسل لما جاءهم عن الله و نفى التقصير فى الإبلاغ عنهم دالا على علو شأنهم و سفول أمر المكذبين من الأمم، و كل[4] ذلك دالا على [تمام ـ[5]] قدرة الله تعالى فى المفاوتة بين الخلق، قال دالا على أمرى العلو و السفول استئنافا[6] جوابا لمن كأنه قال: هل كان تكذيبهم عنادا أو لنقص فى[7] البيان: ﴿جآءتهم﴾ أى الأمم الخالية ﴿رسلهم بالبينٰت﴾ أى الآيات الواضحات[8] فى الدلالة على صحة الرسالة. و لما كان التصديق بالكتاب / لازما لكل من بلغه [أمره ـ[9]]، /٣٢٦ و كانت نسبة التكذيب إلى جميع الأمم أمرا معجبا، كان الأمر حريا بالتأكيد لئلا يظن أنهم ما كذبوا إلا لعدم الكتاب، فأكد باعادة الجار

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: حفظهم (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لقوله (٣) من ظ وم و مد، و فى الأصل: يكون (٤) سقط من ظ. (٥) زيد من ظ و مد (٦) العبارة من هنا إلى « فى البيان » ساقطة من م. (٧) من ظ و مد، و فى الأصل: من (٨) فى ظ: الموضحات (٩) زيد من ظ و م و مد.

فقال

فقال: ﴿ و بالزبر ﴾ أى الأمور المكتوبة من الصحف و نحوها من السنن و الأسرار ﴿ و بالكتب ﴾ أى جنس الكتاب كالتوراة و الإنجيل ﴿ المنير ﴾ أى الواضح فى نفسه الموضح لطريق الخير و الشر كما أنك أتيت قومك بمثل ذلك و إن كان[1] طريقك أوضح و أظهر، و كتابك أنور و أبهر و أظهر و أشهر.

و لما سلاه، هدد من خالفه و عصاه بما فعل فى تلك الأمم فقال، [صارفا القول إلى الإفراد دفعا لكل لبس -[2]]، مشيرا بأداة التراخى إلى أن طول الإمهال ينبغى أن يكون سببا للانابة لا للاغترار بظن الإهمال: ﴿ ثم اخذت ﴾ أى بأنواع الأخذ ﴿ الذين كفروا ﴾ أى ستروا تلك الآيات المنيرة بعد طول صبر الرسل عليهم و دعائهم لهم.

و لما كان أخذ من قص أخباره منهم عند العرب شهيرا، و كان على وجوه من النكال معجبة، سبب عنه السؤال بقوله: ﴿فكيف كان نكير ﴾ أى إنكارى عليهم، أى أنه إنكار يجب السؤال عن كيفيته لهوله و عظمه. و المعنى كما قال القشيرى: و لئن أصروا على سنتهم فى الغى فلن تجد لسنتنا تبديلا فى الانتقام و الخزى.

و لما كان من أغرب الأشياء الدالة على تمام القدرة الدال[3] على الوحدانية أن يكون [4] شيء واحد [4] سببا لسعادة قوم و هداهم، و شقاوة قوم و ضلالهم [5] و عماهم [5] و كان ذلك، أمرا دقيقا و خطبا جليلا، لا يفهمه

---

(١) فى ظ: كانت (٢) زيد من ظ و مد (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الدالة (٤ - ٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: شيئا واحدا (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م.

حق فهمه إلا أعلى الخلائق ، ذكر المخاطب بهذا[1] الذكر ما يشاهد من آيته ، فقال على طريق الاستخبار لوصول المخاطب إلى رتبة أولى الفهم بما ساق من ذلك سبحانه على طريق الإخبار فى قوله " الله الذى ارسل الريح " [و لفت القول إلى الاسم الأعظم دلالة على عظمة ما فى حيزه –[2]] : ﴿ الم تر ان الله ﴾ أى الذى له جميع صفات الكمال ﴿ انزل من السمآء ﴾ أى التى لا يصعد إليها الماء و لا يستمسك عن الهبوط منها فى غير أوقاته إلا بقدرة باهرة لا يعجزها شىء ﴿ مآءً ج ﴾ أى لا [شىء –[3]] يشابهه فى مماثلة بعضه لبعض ، فلا قدرة لغيره سبحانه على تمييز[4] شىء منه إلى ما يصلح لشىء دون[5] آخر .

و لما كان هذا أمرا فائتا لقوى العقول ، نبه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال[6] : ﴿ فاخرجنا ﴾ [أى –[2]] بما لنا من العظمة[7] ﴿ به ﴾ أى الماء من الأرض ﴿ ثمرٰت ﴾ أى متعددة الأنواع ﴿ مختلفا الوانها ط ﴾ أى ألوان أنواعها و أصنافها و هيئاتها و طبائعها ، فالذى قدر على المفاوتة بينها و هى من ماء واحد لا يستبعد عليه أن يجعل الدلائل بالكتاب و غيره نورا لشخص و عمى لآخر .

(١) سقط من ظ (٢) زيد من ظ و مد (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تمييزه (٥) زيد فى الأصل : شىء ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٦) زيد فى الأصل : ماء ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : القدرة .

و لما ذكر تنوع[1] ما عن الماء و قدمه لأنه الأصل فى التلوين[2] كما أنه الأصل فى التكوين، أتبعه التلوين عن التراب الذى هو أيضا شيء واحد، فقال ذاكرا ما هو أصلب الأرض و أبعدها[3] عن قابلية التأثر و قطعه عن الأول لأن الماء لا تأثير له فيه: ﴿ و من ﴾ [4] أى و مما خلقنا من[4] ﴿ الجبال جـــدد ﴾ أى طرائق[5] و علامات و خطوط متقاطعة ﴿ بيض و حمر ﴾ و لعله عبر عنها بذلك دون طرق إشارة إلى أن من غرابتها أنها لا تخلق و لا تضمحل ألوانها على طول الأزمان كما هو العادة فى غالب ما يتقادم عهده، و الجد بالفتح، و الجدة بالكسر، و الجدد بالتحريك: وجه الأرض، و جمعه جدد كسرر، و الجدة بالضم: الطريقة و العلامة و الخط فى ظهر الحمار يخالف لونه و جمعه جدد كغدة و غدد و عدة و عدد و مدة و مدد، و الجدد / محركة: ما أشرف من الرمل / ٣٢٧
و شبه السلعة بعنق البعير، و الأرض الغليظة المستوية، و الجدجد بالفتح: الأرض المستوية.

و لما كان أبلغ من ذلك أن تلك الطرق فى أنفسها غير متساوية المواضع فى ذلك اللون الذى تلونت به، قال تعالى دالا على[6] أن كلا من هذين اللونين لم يبلغ الغاية[7] فى الخلوص: ﴿ مختلف الوانها ﴾ و هى

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: نبوع (٢) فى ظ: التكوين (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ابعد (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من م ومد، وفى الأصل وظ: طريق (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عن.
(٧) من ظ و م و مد. و فى الأصل: القرابة.

من الأرض و هى واحدة . و لما قدم ما كان مستغربا فى ألوان الأرض لأنه على غير لونها الأصلى ، أتبعه ما هو أقرب إلى الغبرة التى هى أصل لونها . و لما كانت[1] مادة " غرب " تدور على الخفاء الذى يلزمه الغموض[2] أخذا من غروب الشمس ، و يلزم منه السواد ، و لذلك يؤكد الأسود بغربيب مبالغة الغرب كفرح أى[3] الأسود للمبالغة فى سواده ، و كان المقصود الوصف بغاية السواد مخالفة[4] لغيره ، قال تعالى عاطفا على بيض : ﴿و غرابيب﴾ أى من الجدد[5] أيضا ﴿سوده﴾ فقدم التأكيد لدلالة السياق على أن أصل العبارة[6] " و سود غرابيب سود " فأضمر الأول ليتقدم على المؤكد لأنه تابع ، و دل عليه بالثانى ليكون مبالغا فى تأكيده غاية المبالغة بالإظهار[7] بعد الإضمار ، و هو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما : [أشد –[8]] سواد الغربيب – رواه عنه البخارى ، لأن السودا الخالص فى الأرض ، مستغرب ، و منه ما يصبغ به الثياب ليس معه غـيره ، فتصير فى غاية السواد ، و ذلك فى مدينة فوة و[9] مسير و[9] غيرهما مما داناهما من بلاد مصر .

[10] و لما أكد هذا بما دل على خلوصه ، قدم ذكر الاختلاف عليه[10] ،

---

(١) فى ظ : كان (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الغرض (٣) سقط من ظ (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مخالفا (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الجود (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العبادة (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : و الاظهار (٨) زيد من ظ و م و مد و صحيح البخارى ٢ / ٧٠٩ (٩-٩) من ظ وم ومد ، و فى الأصل : سيرد (١٠ – ١٠) سقط ما بين الرقمين من ظ .

و لما

و لما ذكر تعالى ما الأغلب فيه الماء[١] مما استحال إلى آخر بعيد من الماء، و أتبعه التراب الصرف، ختم بما الأغلب فيه التراب مما استحال إلى ما [هو فى -[٢]] غاية البعد من التراب فقال: ﴿و من الناس﴾ أى المتحركين بالفعل و الاختيار ﴿و الدوآب﴾ و لما كانت الدابة فى الأصل لما دب على الأرض، ثم غلب إطلاقه على ما يركب قال: ﴿و الانعام﴾ ليعم الكل صريحا ﴿مختلف الوانه﴾ أى ألوان ذلك [البعض -[٢]] الذى أفهمته "من" ﴿كذلك﴾ أى مثل الثمار و الأراضى فمنه ما هو ذو لون واحد، و منه ما هو ذو ألوان مع أن كل ما ذكر فهو من[٣] الأراضى متجانس[٤] الأعيان مختلف الأوصاف، و نسبته إليها [و إلى السماء -[٢]] [٥]واحدة فأين[٥] حكم الطبائع.

و لما ثبت بهذا البرهان أنه سبحانه فاعل بالاختيار، فهو يفعل فيما يشاء و من يشاء ما يشاء، فيجعل الشيء الواحد لقوم نورا و لقوم عمى، و كان ذلك مرغبا فى خدمته[٦] مرهبا من سطوته [٧]سبحانه و تعالى و تقدس[٧] لكل ذى لب، و كان السياق لإنذار من يخشى بالغيب، فثبت أن الإنذار بهذا القرآن يكون لقوم أراد الله خشيتهم خشية، و لقوم أراد الله قسوتهم

---

(١) فى الأصل بياض ملأناه من ظ و م و مد (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من ظ و م و مد، وفى الأصل: فى (٤) من ظ وم و مد، و فى الأصل: مجانس (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: وحدة قل من - مصحفا.
(٦) زيدت الواو فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٧-٧) ليس ما بين الرقمين فى ظ و م و مد.

قسوة ، التفتت النفس إلى طلب قانون يعرف به من يخشى و من لايخشى ، فقال على سبيل الاستنتاج من ذلك ، دفعا لظن من يحسب أنه يمكن أن يكون ولى جاهلا : ﴿ انما يخشى الله ﴾ أى الذى له جميع الكمال ، ولا كمال لغيره إلا منه ، و دل على أن كل ما سواه فى قبضته و تحت قهره بقوله : ﴿ من عباده ﴾ ثم ذكر محط الفائدة و هو من ينفع إنذاره فقال : ﴿ العلمٰٓؤا ﴾[١] أى لا سواهم و إن كانوا عبادا و إن بلغت عبادتهم ما عسى أن تبلغ ، لأنه[١] لايخشى أحد أحدا إلا مع معرفته ، و لا يعرفه جاهل ، فصار المعنى /كأنه قيل : إنما ينفع الإنذار أهل الخشية ، و إنما يخشى /٣٢٨
العلماء ، و العالم هو الفقيه العامل بعلمه ، [قال السهروردى فى الباب الثالث من عوارفه : فينتفى العلم عمن لا يخشى الله ، كما إذا قال : إنما يدخل الدار بغدادى ، فينتفى دخول غير البغدادى الدار -[٢]] - هذا معنى القراءة المشهورة .

و لما كان سبب الخشية التعظيم و الإجلال ، و كان كل أحد لايجل إلا من أجله ، و كان قد ثبت أن العلماء يجلون الله ، و كان [سبب -[٣]] إجلالهم [٤]له إجلاله لهم[٤] ، كان هذا معنى القراءة [الأخرى - [٢]] ، فكان كأنه قيل : إنما ينفع الإنذار من يجل الله فالله يجله لعلمه ، و سئل شيخنا محقق زمانه قاضى الشافعية بمصر محمد بن على القاياتى[٥] عن توجيه هذه القراءة فأطرق يسيرا ثم رفــع رأسه فقال :

أهابك إجلالا و ما بك قدرة على و لكن ملئ[٦] عين[٦] حبيبها

---

(١) فى ظ : فانه (٢) زيد من ظ و مد (٣) زيد من ظ وم ومد (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المقاتلى (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عن .

و لما ثبت بهذا السياق أنه[1] سبحانه فاعل هذه الأشياء المتضادة باختياره، علل ذلك ليفيد أن قدرته على كل ما يريده[2] كقدرته عليه بقوله على سبيل التأكيد تنبيها على أنه سبحانه لايعسر عليه شيء و أنه أهل لأن يخشى [و لذلك أظهر الاسم الأعظم -[3]] : ﴿ ان الله ﴾ أي المحيط بالجلال و الإكرام ﴿ عزيز ﴾ أي غالب على جميع أمره . و لما كان هذا مرهبا من سطوته موجبا لخشيته لإفهامه أنه يمنع الذين [لا -[4]] يخشون من [5]رحمته، رغبهم بقوله[5] : ﴿ غفور ﴾ في أنه يمحو ذنوب[6] من يريد منهم فيقبل بقلبه إليه و هو أيضا من معاني العزة .

و لما تقرر هذا، تشوف السامع إلى معرفة العلماء فكان كأنه قيل : هم [الذين -[4]] يحافظون على كتاب الله علما و عملا، فقيل : فما لهم؟ فقال مؤكدا تكذيبا لمن يظن من الكفار و غيرهم من العصاة أنهم من الخاسرين بما ضيعوا من عاجل دنياهم : ﴿ ان الذين يتلون ﴾ أي يجددون التلاوة كل وقت مستمرين على ذلك محافظين عليه كلما نزل من القرآن شيء و بعد كمال نزوله حتى يكون ذلك ديدنهم و شأنهم بفهم و بغير فهم ﴿ كتب الله ﴾ أي الذي لاينبغي لعاقل أن يقبل على غيره لما له من صفات الجمال و الجلال . و لما ذكر السبب الذي لاسبب[7] يعادله،

---

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل : ان (٢) من ظ وم و مد، و في الأصل : يريد (٣) زيد من ظ و مد (٤) زيد من ظ و م و مد (٥-٥) من ظ و م و مد، و في الأصل : رحمة ربهم (٦) في ظ و م و مد : ذنب (٧) زيد في الأصل : له، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها .

ذكر أحسن ما يربط به، فقال دالا على المداومة بالتعبير بالإقامة و على تحقيق الفعل بالتعبير بالماضئ: ﴿ و اقاموا الصلوٰة ﴾ اى و هى الناهية عن الفحشاء و المنكر فناجوا الله فيها بكلامه . و لما ذكر الوصلة بينهم و بين الخالق، ذكر إحسانهم إلى الخلائق، فقال [دالا على إيقاع الفعل بالتعبير بالماضى، و على الدوام بالسر و العلن لافتا القول إلى مظهر العظمة تنبيها على أن الرزق منه وحده، لا بحول أحد غيره و لا غيره -[1]]: ﴿ و انفقوا مما رزقنٰهم ﴾ أى بحولنا و قوتنا لابشيء من أمرهم فى جميع ما رضينا، و دل على مواظبتهم على الإنفاق و إن أدى إلى نفاد المال[2] بقوله: ﴿ سرا و علانية ﴾ و عبر فى الأول بالمضارع لأن إنزالها كان قبل التمام و تصريحا بتكرار التلاوة تعبدا و دراسة لأن القرآن كما قال النبى صلى الله عليه و سلم أشد تفلتا من الإبل فى عقلها[3] - أخرجه مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، و فى الثانى و الثالث بالماضى حثا على المبادرة إلى الفعل، و قد تحصل من هذا أنه جعل لفعل القلب الذى هو الخشية دليلا باللسان و آخر بالأركان و ثالثا بالأموال .

و لما أحلهم بالمحل الأعلى معرفا أنهم أهل العلم الذين يخشون الله، و كان العبد لا يجب له على سيده شيء، قال منبها على نعمة الإبقاء الثانى التى هى أم النعم و النتيجة العظمى المقصودة[4] بالذات: ﴿ يرجون ﴾ أى

---

(١) زيد من ظ و م (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ماله (٣) من ظ و م و مد و صحيح مسلم ٢٦٨/١، و فى الأصل: عقالها (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المقصود .

فى

فى الدنيا و الآخرة ﴿ تجارة ﴾ أى بما عملوا ﴿ لن تبور ﴾ أي تكسد و تهلك بل[١] هى باقية ، لأنها دفعت إلى من لا تضيع لديه الودائع / و هى رائجة رابحة ، لكونه تام القدرة شامل العلم له الغنى المطلق . / ٣٢٩

و لما كان المراد بعدم هلاكها حفظها و بقاءها إلى يوم لقائه ، علله بقوله ، [مقتصرا على الضمير لأن السياق للمؤمنين ، و لذا لفته إلى ضمير الغيبة لأن إيمانهم بالغيب -[٢]] ﴿ ليوفيهم ﴾ : [أى -[٣]] لنفاقها عنده[٤] سبحانه فى الدنيا إن أراد [٥]أو فى الآخرة أو فيها[٥] ﴿ اجورهم ﴾ أى على تلك الأعمال ﴿ و يزيدهم ﴾ أى على ما جعله [بمنه و بيمنه حقا لهم عليها -[٦]] ﴿ من فضله ﴾ أى زيادة ليس لهم فيها تسبب أصلا ، بل هى بعد ما من عليهم بما قابل أعمالهم به مما يعرفون أنه جزاؤها مضاعفا للواحد عشرة إلى ما فوق . و لما كانت أعمالهم لا تنفك عن شائبة ما ، و إن خلصت فلم يكن ثوابها لأنها من منه سبحانه مستحقا ، علل توفيتهم لها بقوله مؤكدا إعلاما بأنه[٧] لا يسع الناس إلا عفوه لأنه لن يقدر الله أحد حق قدره و إن اجتهد ، ولو واخذ [٨]أعبد العباد[٨] بما يقع من[٩] [١٠]تقصيره أهلكه[١٠] ﴿ انه غفور ﴾ أى بمحو النقص عن العمل ﴿ شكور ﴾ [أى - [٦]]

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بان (٢) زيد ما بين الحاجزين من ظ و مد (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عنه . (٥-٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : و فى الارض او فيها (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) فى ظ : لأنه (٨-٨) من ظ و مد ، و فى الأصل : الناس ، و فى م : اعبد الناس (٩) سقط من ظ (١٠ - ١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تقصيرهم اهلكهم .

يقبله و يزيد عليه .

و لما كانت ترجمة الآية أن العلماء هم حملة الكتاب ، و بدأ سبحانه بأدنى درجاتهم ، و كان ذلك مما يرغب فى الكتاب ، أتبعه ترغيبا هو أعلى منه ، فقال عاطفا على قوله فى تقرير الأصل الثانى الذى هو الرسالة "انا[1] إرسلنـــك بالحق" وأكده دفعا لتكذيب المكذبين به : ﴿ و الذىٓ اوحينآ ﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿ اليك ﴾ و بين قدره بمظهر العظمة و قال مبينا للوحى[2] : ﴿ من الكتب ﴾ أى الجامع لخيرى الدارين . و لما كان الكتاب لا يطرقه[3] نوع من أنواع التغير[4] لأنه صفة من لا يتغير قال : ﴿ هو الحق ﴾ أى الكامل فى الثبات و مطابقة الواقع له لا غيره[5] من الكلام ؛ و أكد حقيته بقوله : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ أى من الكتب الماضية الآتى لها الرسل الداعون إلى الله المؤيدون بالبراهين[6] الساطعة و الأدلة القاطعة .

و لما دل سبحانه على أن العلم هو الحقيقة الثابتة ، و ما عداه فهو محو و باطل ، و دل على أن التالين لكتابه الذى هو العلم هم العلماء ، وغيرهم و إن كانوا موجودين فهم بالمعدومين أشبه . و دل على أن الكتب الماضية و إن كانت حقا[7] لكنها ليست فى كمال القرآن ، لأن الأمر

---

(١) و نسخة م من هنا ساقطة إلى ما سننبه عليه (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : للذى (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : لا يطوقه (٤) من ظ و مد ، و فى الأصل : التغيير (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : غير (٦) زيد بعده فى الأصل : الزاهرة ، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٧) زيدت الواو بعده فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و مد فحذفناها .

مادام لم يختم فالزيادة متوقعة فيه بخلاف "ما إذا"[1] وقع الختم فانه لا يكون بعده زيادة ترتقب[2]، و كان ربما تراءى لأحد فى بعض المتصفين[3] بذلك غير ذلك[4]، قال تعالى إعلاما بأن العبرة بما عنده لا بما يظهر للعباد، و أكده تنبيها على أن هذا المعنى مما تعقد عليه الخناصر و إن تراءى[5] لأكثر الناس خلافه. [أظهر الاسم الأعظم لحاجة المخبرين هنا إليه لأنهم البر و الفاجر-[6]]: ﴿ان الله﴾ أى الذى له جميع صفات الكمال. و لما كان [الإنسان -[6]] أعلم بمن[7] يربيه و لاسيما إن كان مالكا له قال: ﴿بعباده لخبير﴾ أى عالم أدق العلم و أتقنه ببواطن أحوالهم ﴿ بصير ه ﴾ أى بظواهر أمورهم و بواطنها [أى -[6]] فهو يسكن الخشية و العلم القلوب على قدر ما أوتوا من[8] الكتاب فى علمه و تلاوته و إن تراءى لهم[9] خلاف ذلك، فأنت أحقهم بالكمال لأنك أخشاهم و أتقاهم، فلذلك آتيناك هذا الكتاب، فأخشاهم بعدك أحقهم بعلمه.

و لما كان معنى الوصفين: فنحن نيسر لتلاوة كتابنا من يكون قابلا للعلم الذى هو عمود الخشية بما تعلمه منه بخبرنا[10] و بصرنا، و كان الذى ضم / إلى التلاوة الفهم فى الذروة العليا من العلم، قال عطفا على هذا الذى / ٢٣٠

(١-١) من ظ و مد، و فى الأصل: ما ذا (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: ترقب (٣) من ظ و مد، و فى الاصل: المتضعفين (٤) زيد فى ظ: كما (٥) من مد، و فى الأصل و ظ: ترى (٦) زيد من ظ و مد (٧) من ظ و مد، و فى الأصل: بما (٨) زيد فى الأصل: العلوم و من، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٩) فى ظ و مد: لكم (١٠) من ظ و مد، و فى الأصل: بخبر.

أرشد السياق إلى تقديره مشيرا بأداة البعد إلى علو رتبة أهل هذا القسم، وهم هذه الأمة الأمية على اختلاف مراتب إرثهم مع تراخي إرثهم عمن قبلهم، [صارفا القول إلى مظهر العظمة لاقتضاء الحال لها في نزع شيء من قوم وإثباته لآخرين -[1]]: ﴿ثم اورثنا﴾ أي ملكنا بعظمتنا ملكا تاما وأعطينا عطاء لا رجوع فيه، وعبر في[2] غير هذه الأمة بقوله "ورثوا الكتب" فانظر فرق ما بين العبارتين تعرف الفرق[3] بين المقامين، ويجوز أن يكون التقدير بعد أوحينا إليك: وأورثناكه ثم أورثناه[4]، ولكنه أظهر دلالة على الوصف تنبيها على تناهي جمعه للكتب الماضية، وإعلاما بأن 'من' في "اوحينا اليك من" للبيان فقال: ﴿الكتب﴾ أي[5] القرآن - باتفاق المفسرين، قاله الأصفهاني - الجامع لكل كتاب أنزلنا، فهو أم لكل خير، وقال ابن عباس كما نقله ابن الجوزي: إن الله أورث أمة محمد كل كتاب أنزله ﴿الذين اصطفينا﴾ أي فعلنا في اختيارهم فعل من يجتهد في ذلك ﴿من عبادنا ج﴾ أي أخلصناهم لنا وهم بنو إسماعيل ومن تبعهم، يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم - نقله البغوي[6] عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونقل [عن - [1]] ابن جرير[7] أنه قال: الإرث: انتقال شيء من قوم إلى قوم، فثم هنا للترتيب، لإن إيتاء[8] هذه[9] الأمة متراخ[9] عن إيتاء

(١) زيد من ظ ومد (٢) من ظ ومد، وفي الأصل: عن (٣) زيد في ظ: ما (٤) من ظ ومد، وفي الأصل: أورثنا (٥) سقط من ظ (٦) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٥ / ٢٤٨ (٧) راجع من تفسيره ٢٢ / ٨٠ (٨) من مد، وفي الأصل وظ: اتيان (٩-٩) من ظ ومد، وفي الأصل: الآية متاخر.

الأمم و نقله إليهم بعد إبطال تلك الأديان، و نسخ تلك الكتب إلا ما وافق القرآن؛ فمعنى الإيراث أنه نزع تلك الكتب من الأمم السالفة و أعطاها لهذه الأمة على الوجه الذى رضيه[1] لها، و هذا الإيراث للمجموع لا يقتضى الاختصاص بمن[2] يحفظ جميع القرآن بل [يشمل من -[3]] يحفظ منه جزءا و لو أنه الفاتحة فقط، فان الصحابة رضوان الله تعالى أجمعين لم يكن[4] كل واحد منهم يحفظ جميع القرآن و نحن على القطع بأنهم مصطفون.

و لما كان أكثر الناس لا ينفك عن تقصير كثير لما جبل الإنسان عليه من النقصان، فكان من فيه ذلك يخرج نفسه من هذا القسم، قال معرفا له بمقداره مؤنسا له بما فتح له من أنواره مستجلبا له إلى حضرة قدسه و معدن أسراره مقسما أهل هذا القسم و هم أهل الفهم إلى ثلاثة أقسام مقدما الأدنى لأنهم الأكثر و لئلا يحصل اليأس، و يصدع القلوب خوف البأس: ﴿ فمنهم ﴾ أى فتسبب عن إيراثنا لهم أن كان منهم كما هو مشاهد ﴿ ظالم لنفسه ج ﴾ أى بالتفريط و التهاون فى توفية الحق لما يقتضيه حاله من العمل غير متوق للكبائر، و هذا القسم هم أكثر الوراث و هم المرجئون لأمر الله.

و لما كان ترك الإنسان للظلم فى غاية الصعوبة، نبه على ذلك بصيغة الافتعال فقال: ﴿ و منهم مقتصد ج ﴾ أى متوسط فى العمل غير باذل

---

(١) فى ظ : رضيته (٢) من ظ و مد، و فى الأصل : عن (٣) زيد من ظ و مد.
(٤) سقط من ظ .

جميع الجهد إلا أنه مجتنب[1] للكبائر فهو مكفر عنه الصغائر، و هم الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا ﴿و منهم سابق بالخيرٰت﴾ أى العبادات و جميع[2] أنواع القربات، موف[3] للمقام الذى أقيم به حقه كلما ازداد قربا ازداد عملا، لا يكون سابقا إلا و هو هكذا، و هم السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم باحسان، و يؤيد هذا قول الحسن[4]: السابق من رجحت حسناته، [5]و المقتصد من استوت حسناته[5] / ٣٣١ و سيئاته، و الظالم من رجحت سيئاته. و ختم بالسابقين لأنهم الخلاصة، و ليكونوا أقرب إلى الجنات، كما قدم الصوامع فى سورة الحج لتكون أقرب إلى الهدم و آخر[6] المساجد لتقارب[7] الذكر، و قدم فى التوبة السابقين عقيب[8] أهل القربات من الأعراب و أخر المرجئين و عقبهم بأهل مسجد الضرار، و قدم سبحانه فى الأحزاب المسلمين و رقى الخطاب درجة درجة إلى الذاكرين الله[7] كثيرا، فهو سبحانه تارة [يبدأ - [9]] بالأدنى و تارة بالأعلى بحسب ما يقتضيه الحال كما هو مذكور فى هذا الكتاب فى محاله، و هذا [10]على تقدير[10] عود الضمير فى " منهم " على " الذين " لا على " العباد " و هو مع تأيده بالمشاهدة و ان السياق لأن أهل العلم

(١) من ظ و مد، و فى الأصل: مجتهد (٢) سقط من ظ و مد (٣) سقط من ظ (٤) ذكر قوله هذا فى معالم التنزيل بهامش اللباب ٥/٢٤٩ (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: اخراب (٧) من ظ و مد، و فى الأصل: لتقارن (٨) فى ظ و مد: عقب (٩) زيد من ظ و مد. (١٠-١٠) من مد، و فى الأصل: تقرير، و فى ظ: على.

هم التالون لكتاب الله مؤيد[1] بأحاديث لا تقصر - و إن كانت ضعيفة - عن الصلاحية لتقويــة ذلك ، فنها[2] ما رواه البغوى[3] بسنده عن ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية على المنبر و قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : سابقنا سابق ، و مقتصدنا ناج ، و ظالمنا مغفور له. و بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قرأ هذه الآية و قال : أما السابق[4] بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب ، و أما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، و أما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل[5] الجنة - ثم قرأ " الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن" . و روى بغير إسناد[6] عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : كلهم من هذه الأمة . و قال ابن الجوزى بعد أن ذكر حديث عمر رضى الله عنه بغير سند : و روى الترمذى[7] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فى هذه الآية [قال - [8]] : كلهم فى الجنة. و روى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه الحافظ ابن عساكر فى الكنى من تاريخ دمشق فى ترجمة أخى زياد أو[9] أبى زياد . و أما على عود الضمير على العباد

(١) من مد ، و فى الأصل و ظ : يريد (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : و منها (٣) راجع المعالم بهامش اللباب ٥ / ٢٤٨ (٤) من مد و المعالم ، و فى الأصل و ظ : بسابق (٥) من مد و المعالم ، و فى الأصل و ظ : يدخله (٦) فى ظ و مد : سند (٧) راجع من جامعه ٢/١٥٥ (٨) زيد من ظ و مد و الجامع. (٩) من مد ، و فى الأصل و ظ « و » .

فقال ابن عباس[١] رضى الله عنهما : السابق المؤمن المخلص[٢] ، و المقتصد المرائى ، و الظالم الكافر نعمةَ الله غير الجاحد [لها - [٣]] ، و قال قتادة[١] : الظالم أصحاب المشأمة ، و المقتصد أصحاب الميمنة ، و السابقون المقربون .

و لما كان هذا ليس فى قوة العبد فى مجارى العادات ، و لا يؤخذ بالكسب و الاجتهادات ، أشار إلى عظمته بقوله : ﴿ باذن الله[٤] ﴾ أى بتمكين من له القدرة التامة و العظمة العامة و الفعل بالاختيار و جميع صفات الكمال و تسهيله و تيسيره لئلا يأمن أحد مكره تعالى ، قال الرازى فى اللوامع : ثم من السابقين من يبلغ محل القربة فيستغرق فى وحدانيته ، و هو الفرد الذى اهـــتز فى ذكره - انتهى . ثم زاد عظمة هذا الأمر بيانا[٤] ، فقال مؤكدا تكذيبا لظنون الجاهلين لأن السابق كلما علا مقامه فى السبق قل حظه من الدنيا ، فرأى الجاهلون أنه مضيع لنفسه : ﴿ ذٰلك ﴾ أى السبق[٥] أو إراث الكتاب ﴿ هو ﴾ مشيرا بأداة [البعد - [٦]] مخصصا بضمير الفصل ﴿ الفضل الكبير[٥] ﴾ .

و لما ذكر تعالى أحوالهم ، بين جزاءهم و مآلهم ، فقال مستأنفا جوابا لمن سأل عن ذلك : ﴿ جنٰت ﴾ أى هى مسببة / عن سبب[٧] ٣٣٢ /
السبق الذى هو الفضل ، و يصح كونها بدلا من الفضل لأنه سببها ،

---

(١) ذكر قوله البغوى فى معالم التنزيل بهامش اللباب ٥ / ٢٤٨ (٢) من ظ ومد و المعالم ، و فى الأصل : الخالص (٣) زيد من المعالم (٤) زيد فى ظ ومد : وتاكيدا (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : السابق (٦) زيد من ظ ومد .
(٧) من ظ و مد ، و فى الاصل : سبق .

فكان

فكان كأنه هو الثواب ﴿ عدن ﴾ أى إقامة بلا رحيل لأنه لا سبب للرحيل عنها ﴿ يدخلونها ﴾ أى الثلاثة أصناف، و من دخلها لم يخرج منها لأنه لا شيء يخرجه و لا هو يريد الخروج على أن الضمير لـ«الذين» و من قال لـ«عبادنا» خص الدخول بالمقتصد و السابق - هذا على قراءة الجماعة[1] بفتح الياء و ضم الخاء، و على قراءة أبي عمرو بالبناء للمفعول يكون الضمير للسابق فقط، لأنهم يكونون[2] فى وقت [الحساب -[3]] على كثبان المسك و منابر النور فيستطيبون مكانهم، فاذا دعوا إلى الجنة أبطأوا فيساقون إليها كما فى آخر الزمر.

و لما كان الداخل إلى مكان أول ما ينظر إلى ما فيه من النفائس قال: ﴿ يحلّون فيها ﴾ أى يلبسون على سبيل التزين و التحلى ﴿ من اساور ﴾ و لما كان الابهام ثم البيان مزيد روعة للنفس، و كان مقصود السورة إثبات القدرة الكاملة لاثبات أتم الإبقائين[4]، شوق إلى الطاعة الموصلة إليه بأفضل ما نعرف من الحلية، فقال مبينا لنوع الأساور: ﴿ من ذهب و لؤلؤا ﴾ و لما كانت لا تليق إلا على اللباس الفاخر، قال[5] معرفا أنهم حين الدخول يكونون لابسين: ﴿ و لباسهم فيها حرير ﴾.

و لما كان المقتصد و السابق يحزنون لكمالهم و شدة شفقتهم على الظالم إذا قوصص[6]، جمع فقال معبرا بالماضى تحقيقا له[7]: ﴿ و قالوا ﴾ أى

(١) راجع نثر المرجان ٥ / ٥٣٠ (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: يكون.
(٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ و مد، و فى الأصل: إلى الإبقاء من - كذا.
(٥) زيد فى الأصل: معمر قال ذلك، ولم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها.
(٦) من ظ و مد، و فى الأصل: قو - كذا (٧) سقط من ظ.

عند دخولهم: ﴿الحمد﴾ أى الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿لله﴾ [أى -[١]] الذى له تمام القدرة ﴿الذىٓ اذهب﴾ أى بدخولنا هذا ﴿عنا الحزنؕ﴾ أى هذا النوع بكماله ، فلا نحزن على شيء كان فاتنا ، و لا يكون لنا حزن أبدا لأنا صرنا فى دار لايفوت فيها شيء أصلا و لا يفنى .

و لما كانوا عالمين بما اجترحوه من الزلات أو[٢] الهفوات أو الغفلات التى لولا الكرم لأدتهم إلى النار ، عللوا ما صاروا إليه معها بقولهم ، مؤكدين إعلاما بما عندهم من السرور بالعفو عن ذنوبهم ، و أن ما أكدوه حقيق بأن يتغالى فى تأكيده لما رأوا من[٣] صحته و جنوا من حلو ثمرته: ﴿ان ربنا﴾ أى المحسن إلينا مع إساءتنا ﴿لغفور﴾ أى محاء للذنوب عينا و أثرا للصنفين الأولين ﴿شكورۙ﴾ أى على ما وهبه للعبد من حسن طاعته و وفقه له من الأعمال [الحسنة -[١]] فجعله به سابقا ، ثم وصفوه بما هو شكر له فقالوا: ﴿الذىٓ احلنا دار المقامة﴾ أى الإقامة و مكانها و زمانها التى لايريد النازل [بها -[١]] - على كثرة النازلين بها - ارتحالا منها ، و لا يراد به ذلك ، و لا [٤]شيء فيها[٤] يزول فيؤسف[٥] عليه . و كان المالك المطلق لايجب عليه شيء و لا استحقاق لمملوكه[٦] [٧]عليه بوجه[٧] قال: ﴿من فضلهج﴾ أى بلا عمل منا فان حسناتنا إنما كانت منا منه سبحانه ، لو لم يبعثنا عليها و ييسرها لنا لما كانت .

(١) زيد من ظ و مد (٢) فى ظ «و» (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : فى .
(٤ - ٤) فى ظ ومد : فيها شيء (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : فيسوف .
(٦) من ظ و مد ، و فى الأصل : قوله (٧-٧) فى ظ و مد : بوجه عليه .

و لما تذكروا ما شاهدوه[1] فى عرصات القيامة من تلك الكروب و الأهوال ، و الأنكاد و الأثقال ، التى أشار إليها قوله[2] تعالى "و ان تدع مثقلة الى حملها" الآية ، استأنفوا قولهم فى وصف دار القرار : ﴿ لا يمسنا ﴾ أى فى وقت من الأوقات ﴿ فيها نصب ﴾ أى نصب بدن و لا وجع [3]و لا شيء[3] ﴿ و لا يمسنا فيها لغوب ه ﴾ أى كلال و تعب و إعياء و فتور نفس من شيء من الأشياء ، قال / أبوحيان[4]: و هو /٣٢٣
لازم عن تعب البدن . فهى الجديرة لعمرى بأن يقال فيها :

علينا لاتنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء

و لما بين ما هم فيه من النعمة ، بين ما لأعدائهم من النقمة ، زيادة فى سرورهم بما قاسوه فى الدنيا من تكبرهم عليهم و فجورهم فقال : ﴿ و الذين كفروا ﴾ أى ستروا ما دلت عليه عقولهم من شموس الآيات و أنوار الدلالات ﴿ لهم نار جهنم ج ﴾ أى بما تجهموا أولياء الله الدعاة إليهم . و لما كانت عادة النار إهلاك من دخلها بسرعة ، بين أن حالها على غير ذلك زيادة فى نكالهم و سوء مآلهم فقال مستأنفا : ﴿ لا يقضى ﴾ أى لا يحكم و ينفذ و يثبت من حاكم ما ﴿ عليهم ﴾ أى بموت ﴿ فيموتوا ﴾ أى فيتسبب عن القضاء موتهم ، و إذا راجعت ما مضى فى سورة سبحان من

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل : شاه (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : يقوله (٣ - ٣) سقط ما بين الرقمين من ظ و مد (٤) راجع البحر المحيط ٧ / ٣١٤ .

قوله " فلا يملكون كشف الضر عنكم " و ما يأتى إن شاء الله تعالى فى المرسلات من قوله " و لا يؤذن لهم فيعتذرون " علمت سر وجوب[1] النصب هنا لأنه لو رفع لكان المعنى أن موتهم ينبغى إن قضى عليهم أو لم يقض ، و ذلك محال .

و لما كانت الشدائد فى الدنيا تنفرج و إن طال أمدها قال : ﴿ و لا يخفف عنهم ﴾ و أعرق فى النفى بقوله : ﴿ من عذابها ﴾ أى جهنم . و لما كان ربما توهم متوهم أن هذا العذاب خاص بالذين كانوا فى عصره صلى الله عليه و سلم من الكفار قال : ﴿ كذلك ﴾ أى مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزى ﴾ أى بما لنا من العظمة - على قراءة الجماعة بالنون ﴿ كل كفورٍ ﴾ أى به صلى الله عليه و سلم أو بغيره من الأنبياء عليهم السلام و إن لم نره ، لأن ثبوت المعجزة يستوى فيها السمع و البصر ، و بنى أبو عمرو الفعل للمفعول[2] إشارة إلى سهولته و تيسره و رفع " كل " .

و لما بين عذابهم بين اكتئابهم فقال : ﴿ و هم ﴾ أى فعل ذلك بهم و الحال انهم ﴿ يصطرخون فيهاج ﴾ أى يوجدون الصراخ فيها بغاية ما يقدرون عليه[3] من الجهد فى الصياح بالبكاء و النواح . و لما بين ذلك بين قولهم فى اصطراخهم بقوله : ﴿ ربنآ ﴾ أى يقولون : أيها المحسن إلينا ﴿ اخرجنا ﴾ أى[4] من النار ﴿ نعمل صالحا ﴾ ثم آكدوه و فسروه

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل : وجود (٢) راجع نثر المرجان ٥ /٥٣٥ (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : عليهم (٤) سقط من ظ .

و يبنوه بقولهم على سبيل التحسر و الاعتراف بالخطأ او لأنهم كانوا يظنون عملهم صالحا ﴿ غير الذى كنا ﴾ أى بغاية جهدنا ﴿ نعمل[٤] ﴾ فتركوا الترقق و العمل على حسبه فى وقت نفعه و استعملوه عند فواته فلم ينفعهم، بل قيل فى جوابهم تقريرا لهم و[١] توبيخا و تقريعا: ﴿او لم﴾ أى ألم تكونو فى دار العمل متمكنين من ذلك بالعقول و القوى؟ أو لم ﴿ نعمركم ﴾ أى نطل أعماركم مع إعطائنا لكم العقول و لم نعاجلكم بالأخذ ﴿ ما ﴾ أى زمانا ﴿ يتذكر فيه ﴾ و ما يشمل كل عمر يتمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه غير أن التوبيخ فى الطويل أعظم، [و أشار بمظهر العظمة إلى أنه لامطمع بغيره سبحانه فى مد العمر - [٢]].

و لما كان التفكر بعد البعث غير نافع لأنه بعد كشف الغطاء، عبر بالماضى فقال: ﴿ من تذكر ﴾ إعلاما بأنه قد ختم على ديوان المتذكرين، فلا يزاد فيهم أحد. و الزمان المشار إليه قيل: إنه ستون سنة - قاله ابن عباس[٣] رضى الله عنهما، [و بوب له البخارى فى أوائل[٤] الرقاق من غير عزو إلى أحد - [٢]]، و روى أحمد بن منيع عن أبى هريرة[٥] رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: من عمره [الله - [٢]]

(١) سقطت الواو من ظ (٢) زيد من ظ و مد (٣) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٥/ ٢٥٠ (٤) فى مد: أول (٥) وأخرجه أيضا البغوى من طريق عبد الواحد المليحى عن أبى هريرة مع بعض المفارقات - راجع المعالم بهامش اللباب ٥ / ٢٥٠ .

ستين سنة فقد[1] أعذر الله [2]إليه فى[2] العمر . و روى الترمذى[3] و ابن ماجه[4]
/٣٣٤ و أبو يعلى عن أبى هريرة / أيضا رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال: أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين . و أقلهم من يجوز ذلك .

و لما أشار إلى دليل العقل ابتداء و دواما ، أشار إلى أدلة النقل المنبه على ما قصر عنه العقل ، فقال معبرا بالماضى تصريحا بالمقصود عطفا على معنى: أو لم نعمركم الذى هو قد عمرناكم: ﴿وجآءكم النذير﴾ أى عنى من[5] الرسل و الكتب تأييدا للعقول بالدليل المعقول .

و لما تسبب عن ذلك أن عذابهم لاينفك قال: ﴿فذوقوا﴾ أى ما أعددناه لكم من العذاب دائما أبدا . و لما كانت العادة جارية بأن من أيس من خصمه فزع إلى الاستغاثة عليه ، تسبب عن ذلك قوله: ﴿فما﴾ و كان الأصل: لكم ، و لكنه أظهر تعليقا للحكم بالوصف للتعميم فقال: ﴿للظلمين﴾ أى الواضعين الأشياء فى غير مواضعها ﴿من نصير﴾ أى يعينهم و يقوى أيديهم ، فلا براح لكم عن[6] هذا الذواق ، و هذا عام فى كل ظالم . فان من ثبت له نصر عليه لأن ظلمه فى كل يوم يضعف و يهن[7] و الحق فى كل[8] حين يقوى و يضخم .

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فقال (٢ - ٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : إلى (٣) راجع أبواب الدعوات من جامعه (٤) راجع أبواب الزهد من سننه (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : عن (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل : من (٧) من مد ، و فى الأصل : يمين (٨) العبارة من « ظالم فان » إلى هنا ساقطة من ظ .

و لما كان سبحانه عالما بما نفى و ما أثبت ، علل ذلك مقررا سبب دوام عذابهم و أنه بقدر[1] كفرانهم كما قال تعالى " و جزاء سيئة سيئة مثلها " بقوله مؤكدا إشارة إلى أنه لايجب[2] تمرين النفس عليه لما له من الصعوبة لوقوف النفس مع المحسوسات : ﴿ ان الله ﴾ أى الذى أحاط بكل شيء قدرة و علما ﴿ علم غيب ﴾ و لما كانت جهة العلو أعرق فى الغيب قال : ﴿ السموٰت و الارض ﴾ فأنتج ذلك قوله مؤكدا لأنه من أعجب الغيب لأنه كثيرا ما يخفى على الإنسان ما فى نفسه و الله تعالى [3]عالم به[3] ، أو هو تعليل لما قبله : ﴿ انه عليم ﴾ أى بالــــغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أى قبل أن يعلمها أربابها حين تكون غيبا محضا ، فهو يعلم أنكم [4]لو مدت[4] أعماركم لم ترجعوا عن الكفر أبدا ، و لو رددتم لعدتم لما نهيتم عنه . و أنه لامطمع فى صلاحكم ، و لذلك يأمر الملك أن يكتب عند نفخ الروح فى الولد انه إما[5] شقى أو سعيد قبل أن يكون له خاطر اصلا ، و ربما كان فى غاية ما يكون من[6] الإقبال على الخير فعلا و نية ، ثم يختم له بشر ، و ربما كان على خلاف ذلك فى [غاية -[7]] الفساد ، لايدع شركا و لاغيره من المعاصى حتى يرتكبها و هو عند الله سعيد لما يعلم من نيته بعد ذلك حين يقبل بقلبه عليه فيختم له [بخير -[7]]

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل : مقدر (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : لايحب (٣-٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : هو أعلم (٤-٤) من ظ و مد ، و فى الأصل : مدة (٥) سقط من ظ و مد (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل : فى (٧) زيد من ظ و مد .

من ترابها فقال: ﴿في الارض﴾ أى فيما أنتم فيه منها لا غيره تتصرفون فيه بما قدرتم عليه، و لو شاء لم يصرفكم فيه، فمن حقه أن تشكروه و لا تكفروه.

و لما ثبت أن ذلك نعمة منه، عمرهم فيه مدة يتذكر فيه من تذكر، تسبب عنه قوله: ﴿فمن كفر﴾ أى بعد علمه بأن الله هو الذى مكنه لاغيره، و احتقر هذه النعمة السنية ﴿فعليه﴾ [أى خاصة -[1]] ﴿كفره﴾ أى ضرره. و لما كان كون الشيء على الشيء محتملا لأمور، بين حاله بقوله مؤكدا لأجل من يتوهم أن بسط الدنيا على الفاجر ربح و إكرام من الله[2] له ﴿و لا﴾ أى[3] و الحال أنه لا ﴿يزيد الكفرين﴾ أى المغطين للحق ﴿كفرهم﴾ أى الذى هم متلبسون به ظانون أنه يسعدهم [و هم راسخون فيه غير متمكنين عنه، و لذا لم يقل: لا يزيد من كفر لأنه قد يكون كفره غير راسخ فيسلم -[1]] ﴿عند ربهم﴾ أى المحسن إليهم ﴿الا مقتا﴾ أى لأنه يعاملهم معاملة من يبغض و يحتقر أشد بغض و احتقار.

و لما كان المراد من هذه الصفات فى حق الله تعالى غاياتها، و كان ذكرها إنما هو تصوير لها بأفظع صورها لزيادة التنفير من أسبابها، و كانوا ينكحون نساء الآباء مع أنهم يسمونه[4] نكاح المقت، نبه على أنهم لايبالون بالتمقت إلى المحسن، فقال ذاكرا للغاية مبينا أن محط نظرهم

(١) زيد من ظ و مد (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و مد، و فى الأصل: شيء (٤) من ظ و مد، و فى الأصل: يسمعونه.

الخسارة المالية[1] تسفيلا لهممهم[2] زيادة فى توبيخهم: ﴿و لايزيد الكفرين﴾ أى العريقين فى صفة التغطية للحق ﴿كفرهم الا خسارا ه﴾ أى فى الدنيا و الآخرة فى المال و النفس[3] و هو نهاية ما يفعله الماقت بالممقوت ٠

و لما بين [أنه -[4]] سبحانه هو الذى استخلفهم ، أكد بيان ذلك عندهم بأمره صلى الله عليه و سلم بما يضطرهم إلى الاعتراف به فقال: ﴿قل ارءيتم﴾ أى أخبرونى ﴿شركآءكم﴾ أضافهم إليهم لأنهم و إن كانوا [5]جعلوهم شركاءه[5] لم ينالوا شيئا من شركته لأنهم ما نقصوه شيئا من ملكه ، و إنما شاركوا العابدين فى أموالهم بالشوائب و غيرها و فى أعمالهم فهم شركاؤهم بالحقيقة لا شركاؤه ، ثم بين المراد من عدهم لهم شركاء بقوله: ﴿الذين تدعون﴾ أى تدعونهم شركاء ﴿من دون الله﴾ أى الذى له جميع صفات الكمال ٠

و لما كان التقدير: بأى شىء جعلتموهم[6] شركاء فى العبادة ، ألهم شرك فى الأرض ، بنى عليه قوله مكررا لإشهادهم عجز شركائهم و نقص من عبده من دونه: ﴿ارونى ماذا﴾ أى الذى أو أى شىء ﴿خلقوا من الارض﴾ أى لتصح[7] لكم دعوى الشركة فيهم ، و إلا فادعاؤكم ذلك فيهم كذب محض ، و أنتم تدعون أنكم أبعد الناس منه فى

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل: الدنية (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل: لهمهم (٣) العبارة من هنا إلى « استخلفهم أكد » ساقطة من ظ (٤) زيد من مد (٥ - ٥) من ظ و مد ، و فى الأصل: جعلوهم شركاهم (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل: جعلتموه له (٧) من ظ و مد ، و فى الأصل: ليتضح .

الأمور الهينة فكيف بمثل[1] هذا، و لعل استفهامهم[2] عن رؤية شركائهم[3] تنبيه على أنهم من الامتهان و الحقارة بحيث يراهم كل من يقصد رؤيتهم و يعلم أنه لا خلق لهم، و الله تعالى، بخلاف ذلك فى كل من الأمرين، مترد برداء الكبر محتجب بحجاب الجلال و العز، و كل أحد يعلم أنه الخالق لكل مخلوق، فكيف يكون من لا يخلق كمن يخلق .

و لما نبههم بهذا الأمر الذى ساقه هذا السياق المعلم بأنه لا ينبغى لعاقل أن يدعى شركة لشىء حتى يعلم الشركة و إن جهل عين المشارك[4] فيه، قال مؤكدا لذلك موسعا لهم فى المحال، زيادة / فى تبكيتهم على / ٣٣٦
ما هم فيه من الضلال: ﴿ ام لهم شرك ﴾ [4] أى و إن كان[5] قليلا ﴿ فى السموٰت ج ﴾ أى أرونى ما ذا خلقوا فى السماوات، فالآية من الاحتباك: [حذف -[6]] أولا الاستفهام عن الشركة فى الأرض لدلالة مثله فى السماء ثانيا عليه، و حذف الأمر بالإراءة ثانيا لدلالة مثله أولا عليه .

و لما أتم التبكيت بالاستفهام عن المرئى، أتبعه التوبيخ بالاستفهام عن المسموع، مؤذنا بالالتفات إلى التكلم بمظهر العظمة بشديد الغضب فقال: ﴿ ام اٰتينٰهم ﴾ أى الشركاء أو المشركين بهم بما لنا من العظمة ﴿ كتٰبا ﴾ أى دالا على أنه من عندنا بإعجازه أو غير ذلك من البراهين

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل: مثل (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: استينافهم (٣) من ظ و مد، و فى الأصل: المشاركة (٤) العبارة من هنا إلى « قليلا » ساقطة من ظ (٥) من مد، و فى الأصل: كانوا (٦) زيد من ظ و مد .

القاطعة ثبتت لهم شركة ﴿فهم﴾ أى المشركون ﴿على بينة﴾ أى حجة ظاهرة، و بينات - على القراءة[1] الأخرى، أى دلائل واضحات بما فى ذلك الكتاب من ضروب البيان ﴿منه ج﴾ أى ذلك الكتاب على أنا أشركناهم فى الأمر حتى يشهدوا لهم[2] هذه الشهادة التى لايسوغون مثلها فى إثبات الشركة لعبد من عبيدهم فى أحقر الأشياء فكيف يسوغونها فى انتقاص الملك الذى لاخير عندهم إلا منه غير هائبين له ولامستحين منه.

و لما كان التقدير: لم يكن شيء من ذلك فليسوا على بيان، بل على غرور[3]، قال منبها لهم على ذميم أحوالهم و سفه آرائهم و خسة هممهم و نقصان عقولهم مخبرا أنهم لايقدرون على الإتيان بشيء مما به يطالبون و أنه[4] ليس لهم جواب عما عنه يسألون، و أكده لأجل ظنهم أن أمورهم فى غاية الإحكام، بل: ﴿ان﴾ أى ما ﴿يعد الظلمون﴾ أى الواضعون للأشياء فى غير مواضعها ﴿بعضهم بعضا﴾ أى الأتباع للمتبوعين بأن شركاءهم تقربهم إلى الله زلفى و أنها[5] تشفع و تضر و لاتنفع ﴿الا غرورا ٥﴾.

و لما بين [6]حقارة الأصنام[6] و كل ما أشركوا به بالنسبة إلى جلال عظمته، و كانوا لايقدرون على ادعاء الشركة فى الخلق فى شيء من ذلك،

---

(١) راجع نثر المرجان ٥ /٥٤٠ (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: له (٣) من ظ و مد، و فى الأصل: غرورهم (٤) فى ظ: أنهم (٥) زيد فى الأصل: لا، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٦ - ٦) من ظ و مد، و فى الأصل: حقارهم.

و كان

و كان ربما اقدم على ادعائه معاند منهم أو من غيرهم، وكان الناس قد توصلوا إلى معرفـة شيء من التغيرات الفلكية كالشروق و الغروب و الخسوف، وكانوا لا علم لهم بشيء من الزلازل[1] و الزوال، قال مبينا عظمته سبحانه بعد تحقير أمر شركائهم معجزا مهددا لهم على إقدامهم على هذا الافتراء العظيم مبينا للنعمة بعدم المعاجلة بالهلاك، و أكده لأن من الناس المكذب به و هم المعطلة، و منهم من عمله - و إن كان مقرا - عمل المكذب[2] و هو من ينكر شيئا من قدرته كالبعث: ﴿ ان الله ﴾ أى الذى له [3]جميع صفات[3] الكمال ﴿ يمسك السمٰوٰت ﴾ أى على كبرها و علوها ﴿ و الارض ﴾ أى على سعتها و بعدها عن التماسك على ما يشاهدون إمساكا مانعا من ﴿ان تزولا ۚ﴾ أى بوجه عظيمة و زلزلة كبيرة، أو زوالا لا تماسك معه لأن ثباتهما على ما هما عليه على غـير القياس لولا شامخ قدرته و باهر عزته و عظمته، فان ادعيتم عنادا أن شركاءكم لا يقدرون على الخلق لعلة من العلل فادعوهم لإزالة ما خلق سبحانه.

و لما كان هذا دليل على أنهما حادثتان زائلتان، أتبعه ما هو أبين منه، فقال معبرا بأداة الإمكان: ﴿و لئن زالتآ ﴾ أى بزلزلة أو خراب ﴿ان﴾ أى ما ﴿امسكهما﴾ و أكد استغراق النفى بقوله: ﴿من احد﴾ و لما كان المراد أن غيره سبحانه لا يقدر على إمساكهما فى زمن من

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل: الزلزال (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: لكذب (٣-٣) فى ظ: صفات جميع.

الأزمان و إن قل، أثبت الجار فقال: ﴿ من بعده[1] ﴾ أى بعد إزالته لهما، بل و إذا زلزلت[2] الأرض اضطرب كل شيء عليها و الأصنام من جملته، فدل ذلك قطعا على أن الشركاء مفعولة لا فاعلة.

٧٣٣/ و لما كان السياق / إلى الترغيب[3] فى الإقبال عليه وحده أميل منه إلى الترهيب[3]، [4]وكان[4] كأنه قيل: هو جدير بأن يزيلهما لعظيم[5] ما يرتكبه أهلها[6] من الآثام و شديد الإجرام، قال جوابا لذلك و أكده لأن الحكم عما يركبه المبطلون على عظمه و كثرتهم مما لا تسعه العقول: ﴿ انه كان ﴾ أى أزلا و أبدا ﴿ حليما ﴾ اى ليس من شأنه المعاجلة بالعقوبة للعصاة لأنه لا يستعجل[7] إلا من يخاف[8] الفوت فينتهز الفرص، و رغب فى الإقلاع مشيرا إلى أنه ليس عنده ما [9]عند حلماء البشر[9] من الضيق الحامل لهم على انهم[10] إذا غضبوا بعد طول الأناة لا يغفرون بقوله: ﴿ غفورا ﴾ اى محاء لذنوب[11] من رجع إليه، و أقبل بالاعتراف عليه، فلا يعاقبه و لا يعاتبه.

و لما كان التقدير: فقالوا: [إنا -[12]] لا ندعى أنهم خلقوا شيئا من

---

(١) فى ظ: زالت (٢) زيد فى الاصل: إليه، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٣) من ظ و مد، و فى الأصل: الترتيب (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من ظ و مد، و فى الأصل: العظيم (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: اهلها (٧) من ظ و مد، و فى الأصل: لا يعجل (٨) فى ظ و مد: يخشى (٩-٩) من ظ ومد، وفى الأصل: عندنا حلما لبشر (١٠) من ظ ومد، و فى الأصل: انه (١١) من ظ و مد، و فى الأصل: للذنوب أى ذنوب. (١٢) زيد من ظ و مد.

السماوات و لامن الأرض و نحن مقرون بأنه لا يمسك السماوات و الأرض إلا الله، و إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، كما كان يفعل آباؤنا، و لولا[1] أن لهم على ذلك دليلا ما فعلوه، عطف عليه قوله مبينا ضلالهم فى تكذيبهم الرسل[2] بعد ما ظهر من ضلالهم فى إشراكهم بالمرسل و هو يمهلهم و يرزقهم دليلا على حلمه مع علمه: ﴿ و اقسموا ﴾ أى كفار مكة ﴿ بالله ﴾ أى الذى لا عظيم غيره ﴿ جهد ايمانهم ﴾ أى بغاية ما يقدرون عليه من الأيمان، قال البغوى[3]: لما بلغهم - يعنى كفار مكة - أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود و النصارى! أتتهم رسلهم فكذبوهم، لو أتانا رسول[4] لنكونن أهدى [5]دينا منهم[5].

و لما أخبر عن قسمهم، حكى[6] معنى ما أقسموا عليه دون لفظه بقوله: ﴿ لئن جآءهم ﴾ و عبر بالسبب الأعظم للرسالة فقال: ﴿ نذير ﴾ أى من عند الله ﴿ ليكونن ﴾ أى الكفار ﴿ اهدٰى ﴾ أى أعظم فى الهدى ﴿ من احدى ﴾ أى واحدة من ﴿ الامم ج ﴾ أى السالفة أو من الأمة التى لم تكن فى الأمم التى جاءتها النذر أهدى منها، قال أبو حيان[7]: كما قالوا هو أحد[8] الأحدين، و هى إحدى الأحد، يريدون التفضيل

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل: لو (٢) فى ظ و مد: للرسل (٣) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٥/٢٥١ (٤) من ظ و مد، و فى الأصل: رسولا، و فى المعالم: رسول الله (٥-٥) من ظ و مد و المعالم، و فى الأصل: منهم دينا. (٦) زيد فى ظ: عن (٧) راجع البحر المحيط ٧/ ٣١٩ (٨) من ظ و مد و البحر، و فى الأصل: احدى.

في الدهاء و العقل . لأنهم أحد أذهانا و أقوم لسانا و أعظم عقولا[1]، و ألزم لما يدعو إليه العقل، و أطلب لما يشهد بالفضل، و أكدوا بالقسم لأن الناظر لتكذيب[2] أهل العلم بالكتاب يكذبهم في دعوى التصديق قياسا أخرويا، و دل على إسراعهم في الكذب بالفاء فقال: ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ أي على ما شرطوا و زيادة، و هو محمد صلى الله عليه و سلم الذي كانوا يشهدون أنه خيرهم مع كونه خيرهم نفسا و أشرفهم نسبا و أكرمهم في [كل -[3]] خلق أما[4] و أبا، و أمتنهم في كل مأثرة[5] سببا ﴿ ما زادهم ﴾ [6] أي مجيئه[6] شيئا مما هم عليه [من الأحوال -[3]] ﴿ الا نفورا ﴾ أي لأنه كان سببا في زيادتهم في الكفر كالإبل التي كانت نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بسبب دعائه نفرة، فأعرقت في الضلال فصارت بحيث يتعذر أو[7] يتعسر ردها فتبين أنه لا عهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس، و لا صدق عندهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق. و لما[8] كانوا قد جبلوا على الضلال، و[8] كان النفور قد يكون لأمر محمود أو مباح، علله بقوله: ﴿ استكبارا ﴾ أي طلبا لإيجاد الكبر لأنفسهم ﴿ في الارض ﴾ أي التي من شأنها السفول

---

(١) من ظ و مد، و في الأصل: قولا (٢) من ظ و مد، و في الأصل: التكذيب (٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ و مد، و في الأصل: انبا - كذا (٥) من ظ و مد، و في الأصل: ما يره - كذا (٦ - ٦) سقط ما بين الرقمين من ظ (٧) من ظ و مد، و في الأصل: « و » (٨ - ٨) سقط ما بين الرقمين من ظ و مد.

و التواضع و الخمول ﴿و مكر السيئ﴾ أى و لأجل مكرهم المكر الذى من شأنه أن يسوء صاحبه و غيره، و هو إرادتهم لإيهان أمر النبى صلى الله عليه و سلم و إطفاء نور الله /، و قراءة عبد الله[1] "و مكرا سيئا" /٣٣٨ يدل على أنه من إضافة الشيء إلى صفته، و قراءة حمزة باسكان الهمزة بنية الوقف إشارة إلى تدقيقهم المكر و إتقانه و إخفائه جهدهم ﴿و لا﴾ أى و الحال أنه لا ﴿يحيق﴾ أى يحيط إحاطة لازمة ضارة ﴿المكر السيئ﴾ أى الذى هو عريق فى السوء ﴿الا باهله﴾ و إن آذى غير أهله، لكنه لا يحيط بذلك الغير، و عن الزهرى أنه قال: بلغنا أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: لا تمكروا و لا تعينوا ماكرا فان الله يقول هذه الآية، و لا تبغوا و لا تعينوا باغيا يقول الله "انما بغيكم على انفسكم" و لا تنكثوا و لا تعينوا ناكثا قال الله "و من نكث فانما ينكث على نفسه".

و لما كان هذا سنة[2] الله التى لا تبديل لها، قال مسببا عن ذلك: ﴿فهل ينظرون﴾ أى ينتظرون، و لعله جرد الفعل إشارة إلى سرعة الانتقام من الماكر المتكبر[3]، و يمكن أن يكون من النظر بالعين لأنه شبه العلم بالانتقام من الأولين مع العلم بأن عادته مستمرة، لأنه لا مانع له منها لعظيم تحققه و شدة استيقانه و قوة استحضاره بشيء محسوس حاضر لا ينظر شيء غيره فى ماض و لا آت لأن غيره بالنسبة إليه[4] عدم. و لما جعل استقبالهم لذلك انتظارا[5] منهم له، و كان الاستفهام

---

(١) راجع الدر المنثور ٥/٥٤٤ (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: سنن (٣) فى ظ: للتكبر (٤) زيد فى الأصل: عليه، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها.
(٥) من ظ و مد، و فى الأصل: انتظارهم.

إنكاريا، فكان بمعنى النفى قال[1]: ﴿الا سنت الاولين ج﴾ أى طريقتهم فى سرعة أخذ الله لهم و إنزال العذاب بهم.

و لما كان هذا النظر يحتاج إلى صفاء فى اللب و ذكاء فى النفس، عدل عن ضميرهم إلى خطاب أعلى الخلق، تنبيها على أن هذا مقام لا يذوقه حق[2] ذوقه غيره، فسبب عن حصر النظر أو الانتظار فى ذلك قوله، مؤكدا لأجل اعتقاد الكفرة الجازم بأنهم لا يتغيرون عن حالهم و أن المؤمنين لا يظهرون عليهم: ﴿فلن تجد﴾ أى أصلا فى وقت من الأوقات ﴿لسنت الله﴾ أى طريقة الملك الأعظم التى شرعها و حكم بها، و هى إهلاك العاصين و إنجاء الطائعين ﴿تبديلا ج﴾ أى من أحد يأتى بسنة أخرى غيرها تكون بدلا لها لأنه لا مكافئ له ﴿و لن تجد لسنت الله﴾ أى الذى لا أمر لأحد معه ﴿تحويلا ٥﴾ أى من حالة إلى أخرى[3] منها لأنه لا مرد لقضائه، لأنه لا كفوء له، و فى الآية أن أكثر حديث النفس الكذب، فلا ينبغى لأحد أن يظن بنفسه خيرا و لا [أن - [4]] يقضى على غائب إلا أن يعلقه بالمشيئة بترؤا من الحول و القوة لعل الله يسلمه فى عاقبته.

و لما بين أن حالهم موجب و لا بد للايقاع بهم لما ثبت من أيام الله، و أنكر ذلك عليهم، و كان التقدير: ألم يسمعوا أخبار الأولين المرة و أحوالهم المستمرة من غير تخلف أصلا فى أن من كذب

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل: فقال (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: حتى.
(٣) من ظ و مد، و فى الأصل: احق (٤) زيد من ظ و مد.

و التواضع و الخمول ﴿و مكر السيئ[1]﴾ أى و لأجل مكرهم المكر الذى من شأنه أن يسوء صاحبه و غيره، و هو إرادتهم لإيهان أمر النبى صلى الله عليه و سلم و إطفاء نور الله /، و قراءة عبد الله[1] "و مكرا سيئا" /٣٣٨
يدل على أنه من إضافة الشيء إلى صفته، و قراءة حمزة باسكان الهمزة بنية الوقف إشارة إلى تدقيقهم المكر و إتقانه و إخفائه جهدهم ﴿ولا﴾ أى و الحال أنه لا ﴿يحيق﴾ أى يحيط إحاطة لازمة ضارة ﴿المكر السيئ﴾ أى الذى هو عريق فى السوء ﴿الا باهله[1]﴾ و إن آذى غير أهله، لكنه لا يحيط بذلك الغير، و عن الزهرى أنه قال: بلغنا أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: لا تمكروا و لا تعينوا ماكرا فان الله يقول هذه الآية، و لا تبغوا و لا تعينوا باغيا يقول الله "انما بغيكم على انفسكم" و لا تنكثوا و لا تعينوا ناكثا قال الله "و من نكث فانما ينكث على نفسه".

و لما كان هذا سنة[2] الله التى لا تبديل لها، قال مسببا عن ذلك: ﴿فهل ينظرون﴾ أى ينتظرون، و لعله جرد الفعل إشارة إلى سرعة الانتقام من الماكر المتكبر[3]، و يمكن أن يكون من النظر بالعين لأنه شبه العلم بالانتقام من الأولين مع العلم بأن عادته مستمرة، لأنه لا مانع له منها لعظيم تحققه و شدة استيقانه و قوة استحضاره بشيء محسوس حاضر لاينظر شيء غيره فى ماض و لا آت لأن غيره بالنسبة إليه[4] عدم. و لما جعل استقبالهم لذلك انتظارا[5] منهم له، و كان الاستفهام

---

(١) راجع الدر المنثور ٥/٢٤٤ (٢) من ظ و مد، وفى الأصل: سنن (٣) فى ظ: للتكبر (٤) زيد فى الأصل: عليه، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها.
(٥) من ظ و مد، و فى الأصل: انتظارهم.

إنكاريا، فكان بمعنى النفي قال[1]: ﴿الا سنت الاولين ج﴾ أي طريقتهم في سرعة أخذ الله لهم و إنزال العذاب بهم.

و لما كان هذا النظر يحتاج إلى صفاء في اللب و ذكاء في النفس، عدل عن ضميرهم إلى خطاب أعلى الخلق، تنبيها على أن هذا مقام لا يذوقه حق[2] ذوقه غيره، فسبب عن حصر النظر أو الانتظار في ذلك قوله، مؤكدا لأجل اعتقاد الكفرة الجازم بأنهم لا يتغيرون عن حالهم و أن المؤمنين لا يظهرون عليهم: ﴿ فلن تجد ﴾ أي أصلا في وقت من الأوقات ﴿لسنت الله﴾ أي طريقة الملك الأعظم التي شرعها و حكم بها، و هي إهلاك العاصين و إنجاء الطائعين ﴿تبديلا ج﴾ أي من أحد يأتي بسنة أخرى غيرها تكون بدلا لها لأنه لا مكافئ له ﴿و لن تجد لسنت الله﴾ أي الذي لا أمر لأحد معه ﴿تحويلا ه﴾ أي من حالة إلى أخفى[3] منها لأنه لا مرد لقضائه، لأنه لا كفوء له، و في الآية أن أكثر حديث النفس الكذب، فلا ينبغي لأحد أن يظن بنفسه خيرا و لا [أن - [4]] يقضي على غائب إلا أن يعلقه بالمشيئة بترؤا من الحول و القوة لعل الله يسلمه في عاقبته.

و لما بين أن حالهم موجب و لا بد للايقاع بهم لما ثبت من أيام الله، و أنكر ذلك عليهم، و كان التقدير: ألم يسمعوا أخبار الأولين المرة و أحوالهم المستمرة من غير تخلف أصلا في أن من كذب

---

(١) من ظ و مد، و في الأصل: فقال (٢) من ظ و مد، و في الأصل: حتى.

(٣) من ظ و مد، و في الأصل: احق (٤) زيد من ظ و مد.

و فك المصدر ليخص ما وجد منه بالفعل فقال -[1] : ﴿ بما كسبوا ﴾ أى من جميع أعمالهم [سواء كان حراما أو لا -[1]] ﴿ما ترك على ظهرها ﴾ أى الأرض ﴿ من دآبة ﴾ أى بل كان يهلك الكل، أما [2] المكلفون فلأنه[2] ليس فى أعمالهم شىء يقدره سبحانه حق قدره، لما لهم من النقص و لما[3] له سبحانه من العلو [4] و الارتقاء[4] و الكمال، و أما غيرهم فانما خلقوا لهم، و المعاصى تزيل النعم و تحل النقم، و ذلك كما فعل فى زمان نوح عليه السلام، لم ينج ممن[5] كان على الأرض غير من كان فى السفينة ﴿ و لكن ﴾ لم يعاملهم معاملة المؤاخذ المناقش، بل يحلم عنهم فهو ﴿ يؤخرهم ﴾ أى فى الحياة الدنيا ثم فى البرزخ ﴿الى اجل مسمى ج﴾ أى سماه فى الأزل لانقضاء أعمارهم ثم لبعثهم من قبورهم، و هو لايبدل القول لديه لما له من الصفات التى هى أغرب الغريب عندكم لكونكم لا تدركونها حق الإدراك ﴿فاذا جآء اجلهم﴾ أى الفنائى[6] الإعدامى قبض كل واحد منهم عند أجله، أو الإيجادى[7] الإبقائى بعث كلا منهم لجازاه بعمله من غير وهم و لا عجز.

و لما كانوا ينكرون ما يفهمه ذلك من البعث، أكد فقال: ﴿ فان[8] الله ﴾ أى الذى له صفات الكمال الموجد بتمام القدرة و كمال

(١) زيد من ظ و مد (٢-٢) من مد، و فى الأصل: المكلفين فانه، و فى ظ: فانه (٣) فى ظ و مد: ما (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ و مد (٥) فى ظ: ما (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: الفناء (٧) من مد، و فى الأصل و ظ: الإيجاد (٨) من ظ و مد و القرآن الكريم، و فى الأصل: ان.

الاختيار ﴿ كان ﴾ و لم يزل . [و لما كان السياق للكسب الذى هو أعم من الظلم قال -[١]] : ﴿ بعباده ﴾ الذين أوجدهم و لا شريك له فى إيجاد أحد منهم بجميع ذواتهم و أحوالهم ﴿ بصيرا ﴾ أى بالغ البصر و العلم بمن يستحق العذاب منهم [بالكسب - [١]] و من يستحق الثواب ، فقد انطبق آخرها كما ترى على أولها باستجماع صفات الكمال و تمام القدرة على كل من الإيجاد و الإعدام للحيوان و الجماد مهما أراد بالاختيار ، لما / شوهد له سبحانه من الآثار ، كما وقع[٢] الإرشاد إليه بالأمر بالسير /٣٤٠ و بغيره و بما ختمت به السورة من صفة العلم على وجه أبلغ من ذكره بلفظه ، لما مضى فى سورة طٰه من أن إحاطة العلم تستلزم شمول القدرة ، و لا تكون القدرة شاملة إلا إذا كانت عن اختيار ، فثبت حينئذ استحقاقه تعالى لجميع المحامد ، فكانت عنه سبحانه الرسالات الهائلة الجامعة للعزة و الحكمة بالملائكة المجردين عن الشهوات و كل حظ إلى من ناسبهم من البشر بما غلب من جيش عقله على عساكر شهواته و نفسه ، حتى صار عقلا مجردا صافيا ، حاكما على الشهوات[٣] و الحظوظ قاهرا كافيا .

☆ ☆ ☆ ☆

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) زيد فى الأصل : ف ، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٣) زيد فى الأصل : و الاهوات ، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها .

سورة يٰس[1]

[و تسمى القلب و الدافعة و القاضية و المعمّة -[2]]

مقصودها إثبات الرسالة التى هى روح الوجود و قلب جميع الحقائق و بها قوامها و صلاحها للرسل بها الذى هو خالصة[3] المرسلين الذين هم قلب الموجودات كلها ذوات و معانى إلى أهل مكة أم القرى و قلب الأرض و هم قريش قلب العرب الذين هم قلب الناس ، بصلاحهم صلاحهم كلهم [و -[2]] بفسادهم فسادهم ، فلذلك[4] كان من حولهم[5] جميع أهل الأرض ، و جل فائدة الرسالة إثبات الوحدانية التى هى قلب الاعتقاد و خالصه و عموده[6] للعزيز الرحيم ذى الجلال و الإكرام ، و إنذار يوم الجمع الذى به - مع ستره عن العيان الذى هو من خواص القلب - صلاح الخلق ، فهو قلب الأكوان ، و به الصلاح أو الفساد للانسان ، و على ذلك[7] تنطبق معانى أسمائها : يٰس و القلب و الدافعة و القاضية

(١) السادس و الثلاثون من سور القرآن الكريمة ، مكية ، و عدد آيها ثلاث و ثمانون فى الكوفى و اثنتان و ثمانون فى غيره - راجع روح المعانى ١٩٤/٧ (٢) زيد من ظ و مد (٣) من ظ ومد ، وفى الأصل : خاصة (٤) من ظ و مد ، و فى الأصل : فكذلك (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : حالهم . (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل : عموه - كذا (٧) فى ظ : هذا .

و المعمة، و اما يٰس فسياتى بيانه من جهة إشارته إلى سر كونها قلبا المشير إلى البعث الذى هو من أجلّ مقاصدها الذى [1]به يكون[1] صلاح القلب الذى [2]به يكون[2] قبول ما ذكر، و أما الباقى فان [من -[3]] اعتقد الرسالة كفته و دفعت عنه جميع مهمه، و قضت له بكل خير، و أعطته كل مراد، و كل منها [له -[3]] أتم نظر إلى القلب كما لايخفى، و المعمة: الشاملة بالخير و البركة، قال فى القاموس: يقال: عمهم بالعطية و هو معم خير يعم خيره. فقد لاح أن هذه السورة الشريفة لما كانت قلبا كان كل شيء فيها له نظر عظيم [4]إلى القلبية[4] ﴿بسم الله﴾ الذى جلّ[5] ملكه عن أن يحاط بمقداره ﴿الرحمن﴾ الذى جعل الإنذار بيوم الجمع رحمة عامة ﴿الرحيم﴾ الذى أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه.

لما[6] كان قلب كل شيء أبطن[7] ما فيه و أنفس، و كان قلب الإنسان غائبا عن الإحساس، و كان مودعا من المعانى الجليلة و الإدراكات الخفية و الجلية [ما - [3]] يكون للبدن سببا[8] [فى - [3]] إصلاحه أو[9] إفساده من إشقائه أو إبقائه، و كانت الساعة من عالم الغيب، و فيها يكون انكشاف الأمور، و الوقوف على حقائق المقدور، و بملاحظتها

(١-١) من ظ و مد، و فى الأصل: يكون به (٢-٢) فى ظ: يكون به (٣) زيد من ظ و مد (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من ظ و مد، و فى الأصل: جعل (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: و لما (٧) من ظ و مد، وفى الأصل: بطن (٨) من ظ و مد، و فى الأصل: سبب (٩) من ظ و مد، و فى الأصل «و».

فى

و ليس فى هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة و دلائلها ، و من حصل من القرآن هــذا القدر فقد حصل نصيب قلبه ، و هو التصديق الذى بالجنان ، و أما الذى باللسان و الذى بالأركان ففى غير هذه السورة ، فلما كان فيها أعمال القلب لا غير سماها قلبا ، و لهذا ورد عنه صلى الله عليه و سلم قراءتها عند رأس من دنا منه الموت ، لأن فى ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة و الأعضاء الظاهرة ساقطة المنة ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ، و رجع عن كل ما سواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزداد[1] به قوة فى قلبه[2] و يشتد تصديقه بالأصول الثلاثة - انتهى . و فيه بعض تصرف ، و قوله « إن وظيفة اللسان و الأركان ليس فى هذه السورة منها شيء » ربما يعكر[3] عليه قوله تعالى "و ما لى لا اعبد الذى فطرنى" "و اذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله" "و ان اعبدونى هذا صراط مستقيم" و الحديث الذى ذكره رواه[4] أحمد[5] و أبو داود[6] و النسائى و ابن ماجه[6] و ابن حبان و الحاكم عن معقل بن يسار رضى الله عنه رفعه " اقرأوا يٰس على موتاكم" و أعله ابن القطان و ضعفه الدارقطنى ، و أسند صاحب الفردوس[7] عن أبى الدرداء و أبى ذر رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من ميت يموت فيقرأ عنده[8] يٰس إلا هون الله

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يراد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : القلب (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يفكر (٤) سقط من ظ . (٥) راجع مسنده ٥ / ٢٦ (٦) راجع أبواب الجنائز من سننه (٧) و الحديث فى مخطوطتنا ص : ٢٠٩ / ب (٨) من ظ و م و مد و تلخيص مسند الفردوس ، و فى الأصل : عند رأسه .

/٣٤٢ /عليه[1] ، و وراه أبو الشيخ ابن حبان فى فضائل القرآن عن أبى ذر وحده رضى الله عنه[2] و الإمام أحمد فى مسنده[2] عن صفوان بن عمرو قال : كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت[3] يٰس عند الميت خفف عنه بها . قال ابن حبان : المراد المحتضر . و قد استمد[4] من هذا التصريح بالحشر كل ما انبث[5] فى القرآن من ذكر الآخرة[6] الذى بمراعاته و إتقانه[7] يكون صلاح جميع الأحوال فى الدارين ، و باهماله و نسيانه يكون فسادها[8] فيهما - هذا مع ما شاركت به غيرها مما جمعته من جميع معانيه المجموعة فى الفاتحة من الأسماء الحسنى : الله و الرب و الرحمن و الرحيم و ملك يوم الدين الذى بيده ملكوت كل شيء و إليه ترجعون ، و الأمر بالعبادة بسلوك الصراط[9] المستقيم ، و تفصيل أهل النعيم و أهل الجحيم ، و إثبات الأصول الثلاثة [التى -[10]] يصير بها المكلف مؤمنا : الواحدانية و الحشر و الرسالة التى هى قلب الوجود ، و بها صلاحه ، و هى عمدة لكل روح يكون به حياة هنيئة ، و هى مبدأ الصلاح كما أن البعث غايته ، و أن الخاتم لها إنسان[11] عين الموجودات و قلبها ، فاثبت له ذلك على أصرح وجه و آكده .

(١) من ظ و م و مد و التلخيص ، و فى الأصل : عنه (٢) راجع ٤/ ١٠٥ ، و زيدت الواو فى الأصل . و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد و المسند . و فى الأصل : قرات (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : استمر (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اثبت (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الآخر (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اتقانه . (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فساده (٩) فى م : الطريق (١٠) زيد من ظ و م و مد (١١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اسنان .

و مع

و ليس فى هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة و دلائلها . و من حصل من القرآن هـذا القدر فقد حصل نصيب قلبه ، و هو التصديق الذى بالجنان ، و أما الذى باللسان و الذى بالأركان ففى غير هذه السورة ، فلما كان فيها أعمال القلب لا غير سماها قلبا . و لهذا ورد عنه صلى الله عليه و سلم قراءتها عند رأس من دنا منه الموت ، لأن فى ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة و الأعضاء الظاهرة ساقطة المنة ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ، و رجع عن كل ما سواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزداد[1] به قوة فى قلبه[2] و يشتد تصديقه بالأصول الثلاثة - انتهى . و فيه بعض تصرف ، و قوله « إن وظيفة اللسان و الأركان ليس فى هذه السورة منها شيء » ربما يعكر[3] عليه قوله تعالى "و ما لى لا اعبد الذى فطرنى" "و اذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله" "و ان اعبدونى هذا صراط مستقيم" و الحديث الذى ذكره رواه[4] أحمد[5] و أبو داود[6] و النسائى و ابن ماجه[6] و ابن حبان و الحاكم عن معقل بن يسار رضى الله عنه رفعه " اقرأوا يٰس على موتاكم " و أعله ابن القطان و ضعفه الدارقطنى ، و أسند صاحب الفردوس[7] عن أبى الدرداء و أبى ذر رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ما من ميت يموت فيقرأ عنده[8] يٰس إلا هون الله

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يراد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : القلب (٣) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : يفكر (٤) سقط من ظ . (٥) راجع مسنده ٥ / ٢٦ (٦) راجع أبواب الجنائز من سننه (٧) و الحديث فى مخطوطتنا ص : ٢٠٩ / ب (٨) من ظ وم و مد و تلخيص مسند الفردوس ، و فى الأصل : عند راسه .

/٣٤٢ /عليه[1] ، و وراه أبو الشيخ ابن حبان فى فضائل القرآن عن أبى ذر وحده رضى الله عنه، و الإمام أحمد فى مسنده[2] عن صفوان بن عمرو قال : كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت[3] يس عند الميت خفف عنه بها . قال ابن حبان : المراد المحتضر. و قد استمد[4] من هذا التصريح بالحشر كل ما انبث[5] فى القرآن من ذكر الآخرة[6] الذى بمراعاته و إتقانه[7] يكون صلاح جميع الأحوال فى الدارين، و باهماله و نسيانه يكون فسادها[8] فيهما - هذا مع ما شاركت به غيرها مما جمعته من جميع معانيه المجموعة فى الفاتحة من الأسماء الحسنى : الله و الرب و الرحمن و الرحيم و ملك يوم الدين الذى بيده ملكوت كل شيء و إليه ترجعون ، و الأمر بالعبادة بسلوك الصراط[9] المستقيم ، و تفصيل أهل النعيم و أهل الجحيم ، و إثبات الأصول الثلاثة [التى -[10]] يصير بها المكلف مؤمنا : الواحدانية و الحشر و الرسالة التى هى قلب الوجود ، و بها صلاحه ، و هى عمدة لكل روح يكون به حياة هنيئة ، و هى مبدأ الصلاح كما أن البعث غايته ، و أن الخاتم لها إنسان[11] عين الموجودات و قلبها ، فاثبت له ذلك على أصرح وجه و آكده .

(١) من ظ و م و مد و التلخيص ، و فى الأصل : عنه (٢) راجع ٤/ ١٠٥ ، و زيدت الواو فى الأصل . و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد و المسند . و فى الأصل : قرات (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : استمر (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اثبت (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الآخر (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اتقائه . (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فساده (٩) فى م : الطريق (١٠) زيد من ظ و م و مد (١١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اسنان .

و مع جمع ما افتتحت بـــه السورة من الحروف المقطعة المنثورة أول السورة[1] عمادا[2] للقرآن و شحذا للأذهان لصنفى المنقوطة و العاطلة و وصفى المجهورة و المهموسة .

و لما كان القلب من الإنسان المقصود بالذات من الأكوان فى نحو ثلث[3] بدنه من جهة رأسه ، و كانت الياء فى نحو ذلك من حروف " أبجد " فانها العاشرة منها و السين بذلك المحل من حروف ا ب ت ث فانها الثانية عشر[4] منها ، و علا هذان الحرفان - بما فيهما من الجهر - عن غاية الضعف و نزلا[5] بما لهما من الهمس عن نهاية الشدة ، إشارة إلى أن القلب الصحيح هو الزجاجى الشفاف الجامع بين الصلابة و الرقة الذى علا بصلابته عن رقة الماء الذى لا يثبت فيه صورة ، و نزل بلطافته عن قساوة الحجر[6] الذى لا يكاد ينطبع فيه شيء إلا بغاية الجهد ، فكان جامعا بين الصلابة و الرقة متهيئا لأن تنطبع فيه [7]الصور و تثبت[7] ليكون قابلا مفيدا ، فيكون متخلقا من صفات موجدة[8] بالقدرة و الاختيار اللذين دلت عليهما سورة الملائكة ، و بمعرفة الخير فيجتلبه و الشر فيجتنبه فيكون فيه شاهد من نفسه على الاعتقاد الحق فى صانعه ، و كانت المجهورة

(١) فى ظ : السور (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عماد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ثلاث (٤) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : الثالثة عشر (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : نزولا (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الحر (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الصورة تثبت (٨) زيد فى الأصل : بالقلب ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .

أقوى فقدمت الياء لجهرها، و كانتا[1] - بعد اختلاف بالجهر و الهمس - قد اتفقتا فى الانفتاح و الرخاوة و الاستفال[2] إشارة إلى أن القلب لا يصلح - كما تقدم - مع الصلابة التى هى فى معنى الجهر إلا بالإخبات الذى هو فى معنى الهمس، و بالنزول عن غاية الصلابة إلى حد الرخاوة لئلا يكون حجريا قاسيا، بأن يكون فيه انفتاح ليكون[3] مفيدا و قابلا، و يكون مستفلا ليكون[3] إلى ربه بتواضعه واصلا، و زادت السين بالصفير الذى[4] فيه شدة و انتشار وقوة لضعفها عن الياء بالهمس فتعادلتا، و دل صفيرها على النفخ فى الصور الذى صرحت به هذه السورة، و دل جهر الياء على قوته، و دل كونها من حروف النداء على خروجه عن الحد فى الشدة حتى تبدو عنه تلك الآثار المخلية للديار، المفنية للصغار و الكبار، ثم الباعثة لهم من جميـــع الأقطار، امتثالا لأمر الواحد القهار، وكان مخرجها / من اللسان الذى هو قلب المخارج الثلاثة لتوسطه و كثرة منافعه /٣٤٣
فى ذلك، وكانت الياء من وسطه و السين من طرفه، و كان هـــذان المخرجان، مع كونهما وسطا، مدارا لأكثر الحروف، هذا مع ما لهما من الأسرار التى تدق عن تصور[5] الأفكار، قال تعالى: ﴿ يس ١ ﴾ و[إن -[6]] كان المعنى: يا إنسان، فهو قلب الموجودات المخلوقات[7] كلها

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كانت (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الاستقبال (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لئلا يكون (٤) زيد فى الأصل: هو، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) من ظ و م و مد، فى الأصل: تصوير (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) سقط من م.

و خالصها و سرها و لبابها ، و إن أريد : يا سيد ، فهو خلاصة من سادهم ، و إن أريد : يا رجل ، فهو خلاصة البشر ، و إن أريد : يا محمد ، فهو خالصة الرجال الذين هم لباب البشر الذين هم سر الأحياء الذين هم عين الموجودات فهو خلاصة الخلاصة و خيار الخيار و عين القلب ، و كأن من قال معناه محمد نظر[1] إلى الاتحاد في عدد اسمه صلى الله عليه و سلم بالجمل بالنظر إلى الميمين في المشددة و [عدد "قلب" و -[2]] عدد اسمي الحرفين ، و لا يخفى أن الهمزة في اسم الياء ألف ثانية ، فمبلغ عدده اثنا عشر .

و لما تقدم في الملائكة إثبات رسالة النبي صلى الله عليه و سلم و تهديد قومه على[3] النفرة عنه ، و أن مرسله تعالى بصير بعباده ، عالم بما يصلحهم و من يصلح منهم للرسالة و غيرها ، و كان مدار مادة « قرأ » - كما مضى في سورة الحجر - الجمع مع الفرق[4] ، و كان ذلك أعلى مقامات السائرين إلى الله و هو وظيفة القلب ، عبر[5] في القسم[5] بقوله : ﴿و القرآن﴾ و وصفه بصفة [القلب -[6]] العارف فقال : ﴿ الحكيم ﴾ أي الجامع من الدلالة على العلم المزين بالعمل و الإرشاد إلى العمل المحكم بالعلم .

و لما كان قد ثبت في سورة الملائكة أنه سبحانه الملك الأعلى ، لما ثبت له من تمام القدرة و شمول العلم ، و كان من أجل ثمرات

---

(١) من ظ و م و مد ، و في الأصل : نظرا (٢) زيد من ظ و مد (٣) من ظ و م و مد ، و في الأصل : عن (٤) من ظ و م و مد ، و في الأصل : العرف . (٥-٥) من ظ و م و مد ، و في الأصل : بالقسم (٦) زيد من ظ و م و مد .

الملك إرسال الرسل إلى الرعايا بأوامر الملك و ردهم عما هم عليه بما[1] دعتهم إليه النفوس، و قادتهم إليه الشهوات و الحظوظ، إلى ما يفتحه لهم من الكرم، و يبصرهم به من الحكم. [2]وكانت[2] الرسالة أحد الأصول الثلاثة التي تنقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان، و كانت هي المنظور إليها أولا لأنها السبب في الأصلين الآخرين، وكانوا قد ردوا رسالته نفورا و استكبارا، قال مقدما لها تقديم السبب على مسببه على وجه التأكيد البليغ مع ضمير الخطاب الذي لايحتمل لبسا: ﴿انك لمن المرسلين ﴾ أي الذين حكمت عقولهم على دواعي نفوسهم، فصاروا - بما وهبهم الله من القوة النورانية - كالملائكة الذين قدم في السورة الماضية أنهم رسله و في عدادهم بما تخلقوا به من أوامره و نواهيه و جميع ما [3]يرتضيه[3].

و لما كان الأنبياء عليهم السلام من نوره صلى الله عليه و سلم، لأنه أولهم خلقا و آخرهم بعثا، فكانوا في الحقيقة إنما هم [4]ممهدون لشرعه[4]، وكان سبحانه إنما أرسله ليتمم مكارم الأخلاق، و كان قد جعل سبحانه من المكارم أن لايكلم الناس إلا بما تسع عقولهم، وكانت عدة المرسلين كما في حديث أبي أمامة الباهلي عن أبي ذر رضي الله عنهما عند أحمد في المسند[5] ثلاثمائة و خمسة عشر، و فيه أن الأنبياء مائة ألف و أربعة و عشرون ألفا، و هو في الطبراني الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه

(١) من ظ و م و مد. و في الأصل: بما (٢ - ٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: فكانت (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: يرضية (٤-٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: مهتدون بشرعه (٥) راجع ٥/٢٦٦.

أن

أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه و سلم فذكر عدد الرسل فقط، و كانت عقول العرب لا تسع بوجه قبل الإيمان أنهم منه[1]، أقسم سبحانه ظاهرا أنه منهم و رمزا[2] للأصفياء باطنا إلى أنهم منه، بجعلهم عدد أسماء حروف اسمه محمد صلى الله عليه / و سلم الذي رمز إليه بالحرفين أول السورة، / ٣٤٤ فكأنه قال: إنك [يا - [3]] ياسين الذي تأويله محمد[4] الذي عدد أسماء حروفه بعددهم لأصلهم، فصار رمزا في رمز، و كنزا نفيسا داخل كنز، و سرا من سر، و برا إلى بر، و هو أحلى في منادمة الأحباب من صريح الخطاب، ثم علق باسم المفعول[5] قوله: ﴿ على صراط ﴾ أي طريق واسع واضح ﴿ مستقيم ﴾ أي أنت من هؤلاء الذين قد ثبت لهم أنهم عليه، و هو الصراط المستقيم الأكمل المتقدم في الفاتحة لأنه لخواص المنعم عليهم[6] و لقوله تعالى في حق موسى و هارون عليهما السلام " و هديناهما الصراط المستقيم " فيكون تنوينه[7] - بما أرشد إليه القسم و التأكيد - للتعظيم، و المعنى أنهم[8] قد ثبت لهم هذا الوصف العظيم [و أنت منهم - [3]] بما شاركتهم فيه من الأدلة، فليس لأحد أن يخصك من بينهم بالتكذيب.

و قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما أوضحت سورة سبا و سورة

---

(١) من مد، و في الأصل و ظ و م: منهم (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: رمز (٣) زيد من ظ م و مد (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: محمدا (٥) من ظ و مد، و في الأصل و م: الفاعل (٦) في ظ: عليه (٧) من م و مد، و في الأصل و ظ: تنويه (٨) من ظ و م و مد، و في الأصل: أنه.

فاطر من عظيم ملكه تعالى و توحده بذلك و انفراده بالملك و الخلق و الاختراع[1] ما تنقطع العقول دون تصور[2] أدناه، و لا تحيط من ذلك إلا بما شاء، و أشارت من البراهين و الآيات [3]إلى ما[3] يرفع الشكوك و يوضح[4] السلوك بما كانت الأفكار قد خمدت عن إدراكها، و استولت عليها الغفلة فكأن قد جمدت[5] عن معهود حراكها، ذكر سبحانه بنعمة التحريك إلى اعتبارها بثنائه [6]على من[6] اختاره لبيان تلك الآيات، و اصطفاه لإيضاح[7] تلك البينات، فقال تعالى "يٰس و القرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم" ثم قال "لتنذر قوما ما انذر اٰباؤهم فهم غٰفلون" فأشار سبحانه إلى ما تثمر نعمة الإنذار، و يبعثه[8] التيقظ بالتذكار؛ ثم ذكر علة من عمى بعد تحريكه و إن كان مسببا عن الطبع و شر السابقة[9] "لقد حق القول على اكثرهم" الآيات؛ ثم أشار بعد إلى أن بعض[10] من عمى عن عظيم تلك البراهين لأول[11] وهلة قد يهتز عند[12] تحريكه لسابق[13] سعادته فقال تعالى:

(١) من ظ وم و مد، و في الأصل: اختراع (٢) في م ومد: تطور، ولكن كتب بهامشيهما: لعله تصور (٣-٣) من ظ و م ومد، و في الأصل: بما. (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: يزهى (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: حدث (٦-٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: لمن (٧) في ظ و م و مد: بايضاح (٨) من ظ و مد، و في الأصل و م: مبعثه (٩) من ظ و م و مد، و في الأصل: المسابقة (١٠) من م و مد، و في الأصل و ظ: بعد. (١١) من ظ وم ومد، و في الأصل: باول (١٢) من ظ و مد، و في الأصل و م: عنه (١٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: ليسابق.

"انا نحن نحي الموتى" فكذلك[1] نفعل بهؤلاء إذا شئنا هدايتهم "او من كان ميتا فاحيينه" ثم ذكر دأب المعاندين و سبيل المكذبين مع بيان الأمر فقال " و اضرب لهم مثلا اصحٰب القرية " - الآيات، و اتبع ذلك سبحانه بما أودع في الوجود من الدلائل الواضحة و البراهين فقال " الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون" - الآية، ثم قال " و اٰية لهم الارض الميتة احيينها - إلى قوله : افلا تشكرون" ثم قال "و اٰية لهم اليل نسلخ منه النهار" " و كل في فلك يسبحون" [2]ثم قال "و اٰية لهم انا حملنا ذريتهم - إلى قوله : الى حين" ثم ذكر إعراضهم مع عظيم هذه البراهين و تكذيبهم و سوء حالهم عند [3]بعثهم و ندمهم[3] و توبيخهم و شهادة أعضائهم بأعمالهم، ثم تناسجت الآي جارية على ما يلائم ما تقدم إلى آخر السورة - انتهى.

و لما كان كأنه قيل: ما هذا الذي أرسل به؟ [كان - [4]] كأنه قيل جوابا [5]لمن سأل[5] : هو القرآن الذي وقع الإقسام به، و هو ﴿تنزيل﴾ أو[6] حال كونه تنزيل ﴿العزيز﴾ أي[7] المتصف بجميع صفات الكمال[8].

و لما كانت هذه الصفة للقهر و الغلبة، و كان ذلك لا يكون صفة كمال إلا بالرحمة قال: ﴿الرحيم ۙ﴾ أي الحاوي لجميع صفات الإكرام الذي ينعم على من يشاء من عباده بعد الإنعام بإيجادهم بما يقيمهم على

(١) في ظ و م و مد: فكذا (٢) زيد في ظ: إلى آية (٣-٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: منقلبهم (٤) زيد من م و مد (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٦) في ظ: اى (٧) سقط من ظ (٨) من ظ و م و مد، و في الأصل: الجمال.

/ ٣٤٥ المنهاج الذى يرضاه / لهم ، فهو الواحد الذى لامثل له[1] أصلا لما قهر به من عزته ، و جبر به من رحمته . نزله إليك و هو فى جلالة النظم و جزالة القول و حلاوة السبك و قوة التركيب و رصانة الوضع و حكيم المعانى و إحكام المبانى فى أعلى ذرى[2] الإعجاز ، و جعل إنزاله تدريجا بحسب المصالح مطابقا مطابقة أعجزت الخلائق عن أن ياتوا بمثلها ، ثم نظمه على غير ترتيب النزول نظما أعجز الخلق عن أن يدركوا جميع المراد من بحور معانيه و حكيم مبانيه ، فكله إعجاز على ما له من إطناب و إيجاز .

و لما ذكر المرسَل و المرسَل به و المرسل ، ذكر المرسَل له فقال : ﴿ لتنذر قوما ﴾ أى ذوى بأس و قوة و ذكاء و فطنة ﴿ مآ انذر ﴾ أى لم ينذر [أصلا ـ[3]] ﴿ ءاباؤهم ﴾ أى الذين غيروا دين [4]أعظم آبائهم[4] إبراهيم عليه السلام و من أتى بعدهم عند فترة الرسل . و لما كان عدم الإنذار موجبا لاستيلاء الحظوظ و الشهوات على العقل فيحصل عن[5] ذلك الغفلة عن طريق النجاة قال : ﴿ فهم ﴾ أى بسبب زمان الفترة ﴿ غفلون ۝ ﴾ أو المعنى على أن « ما » مفعول ثان لتنذر : أى لتنذرهم[6] الذى أنذره آباؤهم الذين كانوا قبل التغيير[7] ، فان هؤلاء غافلون عن ذلك لطول الزمان و حدوث النسيان .

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لهم (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : در (٣) زيد من ظ و مد (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : أبيهم (٥) من ظ و م و مد . وفى الأصل : عند (٦) زيد فى الأصل : اى ، ولم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : النعير .

و لما

إلى المنكب[1]، لم يذكر جهة السفل و ذكر جهة العلو فقال: ﴿ فهى ﴾ أى الأغلال [بعرضها -[2]] واصلة بسبب[3] هذا الجعل ﴿الى الاذقان﴾ جمع ذقن و هو مجتمع اللحيين، فهى لذلك مانعة من مطاطأة الرأس. و لما كان هذا من رفع الرأس فعل المتكبر، وكان تكبرهم فى غير موضعه، بين تعالى أنهم ملجأون إليه فهو ذل فى الباطن و إن كان كبرا فى الظاهر فقال: ﴿ فهم ﴾ أى[4] بسبب هذا الوصول ﴿ مقمحون ﴾ من أقمح الرجل - إذا أقمحه[5] غيره أى جعله قامحا أى رافعا رأسه غاضا بصره لاينظر إلابعض بصره هيئة المتكبر، و أصله من قولهم: قمح البعير - إذا رفع رأسه عند الشرب و لم يشرب الماء، قال فى الجمع بين العباب و المحكم: قال بشر بن أبى حازم[6] يصف سفينة، قال أبو حيان[7]: [ميتة -[8]] [9] أحدهم ليدفنها[9]:

و نحن علـــى جوانبها قعود نغض الطرف كالإبل القماح

٣٤٦ / و قال الرازى فى اللوامع: و المقمح[10]: الذى يضرب رأسه إلى ظهره هيئة البعير. و قال القزاز: [و - [11]] المقمح: الشاخص بعينيه الرافع رأسه. أبو عمرو: و القامح[12] من الإبل هو الذى لايشرب و هو عطشان

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المكب (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: سبب (٤) سقط من م (٥) من م و مد، وفى الأصل و ظ: اقحمه (٦) من ظ وم ومد، و فى الأصل: حاتم.
(٧) راجع البحر المحيط ٣٢٤/٧ (٨) زيد من البحر (٩-٩) من البحر، و فى الأصل و ظ و م: اخذهم اليد فيها - إلا أن فى ظ: احدهم (١٠) من م و مد، و فى الأصل و ظ: القمح (١١) زيد من ظ و مد (١٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: القاتح.

عطشا شديدا و لاتقبل نفسه الماء ، و القمح مصدر قمحت الشيء ، و الاقماح: أخذك الشيء فى راحتك ثم تقحمه[1] فى فيك أى تبتلعه ، و الاسم القمحة كاللقمة و الأكلة - انتهى . و كأن المقمح من هذا لأن هيئته عند هذا الابتلاع رفع الرأس و غض الطرف أو شخوصه إذا عسر عليه الابتلاع - و الله أعلم ، فهذا تمثيل لرفعهم رؤسهم عن النظر[2] إلى الداعى تكبرا و شماخة بحيث لو أمكنهم أن يسكنوا الجو لم يتأخروا [3] صلافة و تيها[3] ، أو لأنهم يتركون هذا الأمر العظيم الحسن الجدير بأن يقبل عليه و يتروى منه و [هم - [4]] فى غاية الحاجة إليه ، فهم فى ذلك كالبعير القامح[5] ، إنما منعه من [6] الماء مع[6] شدة عطشه مانع عظيم أقمحه ، و لكنه خفى أمره فلم يعلم ما هو ، [7] و لذلك[7] بنى الاسم للفعول إشارة إلى أنهم مقهورون على تفويت حظهم من هذا الأمر الجليل .

و لما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال: ﴿و جعلنا﴾ أى بعظمتنا . و لما كان المقصود حجبهم عن خير مخصوص ، و هو المؤدى إلى السعادة الكاملة لا عن كل ما ينفعهم ، أدخل الجار فقال: ﴿ من بين ايديهم ﴾ أى الوجه الذى يمكنهم علمه ﴿ سدا ﴾ . و لما كان الإنسان إذا انسدت[8] عليه جهة مال إلى أخرى قال: ﴿و من خلفهم﴾

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تقتحمه (٢) زيدت الواو فى ظ . (٣-٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اصلا - مع قدر من البياض (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المانع (٦-٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : القامح (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فلذلك (٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اشتدت .

أى الوجه الذى هو خفى عنهم، و أعاد السد تأكيدا لإنكارهم ذلك و تحقيقا لجمله [فقال -[1]] : ﴿ سدا ﴾ أى فصارت كل جهة يلتفت إليها منسدة، فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق و لا الخلوص إليه، فلذلك قال : ﴿ فاغشينٰهم ﴾ أى جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة[2] ﴿ فهم ﴾ أى بسبب ذلك ﴿ لا يبصرون ۝ ﴾ أى لا يتجدد[3] لهم هذا الوصف من إبصار الحق و ما ينفعهم [ببصر ظاهر و بصيرة باطنة -[1]] أصلا . و لما منعوا بذلك حس[4] البصر، أخبر عن حس[4] السمع فقال : ﴿ و سوآء ﴾ أى مستو و [5]معتدل غاية الاعتدال[5] من غير نوع فرق ؛ و زاد فى الدلالة على عدم عقولهم بالتعبير بأداة الاستعلاء إيذانا[6] بأنهم إذا امتنعوا مع المستعلى كانوا مع غيره أشد امتناعا فقال : ﴿ عليهم ءانذرتهم ﴾ أى ما أخبرناك به من الزواجر المانعة من الكفر ﴿ ام لم تنذرهم ﴾ ثم بين أن الذى استوى حالهم فيه بما سببه الإغشاء عدم الإيمان، فقال مستأنفا : ﴿ لا يؤمنون ۝ ﴾ .

و لما بين ما كان السبب المانع لهم من الإبصار، علم أن السبب المانع من السمع مثله، لأن المخبر عزيز، فهو إذا فعل شيئا كان على وجه[7] لا يمكن فيه حيلة . و لما أخبر أن الأكثر بهذه الصفة، استشرف

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : غشاه (٣) فى ظ : لا يجدد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : حسن (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل : معتذر غاية الاعتذار (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل : ايذان (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل : الوجه .

السامع

السامع إلى أمارة يعرف بها الأقل الناجى لأنه المقصود بالذات فقال جوابا له: ﴿ انما تنذر ﴾ أى إنذارا ينتفع به المنذر فيتأثر عنه النجاة، فالمعنى: إنما يؤمن بانذارك ﴿من اتبع الذكر﴾ أى أجهد نفسه فى اتباع كل ما يذكر بالله من القرآن و غيره [و يذكر به صاحبه و يشرف -[1]] ﴿ و خشى الرحمٰن ﴾ أى خاف العام الرحمة خوفا عظيما، و دل لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى الوصف بالرحمانية على أن أهل الخشية يكفيهم فى الاتعاظ التذكير بالإحسان [2] ﴿ بالغيب ج ﴾ أى بسبب ما يخبر به من مقدوراته الغائبة[2] [3] لاسيما البعث الذى كان اختصاصها بغاية بيانه بسبب[4] كونها قلبا[5] من غير / طلب آية كاشفة للحجاب بحيث يصير /٤٧ب
الأمر عن شهادة لاغيب فيه، بل تجويزا لما يجوز من انتقامه و لو بقطع إحسانه، لما ثبت له فى سورة فاطر من القدرة و الاختيار، و يخشاه[6] أيضا خشية خالصة فى حال غيبته عمن رائيه[7] من الناس، فهؤلاء هم الذين ينفعهم الإنذار، [و هم المتقون الذين ثبت فى البقرة أن الكتاب هدى لهم -[1]]، و غيرهم لاسبيل إلى استقامته، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فانه

---

(١) زيد ما بين الحاجزين من ظ (٢ - ٢) وردما بين الرقمين فى الأصل قبل «ودل» س ٥، و الترتيب من ظ و م ومد (٣) العبارة من هنا إلى «قلبا» وقعت فى الأصل بعد «خوفا عظيما» و الترتيب من ظ و م و مد (٤) من ظ و م ومد، و فى الأصل: سبب (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تلبسا (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يخشى (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يرامه.

ليس عليك إلا الإنذار ، إن الله عليم بما يصنعون ، فمن علم منه هذه الخشية أقبل به ، و من علم منه[1] القساوة رده على عقبه بما حال دونه من الغشاوة[2] - و الله الموفق .

و لما دل[3] السياق على أن هذا نفع نفسه ، تشوف السامع إلى معرفة جزائه ، فقال مفردا الضمير على النسق الماضى فى مراعاة لفظ « من » دلالة على قلة هذا الصنف من الناس بأجمعهم فى هذه السورة الجامعة بكونها قلبا[4] لما تفرق فى غيرها[5] : ﴿ فبشره ﴾ أى بسبب خشيته بالغيب ﴿ بمغفرة ﴾ أى لذنوبه و إن عظمت و إن تكررت مواقعته[6] لها و توبته منها ، فان ذلك لايمنـــع الاتصاف بالخشية . و لما حصل العلم بمحو الذنوب عينها و أثرها قال : ﴿ و اجر كريم ۞ ﴾ أى دارّ عظيم هنىء لذيذ متواصل ، لا كدر فيه بوجه .

و لما بين الأصل الثانى [الذى -[7]] هو الرسالة و أتبعها ثمرتها المختومة بالبشارة ، و كان الأصل الثالث فى الإيمان - و هو البعث - سببا عظيما فى الترقية إلى اعتقاد الوحدانية التى هى الأصل الأول ، وكان أكثر الخائفين منه سبحانه مقترا عليهم فى دنياهم منغصة عليهم حياتهم ، علل

(١) زيد فى الأصل : أيضا ، ولم تكن الزيادة فى ظ وم و مد فحذفناها .
(٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : القساوة (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: كان الدال على (٤) من ظ وم ومد ، وفى الأصل : الأصل قلنا (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : غيره (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : موافقته (٧) زيد من ظ و م و مد .

هذه البشارة إعلاما بأن [هذا - ١] الآجر فى هذه الدار بالملابس الباطنة الفاخرة من المعارف و السكينة و البركات و الطمأنينة، و بعد البعث بالملابس الطاهرة الزاهرة المسببة عن الملابس[٢] الدنيوية الباطنة الخفية عن غير أهلها، بشارة لهم و نذارة للقسم الذى قبلهم بقوله، مقدما للبعث لما ذكر من فائدته، لافتا القول إلى مظهر العظمة إيذانا بعظمة[٣] هذه المقاصد و[٤] بأنه لايحمى [٥]لهؤلاء الخلص[٥] مع قلتهم و مباينتهم[٦] للأولين مع كثرتهم إلا من له العظمة الباهرة: ﴿انا نحن﴾ أى بما لنا من العظمة التى [لا-١] تضاهى ﴿نحى﴾ [أى بحسب التدريج الآن و جملة فى الساعة - ٧] ﴿الموتى﴾ أى كلهم حسا بالبعث و معنى بالإنقاذ إذا أردنا من ظلم الجهل ﴿و نكتب﴾ أى [من صالح و غيره -٧] شيئا فشيئا [بعده فلا يتعدى التفصيل شيئا فى ذلك الإجمال - ٧] ﴿ما قدموا﴾ من جميع أفعالهم و أحوالهم و أقوالهم [٨]جملة عند نفخ الروح[٨] ﴿و آثارهم﴾ أى سننهم التى تبقى من بعدهم صالحة كانت أو غير صالحة، و نجازى كلا بما يستحق فى الدار الآخرة التى الجزاء فيها لاينقطع، فلا أكرم منه إذا كان كريما.

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ملابس. (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بمظهر عظمة (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: او (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الا الحل - مع بياض يسير بعده (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ما (٧) زيد من ظ و مد (٨-٨) من مد، و فى الأصل و ظ و م: من صالح و غيره.

و لما كان ذلك ربما أوهم الاقتصار على كتابة ما ذكر من أحوال الآدمين[1] أو[2] الحاجة إلى الكتابة ، دل على قدرته على ما لا تمكن القدرة عليه لأحد غيره فى أقل قليل مما ذكر ، فكيف بما[3] فوقه ، فقال [ناصبا عطفا لفعليه على فعلية و هى « تكتب » -[4]] : ﴿ و كل شىء ﴾ أى من أمر الأحياء و غيرهم[5] ﴿ احصينه ﴾ أى قبل إيجاده بعلمنا القديم[6] إحصاء و كتبناه ﴿ فى امام ﴾ أى كتاب هو أهل لأن يقصد ﴿ مبين ع ﴾ أى لايخفى فيه شىء من جميع الأحوال على أحد أراد علمه منه ، فلله هذه القدرة الباهرة و العظمة الظاهرة و العزة القاهرة ، فالآية من الاحتباك : دل فعل الإحصاء على مصدره و ذكر الإمام على فعل الكتابة .

و لما انتهى الكلام إلى هنا ، و كان مقصود السورة كما سلف إثبات الرسالة لإنذار يوم الجمع ، و كان الإنذار غاية ، و كانت الغايات هى المقاصد بالذات ، و كانت غاية / الإنذار اتباع الذكر ، فكان ذلك غاية الغاية ، ٣٤٨ / كان الكلام على المتبعين أولى بالتقديم على أنه يلزم من الكلام فيهم الكلام فى أضدادهم ، و هم المعرضون الذين حق عليهم القول و الكلام على[7] اليوم المنذر به ، فلذلك ضرب المثل الجامع لذلك كله ، و مر إلى

---

(١) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : المتقدمين من الادمين (٢) زيد فى ظ : فى (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ما (٤) زيد من ظ و م و مد . (٥) فى ظ : غيرهما (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : من العدم . (٧) فى ظ : عن .

أن

أن صور البعث تصويرا لم يتقدم مثله، ثم عطف بآية الطمس و ما بعدها على القسم المعرض، ثم رجع إلى الكلام على[١] الرسول و الكتاب .

و لما دل سبحانه على ما له من القدرة الكاملة بالأفعال الهائلة من كل من الإماتة و الإحياء الحسيين و المعنويين إبداء و إعادة، وكان ضرب الأمثال بالمشاهدات ألصق شيء بالبال، و أقطع للمراء و الجدال، و أكشف لما يراد من الأحوال، قال عاطفا على " فبشره " مبينا للأصل الثالث الذى هو الأول بالأصالة المقصود بالذات، و هو التوحيد، ضاما إليه الأصلين الآخرين، ليكون المثل جامعا، و البرهان به واضحا ساطعا: ﴿ و اضرب لهم ﴾ أى لأجلهم بشارة بما يرجى لهم عند إقبالهم، و نذارة لما يخشى عليهم عند إعراضهم و إدبارهم ﴿ مثلا[٢] ﴾ [أى -[٣]] مشاهدا فى إصرارهم على مخالفة الرسول و صبره عليهم و لطفه بهم، لأنا ختمنا على قلوبهم على الكفران مع قربهم منك فى[٤] النسب و الدار، [٥]و فوز غيرهم لأنا نورنا قلوبهم مع البعد فى النسب و الدار بالإيمان[٥] و ثمراته الحسان، لأنهم يخشون الرحمن بالغيب، و لا يثبتون على الغباوة و الريب .

و لما ذكر المثل، أبدل منه قوله: ﴿ اصحب القرية ۘ ﴾ [التى هى محل الحكمة و اجتماع الكلمة و انتشار العلم و معدن الرحمة -[٣]] . و لما كان الممثل به فى الحقيقة إنما هو [٦]إخبارها بأحوال أهلها[٦] لأنها وجه

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: إلى (٢) تكرر فى الأصل فقط بعد «اضرب لهم» (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) زيد فى الأصل: هذا، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من ظ .

(٦-٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: أخبار بها .

الشبه، وكانت أخبارها كثيرة فى أزمنة مديدة[١]، عين المراد بقوله: ﴿اذ﴾ [وهى بدل اشتمال من القرية مسلوخة من الظرفية -[٢]] . و لما كان الآتى[٣] ناحية من بلد و إن عظم يعد فى العرف آتيا لذلك البلد، أعاد الضمير على موضع الرسالة تحقيقا له [و إبلاغا فى التعريف بمقدار بعد الأقصى -[٤]] فقال: ﴿ جآءها ﴾ أى القرية لإنذار أهلها ﴿المرسلون ج﴾ أى عن الله لكونهم عن رسوله عيسى عليه السلام أرسلهم بأمره لإثبات ما يرضيه سبحانه و نفى ما يكرهه الذين هم من جملة من قيل فى فاطر أنهم جاؤا [بالبينات و -[٤]] بالزبر، و التعريف إما لكونهم يعرفون القرية و يعرفون أمرها، [و -[٤]] إما لأنه شهير جدا فهم بحيث لو سألوا أحدا من أهل الكتاب الذين يعتنون بها أخبرهم به، لأنه قد عهد منهم الرجوع إليهم بالسؤال ليبينوا لهم - [كما] زعموا - مواضع الإشكال.

و لما كان أعظم مقاصد السياق تسلية النبى صلى الله عليه و سلم فى توقفهم عن المبادرة إلى الإيمان به مع [٥]دعائه بالكتاب[٥] الحكيم إلى[٦] الصراط المستقيم، و كان فى المشاركة فى المصائب أعظم تسلية، أبدل من[٧] قوله «اذ جاءها» تفصيلا لذلك [المجيء -[٤]] قوله، مسندا إلى نفسه

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مديرة (٢) زيد من ظ و مد (٣) زيد فى الأصل: فى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ و م و مد (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: رعاية الكتاب (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: على (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فى.

المقدس لكونه أعظم فى التسلية : ﴿ اذ ارسلنآ ﴾ أى على ما لنا من العظمة . و لما كان المقصود بالرسالة أصحابها قال : ﴿اليهم اثنين﴾ أى[١] ليعضد أحدهما الآخر فيكون أشد لأمرهما فأخبراهم[٢] بارسالهما إليهم كأن قالا : نحن رسولان إليكم لتؤمنوا بالله ﴿فكذبوهما﴾ أى مع ما لهما من الآيات ، لانه من المعلوم أنا ما أرسلنا رسولا إلا كان معه من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، سواء كان عنا من غير واسطة أو كان[٣] بواسطة رسولنا . كما كان للطفيل بن عمرو الدوسى ذى النور لما ذهب إلى قومه و سأل النبى / صلى الله عليه و سلم أن[٤] تكون له آية فكانت /٣٤٩
[نورا -[٥]] فى جبهته ، ثم سأل أن تكون فى غير وجهه فكانت فى سوطه[٦] .

و لما كان [٧]التضافر على[٧] الشىء أقوى لشأنه ، و أعون على ما يراد منه ، سبب عن ذلك قوله [حاذفا المفعول لفهمه من السياق ، و لأن المقصود إظهار الاقتدار على إيقاع الفعل و تصريفه فى كل ما أريد له -[٥]] : ﴿ فعززنا ﴾ أى فأوقعنا العزة ، و هى القوة و الشدة و الغلبة ، لأمرنا أو لرسولنا[٨] بسبب ما وقع لهما من الوهن بالتكذيب ، [فحصل ما أردنا من العزة - بما أشارت إليه قراءة أبى بكر عن عاصم[٩] بالتخفيف -[٥]] ﴿بثالث﴾

(١) سقط من ظ (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فاخبرهم (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كانوا (٤) من ظ و م ومد ، وفى الأصل : انه . (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) راجع طبقات ابن سعد - و قد مرّ (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : علم (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لرسول . (٩) واجع نثر المرجان ٥/ ٥٥٥ - ٥٥٦ .

أرسلناه بما أرسلناهما به ﴿ فقالوآ ﴾ أى الثلاثة بعد أن[1] أتوهم و ظهر لهم إصرارهم على التكذيب، مؤكدين بحسب ما رأوا من تكذيبهم: ﴿انآ اليكم﴾ أى لا إلى غيركم ﴿ مرسلون ۝ قالوا ﴾ أى أهل[2] القرية: ﴿ مآ انتم ﴾ أى و إن زاد عددكم ﴿ الا ﴾ و لما نقض الاستثناء النفى زال شبهة ما تلبس فزال عملها فارتفع قوله: ﴿بشر مثلنا لا﴾ أى فما وجه الخصوصية لكم فى كونكم رسلا دوننا . و لما كان التقدير: فما أرسلتم إلينا بشىء، عطفوا[3] عليه قوله: ﴿ و مآ انزل الرحمن﴾ أى العام الرحمة، فعموم رحمته مع استوائنا فى عبوديته تقتضى أن يسوى بيننا فى الرحمة فلا يخصكم بشىء دوننا، و أعرقوا [فى النفى -[4]] بقولهم: ﴿من شىء لا﴾ .

و لما كان الإتيان على ما ذكر محتملا للغلط و نحوه، قالوا دافعين لذلك: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ انتم الا تكذبون ۝ ﴾ أى حالا و مآلا ﴿ قالوا ﴾ أى الرسل: ﴿ ربنا ﴾ أى الذى لو لم يكن لنا وازع عن الكذب عليه إلا إحسانه إلينا لكان كافيا ﴿ يعلم ﴾ أى و لذلك يظهر على أيدينا الآيات، و يحمينا ممن يكيدنا، و هذه العبارة تجرى مجرى القسم، و كذا نحو «شهد الله». و لما واجهوهم بهذا التكذيب المبالغ[5] فى تأكيده زادوا فى تأكيد جوابه فقالوا: ﴿ انآ اليكم ﴾ أى خاصة ﴿ لمرسلون ۝ ﴾ [ما آتيناكم غلطا و لا كذبا -[4]]، فالأول ابتداء أخبار، و[6] هذان جوابا[6] إنكار، فأعطى كلا ما يستحق .

---

(١) فى ظ: إذا (٢) زيد فى الأصل: هذا، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عطف (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) فى ظ: البالغ (٦-٦) فى م: هذا جواب.

و لما قرروا ذلك عندهم، اتبعوه بدليله و بالإعلام بأن وبال التكذيب لايلحقهم منه ضرر، إشارة [لهم -١] إلى الإنذار من عذاب الملك الجبار فقالوا: ﴿وما علينآ﴾ أى وجوبا من قبل من أرسلنا٢، و هو الله تعالى الذى له الأمر كله٢ ﴿الا البلٰغ المبين ۝﴾ أى المؤيد بالأدلة القطعية من الحجج القولية و الفعلية٣ بالمعجزات و غيرها، فلولا أنه يعلم لما أمكننا شيء من ذلك كما أن آلهتكم لما لم يكن لها علم لم يقدروا على بيان فى أمرها بشيء، و إذ قد ثبت علم مرسلنا برسالتنا فهو الشاهد [لنا -١] بما يظهر على أيدينا و كفى به شهيدا.

و لما كان حلول الصالحين بين الناس يكون تارة نعمة و أخرى نقمة باعتبار التصديق و التكذيب و الإساءة و الإحسان، فكان قد حصل لهؤلاء الذين كذبوا هؤلاء الرسل [بلاء -١] لتكذيبهم لهم من جدب الأرض و صعوبة الزمان، و نحو ذلك من الامتحان، [ذكر ما أثره ذلك عند أهل القرية فقال -١]: ﴿قالوآ﴾ و لما كانوا لما يرون عليهم من الآيات و ظاهر الكرامات مما٤ يشهد ببركتهم و يمن نقيبتهم [بحيث -١] إذا ذموهم٥ توقعوا تكذيب الناس لهم، اكدوا قولهم: ﴿انا تطيرنا﴾ أى٦ حملنا أنفسنا على الطيرة و التشاوم [تطيرا ظاهرا - بما أشار إليه الإظهار

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد، و كان فى الأصل: و الله، بدل «و هو الله» (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: العملية (٤) من ظ و مد، و فى الأصل: لما، و فى م: بما (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: دنوهم (٦) زيد فى الأصل: انا، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

بخلاف ما فى النمل و الأعراف -[1]] ﴿بكم ج﴾ بنسبة ما حل بنا من البلاء إلى شومكم، لأن عادة الجهال التيمن بما مالوا إليه و يسندون ما حل بهم من نعمة[2] إلى يمنه و التشاوم بما كرهوه، و يسندون ما أصابهم من نقمه إلى شومه؛ ثم إنهم استأنفوا استئناف النتائج قولهم[3] على سبيل [التأكيد -[4]] إعلاما بأن ما أخبروا به لا فترة لهم عنه و إن كان مثلهم مستبعدا عند العقلاء : ﴿لئن لم تنتهوا﴾ أى عن دعائكم هذا ﴿لنرجمنكم﴾ ٣٥٠ / أى لنشتمنكم أو لنرمينكم بالحجارة حتى تنتهوا أو لنقتلنكم شر قتلة. [و لما كان الإنسان قد يفعل ما لا يؤخذ أثره فقالوا معبرين بالمس دون الإمساس -[1]] : ﴿و ليمسنكم منا﴾ أى عاجلا لامن غيرنا[5] كما تقولون أنتم فى تهديدكم إيانا بما يحل بنا ممن أرسلكم ﴿عذاب اليم ٥﴾ حتى تنتهوا عنا لنكف عن إيلامكم[6] ﴿قالوا﴾ أى الرسل : ﴿طآئركم﴾ أى شومكم الذى أحل بكم البلاء ﴿معكم ط﴾ و هو أعمالكم القبيحة التى منها تكذيبكم.

و لما كان لم يبد منهم غير ما يقتضى عند النظر الصحيح التيمن و البركة، و [هو -[1]] التذكير بالله الذى بيده الخير كله، أنكروا عليهم تطيرهم منهم على وجه مبين[7] أنه لا سبب لذلك غيره فقالوا : ﴿ائن ذكرتم ط﴾

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : نعمته.
(٣) العبارة من هنا إلى «العقلاء» ساقطة من ظ (٤) (٧) زيد من م و مد.
(٥) زيد بعده فى الأصل: ولا، و لم تكن الزيادة فى ظ وم ومد فحذفناها (٦) من م ومد. وفى الأصل وظ : اعلامكم (٧) من ظ وم و مد، وفى الأصل : يبين.

أی آلاجل إن حصل لکم تذکیر بالله تطیرتم بنا؟ و لما کان ذلك لایصح أن یکون سببا للتطیر بوجه، أضربوا عنه منبهین لهم علی أن موضع الشوم إسرافهم لا غیر فقالوا : ﴿بل﴾ أی لیس الأمر کما زعمتم فی أن التذکیر سبب للتطیر بل ﴿ انتم قوم ﴾ أی غرکم ما آتاکم الله من القوة علی القیام فیما تریدون ﴿مسرفون ٥﴾ أی عادتکم الخروج عن الحدود و الطغیان فعوقبتم لذلك .

و لما کان السیاق لأن الأمر بید الله ، فلا هادی لمن أضل و لا مضل لمن هدی، فهو یهدی البعید فی البقعــة و النسب إذا[1] أراد ، و یضل القریب فیهما إن شاء، وکان بعد الدار ملزوما فی الغالب لبعد النسب، قدم مکان المجیء علی فاعله بیانا لأن الدعاء [نفع -[2]] الأقصی و لم ینفع الأدنی فقال : ﴿ و جآء من اقصا ﴾ أی[3] أبعد - بخلاف ما مر فی سورة[4] القصص؛ و لأجل هذا الغرض عدل عن التعبیر بالقریة کما تقدم و قال : ﴿ المدینة ﴾ لأنها أدل علی الکبر المستلزم لبعد الأطراف و جمــع الأخلاط . و لما بین الفاعل بقوله : ﴿ رجل﴾ بین اهتمامه بالنهی عن المنکر ومسابقته إلی إزالته کما هو الواجب بقوله : ﴿یسعیٰ ز ﴾ أی یسرع فی مشیه فوق المشی و دون العدو حرصا علی نصیحة قومه .

و لما تشوفت النفس إلی الداعی إلی إتیانه ، بینه بقوله : ﴿ قال ﴾

---

(١) من ظ و م ومد ، و فی الأصل : ان (٢) زید من ظ وم و مد (٣) زید بعده فی الأصل : من ، و لم تکن الزیادة فی ظ و م و مد فحذفناها (٤) سقط من ظ و م و مد .

و استعطفهم بقوله : ﴿ يٰقوم ﴾ و أمرهم بمجاهدة النفوس بقوله : ﴿ اتبعوا المرسلين ﴾ أى فى عبادة الله وحده و [1] كل ما [1] يأمرونكم به ؛ ثم نبههم على الداعى إلى [2] اتباعهم [3] و المانع من الإعراض عنهم بقوله ، [معيدا الفعل دلالة على شدة اهتمامه به - [4]] : ﴿ اتبعوا ﴾ أى بغاية جهدكم ﴿ من لا يسئلكم ﴾ أى فى حال من الأحوال ﴿ اجرا ﴾ [و لما كان [5] أفرد الضمير نظرا إلى لفظ « من » دلالة على وجوب الاتباع لمن اتصف بهذا الأمر الدال على الرسالة و إن كان واحدا ، جمع بيانا للأولوية بالتظافر و التعاضد و الاتفاق فى الصيانة و البعد عن الدنس ، الدال على اتحاد القصد الدال على تحتم الصدق فقال - [4]] : ﴿ و هم مهتدون ﴾ أى ثابت لهم الاهتداء لا يزايلهم ، [ما قصدوا شيئا إلا أصابوا وجه صوابه - [4]] ، فتفوزوا بالدين الموجب للفوز بالآخرة ، و لا يفوتكم شىء من الدنيا ، فأتى بمجامع [6] الترغيب فى هذا الكلام الوجيز .

و لما أفهم السياق أنه قال : فانى [7] اتبعتهم [فى عبادة الله - [4]] ، بنى عليه قوله جوابا لمن يلومه على ذلك و ترغيبا فيما اختاره لنفسه و توبيخا لمن يأباه :

(١ - ١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كما (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : على (٣) زيد فى مد : الدال على رسالتهم (٤) زيد من ظ و مد .
(٥) سقط من مد (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بجامع .
(٧) سقط من ظ .

و ما

﴿ و ما ﴾ أى و أىّ شىء ﴿ لى[1] ﴾ فى أنى ﴿ لآ اعبد الذى فطرنى ﴾ أى[2] و إليه أرجع، فله مبدئى و معادى، و ما لكم لا تعبدون الذى فطركم ﴿ و اليه ﴾ أى لا إلى غيره ﴿ ترجعون ه ﴾ كذلك، فهو يستحق العبادة شكرا لما أنعم به فى الابتداء، و خوفا من عاقبته فى الانتهاء، فالآية من الاحتباك: حذف « و إليه أرجع » أولا لما دل عليه ثانيا، و إنكاره عليهم ثانيا[3] بما دل[3] عليـــه أولا من إنكاره على نفسه استجلابا لهم باظهار الإنصاف، و البعد عن التصريح بالخلاف، و فيه تنبيه لهم على موجب الشكر، و تهديد على ارتكاب الكفر.

و لما أمر صريحا و نهى تلويحا، و رغب / و رهب، و وبخ و قرع، / ٣٥١
و بين جلالة من آمن به و من كانوا سببا فى ذلك، أنكر على من يفعل غيره بالإنكار على نفسه، محقرا لمن عبدوه من دون الله و هم غارقون فى نعمه، فقال مشيرا بصيغة الافتعال إلى أن فى ذلك مخالفة للفطرة الأولى: ﴿ ء اتخذ ﴾ و بين علو رتبته سبحانه بقوله: ﴿ من دونه ﴾ [أى -[4]] سواء مع دنو المنزلة؛ و بين عجز ما عبدوه بتعدده فقال: ﴿ الهة ﴾ ثم حقق ذلك بقوله مبينا بأداة الشك أن النفع أكثر من الضر ترغيبا فيه سبحانه: ﴿ ان يردن ﴾ [إرادة خفيفة بما أشار إليه حذف الياء، أو شديدة بما أشار إليه إثباتها، ظاهرة بما دل عليه تحريكها، أو خفية بما نبه عليه إسكانها[5] -].

(١) وقع فى الأصل و م و مد قبل « أى و أىّ »، و الترتيب من ظ.
(٢) سقط من ظ (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يدل (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد من ظ و مد.

[و لما ذكرهم بابداعه سبحانه له إرشادا إلى أنهم كذلك، صرح بما يعمهم فقال -[١]] : ﴿ الرحمٰن ﴾ أى العام النعمة على كل مخلوق من العابد و المعبود، و حذرهم بقوله : ﴿ بضر ﴾ و أبطل أنهى ما يعتقدونه فيها بقوله : ﴿ لا تغنِ عنى ﴾ أى و كل أحد مثلى فى هذا ﴿ شفاعتهم ﴾ أى لو فرض أنهم شفعوا و لكن شفاعتهم لا توجد ﴿ شيئا ﴾ من إغناء. [و لما دل بافراد الشفاعة على عدمها عدما و لو اتحدت شفاعتهم و تعاونهم فى آن واحد، دل بضمير الجمع على أنهم كذلك سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين فقال - [٢]] : ﴿ و لا ينقذون ج ﴾ أى من[٣] مصيبته إن دعا الأمر إلى المشاققة[٤] [بما أراده فانه بمجرد إرادته يكون مراده، إنفاذا ضعيفا - بما أشار إليه من حذف الياء، و لا شديدا - بما دل عليه من أثبتها ظاهرا خفيا - [٢]] ، ثم استأنف ما يبين بعد ذلك عن فعل العقلاء الناصحين لأنفسهم بقوله مؤكدا له[٣] بأنواع التأكيد لأجل إنكارهم له بعدم رجوعهم عن معبوداتهم[٥] : ﴿ انى اذاً ﴾ أى إذا فعلت ذلك الاتخاذ ﴿ لفى ضلٰل ﴾ أى محيط بى لا أقدر معه على نوع اهتداء ﴿ مبين ۝ ﴾ أى واضح فى نفسه لمن لم يكن مظروفا له، موضح لكل ناظر ما [هو -[١]] فيه من الظلام.

و لما أقام الأدلة و لم يبق لأحد تخلف عنه علة[٣]، صرح بما لوح

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد من ظ و مد (٣) سقط من ظ.
(٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المشقات (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: معدوداتهم.

إليه من إيمانه، فقال مظهرا لسروره بالتأكيد و قاطعا لما يظنونه من أنه لا يجترئ على مقاطعتهم كلهم بمخالفتهم فى أصل الدين: ﴿انىٓ ءامنت﴾ أى أوقعت التصديق الذى لا تصديق فى الحقيقة غيره بالرسل مؤمنا لهم من [أن -١] أدخل عليهم نوع تشويش من تكذيب أو غيره. [و لما أرشدهم بعموم الرحمانية تلويحا، صرح لهم بما يلزمهم شكره من خصوص الربوبية فقال -١]: ﴿بربكم﴾ أى بسبب الذى لا إحسان عندكم إلا منه [قد نسيتم ما له لديكم من الربوبية و الرحمانية و الإبداع -٢]، و زاد فى مصارحتهم إظهارا لعدم المبالاة بهم بقوله: ﴿فاسمعون﴾ أى [سماعا إن شئتم أشعتموه، و إن شئتم كتمتموه - بما دل عليه حذف الياء و إثباتها -٣]، فلا تقولوا بعد ذلك: ما سمعناه، و لو سمعناه لفعلنا به. فوثبوا[٤] إليه و ثبة رجل واحد فقتلوه، و قد أخبر النبى صلى الله عليه و سلم أن مثل صاحب يٰس هذا فى هذه الأمة عروة بن مسعود الثقفى حيث بادى قومه بالإسلام، و نادى على عليته بالأذان، فرموه بالسهام فقتلوه.

و لما كان من المعلوم - بما دل عليه من صلابتهم فى تكذيبهم الرسل و تهديدهم مع ما لهم من الآيات - أنهم لا يبقون هذا الذى هو [من -١] مدينتهم و قد صارحهم بما إن أغضوا عنه فيه انتقض عليهم أكثر أمرهم. لم[٥] يذكره تعالى عدا له[٦] عداد ما[٧] لا يحتاج إلى ذكره، و قال

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد من م و مد (٣) زيد من ظ و مد.
(٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فثوبوا (٥) فى م: فلم (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لهم (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من.

جوابا لمن تشوف إلى علم حاله بعد ذلك بقوله إيجازا فى البيان ترغيبا لأهل الإيمان: ﴿ قيل ﴾ [أى له بعد قتلهم إياه -[1]]، فبناه للفعول و حذفه لأن المقصود القول لا قائله و المقول له معلوم: ﴿ادخل الجنة[4]﴾ لأنه شهيد، و الشهداء يسرحون فى الجنة حيث شاؤا من حين الموت.

و لما كان الطبع البشرى داعيا إلى محبة الانتقام ممن وقع منه الأذى، بين سبحانه أن الأصفياء على غير ذلك الحال، فقال مستأنفا: ﴿ قال يٰليت قومى ﴾ أى الذين فيهم قوة لما يراد منهم، فلو كانت [2]قوتهم على الكفار لكانت حسنة[2] ﴿ يعلمون ۙ ﴾ و لما أريد التصريح بوقوع الإحسان إليه، حل المصدر إلى قوله: / ﴿ بما غفر لى ﴾ أى ٣٥٢ / أوقع الستر لما كنت مرتكبا له طول عمرى من الكفر به [بايمان -[1]] فى مدة يسيرة ﴿ ربى ﴾ أى الذى أحسن إلىّ فى الأخرى بعد إحسانه فى الدنيا ﴿ و جعلنى ﴾ و لما كان الأنس أعظم فوز، عدل عن أن[3] يقول « مكرما » إلى قوله: ﴿من المكرمين ﴾ أى الذين أعطاهم الدرجات العلى بقطعهم جميع أعمارهم فى العبادة، فنصح لقومه حيا و ميتا يتمنى علمهم باكرامه تعالى له[3] [4]ليعملوا مثل عمله[4] فينالوا ما ناله، و فى قصته حث على المبادرة إلى مفارقة الأشرار و اتباع الأخيار، و الحلم عن أهل الجهل وكظم الغيظ، و التلطف فى خلاص الظالم من[5] ظلمه، [و أنه لا يدخل

(١) زيد من ظ و م و مد (٢-٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قومهم كانت حسية (٣) سقط من ظ (٤ - ٤) فى ظ: ليعلموا مثل علمه (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ممن.

أحد

أحد الجنة إلا برحمة الله و إن كان محسنا -[1]]، و هذا كما وقع للأنصار رضى الله عنهم فى المبادرة إلى الإيمان مع بعد الدار و النسب، و فى قول[2] من استشهد منهم فى بئر معونة - كما رواه البخارى فى المغازى[3] عن أنس رضى الله عنه: بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا و أرضانا، و فى غزوة أحد كما فى السيرة و غيرها لما وجدوا طيب [4]مأكلهم و مشربهم[4] و حسن مقيلهم: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد و لا ينكلوا عن الحرب، فقال [تبارك و -[9]] تعالى: فأنا[5] أبلغهم عنكم، فأنزل [6]الله تعالى[6] [على رسوله صلى الله عليه وسلم-[9]] "ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا" الآيات فى سورة آل عمران، و فى التمثيل بهذه القصة إشارة إلى أن فى قريش من ختم بموته على الكفر و لم ينقص ما ضرب له من الأجل، فهو سبحانه يؤيد هذا[7] الدين بغيرهم لتظهر قدرته و ليستوفى الآجال أولئك، ثم يقبل بقلوب غيرهم، فتظهر مع ذلك حكمته - إلى غير ذلك من ينابيع المعانى، و ثابت المبانى.

و لما كان سبحانه قد جعل أكثر جند هذا النبى الكريم من الملائكة فأيده بهم فى حالتى المسالمة و المصادمة[8] و حرسه ممن أراده فى مكة المشرفة و بعدها [بهم - [9]]، ذكره ذلك[7] بقوله عاطفا على ما

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قوله (٣) راجع ٢/٥٨٦ (٤ - ٤) فى م و مد: مشربهم و ماكلهم (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انا (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٧) سقط من ظ (٨) من ظ و م ومد، وفى الأصل: المصادقة (٩) زيد من ظ وم ومد.

تقديره : و ما أنزلنا على قومه قبل قتلهم له من جند من السماء يحول بينهم و بين ذلك كما فعلنا بك إذ أراد أبو جهل قتلك[١] بالصخرة [٢]و أنت[٢] ساجد عند البيت و غيره بغير ذلك مما هو مفصل فى السير ، و أما [بعد - ٣] الهجرة ففى غزوة الأحزاب إذ أرسلنا عليهم ريحا و جنودا ردتهم خائبين ، و فى غزوة أحد و بدر و حنين و غير ذلك : ﴿ و مآ انزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ على قومه ﴾ أى صاحب يٰس ﴿من بعده﴾ أى بعد قتله ، و أعرق فى النفى بقوله : ﴿من جند﴾ و حقق المراد بقوله : ﴿ من السمآء ﴾ أى لإهلاكهم ، و حقق أن إرسال الجنود السماوية أمر خص به صلى الله عليه و سلم لأنه لحكم ترجع إلى النصرة بغير الاستئصال فانهم يتبدون فى صور[٤] الآدميين و يفعلون أفعالهم . و أما عذاب الاستئصال فان السنة الإلهية جرت بأنه لايكون بأكثر من واحد من الملائكة لأنه أدل على الاقتدار ، فلذلك قال تعالى : ﴿ و ما كنا منزلين ﴾ أى ما كان ذلك من سنتنا ، و ما صح فى حكمتنا أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ كانت ﴾ أى[١] الواقعة التى عذبوا بها ﴿الا صيحة﴾ صاحها بهم جبريل عليه السلام فماتوا عن آخرهم ؟ و أكد أمرها و حقق وحدتها بقوله : ﴿واحدة﴾ أى لحقارة أمرهم عندنا ، ثم زاد فى تحقيرهم ببيان الإسراع فى الإهلاك بقوله : ﴿فاذا هم خمدون ﴾ أى ثابت / لهم الخمود ما كأنهم [٢]كانت لهم[٢] ٣٥٣ /

(١) سقط من ظ (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من ظ (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و م ومد ، و فى الأصل : صورة .

حركة يوما من الدهر، و من المستجاد فى هذا قول أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى:

وَ كالنار الحياة فمن رماد أواخرها و أولها دخان

و لما أخبر عنهم سبحانه بما هو الحق من أمرهم، و رغبهم بما ضرب لهم من المثل و رهبهم ولم ينفعهم ذلك، أنتج التاسيف عليهم و على الممثل بهم و من شابههم فقال تعالى: ﴿ يٰحسرة ﴾ أى هذا الحال مستحق للملازمة حسرة عظيمة ﴿ على العباد ۚ ﴾ فكأنه قيل لها: تعالى فهذا من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها، فان هؤلاء أحقاء بأن يتحسر عليهم، و الحسرة: شدة الندم على ما فات، فأحرق فقده و أعيي أمره، فلا حيلة فى رده، و يجوز أن يكون المعنى أن العباد - لكثرة ما يحكسون من أعمالهم - لا تفارقهم أسباب الحسرة و لا حاضر معهم[1] غيرها، فلا نديم لهم إلا هى، [و -[2]] لا مستعلى عليهم و غالب[3] لهم سواها.

و لما كان كأنه قيل: أىّ حال؟ قال مبينا له و معللا للتحسر بذكر سببه: ﴿ما ياتيهم﴾ و أعرق فى النفى و التعميم بقوله: ﴿من رسول﴾ أىّ رسول كان فى أىّ وقت كان ﴿ الا كانوا به ﴾ أى بذلك الرسول ﴿يستهزءون ۝﴾ أى يوجدون الهزء، و الرسل أبعد الخلق من الهزء حالا و مقالا و فعالا، و من الواضح أن المستهزئ بمن[4] هذا حاله هالك

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تعمهم (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: طالب (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من.

فهو جدير بملازمة الحسرة له و أن يتحسر عليه .

و لما أتم سبحانه الخبر عن[1] أول [أمر - [2]] الممثل بهم و أول أمر المؤمن بهم و آخره ، و أذن هذا التحسر بأن هلاك المكذبين أمر لا بد منه ، دل عليه معجبا من عدم نظرهم لأنفسهم و مهددا للسامعين منهم ، و محذرا من آخر أمر الممثل بهم على وجه اندرج فيه جميع الأمم الماضية و الطوائف الخالية بقوله : ﴿ الم يروا ﴾ أى يعلم هؤلاء الذين تدعوهم علما هو كالرؤية بما صح عندهم من الأخبار و ما شاهدوه من الآثار : ﴿ كم اهلكنا ﴾ على ما لنا من العظمة ، و دل قوله : ﴿ قبلهم ﴾ - بكونه ظرفا لم يذكر فيه الجار - على أن المراد جميع الزمان الذى تقدمهم من آدم إلى زمانهم ، و إدخال الجار على المهلكين يدل على أن المراد بعضهم ، فرجع حاصل ذلك إلى أن المراد : انظروا[3] جميع ما مضى من الزمان هل عذب فيه قوم[1] عذاب الاستئصال إلا بسبب عصيان الرسل فقال : ﴿ من القرون ﴾ أى الكثيرة الشديدة الضخمة ، و القرن - قال البغوى[4]: أهل[5] كل عصر سموا[6] بذلك لاقترانهم فى الوجود ﴿ انهم ﴾ أى لأن القرون .

و لما كان المراد من رسول ليس واحدا[7] بعينه ، و كانت صيغة

(1) سقط من ظ (2) زيد من ظ و م و مد (3) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : نظروا (4) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ / ٧ (5) من ظ و م و مد و المعالم ، و فى الأصل : اصل (6) من ظ و م و مد و المعالم ، و فى الأصل : سوا (7) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : واحد .

فعول كفعيل يستوى فيها[1] المذكر و المؤنث و الواحد و الجمع، أعاد الضمير للجمع[2] فقال: ﴿ اليهم ﴾ أى[3] إلى الرسل خاصة[4] من حيث كونهم رسلا[4] ﴿لا يرجعون ۩﴾ أى عن مذاهبهم الخبيثة، و يخصون الرسل بالاتباع فلا يتبعون غيرهم أصلا فى شيء من الأشياء الدينية أو[5] الدنيوية فاطردت[6] سنتنا و لن تجد لسنتنا تبديلا فى أنه كلما كذب قوم رسولهم أهلكناهم و نجينا رسولهم و من تبعه، أ فلا يخاف هؤلاء أن نجريهم على تلك السنة القديمة القويمة[7] فـ " ان " تعليلية / على إرادة حذف لام العلة / ٣٥٤ كما هو معروف فى غير موضع، و ضمير " انهم " للرسل إليهم، و ضمير " اليهم " للرسل، لا يشك فى هذا من له ذوق سليم و طبع مستقيم، و التعبير بالمضارع للدلالة على إمهالهم و التأنى بهم[3] و الحلم عنهم مع تماديهم فى العناد بتجديد عدم الرجوع، [و " يرجعون " -[7]] هنا نحو قوله تعالى " و لنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون " أى عن طرقهم[8] الفاسدة[9] - و هذا معنى الآية بغير شك، و ليس بشيء قول من قال: المعنى أن المهلكين لا يرجعون إلى الدنيا ليفيد الرد على من يقول بالرجعة لأن العرب ليست ممن يعتقد ذلك، و لو سلم لم يحسن، لأن السياق ليس له، لم يتقدم عنهم غير الاستهزاء، فأنكر عليهم استهزاءهم

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: فيه (٢) فى ظ و مد: جميع (٣) سقط من ظ (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من ظ وم ومد، و فى الأصل: « و » (٦) من ظ وم و مد، و فى الأصل: فاضطردت (٧) زيد من ظ وم و مد (٨) فى ظ: طريقهم (٩) زيدت الواو فى الأصل، ولم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها.

مع علمهم بأن الله تعالى أجرى سنته أن[1] من استهزأ بالرسل و خالف قولهم فلم يرجع إليه أهلكه، اطرد ذلك من سنته و لم يتخلف فى أمة من الأمم كما وقع لقوم نوح و هود و من بعدهم، لم يتخلف في واحدة [منهم -[2]]، و كلهم تعرف العرب أخبارهم، و ينظرون آثارهم، و كذا يعرفون قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فالسياق للتهديد، فصار المعنى: ألم ير[3] هؤلاء كثرة من أهلكنا ممن[4] قبلهم لمخالفتهم للرسل، أفلا يخشون مثل ذلك فى مخالفتهم لرسولهم؟ و ذلك موافق لقراءة الكسر التى نقلها البرهان السفاقسى عن ابن عباس رضى الله عنهما و غيره عن الحسن، و قالوا: إنها استئنافية، فهى على تقدير سؤال من كأنه قال: لم أهلكهم؟ و هذا كما إذا[3] شاع أن الوادى[5] الفلانى ما سلكه أحد إلا أصيب، يكون ذلك مانعا عن سلوكه، و إن أراد ذلك أحد صح أن يقال له: ألم تر أنه ما سلكه أحد إلا هلك، فيكون ذلك زاجرا له و رادا عن التمادى فيه، لكون العلة فى الهلاك سلوكه فقط، و ذلك أكف له من أن يقال له: ألم تر أن الناس يموتون و كثرة من مات منهم ولم يرجع أحد منهم، غير معلل ذلك بشيء من سلوك الوادى و لا غيره، فان هذا أمر معلوم له، غير مجدد فائدة، و زيادة عدم الرجوع إلى الدنيا لا دخل لها فى العلية أيضا لأن ذلك معلوم عند المخاطبين بل

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بأن (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) سقط من ظ (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مما (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الموادى.

هم قائلون بأعظم منه من أنه لاحياة بعد الموت لا[1] إلى الدنيا و لا إلى غيرها ، و على تقدير التسليم فربما كان ذكر الرجوع للأموات أولى بأن يكون تهديدا ، فان كل إنسان منهم يرجع حينئذ إلى ما فى يد غيره مما[2] كان مات عليه و يصير المتبوع بذلك تابعا أو يقع الحرب و تحصل الفتن ، فأفاد ذلك أنه لايصلح[3] التهديـــد بعدم الرجوع - و الله الموفق للصواب[4] .

و لما كان كثير[5] من أهل الجهل و ذوى الحمية و الأنفة لايبالون بالهلاك فى متابعة الهوى اعتمادا على أن موتة واحدة فى لحظة يسيرة أهون من حمل النفس على ما لا تريد ، فيكون لهم فى كل حين موتات[6] ، أخبر تعالى أن الأمر غير منقضٍ بالهلاك الدنيوى ، بل هناك من الخزى و الذل و الهوان و العقوبة و الإيلام ما لاينقضى أبدا فقال: ﴿و ان كل﴾ أى و إنهم كلهم ، لايشذ منهم أحد ، و زاد فى التأكيد[7] لمزيد تكذيبهم بقوله : ﴿ لما ﴾ و من شدد[8] « لما » فالمعنى عنده « و ما كل منهم إلا » و أشار إلى أنهم يأتون صاغرين راغمين فى حالة اجتماعهم كلهم فى الموقف / لاتناصر عندهم و لاتمانع ، و ليس [9]أحد منهم[9] غائب بحال التخلف عن / ٣٥٥

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الا (٢) من ظ وم ومد ، وفى الأصل : ما (٣) من ظ وم ومد ، و فى الأصل : لايصح (٤) سقط من ظ و م و مد . (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كثيرا (٦) من ظ و م و مد ؛ و فى الأصل : موتان (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : التكذيب (٨) زيد فى الأصل : قال ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٩ - ٩) فى ظ و م و مد : منهم احد .

الانتصار عليه فقال: ﴿ جميع ﴾ و أشار إلى غرابة الهيئة التى يجتمعون عليها بقوله : ﴿ لدينا ﴾ و زاد فى العظمة بابرازه فى مظهرها ، و عبر باسم الفاعل المأخوذ من المبنى للمفعول فقال [جامعا نظرا إلى معنى « كل » لأنه أدل على الجمع فى آن واحد و هو أدل على العظمة -[1]] : ﴿محضرون ع﴾ أى فى يوم القيامة بعد بعثهم بأعيانهم كما كانوا فى الدنيا سواء ، إشارة إلى أن هذا الجمع على كراهة منهم و إلى أنه أمر ثابت لازم دائم ، كأنه لعظيم ثباته لم يزل ، و أنه لا بد منه ، و لا حيلة فى التفصى[2] عنه ، و أنه يسير لا توقف له على غير الإذن ، فاذا أذن فعله كل من يؤمر[3] به من الجنود كائنا من كان ، و ما أحسن ما قال القائل :

و لو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
و لكنا إذا متنا بعثنا و نسأل بعدها عن كل شى

و لما أتم ضرب المثل المفيد لتمام قدرته على الأفعال الهائلة ببشارة و نذارة حتى أن من طبع على قلبه فهو لا يؤمن و إن[4] كان قريبا فى[5] النسب و الدار ، و من أسكن قلبه الخشية يؤمن و إن شط به النسب و المزار ، فتم[6] التعريف [7]بالقسم المقصود[7] بالذات و هو من يتبع [الذكر -[1]] ،

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : التفضى . (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يامر (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لما (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : من (٦) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : ختم (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بالمقصود .

و ختم

وختم بالبعث و كانوا له منكرين ، و كان قد جعله[١] فى صدور الكلام من تمام بشارة من اتبع الذكر[٢] ، دل عليه [بقوله - [٣]] مبتدئا بنكرة تنوينها[٤] دال عـلى تعظيمها : ﴿ و اٰية ﴾ أى [علامة - [٥]] عظيمة ﴿ لهم[٦] ﴾ على قدرتنا[٧] على البعث و إيجادنا له ﴿ الارض ﴾ أى هذا الجنس الذى هم منه[٨] ؛ ثم وصفها بما حقق وجه الشبه فقال : ﴿ الميتة صلے ج ﴾ التى [لا روح لها لأنه - [٥]] لا نبات بها أعم من أن يكون بها نبات و فنى فتفتت[٩] و صار ترابا أو لم يكن بها[١٠] شيء أصلا . ثم استأنف بيان كونها[١١] آية بقوله : ﴿ احيينها ﴾ أى باختراع النبات فيها أو باعادته بسبب المطر كما كان بعد اضمحلاله .

و لما كان إخراج الأقوات نعمة أخرى قال[١٢] : ﴿ و اخرجنا منها حبا ﴾ و نبه تعالى على عظيم القدرة [فيها - [١٣]] و على عموم نفعها بمظهر العظمة ، و زاد فى التنبيه بالتذكير بأن الحب معظم ما يقيم الحيوان فقال مقدما للجار إشارة إلى عد غيره بالنسبة إليه عدما لعظيم وقعه و عموم نفعه

---

(١) زيد فى ظ : له (٢) زيدت الواو فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : تنو يها (٥) زيد من ظ و مد (٦) فى الأصل وم ، اى علامة ، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٧) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : القدرة (٨) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : فيه (٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فلفتت . (١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : به (١١) من م و مد ، و فى الأصل : كونه ، و الكلمة ساقطة من ظ (١٢) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : فقال . (١٣) زيد من م و مد .

بدليل أنه متى قل جاء القحط و وقع الضرر : ﴿ فمنه ﴾ [أى بسبب هـــذا الإخراج -[1]] ﴿ يأكلون ۝ ﴾ أى فهو حب حقيقة يعلمون ذلك علم اليقين و عين اليقين و حق اليقين[2] لايقدرون على أن يدعوا أن ذلك خيال سحرى بوجه ، و فى هذه الآية و أمثالها حث عظيم على تدبر[3] القرآن و استخراج ما فيه من المعانى الدالة على جلال الله و كماله ، و قد أنشد هنا[4] الأستاذ أبو القاسم القشيرى رحمه الله فى تفسيره فى عيب من أهمل ذلك فقال[5] :

يا من تصدر[6] فى دست الإمامة[7] فى مسائل الفقـــه إملاء و تدريسا
غفلت عن حجج التوحيد تحكمها شيدت فرعا و ما مهدت تأسيسا

و لما ذكر سبحانه ما فى الزروع[8] و ما لاساق له من النعمة و القدرة ، و دل السياق فيه على الحصر ، أتبعه ما بين أن المراد التعظيم لا الحصر الحقيقى باظهار المنة فى غيره من الأشجار الكبار و الصغار ذات الأقوات[9]
/٣٥٦ و الفواكه ، فقال دالا على عظمه بمظهر / العظمة : ﴿ و جعلنا ﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أى الأرض ﴿ جنت ﴾ أى بساتين تستر داخلها[10] بما فيها من الأشجار الملتفة ، و لما كان النخل - مع ما فيه من النفع - زينة دائما بكونه[11] لا يسقط ورقه ، قدمه و سماه باسمه فقال :

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) زيدت الواو فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تدبير (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ها (٥) ليس فى ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد ، وفى الأصل : قصدو (٧) من ظ و م ومد ، وفى الأصل : الامة (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المزروع (٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الاموات (١٠) من ظ و م ومد ، و فى الأصل : دانيها (١١) من م ، و فى الأصل : بكون ، و فى مد : لكونه ، و الكلمة ساقطة من ظ .

﴿من نخيل﴾ [و فيه أيضا إشارة إلى أنه نفع كله خشبه و ليفه و شعبه و خوصه و عراجينه و ثمره طلعا و جمارا و بسرا و رطبا و تمرا، و لذلك - و الله أعلم - أتى فيه بصيغة جمع الكثرة كالعيون -[1]]، و لما كان الكرم لا تكون له زينة بأوراق تجن إلا ما كان العنب قائما قال: ﴿و اعناب﴾ و دل بالجمع فيهما دون الحب على كثرة اختلاف الأصناف في النوع الواحد الموجب للتفاوت الظاهر في القدر[2] و الطعم و غير ذلك.

و لما [كانت الجنات لا تصلح إلا بالماء -[1]]، وكان من طبع الماء الغور[3] في التراب و الرسوب بشدة السريان إلى أسفل، فكان فورانه إلى جهة العلو أمرا باهرا للعقل لا يكون إلا بقسر قاسر حكيم قال: ﴿و فجرنا﴾ أي فتحنا تفتيحا عظيما ﴿فيها﴾ و دل على تناهي عظمته و تعاليها عن أن يحاط بشيء منها بالتبعيض بقوله: ﴿من العيون ۙ﴾ [و التعريف هنا يدل على أن الأرض مركبة على الماء، فكل موضع منها صالح لأن ينفجر منه الماء، و لكن الله يمنعه عن بعض المواضع بخلاف الأشجار ليس منها شيء غالبا على الأرض -[1]]، ففي[4] ذلك تذكير بالنعمة في حبس الماء عن بعض الأرض لتكون موضعا للسكن، و لو شاء لفجر الأرض كلها [5]عيونا كما فعل بقوم نوح عليه السلام فأغرق الأرض كلها[5].

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: القدرة (٣) من مد، و في الأصل و ظ و م: الفور (٤) من ظ و مد، و في الأصل و م: و في (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ.

[1]و لما كانت حياة كل شيء إنما هي بالماء، أشار[1] إلى ذلك بقوله: ﴿ليأكلوا من﴾ [و أشارت قراءة حمزة و الكسائي[2] بصيغة الجمع مع إفراد الضمير إلى أن الشجرة الواحدة تجمع بالتطعيم أصنافا من الثمر -[3]] ﴿ثمره﴾ أي من ثمر ما تقدم، و لولا الماء لما طلع، و لو لا أنه بكثرة لما أثمر بعد الطلوع.

و لما كان الإنسان قد يتسبب[4] في تربية بعض الأشياء، أبطل سبحانه الأسباب فيما يمكن أن يدعو فيه[5] تسببا، و نبه على أن الكل بخلقه فقال: ﴿و ما عملته﴾ أي و لم تعمل شيئا من ذلك ﴿ايديهم﴾ [[6] أي عملا ضعيفا[6] - بما أشار إليه تأنيث الفعل فكيف بما فوقه و إن تظافروا على ذلك بما أشار إليه جمع اليد -[3]]. و لما كان السياق ظاهرا في هذا جاءت قراءة حمزة و الكسائي و حفص[2] عن عاصم بحذف الضمير غير منوي قصرا للفعل تعميما للمفعول ردا لجميع الأمور إلى بارئها سواء كانت بسبب أو بغير سبب، أي و لم يكن لأيديهم عمل لشيء[7] من الأشياء لا لهذا [8]و لا لغيره مما[8] له مدخل في عيشهم و من غيره، و لذلك حسن [كل -[9]] الحسن إنكاره عليهم عدم الشكر بقوله: ﴿أ فلا يشكرون﴾ أي يدأبون دائما في إيقاع الشكر و الدوام على تجديده في كل حين [بسبب هذه النعم الكبار -[3]].

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) راجع نثر المرجان ٥/٥٦٩ (٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: تسبب (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: به (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من مد (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: بشيء (٨-٨) من ظ و م و مد، و في الأصل: هذا و لا غيره فما (٩) زيد من ظ و م و مد.

و لما

و لما كان السياق لإثبات الوحدانية و الإعلام بأن ما عبد من دونه لا استحقاق له فى ذلك بوجه، و لا نفع بيده و لا ضر، و أنتج هذا السياق - بما دل عليه من تفرده [بكل كمال -[١]] و أنـــه لا أمر لأحد معه بوجه من الوجوه[٢] - تنزهه عما ادعوه من الشرك غاية التنزه، قال [لافتا الكلام عن مظهر العظمة لأن إثباتها بالرحمة الدال عليها أدخل فى التعظيم -[٣]]: ﴿ سبحٰن الذى ﴾ و وصفه بما[٤] أكد ما مضى من إسناد الأمور كلها إليه و نفى كل شيء منها عمن سواه فقال: ﴿ خلق الازواج ﴾ أى الأنواع المتشاكلة المتباينة فى الأوصاف و فى الطعوم و الأرايح و الأشكال و الهيئات و الطبائع و غير ذلك من أمور لايحصيها إلا الله تدل أعظم دلالة على كمال القدرة و عظيم الحكمة و الاختيار فى الإرادة، و أكد بقوله: ﴿ كلها ﴾ لإفادة التعميم؛ ثم زاد الأمر تصريحا بالبيان بقوله: ﴿ مما تنبت الارض ﴾ فدخل فيه كل نجم و شجر و معدن و غيره من كل ما يتولد منها، [و أشار - لكونه فى سياق تكذيبهم - إلى تأديبهم بتحقيرهم بجمع القلة و التعبير بالنفس التى تطلق فى الغالب على ما يذم به فقال -[٣]]: ﴿ و من انفسهم ﴾ و بين أن[٥] وراء ذلك أمورا[٦] لايعلمها إلا هو سبحانه فقال: ﴿ و مما لايعلمون ۝ ﴾ أى و مما لايحتاجون [إليه -[١]]

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيدت الواو بعده فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لما (٥) سقط من ظ (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: امور.

فى دينهم و لادنياهم ، و لا توقف لشىء من إصلاح المعاش و المعاد عليه ، و لو[1] كان ذلك لأعلم به كما أعلم باحوال الآخرة و غيرها مما لم نكن نعلمه .

و لما دربهم على النظر بآيات الأعيان الحسية الدالة على القدرة ٣٥٧ / الباهرة / لاسيما على البعث ، رقاهم إلى المعانى على ذلك النحو ، فان إيجاد كل من الملوين بعد إعدامه أدل دليل على البعث ، فقال ناقلا[2] لهم من المكان الكلى إلى الزمان الكلى الجامعين للجواهر و الأعراض : ﴿و اٰية لهم﴾ [أى -[3]] على إعادة الشىء بعد إفنائه[4] ﴿ الّيل ﴾ أى الذى يشاهدونه لاشك عندهم فيه و لاحيلة بوجه فى رفعه ؛ ثم استأنف قوله : ﴿نسلخ﴾ [عائدا إلى مظهر العظمة دلالة على جلالة هذا الفعل بخصوصه -[5]] .

و لما كان الأصل فى هذا الوجود الظلام ، و الضياء حادث ، و كان ضياؤه ليس خالصا ، عبر بـ « من » التى تصلح للملابسة مع التخلل فى الأجزاء فقال : ﴿ منه النهار ﴾ أى الذى كان مختلطا به بازالة الضوء[6] و كشفه عن حقيقة الليل ﴿ فاذا هم ﴾ بعد إزالتنا للنهار الذى سلخناه من الليل ﴿ مظلمون ﴾ أى داخلون فى الظلام بظهور الليل الذى كان الضياء ساترا له كما يستر الجلد الشاة[7] . قال الماوردى : و ذلك أن ضوء النهار

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ان (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قافلا (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) زيد من ظ و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فنايه (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الوصف (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الفساه - كذا .

يتداخل فى الهواء فيضىء فاذا خرج منه أظلم - نقله ابن الجوزى عنه ، و قد أرشد السياق حتما إلى أن التقدير : و النهار نسلخ منه الليل الذى كان ساتره و غالبا عليه فاذا هم مبصرون .

و لما ذكر الوقتين ، ذكر آيتيهما فقال : ﴿ و الشمس ﴾ أى التى سلخ[1] النهار من الليل بغيبوبتها ﴿ تجرى ﴾ و لما كان غيابها بالليل مثل سكون الإنسان فى مبيته ، و جعلها على خط قدر لسيرها كل يوم بتقدير لا زيغ فيه و منهاج لا يعوج ، قال : ﴿ لمستقر ﴾ [2]أى عظيم[2] ﴿ لها ﴾ و هو السير الذى لا تعدوه[3] جنوبا و لا شمالا ذاهبة و آتية[4]، و هى فيه مسرعة - بدليل التعبير باللام فى موضع « إلى » و يدل على هذا قراءة «لامستقرلها» بل هى جارية أبدا إلى انقراض الدنيا [فى موضع مكين محكم هو أهل للقرار ، و عبر به مع أنها لا تستقر ما دام هذا الكون لئلا يتوهم أن دوام حركتها لأجل أن موضع جريها لا يمكن الاستقرار عليه - [5]] ، و لا ينافى هذا ما فى صحيح البخارى و فى كتاب الإيمان من صحيح مسلم[6] عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال : مستقرها تحت العرش ، و أنها تذهب فتستأذن فى السجود فيؤذن لها و كأنها قد[7] قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فتطلع من مغربها - هذا لفظ مسلم ،

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : تسلخ (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لا يعدونه (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : آتية (٥) زيد من ظ و مد (٦) باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان ١ / ٨٨ (٧) من ظ و م و مد و صحيح مسلم ، و فى الأصل : مذ .

وسيأتى لفظ البخارى، و يمكن أن يكون المستقر آخر جريها عند إبادة[1] هذا الوجود.

و لما كان هذا الجرى على نظام لايختل على مر السنين و تعاقب الأحقاب تكل الأوهام عن استخراجه، و تحير الأفهام فى[2] استنباطه، عظمه بقوله: ﴿ذلك﴾ أى الأمر الباهر للعقول؛ و زاد فى عظمه بصيغة التفعيل فى قوله: ﴿تقدير﴾ و أكد ذلك [لافتا القول عن مطلق مظهر العظمة إلى تخصيصه -[3]] بصفتى العزة و العلم [تعظيما لهذه الآية تنبيها على أنها أكبر آيات السماء -[3]] فقال: ﴿العزيز﴾ أى الذى لايقدر أحد فى شيء من أمره[4] على نوع مغالبة، و هو غالب على كل شيء ﴿العليم ؕ﴾ أى[5] المحيط علما[5] بكل شيء[6] الذى يدبر الأمر، فيطرد على نظام عجيب[7] و نهج بديع لايعتريه وهن و لا يلحقه يوما نوع خلل إلى أن[8] يريد سبحانه إبادة[1] هذا الكون فتسكن حركاته و تفنى موجوداته، روى البخارى[9] عن أبى ذر رضى الله عنه قال: كنت مع النبى صلى الله عليه و سلم فى المسجد عند غروب الشمس فقال: يا أبا ذر! أتدرى أين تذهب؟ قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: فانها تذهب حتى تسجد

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انارة (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: عن (٣) زيد من ظ و مد (٤) من ظ وم و مد، و فى الأصل: امر. (٥) سقط من ظ (٦) زيد فى ظ: اى (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عظيم نجيب (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ما (٩) راجع أبواب التوحيد ٢ / ١١٠٤ و راجع أيضا أبواب التفسير.

تحت

تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، و يوشك أن تسجد فلا يقبل منها و تستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعى من حيث جئت، فذلك قوله تعالى "و الشمس تجرى لمستقر لها".

/ و لما ذكر آية النهار، أتبعها آية الليل فقال: ﴿ و القمر ﴾ /٣٥٨ [و معناه فى قراءة ابن كثير و نافع و أبى عمرو و روح عن يعقوب بالرفع[1]: يجرى لمستقر له، و نصبه الباقون دلالة على عظمة هذا الجرى لسرعته بقطعه فى شهر ما تقطعه الشمس فى سنة، و لذلك ضعف الفعل المفسر للناصب و أعمله فى ضمير القمر ليكون مذكورا مرتين فيدل على شدة العناية تنبيها على تعظيم الفعل فيه، و أعاد مظهر العظمة فقال مستأنفا فى قراءة الرفع -[2]]: ﴿ قدرنه ﴾ أى قسناه قياسا عظيما أى قسنا لسيره[3] ﴿منازل﴾ ثمانية و عشرين، ثم يستسر ليلتين[4]: عند التمام و ليلة للنقصان[5] لايقدر يوما أن يتعداه[6]. قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى: يبعد عن الشمس و لا يزال يتباعد حتى يعود بدرا، ثم يدنو فكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد فى نفسه نقصانا إلى أن يتلاشى. ﴿ حتّى عاد﴾ أى بعد أن كان بدرا عظيما ﴿ كالعرجون ﴾ من النخل و هو عود العذق ما[7] بين شماريخه[8] إلى منتهاه و هو منبته[9] من النخلة

(١) راجع نثر المرجان ٥/٥٧٢ (٢) زيد من ظ و مد (٣) من ظ و مد، و فى الأصل و م: لمسيره (٤) زيد فى الأصل و ظ: ليلة، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عند النقصان. (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تتعداه (٧) فى م: مما (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: شمارخه (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مبت.

دقيقا منحنيا، و هو فعلول[1] ذكره أهل اللغة فى النون و قالوا: عرجن الثوب: صور فيه [صور - [2]] المراجين، و قال المفسرون: إنه من عرج، أى[3] اعوج. و لما كانت حمرته آخذة إلى صفرة قال: ﴿القديم ه﴾ أى المحول، فان العرجون إذا طال مكثه صار كذلك، فدق و انحنى و اصفر.

و لما تقرر أن لكل منهما منازل لايعدوها، فلا يغلب ما هو آيته ما هو آية الآخر، بل إذا جاء سلطان هذا ذهب ذاك، و إذا جاء [ذاك - [4]] ذهب هذا، فاذا اجتمعا قامت الساعة، تحرر أن نتيجة هذه القضايا: ﴿لا الشمس﴾ أى التى هى آية النهار ﴿ينبغى لهآ﴾ أى ما دام هذا الكون موجودا على هذا الترتيب ﴿ ان تدرك ﴾ أى لأن حركتها بطيئة ﴿ القمر ﴾ أى فتطمسه بالكليـــة، فما النهـار سابق الليل ﴿ و لا اليل سابق النهار ﴾ أى حتى ينبغى للقمر مع سرعة سيره أن يدرك الشمس و يغلبها [فلا يوجد نهار أصلا، و لو قيل: يستبق، لاختل المعنى لإيهامه أنه لا يتقدمه أصلا - [2]]، فالآية من الاحتباك: نفى أولا إدراك الشمس لقوتها دليلا على ما حذف من الثانية من نفى إدراك القمر للشمس[5]، و ذكر ثانيا سبق الليل النهار لما له من القوة

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فعول، و العبارة من بعده إلى « المفسرون إنه » ساقطة من م (٢) زيد من ظ و مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: إذا (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) سقط من ظ.

بما[1] يعرض من النهار فيغشيه دليلا على حذف سبق النهار الليل أولا ﴿ و كل ﴾ أى من المذكورات حقيقة و مجازا ﴿ فى فلك ﴾ [محيط به -[2]]، و لما ذكر لها فعل العقلاء، [و كان على نظام محرر لا يختل، و سير مقدر لا يعوج و لا ينحل، فكان منزها عن آفة تلحقه، أو ملل يطرقه، عبر بما تدور مادته على القدرة و الشدة و الاتساع -[2]] فقال[3]: [آتيا بضمير العقلاء[4] جامعا لأنه أدل على تسخيرهم كلهم دائما -[2]]: ﴿ يسبحون ﴾ حثا على تدبر ما فيها من الآيات التى غفل عنها - لشدة الإلف لها - الجاهلون.

و لما ذكر ما حد له حدودا فى السباحة فى وجه الفلك لو تعداها لاختل النظام، ذكر ما [4]هيأه من الفلك للسباحة[4] على وجه الماء الذى طبق الأرض فى زمن نوح عليه السلام حتى كانت كالسماء، و لو تعدت[5] السفينة ما حد لها سبحانه من المنازل فنفذت[6] إلى بحر الظلمات لفسد الشأن، و كانوا فيها كأنهم فى الأرض؛ [7]و بسيرها[7] كأنهم يخترقون الجبال و الفيافى و القفار - كل ذلك تذكيرا بأيام الله، و تنبيها على استدرار نعمه، و تحذيرا من سطواته و نقمه، و منا [8]عليهم بما[8] يسر لهم من سلوك البحر و التوصل به إلى جليل المنافع فقال: ﴿ و آية لهم ﴾ [أى -[9]]

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لما (٢) زيد من ظ و مد (٣) من ظ و مد، و فى الأصل و م: قال (٤-٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: هيا الفلك من السابحة (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تعدان (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فتعدت (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من ظ. (٨-٨) فى ظ: على ما (٩) زيد من ظ و م و مد.

على قدرتنا التامة و علمنا الشامل ﴿ انا ﴾ أى على ما لنا من العظمة ﴿ حملنا ﴾ .

[و لما كان ـ[1]] من قبل[2] نوح عليه السلام من أصول البشر لم يحملوا فى الفلك، عدل عن التعبير بالضمير و الآباء إلى قوله: ﴿ذريتهم﴾ أى ذرية البشر التى ذرأناها و ذروناها و ذررناها حتى ملأنا بها الأرض من ذلك الوقت إلى آخر الدهر، [و لهذا التكثير المفهوم من هذا الاشتقاق البليغ اغنى ابن كثير و أبو عمرو و الكوفيون فقرأوا بالإفراد[3]، و زادت فى الإيضاح قراءة الباقين بالجمع ـ[4]]، بعضهم ظاهرا و بعضهم فى ظهر ابيه ﴿فى الفلك﴾ [عرفه لشهرته بين جميع الناس ـ[4]] ﴿ المشحون ﴾ [أى ـ[5]] الموقر المملوء حيوانا و زادا ، و هو يتقلب فى تلك المياه التى لم ير قط مثلها و لا يرى أبدا ، و مع ذلك فسلمه[6] الله .

و لما كانت [هذه ـ[5]] الآية لم تنقطع بل عم سبحانه بنفعها قال: ﴿و خلقنا﴾ أى بعظمتنا الباهرة ﴿ لهم من مثله ﴾ أى من مثل ذلك الفلك من الإبل و الفلك ﴿ ما يركبون ﴾ أى مستمرين على ذلك على سبيل التجدد ليقصدوا منافعهم، و لو شئنا لمنعنا ذلك .

و لما كان قد أنجى سبحانه آباءنا حين حمله فى ذلك الماء الذى لم يكن مثله قط، و كان ربما ظن أن[7] الإنجاء لسر[8] من الأسرار غير

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: قبيل .

(٣) راجع نثر المرجان ٥ / ٥٧٣ (٤) زيد من ظ و مد (٥) زيد من م و مد .

(٦) فى الأصل بياض ، ملأناه من ظ و م و مد (٧) سقط من ظ (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ليس .

إرادته، جعل [أمر -[1]] ما خلق من مثله تارة و تارة ليعرف أن ذلك إنما هو بصنعه فتشكر نعمته أولا و آخرا فقال: ﴿و ان نشا﴾ أي لأجل ما لنا من القوة الشاملة ﴿نغرقهم﴾ أي مع أن هذا الماء الذي يركبونه لايعثر[2] ذلك الذي حملنا فيه آباءهم ﴿فلا صريخ لهم﴾ أي مغيث[3] ينجيهم مما نريد[4] بهم من الغرق ﴿و لا هم﴾ أي بأنفسهم من غير صريخ ﴿ينقذون ﴾ أي يكون لهم إنقاذ أي خلاص بأنفسهم أو غيرها.

و لما كان هو سبحانه يصرخ من يشاء فينجيه و كانت «لا» نافية نفيا مستغرقا[5]، استثنى ما كان منه سبحانه فقال: ﴿الا رحمة﴾ [أي -[1]] إلا نحن فننقذهم إن شئنا رحمة ﴿منا﴾ أي لهم، لا وجوبا علينا، و لا لمنفعة تعود منهم إلينا ﴿و متاعا﴾ أي لهم ﴿الى حين ﴾ أي و هو حين انقضاء آجالهم.

و لما كان هذا الحال معلوما لهم لا ينازعون فيه بوجه، بل إذا وقعوا فيه أخلصوا الدعاء و أمروا به و خلعوا الأنداد، و كان علم ذلك موجبا لصاحبه أن لايغفل عن القادر عليه وقتا ما، بل لايفتر عن شكره خوفا من مكره، و كان العاقل إذا ذكر بامر[6] فعلمه يقينا كان جديرا بأن يقبله، فاذا لم يقبله و خوف [عاقبته -[7]] بأمر محتمل جد في الاحتراز منه، عجب منهم في إعراضهم عنه سبحانه مع قيام الأدلة القاطعة على

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) في ظ و مد: لايعسر (٣) من م و مد، و في الأصل و ظ: مغيب (٤) من م و مد، و في الأصل: يزيد (٥) زيدت الواو بعده في الأصل، و لم تكن في ظ و م و مد فحذفناها (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: بأمره (٧) زيد من م و مد.

وحدانيته [1]و أنه[1] قادر على ما يريد من [2]عذاب و ثواب[2]، و إقبالهم على ما لا ينفعهم بوجه، فقال: ﴿و اذا قيل﴾ [أي -[3]] من أيّ قائل كان ﴿ لهم اتقوا ﴾ أي خافوا خوفا عظيما تعالجون فيه أنفسكم ﴿ ما بين ايديكم ﴾ أي بما يمكن أن تقعوا فيه من العثرات المهلكة في الدارين ﴿ و ما خلفكم[4] ﴾ أي بما فرطتم فيه و لم تجاروا[5] به و لابد[6] من المحاسبة عليه لأن الله الذي خلقكم أحكم الحاكمين ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي تعاملون معاملة المرحوم بالإكرام.

و لما كان التقدير: أعرضوا لأن الإعراض [قد -[1]] صار لهم خلقا لا يقدرون على الانفكاك من أسره، عطف عليه بقوله إشارة إليه: ﴿و ما تاتيهم﴾ و عمم[7] بقوله: ﴿من 'اية﴾ و بين بقوله: ﴿من 'ايٰت﴾ [و لفت الكلام للتذكير بالإنعام تكذيبا لهم في أنهم أشكر الناس للمنعم فقال - [8]]: ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ الا كانوا عنها ﴾ أي مع كونها من عند من غمرهم إحسانه و عمهم فضله و امتنانه ﴿ معرضين ﴾ أي دائما إعراضهم.

و لما كانت الرحمة بالرزق و النصر إنما تنال بالرحمة للضعفاء «هل ترزقون و تنصرون إلا بضعفائكم» «انما يرحم الله من عباده الرحماء»

(١-١) من م و مد، و في الأصل و ظ: فانه (٢-٢) من ظ و م و مد، وفي الأصل: ثواب و عقاب (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من م و مد والقرآن الكريم، و في الأصل و ظ: خلفهم (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: لم تجاهدوا (٦) سقط من ظ (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: عم. (٨) زيد من ظ و مد.

و كان الإنفاق خلق المؤمنين ، قال مبينا أنهم انسلخوا عن الإنسانية جملة فلا يخافون ما يجوز وقوعه من العذاب ، و لا يرجون ما يجوز حلوله من الثواب : ﴿ و اذا قيل لهم[1] ﴾ أى من أىّ قائل كان : ﴿ انفقوا ﴾ أى على من لا شيء له ، شكرا لله على ما أنجاكم منه و نفعكم به بنفع خلقه الذين هم عياله ، و بين أنهم يبخلون بما لا صنع لهم فيه و لم[2] تعمله أيديهم [بل ببعضه - [3]] فقال : ﴿ مما رزقكم ﴾ [و أظهر و لم يضمر إشارة إلى جلالة الرزق بجلالة معطيه ، و زاد فى تقريعهم بجعل ذلك الظاهر اسم الذات لأنه لا ينبغى أن يكون عطاء العبد على قدر سيده فقال - [3]] : ﴿ الله[4] ﴾ [أى - [4]] الذى له جميع صفات الكمال ﴿ قال ﴾ [و أظهر تبكيتا لهم بالوصف الحامل لهم على البخل فقال - [3]] : ﴿ الذين كفروا ﴾ أى ستروا و غطوا ما دلتهم عليه أنوار عقولهم من الخيرات ﴿ للذين ءامنوا ﴾ أى القائلين بذلك المعتقدين [له - [4]] سواء / كانوا هم القائلين لهم أو غيرهم / ٣٦٠ منكرين[5] عليهم استهزاء [6]بهم عادلين عما[6] اقتضى السؤال عن ذكر الإنفاق إلى ما يفيد التقريع بالفقر و الحاجة إلى الأكل[7] : ﴿ انطعم ﴾ [و عدلوا عن التعبير بالماضى لئلا يقال لهم : قد تولى[8] سبحانه إطعامه من حين خلقه إلى الآن ، فقالوا - [9]] : ﴿ من لو يشآء ﴾ [و أظهروا حدا له و مساعيه فقالوا - [3]] :

---

(١) وقع فى الأصل و م بعد « قائل كان » و الترتيب من ظ و مد (٢) من ظ وم ومد ، و فى الأصل : لا (٣) زيد من ظ و مد (٤) زيد من ظ وم و مد .
(٥) فى م : مبكتين (٦-٦) من ظ ومد ، وفى الأصل : عاذرين عنها (٧) العبارة من « بهم عادلين » إلى هنا ساقطة من م (٨) ليس واضحا فى مد (٩) زيد من مد.

﴿ الله ﴾ أى الذى له جميع العظمة كما زعمتم فى كل وقت يريده ﴿ اطعمة قلے ﴾ أى لكنا[1] تنظره لا يشاء ذلك فانه لم يطعمهم لما نرى من فقرهم فنحن أيضا لا نشاء ذلك موافقة لمراد الله [فيه -[2]] فتركوا التأدب[3] مع الأمر[4] و أظهروا التأدب مع بعض الإرادة[5] المنهى عن الجرى معها و الاستسلام لها ، و ما كفاهم حتى قالوا لمن أرشدهم إلى الخير على طريق النتيجة لما تقدم: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ انتم الا فى ضلٰل ﴾ [6] أى محيط بكم[6] ﴿ مبين ۝ ﴾ أى فى غاية الظهور ، و ما دروا[7] أن الضلال إنما هو لهم لأنه سبحانه [إنما ـ[8]] جعل إطعام بعض خلقه بلا واسطة و بعضهم بواسطة امتحانا منه للطيع و العاصى و الشاكر و الكافر و الجزع و الصابر ـ و غير ذلك من حكمه .

و لما ذكر قلة خيرهم المستندة إلى تهكمهم باليوم الذى ذكروا به بالأمر بالاتقاء و التعليل بترجى الرحمة ، أتبعه حكاية استهزاء آخر منهم دال على عظيم جهلهم بتكذيبهم بما يوعدون على وجه التصريح بذلك اليوم و التصوير له بما لا يسع من له أدنى مسكة غير الانقياد له فقال: ﴿ و يقولون ﴾ أى عادة مستمرة مضمومة إلى ما تقدم مما يستلزم تكذيبهم ، [و زادوا بالتعبير بأداة القرب فى تقريعهم إشارة إلى أنكم زدتم علينا

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كنا (٢) زيد من ظ وم ومد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : التاديب (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الله لامر (٥) من ظ وم ومد ، وفى الأصل : الأراد (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م و مد (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ردوا (٨) زيد من ظ .

فى

في التهديد به و التقريب له حتى ظن أنه مصبحنا أو ممسينا و لم نحس منه عينا و لا أثرا -[1]]: ﴿ متى هذا ﴾ و زادوا في الاستهزاء بتسميته وعدا فقالوا: ﴿الوعد﴾ [أي -[2]] الذي تهددوننا به تارة تلويحا و تارة تصريحا، عجلوه لنا. [و ألهبوا و هيجوا زيادة في التكذيب بقولهم -[1]]: ﴿ ان كنتم صٰدقين ﴾ و لما كان الحازم من لايتهكم بشيء إلا إذا[3] استعد له بما هو محقق الدفع[4]، بين سفههم باتيانها[5] بغتة و بأنه لا بد من وقوعها، و أنها بحيث تملأ السماوات و الأرض، فكأنه[6] لا شيء فيهما غيرها[7] بقوله: ﴿ ما ينظرون ﴾ أي [مما -[2]] يوعدون، و يجوز أن يكون بمعنى "ينتظرون" لأن استبطاءهم لها في صورة الانتظار و إن أرادوا به الاستهزاء، و جرد الفعل تقريبا لها لتحقق وقوعه ﴿ الا صيحة ﴾ و بين حقارة شأنهم و تمام قدرته بقوله: ﴿ واحدة ﴾ و هي النفخة الأولى المميتة، [و اقتصر في تأكيد الوحدة على هذا بخلاف ما يأتي في المحيية لأنهم لا ينكرون أصل الموت -[1]] ﴿ تاخذهم ﴾ أي تهلكهم؛ و بين غرورهم بقوله: ﴿ و هم يخصمون ﴾ أي يختصمون [أي يتخاصمون -[2]] في معاملاتهم على غاية من الغفلة، و لعله عبر بذلك إشارة بالإدغام اللازم[8] عنه التشديد إلى تناهي الخصام باقامة أسبابه أعلاها و أدناها

(١) زيد من ظ و مد (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) في الأصل بياض، ملأناه من ظ و م و مد (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: الوقع (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: بايقانها (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: فكانوا (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: غيرهما (٨) من ظ و مد، وفي الأصل: اللام، و سقطت هذه الكلمة - مع الكلمتين التاليتين - من م.

إلى حد لا مزيد عليه، لأن التاء معناه [1]عند أهل الله انتهاء[1] التسبيب[2] إلى أدناه، و كل ذلك إشارة إلى أنهم فى وقت الصعق يكونون فى أعظم الآمان [منها - [3]]، لأن إعراضهم عنها بلغ إلى غاية لا مزيد عليها، [4]و يشير الإدغام أيضا إلى أن خصومتهم فى غاية الخفاء -[5]] بالنسبة إلى الصيحة، و إن بلغت الخصومة النهاية فى الشدة، [و لم يقرأ أحد «يختصمون» بالإظهار إشارة إلى أنه لا يقع فى ذلك الوقت خصومة كاملة حتى تكون ظاهرة بل تهلكهم الصيحة قبل استيفاء الحجج و إظهار الدلائل، فمنها ما كان ابتدأ فيه أصحابه فأوجزوا - بما أشارت إليه قراءة حمزة باسكان الخاء وكسر الصاد مخففا، و منها ما كان متوسطا و فيه خفاء و علو - بما أشار إليه تشديد الصاد مع اختلاس فتحة الخاء، و منها ما هو كذلك و هو إلى الجلاء أقرب - بما أشار إليه إخلاص فتحة الخاء مع تشديد الصاد، و أشار من قرأه كذلك مع كسر الخاء إلى التوسط مع الخفاء و السفول، و الله أعلم -[5]].

و لما كانت هذه هى النفخة المميتة، سبب عنها[6] قوله: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أى أن يوجدوا الوصية فى[7] شىء من

(١ - ١) ما بين الرقمين فى الأصل بياض ملأناه من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: التسبب (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) العبارة من هنا إلى «فى الشدة» ساقطة من م (٥) زيد من ظ و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عنه (٧) زيد بعده فى الأصل و ظ: أى، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها.

الأشياء، و الاستفعال و التفعيل يدلان على[١] أن الموت ليس حين سماع أول الصوت بل عقبه من غير مهلة لتمام [٢]أمر ما[٢]. و لما كان ذلك ليس نصا فى نفى المثنى قال: ﴿و لآ الىٓ اهلهم﴾ أى فضلا عن[٣] غيرهم ﴿يرجعون ﴾ بل يموت كل واحد فى مكانه حيث تفجأه الصيحة، [و ربما أفهم التعبير بـ «إلى» أنهم يريدون الرجوع فيخطون خطوة أو نحوها -[٤]]، و فى الحديث[٥] «ليقومن الساعة و قد نشر الرجلان ثوبهما[٦] / بينهما فلا يبيعانه و لايطويانه، و لتقومن الساعة و قد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها». / ٣٦١

و لما دل ذلك على الموت قطعا، عقبه[٧] بالبعث، [و لذلك عبر فيه بالنفخ فانه معروف فى إفاضة الروح -[٤]] فقال: ﴿و نفخ فى الصور﴾ أى الذى أخذتهم صيحته، و جهله إشارة إلى أنه لاتوقف له فى نفس الأمر على نافخ معين[٨] ليكون عنه ما يريد سبحانه من الأثر[٩]، بل من أذن [١٠]له الله[١٠] كائنا من كان تأثر عن[٣] نفخه ما ذكر، و إن كنا[١١]

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: إلى (٢-٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اوامرنا (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من (٤) زيد من ظ و مد (٥) راجع صحيح البخارى أبواب الرقاق و الفتن (٦) من م و مد و الصحيح، و فى الأصل و ظ و نسخة الصحيح: ثوبيهما (٧) من ظ و م ومد، و فى الأصل: عقده (٨) من م ومد، و فى الأصل: متعين، و فى ظ: معس - كذا غير منقوطة (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الأمر. (١٠-١٠) من م و مد، و فى الأصل وظ: الله له (١١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: كان.

[نعلم أن - [1]] المأذون له إسرافيل عليه السلام .

و لما كان هذا النفخ سببا لقيامهم عنده سواء من غير تخلف، عبر[2] سبحانه بما يدل على التعقب و التسبب و الفجاءة فقال : ﴿ فاذا هم ﴾ أى فى حين النفخ ﴿ من الاجداث ﴾ أى القبور المهيأة هى و من فيها لسماع ذلك النفخ ﴿ الى ربهم ﴾ أى الذى أحسن إليهم [بالتربية و التهيئة لهذا البعث -[1]] فكفروا إحسانه ، لا إلى غيره ﴿ ينسلون ۝ ﴾ أى يسرعون المشى مع تقارب[3] الخطى بقوة و نشاط ، فيا لها من قدرة شاملة و حكمة كاملة ، حيث كان صوت[4] واحد يحيى تارة و يميت أخرى ، كأنه ركب فيه من الأسرار أنه يكسب[5] كل شيء ضد ما [هو - [6]] عليه من حياة أو موت أو غشى أو إفاقة .

و لما تشوفت النفس إلى سماع[7] ما يقولون إذا عاينوا ما [كانوا -[6]] ينكرون ، استأنف قوله : ﴿ قالوا ﴾ [أى الذين هم من أهل الويل من عموم الذين قاموا بالنفخة و هم جميع من كان قد مات قبل ذلك -[1]] .

و لما كانوا عالمين بأن جزاء ما أسلفوا كل خزى ، أتبعوه قولهم [حاكيا سبحانه عبارتهم إذ ذاك لأنه أنكى لهم -[1]] : ﴿ يـويلنا[8] ﴾ أى ليس

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : جر (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تفات (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : موت (٥) من ظ و م و مد . و فى الأصل : يكتب (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) سقط من ظ و م و مد (٨) من ظ و م و مد و القرآن الكريم ، و فى الأصل : ويلتنا .

بحضرتنا

بحضرتنا اليوم شيء ينادمنا إلا الويل، ثم استفهموا جريا على عادتهم في الغباوة فقالوا [مظهرين لضميرهم تخصيصا للويل بهم لأنهم في معرض الشك -[1]] : ﴿من بعثنا من مرقدنا سكته م﴾ عدوا مكانهم الذى كانوا به - مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ - مرقدا هنيئا بالنسبة إلى ما انكشف لهم أنهم لاقوه من العذاب الأكبر، [و وحدوه إشارة إلى أنهم على تكاثرهم و تباعدهم كانوا فى القيام كنفس واحدة -[1]]، ثم تذكروا ما كانوا يحذرونه[2] من أن الله هو يبعثهم للجزاء الذى هو رحمة الملك لأهل مملكته، فقالوا مجيبين لأنفسهم استئنافا: ﴿هذا ما﴾ أى الوعد[3] الذى ﴿وعد﴾ أى به، [وحذفوا المفعول تعميما لأنهم الآن فى حيز التصديق -[1]] ﴿الرحمن﴾ أى العام الرحمة الذى رحمانيته مقتضية و لابد للبعث لينصف المظلوم من ظالمه[4]، و يجازى كلا بعمله من غير حيف، و قد رحمنا بارسال الرسل إلينا بذلك، و طال ما أنذرونا حلوله، و حذرونا صعوبته و طوله. [و لما كان التقدير: فصدق [5]الرحمن، عطف عليه قوله[5] -[1]]: ﴿و صدق﴾ [5]أى فى أمره[5] ﴿المرسلون ﴾ أى الذين أتونا بوعده و وعيده، فالله الذى تقدم وعده به و أرسل به رسله هو الذى بعثنا تصديقا[6] لوعده و رسله.

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يجدونه (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: البعث (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الظالم. (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) زيد فى الأصل و م: به، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها.

و لما كان الإخبار بالنفخ لاينفي التعدد، قال محقرا لأمر البعث بالنسبة إلى قدرته [مظهرا للعناية بتاكيد كونها واحدة بجعل الخبر عنه أصلا مستقلا بفصله عن النفخ و الإتيان فيه بفعل الكون و " إن " النافية لأدنى مظاهر مدخولها فكيف بما وراءه دون «ما» التي إنما تنفي التمام -[1]]: ﴿ ان ﴾ أي ما ﴿ كانت ﴾ أي النفخة التي وقع الإحياء بها [مطلق كون -[1]] ﴿ الا صيحة واحدة ﴾ أي كما كانت نفخة الإماتة واحدة ﴿ فاذا هم ﴾ أي لجاءة من غير توقف أصلا ﴿ جميع ﴾ أي على حالة الاجتماع، لم يتأخر منهم أحد، يتعللون به في ترك الانتصار، و دوام الخضوع و الذل و الصغار. و لما كان ذلك على هيئات غريبة لايبلغ كنهها العقول، قال [لافتا القول إلى مظهر العظمة معبرا بما للأمور الخاصة -[1]]: ﴿ لدينا ﴾ و لما كان ذلك أمرا لا بد منه، و لا يمكن التخلف عنه، عبر بصيغة المفعول [و أكد معنى الاجتماع بالجمع نظرا إلى معنى جميع و لم يفرد اعتبارا للفظها لما ذكر من المعنى -[2]] فقال: ﴿ محضرون ه ﴾ أي بغاية الكراهة منهم لذلك[3] بقادة تزجرهم و ساقة تقهرهم.

و لما كان [هذا -[4]] الإحضار بسبب العدل و إظهار جميع صفات الكمال قال: ﴿ فاليوم ﴾ و لما كان نفي الظلم مطلقا أبلغ من نفيه عن أحد بعينه، و أدل على المراد و أوجز، قال [لافتا القول عن الإظهار أو الإضمار بمظهر العظمة أو غيره -[1]]: ﴿ لاتظلم ﴾ [و لما كان التعبير

(١) زيد من ظ و مد (٢) زيد من مد (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: كذلك (٤) زيد من ظ و م و مد.

بما كثر جعله محط الرذائل و الحظوظ و النقائص أدل على عموم نفي الظلم قال -[1]] : ﴿نفس﴾ أي أيّ نفس كانت مكروهة أو محبوبة ﴿شيئا﴾ أي لايقع لها ظلم ما[2] من أحد ما في شيء ما . / [3]و لما كانت المجازاة / ٣٦٢ بالجنس أدل على القدرة و أدخل في العدل، قال[3] [محققا بالخطاب و الجمع أن المنفي ظلمه كل من يصلح للخطاب لئلا يقع في وهم أن المنفي ظلمه نفوس مخصوصة أو نفس واحد -[4]] : ﴿و لا تجزون﴾ أي على عمل من الأعمال شيئا من الجزاء من أحد ما ﴿الا ما كنتم تعملون ه﴾ ديدنا لكم [3]بما ركز[3] في جبلاتكم .

و لما قرر أن الجزاء من جنس العمل، شرع في تفصيله، و بدأ بأشرف الحزبين [في جواب من سأل عن هذا الجزاء -[1]] فقال مؤسفا[5] لأهل الشقاء بالتذكير بالتأكيد بما كان لهم من الإنكار في الدنيا و إظهارا للرغبة في هذا القول و التبجح[6] به لما له من عظيم الثمرة: ﴿ان اصحٰب الجنة﴾ أي الذين لا حظ للنار فيهم، [7]و كرر التعبير باليوم تعظيما لشأنه و تهويلا لأمره على إثر نفختيه المميتة و المقيمة بذكر بعض ثمراته، و جمل من عظائم تأثيراته، فقال[7]: ﴿اليوم﴾ أي يوم البعث، و هذا يدل على أنه يعجل دخولهم [7]أو دخول بعضهم[7] إليها [7]و وقوف الباقين للشفاعة و نحوها من الكرامات[7] عن دخول أهل النار النار، [و عبر بما يدل على أنهم

(١) زيد من ظ و مد (٢) سقط من ظ (٣ - ٣) سقط ما بين الرقمين من ظ .
(٤) زيد من مد (٥) من م و مد ، و في الأصل و ظ : موسعا (٦) في الأصل بياض ملأناه من ظ و م و مد (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م .

بكلياتهم مقبلون عليه و مظروفون له مع توجههم إليه فقال -[1]]: ﴿ في شغل ﴾ أي عظيم جدا لاتبلغ وصفه العقول كما كانوا في الدنيا في أشغل الشغل بالمجاهدات في الطاعات . و لما تاقت[2] النفوس[3] إلى تفسير هذا الشغل قال: ﴿ فٰكهون ج ﴾ أي لهم عيش المتفكه، و هو الأمن و النعمة و البسط و اللذة و تمام الراحة كما كانوا يرضوننا باجهاد أنفسهم و إتعابها و إشقائها وإرهابها، و قراءة أبي جعفر بحذف الألف أبلغ لأنها تدور على دوام ذلك [لهم -[4]] و على أنهم في أنفسهم في غاية ما يكون من خفة الروح و حسن الحديث .

و لما كانت النفس لايتم سرورها إلا بالقرين الملائم قال: ﴿هم﴾ [5]أي بظواهرهم و بواطنهم[5] ﴿ و ازواجهم ﴾ أي أشكالهم الذين هم في غاية الملاءمة كما كانوا يتركونهم في المضاجع على ألذ ما يكون، و يصفون أقدامهم في خدمتنا و هم يبكون ﴿ في ظٰلل ﴾ أي يجدون فيها [5]برد الأكباد[5] و غاية المراد، كما كانوا يشوون أكبادهم في دار العمل بحر الصيام، و تجرع مرارات الاوام، و الصبر في مرضاتنا على الآلام، و يقرون أيديهم و قلوبهم عن الأموال، ببذل الصدقات في سبلنا على مر الأيام و كر[6] الليال، و قراءة حمزة و الكسائي[7] بضم الظاء و حذف

(١) زيد من مد (٢) من ظ و م و مد ، و في الأصل : كانت (٣) زيد في الأصل : شائقة ، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ و م و مد (٥-٥) من م و مد ، و في الأصل و ظ : برد الأكبادهم (٦) من ظ و م و مد ، و في الأصل : كذا (٧) راجع نثر المرجان ٥ / ٥٨٣ .

الألف

الألف أبلغ لدلالتها - بما أشارت إليه الضمة - على أن الظل أكثف، و تدل تلك بدلالة الألف على أنه أشد امتدادا، و يدل اتفاقهما فى الجمع على أن الظل فيها مختلف باختلاف الأعمال[1] .

و لما كان التمتع لا يكمل إلا مع العلو الممكن من زيادة العلم الموجب لارتياح النفس و بهجة العين بانفساح البصر[2] عند مد النظر[2] ، قال: ﴿على[3] الارآئك﴾ أى السرر المزينة العالية التى هى داخل الحجل، قال البغوى[4]: قال ثعلب: لايكون أريكة حتى يكون عليها حجلة، و قال ابن جرير[5]: الأرائك: الحجال فيها السرر، و روى ابو عبيد فى كتاب الفضائل عن الحسن[6] قال: كنا لا ندرى ما الأرائك حتى لقينا رجلا من أهل اليمن فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير . و هذا جزاء لما كانوا يلزمون المساجد و يغضون الأبصار و يضعون نفوسهم لأجلنا ﴿ متكوّن ، ﴾ كما كانوا يدأبون فى الأعمال قائمين بين أيدينا فى أغلب الأحوال، [7]و الاتكاء[7]: الميل على شق [مع الاعتماد -[8]] على ما يريح الاعتماد عليه، أو الجلوس مع التكمن على هيئة المتربع[9]، و قراءته / بضم / ٣٦٣

---

(١) العبارة من « و قراءة حمزة » ص: ١٤٦ س ١٦ إلى هنا وقعت فى الأصل بعد « مد النظر » و الترتيب من ظ و م ومد (٢-٢) وقع ما بين الرقمين فى الأصل قبل « و لما كان التمتع » و الترتيب من ظ و م و مد (٣) سقط من الأصل فقط (٤) راجع معالم التنزيل بهامش لباب التأويل ٦ / ١٠ (٥) راجع جامع البيان ٢٣ / ١٣ (٦) ذكره مختصرا ابن جرير فى جامع البيان (٧ - ٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فالاتكاه (٨) زيد من ظ و مد (٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المتكى .

الكاف و حذف الهمزة أدل على التربع[1] و ما قاربه، و قراءة [2]كسر الكاف[2] و ضم الهمزة أدل على القرب من التمدد[3] لما فيها من الكسرة، فانه يقال كما نقله أبو عبد الله القزاز: اتكأت الرجل إتكاء - إذا وسدته أي جعلت له وسادة، أى محذة يستريح عليها .

و لما قدم المعانى التى توجب أكل الفاكهة، أتى بها فقال: ﴿لهم﴾ [4]أى خاصة بهم[4] ﴿فيها فاكهة﴾ أى لا تنقطع أبدا، فلا مانع لهم من تناولها، و لا يوقف ذلك على غير الإرادة . و لما كانت الفاكهة قد تطلق على ما يلذذ، صرح بأن ذلك هو المراد، فقال معبرا بالعطف لتكون الفاكهة مذكورة مرتين خصوصا و عموما: ﴿ و لهم ﴾ [و لما كان السياق لأصحاب الجنة الذين تفهم الصيحة أنهم فيها دائما و إن كانوا فى الدنيا، أعرى الكلام من الظرف ليفهم إجابة دعائهم فى الدنيا و إنا لتهم جميع مرادهم فى الدارين فقال - [5]] : ﴿ ما يدعون ﴾ أى الذى[6] يطلبون طلبا صادقا إما إخراجا لما قد يهجس فى النفس من غير عزم عليه إن كان المراد فى الجنة من غير كلام الله كالمآكل و المشارب و نحوها، و إما إظهارا للاهتمام إن كان المراد أنه كلامه سبحانه، و ذلك

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: التقريع (٢-٢) من ظ و م و مد، وفى الأصل: الكسر الكاف (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: التهدد. (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) زيد من ظ و مد (٦) من ظ و مد، و فى الأصل و م: ما.

لأجل ما كانوا في الدنيا يفطمون[1] أنفسهم عن الشهوات عزوفا عما يفنى، و طموحا إلى ما عندنا من الباقيات الصالحات، ثم فسر الذي يدعونه - أي يطلبونه - بغايــة الاشتياق إليه أو استأنف الإخبار عنه بقوله: ﴿سلٰم قف﴾ أي عظيم [جدا -[2]] لايكتنه وصفه. [3]عليكم يا أهل الجنة، كائن هو أو مقول هو[3]، و السلام يجمع جميع النعم، ثم بين حال هذا السلام بما أظهر من عظمه بقوله: ﴿قولا من رب﴾ أي دائم الإحسان ﴿رحيم ۝﴾ [4]أي عظيم[4] الإكرام بما ترضاه الإلٰهية، كما كانوا في الدنيا يفعلون كل ما[5] فيه الرضا، فيرحمهم في حال السلام[6] و سماع الكلام بلذة الرؤية مع التقوية عن الدهش و الصعق لعظيم الأمر و بالتأهيل لهذا المقام الأكرم مع قصورهم عنه، و قد أوضح هذا السياق أنه من الله تعالى بلا واسطة، فانه أكده بالقول و حرف الابتداء، و ذكر صفات الإحسان كما قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: و لا ارتياب في أنه لا شيء يعدل هذا في النعيم و قرة العين و الشرف و علو القدر. [و -[2]] لاشك أن هذا هو المقصود بالحقيقة، فهو قلب النعيم [في ذلك اليوم -[2]] الذي هو قلب الوجود حقا خفاه[7] و صلاحا و فسادا، فصح أن هذه

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: يعظمون (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣-٣) وقع ما بين الرقمين في الأصل بعد «الدهش و الصعق» و الترتيب من ظ و م و مد (٤ - ٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: دايم (٥) زيد في ظ: كان (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: الاسلام (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: حقا.

الآية قلب هذه السورة كما كانت هذه السورة قلب القرآن ، و قد ورد حديث فى تفسير البغوى[1] و كتاب المائتين للأستاذ أبى عثمان الصابونى أنه من الله تعالى بلا واسطة عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بينا أهل الجنة فى[2] نعيمهم إذ سطع لهم[3] نور فرفعوا رؤسهم فاذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، و ذلك قوله تعالى " سلٰم قولا من رب رحيم " فينظر إليهم و ينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم و يبقى نوره و بركته فى ديارهم . قال الأستاذ أبو عثمان : هذا حديث غريب الإسناد و المتن لا أعلم أنى كتبته إلا من / هذا الوجه . ٣٦٤/

و لما كان التقدير : فانظروا وازدادوا حسرة أيها المجرمون ، عطف عليه قوله : ﴿و امتازوا﴾ أى انفردوا انفرادا هو بغاية القصد ، [4]و جرى على النمط الماضى من زيادة التهويل لذلك الموقف باعادة قوله[4] : ﴿اليوم﴾ أى عن عبادى الصالحين أو عمن بقى منهم معكم فى الموقف ليظهروا من أوضارهم[5] ، و يشفوا من مضارهم ، لأن غيبة الرقيب أتم النعيم ، و إبعاد العدو أعلى السرور ، [6]و حذف أداة النداء لا لقرب الكرامة بل للدلالة

---

(١) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ / ١٠ (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و م و مد و المعالم ، و فى الأصل : عليهم (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م .
(٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اوضاركم (٦) العبارة من هنا إلى « لا حائل دونهم » ص ١٥١ س ٢ ساقطة من م .

على أنهم فى القبضة لا مانع من غاية التصرف فيهم[1] لكل ما يراد لأنه لا حائل دونهم ﴿ايها المجرمون ه﴾ أى العريقون فى الإجرام، فلا يقع فى أوهامكم أنكم تخالطونهم اليوم أصلا، و هذا كما كنتم تمتازون[2] عنهم فى الدنيا و تقاطعونهم ترفعا و استكبارا. فهذا قوله للمجرمين و ذلك[3] قوله للمؤمنين. فصح أنه قلب لأنه به صلاح بعض المكلفين و فساد الآخرين الذى هو تمام صلاح الأولين، و قد تقدم فى أوائل سورة الروم منام[4] ينفع استحضاره هنا.

و لما أمرهم بالامتياز أمرا إراديا حكميا، فامتازوا فى الحال، و أسروا الندامة و سقط فى أيديهم فعضوا[5] الأنامل، و صروا بالأسنان، و شخصت منهم الأبصار، و كلحت الوجوه، و تقلصت الشفاه[6]، و نكست الرؤس و شحبت الألوان، و سحبوا على الوجوه، و كان من فنون[7] المساءة و شؤن الحسرة ما تعجز[8] عنه العقول، و تذوب من ذكره النفوس، و تنخلع القلوب، قال سبحانه موبخا لهم فى تلك الحال بهذا المقال[9] معللا حكمه عليهم بذلك بأنه لم يتركهم هملا [بل ركب فيهم –[10]] من العقول و نصب لهم من الدلائل على كماله ما هو كاف لهم فى النجاة ثم ما و كلهم

(1) من ظ و مد، و فى الأصل: بهم (2) فى م: ممتازون (3) فى ظ و م و مد: ذاك (4) من م و مد، و فى الأصل: ما. و فى ظ: منافع (5) من م و مد، و فى الأصل و ظ: و عضوا (6) من مد. و فى الأصل و ظ و م: الشفا (7) من ظ و م و مد، و فى الأصل: صورة (8) فى ظ و مد: تقصره (9) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المقام (10) زيد من ظ و مد.

إلى ذلك، بل أرسل إليهم رسلا و أنزل عليهم كتبا[1] : ﴿ الم اعهد ﴾ أى أوصيكم إيصاء عظيما بما نصبت[2] من الأدلة، و منحت من العقول، و بعثت من الرسل، و أنزلت من الكتب، فى بيان الطريق الموصل إلى النجاة، لافتا القول عن مظهر الإحسان إلى ما هو أولى بـه من مظهر التكلم بالوحـدة دفعا للبس، ثم أشار إلى علوه و جلاله، [3]و عظمه[3] و سمو كماله فقال: ﴿ اليكم ﴾ .

و لما كان المقصود بهذا الخطاب تقريعهم و توبيخهم و تبكيتهم، و كانت هذه السورة القلب، و كان القلب أشرف الأعضاء، و كان الإنسان أشرف الموجودات، خصه بالخطاب لأن خطابه خطاب للجن فقال مؤكدا ما أفهمه حرف[4] الغاية من علو رتبته و عظيم منزلته بما أشارت إليه أداة البعد: ﴿ يبنى ادم ﴾ أى فلم أخصكم [بذلك -[5]] عن أبناء غير[4] نوعكم ليكون ذلك [6]التخصيص حاملا[6] لكم على العصيان [7]بل ليكون[8] موجبا للطاعات و العرفان: ﴿ ان لا تعبدوا الشيطن ج ﴾ أى البعيد المحترق بطاعتكم له فيما[9] يوسوس لكم به، ثم علل النهى عن عبادته[10] بما يقتضى

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: كتابا (٢) زيد فى الأصل و م: لكم، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٣ - ٣) سقط ما بين الرقمين من ظ . (٤) سقط من ظ (٥) زيد من ظ و م و مد (٦-٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: غير حامل (٧) العبارة من هنا إلى « و العرفان » ساقطة من م (٨) من ظ و مد، و فى الأصل: يكون (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بما . (١٠) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عبادة الشيطان .

شدة النفرة منه بعد أن لوّح إلى ذلك بوصفه فقال: ﴿ انه لكم ﴾ و التأكيد لأن أفعالهم أفعال من يعتقد صداقته ﴿عدو مبين﴾ أى ظاهر العداوة جدا من جهة عداوته لأبيكم العداوة التى أخرجتكم من الجنة التى لامنزل أشرف منها، و من جهة أمره لكم بما[1] يبغض الدنيا من التخالف و التخاصم[2]، / و من جهة تزيينه للفانى الذى لايرغب فيه عاقل لو لم [يكن -[3]] فيه عيب غير فنائه، فكيف إذا كان أكثره أكدارا و أدناسا و أوضارا، فكيف إذا كان شاغلا عن الباقى، فكيف إذا كان عائقا عن المولى، فكيف إذا كان مغضبا له حاجبا عنه. ٣٥٦/

و لما بكتهم بالتذكير بما ارتكبوا مع النهى عن عبادة العدو تقديما لدره[4] المفاسد، وبخهم بالتذكير بما ضيعوا مع أخذ العهود من واجب الأمر بعبادة الولى[5] فقال عاطفا على « ان لا »: ﴿و ان اعبدونى﴾ و لما ذكر سبحانه بالأمر بعبادته، عرف بحسنها حثا على لزومها قبل ذلك اليوم قائلا: ﴿هذا﴾ أى[6] الأمر بعبادتى ﴿صراط مستقيم﴾ أى بليغ القوم، و عبادة الشيطان صراط ضيق معوج غاية الضيق و العوج.

و لما كان التقدير: فاتبعتموه و سلكتم سبيله مع اعوجاجه، و تركتم سبيلى مع ظهور استقامته، عطف عليه قوله: ﴿ و لقد اضل منكم ﴾ أى عن الطريق الواضح السوى بما سلطته به من الوسوسة، و أكده

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ما (٢) فى ظ و م و مد: الخصام. (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لدار (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المولى (٦) سقط من ظ.

إشارة إلى أنه أمر لا يكاد أن يصدق به لما يعد ارتكابه فى العادة من [1]اتضاح أمره و ظهور فساده و ضره . و لما كان الآدمى شديد الشكيمة[1] عالى الهمة إذا أراد، عبر بقوله: ﴿ جبلّا ﴾ أى أمما كبارا عظاما [كانوا -[2]] كالجبال فى قوة العزائم وصعوبة الانقياد، و مع ذلك فكان يتلعب بهم تلعبا، فسبحان من أقدره على ذلك و إلا فهو أضعف كيدا و أحقر أمرا، قال فى القاموس: الجبل - بالضم : الشجر اليابس و الجماعة منا كالجبل كعنق و عدل و عتل و [3]طمر و طمرة[3] و أمير، ثم قال: و بالكسر[4] و بالضم و كطمرة[5]: الأمة و الجماعة، ثم قال: و الجبلة مثلثة و محركة وكطمرة[6] : الخلقة و الطبيعة . و دلت قراءة أبى عمرو و ابن عامر بضم الجيم و إسكان الباء و تخفيف اللام[7] على الذين هم فى أول مراتب الشدة و القوة، و قراءة ابن كثير و حمزة و الكسائى و رويس عن يعقوب بضمتين و تخفيف على ما فوق ذلك مما يقرب من الوسط مع الظهور و العلو [للضم من القوة -[2]]، و قراءة روح كذلك مع تشديد اللام على نهاية الشدة و الجلاء[8] و القوة بما زادت[9] من التشديد، و قراءة

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) زيد من ظ و م و مد (٣-٣) من ظ و م و مد و القاموس، و فى الأصل: طهر و طهر - كذا (٤) من ظ و م و مد و القاموس، و فى الأصل: الكسر (٥) من م و مد و القاموس، و فى الأصل و ظ : لظهره (٦) من ظ و م و مد و القاموس، و فى الأصل: كطهرة (٧) راجع نثر المرجان ٥ / ٥٨٦ و ٥٨٧ (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الجلادة (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: زاده .

الباقين

الباقين بكسرتين و تشديد على ما فوق الوسط - بما أشارت إليه الحركات و التشديد، لكنه مع خفاء، وكأنه بالمكر بما[١] أشار إليه كون الحركتين بالكسر، و عظم سبحانه [الأمر -[٢]] بقوله : ﴿ كثيرا[٤] ﴾ ثم زاد فى التوبيخ و الإنكار[٣] بما أنتجه المقام و سببه إضلاله لهم مع ما أوتوا من العقول من قوله : ﴿ افلم ﴾ و لما كان سبحانه قد آتاهم عقولا و أىّ عقول، عبر بالكون فقال : ﴿ تكونوا تعقلون ﴾ أى لتدلكم على ما فيه النجاة عقولكم بما نصبت من الأدلة، مع ما نبهت عليه الرسل، و حذرت منه من إهلاك الماضين، بسبب اتباع الشياطين، و غير ذلك من كل أمر واضح مبين .

و لما أنكر عليهم أن يفعلوا فعل من لاعقل له ، قال متمما للخزى : ﴿ هذه ﴾ إشارة لحاضر إما حال الوقوف على شفيرها أو الدع[٤] فيها ﴿ جهنم ﴾ أى التى تستقبلكم بالعبوسة و التجهم كما كنتم تفعلون بعبادى الصالحين : ﴿ التى كنتم ﴾ أى [كونا -[٢]] هيأتكم به لقبول ما يمكن كونه بما غرزته فيكم من العقول . و لما كان[٥] المحذور الإيعاد بها، لا كونه من معين، [قال -[٤]] بانيا / للمفعول : ﴿توعدون ﴾ أى إن ٣٦٦ /
لم ترجعوا عن غيّكم ﴿اصلوها﴾ أى قاسوا حرها و توقدها و اضطرامها،

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل : بما (٢) زيد من ظ و م و مد .
(٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل : انكار (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : الدفع (٥) زيد فى الأصل : من، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .

و هوّل أمر ذلك اليوم باعادة ذكره على حد ما مضى فقال : ﴿اليوم﴾ لتكونوا فى شغل شاغل كما كان أصحاب الجنة ، و شتان ما بين الشغلين ﴿بما﴾ أى بسبب ما . و لما كانوا قد تجلدوا على الطغيان تجلد[1] من هو مجبول عليه ، بيّن ذلك بذكر الكون فقال : ﴿كنتم تكفرون ه﴾ أى تسترون ما هو ظاهر جدا بعقولكم من آياتى [مجددين ذلك مستمرين عليه - [2]] .

و لما كان كأنه قيل : [هل - [2]] يحكم فيهم [3] بعلمه أو يجرى الأمر على قاعدة الدنيا فى العمل بالبينة ، بين أنه على أظهر من قواعد الدنيا ، فقال [مهولا لليوم على النسق الماضى فى مظهر العظمة لأنه أليق بالتهويل - [2]] : ﴿اليوم نختم﴾ أى بما لنا من عجيب القدرة المتشعبة من العظمة ، [و لفت القول إلى الغيبة إيذانا بالإعراض لتناهى الغضب فقال - [4]] : ﴿على افواههم﴾ أى لاجترائهم على الكذب فى الأخرى[5] كما كان ديدنهم فى الدنيا ، [و كان الروغان و الكذب و الفساد إنما يكون باللسان المعرب عن القلب ، و أما بقية الجوارح فهما خرق العادة باقدارها على الكلام لم تنطق إلا بالحق فلذلك قال - [2]] : ﴿و تكلمنا ايديهم﴾ أى بما عملوا إقرارا هو أعظم شهادة ﴿و تشهد ارجلهم﴾

---

(١) زيد فى الأصل : مع ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٢) زيد من ظ و م و مد (٣) زيد فى الأصل : بعدله و ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ و مد (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الآخرة .

اى عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة إقرار ﴿ بما كانوا ﴾ أى فى الدنيا بجبلاتهم ﴿ يكسبون ه ﴾ فالآية من الاحتباك : أثبت الكلام للأيدى أولا لأنها كانت مباشرة دليلا على حذفه[1] من حيز[2] الأرجل ثانيا، و أثبت الشهادة للأرجل ثانيا لأنها كانت حاضرة دليلا على حذفها من حيز[2] الأيدى أولا ، و بقرينة[3] أن قول المباشر إقرار و قول الحاضر شهادة ، روى مسلم فى صحيحه[4] عن أنس رضى الله عنـــه قال : يقول العبد : يا رب ! ألم تجرنى من الظلم ، قال : فيقول : بلى ، [فيقول -[5]] : فانى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا [منى -[5]] ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، و بالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه و يقال لأركانه : انطق ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه و بين الكلام فيقول : بعدا لكن و سحقا فعنكن كنت أناضل . و الظاهر أن السر فى الختم على فيه منعه من أن يلغط حال شهادتها عليه لئلا يسمع قولها، كما هو دأب أهل العناد عند الخصام .

و لما أتم بضرب المثل و ما بعده الدلالة على مضمون آية " انما تنذر من اتبع الذكر " و ما عللت به من إحياء الموتى ، و دل على ذلك بما تركه كالشمس ليس فيه لبس ، و زاد من بحور الفوائد و جميل[6] العوائـــد ما ملأ الأكوان من موجبات الإيمان ، و ذكر ما فى فريق

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : حذفها (٢) من ظ ‌ و م و مد ، و فى الأصل : خبر (٣) فى ظ وم و مد : تقريبه (٤) راجع ٤٠٩/٢ (٥) زيد من ظ و م و مد و صحيح مسلم (٦) فى ظ : جميع .

المتبعين و الممتنعين يوم البعث ، و ختم بالختم على الأفواه بعد[١] البعث ، أتبعه آية الختم بالطمس و المسخ قبل الموت تهديدا عطفا على ما رجع إليه المعنى مما قبل[٢] أول ذلك الخطاب من قوله " انا جعلنا فى اعناقهم اغللا " الآية ، دفعا لما ربما وقع فى وهم أحد[٣] أن القدرة لاتتوجه إلى غير الطمس فى المعانى بضرب السد و ما فى معناه ، فاخبر أنه كما أعمى البصائر قادر على إذهاب الأبصار ، فقال مؤكدا لما لهم من الإنكار أو[٤] الأفعال التى هى فعل المنكر : ﴿ و لو ﴾ و عبر بالمضارع فى قوله : ﴿ نشآء ﴾ ليتوقع فى كل حين ، فيكون أبلغ فى التهديد ﴿لطمسنا﴾ و قصر الفعل إشارة إلى أن المعنى : لو نريد لأوقعنا الطمس الذى جعلناه على بصائرهم ﴿على[٦] اعينهم ﴾ فأذهبنا عينها و أثرها ، و جعلناها مساوية للوجه بحيث تصير كأنها لم تكن أصلا ، [و قد تقدم فى النساء نقل معنى هذا عن ابن هشام -[٥]] .

و لما كان الجالس مع شخص فى مجلس التنازع و هو يهدده إن لم / يرجع عن غيه بقارعة يصيبه بها يبادر الهرب إذا فاجأته منه مصية /٣٦٧
كبيرة خوفا من غيرها جريا مع[٦] الطبع لما ناله من الدهش ، و مسه من

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : يوم (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يلى (٣) سقط من ظ و م و مد (٤) من مد ، و فى الأصل و ظ و م « و » (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : على .

عظيم

عظيم الانزعاج و الوجل، كما اتفق لقوم لوط عليه السلام لما مسح[١] جبريل عليه السلام أعينهم فأغشاها حين بادروا الباب هرابا يقولون: عند لوط أسحر الناس، سبب عن ذلك قوله: ﴿فاستبقوا﴾ أى كلفوا أنفسهم ذلك و أوجدوه. و لما كان المقصود بيان إسراعهم فى الهرب، عدى الفعل مضمنا له معنى "ابتدروا" كما قال تعالى "و استبقوا الخيرٰت" فقال: ﴿الصراط﴾ أى الطريق الواضح الذى ألفوه و اعتادوه، و لهم به غاية المعرفة. و لما كان الأعمى لايمكنه فى مثل هذه الحالة المشى بلا قائد فضلا عن المسابقة، سبب عن ذلك قوله منكرا: ﴿ فأنّى ﴾ أى كيف و من أين ﴿ يبصرون ه﴾ [أى -[٢]] فلم يهتدوا [٣]للصراط لعدم إبصارهم بل[٣] تصادموا فتساقطوا فى المهالك و تهافتوا.

و لما كان هذا كله مع القدرة على الحركة قال: ﴿و لو نشآء﴾ أى[٤] أن نمسخهم ﴿ لمسخنٰهم ﴾ أى حولناهم إلى الجمادية فأبطلنا منهم الحركة الإرادية. و لما كان المقصود المفاجأة بهذه المصائب بيانا لأنه سبحانه لا كلفة عليه فى شيء من ذلك قال: ﴿علىٰ مكانتهم﴾ أى المكان الذى كان قبل المسخ كل شخص [منهم -[٢]] شاغلا له بجلوس أو قيام أو غيره فى ذلك الموضع خاصة قبل أن يتحرك منه، و هو معنى قراءة شعبة عن عاصم[٥] « مكانتهم »، و دل على أن المراد التحويل إلى أحوال الجمادية بما سبب عن ذلك من قوله: ﴿ فما استطاعوا ﴾ أى بأنفسهم

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مسخ (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) سقط من ظ (٥) راجع نثر المرجان ٥/٥٩٠.

بنوع معالجة[1] ﴿ مضيًا ﴾ أى حركة إلى جهة من الجهات ؛ ثم عطف على جملة الشرط قوله : ﴿ و لا يرجعون ﴾ أى يتجدد لهم بوجه من الوجوه رجوع إلى حالتهم التى كانت قبل المسخ دلالة على أن هذه الأمور حق لا كما يقولون من أنها خيال و سحر ، بل ثباتها لا يمكن أحدا من الخلق رفعه و لا تغييره بنوع تغيير هذا المراد إن شاء [الله –[2]] ، و لو قيل : و لا[3] رجوعا – كما قال بعضهم إنه المراد ، لم يفد هذا المعنى النفيس .

و لما كانت هذه أمورا فرضية يتأتى لبعض المعاندين الألد الطعن[4] فيها مكابرة ، و كان كونه صلى الله عليه و سلم نبى الرحمة مانعا من المفاجأة بالتعذيب بعذاب الاستئصال بها ، دل عليها بما يشاهدونه من باهر قدرته و غريب حكمته فى صنعته ، فقال دالا بالعاطف على غير معطوف عليه ظاهر على أن التقدير : فقد خلقناهم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم أولدناهم لا يعلمون شيئا و لا يقدرون على شىء ، ثم درجناهم فى أطوار الأسنان معلين لهم فى معارج[5] القوى الظاهرة و الباطنة إلى أن صاروا إلى حد الأشد – و هو استكمال القوى البشرية – فأوقفنا قواهم الظاهرة و الباطنة ، فلم نجر[6] العادة بان نحدث[7] [8]فيهم إذذاك[8] قوة لم تكن أيام

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مصالحة (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) فى ظ : لو (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المطعن (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : درجات (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فلم تجر.
(٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تحدث (٨–٨) فى ظ و م و مد إذذاك فيهم .

الشباب: ﴿و من نعمره﴾ أى نطل عمره إطالة كبيرة منهم بعد ذلك ﴿ننكسه﴾ [وقراءة عاصم و حمزة[١] بضم أوله و فتح ثانيه و كسر الكاف مشددة دالة على تفاوت الناس فى النكس، و لم يقل «فى خلقه» لئلا يظن أن المراد أن المعمر له خلق أنشأه و أبدعه -[٢]] ﴿فى الخلق[٤]﴾ أى [فيما أبدعناه من تقدير بدنه و روحه أى -[٢]] نرده على عقبه نازلا فى المدارج التى أصعدناه فيها إلى أن تضمحل قواه الحسية فيكون كالطفل فلا يقدر على شىء، / و المعنوية فلا يعلم شيئا، و من قدر على مثل /٣٦٨ هذا التحويل من حالة إلى أخرى لم تكن طردا و عكسا قدر على مثل ما مضى من التحويل بلا[٣] فرق، غير أنهم لكثرة إلفهم لذلك صيره عندهم هينا، و لقلة وجود الأول صيره عندهم بعيدا، و لذلك سبب عن الكلام قوله [على الأسلوب الماضى فى قراءة الجماعة و لفتا إلى الخطاب عند المدنيين و يعقوب لأنه أقرب إلى الاستعطاف و إعلاما بأن الوعظ عام لكل صالح للخطاب -[٢]]: ﴿افلا يعقلون﴾ و قال بعض العارفين: قيد بالخلق احترازا عن الأمر[٤]، فان المؤتمر كلما زاد سنا ازداد لربه طاعة و به علما، [يعنى أن النكس فى البدن أمر لابد منه، و أما فى المعارف فتارة و تارة - [٢]].

و لما أتم[٥] سبحانه الدليل على آية "لقد حق القول على اكثرهم"

---

(١) زيد فى ظ بعده: و الكسائى - خطا، راجع نثر المرجان ٥/٥٩١.
(٢) زيد من ظ و مد (٣) سقط من ظ (٤) من ظ و م و مد، وفى الأصل: الأحد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تم.

[1]بأن التكذيب[1] بالأصلين التوحيد و الحشر، و بينهما غاية البيان، رجع إلى تثبيت الأصل الثالث و هو أمر الرسول و التنزيل، و لما كان من المعلوم أن الله تعالى أجرى العادة فى النوع الآدمى أن من استوفى من الصبى و الشباب اثنين و أربعين سنة حسمت غرائزه فلم يزد فيه غريزة، و وقفت قواه كلها فلم يزد فيها شيء، أما المعانى الحسية فطلقا[2]، و أما المعنوية فلا تزيد إلا بالتجربة و الكسب، و لذلك قالوا:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئا فمطلبها كهلا عليه شديد

و كان من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام تظهر عليهم غرائز[3] العلوم و الحكم و غير ذلك مما يجريه الله على أيديهم، و لا ينقص شيء من قوام بل تزاد كما روى [4]أن النبي[4] صلى الله عليه و سلم كان يمشى غير مكترث، و أن الصحابة رضى الله عنهم ليجهدون أنفسهم، فيكون جهدهم أن يدركوا مشية الهونيا، و أنه صارع ركانة الذى كان يضرب بقوته المثل، و كان واثقا من نفسه بأنه يصرع من صارعه، فلم يملكه النبي صلى الله عليه و سلم نفسه، و عاد إلى ذلك ثلاث مرات، كل ذلك لا يستمسك فى يده حتى شرع يقول: إن هذا لعجب يا محمد! أتصرعنى، و حتى أنه دار على نسائه - و هن تسع - كل واحدة منهن تسع مرات فى طلق

(١-١) من مد، و فى الأصل و ظ و م: بالتكذيب (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قطعا - كذا (٣) زيد فى الأصل: الأمور و من، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤-٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: أنه.

واحد - إلى غير ذلك مما يحكى[١] من قواه التى فاق بها الناس، و لم يحك عن نبي [من الأنبياء -[٢]] ممن[٣] عاش منهم ألفا و من عاش دون ذلك أنه نقص شيء من قواه، بل قد ورد فى الصحيح[٤] من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن ملك الموت عليه السلام أرسل إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه فلما جاءه صكه ففقأ[٥] عينه فقال لربه: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: اى رب! ثم ما ذا؟ قال: الموت، قال فالآن. و فى آخر التوراة[٦]: و قضى عبد الله موسى بأرض موآب بأمر الرب، فدفن حذاء بيت فاغورا[٧]، و لم يعرف أحد أين قضى إلى يومنا هذا، و كان موسى يوم[٨] قضى ابن مائة و عشرين سنه، لم يضعف بصره و لم يشخ جدا. لما كان الأمر كذلك، وكان [الله -[٢]] سبحانه قد جعل إرسالهم فى سنى الوقوف فى الغرائز و الضعف فى القوى[٩] خرقا للعادة إكراما لهم و تنبيها للناس على صدقهم، علم من العطف على غير معطوف عليه ظاهر و من الإتيان بضميره صلى الله عليه و سلم من غير تقدم ذكر له أن التقدير: لكن نبينا صلى الله عليه و سلم عمرناه و ما

(١) من ظ و م ومد، و فى الأصل: يحلى (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) فى ظ و م و مد: من (٤) راجع أبواب الجنائز و الأنبياء (٥) من ظ و م و مد و الصحيح، و فى الأصل: فقأ (٦) راجع الأصحاح الرابع و الثلاثين - تثنية، من الكتاب المقدس (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فارغور، و فى التوراة: فغور (٨) فى ظ و م و مد: وقت (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: القوة.

نكسناه[1] بل منحناه غرائز[2] من الفضائل عجز عنها الاولون و الآخرون، فأتى بقرآن أعجز[3] الإنس والجن، و علوم / و بركات فاتت القوى، /٣ و معلوم قطعا أن الذى أتى به ليس بشعر خلافا لما رموه به بغيا و عدوانا، وكذبا على جنابه و افتراه و تجاوزا فى البهت[4] و طغيانا، لأنه قد مضى عليه سن الصبى و الشباب جميعا و لم يقل بيت شعر مع ما يرى لكم و لأمثالكم فيه من المفاخرة، و به من المكاثرة، و قد وصل إلى سن الوقوف المعلوم قطعا أنه لايحدث للانسان فيه غريزة لم تكن أيام شبابه لاشعرية و لاغيرها: ﴿ و ما علمنه ﴾ أى نحن ﴿ الشعر ﴾ [5]فيما علمناه و هو أن يتكلف التقيد بوزن معلوم و روى مقصود و قافية يلتزمها، و يدير المعانى عليها و يجتلب الألفاظ تكلفا إليها كما كان زهير فى قصائده الحوليات و غيره من أصحاب التكلفات " و ما انا من المتكلفين" لأن ذلك و إن كنتم أنتم تعدونه فخرا لايليق بجانبنا لأنه لايفرح به إلا من يريد ترويج كلامه و تحليته بصوغه[6] على وزن معروف مقصود و قافية ملتزمة لكونه لايقدر على الإتيان بأحسن منه بما لايقايس من غير التزام وزن و لاقافية على أن فيه نقيصة أخرى، و هى أعظم ما يوجب النفرة منه، و هى أنه لابد أن يوهى التزامه بعض المعانى، و لما لم[7] نعلمه

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: نكسنا (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: غزاير (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بعجز (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: البيت (٥) زيد فى ظ: اى (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بصوغه (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لا.

هذه الدناءة طبعناه على جميع فنون البلاغة ، ومكناه من سائر وجوه الفصاحة ، ثم أسكنا قلبه ينابيع الحكمة ، و دربناه على إلقاء المعانى الجليلة و إن دقت فى الألفاظ الجزلة العذبة السهلة موزونة كانت أو لا ، و ذلك بما[١] ألهمناه [إياه -[٢]] ثم بما ألقاه إليه جبريل عليه السلام بما أمرنا له به من جوامع الكلم و الكلام ، فلا تكلف عنده أصلا ، ما خير بين الأمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم ، و هذا البيت الذى أوردته عزاه فى الحماسة فى أوائل باب الأدب[٣] إلى رجل من بنى قريع[٤] لم يسمه [و قبله -[٢]] :

متى ما يرى الناس الغنى و جاره فقير يقولوا عاجز و جليـــد
[٥]وليس[٥] الغنى والفقر من حيلة الفتى و لـكن أحاظ قسمت و جدود[٦]
إذا المرء أعيتـه المروءة ناشئـا فمطلبها كـــهلا عليه شديد
و كائن رأينا[٧] من غنى مـــذمم و صعلوك قوم مات و هو حميد

و المعنى أن كثرة المال و قلته[٨] ليست من غريزة من الغرائز ، و إنما هى أمر ربانى لامدخل للغرائز من جلادة و لاغيرها فيه ، بدليل أنا كثيرا ما رأينا من فاته الغنى شابا جلدا و ناله شيخا ضعيفا ، و ما رأينا

(١) فى ظ : مما (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) راجع ٣ / ٨٧ (٤) من ظ و مد و الحماسة ، و فى الأصل و م : قزيع (٥-٥) من ظ و م و مد والحماسة ، و فى الأصل : فليس (٦) من م و مد و الحماسة ، و فى الأصل و ظ : حدود. (٧) من ظ و م و مد و الحماسة ، و فى الأصل : راسا (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كثرته .

[١]من أخطأته[١] المروءة شابا و نالها شيخا، و بدليل أنه كم من غنى كانت غرائزه ذميمة، و كم من فقير كانت خلائقه محمودة، و المروءة هى الإنسانية، و هى كل أمر هنىء [٢]حميد المغبة[٢] جميل العاقبة، و هذا هو السيادة، يعنى أن من كانت المروءة فى غريزته حمله طبعه على تعاطيها [فى شبابه -[٣]] غنيا كان أو فقيرا، و من لم يكن عنده لم يقدر على تكلفها فى سن الاكتهال، فلله درهم! ما كان أحكمهم [٤]و أدراهم[٤] بالدقائق و أعلمهم، و لذلك جعل هذا النبي الأمى منهم، فملأت معارفه الآكوان، و سمت فى رتب[٥] المعانى صاعدة فأين منها[٦] كيوان.

و لما كان الشعر / مع ما بنى عليه من التكلف الذى هو بعيد ٣٧٠/
جدا عن[٧] سجايا الأنبياء فكيف بأشرفهم مما يكتسب به مدحا و هجوا، فيكون أكثره كذبا - إلى غير ذلك من معايبه، قال سبحانه و تعالى: ﴿ و ما ينبغى له ﴾ أى و ما يصح و لاينطلب[٨] ولا يتأتى أصلا، لأن منصبه أجل، و همته أعلى من أن يكون مداحا أو عيابا، أو أن يتقيد بما قد يجر إلى نقيصة[٩] فى المعنى، و جبلته منافية لذلك غاية المنافاة.

(١ - ١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فى اخطاه (٢ - ٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: جميل المعر - كذا (٣) زيد من ظ و م و مد. (٤ - ٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فادراهم (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: رتبة (٦) فى ظ و م و مد: عنها (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ما يطلب (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: نقيصته.

و لما

و لما تمت الدلالة على أمر الرسول صلى الله عليه و سلم، و تضمنت أن الشعر - و هو تعمد صوغ الكلام على وزن معلوم[1] و قافية ملتزمة - نقيصة لما ذكر و لما يلزمه التقيد بالوزن و الروى و القافية من التقديم و التأخير و التحويم على المعانى من غير إفصاح و لا تبيين [فيصير -[2]] عسر الفهم [3] مستعصى البيان[3]، و نفى عنه صلى الله عليه و سلم تلك النقيصة، فتضمن ذلك تنزيه ما أنزل عليه عنها - كما أشارت إليه نون العظمة فى "علمنا" - أثبت له ما ينبغى له فقال كالتعليل لما قبله: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ هو ﴾ أى هذا الذى أتاكم به ﴿الا ذكر﴾ أى شرف و موعظة ﴿ و قرا'ن ﴾ أى جامع للحكم كلها دنيا و اخرى يتلى فى المحاريب و يكرر فى المتعبدات[4]، و ينال بتلاوته و العمل به فوز الدارين مع الفصل بين الملبسات ﴿ مبين لا ﴾ أى ظاهر فى ذلك مظهر لكل ما فيه لمن يرومه حق رومه، و يسومه بأغلى سومه، بعد أن يشترط فى مطلق فهمه و مجرد اللذة به الذكى و الغبى و الحديد و البليد، و ليس هو بشعر متكلف يتقدم فيه - بحكم التزام[5] الوزن و الروى و القافية - [الشىء -[2]] عن حاق موضعه تارة و يتأخر أخرى، و يبدل بما لا يساويه فتنقص معانيه و تنعقد فتشكل فلا يفهمه [6] إلا ذاك[6] و ذاك

---

(١) زيد فى الأصل: مفهوم، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

(٢) زيد من ظ و م ومد (٣-٣) من ظ و م ومد، و فى الأصل: منفصى.

(٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: التعبدات (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الالتزام (٦-٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الادراك.

[مع - ١] أنه من همزات الشياطين [فيا - ١] بعد ما بينهما[2]، و يبين هذا المعنى غاية البيان آخر « ص » " قل ما اسالكم عليه من اجر و ما انا من المتكلفين " " ان هو الا ذكر للعلمين " [أى - ١] كلهم ذكيهم و غبيهم [3] بخلاف الشعر[3] فانه مع نزوله[4] عن بلاغته جدا إنما هو ذكر[5] للأذكياء جدا .

و لما ذكر أمر الرسول صلى الله عليه و سلم فيما آتاه من غرائز الشرف فى سن النكس لغيره، ذكر علة[6] ذلك فقال: ﴿ لينذر ﴾ أى الرسول صلى الله عليه و سلم بدليل ما دل عليه السياق من التقدير، و يؤيده[7] لفت الكلام فى قراءة نافع و ابن عامر و يعقوب[8] بالخطاب إشارة إلى أنه لايفهمه حق فهمه غيره صلى الله عليه و سلم .

و لما كان هذا[9] القرآن مبينا، و كان الرسول صلى الله عليه و سلم متخلقا به، فهو مظهره و صورة سورته، فكان حاله مقتضيا لئلا يتخلف عن الإيمان [حىّ] ، قال مظهرا لما كان حقه فى بادى الرأى الإضمار إفادة للتعميم مبينا لأن حكمه سبحانه منع من ذلك، فانقسم المنذرون إلى قسمين: ﴿ من كان ﴾ كونا متمكنا ﴿ حيا ﴾ أى حياة

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بينها .
(٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: نوله .
(٥) زيد بعده فى الأصل: اى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: علمه (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يويد هذا (٨) راجع نثر المرجان ٥/٥٩٢ (٩) سقط من ظ .

كاملة معنوية تكون سببا للحياة الدائمة ، فانه لايتوقف حينئذ عن الإيمان به ـ[١]] ، خوفا عما يخوف به من الأمور التي لايتوجه إليها ريب بوجه ، فيرجى له الخير ، فهو مؤمن في الحقيقة و إن ظهر عليه في أول أمره خلاف ذلك ، [٢]و أفرد الضمير هنا على اللفظ إشارة إلى قلة السعداء ، و جمع في الثاني على المعنى إعلاما بكثرة الأشقياء[٢] ﴿ و يحق ﴾ أي يجب و يثبت ﴿ القول ﴾ أي بالعذاب ﴿ على الكٰفرين ﴾ أي العريقين في الكفر فانهم أموات في الحقيقة و إن رأيتهم أحياء ، فالآية من الاحتباك : حذف الإيمان أولا لما دل عليه / من ضده [ثانيا ، و حذف الموت ثانيا لما / ٣٧١
دل عليه من ضده ـ[١]] أولا ، فتحقق بهذا[٣] أن أعظم منافاة القرآن للشعر و كذا السجع من أجل أنه جد كله ، فمحط أساليبه بالقصد الأول [المعاني و الألفاظ تابعة ، و الشاعر و الساجع محط نظرهما بالقصد الأول ـ[١]] الروي و القافية و الفاصلة[٤] حتى أن ذلك ليؤدي إلى ركة المعنى و الكلام بغير الواقع و لا بد ، كما قال حسان [بن ثابت ـ[١]] رضي الله عنه و حاله معروف في البلاغة و التفنن في أساليب الكلام و صدق اللهجة و حسن الإسلام في غزوة الغابة و كان أميرها سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه :

أسر[٥] أولاد اللقيطة أننا ... سلم غداة فوارس المقداد

---

(١) زيد من ظ وم ومد (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) من ظ و م و مد ، و في الأصل : مجدا (٤) من ظ و م و مد ، و في الأصل : المفاصلة .
(٥) من ظ و م و مد ، و في الأصل : انشد . و في ديوان حسان ١٠٨ : هل سر .

فغضب سعد على حسان رضى الله عنهما و حلف : لا يكلمه أبدا ، و قال : انطلق إلى خيلى و فوارسى ، فجعلها للمقداد ، فاعتذر إليه حسان رضى الله عنهما و مدحه بأبيات و قال : و الله ما أردت ذلك و لكن الروى وافق اسم المقداد ، لأن القصيدة دالية ، فالنبى صلى الله عليه و سلم لا يدور فى فكره [أبدا - [1]] قصد اللفظ ، فأنه من باب الترويق ، و هو صلى الله عليه و سلم جد كله ، فهو لا يعدل عنه لأنه موزون ، بل لأنه لا يؤدى المعنى كما أن العرب تعدل عن اللحن و لا تحسن النطق به و لا تطوع ألسنتها له لكونه[2] لحنا ، لا لكونه حركة ، فان وافق شىء من الموزون ما أريد من المعنى لأجل أداء المعنى قاله ، كما يقع لكثير من المصنفين الكلام الموزون و ما قصده ، و كما وقع كثير من الكلام الموزون من جميع أبحر الشعر فى القرآن[3] و إن لم يوافق المعنى لم يقله ، و على هذا يتخرج قوله صلى الله عليه و سلم :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

لو تظاهر الإنس و الجن على أن يأتوا بما أداه من المعنى فى ألفاظه أو مثلها على غير هذا النظم لم يقدروا ، و إذا[4] تأملت كل بيت تمثل به فكسره لا تجده كسره إلا لمعنى جليل ، لا يتأتى مع الوزن أو يكون لا فرق بين أدائه [5]موزونا و مكسورا[5] ، و هكذا السجع سواء ، و من هنا علم أنه ليس المعنى أنه لا يحسن الوزن ، بل المعنى أن تعمد الوزن

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) فى م : لكونها (٣) زيد فى الأصل : يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره ، ولم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لو (٥-٥) فى م و مد : مكسورا و موزونا .

و السجع

و السجع نقيصة لاتليق بمنصبه[1] العالى لأن الشاعر مقيد بوزن و روى و قافية ، فان أطاعه المعنى مع ما هو مقيد به كان و إلا احتال فى إتمام ما هو مقيد به و إن نقص المعنى ، و الساجع قريب من ذلك ، فهذا هو الذى لم يعلمه الله له ، لأنه صلى الله عليه و سلم تابع للمعانى و الحقائق و الحكم التى تفيد الحياة الدائمة ، لأنه مهيأ بالطبع المستقيم لذلك غير مهيأ لغيره من التكلف ، و إذا أنعمت النظر فى آخر الآية الذى هو تعليل لما قبله تحققت أن هذا هو المراد ، فوضح أى وضوح بهذا أن كلا منهما نقيصة ، فلا يتحرك شيء من أخلاقه الشريفة نحوها ، و لايكون له[2] بذلك شيء من[3] الاعتناء ، و قد أشبعت الكلام فى هذا و أتقنته فى كتابى « مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور » و هو كالمدخل إلى[4] هذا الكتاب - و الله الموفق للصواب[5] .

و لما أخبر سبحانه باعماء أفكارهم ، و هدد بطمس / أبصارهم ، / ٣٧٢
و مسخهم على مقاعدهم و قرارهم ، و أعلم بأن[6] كتابه خاتم بانذارهم ، ذكرهم بقدرته و قررهم تثبيتا[7] لذلك ببدائع صنعته ، فقال عاطفا على ما تقديره : ألم يروا ما قدمناه و أفهمته آية « و من نعمره » و ما بعدها من بدائع صنعنا تلويحا و تصريحا الدال على علمنا الشامل و قدرتنا التامة ، فهما

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بمنصه (٢) زيد فى الأصل : بشيء ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) سقط من ظ (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى (٥) سقط من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بانه (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تبيينا .

صوبنا كلامنا إليه حق القول عليه و لم يمنعه مانع ، و لايتصور له دافع ﴿ او لم يروا ﴾ أى يعلموا علما هو كالرؤية ما هو أظهر عندم دلالة من ذلك فى أجل[1] أموالهم ، و لايبعد عندى - و إن طال المدى - أن يكون معطوفا على قوله[2] " الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون " فذاك استعطاف [3]إلى توحيده[3] بالتحذير من النقم ، و هـذا بالتذكير بالنعم ، و نبههم على ما فى ذلك من العظمة بسوق الكلام فى مظهرها كما فعل فى آية إهلاك القرون فقال : ﴿انا خلقنا لهم﴾ و خصها بنفسه الشريفة محوا للأسباب و إظهارا[4] لتشريفهم بتشريفها فى قوله : ﴿ مما عملت ﴾ و لما كان الإنسان مقيدا بالوهم لاينفك عنه ، [5]و لذلك[5] يرى الأرواح [فى المنام -[6]] فى صور أجسادها ، و كانت يده محل قدرته و موضع[7] اختصاصه ، عبر له بما يفهمه[8] فقال : ﴿ايدينا﴾ أى بغير واسطة على علم منا بقواها و مقاديرها و منافعها و طبائعها و غير ذلك من أمورها ﴿ انعاما ﴾ ثم بين كونها لهم بما سبب عن خلقها من قوله : ﴿ فهم لها ملكون ﴾ أى ضابطون قاهرون من غير قدرة لهم على ذلك لولا قدرتنا بنوع التسبب .

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : احل (٢) سقط من ظ و م و مد .
(٣ - ٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : على توحيدو (٤) زيد فى الأصل : لهم ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مواضع (٨) فى م : يفهم .

و لما كان الملك لا يستلزم الطواعية، قال تعالى: ﴿و ذلّلنها لهم﴾ أى يسرنا قيادها، و لو شئنا لجعلناها[1] وحشية كما جعلنا أصغر منها و أضعف، فمن قدر على تذليل الأشياء الصعبة جدا لغيره فهو قادر على تطويع الأشياء لنفسه، ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿فمنها ركوبهم﴾ أى ما يركبون، و هى الإبل لأنها أعظم مركوباتهم لعموم منافعها فى ذلك و كثرتها، و لمثل ذلك فى التذكير بمظيم النعمة و النفع و استقلال كل من النعمتين بنفسه أعاد الجار، و عبر بالمضارع للتجدد بتجدد[2] الذبح بخلاف المركوب[3] فان صلاحه لذلك ثابت دائم فقال[4]: ﴿و منها ياكلون ه﴾ .

و لما أشار إلى عظمة نفـــع الركوب و الأكل بتقديم الجار، و كانت منافعها من غير ذلك كثيرة، قال: ﴿ و لهم فيها منافع ﴾ أى بالأصواف و الأوبار و الأشعار و الجلود و البيع و غير ذلك، و خص المشرب من عموم المنافع[5] لعموم نفعه، فقال جامعا له لاختلاف طعوم ألبان الأنواع الثلاثة، و كأنه عبر بمنتهى الجموع لاختلاف طعوم[6] أفراد النوع الواحد لمن تأمل ﴿و مشارب ه﴾ أى من الألبان[7]، أخرجناها مميزة عن الفرث و الدم خالصة لذيذة، و كل ذلك لاسبب له إلا أن كلمتنا حقت بـــه، فلم يكن بد من كونه على وفق ما أردنا، فليحذر من هو أضعف حالا منها من حقوق أمرنا و مضى حكمنا بما يسوءه .

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بجعلنا (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و مد، و فى الأصل و م: الركوب (٤) سقط من م (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: النفع (٦) فى م: طعم (٧) زيد فى ظ: أى .

و لما كانت هذه الأشياء من[1] العظمة بمكان، لو فقده الإنسان لتكدرت معيشته، سبب عن ذلك استئناف الإنكار عليهم فى تخلفهم عن طاعته بقوله: ﴿ أفلا يشكرون ﴾ / أى يوقعون الشكر، و هو تعظيم المنعم لما /٣٧٣
أنعم [2]و هو[2] استفهام بمعنى الأمر.

و لما ذكرهم نعمه[3]، و حذرهم نقمه[4]، عجب منهم فى سفول نظرهم و قبح[5] أثرهم، فقال موبخا و مقرعا و مبكتا و معجبا من زيادة ضلالهم [6]عادلا عن مظهر العظمة إلى أعظم منه[6]: ﴿ و اتخذوا ﴾ أى فعلنا لهم ذلك و الحال أنهم كلفوا أنفسهم على غير ما تهدى إليه الفطرة الأولى أن أخذوا، أو يكون [6]معطوفا على «كانوا» من قوله "الا كانوا به يستهزءون" فيكون[6] التقدير: إلا كانوا يجددون الاستهزاء، و اتخذوا قبل إرساله إليهم[7] مع ما رأوا من قدرتنا و تقلبوا فيه من نعمتنا: ﴿ من دون الله ﴾ أى [8] الذى له جميع العظمة، فكل شيء دونه، و ما كان دونه كان مقهورا مربوبا ﴿ آلهة ﴾ أى[8] لا شيء لها من القدرة و لا من صلاحية الإلهية. و لما تقرر أنها غير صالحة لما أهلوها له، تشوف السامع إلى السؤال عن

---

(١) زيد فى الأصل: حقوق، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٢-٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فهو (٣) فى ظ و م و مد: نعمته.
(٤) فى ظ و م و مد: نقمته (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قبيح.
(٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) من ظ و مد، و فى الأصل و م: لهم.
(٨-٨) سقط ما بين الرقمين من ظ.

سبب

سبب ذلك، فقال جوابا له تعجيبا من حالهم: ﴿لعلهم﴾ أى العابدين. و لما كان مقصودهم[1] حصول النصر من أيّ ناصر كان، بنى للمفعول قوله: ﴿ينصرون ه﴾ أى ليكون حالهم بزعمهم فى اجتماعهم عليها و التمامهم بها حال من ينصر على[2] من يعاديه و يعانده و يناويه.

[3]و لما كان[3] للنصر سببان: ظاهرى و هو الاجتماع، و أصلى باطنى و هو الإلـٰه المجتمع عليه، بين غلطهم بتضييع الأمل، فقال مستأنفا فى جواب من كأنه قال: فهل[4] بلغوا ما أرادوا؟: ﴿لا يستطيعون﴾ أى الآلهة المتخذة ﴿نصرهم لا﴾ أى العابدين ﴿و هم﴾ أى العابدون ﴿لهم﴾ أى الآلهة ﴿جند﴾ و لما كان الجند مشتركا بين العسكر و الأعوان و المدينة، عين[5] المراد بضمير الجمع [6]و لأنه[6] أدل على عجزهم و حقارتهم [فقال -[7]]: ﴿محضرون ه﴾ أى يفعلون فى الاجتماع إليها و المحاماة عنها فعل من يجمعه كرها إيالة الملك و سياسة العظمة. فصارت العبرة بهم خاصة فى حيازة السبب الظاهرى مع تعبدهم[8] للعاجز و ذلهم للضعيف الدون مع ما يدعون[9] من الشهامة و الأنفة و الضخامة، فلو جمعوا أنفسهم على الله لكان لهم ذلك، و حازوا [معه -[7]] السبب الأعظم.

(١) فى ظ وم و مد: مطلوبهم (٢) سقط من ظ (٣-٣) تكرر ما بين الرقمين فى الأصل فقط (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: هل (٥) من ظ و مد، و فى الأصل و م: غير (٦-٦) فى الأصل بياض، ملأناه من ظ و م و مد.
(٧) زيد من ظ و م و مد (٨) من ظ و مد، و فى الأصل و م: تقيدهم.
(٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يشاهدون.

و لما بين ما بين من قدرته الباهرة، و عظمته الظاهرة، [و - [1]] وهى أمرهم فى الدنيا و الآخرة، و كان قد تقدم ما لوح إلى أنهم نسبوه صلى الله عليه و سلم إلى الشعر، و صرح باستهزائهم بالوعد مع ما قبل ذلك[2] من تكذيبهم و إجابتهم للمؤمنين من تسفيههم و تضليلهم، سبب عن ذلك بعد ما نفى عنهم النصرة قوله تسلية له صلى الله عليه و سلم: ﴿فلا يحزنك﴾ قراءة الجماعة بفتح الياء و ضم الزاى، و معناه: يجعل فيك، و قراءة نافع بضم الياء و كسر الزاى تدل على أن[3] المنهى عنه[4] إنما هو كثرة الحزن و الاستغراق فيه، لا ما يعرض من طبع البشر من أصله، فان معنى أحزن فلانا كذا، أى جعله حزينا ﴿قولهم﴾ أى الذى قدمناه تلويحا و تصريحا و غير ذلك فيك و فينا. و لما كان علم القادر بما يعمل عدوه سببا لأخذه، علل ذلك بقوله مهددا بمظهر العظمة: ﴿انا نعلم ما[5]﴾ أى كل ما ﴿يسرون﴾ أى يجددون إسراره ﴿و ما يعلنون ه﴾ أى فنحن نجعل ما [6]يسببونه لأذاك سببا[6] لأذاهم و نفعك إلى أن يصيروا فى قبضتك و تحت قهرك و قدرتك.

٣٧٤ / و لما أثبت / سبحانه[7] بهذا الدليل [قدرته على ما هدد به أولا من التحويل من حال إلى أخرى، فثبتت بذلك - [1]] قدرته على البعث،

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) سقط من م (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انه (٤) سقط من ظ (٥) ليس فى الأصل فقط (٦ - ٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يسوءه به لاذا مسببا (٧) زيد فى الأصل: ذلك، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

و ختم باحاطة العلم الملزوم لتمام القدرة ، أتبع ذلك دليلا أبين من[1] الأول[2]، فقال عاطفا على " الم[1] يروا " : ﴿او لم ير﴾ أى يعلم علما هو فى ظهوره كالمحسوس بالبصر .

و لما كان هذا المثل الذى قاله هذا الكافر لا يرضاه حمار[2] لو نطق، أشار إلى غباوته بالتعبير بالإنسان الذى هو - و إن كان أفطن المخلوقات لما ركب[3] فيه سبحانه من [4] العقل - تغلب عليه[4] الإنس بنفسه حتى يصير مثلا فى الغباوة فقال : ﴿الانسان﴾ أى [جنسه -[5]] منهم و من غيرهم [6]و إن كان الذى نزلت فيه واحدا[6] ﴿ انا خلقنه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿من نطفة ﴾ أى شىء يسير حقير من ماء لا انتفاع به بعد إبداعنا[7] أباه من تراب و أمه من لحم و عظام ﴿ فاذا هو ﴾ أى فتسبب عن خلقنا له من ذلك المفاجأة لحالة هى أبعد شىء من حالة النطفة و هى أنه ﴿خصيم﴾ أى بالغ الخصومة ﴿ مبين ﴾ أى فى غاية البيان عما يريده حتى أنه ليجادل من أعطاه[8] العقل و القدرة فى قدرته ، أنشد الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى ذلك :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى[9]

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : او لم (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : حما (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : رتب (٤ - ٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الفعل فغلب على (٥) زيد من ظ و م و مد (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ايداعنا (٨) زيدت الواو بعده فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٩) و البيت الثانى :

و كم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجانى .

و لما كان التقدير : فعبد - مع [أنا -[1]] تفردنا بالإنعام عليه - غيرنا و خاصم[2] - بما خلقناه[3] له من اللسان و آتيناه من البيان - رسلنا و جميع أهل ودنا ، عطف عليه قوله مقبحا إنكارهم البعث تقبيحا لا يرى أعجب منه ، و لا أبلغ و لا أدل على التمادى ، فى الضلال و الإفراط فى الجحود و عقوق الأيادى : ﴿ و ضرب ﴾ أى هذا الإنسان ؛ و سبب النزول أبي بن خلف الجمحى الذى قتله النبي صلى الله عليه و سلم بأحد مبارزة[4] ، فهو المراد بهذا التبكيت بالذات و بالقصد الأول ﴿ لنا ﴾ أى على ما يعلم من عظمتنا ﴿ مثلا ﴾ أى آلهته التى عبدها لكونها لا تقدر على شيء [5]مكابرا لعقله[5] فى أنه لا شيء يشبهنا ﴿ و نسى ﴾ [أى -[6]] هذا الذى تصدى على نهاية أصله لمخاصمة الجبار ، و أبرز صفحته لمجادلته ، و النسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول ، و أن يكون بمعنى الترك ﴿ خلقه ﴾ أى خلقنا لهذا المخاصم الدال على كمال قدرتنا ، و أن آلهته التى أشرك[7] بها لا تقدر على شيء ، فافترق الحال الذى جمعه بالمثل أيّ افتراق ، و صارا مقولا له : يا قليل الفطنة ! أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ثم[8] استأنف الإخبار عن هذا المثل بالإخبار عن استحالته

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : خاتم (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : خلقنا (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مبارزته (٥ - ٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مكابه العقلة - كذا .
(٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اشركه .
(٨) سقط من ظ .

لأن

لأن يقدر أحد على إحياء الميت كما أن معبوداته لا تقدر على ذلك فقال: ﴿ قال ﴾ أى على سبيل[1] الإنكار: ﴿ من يحى ﴾ .

و لما كانت العظام أصلب شيء و أبعده عن قبول الحياة لاسيما إذا بليت و أرفتت قال: ﴿ العظام و هى ﴾ و لما أخبر عن المؤنث[2] باسم لما بلى من العظام غير صفة[3]، لم يثبت تاء التأنيث فقال: ﴿ رميم ﴾ أى صارت ترابا يمر مع الرياح .

و لما كان موطنا يتشوف فيه السامع لهذا الكلام إلى جوابه، استأنف قوله مخاطبا من[4] لا يفهم هذه المجادلة حق فهمها[5] غيره: ﴿ قل ﴾ أى لهذا الذى ضرب هذا المثل جهلا منه فى قياسه [من -[6]] يقدر على كل شيء على من لا يقدر على شيء، [7]و أعاد فعل الإحياء نصا على المراد دفعا للتعنت / و دلالة على الاهتمام فقال[7]: ﴿ يحييها ﴾ أى[8] / ٣٧٥د من بعد أن بليت[9] [10] ثانى مرة[10]، و لفت القول[11] إلى وصف يدل على الحكم فقال: ﴿ الذى انشأها ﴾ أى من العدم ثم أحياها ﴿ اول مرة ﴾

---

(١) فى ظ و م و مد: طريق (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الموت. (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فتقه (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لمن (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فهمه (٦) زيد من ظ وم و مد (٧ - ٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨) سقط من م، و العبارة من هنا بما فيها هذه الكلمة ساقطة فى ظ إلى «ثانى مرة» (٩) من مد، و فى الأصل وم: يفنيها (١٠-١٠) من م و مد، و فى الأصل: ثانيا (١١) فى مد: الكلام .

أى فإن [كل - [1]] من قدر على إيجاد شيء أول مرة فهو قادر على إعادته ثانى مرة[2]، و هى شاهدة بأن الحياة تحل العظم فيتنجس بالموت بما يحكم بنجاسة ميتته ﴿و هو بكل خلق﴾ أى صنع و تقدير ممكن أن يخلق من ذلك و من غيره ابتداء و إعادة ﴿عليم ۟ۙ﴾ أى بالغ العلم، فلا يخفى عليه [3]أجزاء ميت[3] أصلا و إن تفرقت فى [4]البر و البحر[4]، و لا شيء غير ذلك، فالآية من بديع [5] الاحتباك[6]: الإحياء أولا دال[7] على مثله ثانيا، و الإنشاء ثانيا دال[7] على مثله أولا، و "اول مرة" فى الثانى دال على «ثانى مرة» فى الأول، فهو على كل شيء قدير كما برهن عليه فى سورة طه، فهو يوجد المقتضيات لكل ممكن يريده، و يرفع الموانع فيوجد فى الحال من غير تخلف أصلا، فقد بلغ هذا البيان فى الدلالة على البعث الجسمانى و الروحانى معا النهاية التى ليس وراءها بيان، بعد أن وطأ له فى هذه السورة نفسها بما لا يحتمل طعنا بقوله "فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون"، "من بعثنا من مرقدنا" "فاذا هم جميع لدينا محضرون" "ان اصحب الجنة اليوم[8] فى شغل فكهون" "و امتازوا اليوم[8] ايها المجرمون" "اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون" "اليوم نختم

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد بعده فى الأصل: صنع و تقدير، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣ - ٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اجراء كلمة (٤ - ٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: البحر و البر. (٥) زيد فى الأصل و ظ و م: فى، ولم تكن الزيادة فى مد فحذفناها (٦) زيد فى الأصل و ظ: ذكر، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: دالا (٨-٨) سقط ما بين الرقمين من ظ.

على افواهم و تكلمنا ايديهم و تشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون".

و لما كان [مآل -[1]] هذا المثل الذى علق الإنكار فيه بالرميم استبعادَ تميز الشيء - إذا صار ترابا و اختلط بالتراب[2] - عن غيره من التراب، وصف نفسه المقدس باخراج الشيء الذى هو أخفى ما يكون من ضده، و ذلك بتمييز النار من الخشب الذى فيه الماء ظاهر بأيدى العجزة[3] من خلقه. فقال معيدا[4] للموصول تنبيها على التذكير بالموصوف ليستحضر ماله من[5] صفات الكمال فيبادر إلى الخضوع له من كان حيا: ﴿ الذىٓ جعل لكم ﴾ أى متاعا و استبصارا ﴿ من الشجر الاخضر ﴾ الذى تشاهدون فيه الماء ﴿ نارا ﴾ بأن يأخذ أحدكم غصنين كالسواكين و هما أخضران يقطر منهما الماء[6] فيسحق المرخ[6] - و هو ذكر - على العفار - و هو أنثى - فتخرج [النار -[1]]؛ قال أبو حيان[7]: و عن ابن عباس رضى الله عنهما: ليس شجر إلا [و -[8]] فيه نار إلا العناب - انتهى. و لذلك قالوا فى المثل المشهور: فى كل شجر نار و استمجد المرخ و العفار ﴿ فاذآ انتم ﴾ أى فيتسبب[9] عن ذلك مفاجأتكم لأنكم ﴿ منه ﴾ أى الشجر الموصوف بالخضرة[10]

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: التراب. (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المعجزة (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: معبرا (٥) سقط من ظ (٦ - ٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فيستحق المدح هكذا (٧) راجع البحر المحيط ٧ / ٣٤٨ (٨) زيد من ظ و م و مد و البحر (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فتسبب (١٠) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بالضرة.

بعينه ﴿ توقدون ه ﴾ أي توجدون الإيقاد و يتجدد لكم ذلك مرة بعد أخرى ، ما هو[1] بخيال و لا سحر بل حقيقة ثابتة بينة ، [2]وكأنه قدم الجار لكثرة إيقادهم منه ، فعد إيقادهم من غيره لذلك و لعظمته عدما[2] .

و لما كان ذلك من غير كلفة عليهم ، قدم الجار تخصيصا له وعدا لغيره كالمعدوم ، فالذى قدر على تمييز النار من الماء [و الخشب و خبء النار فيهما لا النار تعدو على الخشب فتحرقه و لا الماء يعدو على النار -[3]] فيطفئها قادر على تمييز / تراب العظام من تراب غيرها ، و نفخ الروح /٣٧٦ فيها كما نفخ روح النار فى الحطب المضاد له بالمائية .

و لما كان التقدير : أليس الذى قدر على ذلك بقادر على ما يريد من إحياء العظام و غيرها ، عطف عليه ما هو أعظم [شأنا -[3]] منه تقريرا على الأدنى [4] بالأعلى فقال : ﴿ او ليس الذى خلق ﴾ أي أوجد من العدم و قدر ﴿ السموٰت و الارض ﴾ أي على كبرهما [5]و عظمتهما[5] و عظيم ما فيهما من المنافع و المصانع و العجائب و البدائع ، و أثبت الجار تحقيقا للأمر و تأكيدا للتقرير فقال : ﴿ بقدر ﴾ أي بثابت[6] له قدرة لا يساويها قدرة ، و معنى قراءة رويس عن يعقوب بتحتانية[7] مفتوحة

(١) زيد فى الأصل : ليس ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٣) زيد من ظ و م و مد .
(٤-٤) العبارة من هنا إلى «عظمتهما» ساقطة من ظ (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ثابت (٧) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : بالتحتانية .

و إسكان

و إسكان القاف من غير ألف و رفع الراء[١] أنه يجدد[٢] تعليق القدرة على سبيل الاستمرار ﴿ علىٓ ان يخلق ﴾ و لفت الكلام إلى الغيبة إيذانا بانهم صاروا بهذا[٣] الجدل أهلا لغاية[٤] الغضب فقال : ﴿ مثلهمؕ ﴾ أى مثل هؤلاء الأناسى أى يعيدهم بأعيانهم كما تقول : مثلك كذا أى أنت ، و عبر به إفهاما لتحقيرهم و أن إحياء العظام الميتة أكثر ما يكون خلقا جديدا ، بل ينقص عن الاختراع بان له مادة موجودة ، و عبر بضمير الجمع لأنه أدل على القدرة ، قال الرازى : و القدرة عبارة عن المعنى الذى به يوجد الشيء مقدرا[٥] بتقدير الإرادة و العلم واقعا[٦] على وفقهما و إن كانت صفات الله تعالى أعلى[٧] من أن يطمحها نظر عقل ، و تلحقها العبارات اللغوية ، و لكن غاية القدرة البشرية و اللغة العربية هذا .

و لما كان الجواب بعد ما مضى من الأدلة القاطعة و البراهين الساطعة الاعتراف ، قال سبحانه مقررا لما بعد النفى إشارة إلى أنه تجب المبادرة إليه ، و لا يجوز التوقف فيه و من توقف فهو معاند : ﴿ بلىٰ ق ﴾ أى هو قادر على ذلك[٨] ﴿ و هو ﴾ مع ذلك أى كونه عالما بالخلق ﴿ الخلّٰق ﴾ البالغ فى هذه الصفة مطلقا فى تكثير الخلق و تكريره بالنسبة إلى كل

---

(١) راجع نثر المرجان ٥ /٥٩٨ (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مجرد .
(٣) من ظ و م ، و فى الأصل و مد : لهذا (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لغيابة (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مقدارا (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : وقعا (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اصلا .
(٨) زيد فى الأصل : نعم ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .

[شيء - [1]] ما لا تحيط به الاوهام، و لا تدركه العقول و الأفهام، و لم ينازع أحد فى العلم بالجزئيات بعد كونها، كما نازعوا فى القدرة على [2]إيجاد بعض الجزئيات[2]، فاكتفى فيه بصيغة فعيل فقيل: ﴿ العليم ﴾ أى البالغ فى العلم الذى هو منشأ القدرة، فلا يخفى عليه كلى و لا جزئى فى ماض و لا[3] حال و لامستقبل شاهد أو غائب.

و لما تقرر ذلك، أنتج قوله [4]مؤكدا لأجل إنكارهم القدرة على البعث[4]: ﴿ انمآ امره ﴾ أى شأنه و وصفه ﴿ اذآ اراد شيئا ﴾ اى إيجاد شيء من جوهر أو عرض أى شيء كان ﴿ ان يقول له كن ﴾ أى أن يريده؛ ثم [5]عطف على جواب[5] الشرط على قراءة ابن عامر و الكسائى بالنصب، و استأنف على قراءة غيره بالرفع[6] بقوله: ﴿ فيكون ﴾ أى من غير مهلة أصلا على [وفق - [1]] ما أراد.

و لما كان ذلك، تسبب عنه المبادرة إلى تنزيهه تعالى عما ضربوه له من الأمثال فلذلك قال: ﴿ فسبحٰن ﴾ أى تنزه عن كل شائبة نقص تنزها[7] لاتبلغ أفهامكم كنهه. و عدل عن الضمير إلى وصف يدل على
٣٧٧ / غاية العظمة فقال: ﴿ الذى بيده ﴾ أى بقدرته / و تصرفه خاصة لا يد غيره ﴿ ملكوت كل شيء ﴾ أى ملكه التام و ملكه ظاهرا و باطنا.

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢ - ٢) من ظ وم ومد، و فى الأصل: بعضها.
(٣) زيد فى الأصل: فى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥ - ٥) فى م: أجاب (٦) راجع نثر المرجان ٥ / ٦٠٠ (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تنزه.

و لما كان التقدير: فمنه تبدأون، عطف عليه قوله : ﴿ و اليه ﴾ اى لا إلى غيره من التراب أو غيره، و لفت القول إلى خطابهم استصغارا [لهم -[1]] و احتقارا فقال: ﴿ ترجعون ﴾ أي معنى فى جميع أموركم و حسا بالبعث [2]لينصف بينكم، فيدخل بعضا النار و بعضا الجنة، و نبهت قراءة الجماعة بالبناء للفعول على غاية صغارهم بكون الرجوع قهرا و بأسهل أمر. و زادت قراءة يعقوب[3] بالبناء للفاعل بأن انقيادهم فى الرجوع من شدة سهولته عليه[4] كأنه ناشئ عن فعلهم بأنفسهم اختيارا منهم، فثبت أنه سبحانه على كل شيء قدير، فثبت قطعا أنه حكيم، فثبت قطعا[5] أنه لا إله إلا هو، و أن كلامه حكيم، و ثبت بتمام قدرته انه حليم لا يعجل على أحد بالعقاب، فثبت أنه أرسل الرسل للبشارة بثوابه و النذارة من عقابه، فثبت أنه أرسل هذا النبي الكريم لما[6] أيده به من المعجزات، و أظهره على يده من الأدلة الباهرات، فرجع آخر السورة بكل من الرسالة و إحياء الموتى إلى أولها، و اتصل فى كلا الأمرين مفصلها بموصلها، و الله الهادى [7]إلى الصواب[7] [و إليه المرجع و المآب -[8]] .

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) العبارة من هنا إلى « اختيارا منهم » ساقطة من ظ (٣) راجع نثر المرجان ٥ /٦٠٠ (٤) سقط من م (٥) سقط من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بما (٧ - ٧) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٨) زيد من ظ ، و زيد فيه أيضا : تم الجزء الثالث من المناسبات للشيخ العالم العلامة البقاعى رحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين آمين ، و يليه الجزء الرابع من أول سورة « الصفت » .

سورة الصّفّت[1]

مقصودها الاستدلال على آخر يٰس من التنزه عن النقائص اللازم منه رد العباد للفصل بينهم بالعدل اللازم منه الوحدانية، و ذلك هو المعنى الذى أشار إليه[2] وسمها بالصافات "و انا لنحن الصافون و انا لنحن المسبحون" ﴿ بسم الله ﴾ أى الذى له الكمال المطلق فلا[3] يدنو من جنابه نقص ﴿ الرحمن ﴾ الذى منّ[4] برحمة العدل فى الدارين ﴿ الرحيم ۝ ﴾ الذى يمن على من يريد بالطاعة بالثواب و المتاب لإسقاط العقاب.

لما كان الانفراد بالملكوت لا يكون إلا مع الوحدانية بالذات، و فى ذلك استحقاق الاختصاص بالإلهية، و كان ذلك - مع أنه بحيث لايخفى على ذى لب - عندهم فى غاية البعد، و لذلك لايسلمون ما يتعلق بالملكوت و ينكرونه غاية الإنكار، ناسب أن يقسم عليه. و لما كان [من البلاغـة أن يناسب بين القسم و المقسم عليه، و كان -[5]] الاصطفاف دالا على اتحاد القصد كما فى صفوف القتال و الصلاة، و كان الملائكة لا قصد لهم إلا الله من غير عائق عن ذلك فكانوا أحق الخلق بالاصطفاف، تارة للصلاة، و تارة للتسبيح و التقديس، و تارة

(١) السابعة و الثلاثون من سور القرآن، مكية، و هى مائة و إحدى و ثمانون آية عند البصريين و مائة و اثنتان و ثمانون عند غيرهم - راجع روح المعانى ٧/ ٢٥٦ (٢) زيد بعده فى الأصل: سبحانه، و لم تكن الزيادة فى ظ وم ومد فحذفناها (٣) من ظ وم و مد، و فى الأصل: الذى لا (٤) من ظ وم و مد، و فى الأصل: على (٥) زيد من م و مد.

لتدبير

لتدبير الأرزاق، و تارة لتعذيب أهل الشقاق - إلى غير ذلك من الأمور التى لا تسعها الصدور، و كانوا بعد زجرة الإماتة ثم زجرة الإحياء المصرح بهما فى السورة الماضية ثم زجرتى الصعق و الإفاقة الآتيتين فى الزمر حين تشقق السماء بالغمام[1] و تكون وردة كالدهان، و تنفطر بسطوة المليك[2] الديان، و يتكرر ما فيها من أجرام و معان[3]، تنزل ملائكة كل سماء فتصير صفا مستديرا، ملائكة الأولى حول أهل الأرض، و ملائكة الثانية حول ملائكة الأولى و هكذا، ثم يصيرون إذا قيل " يٰمعشر الجن و الانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السمٰوٰت /و الارض فانفذوا" / ٣٧٨ فماج العباد بعضهم فى بعض من شدة الزحام، و طول القيام، كلما مالوا على جهة من جهاتهم زجروهم زجرا ردوهم به عن النفوذ، و صدوهم عن النفور، تالين من كلام الملك العلام ما يليق بذلك الوقت فى ذلك المقام، مع [أن - [4]] انتظام المدبرات الناشئ[5] عن اصطفافهم[5] فى التدبير فى طاعة الملك القدير دال على الوحدانية، قال تعالى: ﴿و الصّٰٓفّٰت﴾ [أى الجماعات - [6]] من الملائكة و المصلين و المجاهدين المكملين أنفسهم بالاصطفاف فى الطاعة، فهو صفة لموصوف محذوف مؤنث اللفظ، و عدل عن أن يقول: " الصافين" القاصر على الذكور العقلاء ليشمل[7]

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: و الغمام (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الملك (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: امعان (٤) زيد من ظ و م ومد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: اصطفاهم (٦) زيد من م و مد (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يشتمل.

الجماعات من الملائكة و الجن و الإنس و الطير و الوحش و غيرها، إشارة إلى أنه لايؤلف بين[١] شيء منها ليتحد قصده إلا واحد [٢] قهار، و[٢] انه ما اتحد قصد شيء [منها -[٣]] [٤]إلا استوى صفة[٤]، و لا اعتدل صفة[٥] إلا اتحد زجره و هو صياحه، و لا اتحد زجره إلا اتحد ما يذكره[١] بصوته، و لا اتحد منه ذلك إلا نجح قصده و اتضح رشده[٦] بدليل المشاهدة، [٧]و أدلها أن[٧] الصحابة رضى الله عنهم لما اتحد قصدهم فى إعلاء الدين و هم أضعف[٨] الأمم و أقلها عددا لم يقم [٩]لهم جمع[٩] من[١٠] الناس الذين لا نسبة[١١] لهم [إليهم -[٣]] فى قوة و لا كثرة، و لم ينقض صفهم[١] و جرح القلوب [١٢]و أبارها زجرهم[١٢]، و شرح الصدور و أنارها ذكرهم، كما أشار إليه تعالى آخر[١] هذه السورة بقوله " و ان جندنا لهم الغلبون" و كذا غير الآدميين[١٣] من الحيوانات كما يرى [٩]من الفار[٩] و الجراد إذا أراد الله تعالى اتحاد

---

(١) فى الأصل بياض ملأناه من ظ و م و مد (٢-٢) من ظ، و فى الأصل: منها رد، و فى م و مد: قاهر (٣) زيد من ظ وم و مد (٤-٤) من م و مد، وفى الأصل و ظ: استولى صنعه (٥) من م و مد، وفى الأصل و ظ: صنعه. (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: رشاده (٧-٧) من مد، و فى الأصل: اولها امر، و فى ظ و م: اولها أن (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اصغر (٩-٩) ما بين الرقمين بياض فى الأصل ملأناه من ظ و م و مد. (١٠) من مد، و فى الأصل وظ وم: بين (١١) من ظ وم و مد، وفى الأصل: شبه (١٢-١٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اباها - كذا (١٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الآدمى.

قصده فى شىء فانه يغلب فيه[1] من يغالبه[2]، و يقهر من يقاويه أو يقالبه[3]، فبان أن الخير كله فى الوحدة[4] و أنه [5]لاصلاح[5] بدونها، فبان أن الإله[6] لايكون متكبرا بوجه من الوجوه، فصح ما أريد[7] بالقسم، و أتحد جدا بالمقسم عليه و التأم و التحم به أىّ التحام، و انتظم معناهما كل الانتظام.

و لما كان التأكيد بالمصدر أدل على الوحدة المرادة قال: ﴿صفا ۙ﴾ و هو ترتيب الجمع على خط. و لما كان توحد القصد موجبا للقوة المهيئة للزجر، و كان [تكميل الغير مسببا عن تكميل النفس و مرتبا عليه، و أشرف منه لو تجرد عن التكميل، وكان -[8]] التكميل [إنما يتم أمره و يعظم أثره مع الهيبة «فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد» قال عاطفا بالفاء: ﴿فالزّجرٰت﴾ أى المنتهرات عقب الصف كل من خرج عن أمر الله ﴿زجرا ۙ﴾ أى انتهارا بالمواعظ و غيرها تكميلا لغيرهم.

و لما كانت الإفاضة مسببة عن حسن[9] التلقى المسبب عن تفريغ البال المسبب عن هيبة المفيد[10]، وكان فيض التلاوة أعظم الفيض قال: ﴿فالتّليٰت﴾ أى التابعات استدلالا على قولهم و فعلهم و تمهيدا لعذرهم[11]

(١) فى الأصل بياض ملأناه من ظ و م و مد (٢) فى مد: يعالجه (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يغالبه (٤) من ظ و م و مد، وفى الأصل: الوجه.
(٥-٥) ما بين الرقمين بياض فى الأصل ملأناه من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الا (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ار.
(٨) زيد من ظ و م و مد (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: جيش.
(١٠) من ظ و م و مد، و فى الأصل: العد (١١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لفراورهم - كذا.

و تشريفا لقدرهم، و تكميلا لغيرهم : ﴿ ذكرا ﴾ [1]أى موعظة[1] و تشريفا[2] و تذكيرا من ذكر ربهم إفاضة[3] على غيرهم من روح الفهم و إدغام التاء فى الصاد و الزاى و الذال إشارة إلى أن ذلك مع هوله و عظمه قد يخفى عن غير من يريد الله إطلاعه عليه، فقد قطعت الصيحة[4] قلوب الكفرة من ثمود و غيرهم، و لم تؤثر فيمن آمن منهم، و قد كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه و سلم / ما يأتى به من القرآن / ٣٧٩ و الصحابة رضى الله عنهم حوله لا يستمعون شيئا منه - و الله الموفق ﴿ان الهكم﴾ أى الذى اتخذتم من دونه آلهة ﴿لواحد﴾ أى فان [5]التفرق لا يأتى[5] بخير، لما يصحبه من العجز البعيد جدا عن الكمال الذى لا تكون الإلهية أصلا[6] إلا معه، فاليه لا إلى غيره ترجعون ليفصل بينكم فيما [7]كنتم فيه[7] تختلفون، [8]و هو الذى أنزل هذا الكتاب بعزته و رحمته و حرسه من اللبس و غيره بما سيذكر من كبريائه و عظمته[8] و لو لم يكن واحدا[9] لاختل أمر هذا الاصطفاف و الزجر و التلاوة، و ما يترتب عليها، فاختل نظام هذا الوجود[10] الذى نشاهده كما نشاهد فى أحوال الممالك

(١ - ١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لموعظة (٢) زيد فى الأصل : و تكميلا ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : امامه (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : النصيحة . (٥ - ٥) من م و مد ، و فى الأصل : المتفرق بان لايتاتى ، و فى ظ : التفرق لايتاتى (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اهلا (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فيه كنتم (٨ - ٨) سقط ما بين الرقمين من م (٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : واحد (١٠) من ظ وم ومد ، وفى الأصل : الموجود .

عند

عند اختلاف الملوك فى تغيير العوائد و نسخ الشرائع [التى -[1]] كان من قبلها أطدها [و - [2]] جميع ما له من الآثار و الخصائص، و نحن نشاهد هذا الوجود على ما أحكمه سبحانه و تعالى لايتغير شىء منه عن حاله الذى حده له، فعلمنا أنه واحد لامحالة متفرد بالعظمة، لاكفوء له من غير شك .

و قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما تضمنت سورة يس من جليل التنبيه[3] و عظيم الإرشاد و ما يهتدى الموفق باعتبار بعضه، و يشتغل المعتبر[4] به فى تحصيل مطلوبه و فرضه، و يشهد بأن الملك بجملته[5] لواحد، و إن رغم أنف المعاند و الجاحد، أتبعها[6] تعالى بالقسم[7] على وحدانيته فقال تعالى "و الصّٰفّٰت" - الآية إلى قوله تعالى "ان الٰهكم لواحد" إلى قوله "و رب المشارق" ثم عاد الكلام إلى التنبيه لعجيب مصنوعاته فقال تعالى "انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب[8]" إلى قوله "شهاب ثاقب" ثم أتبع بذكر عناد من جحد مع بيان الأمر و وضوحه و ضعف ما خلقوا منه "انا خلقنٰهم من طين لازب" ثم [ذكر - [2]] استبعادهم العودة الأخروية[9] و عظيم حيرتهم و ندمهم إذا شاهدوا ما به كذبوا،

---

(١) زيد من م و مد (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) فى ظ و م : التنبية . (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : المتعبر (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل : بجملة (٦) فى ظ : اتبعه (٧) زيد فى الأصل : دالا، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٨) زيدت الواو فى الأصل و ظ، و لم تكن فى م و مد فحذفناها (٩) فى م و مد : الاخراوية .

و التحمت الآى إلى ذكر الرسل[1] مع أممهم و جريهم فى[2] العناد و التوقف و التكذيب على سنن متقارب، و أخذ كل بذنبه، و تخليص رسل الله و حزبه، و إبقاء [جميل -[3]] ذكرهم باصطفائهم و قربه، ثم عاد الكلام إلى تعنيف المشركين و بيان إفك المعتدين إلى ختم السورة - انتهى.

و لما ثبت أنه واحد، أنتج وصفه بقوله: ﴿ رب ﴾ أى موجد و مالك و ملك و مدبر ﴿السمٰوٰت﴾ أى الأجرام العالية ﴿و الارض﴾ أى الأجرام السافلة[4] ﴿ و ما بينهما ﴾ أى من الفضاء المشحون من المرافق و المعاون بما[5] تعجز عن عده القوى، و هذا - مع كونه نتيجة ما مضى - يصلح أن يكون دليلا عليه لما أشار إليه من [انتظام -[3]] التدبير الذى لايتهيأ[6] مع التعدد كما أن المقسم به هنا إشارة إلى دليل الوحدانية أيضا بكونه على نظام واحد دائما فى الطاعة التى أشير إليها بالصف و الزجر و التلاوة، فسبحان من جعل هذا القرآن معجز النظام، بديع الشان بعيد المرام.

و لما كان السياق للافاضة[7] بالتلاوة و غيرها، و كانت جهة الشروق جهة الإفاضة بالتجلى الموجد للخفايا الموجب للتنزه عن النقائص،

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الرسل (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: على (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: السفلية (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ما (٦) زيد فى الأصل و ظ: الا، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بالافاضة.

[1]و كان الجمع أليق بالاصطفاف الناظر إلى القهر بالائتلاف[1] قال: ﴿و رب المشارق﴾ / أى الثلاثمائة و الستين التى تجلى عليكم[2] كل يوم / ٣٨٠ فيها الشمس و القمر و سائر الكواكب السيارة [على كر -[3]] الدهور و الأعوام، و الشهور [و الأيام -[4]]، على نظام لاينحل، و مسير لايتغير و لايختل، و ذكرها يدل قطعا على المغارب لأنها تختلف بها، و أعاد الصفة معها تنبيها على وضوح دلالتها بما فيها مما السياق له من الاصطفاف الدال على حسن الائتلاف، و للدلالة[5] على البعث[6] بالآيات بعد الغياب[7].

و لما كانت المشارق تقتضى الفيض و الإظهار، أتبع ذلك نتيجته بما من شأنه الشروق و الغروب و لو بمجرد الخفاء و الظهور، فقال مؤكدا مع لفت الكلام إلى التكلم فى مظهر العظمة تنبيها على أن فعلهم فعل من ينكر ما للنجوم من الزينة و ما تدل عليه من عظمته سبحانه و تعالى، و نخم التعبير عن الزينة بتضعيف[8] الفعل لمثل ذلك:[9] ﴿انا زينا﴾ أى بعظمتنا التى لاتدانى ﴿السمآء﴾ [و لما كانوا لايرون إلا ما يليهم من السماوات، و كانت زينة النجوم ظاهرة فيها قال -[9]]: ﴿الدنيا﴾ [أى -[10]] التى هى أدنى السماوات إليكم.

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عليهم. (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) زيد من ظ و مد (٥) من ظ و مد، و فى الأصل: للاية (٦) فى الأصل بياض ملأناه من مد (٧) العبارة من «و للدلالة» إلى هنا ساقطة من م (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بتضيف (٩) زيد من مد (١٠) زيد من م و مد.

و لما أشير إلى أن الصف زينة فى الباطن باتحاد القصد كما أنه زينة فى الظاهر بحسن الشكل و بديع الرصف[1] ، زيد فى التنبيه على ذلك باعادة ما فهم من "زينا" فى قوله: ﴿ بزينة ن الكواكب ﴾ أى بالزينة[2] التى النجوم[3] النيرة البراقة المتوقدة الثابتة فى محالها - قارة أو مارة - المرصعة فى السماء ترصيع المسامير الزاهرة كزهر النور المبثوث فى خضرة الرياض الناضرة ، فهى مع عدم التنوين و الخفض إضافة [بيانية -[4]] كثوب خز ، و من نوّن الزينة فان خفض الكواكب فعلى البدل ، أى بالكواكب التى هى زينة ، و إن نصب فعلى [المدح -[5]] بتقدير أعنى ، أو على أنه بدل اشتمال من السماء ، أى كواكبها ، إما بكونها[6] فيما دونها[7] من الجو فيظن[8] أنها فيها ، أو بكونها فيها من[9] جانبها الذى يلينا ، أو بكونها تشف [عنها -[5]] و إن كان بعضها فيما [هو -[4]] أعلى منها ، و زينتها انتظامها و ارتسامها[10] [على -[4]] هذا النظم البديع فى أشكال متنوعة و صور مستبدعة[11] ما بين صغار و كبار ، منها[12] ثوابت و منها[12] سيارة و شوارق

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الوصف (٢) من ظ و م و مد ، وفى الأصل : الزينة (٣) زيدت الواو فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بكونه (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : دونه . (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فيظن (٩) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ما (١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ارتسابها (١١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مستبعدة (١٢) سقط من ظ و م و مد .

و غوارب - إلى غير ذلك من الهيئات التى لاتحصى، و لا حد لها عند العباد العجزة[1] فيستقصى.

و لما كان كون الشيء الواحد لأشياء متعددة أدل على القدرة و أظهر فى العظمة[2]، قال دالا بالعطف[3] على غير معطوف عليه ظاهر على مقدر يدل على أن الزينة بالنجوم أمر مقصود لا اتفاقى[4]: ﴿و حفظا﴾ أى زيناها بها للزينة و للحفظ ﴿من كل شيطن﴾ أى بعيد عن الخير محترق. و لما كان القصد التعميم فى الحفظ عن كل عاتٍ سواء كان بالغا فى العتو أو لا قال: ﴿مارد ج﴾ أى مجرد عن الخير عاتٍ فى كل شر[5] سواء كان بالغا فى ذلك أقصى الغايات أو كان فى أدنى الدرجات كضارب و ضراب[5].

و لما كان المراد فى سورتى [6]النساء و الحج[6] ذم الكفرة بفعل ما ليس فى كونه شرا لبس، و بوضع النفس باتباع ما لا شك فى دناءته ببعده عن الخير بعد الإخفاء به، عبر بالمريد للمبالغة. و كما أنه حرس السماء المحسوسة بما ذكره سبحانه و تعالى فكذلك[7] زين عز وجل قلوب الأولياء التى هى كالسماء لأراضى أجسامهم بنجوم المعارف، فاذا مسهم طيف

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: العجز (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: النعمة (٣) فى م و مد: بالعاطف (٤) زيد فى الأصل: قدرة البهية عجيبة يعجز عنها كل ذى سلطان قال تعالى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦-٦) فى م و مد: الحج و النساء (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فكان كذلك.

/٣٨١ من الشيطان / تذكروا فرشقته شهب أحوالهم و معارفهم و أقوالهم . و لما تشوف السامع إلى معرفة هذا الحفظ و ثمرته و بيان كيفيته، استأنف قوله : ﴿لا يسمعون﴾ أى الشياطين المفهومون من كل شيطان، لايتجدد لهم سمع أصلا، قال ابن الجوزى : قال الفراء : "لا" هنا كقوله "كذلك سلكنٰه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به" و يصلح فى "لا" على هذا المعنى الجزم، و العرب تقول : ربطت فى شىء لاينفلت - انتهى . و يؤخذ من التسوير[1] بكل ثم الجمع[2] نظرا إلى المعنى، و الإفراد لضمير الخاطف و للخطفة[3] أنهم معزولون عن السمع [جمعهم -[4]] و مفردهم من الجمع، و أن الخطف يكون - إن اتفق - فى الواحد لا الجمع [5]و من الواحد لا الجمع[5]، و للكلمة[6] و ما فى حكمها لا أكثر، و إليه يشير حديث الصحيح[7] « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى » و أكد بعدهم باثبات[8] حرف الغاية، فقال مضمنا " سمع " بعد قصره معنى « انتهى » أو « أصغى » ليكون [المعنى -[9]] : لاينتهى سمعهم أو تسمعهم[10] أو إصغاؤهم ﴿الى الملا﴾ أى الجمع العظيم الشريف[11]، و أوضحت هذا المعنى قراءة

(١) من مد، و فى الأصل و ظ و م : التسوى (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : انتج (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل : للحفظة (٤) زيد من ظ و م و مد (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل : الكلمة (٧) راجع أبواب الطب و التوحيد (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل : بالموت (٩) زيد من م و مد (١٠) من م و مد، و فى الأصل : تسمع.
(١١) العبارة من هنا إلى « من تبع فقال » ص ١٩٧ س ٥ ساقطة من م.

من شدد السين و الميم[1] بمعنى يتسمعون، أى بنوع حيلة[2]، تسمعا[3] منتهيا إلى ذلك، و هو يفهم أنهم يتسمعون، و لكن لا ينتهى تسمعهم إلى ما ذكر، بما أشار إليه الإدغام، و يشير أيضا إلى أنهم يجتهدون فى إخفاء أمرهم، و أفرد الوصف دلالة أيضا على أن العطف يكون من واحد لا من جمع فقال: ﴿الاعلى﴾ أى مكانا و مكانة بحيث يملأون العيون بهجة و الصدور هيبة .

[4]و لما كان التقدير: لأنهم يطردون طردا قويا، دل عليه بالعاطف[5] فى قوله[6]: ﴿و يقذفون﴾ أى الشياطين يرمون رميا وحيا شديدا يطردون به، و بنى للفعول لأن النافع قذفهم لا تعيين قاذفهم، مع أنه أدل على القدرة الإلهية عزت و جلت[7] ﴿من كل جانب ﴾ أى من جوانب السماوات بالشهب إذا قصدوا السماع بالاستراق[8] ﴿دحورا﴾ أى قذفا يردهم مطرودين صاغرين مبعدين[9]، فهو تأكيد للقذف بالمعنى أو مفعول له أو حال .

و لما كان هذا ربما كان سببا لأن يظن ظان[10] أنهم غير مقدور

(١) راجع نثر المرجان ٦ / ٥ (٢) فى الأصل بياض ملأناه من ظ و مد (٣) من مد، و فى الأصل و ظ : تسميعا (٤) العبارة من هنا إلى « فى قوله » ساقطة من م (٥) من ظ و مد، و فى الأصل : بالفاظ (٦) زيد بعده فى الأصل : « سبحانه و تعالى بما يفعل بهم » و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) العبارة من « مع أنه » فى م، و من « الإلهية » فى ظ و مد ساقطة إلى هنا (٨) سقط من ظ و م و مد (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل : مبعودين (١٠) سقط من م و مد .

عليهم فى غير هذه الحالة بغير هذا النوع أخبر أنهم فى قبضته، و إنما جعل حالهم هذا فتنة لمن أراد من عباده، فقال معبرا[١] باللام التى يعبر بها غالبا عن[٢] النافع تهكما بهم: ﴿ و لهم عذاب ﴾ أى فى الدنيا بهذا و بغيره، و فى الآخرة يوم الجمع الأكبر ﴿ واصب ﴾ أى دائم[٣] ممرض موجع كثير الإيجاع مواظب على ذلك ثابت [عليه -[٤]] و إن افترق الدوامان فى الاتصال و العظم و الشدة و الألم .

و لما [٥]ثبت بهذا حراسة القرآن بقدرة الملك الديان عن لبس الجان، و[٥] كان بعضهم مع هذا يسمع فى بعض الأحايين ما أراد الله أن يسمعه ليجعله فتنة لمن أراد من عباده [٥]مع تميز القرآن بالإعجاز[٥]، استثنى من فاعل " يسمعون " قوله: ﴿ الا من خطف ﴾ و دل على قلة ذلك [٦]بعد إفراد[٦] الضمير بقوله: ﴿ الخطفة ﴾ أى اختلاس الكلمة أو أكثر، مرة من المرات منهم، و دل على قوة انقضاض الكواكب فى أثره[٧] بالهمزة فى قوله / : ﴿ فاتبعه ﴾ مع تعديه بدونها، أى تبعه بغاية ما يكون / ٣٨٢
من السرعة حتى كأنه يسوق نفسه و يتبعها له [٥]كأن الله سبحانه و عز شأنــه هيأها لئلا تنقض إلا فى أثر من سمع منهم حين سماعه سواء لا يتخلف[٥] ﴿ شهاب ﴾ أى شعلة نار من الكوكب أو غيره ﴿ ثاقب ﴾

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مشيرا (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فمن (٣) زيد فى الأصل و ظ: اى، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ و م و مد (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م . (٦ - ٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مما افرد (٧) زيدت الواو فى الأصل و ظ، و لم تكن فى م و مد فحذفناها .

أى

أى يثقب ما صادفه من جنى و غيره و إن كان الجنى من نار فانه ليس نارا خالصة ، و على التنزل فربما كان الشيء الواحد أنواعا بعضها أقوى من بعض ، فيؤثر أقواه فى أضعفه كالحديد ، و تارة يخطئ الجنى و تارة يصيبه ، و إذا أصابه فتارة يحرقه فيتلفه و تارة يضعفه .

و لما كان المقصود من هذا الكتاب الأعظم بيان الأصول الأربعة : التوحيد و النبوة و المعاد و إثبات القضاء و القدر ، و دل سبحانه بهذه المذكورات على وجوده و كمال علمه و تمام قدرته على الأفعال الهائلة و بديع حكمته اللازم منه إثبات وحدانيته تفصيلا لبعض إجمال "[1]و ليس الذى خلق السموٰت و الارض " فكان ما دونها من الأفعال أولى ، سبب عن ذلك لإثبات الحشر [1]الذى أخبر به هذا القرآن الذى [2]حرسه عن[2] تلبيس الجان بزينة الكواكب التى أنشأ منها الشهب الثواقب قوله [3]تهكما بهم[3]: ﴿فاستفتهم﴾ أى سلهم أن يفتوا [4]بأن يبينوا[4] لك ما تسألهم عنه من إنكارهم البعث . و أصله من الفتوة و هى الكرم : ﴿ أهم اشد ﴾ أى أقوى و أشق و أصعب ﴿ خلقا ﴾ أى من جهة إحكام الصنعة و قوتها و عظمها ﴿ام من﴾ و لما كان المراد الإعلام بانه لا شيء من الموجودات إلا و هو خلقه سبحانه ، عبر بما يدل على ذلك دون ذكرنا ، و ليكون أعم ، و حذف المفعول لأنه مفهوم ، و لئلا يلبس إذا ذكر ضمير المستفتين ،

(١) العبارة من هنا إلى « الثواقب » ساقطة من م (٢-٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : حرسر على (٣ - ٣) سقط ما بين الرقمين من مد (٤ - ٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ان ينبوا .

فقال : ﴿ خلقناۘ ﴾ أى من هذه الأشياء التى عددناها من الحى و غيره من الجن الذين أعطيناهم قدرة التوصل إلى الفلك و غيرهم ، و عبر بـ " من " تغليبا للعاقل من الملائكة و غيرهم مما بين السماوات و الأرض .

و لما كان الجواب قطعا أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم و أنهم هم من أضعف الخلائق خلقا ، قال دالا على إرادة التهكم بهم فى السؤال ، مؤكدا إشارة إلى أن إنكارهم البعث لاستبعادهم[1] تمييز التراب من التراب يلزم منه إنكار ابتداء الخلق على هذا الوجه : ﴿ انا خلقنٰهم ﴾ أى على عظمتنا ﴿ من طين ﴾ أى تراب رخو مهين ﴿ لازب ه ﴾ أى شديد اختلاط بعضه ببعض [2]فالتصق و ضمر[3] و تضايق و تلازم بعضه لبعض ، و قل و اشتد و دخل بعض أجزائه فى بعض ، و صلب و ثبت فصار تمييز بعضه من بعض أصعب من تمييز بعض التراب المنتثر من بعض ، قال ابن الجوزى : قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الطين الحر الجيد اللزق . و إنما كانوا[4] من طين لأن أباهم آدم كان منه من غير أب و لا أم ، فصاروا بهذا التقدير بعض الطين الذى هو بعض خلقه الذى عدده قبل ذلك سبحانه و تعالى / ، و من المعلوم أن حال الطين مباعدة[5] ٣٨٣ / لحالهم ، و لكنهم كانوا بقدرته سبحانه الذاتية التى لا يمتنع عليها مقدور ، و لا يعجزها مأمور ، فدل ابتداء خلقهم و خلق ما هو أشد منهم و أعظم

---

(١) فى م و مد : لاستبعاد (٢) العبارة من هنا إلى « فى بعض » ساقطة من م .
(٣) من مد ، و فى الأصل و ظ : ضم (٤) من م و مد ، و فى الأصل : كان .
(٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ماعده .

على القدرة على إعادتهم قطعا بل بطريق الأولى من غير وجه ،[1] و حسن هذا الاستفتاء كل الحسن ختم[2] الكلام قبله بمن بلغوا السماء تكبرا و علوا ، و هموا بما لم ينالوا تجبرا[3] و علوا ، و سلط عليهم ما يردهم مقهورين مبعدين مدحورين ، و استثنى منهم من "خطف" ليعلم أنه غير محال ما تعلقت به منهم الآمال ، هذا مع ما ذكره فى خلقهم من الطين اللازب الذى من شأنه الرسوب [لثقله -[4]] و السفول كما [أن -[4]] من شأن[5] من ختم بهم ما قبله[6] العلو لخفتهم و الصعود .

و لما كان من المعلوم قطعا أن المراد بهذا الأمر بالاستفتاء[7] إنما هو التبكيت لأن من المعلوم قطعا أن الجواب : ليسوا أشد خلقا من ذلك ، فليس بعثهم ممتنعا ، [8] و ليست غلبتهم لرسول الواحد القهار - الذى حكمه فى هذا الوحى باظهاره على الدين كله - بجائزة[9] أصلا ، نقلا و لا عقلا ، بوجه من الوجوه ، فلا شبهة لهم فى إنكاره و لا فى ظنهم[10] أنهم يغلبون[11] [رسولنا -[4]] ، بل هم فى محل عجب [شديد -[12]] فى إنكاره و ظنهم أنهم غالبون فى الدنيا ، عبر عن ذلك بقوله ، مسندا العجب إلى

---

(١) العبارة من هنا إلى « و الصعود » ساقطة من م (٢) من ظ و مد ، و فى الأصل : بختم (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : بخير (٤) زيد من ظ و مد .
(٥) من ظ و مد ، و فى الأصل : شانه ان (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل : فيه (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بالاستقال (٨) العبارة من هنا إلى « لا عقلا » ساقطة من م (٩) من ظ و مد ، و فى الأصل : بجايز (١٠) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ظن (١١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : غالبون (١٢) زيد من م و مد .

أجلّ الموجودات أو أجلّ المخلوقات تعظيما له بمعنى أنه قول يستحق أن يقال فيه : إنه لايدرى ما الذى أوقع[١] فيه وكان سببا لارتكابه ، فقال : ﴿ بل عجبت ﴾ بضم التاء على قراءة حمزة و الكسائى[٢] لفتا للقول من مظهر العظمة للتصريح باسناد التعجب إليه سبحانه إشارة إلى تناهى هذا العجب إلى حد لايوصف لإسناده إلى من هو منزه عنه ، و بفتحها عند الباقين أى من جرأتهم فى إنكارهم البعث [و ـ[٣]] لاسيما و قد دل عليه القرآن فى هذه الأساليب الغريبة و الوجوه البديعة العجيبة التى لايشك فيها من له أدنى تصور ، و قد كان النبى صلى الله عليه و سلم ظن كما هو اللائق أنه لا يسمع القرآن أحد إلا آمن به ، قال القشيرى : و حقيقة التعجب تغير النفس[٤] بما خفى[٤] فيه السبب عما لم تجر[٥] العادة بحدوث مثله ، و مثل هذا حديث[٦] الصحيحين[٧] عن أبى هريرة رضى الله عنه[٨] أنه صلى الله عليه و سلم قال لأم سليم و أبى طلحة رضى الله عنهما : ضحك ـ و فى رواية : عجب ـ الله من فعالكما الليلة ، و حديث البخارى[٩] رحمه الله

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : رفع (٢) راجع نثر المرجان ٦ / ٨ . (٣) زيد من ظ و م و مد (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لاخفا . (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لم تجرى (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الحديث فى (٧) زيد بعده فى الأصل : ما روى ، و لم تكن الزيادة فى ظ وم و مد فحذفناها (٨) راجع صحيح البخارى باب و يؤثرون على أنفسهم ـ مناقب الأنصار ، و لم نفز بهذا الحديث فى صحيح مسلم فى مظانه (٩) لم نفز به فى صحيح البخارى فى مظانه بل اخرجه أبو داود فى أبواب الجهاد و الإمام أحمد فى مسنده ٢ / ٣٠٢ و غيرها .

عن

عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا: عجب ربنا من أقوام يقادون إلى الجنة فى السلاسل . و مثله كثير؛ و المعنى فى الكل التنبيه على عظم الفعل و أنه خارق للعادة، و يجوز أن يكون المعنى أنهم لم[1] ينكروه لقلة الدلائل عليه، بل قد أتى من دلائله ما يعجب إعجابا عظيما من كثرته و طول الأناة فى مواترته[2] ﴿و يسخرون ﴾ أى حصل لك العجب و الحال أنهم يجددون السخرية كلما جئتهم بحجة ﴿ و اذا ذكروا ﴾ أى وعظوا من أىّ واعظ كان بشىء هم به عارفون[3] جدا يدلهم على البعث مثل ما يذكرون به / من القدرة، مع أنه لايجوز فى عقل عاقل منهم أن أحدا / ٣٨٤
يدع مَن تحت يده بلا محاسبة ﴿ لايذكرون ﴾ أى [لا -[4]] يعملون[5] بموجب التذكير .

و لما ذكر إعراضِهم عن المسموع، أتبعه إعراضهم عن المرئى فقال: ﴿ و اذا رآوا اٰية ﴾ أى علامة على صدق الرسول صلى الله عليه و سلم فى ذلك و غيره ﴿ يستسخرون ﴾ أى يطلبون السخرية بها بأن يدعو بعضهم بعضا لذلك من شدة استهزائهم .

و لما كان إنكارهم للبعث و لو صدر منهم مرة واحدة[6] فى الشناعة و العظم و القباحة مثل تجديدهم[7] للسخرية كلما سمعوا آية و المبالغة فيها

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لن (٢) من م و مد، و فى الأصل: مواثرته، و فى ظ: موثراته (٣) زيد فى الأصل و ظ: به، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٤) زيد من ظ وم و مد (٥) فى ظ ومد: يعلمون . (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: واحد (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تجددهم .

لأن دلالته من الظهور و الوضوح بمكان هو فى غاية البعد عن الشكوك ، دل على ذلك بالتعبير بالماضى[1] فقال : ﴿ و قالوآ ﴾ أى ما هو [2]غاية فى[2] العجب : ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ هذآ ﴾ أى الذى أتانا به من أمر البعث و غيره مما[3] شاهدناه أو أخبرنا به ﴿ الا سحر ﴾ أى خيال و أمور مموهة لا حقائق لها ﴿ مبين ﴾ أى ظاهر فى نفسه و مظهر لسخريته، ثم خصوا البعث بالإنكار إعلاما بأنه أعظم مقصود بالنسبة إلى السحر فقالوا[4] [مظهرين -[4]] له فى مظهر الإنكار : ﴿ ءاذا متنا ﴾ و عطفوا عليه ما[5] هو موجب عندهم لشدة الإنكار [فقالوا -[6]] : ﴿ و كنا ﴾ أى كونا هو فى غاية التمكن ﴿ ترابا ﴾ [7]قدموه لأنه أدل على مرادهم لأنه أبعد عن الحياة[7] ﴿ و عظاما ﴾ كأنهم جعلوا كل واحد من الموت و الكون إلى الترابية المحضة و العظامية المحضة أو المختلطة منهما مانعا من البعث ، و هذا بعد اعترافهم أن ابتداء خلقهم [كان -[4]] من التراب مع [8]أن هذا ظاهر جدا، و لكن عقول ضلها باريها[8]، ثم كرروا [9]الاستفهام الإنكارى[9] على قراءة من قرأ به زيادة فى الإنكار فقالوا : ﴿ ءانا لمبعوثون ﴾ .

و لما كان المعنى: [10]أيثبت بعثنا[10] ، عطفوا عليه قولهم مكررين للاستفهام

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فى الماضى (٢ - ٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : [illegible] فى غاية (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ما (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كما (٦) زيد من م و مد (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨-٨) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٩ - ٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الانكار الاستفهامى . (١٠-١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اثبت بعثنا .

الإنكارى تأكيدا لزيادة استبعادهم حتى أنهم قاطعون[١] بأنه محال فقالوا [٢]قولا واهيا[٢]: ﴿ او آباؤنا ﴾ أى يثبت[٣] بعثنا و كذا آباؤنا ، و زادوا فى الاستبعاد بقولهم: ﴿ الاولون ۝ ﴾ أى الذين طال مكثهم فى الأرض تحت أطباق الثرى و انمحقت أجزاؤهم بحيث لم يبق لهم أثر ما ، و مرت الدهور و لم يبعث أحد منهم يوما من الأيام ، يدلنا بعثه على ما يدعى من ذلك .

و لما بالغوا هذه المبالغات[٤] فى إنكاره بعد قيام البراهين [٥]فى هذه السورة و غيرها[٥] على جوازه بل وجوبه عادة ، أمره بأن يجيبهم بما يقابل ذلك فقال تعالى: ﴿ قل نعم ﴾ أى تبعثون على كل تقدير قدرتموه ، [و ذكر حالهم بقوله - [٦]]: ﴿ و انتم داخرون ج ﴾ أى [٧] مكرهون عليه[٧] صاغرون [٥]ذليلون حقيرون[٥] . ثم سبب عن الوعد بتحتم كونه ما يدل [على - [٧]] أنه [٨]غاية فى[٨] الهوان فقال: ﴿ فانما ﴾ أى يكون ذلك بسبب أنكم تزجرون فتقومون ، و الزجرة التى يقومون بها إنما ﴿ هى زجرة ﴾ اى صيحة ، و أكد ما يفهمه من الوحدة لأجل إنكارهم تصريحا بذلك و تحقيرا لأمر البعث فى جنب قدرته سبحانه و تعالى فقال: ﴿ واحدة ﴾ و هى الثانية التى كانت الإماتة لجميع الأحياء فى

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: قاطعين به (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: اثبت (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: المبالغة (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) زيد من مد (٧) زيد من م و مد (٨ - ٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ: فى غاية .

آن واحد بمثلها[1] . و أصل الزجر الانتهار و يكون لحث أو منع ، و إنما ٣٨٥/ يكون ذلك للقدور عليه / الذى فعل ما يغضب الزاجر ، فلذلك سمى [2] الصيحة زجرة[2] .

و لما كان هذا الكلام مؤذنا بالغضب ، حققه بصرف الكلام عن خطابهم جعلا لهم بمحل البعد و تعميما لغيرهم ، فقال معبرا بالفاء المسببة المعقبة و أداة المفاجأة : ﴿ فاذا هم ﴾ أى جميـــع الأموات بضمائرهم و ظواهرهم القديم منهم و الحديث أحياء ﴿ ينظرون ۝ ﴾ أى فى الحال من غير مهلة أصلا ، و لا فرق بين من صار كله ترابا و من لم يتغير أصلا ، [3]و من هو بين ذلك ، و لعله خص النظر بالذكر لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة ، و لذلك قال صلى الله عليه و سلم[4] : إذا قبض الروح تبعه البصر . و أما السمع فقد يكون لغير الحى لأنه صلى الله عليه و سلم قال فى الكفار من قتلى بدر : ما أنتم بأسمع لما[5] أقول منهم . و شاهدت أنا فى بلاد العرقوب المجاورة لبانياس[6] من بلاد الشام شجرة شوك يقال لها الغبيراء متى قيل عندها « هات[7] لى المنجل لأقطع هذه الشجرة » أخذ ورقها فى الحال فى الذبول - فالله أعلم ما سبب ذلك .

و لما حصل الغرض من تصوير حالهم بهذا الفعل المضارع ، عطف

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : يمثلها (٢ - ٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الزجرة صيحة (٣) العبارة من هنا إلى ما سننبه عليه ساقطة من مد (٤) راجع أبواب الجنائز من صحيح مسلم (٥) من ظ و م ، و فى الأصل : ما (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : لبابياس (٧) من ظ و م ، و فى الأصل : هان .

عليه بصيغة المضى التى معناها الاستقبال إعلاما بتحقق الأمر تحقق ما مضى وكان، و تحققه مع القيام سواء من غير تخلف و لاتخلل زمان أصلا فقال[١]: ﴿و قالوا﴾ أى كل من جمعه البعث من الكفرة معلين[٢] بما انكشف لهم من أنه لا ملازم لهم غير الويل: ﴿يٰويلنا﴾ أى يا من ليس[٣] لنا نديم غيره ﴿هذا يوم الدين ۝﴾ أى الجزاء لكل عامل.

و لما كان قولهم هذا إنما هو للتحسر على ما فاتهم من التصديق النافع به، زادوا فى ذلك بقولهم يخاطب بعضهم بعضا بدلا أو وصفا بعد وصف [٤]دالين باعادة[٥] اسم الإشارة على ما داخلهم من الهول: ﴿هذا يوم الفصل﴾ أى الذى يفصل فيه بين الخصوم؛ ثم زادوا تأسفا و تغمما[٦] و تلهفا بقولهم، لافتين القول عن التكلم إلى الخطاب لأنه أدل على ذم بعضهم لبعض و أبعد عن [٧]الإنصاف بالاعتراف[٧]: ﴿الذى كنتم﴾ أى [يا -[٨]] دعاة الويل جبلة و طبعا ﴿به تكذبون ۝﴾ و قدموا الجار إشارة إلى عظيم تكذيبهم به، فبينماهم فى هذا التأسف إذ برز النداء بما يهدئ قواهم، و يقر قلوبهم و كلاهم، لمن لايعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون من الملائكة [٩]الشداد الغلاظ[٩] باذلالهم و إصغارهم، و لبيان السرعة لذلك من غير تنفيس[١٠] أسقط ما يدل على النداء من نحو قوله[١١]:

(١) من ظ وم، وفى الأصل: فقالوا (٢) من ظ وم، وفى الأصل: معنين. (٣) من ظ و م، و فى الأصل: ليتو (٤) العبارة من هنا إلى «من الهول» ساقطة من م (٥) من ظ، و فى الأصل: باداة (٦) فى ظ: تفهما (٧-٧) من ظ وم، و فى الأصل: الاعتراف (٨) زيد من ظ و م (٩-٩) فى ظ: الغلاظ الشداد (١٠) من م، و فى الأصل وظ: تنفس (١١) من ظ و م، و فى الأصل: قولهم.

فقيل للملائكة، أو فقلنا، أو فبرز النداء من جانب سلطاننا - و نحو هذا: ﴿ احشروا ﴾ أي اجمعوا بكره و صغار و ذل أيها الموكلون بالعباد من[1] الأجناد، [2]و أظهر تعريفا بوصفهم الموجب لحتفهم فقال[2]: ﴿الذين ظلموا﴾ أي بما كانوا فيه فى الدنيا بوضع الأشياء فى غير محالها من الخبط الذى لايفعله إلا من هو فى أشد الظلام ﴿ و ازواجهم ﴾ أى أتباعهم الذين استنوا بهم فى ذلك الضرب من الظلم و أشباههم فيه من الجن و غيرهم و من[3] أعانهم و لو بشطر[4] كلمة أو[5] رضى فعلهم لتصير كل طائفة على حدة فيصير بعضهم يبكت بعضا و بعضهم يشتم بعضا ﴿ و ما كانوا ﴾ أى بما دعتهم إليه طباعاتهم المعوجة ﴿ يعبدون لا ﴾ أى مواظبين على عبادته رجاء منفعته تحقيقا لخسارتهم بتحقق اعتمادهم على غير معتمد، و هو

/٣٨٦ يعم / المعبود حقيقة أو مجازا بالتزيين "و من سبقت له الحسنى[6]" مستثنى بآية الأنبياء، و[7] أشار إلى سفول رتبة معبوداتهم و تسفيه آرائهم بانتحال الأذى بقوله [2]صارفا الأسلوب من المتكلم و لو بمظهر العظمة إلى أعظم منه[2]: ﴿من دون الله﴾ أى الذى تفرد بنعوت العظمة و صفات الكمال، و المراد الذين رضوا بعبادتهم لهم و لم ينكروا عليهم ذلك و يأمروهم بتوحيد الله.

---

(١) من ظ و م، و فى الأصل «و» (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من م.
(٣) من ظ و م، و فى الأصل: ان (٤) من ظ و م، و فى الأصل: بشرط.
(٥) من ظ و م، و فى الأصل: لو (٦) زيد بهامش م: اولئك عنها مبعدون.
(٧) من م، و فى الأصل و ظ: او.

و لما كانوا قد سلكوا فى الدنيا طريق الشقاء [المعنوية -[1]] استحقوا أن يلزموا فى القيامة سلوك طريقه الحسية ، فلذلك سبب عن الأمر بحشرهم قوله تهكما بهم و تحسيرا لهم : ﴿ فاهدوهم ﴾ أى دلوهم دلالة لا يرتابون معها ليعرفوا - مع ما هم فيه من الإكراه[2] على سلوكها - مآلهم ، فيكون ذلك أعظم فى نكدهم ؛ قال الرازى ، و أصل الهداية التقدم ، و العرب تسمى السابق هاديا ، يقال : أقبلت هوادى الخيل أى أعناقها[3] ، و الهادية : العصى - لأنها تتقدم ممسكها ، و نظر فلان هدى أمره أى جهته . ثم أشار إلى طول وقوفهم و سوء مقامهم[4] بقوله بأداة الانتهاء : ﴿ الى صراط الجحيم ﴾ ه ﴾ أى طريق النار الشديدة التوقد الواضح الذى لا لبس عندهم بأنه يشترطهم فيؤديهم إليها ، و خص هذا الاسم إعلاما بشديد توقدها و عظيم تأججها ، و بعد قعرها و ضخامة غمرتها ، بتراكم بعضها فوق بعض و قوة اضطرامها ، و علو شأنها و اصطلامها ، و صلابة اضطرابها و تحرقها و اشتمالها على داخليها و تضايقها ، و فيه تهكم بهم فى كونهم على غير ما كانوا عليه فى الدنيا من التناصر و التعاضد .

و لما كان المقصود من تعريفهم طريق النار أولا ازدياد الحسرة ، صرح بما أفهمه حرف الغاية من طول الحبس فقال : ﴿ و قفوهم ﴾ أى احبسوهم واقفين بعد ترويعهم بتلك الهداية التى سببها الضلال ، فكانت

---

(١) زيد من ظ و م (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : الاكرام (٣) من ظ و م ، و فى الأصل : اضافتها (٤) من م ، و فى الأصل و ظ : بمقالهم .

ثمرتها الشقاوة، و إيقافهم يكون عند الصراط - نقله البغوى[1] عن المفسرين، قال: لأن السؤال عند الصراط. ثم علل ذلك بقوله: ﴿انهم مسئولون ۙ﴾ و جمع عليهم الهموم بهذه الكلمة لتذهب أوهامهم كل مذهب، فلا تبق حسرة إلا حضرتهم، و لا مصيبة إلا علت قلوبهم فقهرتهم، فان المكلف كله ضعف و عورة، فموقف السؤال عليه أعظم حسرة.

و لما أوقفوا هذا الموقف الذليل، قد شغلهم ما دهمهم من الأسف عن القال و القيل، نودوا من مقام السطوة، و حجاب الجبروت و العزة، زيادة فى [تأسيفهم و -[2]] توبيخهم و تعنيفهم لفتا عن سياق الغيبة إلى الخطاب دلالة على أعظم خيبة: ﴿ ما لكم ﴾ أى أىّ شىء حصل لكم فشغلكم و ألهاكم حال كونكم ﴿ لا تناصرون ﴾ أى ينصر بعضكم بعضا، و يتسابقون فى ذلك تسابق المتناظرين[3] فيه أولى الجد و الشكيمة و النخوة و الحمية و لو بأدنى[4] التناصر - بما يفهمه إسقاط التاء[5]، أو بعد تمكث و إعمال حيلة - بما أشارت إليه قراءة البزى عن ابن كثير[6] بالمد و الإدغام: أين قولكم فى [7]بدر «نحن جميع منتصر» معبرين بما دل على ثبات المناصرة.

و لما كان قد دهمهم من الأمر ما أوجب إبلاسهم، و أحدّ[8]

---

(١) راجع معالم التنزيل بهامش لباب التأويل ٦/١٧ (٢) زيد من ظ و م (٣) من ظ و م، و فى الأصل: المنظرين (٤) من ظ و م، و فى الأصل: بادنى. (٥) العبارة من هنا إلى «بالمد و الإدغام» ساقطة من م (٦) راجع نثر المرجان ٦/ ١٤ (٧) زيد فى م: يوم (٨) فى ظ و م: اخذ.

إدراكهم

إدراكهم و إحساسهم ، أشار إلى ذلك باحلالهم فى محل الغيبة المؤذنة [بالإبعاد -[1]] بأن قال مضربا[2] عما تقديره : [إنهم -[1]] لايتناصرون : ﴿ بل هم ﴾ و زاد فى تعظيم ذلك الوقت و التذكير بـــه فقال : ﴿ اليوم مستسلمون ؞ ﴾ أى ثابت لهم[3] استسلامهم ثباتا [4]لا زوال[4] له ، قد خذل بعضهم بعضا موجدين الإسلام أى الانقياد / إيجاد من كأنه / ٣٨٧ يطلبه و يعظم فيه رغبته رجاء أن يخفف ذلك عنهم .

و لما أخبر بأنهم سئلوا فلم يجيبوا ، كان ربما ظن أنهم أخرسوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد نكدهم ، فقال عاطفا على قوله " و قالوا يٰويلنا هذا يوم الدين " إشارة إلى إقبالهم على الخصام ، حين تمام القيام ، و الأخذ فى تحريك الأقدام ، بالسير على هيئة الاجتماع و الازدحام ، إلى مواطن النكد و الاغتمام ، و لم يعطفه بالفاء لأنه ليس مسببا عن القيام ، و لا عن الإيقاف للسؤال ، بخلاف ما يأتى عن أهل الجنة : ﴿ و اقبل بعضهم ﴾ أى الذين ظلموا ﴿ على بعض ﴾ أى بعد إيقافهم و توبيخهم ، و عبر عن خصامهم تهكما بهم بقوله : ﴿ يتسآءلون ؞ ﴾ أى سؤال خصومة .

و لما كان كأنه قيل : عما ذا ؟ أجيب بقوله : ﴿ قالوآ ﴾ أى الأتباع لرؤسائهم مشيرين بأداة الكون إلى المداومة على إضلالهم مؤكدين لأجل تكذيب الرؤساء لهم : ﴿ انكم كنتم ﴾ و لما كانوا يستغوونهم و يغرونهم

(١) زيد من ظ و م (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : معبرا (٣) سقط من م (٤-٤) من ظ و م ، و فى الأصل : لاول وال - كذا .

بما تقبله عقولهم على ما جرت به عوائدهم بحيث يقطعون بذلك قطع من كان يريد الذهاب إلى أمر فتطير بالسانح و البارح، فرأى ما يحب فأقدم عليه و هو قاطع بحصوله، أشاروا[1] إلى ذلك بقولهم: ﴿تاتوننا﴾ مجاوزين لنا ﴿عن اليمين﴾ أى عن القوة و القهر و الغلبة و السلطان فى حملكم لنا على الضلال، ففعلنا فى طاعتكم فعل من خرج لحاجة، فرأى ما أوجب إقدامه عليها، فهذا كان سبب كفرنا، و كان هذا التفاؤل مما[2] نسيت العرب كيفيته لما نسخه الشرع كما وقع فى الميسر[3]، فاضطرب كلام أهل اللغة فى تفسيره، قال صاحب القاموس: البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك، و سنح الظبى سنوحا ضد برح. و قال ابن القطاع فى كتاب الأفعال[4]: و سنح الشىء سنوحا: تيسر، و الطائر و الظبى: جرى عن يمينك إلى يسارك و هو يتيمن به، و قال[5] فى مادة «برح»: و برح الطائر و الظبى و غيرهما ضد سنح، و هو ما أراك ميامنه، و أهل الحجاز يتشاءمون به، و غيرهم يتيمنون به و يتشاءمون بالسانح[6]، و قال ابن مكتوم فى الجمع بين العباب و المحكم فى مادة «برح»: و البارح خلاف السانح، و قد برح الظبى - إذا والاك مياسره يمر من[7] ميامنك إلى مياسرك، و العرب يتطير بالبارح، و فى

(١) من ظ و م، و فى الأصل: اشار (٢) من م، و فى الأصل و ظ: ما.
(٣) من ظ و م، و فى الأصل: السير (٤) راجع ٢/١٤٠ (٥) راجع ١/ ٧١.
(٦) من م و كتاب الأفعال، و فى الأصل و ظ: بالسانع (٧) من م، و فى الأصل و ظ: عن.

مادة « سنح » : و السانح ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، و البارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك، و قيل : السانح ما والاك ميامنه، و البارح ما والاك مياسره، و قيل، السانح ما يجيء عن يمينك فتلي مياسره مياسرك، و العرب تختلف في عيافة ذلك، فمنهم من يتيمن بالسانح و يتشاءم بالبارح، و على هذا المثل : من لي بالسانح بعد البارح، قال في القاموس : أي بالمبارك بعد المشؤوم[1]، و منهم من يتشاءم بالسانح، و قال الإمام أبو[2] عبد الله القزاز في مادة « سنح[3] » : و السانح من الطير و الظباء و غيرهما هو الذي يأتيك عن يمينك أخذا على يسارك، فيوليك مياسره، فيمكنك رميه، و أكثر العرب يتيمن به، وقال في مادة « برح » : و البارح من الطير و الظبي هو خلاف السانح، و هو الذي يلقاك و شمائله عن شمائلك، و هو مما[3] يتيمن به أهل العالية، و يتشاءمون بالسانح، [و السانح ـ[4]] هو الذي يلقاك و ميامنه عن ميامنك، و هو مما يتيمن به أهل نجد و يتشاءمون بالبارح، و البارح أبين في التشاؤم به من السانح، لأن البارح هو الذي يأخذ/عن[5] يسارك إلى يمينك فلا يمكنك طعنه، فيتشاءم به لتعذره على الطاعن /٣٨٨ أو الرامي، و لذلك قال أبو داود : قلت : لما برز امن فيه[6] كذب العير و إن كان برح، يقول : كذب إذ طمع أن ينجو، و إن كان قد برح و صعب

---

(١) في القاموس : الشؤم (٢) من ظ و م، و في الأصل : ابي (٣) من ظ و م، و في الأصل : ما (٤) زيد من ظ وم (٥) في م : من (٦) في م : قته.

على إمكان طعنه، و تطير من تيمن[1] به بسلامته و خلاصه من الطاعن، و تطير من تيمن بالسانح بأنه يأتى من ميامنك إلى مياسرك، فيمكنك من طعنه، و من تشاءم به تطير بقلة سلامته و وقوعه فيما يكره، و من [2] الطير الجابه[2] و هو [الذى - [3]] يلقاك مواجهة، و منه[4] الناطح [أيضا - [5]] و منه[6] القعيد، و هو الذى يأتيك من خلفك - انتهى ما وقفت عليه من كلام أهل اللغة فى ذلك فافهم[6]، و الظاهر كما تفهمه الآية أن العرب مطبقة على أن ما أتى عن اليمين كان مباركا سواء كان أتى من قدام مواجها لك و مر إلى جهة [الخلف - [3]] فوليتك ميامنه، أو أتى من الجانب الأيمن سواء كان ابتداء إتيانه من خلف أو لا فمر من قدامك عرضا إلى جهة اليسار، فوليتك فى الحالتين مياسره، و ما أتى من جهة اليسار على ضد ذلك كان مشؤما، و كأنهم اختلفوا فى التسمية فأكثرهم سمى الأول سانحا من السنح بالضم و هو اليمن و البركة، [7] و هو من[7] قولهم: سنح لى رأى: تيسر - لشهرة معنى اليمن عندهم فى ذلك، و الثانى بارحا من البرح. و هو الشدة و الشر لشهرة هذا المعنى عندهم فى مادة برح. و بعضهم عكس فسمى الأول بارحا من البرحة، و هى الناقه تكون من خيار الإبل لشهرة ذلك عندهم، و سمى الثانى سانحا من قولهم: سنحه عما أراد: صرفه، و سنح بالرجل و عليه: أخرجه

(١) فى ظ و م: تيمن (٢ - ٢) من ظ و م، و فى الأصل: المطير الجابة.
(٣) زيد من ظ و م (٤) فى م: منها (٥) زيد من م (٦) سقط من م.
(٧-٧) سقط ما بين الرقمين من ظ و م.

أو

أو أصابه بشر، فمن الاختلاف فى التسمية أتى الخلاف، و لذلك عبر سبحانه و تعالى بالمعنى دون الاسم، لأن كلامه سبحانه لايخص قوما دون غيرهم، و أما التعليل بامكان الطعن و الرمى فلا معنى له لأن الإنسان ينفتل [1] عن هيئة وقوفه بأدنى حركة فينعكس بالنسبة إليه أمر المياسر و الميامن، و يتغير حال الطعن و الرمى، هذا إذا سلم أن الطعن و الرمى يعسر من جهة المياسر على أنه غير مسلم، و لو كان المعنى دائرا عليه لما اختلف فيه إلا بالنسبة إلى الأعسر و غيره، لابالنسبة إلى أهل العالية و غيرهم، و أما البيت الذى استدل به فيمكن حمله على أن قائله كان فى حاجة له لابد له منها، فرأى البارح فلم يتطير منه و لج [2] فى أمره ذلك تكذيبا له فيما دل عليه عند العرب، و أما الجابه و غيره فأسماء أخر لبعض أنواع كل من السانح و البارح - و الله أعلم. و قال أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى فى كتابه الزينة: العيافة و القيافة و الزجر نوع من الكهانة إلا أنه أخف فى الكراهة، و ذلك أن الكاهن كان بمنزلة الحاكم، و كان من الكهان من يعبد كما يعبد الصنم، و كانوا سدنة [3] الأصنام، قلت: و الكاهن فى اللغة من يقضى بالغيب [و - [4]] ذلك هو غاية العلم، فهو وصف يدل على التوغل فى العلم - انتهى، قال أبو حاتم: و سمعت بعض أهل الأدب قال: الكاهن بالعبرانية العالم، و كانوا يسمون هارون عليه السلام كهنا ربا، معناه عالم الرب، ثم قال:

(١) من م، و فى الأصل و ظ: ينقبل (٢) من ظ و م، و فى الأصل: لح.
(٣) من ظ و م، و فى الأصل: سده (٤) زيد من م.

٣٨٩/ / إن الكهانة و السحر كان[١] عند المتقدمين نوعا من العلم، فكان الساحر و الكاهن اسمين محمودين، فلما جاء الله بالإسلام[٢] صار هذان الاسمان مذمومين عند المسلمين لما كشف لهم ما في ذلك من الشر، ثم قال: فأما العائف و القائف و الزاجر فلم يكن سبيلهم كذلك - يعني كالكاهن في أنه ربما عبد، قال: و إنما كره لأنه كان يخبر بشيء غائب فكره كما كره أمر النجوم توقيا أن يكون مثل الدعوى في علم الغيب، و العائف هو الذي يعيف الطير و يزجرها و يعتبر بأسمائها و أصواتها [٣]و مساقطها[٣] و مجاريها، فاذا سمع صوت طائر أو جرى من يمينه إلى شماله أو من شماله إلى يمينه قضى في ذلك بخير أو بشر في الأمر الذي يريد أن يفعله، فاذا قضى فيه بشر تجنب ذلك الأمر، يقال: عاف يعيف - إذا فعل ذلك، و معنى عاف اي امتنع و تجنب، يقال: عافت الإبل الماء - إذا لم تشرب، و كذلك يقال في غير الإبل و الزاجر أيضا: هو مثل العائف، يقال: يزجر الطير زجرا، و ذلك أنه ينظر إلى الطير فيقضي فيها[٤] مثل العائف، فاذا رأى شيئا كرهه[٥] رجع عن أمر يريده أن يشرع فيه أو حاجة يريد قضاءها، و الزاجر معناه الناهي، فكأن الطير قد زجره عن ذلك الفعل، أو أن من عاف له [زجره -[٦]] عن ذلك، و يكون المعنى الزجر أيضا أنه إذا رأى [منها -[٦]] شيئا

(١) من ظ و م، و في الأصل: كانا (٢) زيد في ظ: به (٣ - ٣) في الأصل بياض ملأناه من ظ و م (٤) من ظ و م، و في الأصل: بها (٥) من ظ و م، و في الأصل: يكرهه (٦) زيد من ظ و م.

صاح بها و طردها، فكان طرده إياها زجرا لها، و منه قوله صلى الله عليه و سلم[1]: أقروا[2] الطير على مكناتها[3]، قلت: إنهم كانوا إذا لم يروا سانحا و لا بارحا نفروا الطير لينظروا إلى أىّ جهة تطير - و الله أعلم، و قال أبو حاتم: و الأصل فى هذا أنهم كانوا يزجرون [الطير ثم كانوا يزجرون -[4]] الظبى و الثعلب، و بصوت الإنسان يستدلون بلفظه و بغير ذلك، ثم نسبت كلها إلى الطير فقيل: يتطير، أى يستدل بالطير، و روى عن الأصمعى قال: سألت ابن عون[5]: ما الفال؟ فقال: هو أن تكون مريضا فتسمع: يا سالم، [6]و تكون باغيا[6] فتسمع يا واجد، قال: و كان ابن سيرين يكره الطيرة و يحب الفال، و فى الحديث[7]: أصدق الطير الفال: و الفال مأخوذ من[8] الفيال، و هى لعبة يتقامرون[9] بها، كانوا يأخذون الدراهم فيخلطونها بالتراب ثم يجمعونه طويلا ثم يقسمونه بنصفين و يتقارعون عليه، فمن أصابه[10] القرعة اختار من القسمين واحدا، فلما كان المفايل يختار منهما ما[11] أحب سمى الفال، لأنه يتفاءل بما يحبه، و كان هذا فى العرب كثيرا، و أكثره فى بنى أسد، قال الأصمعى:

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٦ / ٣٨١ (٢) من م و المسند، و فى الأصل و ظ: اقراوا (٣) من م و المسند، و فى الأصل و ظ: مكافاتها. (٤) زيد من ظ و م (٥) من م، و فى الأصل و ظ: ابن عوف، و الصحيح عبد الله بن عون و هو يروى عن محمد بن سيرين (٦-٦) من ظ و م: و فى الأصل: ياثاغيا (٧) راجع مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٨٩ (٨) من ظ و م، و فى الأصل: عن (٩) من م، و فى الأصل و ظ: يتغامزون (١٠) فى م: اصابته (١١) تكرر فى الأصل فقط.

أخبرني سعد بن نصر أن نفرا من الجن تذاكروا عيافة بني أسد فأتوهم فقالوا: ضلت لنا ناقة، فلو أرسلتم[1] معنا من يعيف، فقالوا لغليم[2] لهم: انطلق [معهم -[3]]، فاستردفه أحدهم، ثم ساروا[4] فلقيتهم عقاب كاسرة إحدى جناحيها، فاقشعر الغليم[5] فبكى فقالوا له: ما لك؟ فقال: كسرت جناحا، و رفعت جناحا، و حلفت بالله صراحا، ما أنت بانسي و لاتبغي لقاحا. و كانوا يسمون الذي يجيء عن يمينك فيأخذ إلى شمالك سانحا[6]، و الذي يجيء عن يسارك فيأخذ إلى / يمينك بارحا، و الذي يستقبلك /٣٩٠ ناطحا و كالحا، و الذي يجيء من خلفك قعيدا، و الذي يعرض في كل وجه متيحا، فمنهم من كان يتشاءم بالبارح [و يتيمن بالسانح، و منهم من كان يتيمن بالبارح -[7]] و يتشاءم بالسانح، قال زهير[8]:

جرت سنحا فقلت لها أجيزي[9] نوى مشمولة فمتى اللقاء

و قال الكميت:

و لا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر اعضب

و كانوا يزجرون بعضب القرن و صحته، و الأعضب الذي له قرن واحد، و أما القائف فهو الذي يتبع الآثار و يعرفها و يعرف شبه الرجل في

---

(١) من ظ و م، و في الأصل: رايتم (٢) من ظ و م، و في الأصل: للعليم.
(٣) زيد من ظ و م (٤) في ظ: سار (٥) من ظ و م، و في الأصل: العليم.
(٦) من ظ و م، و في الأصل: مانحا (٧) زيد من م (٨) من ظ و م، و في الأصل: الزهري (٩) من ظ و م، و في الأصل: اجيري.

ولده، و يروى عن عوسجة بن معقب القائف قال: كنا تسرق[1] نخلنا فنعرف آثارهم، فركبوا الحمر فعرفنا بمس أيديهم و العذوق[2]، فكان القائف سمى قائفا لأنه يقفو الأثر، يقال: قفا [الأثر-[3]] و قاف الأثر أى تبعه، قال الأصمعى عن أبي طرفة الهذلى قال: رأى قائفان[4] أثر بعير و هما منصرفان من عرفة بعد الناس بيوم أو يومين فقال أحدهما: ناقة، و قال الآخر: جمل[5]، فاتبعاه فاذا هما به، فأطافا به فاذا هو خنثى، و يقال للرجل إذا كان فطنا عارفا بالأمور: هو عائف و قائف، و كان قوم من العرب لايتطيرون و لايتهيبون الطيرة و يفتخرون بتركه و يعدون[6] تركه شجاعة و إقداما، قال بعض شعرائهم:

و لقد غدوت[7] و كنت لا أغدو[8] على واق[9] و حاتم
فاذا الأشائم كالأيا من و الأيامن كالأشائم[10]

و قال آخر[11]:

ولست[12] بهياب إذا اشتد[13] رحله يقول عدانى اليوم واق[14] و حاتم
و لكنه يمضى على ذاك مقدما إذا صد عن تلك الهناة الخثارم

(١) من م، وفي الأصل وظ: نسرق (٢) من ظ وم، وفي الأصل: العدوق. (٣) زيد من م (٤) من ظ و م، و في الأصل: قايفا (٥) من ظ و م، و في الأصل: جملا (٦) في ظ و م: يعتدون (٧) من ظ و م، و في الأصل: عدوت (٨) من ظ و م، و في الأصل: اعدد (٩) من ظ و م، و في الأصل: عاف (١٠) هذا البيت ذكره صاحب اللسان غير معزو إلى أحد. (١١) و هو خثيم بن عدى - كما في اللسان (١٢) من اللسان، و في الأصول: ليس (١٣) في اللسان: شد (١٤) من ظ و م و اللسان، و في الأصل: قاف.

الخثارم : المطير ، و قيل : العيافة و القيافة : الطرق و الخط ، و هو أيضا نوع من الكهانة ، و هو أن يخط فى الأرض خططا فى الطول ، ثم يخط عليها خططا فى العرض ، ثم يطرق بالحصى أو بالشعير أو بخشبات ، و لا يزال يخط و يمحو و يعيد ثم يتكهن عليه ، و من هذا الباب أيضا علم الكتف[1] و هو أن ينظر فى كتف شاة فيحدث[2] بأشياء تكون فى العالم مثل الحروب و الأمطار و الرياح و الجدب و الخصب و غير ذلك ، و هذا يقال له : الكتاف ، كأنه اشتق له اسم من الكتف مثل العراف لأن العراف من جنس العيافة ، و العيافة و العرافة سواء ، فهذه الأشياء كلها من السحر و الكهانة و القيافة و العيافة و الخط و الطرق و الكتف و ما أشبهها ، قد جاءت فيها الأخبار و الروايات ، و يطول الخطب بها ، و هى كلها مكروهة حرام ، فنها ما جاء فيها التشديد مثل السحر و الكهانة ، و منها ما جاء فى القليل منها الرخص و التخفيف مثل القيافة و العيافة و الكتف - انتهى . و هو مسلم له فى القيافة . و أما غيرها فنازع[3] فيه . ثم قال : فأكثر هذه الأشياء أصولها من الأنبياء عليهم السلام[4] ، فاذا ٣٩١ / استعملت بعد الفسخ و بعد ما جاء فيها النهى عن النبى / صلى الله عليه و سلم كانت حراما تدعو إلى الكفر و التعطيل و غير ذلك من أنواع الفساد ، ثم قال : و ما كان من أمر مشركى العرب فقد درس دروسا لا يعرف و لا يحتاج إلى ذكر كيفيته إذ[4] كان متلاشيا[5] لا أثر له ،

---

(١) من ظ و م ، و فى الأصل : الكشف (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : محدث (٣) من م ، و فى الأصل وظ : فنازع (٤) من ظ وم ، و فى الأصل : اذا (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : مثلا شيئا .

و لكن لايستغنى الفقهاء و العلماء عن معرفته إذ[1] كان له فى القرآن ذكر، و إذ كان واجبا على العلماء تعلم ما فى القرآن على حسب طاقتهم، و الجهل به نقص عليهم[2] - و الله أعلم بالصواب[3].

و لما أشار سبحانه بتسمية كلامهم هذا سؤالا إلى [أن -[4]] مرادهم: فهل أنتم مغنون عنا شيئا أو حاملون عنا جزءا من العذاب؟ و [كان -[4]] كأنه قيل: بم أجاب الرؤساء بعد[3] هذا القول من الاتباع؟ قيل: ﴿قالوا بل﴾ أى لم يكن كفرهم سببا بل ﴿لم تكونوا مؤمنين ج﴾ أى عريقين فى هذا الوصف بجبلاتكم[5] فلذلك تابعتمونا فيما أمرناكم به لأنه كان فى طبعكم، و هذا دليل على أن من لم يكن راسخا فى الإيمان كان منهم، ثم أكدوا هذا المعنى بقوله نافين لما[6] أشاروا باليمين إليه: ﴿و ما كان﴾ أى كونا ثابتا ﴿لنا عليكم﴾ و أعرقوا فى النفى بقولهم: ﴿من سلطن ج﴾ [أى فأكرهناكم بذلك السلطان -[7]]، إنما تبعتمونا[8] باختياركم و هو معنى ﴿بل كنتم﴾ أى جبلة و طبعا ﴿قوما﴾ أى ذوى[9] قوة و كفاية لما تحاولونه من الأمور ﴿طغين ه﴾ أى مجاوزين لمقاديركم غالين[10] فى الكفر مسرفين فى المعاصى و الظلم. و لذلك أنكم[11] خلق

---

(١) فى ظ: ان (٢) زيد فى الأصل بعده: و العلم بالشىء و لا الجهل به، و لم تكن الزيادة فى ظ وم فحذفناها (٣) سقط من ظ وم (٤) زيد من ظ وم.
(٥) من ظ و م، و فى الأصل: بجملاتكم (٦) فى الأصل بياض ملأناه من ظ و م (٧) زيد من م (٨) فى م: تابعتمونا (٩) من م، وفى الأصل وظ: ذى.
(١٠) من ظ و م، و فى الأصل: جالين (١١) فى م: لكم.

لا تحتاجون فيه إلى كبير تحرك[1] ﴿ فحق علينا ﴾ أى كلنا نحن و أنتم بسبب ذلك، و عبروا بما يدل على ندمهم فقالوا : ﴿ قول ربنآ ملىٓ ﴾ أى الذى قابلنا إحسانه إلينا و تربيته لنا بالكفران، و قوله هو الحكم بالضلال لما فى قلوبنا من القابلية له و الإباء[2] للايمان، فالحكم بالعذاب .

و لما تصوروا ما صاروا إليه من الخطأ الفاحش عن الطريق الواضح، و علموا أن مثل ذلك لايتركه أحد إلا[3] بقهر قاهر فتصوروا أنه ما قسرهم عليه إلا حقوق الكلمة العليا علموا أنهم مثل ما صاروا إلى حكمها فى الكفر يصيرون إلى حكمها فى العذاب، فقالوا لما دهمهم من التحسر مريدين بالتأكيد قطع [4]أطماع الاتباع عما[4] أفهمه كلامهم من أن الرؤساء يغنون عنهم شيئا : ﴿ انا ﴾ أى جميعا ﴿ لذآئقون ۝ ﴾ أى ما وقع [لنا -[5]] به الوعيد من سوء العذاب .

و لما قضوا علالة التحسر و التأسف و التضجر، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا : ﴿ فاغوينكم ﴾ أى أضللناكم و أوقعناكم فى الغى بسبب حقوق ذلك القول علينا ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين أيضا لرد ما ادعاه[6] الأتباع من أنه ما كان سبب إغوائهم إلا الرؤساء : ﴿ انا ﴾ أى جميعا ﴿ كنا غوين ۝ ﴾ أى فى طبعنا الغواية، و هى العدول عن الطريق المثلى[7] إلى المهالك .

---

(١) فى ظ و م : محرك (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : الاكاه (٣) من ظ و م ، و فى الأصل : لا (٤ - ٤) من ظ و م ، و فى الأصل : الا طماع الاتباع كما (٥) زيد من م (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : اعاده (٧) من ظ و م ، و فى الأصل : الملقى .

و لما قال لهم الرؤساء ما هو الحق من أمرهم مما أوجب الحكم باشـــتراكهم ، سبب عنه قوله تعالى مؤكدا دفعا لمن يتوهم اختصاص العذاب بالسبب: ﴿ فانهم ﴾ أى الفريقين بسبب ما ذكروا عن أنفسهم ﴿ يومئذ ﴾ أى يوم إذ كان هذا التقاول[1] بينهم ﴿ فى العذاب ﴾ أى[2] الأكبر ﴿مشتركون ه﴾ أى فى أصله ، و هم مع ذلك متفاوتون[3] فى وصفه على مقادير / كفرهم كما كانوا متشاركين فى السبب متفاوتين[4] فى شدتهم / ٣٩٢ فيه و لينهم - هذا و قد قال البخارى فى صحيحه[5] فى تفسير حم السجدة: و قال المنهال عن سعيد: قال رجل لابن عباس رضى الله عنهما: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ [قال -[6]] "فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" "و اقبل بعضهم على بعض يتساءلون" "ولا يكتمون الله حديثا" "و الله ربنا ما كنا مشركين" فقد كتموا فى هذه الآية ، و قال: "السماء بناها - إلى قوله: دحاها" فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال "ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين - إلى: طائعين" فذكر فى هذه الآية خلق الأرض قبل السماء ، و قال: "و كان الله غفورا رحيما" "عزيزا حكيما" "سميعا بصيرا" فكأنه كان ثم مضى ، فقال: "فلا انساب بينهم" فى النفخة الأولى ، [ثم -[7]] ينفخ[8] فى الصور

---

(١) من م ، و فى الأصل و ظ: التفاول (٢) زيد فى الأصل: العذاب ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها (٣) من ظ و م ، و فى الأصل: متفاتون (٤) من ظ و م ، و فى الأصل: متفاوتون (٥) راجع ٢/٧١٢ (٦) زيد من م و الصحيح. (٧) زيد من الصحيح (٨) من ظ و م و الصحيح ، و فى الأصل: نفخ ...

فصعق من فى السماوات و من فى الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك و لا يتساءلون، ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، و أما قوله "ما كنا مشركين" "و لا يكتمون الله حديثا" فان الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، و قال المشركون: تعالوا نقول[1]: لم نكن مشركين. فنختم[2] على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن الله لايكتم حديثا، و عنده يود الذين كفروا - الآية، و خلق الأرض فى يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين ثم دحا الأرض، و "دحاها" أى أخرج منها الماء و المرعى، و خلق الجبال و الآكام و ما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله "دحاها" و قوله: خلق الارض فى يومين، فجعلت الأرض و ما فيها من شيء فى أربعة أيام. و خلقت السماوات فى يومين، و كان الله غفورا [رحيما -[3]]، سمى نفسه ذلك، و ذلك قوله، أى لم يزل كذلك، فان الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله. و قال فى سورة المرسلات[4]: و سئل ابن عباس رضى الله عنهما[5] "هذا يوم لاينطقون" "و الله ربنا ما كنا مشركين" "اليوم نختم على افواههم" فقال: إنه ذو ألوان. مرة ينطقون و مرة يختم عليهم.

---

(١) من م و الصحيح، و فى الأصل و م: نقل (٢) زيد فى الأصل: الله، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و الصحيح فحذفناها (٣) زيد من الصحيح. (٤) راجع ٢ / ٧٣٤ (٥) زيد فى الأصل: عن، و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها.

و لما أخبر سبحانه باشتراكهم، استأنف الإخبار بما يهول أمر عذابهم و يشير إلى عمومه فى الدارين لكل من شاركهم فى الإجرام، فقال مؤكدا دفعا لظن من ينكر القيامة و ظن من يرى الإملاء للجرم فى الدنيا نعمة و ينفى[1] كونه نقمة، أو يفعل فى التمادى فى الإجرام فعل المنكر: ﴿ انا ﴾ أى بما لنا من العظمة التى لايفوتها شىء ﴿ كذلك ﴾ أى مثل هذا الفعل[2] العظيم الشأن ﴿ نفعل ﴾ بهم - هكذا كان الأصل، و لكنه علق بالوصف تعميما و تعليلا فقال: ﴿ بالمجرمين ﴾ أى كل قاطع لما أمر الله به أن يوصل فى الدنيا و الآخرة، نمهل ثم نأخذ أخذا عنيفا يصير به المشتركون فى الظلم أعداء يتخاصمون، و يحيل بعضهم على بعض ثم لاينفعهم ذلك، بل نشارك[3] بينهم فى العقوبة، ثم علل [4]تعذيبه لهم[4] بقوله مؤكدا للتعجب منهم لأن فعلهم هذا أهل لأن ينكر لأن هذه الكلمة لايصدق عاقل[5] أن أحدا يستكبر عليها لأنه[6] لا شىء أعدل منها: ﴿ انهم كانوآ ﴾ أى دائما ﴿ اذا قيل لهم ﴾ [أى -[7]] من أى قائل كان: ﴿ لآ اله ﴾ أى يمكن، و إذا نفى الممكن كان الموجود أولى فانه لايوجد إلا ما يمكن وجوده و إن كان واجبا ﴿ الا الله ﴾ / أى / ٣٩٣
الملك الأعلى المباين لجميع الموجودات فى ذاته و صفاته و أفعاله[8] كما

(١) من م، و فى الأصل و ظ: تبقى (٢) فى ظ: الفضل (٣) من م، و فى الأصل و ظ: يشارك (٤ - ٤) فى ظ: تعذيبهم له (٥) من ظ و م، و فى الأصل: عاقلا (٦) من م، و فى الأصل و ظ: لأنها (٧) زيد من ظ و م.
(٨) فى م: وجوده.

هو الحق ليفردوه[1] بالإلهية كما تفرد بالخالقية كما لا يخفى على من له أدنى مسكة بصفات الكمال، و قدم النفي لأن التحلية لا تكون إلا بعد التخلية ﴿يستكبرون ﴾ أي يوجدون الكبر عن الإقرار بهذا الحق الذي لا أعدل منه وعن متابعة الداعي إليه، استكبار من هو طالب للكبر من نفسه و من[2] غيره لما فيه من العراقة و العتو، فلم يكن لهم مانع من أبواب جهنم السبعة التي جعلت كل كلمة من هذه الكلمة مع قرينتها الشاهدة [3]بارساله مانعة[3] من باب منها [و -[4]] إلا كان في شيء من ساعات أيامهم - التي هي بعدد[5] حروفهما أربعة و عشرون - خير ينجيهم من المكاره.

و لما أخبر أنهم استكبروا على توحيد الإله، أتبعه الإخبار بأنهم تكلموا في رسوله صلى الله عليه و سلم بما لا يرضاه فقال: ﴿و يقولون﴾ أي كل حين ما دلوا به على بعدهم عن الإيمان كل البعد بسوقهم[6] لقولهم ذلك في استفهام إنكاري مؤكدا[7]: ﴿ائنا لتاركوآ ءالهتنا﴾ أي عبادتها، وكان تأكيد أصل الكلام للإشارة إلى أن تكذيبهم صادر منهم مع علمهم بأن كل عالم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لما جاء به صلى الله عليه و سلم، و لذلك أعلم بأن ما هم عليه عناد بسوق تكذيبهم على وجه معلوم التناقض بالبديهة بقوله: ﴿لشاعر مجنون﴾ فان الجنون

---

(١) من ظ و م، و في الأصل: ليفرد (٢) من ظ و م، و في الأصل: عن.
(٣ - ٣) من ظ و م، و في الأصل: بالرسالة ما بعد (٤) زيد من ظ و م.
(٥) من ظ و م، و في الأصل: بعد (٦) من م، و في الأصل و ظ: بسقوقهم (٧) في م: موكد.

لا

لا نظام معه، و الشعر يحتاج إلى عقل رصين و قصد قويم، و طبع فى الوزن سليم، أو[1] للاشارة إلى [أن -[2]] إنــكار المؤكد إنكار لغيره بطريق الأولى .

و لما كان مرادهم بذلك أن كلامه باطل، فان أكثر كلام الشاعر[3] غلو و كذب و كلام المجنون تخليط، [كان -[2]] كأنه قال فى جوابهم : إنه لم يجىء بشعر و لا بجنون: ﴿بل جاء بالحق﴾ أى الكامل فى الحقية . و لما كان ما جاء به أهلا لكونه حقا لأن يقبل و إن خالف جميع أهل الأرض، و كان موافقا مع ذلك لمن تقرر صدقهم و اشتهر اتباع الناس لهم، فكان أهلا لأن يقبله هؤلاء الذين أنزلوا أنفسهم عن أوج معرفة الرجال بالحق إلى حضيض معرفة الحق على زعمهم بالرجال، فكان مآل أمرهم التقليد قال: ﴿ و صدق المرسلين ﴾ أى الذين علم كل ذى لب أنهم أكمل[4] بدور أضاء الله بهـم الأكوان فى كل أوان، و تقدم فى آخر سورة فاطر أنهم عابوا من كذبهم " و اقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم احد منهم ليؤمنن به فكذبوا " بأن كذبوا[5] سيدهم بهذا الكلام المتناقض .

و لما وصلوا إلى هذا الحد من الطغيان، و الزور الظاهر و البهتان، تشوف السامع إلى جزائهم فاستأنف الإخبار بذلك مظهرا له فى أسلوب الخطاب إيذانا بتناهى الغضب . فقال فى قالب التأكيد نفيا لما يترجونه

---

(١) من ظ و م، و فى الأصل «و» (٢) زيد من م (٣) من م، و فى الأصل و ظ: الشعر (٤) زيد فى م: الخلق (٥) من م، و فى الأصل و ظ: كذبهم .

من العفو بشفاعة من ادعوا أنهم يقربونهم زلفى، و وعظا لهم و لأمثالهم فى الدنيا فيما ينكرونه حقيقة أو مجازا: ﴿انكم﴾ أى أيها[1] المخاطبون على وجه التحقير[1] المجرمين[2] ﴿لذآئقوا﴾ أى بما[3] كنتم تضيقون أولياء الله ﴿العذاب الاليم ج﴾ .

و لما كان سبحانه الحكم العدل فلا يظلم أحدا مثقال ذرة فلا يزيد فى جزائه شيئا على ما يستحق مع أن له أن يفعل ما يشاء و لا يكون فعله - كيفما كان - إلا عدلا [قال -[4]]: ﴿و ما﴾ أى و الحال أنكم ما ﴿تجزون﴾ أى جزءا من الجزاء ﴿الا ما﴾ أى مثل ما. و لما كانوا مطبوعين[5] على تلك الخلال السيئة، بين أنها كانت خلقا لهم لايقدرون على الانفكاك عنها بالتعبير باداة الكون فقال: ﴿كنتم تعملون لا﴾ نفيا لوهم[6] من قد يظن أنهم فعلوا شيئا بغير تقديره سبحانه. و لما كان [فى -[4]] المخاطبين بهذا من علم الله أنه سيؤمن، و [استثنى من -[7]] واو "ذائقوا" قوله مرغبا لهم فى الإيمان مشيرا إلى أنهم لايحملهم على الثبات على ما هم عليه من الضلال إلا غش الضمائر بالرياء و غيره، [1]فهو استثناء متصل بهذا الاعتبار الدقيق[1]: ﴿الا عباد الله﴾ فرغبهم بوصف العبودية الذى لا أعز منه، و أضافهم زيادة فى الاستعطاف إلى الاسم

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من ظ و م، و فى الأصل: للمجرمين.
(٣) من ظ و م، و فى الأصل: مما (٤) زيد من ظ و م (٥) فى ظ: مطيعين.
(٦) من م، و فى الأصل و ظ: يوهم (٧) زيد من م.

الأعظم الدال على جميع صفات الكمال، و زاد رغبا بالوصف الذى لا وصف أجلّ منه فقال: ﴿ المخلصين ۝ ﴾ .

و لما خلصهم منهم، ذكر ما لهم فقال معظما لهم بأداة البعــد: ﴿ اولٓئك ﴾ أى العالو القدر بما صفوا أنفسهم عن أكدار[1] الأهوية ﴿لهم رزق معلوم لا﴾ أى يعلمون غائبه و كائنه و آتيه و طعمه و نفعه[2] و قدره و غبّه[3] و جميع ما يمكن علمه من أموره، و ليسوا مثل ما هم عليه فى هذه الدار من كدر الأخطار " لاتدرى نفس ما ذا تكسب غدا " لأن النفس إلى المعلوم أسكن، و بالأنس إليه أمكن .

و لما كان أهل الجنة لايأكلون تقوتا و احتياجا، بل تنعما و التذاذا و ابتهاجا، لأن أجسامهم محكمة مخلوقة للأبد . فهى غير محتاجة إلى حفظ الصحة قال: ﴿ فواكه ج ﴾ [أى يتنعمون بها بما كدروا من عيشهم فى الدنيا - [4]] . و لما كان الذى هو نعيم الجسم لا يحمد غاية الحمد إلا مع العز الذى هو غذاء الروح قال: ﴿ و هم مكرمون لا ۝ ﴾ بناه للفعول إشارة إلى أن وجود إكرامهم من كل شىء أمر حتم لا يكون غيره أصلا .

و لما كان الإكرام لايتم إلا مع طيب المقام[5] قال: ﴿فى جنٰت النعيم لا ۝﴾ أى التى لايتصور فيها غيره . و لما كان التلذذ لايكمل إلا مع الأحباب، و كانت عادة الملوك الاختصاص بالمحل[6] الأعلى، بين أنهم كلهم ملوك فقال: ﴿ على سرر متقبلين ۝ ﴾ أى ليس فيهم أحد وجهه إلى غير وجه

---

(١) من ظ و م ، و فى الأصل : الا كدار (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : نفسه (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : غيه (٤) زيد من م (٥) من م ، و فى الأصل : القال ، و فى ظ : المقال (٦) فى م : المحل .

الآخر على كثرة العدد . و لما كان ذلك لايكمل[1] إلا بالشراب ، و كان المقصود الطواف فيه ، لا كونه من معين ، قال : ﴿يطاف﴾ بالبناء للمفعول [و كأنها يدلى إليهم من جهة العلو ليكون أشرف لها و أصون ، فنبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال -[2]] : ﴿عليهم﴾ أى و هم فوق أسرتهم كالملوك ﴿ بكاس ﴾ أى إناء فيه خمر ، قالوا : و إن لم يكن فى الزجاجة خمر فهى قدح ، و لا تسمى كأسا إلا و الخمر فيها[3] ﴿من معين ۙ﴾ أى من خمر جارية فى أنهارها ، ظاهرة للعيون تنبع كما ينبع الماء لايعالجونها بعصير ، و لا يحملهم على الرفق بها و التقصير فيها نوع تقصير ، قال الرازى : إنما[4] سميت بـه إما من ظهورها للعين أو لشدة[5] جريها من الإمعان فى السير أو لكثرتها من المعن ، و هو الكثير ، و سمى الماعون لكثرة الانتفاع به ، و يقال : مشرب[6] ممعون : لايكاد ينقطع .

و لما كان أول ما يختار فى الشراب لونه ثم طعمه ، قال واصفا ما فى الكأس من الخمر استخداما : ﴿ بيضآء ﴾ أى مشرقة صافية هى فى غاية اللطافة تتلألأ نورا ، و[7] أعرق فى وصفها بالطيب بجعلها تفسيرا للمعنى فى قوله : ﴿ لذة للشربين ۚ ﴾ . [بما كانوا يتجرعون من كأسات الأحزان و الأنكاد ، و أظهر موضع الإضمار تعميما و تعليقا للحكم بالوصف ،

---

(١) من ظ و م ، و فى الأصل : لايكمله (٢) زيد من م (٣) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ /١٨ (٤) سقط من م (٥) من ظ و م ، و فى الأصل : شدة (٦) من م ، و فى الأصل و ظ : شرب (٧) فى ظ « او » .

و جمع إشارة إلى أنهم لا يعلونها إلا كذلك بما فيه من مزيد اللذة -[1]] .

و لما /[2] كان قد[2] أثبت لها الكمال، نفى عنها النقص فقال: / ٣٩٥
﴿ لا فيها غول ﴾ أى فساد من تصديع رأس أو[3] إرخاء مفصل أو إخماء كبد أو غير ذلك مما يغتال أى يهلك، أو يكون سببا للهلاك ﴿ و لا هم عنها ﴾ أى [عادة -[1]] بعد شربها ﴿ ينزفون ﴾ أى يذهب شيء من عقولهم و إن طال شربهم و كثر لئلا ينقص نعيمهم و لا ينفد[4] شرابهم أو ما عندهم من الجدة[5] لكل ما يسر به - على قراءة حمزة و الكسائى بكسر الزاى من أنزف - مبنيا للفاعل مثل أقل و أعسر - إذا صار قليل المال، أو ذهب عقله، و قراءة الجماعة بالبناء[6] للفعول يحتمل أن تكون من نزف، و حينئذ يحتمل أن تكون من نفاد الشراب من قولهم: نزفت الركية، أى ذهب ماؤها، و أن تكون من ذهاب العقل من [7]قولهم: نزف الرجل[8] بالبناء للفاعل، و نزف - بالبناء للفعول بمعنى: ذهب عقله بالسكر، و يحتمل أن تكون من أنزف، و حينئذ يحتمل أن تكون من [9]ذهاب العقل من[9] أنزف الرجل - إذا ذهب عقله بالسكر، و أن تكون من عدم الشراب من قولهم: نزف الرجل الخمرة - سواء

(١) زيد من م (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من ظ و م (٣) من ظ و م، و فى الأصل «و» (٤) من ظ و م، و فى الأصل: لا ينفذ (٥) من م، و فى الأصل: الجلد، و فى ظ: الجلد (٦) من م، و فى الأصل: بالياء، و الكلمة ساقطة من ظ (٧) العبارة من هنا إلى «بالسكر و يحتمل أن تكون» ساقطة من ظ (٨) من م، و فى الأصل: المرجل (٩ - ٩) وقع ما بين الرقمين فى الأصل قبل «من أنزف و حينئذ» و الترتيب من م .

كان مبنيا للفاعل أو للفعول - إذا أفناها .

و لما كان ذلك كله لا يكمل إلا بالجماع ، [و الخمر - [1]] أدعى شيء إليه ، و هو لا يكمل النعيم به إلا بالاختصاص[2] قال : ﴿و عندهم﴾ نساء من أهل الدنيا و غيرها ﴿قٰصرٰت الطرف﴾ أى لا تطرف واحدة منهن إلى غير زوجها و لا يدعه تناهى حسنها و فرط جمالها طرفها[3] يطرف إلى غيرها ﴿عين ﻻ﴾ أى نجل العيون ، [جمع عيناء ، كسرت عينه لمناسبة الياء - [4]] .

و لما كان أحسن الألوان لاسيما عنـــد العرب الأبيض الأحمر المشرب صفرة أكسبته صفاء و إشراقا و بهاء ، قال : ﴿كأنهن[5] بيض﴾ أى بيض نعـام ﴿مكنون[6]ه﴾ أى مصون من دنس يلحقه ، و غبار يرهقه ، و لمحبة العرب[7] لهذا اللون كانت تقول عن النساء بيضات الخدور لأن لونه أبيض مشربا صفرة صافية ، و قد صرح امرؤ القيس بهذا فى لاميته المشهورة [فقال - [4]] :

[8]كبكر مقاناة[8] البياض بصفرة غذاها نمير[9] الماء غير المحلل

---

(١) زيد من ظ و م (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : باختصاص (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : طرف (٤) زيد من م (٥) من ظ و م و القرآن الكريم ، وفى الأصل : كانهم (٦) من ظ وم ، وفى الأصل : نعام - كذا (٧) زيدت الواو بعده فى ظ (٨-٨) من م و ديوان امرئ القيس ، و فى الأصل : ككبد معناة ، و فى ظ : ككبه مقنـاة (٩) من م و الديوان ، و فى الأصل : يمين ، و فى ظ : عين .

أى مخالطة البياض المائل إلى الحمرة بصفرة، و هو أصفى الألوان و أعدلها، يشابه لون [نور -[1]] القمر.

و لما كان ذلك الاجتماع إنما هو للسرور، و كان السرور لايتم إلا بالمنادمة، وكان أحلى المنادمة ما يذكر بحلول نعمة أو[2] انحلال نقمة، تسبب عن ذلك و لابد قوله إشارة إلى فراغ البال و صحة العقل بالإصابة فى المقال: ﴿ فأقبل بعضهم ﴾ أى أهل الجنة بالكلام، [و أشار إلى أن مجرد الإقبال بالقصد يلفت القلوب إلى سماعه بأداة الاستعلاء فقال -[3]]: ﴿ على بعض ﴾ أى [لأجل -[3]] الكلام الذى هو روح ذلك المقام، و أما المواجهة فقد تقدم أنها دائمة، و بين حال هذا الإقبال فقال[4]: ﴿ يتسآءلون ۝ ﴾ أى يتحدثون حديثا بينا[5] لا خفاء بشيء منه - بما أشار إليه الإظهار بما حقه أن يهتم[6] به و يسأل عنه[7] من أحوالهم التى خلصوا منها بعد أن كادت[8] ترديهم، و سماه سؤالا [لأنه -[3]] - مع كونه أهلا لأن يسأل عنه - لا يخلو عن سؤال أدناه سؤال المحدث أن يصغى إلى الحديث، و عبر عنه بالماضى إعلاما بتحققه تحقق ما وقع.

و لما تشوف السامع إلى سماع شيء [منها -[3]] يكون نموذجا للباقى، أشار إلى ذلك بقوله مستأنفا: ﴿ قال قآئل منهم ﴾ أى فى هذا التساؤل، و شتان ما بينه و بين ما مضى خبره من تساؤل أهل النار.

---

(١) زيد من ظ و م (٢) فى ظ «و» (٣) زيد من م (٤) من ظ و م، و فى الأصل: بقوله (٥) سقط من ظ (٦) من ظ و م، و فى الأصل: يبهم (٧) من ظ و م، و فى الأصل: عنهم (٨) من م، و فى الأصل وظ: كانت.

و لما كان ظنه أنه لايخلص من شر ذلك القرين الذى يحدث عنه فنجاه الله منه على خلاف الظاهر، فكان ذلك إحدى النعم الكبرى، نبه عليه بالتأكيد فقال: ﴿ انى كان لى قرين ۝ ﴾ أى جليس[1] من الناس / كأنه /٣٩٦ شيطان مبين ﴿ يقول ﴾ [أى - [2]] مكذبا بالبعث مستبعدا له غاية الاستبعاد مجددا لقوله[3] فى كل وقت، يريد أن يختدعنى بلطافة قياده [4]إلى سوء اعتقاده[4]: ﴿ ء انك لمن المصدقين ۝ ﴾ أى بالبعث - يوبخنى بذلك و يستقصر باعى[5] فى النظر استثارة لهمتى و إلهابا لنخوتى و حميتى، و يكرر الإنكار بقوله: ﴿ ء اذا متنا ﴾ أى فذهبت أرواحنا ﴿ و كنا ﴾ أى كونا راسخا ﴿ ترابا و عظاما ﴾ أى[6] فانمحقت أجسامنا التى هى مراكب الأرواح ﴿ ء انا لمدينون[7] ۝ ﴾ أى لمجزيون بعد ذلك بما عملنا بأن نبعث و نجازى، و كان تأكيده للاشارة منه إلى أن كل عاقل جدير بأن يكذب بما أقررت به لبعده. او[6] إلى أنه مكذب به و لو كان مؤكدا.

و لما كان هذا المقال سببا لعظيم تشوف السامع إلى ما يكون[8] بعده، و كان أهل الجنة من علو المكان و المكانة و صحة الأجسام و قوة التركيب و نفوذ الأبصار بحيث ينظرون ما شاءوا من النار و غيرها مما دونهم متى شاؤا. استانف قوله مشيرا إلى أن حاله هذا معلم أنه من أهل النار: ﴿ قال ﴾ أى هذا القائل لشربه هؤلاء الذين هم كما قال

(١) من ظ و م، و فى الأصل: جليسى (٢) زيد من م (٣) من م، و فى الأصل و ظ: له (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من ظ و م، و فى الأصل: باعنى (٦) سقط من ظ (٧) فى ظ: لمبعوثون (٨) فى الأصل بياض، ملأناه من م.

بعضهم

بعضهم فى موشح :

رب شرب كالعقد قد نظموا[1] فى ثياب طرازها الـكرم
فاغتنمت الهنا كما اغتنموا و ظننت الـكؤس بينهمو
أنجما فى سما الهناء ترى[2] كل نجم يغيب فى بدر

﴿ هل انتم مطلعون ﴾ أى شافون[3] قلبى بأن تتركوا ما أنتم فيه من تمام اللذة و تكلفوا أنفسكم النظر معى فى النار لتسرونى[4] بذلك .

و لما كان المحدث عنه المخلصين، و هم أهل الجنة كلهم أو جلهم، و كان الضمير يعود لما سبقه بعينه، و كان مخاطبو هذا القائل إنما هم[5] شربه، و كان من المعلوم مما مضى من التقابل و التواد و التواصل بالمنادمة و التساؤل أنهم ينتدبون[6] ندبهم إليه و يقبلون قطعا عليه، و كان النافع لنا إنما هو قوله فقط فى توبيخ عدوه و تغبيط نفسه و وليه، لم يجمع الضمير لئلا يلبس فيوهم أنه للجميع، و أعاده عليه وحده لنعتبر بمقاله، و نتعظ بما قص علينا من حاله فقال: ﴿ فاطلع ﴾ أى بسبب ما رأى لنفسه[7] فى ذلك من عظيم اللذة، إلى أهل النار ﴿ فرءاه ﴾ أى ذلك القرين السوء ﴿ فى سوآء الجحيم ﴾ أى[8] فى وسطها و غمرتها تضطرم عليه أشد اضطرام بما كان يضرم فى قلبه فى الدنيا من الحر كلما قال له ذلك المقال[9]،

---

(١) من ظ و م، و فى الأصل: تعلموا (٢) فى ظ و م: تسرو ـ كذا (٣) من م، و فى الأصل و ظ: شاقون (٤) العبارة من هنا إلى « من حاله فقال » ساقطة من م (٥) من ظ، و فى الأصل: هو (٦) من ظ، و فى الأصل: يفتديون (٧) من م، و فى الأصل وظ: نفسه (٨) سقط من ظ و م (٩) فى ظ: المقام.

و سمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب كمركز الدائرة ، ثم استأنف الإخبار عن مكافأته له بما كان من تقريعه و توبيخه على التصديق بالآخرة بقوله : ﴿ قال ﴾ أى لقرينه ذلك .

و لما كان لايقع فى فكر أنه [كان - [١]] يلتفت إلى قوله هذا نوع التفات لأنه ظاهر البطلان ، و لأن هذا القائل محكوم بأنه من أهل الجنة ، أكد قوله إشارة إلى أنه كان يؤثر فيه قوله فى كثير من الأوقات بما يزينه به[٢] الشيطان و تحسنه النفوس بالشهوات ، و الراحة من كلف الطاعات ، و ساقه فى أسلوب القسم تنبيها على التعجب من سلامته منه فقال : ﴿ تالله ﴾ و زاد التأكيد بعد ما علقه بالاسم الأعظم بالمخففة من المثقلة[٣] فقال : ﴿ ان كدت لتردين لا ﴾ أى إنك قاربت أن تهلكنى [٤]و تجعلنى[٤] فى اردأ ما يكون / من الأماكن ، و فى هذا التأكيد /٣٩٧ غاية الترغيب فى الثبات لمن كان قريبا من التزلزل و فى المباعدة لقرناء السوء .

و لما ذكر سوء ما كان [يأتى - [٥]] إليه ، ذكر حسن أثر الله سبحانه عنده ، فقال [٦]لافتا الكلام إلى صفة الإحسان لأنه مقامه[٦] : ﴿ و لو لا نعمة ربى ﴾ أى المحسن إلىّ بما ربانى به من تثبيتى عن أتباعك و التجاوز عنى فى مخالطتك ﴿ لكنت ﴾ [٦]كونا ثابتا[٦] ﴿ من المحضرين ﴾

(١) زيد من ظ و م (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : له (٣) فى م : الثقيلة .
(٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) زيد من م (٦ - ٦) سقط ما بين الرقمين من م .

أى المكرمين على حضور هذا الموطن[١] الضنك الذى أنت[٢] فيه[٣]، فيا لله ما أعظم إحسان هذه الآية فى التنفير[٤] من العشرة لقرناء السوء لأنها شديدة الخطر قبيحة الأثر، و لقد أبان نظره هذا عن أنه إن لم يكن أعلى لذة مما كان فيه فليس بأدنى منه، فانه لا شىء ألذ من رؤية العدو الماكر[٥] الذى طالما أحرق الأكباد و شوش الأفكار، فى مثل ذلك من الإنكار، و عظائم الأكدار، من غمرات النار.

و لما رأى ذاك فيما هو فيه من الجحيم، و رأى نفسه فيما هى فيه من النعيم، ما ملك نفسه أن قال كما يعرض لمن يكون فى شدة فيأتيه الفرج[٦] لجاءة فيصير كأنه فى منام أو أضغاث أحلام، لايصدق ما صار إليه سرورا: ﴿ افما ﴾ [أى أنحن يا إخوانى منعمون مخلدون فيتسبب عن ذلك أنا ما ﴿ نحن بميتين ۝ ﴾ أى بعد حالتنا هذه، و أكده لأن مثله لأجل نفاسته لا يكاد يصدق، ثم أعرق فى العموم بما هو معياره فقال: ﴿ الا موتتنا الاولى ﴾ أى التى كانت فى الدنيا. و لما ذكر نعمة الخلاص من الموت، ذكر نعمة الإنقاذ من الأكدار فقال: ﴿ و ما ﴾ - [٧]] ﴿ نحن ﴾ و أكد النفى فقال: ﴿ بمعذبين ۝ ﴾ .

و لما تذكر هذا فاستفزه السرور، و ازدهته[٨] الغبطة و الحبور،

---

(١) من م، و فى الأصل و ظ: الوطن (٢) سقط من ظ (٣) فى م: به.
(٤) فى ظ: التفسير (٥) من ظ وم، و فى الأصل: الهالك (٦) فى م: الفرح.
(٧) زيد ما بين الحاجزين من م (٨) من م، و فى الأصل: اذ رهبته، و فى ظ: اذهرته.

لم يملك نفسه أن قال فى أسلوب التأكيد لما له فى ذلك من النشاط لما[1] له من خرق العادة منبها على عظمته لتعظم[2] الغبطة : ﴿ان هذا﴾ أى الملك الذى نحن فيه ﴿ لهو ﴾ أى وحده ﴿ الفوز العظيم ۝ ﴾ أى الذى لاشيء يعدله . و لما دل هذا السياق على عظيم[3] ما نالوه، زاد فى تعظيمه بقوله : ﴿ لمثل هذا ﴾ أى الجزاء ﴿فليعمل العملون ۝﴾ أى لينالوه[4] فانهم يقتنون غنى لا فقر بعده بخلاف ما يتنافسون فيه و يتداجون عليه من أمور الدنيا، فانه مع سرعة زواله منغص بكدره و ملاله .

و لما فات الوصف هذا التشويق إلى هذا النعيم، رمى فى نعته رمية أخرى سبقت العقول و تجاوزت حد الإدراك و علت عن تخيل الوهم فى استفهام منفر من ضده بمقدار الترغيب[5] فيه لمن كان له لب فقال : ﴿ اذلك ﴾ الجزاء البعيد المنال البديع المثال ﴿ خير نزلا ﴾ فأشار بذلك إلى أنه إنما هو شيء يسير كما يقدم للضيف عند نزوله على ما لاح فى جنب ما لهم وراء ذلك مما لاتسعه العقول و لا تضبطه الفهوم : ﴿ام شجرة الزقوم ۝﴾ [اى -[6]] التى تعرفها بأنها فى غاية النتن و المرارة[7] . من قولهم : تزقم الطعام - إذا تناوله على كره و مشقة شديدة، و عادل بين ما[8] لا معادلة بينهما بوجه تنبيها على ذلك، و لأنهم[9] كانوا يرون

(١) من ظ و م، و فى الأصل : مما (٢) من م، و فى الأصل و ظ : لتعظيم . (٣) فى م : عظم (٤) من ظ وم، و فى الأصل : ينالوه (٥) من ظ وم، و فى الأصل : الشرغيب (٦) زيد من م (٧) من م، و فى الأصل و ظ : المراد . (٨) من ظ و م، و فى الأصل : من (٩) فى ظ : انهم .

ما

ما سبب ذلك من الأعمال خيرا من أعمال المؤمنين التي سببت لهم النعيم، فكأنهم كانوا يقولون: إن هذا العذاب خير من النعيم، فسيق ذلك كذلك توبيخا لهم [على -١] سوء اختيارهم٢.

و لما كان قد أخبر أن نباتها فى النار، فكان ذلك سببا لزيادة تكذيبهم لأن عدم إيمانهم كان سببا لضيق عقولهم، قال مؤكدا ردا على من يظن أنه سبحانه لا يفتن عباده لأنه غنى عن ذلك: ﴿انا جعلنها﴾ أى الشجرة بما لنا من العظمة ﴿فتنة للظلمين ﴾ أى الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها كمن هو فى الظلام بكونها عذابا لهم فى الآخرى و سببا لزيادة ضلالهم فى الدنيا، ولو وضعوها مواضعها لعلموا أن من جعل فى الشجر الأخضر نارا [لا -١] تحرقه يستخرجونها هم متى شاؤا [فيحرقون بها ما شاؤا -٣] من حطب و غيره قادر على أن ينبت فى النار شجرا٤ أخضر لا تحرقه النار٥، ثم نبه على أن محل الفتنة جعلها فيما ينكرونه، فقال تعالى مؤكدا لأجل إنكارهم معللا لجعلها فتنة تخالطهم فتحيلهم فى الدنيا بحرها و فى الآخرى بأثرها: ﴿انها﴾ [وحقق أمر نباتها بقوله -٣]: ﴿شجرة﴾ /و زاد٦ الأمر بيانا بقوله: ﴿تخرج﴾ و أكده بالظرف / ٣٩٨ فقال٧: ﴿فى اصل﴾ أى ثابت و قعر و معظم و قرار ﴿ الجحيم ﴾ أى النار الشديدة الاضطرام و فروعها ترتفع إلى دركاتها، ثم زاد ذلك وضوحا

(١) زيد من ظ وم (٢) من ظ وم، و فى الأصل: احتياجهم (٣) زيد من م.
(٤) فى ظ: شجر (٥) سقط من م (٦) من م، و فى الأصل و ظ: زادوا.
(٧) فى ظ: فقالوا.

و تصويرا بقوله : ﴿ طلعها ﴾ أى الذى هو مثل طلع النخل فى نموه ثم[1] تشققه عن[2] ثمره ﴿ كأنه رءوس الشيطين ۞ ﴾ فيما هو مثل عند المخاطبين فيه ، و هو القباحة التى بلغت النهاية ، و هذا المثل واقع فى أتم مواقعه سواء كان الشيطان عندهم اسما[3] للحية أو لغيرها ، لأن قبح الشياطين و ما يتصل بهم فى أنهم[4] شر محض لايخلطه خير مقرر فى النفوس ، و لهذا كان كل من استقبح منظر إنسان أو فعله يقول : كأنه شيطان ، كما انطبع فى النفوس حسن الملائكة و جلالتهم فشبهوا لهم الصور الحسان ، و لذلك[5] سمت العرب ثمر شجر يقال له الأستن بهذا الاسم ، و هو شجر خشن مر منتن منكر الصورة .

و لما أثبت أمرها بما هو فى غاية الفتنة[6] لها و اللطف للمؤمنين ، سبب عن الفتنة بها قوله ، رادا لإنكارهم أن يأكلوا مما لا يشتهونه[7] و مكذبا لما كانوا يدعون من المدافعة : ﴿ فانهم ﴾ أى بسبب كفرانهم بها و بغيرها [8]مما أمرهم[8] الله ﴿ لأ كلون منها ﴾ أى من هذه الشجرة من شوكها و طلعها و ما يريد الله بما يؤلم منها . و لما كانوا قد زادوا فى باب التهكم فى أمرها ، زاد التأكيد فى مقابلة ذلك بقوله : ﴿ فما لئون منها ﴾ [و من غيرها فى ذلك الوقت الذى يريد الله أكلهم منها ـ[9]] ﴿ البطون ۞ ﴾

(١) من ظ و م ، و فى الأصل « و » (٢) فى ظ : عنده (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : اسم (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : اسم (٥) من ظ و م ، و فى الأصل : كذلك (٦) من م ، و فى الأصل : السبب ، و فى ظ : الشتيه ـ كذا (٧) من ظ و م ، و فى الأصل : يشتهون (٨-٨) فى ظ و م : من أمر .
(٩) زيد من م .

قهرا على ذلك و إجبارا . و لما أحرق أكبادهم من [1]شديد الجوع[1] زيادة فى العذاب ، و لما جرت العادة بأن[2] الآكل المتنعم يتفكه بعد أكله بما يبرد غلة كبده، قال مشيرا إلى تناهى شناعة متفكههم، و طويل تلهبهم من عطشهم، بأداة التراخى و آلة[3] التأكيد [لما-[4]] لهم فى ذلك من عظيم الإنكار : ﴿ ثم ان لهم عليها ﴾ أى على أكلهم منها ﴿ لشوبا ﴾ أى خلطا عظيم الإحراق ﴿ من حميم ج ﴾ أى ماء حار كأنه مجمع من مياه من عصارات شتى من قيح و صديد و نحوهما[5] - نسأل الله العافية .

و لما كان ما ذكر للفريقين إنما هو النزل الذى مدلوله ما يكون فى أول القدوم على حين غفلة، و كانوا يوردون الحميم كما يورد الإبل الماء، [و-[6]] كان قوله تعالى "يطوفون بينها و بين حميم ان" [يدل-[4]] على أن ذلك خارجها أو خارج غمرتها، كما تكون الأحواض فى الحيشان خارج الأماكن المعدة للإبل، قال مبينا أن لهم ما هو أشد شناعة من ذلك ملوحا إليه بأداة التراخى : ﴿ ثم ان مرجعهم ﴾ أى بعد خروجهم من دار ضيافتهم [الزقومية -[4]] ﴿ لاالى الجحيم ﴾ أى ذات الاضطرام الشديد، و الزفير و البكاء و الاغتمام الطويل المديد، كما أن حزب الله يتقلبون من جنات النعيم إلى جنات المأوى مثلا إلى جنات[7] عدن إلى

(١ - ١) من م ، و فى الأصل و ظ : شدة الجزع زادهم (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : ان (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : اكد (٤) زيد من م . (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : نحوها (٦) زيد من ظ و م (٧) فى ظ : جانب .

الفردوس التى لا يبغون عنها حولا كما ينقل أهل[1] السعة و الأكابر من أهل الدنيا ضيوفهم فى البساتين المتواصلة و المناظر، و ينزهونهم فى القصور العالية و الدساكر .

و لما أخبر عن عذابهم[2] هذا، وكان سببه الجمود مع العادة الجارية على غير الحق، و التقيد بما ألفته النفس و مال إليه الطباع، مما أصّله من يعتقدون أنه أكبر منهم و أتم عقلا، علل ذلك تحذيرا من مثله[3] لأنه كان سبب هلاك أكثر الخلق، و أكده لأنهم ينكرون [ضلال ـ[4]] من أصّل لهم، فتلك[5] العوائد من آبائهم و غيرهم فقال: ﴿ انهم الفوا ﴾ أى وجدوا وجدانا ألفوه ﴿ اٰباءهم ضآلين ﴾ أى عريقين / فى الضلال، /٣٩٩
فما هم فيه لا يخفى على أحد أنه ضلال يتسبب عنه[6] النفرة عن صاحبه ﴿ فهم ﴾ أى [7]البعداء البغضاء[7] ﴿ على اٰثرهم ﴾ أى التى لا تكاد تبين لأحد[8] لخفاء مذاهبها[9] لوهيها و شدة ضعفها و انطماس معالمها، [لا على غيرها ـ[10]] ﴿ يهرعون ﴾ أى كأنهم يلجئهم ملجئ إلى الإسراع، فهم فى غاية المبادرة إلى[11] ذلك من غير توقف على دليل و لا استضاءة بحجة

---

(١) من م، و فى الأصل و ظ : الى (٢) من م ، و فى الأصل : اعدهم ، و فى ظ : اعدائهم (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : مثلهم (٤) زيد من ظ و م .
(٥) من م ، و فى الأصل و ظ : فهلك (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : منه .
(٧ ـ ٧) موضع ما بين الرقمين فى ظ : فيتسبب عنه النفرة أنهم ، و فى م : فتسبب عنه فى موضع النفرة أنهم (٨) سقط من ظ (٩) فى ظ : مذهبها .
(١٠) زيد من م (١١) زيد فى الأصل و ظ : غير ، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها .

بحيث

بحيث يلحق صاحب هذا الإسراع من شدة تكالبه عليه شيء[1] هو كالرعدة، و ذلك ضد توقفهم و جمودهم فيما أتاهم به رسولنا صلى الله عليه و سلم من شجرة الزقوم و غيرها مما هو فى غايـــة الوضوح و الجلاء، فامعنوا فى التكذيب به و الاستهزاء، و أصروا بعد قيام الدلائل، فكانوا كالجبال ثباتا على ضلالهم، و الحجارة الصلاب الثقال رسوخا فى لازب أوحالهم .

و لما كان النبى صلى الله عليه و سلم شديد المحبة لهداهم و الحزن على ضلالهم، و الأسف على غيهم و محالهم، و كان الضلال مع العقل أولا، ثم مع وجود الرسل الذين هم من الصدق و المعجزات و الأمور الملجئة إلى الهدى ثانيا كالمحال، سلاه سبحانه [بقوله - [2]] على سبيل التأكيد لزيادة التحقيق : ﴿و لقد ضل قبلهم﴾ أى قبل من يدعوهم فى جميع الزمان الذى تقدمهم ﴿اكثر الاولين﴾ بحيث أنه [3]لم يمض قرن[3] بعد آدم عليه السلام إلا وكله أو جله ضلال .

و لما كان ربما ظن أنه لعدم الرسل، نفى ذلك بقوله مؤكدا لنحو ذلك : ﴿و لقد ارسلنا﴾ أى على ما لنا من العظمة التى توجب الإتيان بما لا ريب فيه من البيان ﴿فيهم منذرين﴾ أى فأنذروهم بأس الله و بينوا لهم أحسن[4] البيان، و مع ذلك فغلب عليهم الضلال، و عناد أهل الحق بالمحال، حتى أهلكهم الله بما له من شديد[5] المجال، و هو معنى قوله :

---

(١) زيد فى ظ : ما (٢) زيد من ظ و م (٣-٣) من ظ و م، و فى الأصل : لم يخص قرنا (٤) من ظ و م، و فى الأصل : حسن (٥) من ظ و م، و فى الأصل : شدة .

﴿ فانظر ﴾ أى فتسبب عن الإرسال أنا فعلنا فى إهلاكهم من العجائب ما يستحق التعجيب به و التحذير من مثله بأن يقال لمن تخلف[1] عنهم: انظر ﴿ كيف ﴾ و لما كان ذلك عادة مستمرة لم تختلف أصلا قال: ﴿ كان عاقبة ﴾ أى آخر أمر ﴿ المنذرين ۙ ﴾ أى فى إنا أهلكناهم لتكذيبهم، فاصبر على الشدائد كما صبروا، و استمر على الدعاء بالبشارة و النذارة حتى يأتيك أمر الله .

و لما أفهم الحكم على الأكثر بالضلال أن الأقل على غير حالهم، نبه على حال الطائعين بقوله[2] مستثنيا من ضمير المنذرين: ﴿ الا عباد الله ﴾ أى الذين استخلصهم سبحانه بما له من صفات الكمال، فاستحقوا الإضافة إلى اسمه الأعظم ﴿ المخلصين ؏ ﴾ أى الذين أخلصهم له فأخلصوا هم أعمالهم فلم يجعلوا فيها شوبا لغيره .

و لما كان مقصود السورة التنزيه الذى هو الإبعاد عن النقائص، و لذلك كان أنسب الأشياء الإقسام أولها بالملائكة الذين هم أنزه الخلق، و كان أعلى الخلق من جرد نفسه عن الحظوظ بما يؤتيه الله من المجاهدات و المنازلات و المعالجات حتى يلحق بهم فيحوز مع فضلهم معالى الجهاد، فكان أحق الأنبياء بالذكر من كان أكثر تجريدا[3] لنفسه من الشواغل سيرا[4] إلى مولاه و تعريجا عن[5] كل ما سواه، وكان الأب

---

(١) من م ، و فى الأصل و ظ : يختلف (٢) فى ظ : بقولهم (٣) من م ، و فى الأصل : تحريا ، و فى م : تجرا (٤) من م ، و فى الأصل و ظ : مشيرا (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : على .

الثانى [من -[1]] أحقهم بذلك لأنه تجرد فى الجهاد بالدعاء إلى الله ألف عام ثم تجرد عن كل شىء/ على ظهر الماء بين الارض و السماء ، فقال ٤٠٠/ا تعالى مؤكدا لما تقدم من أنه [دعا -[2]] إلى التأكيد من أن مكثه[3] فى قومه المدة الطويلة مبعد لأن يكونوا وافقوه و مالوا معه و تابعوه ، و لأن فعل العرب فى التكذيب مع ترادف المعجزات و تواتر العظات عمل من هو مكذب بوقوع النصرة[4] للمرسلين و العذاب للمكذبين ، عطفا على ما تقديره : فقاسى الرسل[5] من الشدائد ما لاتسعه الأوراق ، و جاهدوهم بأنفسهم و التضرع إلى الله تعالى فى أمرهم : ﴿و لقد نادٰنا﴾ لما لنا من العظمة ﴿ نوح ﴾ بقوله "رب انى مغلوب فانتصر" و نحوه مما أخبر الله عنه[6] به بعد أمور عظيمة لقيها منهم من الكروب ، و الشدائد و الخطوب ، لنكشف عنه ما أعياه من أمرهم .

و لما أغنت هذه الجملة عن شرح القصة[7] و تطويلها ، و كان قد تسبب[8] عن دعائه إجابته ، قال بالتأكيد[9] بالاسمية و الإشارة إلى القسم و الأداة الجامعة لكل مدح و صيغة العظمة إلى أن هول عذابهم وعظم مصابهم بلغ إلى أنه مع شهرته لايكاد يصدق ، فهو يحتاج إلى اجتهاد كبير و شدة اعتناء ، فكانت الإجابة إجابة من يفعل ذلك و إن

(١) زيد من ظ و م (٢) زيد من م (٣) من م ، وفى الأصل و ظ : مكنه (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : المضرة (٥) من ظ و م ، و فى الأصل : المرسل .
(٦) من ظ و م ، وفى الأصل : عن (٧) من م ، و فى الأصل و ظ : القصيدة .
(٨) من م ، و فى الأصل و ظ : سبب (٩) زيد فى م : القسم .

كانت الأفعال بالنسبة إليه سبحانه على حد سواء، لاتحتاج إلى غير مطلق الإرادة: ﴿فلنعم المجيبون ۝﴾ أى كنا بما لنا من العظمة له و لغيره ممن كان نعم المجيب لنا[1]، هذه صفتنا[2] لاتغير لها.

و لما كان معنى هذا: فأجبناه إجابة هى النهاية فى استحقاق على الممادح من إيصاله إلى مراده من [3]حمله و حمل[3] من آمن به و الانتقام ممن كذبه كما هى عادتنا دائما، عطف عليه قوله: ﴿و نجينه﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿و اهله﴾ أى الذين وافقوه فى الدين ﴿من الكرب العظيم ۝﴾ و هو الأذى من الغرق[4] ﴿وجعلنا ذريته[5] هم﴾ أى خاصة ﴿البٰقين ۝﴾ لأن جميع أهل الأرض غرقوا فلم يبق منهم أحد أصلا، و أهل السفينة [لم –[6]] يعقب منهم أحد غير أولاده، فأثبناه على نزاهته[7] إن كان هو الأب الثانى، فالعرب و العجم أولاد سام، و السودان أولاد حام، و الترك و الصقالبة و يأجوج و ماجوج أولاد يافث، فكل من تبع سنته فى الخير كان له مثل أجره.

و لما ذكر أنه بارك فى نسله، أعلم[8] أنه أدام ذكره بالخير فى أهله فقال: ﴿و تركنا عليه[9]﴾ أى ثناء حسنا، لكنه حذف المفعول

---

(١) من م، و فى الأصل و ظ: اما (٢) من ظ و م، و فى الأصل: فنعتنا.
(٣) من ظ و م. و فى الأصل: عما و حمله (٤) من ظ و م، و فى الأصل: الكرب (٥) من ظ و م و القرآن الكريم و فى الأصل: ذريتهم (٦) زيد من ظ و م (٧) من ظ و م، و فى الأصل: نزاهة (٨) من م، و فى الأصل و ظ: علم (٩) ليس فى الأصل فقط.

و جعل

و جعله لازما، فصار المعنى: أوقعنا عليه الترك بشيء هو من عظمته و حسن ذكره بحيث يعز[1] وصفه ﴿فى الأخرين ﴿﴾﴾ أى كل من تأخر عن زمانه إلى يوم الدين . و لما كان قد كتب الله فى القدم سلامته من كل سوء على كثرة الأعداء و طول الإقامة فيهم و شدة الخلاف قال تعالى مستأنفا مادحا: ﴿سلم﴾ أى عظيم ﴿على نوح﴾ من كل حي من الجن و الإنس و الملائكة لسلام الله عليه . و لما كان لسان جميع أهل الأرض فى زمانه عليه السلام واحدا، فكانوا كلهم قومه، و لم يكن فى زمانه نبي، فكانت نبوته قطب دائرة ذلك الوقت، فكانت رسالته عامة لأهله، و كان غير الناس من الخلق لهم تبعا، خصه فى السلام بأن قال: ﴿فى العلمين ﴿﴾﴾ أى مذكور فيهم كلهم لفظا[2] و معنى يسلم عليه دائما إلى أن تقوم الساعة، و خصوصية نبينا صلى الله عليه و سلم بأنه أرسل إلى جميع الخلق مع اختلاف الألسنة و مع استمرار الرسالة أبد الآباد، و كون شريعته ناسخة غير منسوخة، و كون جميع الخلق فى القيامة تحت لوائه، فهناك يظهر تمام ما أوتيه من عموم[3] البعثة إلى ما ظهر منه فى الدنيا .

و لما كان التقدير: فعلنا به ذلك لإحسانه، و كان الضالون ينكرون أن تنجو الدعاة إلى الله و أتباعهم منهم، أخبر فى / سياق التأكيد أنه ‎/401‎
يفعل بكل محسن ما فعل به فقال: ﴿انا﴾ أى على عظمتنا ﴿كذلك﴾

(1) من ظ و م، و فى الأصل: يعد (2) من ظ و م، و فى الأصل: لفا (3) من م، و فى الأصل و ظ: عظيم .

أى مثل ذلك الجزاء بالــذكر الحسن و النجاة من كل سوء ﴿ نجزى المحسنين ۝ ﴾ أى الذين يتجردون من الظلمات النفسانية إلى الأنوار الملكية [بحيث -[1]] لايغفلون عن المعبود، و لاينفكون لحظة عن الشهود.

و لما أفهمت هذه الجملة - و لابد - إحسانه إلى المحسن، علل ما أفهمته بقوله، مؤكدا إظهارا للاقبال عليه بأن ذكره مما[2] يرغب فيه، و تكذيبا لمن كذبه: ﴿انه من عبادنا﴾ أى الذين هم أهل لأن نضيفهم إلى مقام عظمتنا ﴿المؤمنين ۝﴾ أى الراسخين فى هذا الوصف، المتمكنين فيه، فعلم أن الإيمان هو المراد الأقصى من الإنسان لأنه علل الإنجاء بالإحسان و الإحسان [بالبيان -[3]]. و لما أفهم تخصيص ذريته بالبقاء إهلاك غيرهم، و قدم ما هو أهل له من مدحه اهتماما به و ترغيبا فى مثله، أخبر عن أعدائه بأنه أوقع بهم لأنهم لم يتحلوا[4] بما كان سبب سعادته من الإيمان بقوله، مشيرا إلى العظمة التى أوجدها سبحانه فى إغراقهم[5] بأداة التراخى: ﴿ثم اغرقنا﴾ أى بما لنا من العظمة التى لايقوم لها شيء ﴿الأخرين ۝﴾ أى الذى غاروه [6]فى الأقوال و الأفعال[6] فاستحقوا أضداد[7] أفعالنا معه و هم أهل الأرض كلهم غير أهل السفينة و كلهم

(١) زيد من ظ و م (٢) من م، و فى الأصل و ظ: ما (٣) زيد من م، و فى ظ: بالإيمان (٤) من م، و فى الأصل و ظ: لم ينحلوا (٥) من م، و فى الأصل و ظ: اعترافهم (٦ - ٦) من م و ظ، و فى الأصل: بالافعال و الاقوال (٧) سقط من ظ.

قومه كما هو ظاهر الآيات إذا تؤمل تعبيرها عن الدعوة و الإغراق و دعائه عليه السلام عليهم، و ظاهر ما رواه الشيخان و غيرهما عن أنس رضى الله عنه فى حديث الشفاعة أن الناس يقولون: ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله إلى [أهل -[1]] الأرض. و إنما كانوا قوما لا أكثر، لأنهم كانوا على لسان واحد قبل بلبلة[2] الألسن باتفاق أهل التأريخ، و ذلك كما أن العرب يطلق عليهم [كلهم - [1]] على انتشارهم و اتساع بلادهم أنهم قوم، لاجتماعهم فى اللسان مع أنهم قبائل لا يحصيهم العد، و لا يجمعهم نسب واحد إلا فى إسماعيل عليه السلام، و قيل فيما فوقه، فان النسابين أجمعوا على أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، [قالوا: هو من ولد عدنان -[3]]، و اختلفوا فى [4]قحطان أبى اليمن و كذا ثقيف، فقيل: هما من ولد إسماعيل عليه السلام، و قيل لا، ثم من قال: إن ثقيفا من ولد إسماعيل عليه السلام، قالوا: هو من ولد عدنان، و قال بعضهم: لا، ثم إن من ولد عدنان ربيعة و مضر، و من دون مضر كنانة و هذيل و القارة و خزاعة و [4] أسد و تميم [4] و مزينة و الرباب و ضبة و قيس [و - [5]] دون ذلك باهلة و أشجع و فزارة و كنانة و قريش و خلائق، و من دون ربيعة بكر بن وائل و غيرهم، و من دون ذلك شيبان و عبد القيس و النمر و خلائق، و دون قحطان أبى اليمن لخم و جذام و عائلة[6] و غسان و كندة و همدان و الأزد[7]، و منهم الأنصار و خلائق غير ذلك،

(١) زيد من م (٢) من م، و فى الأصل و ظ: تلبله (٣) زيد من ظ.
(٤-٤) من ظ و م، و فى الأصل: ما دونهم (٥) زيد ظ و م (٦) فى م: عالة.
(٧) من ظ و م، و فى الأصل: الاسد.

فهؤلاء كلهم - على هذا التشعب و الانتشار و الاختلاف[١] [٢]فى الأديان، بل و فى بعض اللغة - يسمون أمة واحدة و قوما لجمع اللسان لهم فى أصل العربية، و بنو إسحاق ليسوا منهم بلا خلاف، مع أنهم أولاد عمهم لمخالفتهم لهم فى اللسان على أنهم أقرب من قحطان و ثقيف فى النسب عند من قال إنهم ليسوا من ولد إسماعيل عليه السلام، [وكذا بنو إسحاق عليه السلام -[٣]] افترقوا بافتراق اللسان، فبنو[٤] إسماعيل قوم، و بنو الغيص - و هم الروم - قوم، وكذا سائر الأمم إنما يفرق بينهم اللسان، و عموم دعوته لبنى آدم عليه السلام على هذا الوجه لايقدح فى خصوصية نبينا صلى الله عليه و سلم بعموم الدعوة و الإرسال إلى غير

٤٠٢/ / قومه، أما العموم فانه أرسل إلى كل من ينوس من الإنس و الملائكة و الجن، و أما دعاء الأقوام فالمراد أنه أرسل إلى الموافق فى اللسان و المخالف فيه، و أما غيره فما أرسل إلى من خالفه فى اللسان و لا إلى غير جنسه و إن كان يندب له أنه يأمر المخالفين فى اللسان و ينهاهم من باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من غير وجوب، و لو سلمنا فى نوح عليه السلام أنه لم يبعث إلى جميع[٥] أهل الأرض انتقض بآدم[٦] عليه السلام فانه نبي مرسل، كما روى ذلك الإمام أحمد و أبو داود الطيالسى و محمد بن يحيى بن أبى عمر و أبو بكر بن أبى شيبة و الحارث

(١) من م، و فى الأصل و ظ : اختلاف (٢) زيد فى الأصل : الاوان و فى؛ و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها (٣) زيد من م (٤) من ظ و م؛ و فى الأصل : بنو (٥) سقط من ظ (٦) فى ظ : بنوح .

ابن أبى أسامة و أبو يعلى الموصلى و إسحاق بن راهويه فى مسانيدهم و الطبرانى فى معجمه الأوسط عن أبى أمامة الباهلى و أبى ذر رضى الله عنهما و فى بعض طرق أبى ذر التصريح بالإرسال و لايشك أحد أنه كان رسولا إلى جميع من أدركه من أولاده، و هم جميع أهل الارض، و كذلك نوح عليه السلام لايشك أحد أنه كان بعد الغرق رسولا إلى جميع أهل السفينة كما كان قبل ذلك، و هم جميع أهل الأرض، فما قدمت من أن الخصوصية بالإرسال إلى ذوى الألسن المختلفة من جميع بنى آدم، و إلى المخالف فى الجنس من كل من ينوس هو المزيل للاشكال - و الله الموفق.

و لما كان لإبراهيم عليه السلام من التجرد عن النعوت البشرية و العلائق النفسانية إلى الأحوال الملكية ما لم يكن لمن بينهما من النبيين من المصارحة بالمعارضة لقومه، و الإبلاغ فيها بكسر الأوثان، و توهية مذهب الكفران، و الانفراد عما سوى الله فى غمرات النيران، حتى عن الدعاء بقلب أو لسان فناء عن جميع الأكوان، ثم بالهجرة عن الأوطان، [ثم -[1]] بالخروج عن الأحباب[2] و الأخوان، بوضع ابنه بكره و سريته فى ذلك المكان، الذى ليس به إنس و لاجان، ثم بمعالجة ذبحه بأتم قوة و أقوى جنان. ثم ببناء البيت ذوى الأركان، قبلة للتجردين من أهل الإيمان فى كل أوان، عما سوى الملك الديان[3]، يصفون عند كل

(١) زيد من م (٢) زيد فى الأصل: كذلك، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيدت الواو فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م فحذفناها.

صلاة مثل صفوف الملائكة الكرام ، و كان موافقا لنوح عليه السلام مع ما تقدم فى البركة فى نسله بحيث أنهم قريب نصف أهل الأرض[1] الآن ، و كان أشهر أمره فى النار التى هى [ضد -[2]] أشهر أمر نوح عليه السلام فى الماء ، تلاه به فقال مؤكدا إظهارا أيضا لما له من الكرامة و المنزلة العالية فى الإمامة ، المقتضية للنشاط فى الثناء عليه ، المنبهة على ما ينبغى من إتمام العزم فى متابعته ، و تكذيبا لمن ادعى أنه ابتدع و خالف من كان قبله : ﴿و ان من شيعته﴾ [أى -[2]] الذين خالط سره سرهم و وافق[3] أمره أمرهم ، فى التصلب فى الـــدين و المصابرة للفسدين ﴿ لابرٰهيم ۘ﴾ ثم علق بمعنى المشايعة بيانا لما كانت به المتابعـــة قوله على تقدير سؤال من قال : متى شايعه ؟ : ﴿اذ﴾ أى حين[4] ﴿جآء ربه﴾ أى المحسن فى تربيته ﴿بقلب سليم ۝﴾ أى بالغ السلامة عن حب غيره ، و المجىء مجاز عن الإخلاص الذى لاشائبة فيه كما أن الآتى إليك لايكون شىء من بدنه عند غيرك ، ثم أبدل من ذلك ما هو دليل عليه فقال : ﴿ اذ قال لابيه ﴾ أى الذى هو أعظم الناس عنده و أجلهم فى عينه و أعزهم لديه ﴿ و قومه ﴾ أى الذين لهم من القوة و الجدود ماتهابهم به الأسود : ﴿ماذا ﴾ أى ما الذى ﴿تعبدون ۚ ﴾ تحقيرا لأمرهم و أمر معبوداتهم منبها على أنه لا علة لهم فى الحقيقة تحمل على عبادتها / غير ٤٠٣ /

---

(١) سقط من م (٢) زيد من ظ و م (٣) من م ، و فى الأصل وظ : خالط .

(٤) زيد فى الأصل و ظ : اذ ، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها .

مكترث بكثرتهم و لا هائب لقوتهم و لا مراع لميل الطبع البشرى إلى مودتهم .

و لما لوح لهم بالإنكار، صرح فقال مقدما للفعول تخصيصا: ﴿ ائفكا ﴾ أى صرفا للحق عن وجهه إلى قفاه . و لما جعل معبوداتهم نفس[1] الإفك، أبدل منه قوله: ﴿ ءالهة ﴾ ثم حقر شأنهم بقوله: ﴿ دون الله ﴾ أى الذى لا كفوء له ﴿ تريدون ﴾ و لما كان قد غلب عليه الشهود عند تحقيره لهم، سبب عن ذلك تهديدا على فعلهم عظيما، فقال مشيرا إلى أنه يكفى العاقل فى النهى ظن[2] العطب: ﴿ فما ظنكم ﴾ و لما كان كفران الإحسان شديدا، ذكرهم باحسانه حافظا لسياق التهديد بالإشارة إلى أنه يكفى فى ذلك الخوف من قطع الإحسان فقال: ﴿ برب العلمين ﴾ أى الذى توحد بخلق جميع الجواهر و الأعراض و تربيتهم فهو مستحق لتوحيدهم إياه فى عبادتهم، أتظنون أنه لايعذبكم و قد صرفتم ما أنعم به عليكم إلى عبادة غيره، إشارة إلى[3] إنكار تجويز مثل هذا، و أن المقطوع به أن محسنا لايرضى بدوام إدرار إحسانه إلى من ينسبه إلى غيره .

و لما أفهم السياق شدة عداوته صلى الله عليه و سلم للشركاء، وكان الله تعالى قد أجرى عادته بأن جعل فى النجوم أدلة على بعض المسائل الظنية[4] لاسيما البحرانات [5]فى أنواع[5] الأسقام، وكان أهل تلك البلاد

(١) فى ظ : بنفس (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : عن (٣) زيد فى الأصل و ظ : ان ، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها (٤) من م ، و فى الأصل و ظ : الطيبة (٥-٥) من ظ و م ، و فى الأصل : بانواع .

- و هم الكسدانيون كما تقدم فى الأنعام [و - [1]] كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما و كما دلت عليه كتب الفتوحات - من أشد الناس نظرا فى النجوم و الاستدلال[2] بها على أحوال هذا العالم فى بعض ما كان و بعض ما يكون ، و [كان - [3]] صلى الله عليه وسلم يريد أن يتخلف عن الذهاب معهم إلى المحل الذى يجتمعون فيه للعيد ليكسر الأصنام و يريد إخفاء وقت الكسر عليهم ليتمكن من ذلك ، قال تعالى حاكيا عنه مشيرا إلى ذلك بالتسبب عما مضى : ﴿ فنظر نظرة ﴾ أى واحدة ﴿ فى النجوم ﴾ حين طلبوا [منه - [1]] أن يخرج معهم إلى عيدهم لئلا ينكروا تخلفه عنهم موهما لهم أنه استدل بتلك النظرة على مرض باطنى يحصل له ، لأنهم ربما أنكروا كونه مريضا إذا أخبرهم بغير النظر فى النجوم لأن الصحة ظاهرة عليه ﴿ فقال ﴾ أى عقب هذه النظرة موهما أنها[4] سببه .

و لما كان بدنه صحيحا فكان بصدد أن يتوقف فى خبره ، أكد فقال : ﴿ انى سقيم ﴾ فأوهم أن مراده أنه مريض [5]الجسد و أراد أنه مريض[5] القلب بسبب آلهتهم ، مقسم الفكر فى أمرهم لأنه يريد أمرا عظيما و هو كسرها ، و مادة " سقم " بتقاليبها الخمسة : سقم سمق قسم قمس مقس ، تدور على القسم ، فالسقام[6] كسحاب و جبل و قفل : المرض ، أى

(١) زيد من ظ و م (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : الاستدلالات (٣) زيد من م (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : انه (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ .
(٦) راجع القاموس .

لأنه

لأنه يقسم القوة و الفكر ، و قال ابن القطاع[١] : سقم : طاوله المرض . و قسمه : جزأه ، و الدهر القوم : فرقهم ، و القسم - بالكسر : النصيب ، و القسم أى بالفتح : العطاء ، و لايجمع ، و الرأى و الشك و العيب[٢] و الماء و القدر و الخلق و العادة ، و يكسر فيهما ، و التفريق ظاهر فى ذلك كله ، أما العطاء فيفرق المال و يقسمه ، و الرأى يقسم الفكر ، و الشك كذلك ، و العيب يقسم العرض ، و الماء فى غاية ما يكون من سهولة القسم ، و القدر يفصل صاحبه من غيره ، و كذا / الخلق و العادة ، و المقسم كمعظم : /٤٠٤ المهموم[٣] - لتوزع فكره[٤] ، و الجميل - لأنه يقسم القول فى وصفه ، و القسم محركة : اليمين بالله ، و قد أقسم ، أى أزال تقسيم الفكر ، و القسامة : الحسن - لأنه يوزع فكر الناظر ، و [٥]جونة العطار[٥] - كذلك لطيب ريحها ، و القسام - كسحاب : شدة الحر - لأنها تزعج الفكر فتقسمه ، أو هو أول وقت الهاجرة أو وقت ذرور الشمس ، و هى حينئذ أحسن ما تكون مرآة - فيقسم الفكر فيها لحسنها إذ ذاك و ما يطرأ عليها بعده . و القمس : الغوص - لأن الغائص قسم الماء بغوصه ، و القمس أيضا اضطراب الولد فى البطن لأنه يقسم الفكر ، و يكاد أن يقسم البطن باضطرابه ، و القاموس : معظم البحر[٦] - لأن البحر قسم الأرض ، و معظمه

---

(١) راجع كتاب الأفعال ٢ / ١٤٩ (٢) فى القاموس : الغيث (٣) من م و القاموس ، و فى الأصل و ظ : الهموم (٤) من م ، و فى الأصل و ظ : الفكرة (٥-٥) من ظ و م والقاموس ، و فى الأصل : حوته العطا و - كذا .
(٦) فى القاموس : معظم ماء البحر .

أحق بهذا الاسم، و القوامس: الدواهي - لتقسيمها الفكر، و انقمس النجم: غرب، أي أخذ قسمه من الغروب كما أخذه من الشروق، أو أزال التقسيم بالسير. و مقسه في الماء: غطه - فانقسم الماء بغمسه فيه، و القربة: ملأها، فصير[1] فيها من الماء ما يسهل قسمه، و أخذه[2] الماء الذي وضعه فيها تقسيم للماء المأخوذ منه، و مقس الشيء: كسره، و الماء: جرى - فانقسم و قسم الأرض، و هو يمقس الشعر كيف شاء، أي يقوله فيقسمه من باقي الكلام، و التقميس[3] في الماء: الإكثار من صبه: فان ذلك تقسيم له، و سمق سموقا: علا و طال فصار بطوله يقبل من القسمة ما لا يقبله ما هو دونه.

و لما فهموا[4] عنه ظاهر قوله، و ظنوا فيه ما يظهر من حاله، و لكنهم لم يسعهم لعظمته فيهم إلا التسليم، تركوه فقال تعالى مسببا عن قوله مشيرا إلى استبعادهم مرضه بصيغة التفعل: ﴿ فتولوا ﴾ أي عالجوا أنفسهم و كلفوها أن انصرفوا ﴿عنه﴾ [إلى محل اجتماعهم و إقامة عيدهم[5]] و أكد المعنى و نص عليه بقوله: ﴿ مدبرين ه ﴾ [أي -[6]] إلى معبدهم فخلا له الوقت من رقيب ﴿فراغ﴾ أي ذهب في خفية برشاقة و خفة، و نشاط و همة، قال البيضاوي: و أصله الميل بحيلة ﴿ الى الهتهم ﴾ أي أصنامهم التي زعموها آلهة، و قد وضعوا عندها طعاما، فخاطبها مخاطبة من يعقل لجعلهم إياها بذلك في عداد من يعقل ﴿فقال﴾ منكرا عليها

(١) من ظ و م، و في الأصل: و صير (٢) من ظ و م، و في الأصل: اخذ.
(٣) من القاموس، و في الأصول: التقمس (٤) من م، و في الأصل و ظ: انهموا (٥) زيد من م (٦) زيد من ظ و م.

متهكما بها ظاهرا و موبخا لقومه حقيقة: ﴿الا تاكلون ج﴾ ثم زاد فى إظهار الحق و الاستهزاء بانحطاطها عن رتبة عابديها فقال: ﴿ما﴾ أى أى شىء[1] حصل ﴿لكم﴾ فى أنكم ﴿لا تنطقون ہ﴾.

و لما أخبر تعالى أنه أظهر ما يعرفه باطنا من الحجة فقال: ﴿فراغ﴾ أى سبب[2] عن إقامته[3] الحجة أنه أقبل مستعليا ﴿عليهم﴾ بغاية النشاط و الخفة و الرشاقة يضربهم ﴿ضربا باليمين ہ﴾ أى بغاية القوة، و جعل السياق للصدر إشارة إلى قوة الهمة بحيث صار كله ضربا. و لما تسبب عن ذلك أنهم لما علموا بكسرها ظنوا فيه لما كانوا يسمعونه منه من ذمها و حلفه بانه ليكيدنها فأتوه، أخبر عن ذلك بقوله مسببا: ﴿فاقبلوآ﴾ و دل على أنه من مكان بعيد [بقوله - [4]]: ﴿اليه يزفون ہ﴾ أى يسرعون، و قراءة حمزة[5] بالبناء للفعول أدل على شدة الإسراع لدلالتها على أنهم جاؤا على حالة كان حاملا يحملهم فيها على الإسراع و قاهرا يقهرهم[6] عليه من شدة ما فى نفوسهم من الوجد.

و لما كان من المعلوم أنهم كلموه فى ذلك فطال كلامهم، و كان تشوف[7] النفس إلى جوابه أكثر، استأنف الخبر عنه فى قوله: ﴿قال﴾ غير هائب لهم و لا مكترث بهم لرؤيته لهم فانين منكرا عليهم: ﴿أتعبدون﴾ و ندبهم بالمضارع إلى التوبة و الرجوع إلى الله، و عبر بأداة ما لا يعقل

(١) سقط من ظ (٢) من م، و فى الأصل و ظ: تسبب (٣) من م، و فى الأصل و ظ: اقامة (٤) زيد من ظ و م (٥) راجع نثر المرجان ٦/٣٧. (٦) من ظ و م، و فى الأصل: يقرهم (٧) من ظ و م، و فى الأصل: تشوق.

٤٠٥ / كما هو الحق فقال : ﴿ ما تنحتون ﴾ أى إن كانت / العبادة تحق لأحد غير الله فهم أحق أن يعبدوكم لأنكم صنعتموهم و لم يصنعوكم . و لما كان المتفرد بالنعمة هو[1] المستحق للعبادة ، و كان الإيجاد من أعظم النعم ، و كان قد بين أنهم إنما عبدوها لأجل عملهم الذى عملوه فيها فصيرها إلى ما صارت إليه من الشكل ، قال تعالى مبينا أنه هو وحده خالقهم و خالق أعمالهم التى ما عبدوا فى الحقيقة إلا هى ، و أنه لا مدخل لمنحوتاتهم فى الخلق فلا مدخل لها فى العبادة : ﴿ و الله ﴾ أى و الحال أن الملك الأعظم الذى لا كفوء له ﴿ خلقكم ﴾ أى أوجدكم على هذه الأشكال ﴿ و ما تعملون ﴾ أى و خلق عملكم و معمولكم ، فهو المتفرد بجميع الخلق من الذوات و المعانى ، و معلوم أنه لا يعبد إلا من كان كذلك لأنه لا يجوز لعاقل أن يشكر على النعمة إلا ربها .

و لما كان السامع يعلم أنهم[2] لابد و أن لا يجيبوه بشيء ، فتشوف إلى ذلك ، أجيب بقوله : ﴿ قالوا ابنوا له ﴾ أى لأجله ﴿ بنيانا ﴾ أى من الأحطاب حتى [تصير - [3]] كالجبل العظيم ، فأحرقوها حتى يشتد لهبها جدا فيصير جحيما ﴿ فالقوه فى ﴾ ذلك ﴿ الجحيم ﴾ أى معظم النار ، هى [على - [3]] أشد ما يكون إيقادا .

و لما كان هذا مسببا عن إرادتهم لإهانته قال : ﴿ فارادوا به ﴾ أى إبراهيم عليه السلام بسبب هذا الذى عملوه ﴿ كيدا ﴾ أى تدبيرا

(١) من ظ و م ، و فى الأصل « و » (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : أنه .
(٣) زيد من ظ و م .

يبطل

يبطل أمره ليعلوا أمرهم و لا يبطل بما أظهر من عجزهم دينهم ﴿ فجعلنهم ﴾ أى بعظمتنا بسبب عملهم ﴿ الاسفلين ﴾ المقهورين بما أبطلنا من نارهم و جعلناها عليه بردا و سلاما بضد[1] عادتها فى العمل، فنفذ عملنا[2] و هو خارق للعادة و بطل عملهم[3] الذى هو [على -[4]] مقتضى العادة، فظهر عجزهم فى فعلهم كما ظهر عجزهم فى قولهم، بما أظهرناه من الحجة على لسان خليلنا عليه السلام، و ظهرت قدرتنا [و اختيارنا -[4]]، و إنما فسرت الكيد بما ذكرت لأنه المكر و الخبث و الاحتيال و الخديعة و التدبير بحق أو باطل و الحرب و الخوف، فكل هذه المعانى - كما ترى - تدور على التدبير و إعمال الفكر و إدارة الرأى.

و لما كان التقدير: فأجمع النزوح[5] عن بلادهم لأنهم عدلوا عن الحجة إلى العناد[6]، عطف عليه قوله: ﴿ و قال ﴾ أى إبراهيم عليه السلام لمن يتوسم فيه أن كلامه يحييه من موت الجهل مؤكدا لأن فراق الإنسان لوطنه لايكاد يصدق به[7]: ﴿ انى داهب ﴾ أى مهاجر من غير تردد، [قالوا -[8]]: و هو أول من هاجر من الخلق ﴿ الى ربى ﴾ أى [إلى -[8]] الموضع الذى أمرنى المحسن إلىّ بالهجرة إليه، فلا[9] يحجر علىّ[9] أحد فى عبادته فيه.

---

(١) من م، و فى الأصل و ظ: بصد (٢) من م، و فى الأصل و ظ: علمنا.
(٣) من ظ و م، و فى الأصل: علمهم (٤) زيد من م (٥) من ظ و م، و فى الأصل: البروح (٦) فى ظ: عناد (٧) فى ظ: فيه (٨) زيد من ظ و م.
(٩-٩) من ظ و م، و فى الأصل: يحجزنى.

و لما كان حال سامعه جديرا بأن[1] يقول[2] : من لك بالمعرفة بما يحصل قصدك هذا من التعريف بالموضع و بما تفعل فيه مما يكون به الصلاح ، و ما تفعل فى التوصل إليه ؟ قال : ﴿سيهدين﴾ أى إلى جميع ذلك بوعد لاخلاف فيه إلى كل ما فيه تربية [لى -[3]] فى أمر الهجرة لأنه أمرنى بها ، و هو لا يأمر بشىء إلا نصب عليه دليلا يهدى إليه ، و يسهل لقاصده المجتهد فى أمره سبيله ، و قد اختلفت العبارات[4] عن سير الأصفياء إلى الحضرات القدسية ، فهذه العبارة[5] عن أمر الخليل عليه السلام ، و عبر عن أمر الكليم عليه السلام بقوله "و لما جاء موسى لميقاتنا" و عن أمر الحبيب[6] عليه السلام بقوله " سبحٰن الذى اسرىٰ بعبده " قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى و فصل بين هذه المقامات : إبراهيم عليه السلام كان بعين الفرق - يعنى أنه بعد ما كان فيه من الجمع حين كسر الأصنام من الفناء عما سوى الله رجع إلى حال الفرق لأنه لابد من ذلك - و موسى / عليه السلام بعين الجمع لأنه أخبر عن فعله من غير ٤٠٦ /
أن ينسب إليه قولا ، ثم أخبر أنه قال " رب ارنى " فلم ير غيره سبحانه فطلب أن يريه و هذا هو الفناء ، و نبينا صلى الله عليه و سلم [بعين -[3]] جمع الجمع - لأنه لم ينسب إليه قول و لا فعل ، بل هو المراد إلى أن قال " لنريه من اٰيٰتنا " فهذا هو الفناء حتى عن الفناء ، ثم قال : " انه هو

---

(١) من ظ وم ، و فى الأصل : بمن (٢) زيد فى الأصل وظ : لك ، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها (٣) زيد من ظ و م (٤) فى ظ : العبارة (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : العبارات (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : الخليل .

السميع البصير»، فأثبت له مع ذلك الكمال .

و لما لم يجد له معينا على الهجرة غير لوط ابن[١] أخيه عليهما السلام، قال مناديا مناداة[٢] الخواص باسقاط الأداة: ﴿ رب ﴾ أى أيها المحسن إلى ﴿هب لى من ﴾ أى ولدا من ﴿ الصٰلحين ۝ ﴾ و أسقط[٣] الموصوف لأن لفظ الهبـــة غلب فى الولد، فتسبب عن دعوته أنا استجبناها له ﴿ فبشرنٰه بغلٰم ﴾ أى بذكر فى غاية القوة التى[٤] ينشأ عنها الغلمة .

و لما كان هذا الوصف ربما أفهم الطيش، وصفه بما أبقى صفاءه و نفى كدره فقال: ﴿ حليم ۝ ﴾ أى لا يعجل بالعقوبة مع القدرة، لأنه فى غاية الرزانة و الثبات، فيكون ذلك إشارة إلى حصول [بلاء -[٥]] ما يتبين[٦] به أنه سر[٧] أبيه أن إبراهيم لحليم، و الحلم لا يكون إلا بعد العلم، و رسوخ العلم سبب لوجود الحلم، و هو اتساع الصدر لمساوئ الخلق و مدانئ[٨] أخلاقهم، و هذا الولد هو إسماعيل عليه السلام بلا شك لوجوه[٩]: منها وصفه بالحليم، و وصف إسحاق عليه السلام فى سورة الحجر بالعليم، و منها أن هذا الدعاء عند الهجرة حيث كان شابا يرجو الولد، و هو بكره الذى ولد له بهذه البشرى، و هو[١٠] الذى كان بمكة موضع الذبح، فجعلت

---

(١) تكرر فى الأصل فقط (٢) من م، و فى الأصل و ظ: باداة (٣) زيد فى الأصل و ظ: لفظ، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها (٤) من ظ و م، و فى الأصل: الذى (٥) زيد من م (٦) من ظ، و فى الأصل و م: يبين (٧) من م، و فى الأصل و ظ: اسر (٨) من م، و فى الأصل و ظ: معانى (٩) فى الأصول: وجوده (١٠) من ظ و م، و فى الأصل: هذا .

أفعاله فى ذبحه مناسك للحج فى منى كما جعلت أفعال أمه فى مكة المشرفة أول أمره عند ما أشرف على الموت من العطش مناسك و معالم هناك ، و أما إسحاق عليه السلام فأتته البشرى فجاءة و هو لايرجو الولد لكبره و يأس إمرأته ، و لذلك [راجع - ١] فى أمره و لم[٢] ينقل أنه فارق أمه من بيت المقدس ، و لو كان هو الذبيح لذكره النبى صلى الله عليه و سلم بوصفه حين سئل عن الأكرم[٣] فقال : يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله بن خليل الله ، و الرواية التى وردت بالإشارة إلى أنه الذبيح ضعيفة ، بل صرح[٤] شيخنا ابن حجر فى تخريج أحاديث الكشاف بأن فى سندها وضاعا[٥] ، و لأن هذه السورة سورة التنزيه ، فأحق الناس بالذكر فيها - كما سلف - أعرق الناس فى قدم التجريد ، و هو أولى الناس بذلك من حين كان حملا إلى أن عولج ذبحه ، و لم يذكر ظاهرا ، فلو لم يكن المراد بهذا الكلام لكان ترك فى هذه السورة - التى حالها هذا - من هو أرسخ الناس فى الوصف المقصود بها ، و ذلك خارج عن نهج البلاغة التى هى مطابقة المقال لمقتضى الحال ، بل هذا الحال لا يقتضى ذكر إسحاق عليه السلام ، لأنه لم[٦] يعلم له تجرد متفق عليه ، و ما كان ذكره إلا لبيان جزاء إبراهيم عليه السلام لما اقتضاه مقامه فى الإحسان فى باب التجريد و الفناء - و الله الموفق .

---

(١) زيد من ظ و م (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : لو (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : الاكرام (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : جرح (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : وضعا (٦) من م ، و فى الأصل و ظ : لا .

و لما كانت[١] البشرى من الله لاتتخلف ، كان التقدير : فولد له غلام كما قلنا ﴿ فلما بلغ ﴾ أن[٢] يسعى كائنا ﴿ معه ﴾ أى مع أبيه خاصة [و -[٣]] مصاحبا له ﴿ السعى ﴾ الذى يرضى به الأب و يوطن نفسه عنده على الولد و يثق به ، و لايتعلق مع مبلغ لاقتضائه بلوغهما[٤] معا حد السعى ، و لا معنى لذلك فى حق إبراهيم عليه السلام و لابالسعى ، لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه ، و لو أخر عنه لم يفد الاختصاص المفهم[٥] لصغر سنه المفيد للاعلام بأنه / يبلغ فى ذلك معه ما لايبلغه مع غيره ٤٠٧ / لعظيم شفقة الأب ، و استحكام ميل الابن [الموجب -[٣]] لطاعته ، و اختلف العلماء فى تقدير [ذلك - [٣]] بالسن[٦] فقال بعضهم : ثلاث عشر سنة ، و بعضهم : سبع سنين ، و لذلك قيده بالأب لأن غيره لايشفق على الولد فيكلفه ما ليس فى وسعه ، و هو لم يبلغ كمال السعى ﴿قال﴾ اى إبراهيم عليه السلام : ﴿ يبنى ﴾ مناديا له بصيغة التعطف[٧] و الشفقة و التحبب ، ذاكرا له بالمضارع الحال[٨] الذى رآه[٨] عليه و مصورا له ، لا لتكرار الرؤيا فانه غير محتاج إلى التكرار و لا إلى التروى ، فان الله تعالى أراه ملكوت السماوات و الأرض ، و أكد لما فى طباع البشر من إحالة أن يقال ذلك على حقيقته ، و إعلاما بانه منام وحى و لا أضغاث أحلام[٩] :

(١) من ظ و م ، و فى الأصل : كان (٢) من ظ ، و فى الأصل و م : أى . (٣) زيد من ظ وم (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : بلوغا (٥) من م ، و فى الأصل و ظ : الفهم (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : السن (٧) من ظ و م ، و فى الأصل : العطف (٨-٨) من ظ و م ، و فى الأصل : الدايرة - كذا . (٩) سقط من ظ و م .

﴿ انىّ ارٰى فى المنام ﴾ أى و أنت تعلم أن رؤيا الأنبياء وحى ﴿ انىّ اذبحك ﴾ أى أعالج ذبحك فى اليقظة بأمر [من -[1]] الله تعالى و لذلك كان كما قال، و لو عبر بالماضى لمضى و تمّ[2]، و إنما كان فى المنام فى هذا الأمر الخطر جدا ليعلم وثوق الأنبياء عليهم السلام بما يأتيهم عن الله فى كل حال.

و لما كان الأنبياء عليهم السلام أشفق الناس و أنصحهم، أحب أن يرى ما عنده، فان كان على ما يحب سر و ثبته[3] و إلا سعى فى جعله على ما يحب فيلقى البلاء و هو أهون عليه، و يكون ذلك أعظم لأجره لتمام انقياده، و لتكون المشاورة سنة، فانه «ما ندم من استشار» سبب عن ذلك قوله: ﴿ فانظر ﴾ [بعين بصيرتك -[4]] ﴿ ما ذا ﴾ أى ما الذى ﴿ ترٰى ﴾ أى فى هذه الرؤيا، فهو اختبار لصبره، لامؤامرة له ﴿ قال ﴾ تصديقا لثناء الله عليه بالحلم: ﴿ يٰابت ﴾ تأدبا معه بما دل على[5] التعظيم و التوقير ﴿ افعل ما تؤمر ﴾ أى كل شىء وقع لك به أمر من الله تعالى و يتجدد لك به أمر منه سبحانه لأنى لا أتهمك فى شفقتك و حسن نظرك، و لا أتهم الله فى قضائه. و القصة دليل على وقوع الأمر بالممتنع لغيره و لأكثر الأوامر منه. و قد تقدم ذلك فى البقرة عند "ءانذرتهم ام لم تنذرهم".

---

(١) زيد من م (٢) من ظ و م، و فى الأصل: قم (٣) من ظ و م، و فى الأصل: اثبته (٤) زيد من ظ (٥) من ظ و م، و فى الأصل: عليه.

و لما علم طاعته، تشوف السامع إلى استسلامه و صبره، فاستأنف قوله: ﴿ ستجدنيٓ ﴾ أى بوعد جازم لاتردد فيه صادق كما أخبر الله تعالى عنه، لاخلف فيه، وكان صادق الوعد . و لما كان من أخلاق الكمل عدم القطع فى المستقبلات لما يعلمون من قدرة الله تعالى على نقض العزائم بالحيلولة بين المرء و قلبه قال: ﴿ان شآء الله﴾ اى الذى اختص بالإحاطة بصفات الكمال؛ و أكد وعده بهذا الأمر الذى لايكاد يصدق مثله بقوله: ﴿ من الصّٰبرين ۝ ﴾ أى العريقين فى الصبر البالغين فيه حد النهاية، وهو من أعظم ما أريد بقوله " وكان صادق الوعد "

و لو بيد الحبيب سقيت سما لكان السم من يده يطيب

و جعل هذا الأمر العظيم فى المنام دلالة على صدق أحوال الأنبياء نوما و يقظة، و صدق عزائمهم و انقيادهم لجميع الأوامر فى جميع الأحوال، و روى أن الشيطان وسوس له فى ذبحه فعرفه فرماه بسبع حصيات (١فصار ذلك١) شريعة فى الجمار، و من ألطف ما فى ذلك أنهم [لما - ٢] كانوا فى نهاية التجرد عن [علائق - ٢] الشواغل جعلت افعالهم شعائر و شرائع لعبادة الحج التى روحها التجرد للوفود إلى الله تعالى

و لما وثق منه، بادر إلى ما أمر به، و دل على قرب زمنه من زمن هذا القول بالفاء فقال: ﴿ فلمآ اسلما ﴾ أى القيا بالفعل على غاية الإخلاص حين المباشرة بجميع قواهما فى يد الأمر، و لم يكن عند احد منهما شىء من / إباء و لا امتناع و لا حديث نفس فى شىء من ذلك

(١-١) من ظ و م ، و فى الأصل : فصارت تلك (٢) زيد من م .

﴿ و تلّه ﴾ أى صرعه إبراهيم عليهما السلام صرعا جيدا سريعا مع غاية الرضا منه و المطاوعة من إسماعيل عليه السلام، و دل على السرعة باللام الواقعة موقع « على » فقال: ﴿ للجبين ۝ ﴾ أى أحد شقى الجبهة، و هى هيئة إضجاع[1] ما يذبح، و هذا من قولهم: تله ـ إذا صرعه، و به سمى التل من التراب، و تللت فلانا فى يدك أى دفعته سلما، و الجبين ـ قال فى الصحاح: فوق الصدغ، و هما جبينان عن يمين الجبهة و شمالها.

و لما كان من الواضح أن التقدير جوابا لما[2] عالج ذبحه بعزم أمضى من السنان، و جنان فى ثباته أيما جنان، فمنعناه من التأثير بقدرتنا، و رددنا شفرته الماضية عن عنقه اللينة بأيدينا و قوتنا، عطف عليه قوله: ﴿ و ناديٰنه ﴾ و فخم هذا النداء بحرف التفسير فقال: ﴿ ان يّابرٰهيم ۝ ﴾ و لما كان محل توقع الثناء [عليه ـ[3]] قال: ﴿ قد صدقت ﴾ أى تصديقا عظيما ﴿ الرءيا ﴾ فى أنك تذبحه، فانك قد عالجت ذلك، و بذلت الوسع فيه، و فعلت ما رأيته فى المنام، فما انذبح[4] لأنك لم تر أنك ذبحته، فاكفف عن معالجة الذبح بأزيد من هذا. و لما كان التقدير: فجزيناك على ذلك لإحسانك فوق ما تحب، و جعلناك إماما للمتقين، و وهبناك لسان صدق فى الآخرين، و جعلنا آلك هم المصطفين، و ملأنا منهم الخافقين، علله بأن ذلك سنته[5] دائما قديما و حديثا فقال ما يأتى.

(١) من م، و فى الأصل و ظ: اضطجاع (٢) من ظ و م، و فى الأصل: لمن (٣) زيد من ظ (٤) من م، و فى الأصل و ظ: ادبح (٥) من ظ، و فى الأصل و م: سنة.

و لما

و لما كان صلى الله عليه و سلم فى همة الذبح و عزمه ، فكانت تلك الهمة التى تقصر عنها رتبة السها و السماك ، و العزمة التى تتضاءل دون علىّ مكانتها و سنى عظمتها عوالى الأفلاك ، لا تسكن عن ثورانها ، و لا تبرد من غليانها و فورانها ، إلا بأمر شديد[١] ، و قول جازم أكيد ، قال مؤكدا تنبيها على أن همته قد وصلت إلى ما هذا حده ، و أن امتثال الأمر أيسر من الكف بعد المباشرة بالنهى : ﴿ انا كذلك ﴾ أى مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزى المحسنين ۝ ﴾ .

و لما كان جزاءه عظيما جدا ، دل على عظمه بأن علل إكرامه به بقوله معجبا و معظما مؤكدا[٢] تنبيها على أنه خارق للعادة : ﴿ ان هذا ﴾ أى الأمر و الطاعة فيه ﴿ لهو البلٰٓـؤا ﴾ أى الاختبار الذى يحيل ما خولط به كائنا ما كان ﴿ المبين ۝ ﴾ أى الظاهر فى بابه جـدا المظهر[٣] لرائيه أنه بلاء .

و لما قدم ما هو الأهم من نهيه عن علاجه ، و من البشارة بالجزاء ، ذكر فداءه بما جعله سنة باقية يذكر بها الذكر الجميل على مر[٤] الأيام و تعاقب السنين ، و لما[٥] كان المفتدى منه من كان الأسير فى يده ، و كان إسماعيل فى يد إبراهيم عليهما السلام ، و هو يعالج إتلافه ، جعل تعالى نفسه المقدس فاديا لأن الفادى من أعطى الفداء ، و هو ما يدفع لفكاك

(١) فى م : شد (٢) من ظ و م ، و فى الأصل : تاكيدا (٣) من ظ و م ، و فى الأصل : لمظهر (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : ممر (٥) سقط من ظ .

الآسير، و جعل إبراهيم عليه السلام مفتدى منه تشريفا [له - [1]] و إن كان فى الحقيقة كالآلة التى لا فعل لها، و الله تعالى هو المفتدى منه حقيقة فقال: ﴿ و فدينٰه ﴾ أى الذبيح عن إنفاذ ذبحه و إتمامه تشريفا له ﴿ بذبح ﴾ أى بما ينبغى أن يذبح و يكون موضعا للذبح، و هو كبش من الجنة، قيل: إنه الذى قربه هابيل فتقبله الله منه ﴿ عظيم ﴾ اى فى الجثة و القدر و الرتبة[2] لأنه مقبول و مسنّ بـه و مجعول دينا إلى آخر الدهر.

و لما كان سبحانه إذا منّ بشىء [علم أنه - [1]] عظيم، فاذا ذكر الفعل و ترك المفعول أراد فخامته و عظمته[3]، قال: ﴿ و تركنا عليه ﴾ أى على الذبيح شيئا هو فى الحسن بحيث يطول وصفه. و لما كان بحيث لاينسى قال: ﴿ فى الآخرين ﴾ و من هذا الترك ما تقدم من وصفه بصدق الوعد، لأنه وعد بالصبر / على الذبح فصدق. ٤٠٩ /

و لما عظم الغلام، استأنف تعظيم والده بما يدل مع[4] تشريفه[5] على سلامته بقوله: ﴿ سلم على ابرٰهيم ﴾ أى سلامة له و لولده و تسليم و تحية و تكريم فى الدارين و لما كان هذا خطابا لمن بعده عليه السلام و هم كلهم محبون مجلون معظمون مبجلون لم يكن هناك حال يحوج إلى تأكيد فقال: ﴿ كذلك ﴾ أى مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزى المحسنين ﴾

---

(١) زيد من م (٢) من م، و فى الاصل و ظ: التربية (٣) فى م: عظمه (٤) من ظ و م، و فى الأصل: على (٥) زيدت الواو فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م فحذفناها.

من غير أن يذكر "ان" المؤكدة . و لما كانت أهل الملل كلها متفقة على حبه، و كان كلهم يدعى اتباعه و رتبة قربه، قال معللا لجزائه بهذا المدح في سياق التأكيد استعطافا لهم إلى اتباعه فى الإيمان و تكذيبا لمن ينكر أن يكون الإيمان موجبا للاحسان: ﴿ انه من عبادنا ﴾ أى الذين يستحقون الإضافة فى العبودية و العبادة إلينا ﴿ المؤمنين ﴾ فلا يطمع أحد عرى عن الإيمان فى رتبة أتباعه؛ قال الرازى: الإيمان المطلق الحقيقى شهود جلال الله و وحدانيته و الطمأنينه إليه فى كل محبوب و مكروه، و ترك المشيئه لمشيئته و الانقياد لأمره فى جميع أحواله . و لما أنم[1] قصته فى أمر الذبيح، و شرع فى ذكر ما جازاه به على ذلك، جعل منه أمر إسحاق عليه السلام فقال: ﴿ و بشرنٰه ﴾ [أى جزاء -[2]] على صبره فى المبادرة إلى امتثال الأمر فى إعدام إسماعيل عليه السلام ﴿ باسحق ﴾ مولودا[3] زيادة له بعد ما سلمنا إسماعيل عليه السلام حال كونه ﴿ نبيا ﴾ أى فى قضائنا أو بوجوده مقدرة نبوته، و لما كان هذا اللفظ قد يطلق على المتنبئ، أزال إشكال هذا الاحتمال و إن كان واهيا بقوله: ﴿ من الصٰلحين ﴾ أى العريقين فى رتبة الصلاح ليصلح لأكثر الأوصاف الصالحة . و لما أثنى على إبراهيم عليه السلام بما عالج مما [لم -[2]] يحصل لغيره مثله، وكان من أعظم جزاء الإنسان البركة فى ذريته قال: ﴿ و بركنا عليه ﴾ أى على الغلام الحليم و هو الذبيح المحدث عنه الذى جر هذا الكلام كله الحديث عنه، و كان آخر ضمير محقق عاد عليه

(1) فى ظ: تم (2) زيد من ظ و م (3) من ظ و م، و فى الأصل: مولود.

الهاء فى "و فدينه" ثم فى "و تركنا عليه فى الاخرين" و هذا عندى أولى من إعادة الضمير على إبراهيم عليه السلام لأنه استوفى مدحه، ثم رأيت حمزة الكرمانى صنع هكذا و قال: حتى كان محمد صلى الله عليه و سلم و العرب من صلبه. ﴿و علىٰ اسحٰق﴾ أى أخيه، قال حمزة[1] الكرمانى: [حتى -[2]] كان إسراءيل الله و الأسباط من صلبه، و قال غيره: خرج من صلبه ألف نبى أولهم يعقوب و آخرهم عيسى عليه السلام. ﴿و من ذريتهما﴾ أى الأخوين[3] و لا شك أن هذا أقرب و أقعد من أن يكون الضمير للأب و الابن، لأن قران الأخوين[4] فى الإخبار عن ذريتهما أولى من قران الابن مع أبيه فى ذلك، فيكون الابن حينئذ من جملة المخبر عنه بذرية الأب ﴿محسن و ظالم لنفسه﴾ حيث وضعها بما سبب عن المعاصى فى غير موضعها[4] الذى يحبه، و هذا مما يهدم أمر الطبائع حيث كان البر يوجد من الفاجر و الفاجر يوجد من البر.

و لما كان الإنسان، و إن اجتهد فى الإحسان، لابد أن يحتاج إلى الغفران، لما له من النقصان، لأن رتبة الإلهية لاتصل إلى القيام[5] بحقها العوائق البشرية، بين أن الظلم المراد هنا إنما هو التجاوز فى[6] الحدود بغاية الشهوة فقال: ﴿مبين ع﴾ و أما غير ذلك فمغفور كما قرر فى نحو "لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت"، و من هم بسيئة و لم

---

(١) سقط من م (٢) زيد من م (٣) من ظ و م، و فى الأصل: الآخرين. (٤) من م، و فى الأصل وظ: مواضعها (٥) من ظ و م، و فى الأصل: المقام (٦) من ظ و م، و فى الأصل: عن.

يعملها

يعملها كتبت له حسنة» "[و -[1]] ان تجتنبوا كبٰئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئتكم".

قصة ذبح إبراهيم لولده عليهما السلام من التوراة و بيان أنهم بدلوها، قال مترجمهم[2]: فغرس إبراهيم بيئر سبع / أغرسا، و بنى هنالك باسم الرب إله العالمين، و سكن إبراهيم أرض فلسطين - يعني عند تلك البئر - أياما كثيرة. [3]و لما كان من بعد هذه الخطوب امتحن الله إبراهيم، و قال له: يا إبراهيم! فقال: لبيك، فقال [له -[4]]: انطلق بابنك الوحيد إسحاق الذى تحبه إلى أرض الأمورانيين[5] - و فى نسخة: إلى بلد العبادة - و أصعده إلى[6] قربانا على أحد تلك الجبال الذى[7] أقول لك، فأدلج إبراهيم باكرا فأسرج حماره و انطلق بغلاميه و إسحاق ابنه، و شق[8] حطبا للقربان [9]و نهض[9] و انطلق إلى الموضع[10] الذى قال الله له، و فى اليوم الثالث رفع إبراهيم بصره و نظر إلى ذلك الموضع من بعيد فقال[11] لغلاميه: امكثا ههنا عند الحمار، و أنا و الغلام ننطلق إلى ههنا نصلى و نرجع إليكما، فأخذ إبراهيم حطب القربان، و حمله إسحاق ابنه، و أخذ معه نارا و سكينا، و انطلقا كلاهما جميعا، و قال إسحاق [12]لأبيه إبراهيم[12]: يا أبة[13]، فقال له: لبيك، فقال له: هذه النار و الحطب،

/١٠٤

(١) زيد من ظ و م (٢) راجع التوراة - أواخر الأصحاح الحادى و العشرين من التكوين (٣) و من هنا يبتدئ الأصحاح الثانى و العشرون (٤) زيد من م. (٥) فى التوراة: المريا (٦) فى م: لى (٧) فى م: التى (٨) فى التوراة: شقق. (٩-٩) سقط ما بين الرقمين من ظ (١٠) فى ظ: المواقع (١١) من م والتوراة، و فى الأصل و ظ: و قال (١٢-١٢) فى م: لابراهيم ابيه (١٣) من م، و فى الأصل و ظ: ابة - كذا.

أين حمل[1] القربان، فقال إبراهيم: الله [2]يعد لنا[2] حملا للقربان يا بني، فانطلقا جميعا حتى انتهيا إلى الموضع الذي قال الله، فبنى [3]هنالك إبراهيم[3] مذبحا و نضد عليه الحطب و كتف[4] إسحاق فوضعه في أعلى المذبح على الحطب، و مد يده إبراهيم فأخذ السكين[5] ليذبح ابنه. فدعاه ملاك الرب من السماء و قال: يا إبراهيم [6]يا إبراهيم[6]، فقال: لبيك! فقال: لا تبسط يدك على الغلام و لا تصنع به شيئا لأنك قد أظهرت الآن أنك تتقي الله إذ لم تمنعني ابنك الوحيد[7]، فمد إبراهيم بصره فاذا كبش معلق في شجرة بقرنيه، فانطلق إبراهيم فأخذ الكبش فأصعده قربانا بدل ابنه إسحاق، فسمى إبراهيم ذلك الموضع «الله يتجلى» كما يقال. الله في هذا الجبل. الله[8] يتجلى، فدعا ملاك الرب إبراهيم ثانية[9] من السماء و قال: [بي -[10]] أقسمت، يقول الرب: بدل ما صنعت هذا الصنيع و لم تمنعني ابنك الوحيد[7] لأباركنك بركة تامة و لأكثرن نسلك مثل كواكب السماء، و مثل الرمل الذي على شاطئ البحر، و يرث زرعك[11] أراضي أعدائي - و في نسخة: أعداءه - و يتبارك بنسلك جميع الشعوب لأنك أطعتني، فرجع إبراهيم إلى غلاميه و انصرفوا جميعا إلى بئر السبع و أقام ثم - و في نسخة: و سكن إبراهيم

(١) من ظ و م، و في الأصل: عمل (٢-٢) من ظ و م، و في الأصل: نعدنا. (٣-٣) من ظ و م، و في الأصل: ابراهيم لك هناك (٤) من م، و في الأصل وظ: كتف (٥) من م، و في الأصل وظ: سكينا (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من ظ (٧) من م، و في الأصل و ظ: التوحيد (٨) و في التوراة: الرب. (٩) من التوراة، و في الأصول: ياتيه (١٠) زيد من ظ و م (١١) في التوراة: نسلك.

بئر السبع - انتهى ما عندهم بلفظه فانظر إليه و اجمع بينه و بين ما تقدم فى البقرة من قصة إسماعيل و إسحاق عليهما السلام تجدهم[1] قد بدلوها بلا شك، لأن الكلام ينقض بعضه بعضا، و ذلك أنه قال فى هذه القصة «انطلق بابنك الوحيد» و كرر وصفه بالوحيد فى غير موضع، و هذا الوصف إنما يكون حقيقة لإسماعيل عليه السلام و هو دون البلوغ، و إما إسحاق عليه السلام فلم يكن وحيدا ساعة من الدهر، [بل -[2]] ولد و إسماعيل عليه السلام ابن ثلاث عشرة سنة و نيف بشهادة ما عندهم من التوراة، و قوله فى آخر القصة «و يتبارك بنسلك جميع الشعوب» لايكون فى غاية الملاءمة [إلا -[2]] لإسماعيل عليه السلام، و إما إسحاق عليه السلام فانما بورك بنسله الأراضى المقدسة فقط، و لم يتبعهم من غيرهم إلا قليل[3]، بل كانوا هم فى كل قليل يتبعون غيرهم على عبادة أوثانهم[4] بشهادة توراتهم[4] و أسفار أنبيائهم يوشع [5]بن نون[5] و من بعده عليهم السلام، و أما نسل إسماعيل عليه السلام فتبعهم على الدين الحق من جميع الأمم ما لايحصى عدده [6]و لم يتبعوا هم[6] بعد محمد صلى الله عليه و سلم أحدا من الأمم على عبادة غير الله - هذا و فى المتقدم فى سورة البقرة أن هبة سارة أمتها هاجر[7] رضى الله عنها لإبراهيم عليه السلام كان بعد أن سكن كنعان

---

(١) فى ظ : و تجدهم (٢) زيد من ظ و م (٣) فى ظ : القليل (٤ - ٤) من ظ و م، و فى الأصل : اوراتيهم (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦-٦) من ظ و م، و فى الأصل : لا و سعوهم (٧) من ظ، و فى الأصل و م : هاجرة.

٤١١ / بعشر[١] سنين، و أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم / عليه السلام و هو ابن ست و ثمانين سنة، و أن الله تعالى أمره بالختان و هو ابن تسع و تسعين سنة، و أنه فى ذلك الوقت بشر باسحاق عليه السلام، فختن إسماعيل عليه السلام [و هو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم ولد له إسحاق عليه السلام -[٢]] و قد أتى عليه مائة سنة، ثم قال ما نصه[٣]: و صنع إبراهيم يوم فطم إسحاق ابنه مأدبة عظيمة فأبصرت[٤] سارة ابن هاجر المصرية المولود لإبراهيم عليه السلام[٥] لاعبا. فقالت لإبراهيم عليه السلام: أخرج هذه الأمة عنى، لأن ابن الأمة لايرث مع إسحاق ابنى[٦]، فشق هذا الأمر على إبراهيم لمكان ابنه، فقال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: لا يشقن عليك حال الصبى و أمتك، أطع سارة فى جميع ما تقول لأن نسلك إنما يذكر باسحاق، و ابن الأمة أجعله لشعب كثير لأنه من ذريتك، فغدا إبراهيم عليه السلام باكرا و أخذ خبزا و أداوة من ماء، فأعطاها هاجر و حملها الصبى و الطعام - إلى آخر ما فى البقرة فقوله « إن هاجر طردت بعد فطام إسحاق و ابنها تحمل » لايصح، و قد تقدم أن عمره يوم فطام إسحاق خمس عشرة سنة، و تقدم أيضا أن سارة أمرته بطردها و هى حبلى، و أنه سلمها لها فطردتها، و أن الملك لقيها[٧] فبشرها باسماعيل

---

(١) فى ظ و م : عشر (٢) زيد من م (٣) راجع آية ٨ من الأصحاح الحادى و العشرين من التكوين (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : فلما بصرت (٥) زيد فى الأصل : و هو ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها (٦) من ظ و م ، و فى الأصل : شىء (٧) من ظ و م ، و فى الأصل : اتاها .

و لم يذكر فى نسختى ـ و هى قديمة جدا ـ شيئا يدل على رجوعها ، و أما فى نسخة عندهم فقال : إن الملك قال لها : ارجعى إلى سيدتك و استكدى تحت يدها ـ و لم يذكر أنها رجعت ، و قد صح الخبر عندنا بقول نبينا صلى الله عليه و سلم أن إبراهيم عليه السلام وضع هاجر و ابنها إسماعيل عليه السلام عند البيت الحرام و هو يرضع ، و استمرا هناك إلى أن ماتت هاجر رضى الله عنها ، و تزوج إسماعيل عليه السلام و بنى البيت مع أبيه عليهما السلام ، و قوله «لأن نسلك إنما يذكر باسحاق عليه السلام» غير مطابق[1] للواقع ، فان شهرة العرب بابراهيم عليه السلام [إن ـ[2]] لم تكن أكثر من شهرة بنى إسحاق بذلك فهى مثلها ، و خبر الله لا يتخلف ، فدل هذا كله أنهم بدلوا القصة و حرفوها ، فلا متمسك فيها لهم ، و دلالتها على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام أولى[3] من دلالتها على غير ذلك لوصفه بالوحيد ـ و الله أعلم كيف كانت القصة قبل التبديل ؟ و مما يدل على ما فهمت من تبديلهم لها ما قال البغوى[4] : قال القرظى[5] يعنى محمد بن كعب ـ : سأل عمر بن عبد العزيز رجلا [كان ـ[6]] من علماء اليهود أسلم و حسن إسلامه : أىّ ابنى إبراهيم عليه السلام أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل يا أمير المؤمنين ! إن اليهود لتعلم ذلك و لكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله

---

(١) فى ظ : غير مطابقة ، و فى م : غير مطابقى (٢) زيد من م (٣) و من هنا نستأنف نسخة مد (٤) راجع معالم التنزيل بهامش لباب التأويل ٦/٢٢ (٥) من م ومد و المعالم ، و فى الأصل و ظ : القرطبى (٦) زيد من المعالم .

بذبحه ما كان، و يزعمون أنه أبوهم[1]، و من الدليل على أنه إسماعيل عليه السلام أن الله تعالى لما بشر باسحاق بشر بأنه يولد له يعقوب، فلا يليق الامتحان به بعد علمه بأنه لايموت حتى يولد له، و من الدليل على ذلك أن قرنى الكبش كانا منوطين بالكعبة فى أيدى بنى إسماعيل عليه السلام إلى أن احترق البيت و احترق القرنان[2] فى زمان ابن الزبير و الحجاج، قال[3] الشعبي: رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة، و عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: و الذى نفسى بيده! لقد كان أول الإسلام و إن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة[4]، و قال الأصمعى: سألت[5] أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح: إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصيمع! ٤١٢ / أين ذهب عقلك؟ متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة و هو الذى بنى البيت مع أبيه - انتهى [ما -[6]] قال البغوى. و فى كتاب الحج من سنن أبى داود[7] أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لعثمان - و هو الحجبى رضى الله عنه -: إنى نسيت أن آمرك أن تخمر القرنين فانه لاينبغى أن يكون فى البيت شیء يشغل المصلى. و رواه عبد الرزاق فى جامعه[8] و لفظه أن عثمان بن شيبة رضى الله عنه[9] قال: إن النبى

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ابيهم بوهم (٢) من م و مد و معالم التنزيل ٢٢/٦، و فى الأصل و ظ: القربان (٣) تكرر فى الأصل فقط (٤) زيد فى المعالم: و قد وحش يعنى يبس (٥) من م و مد و المعالم، و فى الأصل و ظ: سال. (٦) زيد من ظ وم ومد (٧) راجع باب فى الحجر ٢٠١/١ (٨) أى مصنفه - راجع ٨٨/٥ (٩) العبارة من هنا إلى «هكذا قال: عثمان بن شيبة» ساقطة من ظ.

صلى الله عليه و سلم قال له : إنى رأيت قرنى الكبش فنسيت أن آمرك أن تخمرهما[1] فانه لاينبغى أن يكون فى البيت شيء يشغل مصليا - هكذا قال : عثمان بن شيبة[2] ، و لعله ابن طلحة ، فيكون المتقدم و يكون تسمية أبيه شيبة وهما ، أو يكون شيبة بن عثمان و هو [3]ابن عم[3] الذى عند أبى داود فانقلب - و الله أعلم . و روى عبد الرزاق[4] أيضا عن ابن جريج قال : أخبرنا عبد الله بن شيبة بن عثمان ، و سألته هل كان فى البيت قرنا كبش ؟ قال : نعم ، كانا فيه ، قلت : أرأيتهما ؟ قال : حسبت ، و لكن أخبرنى عبد الله بن بابيه أن قد رآهما ، قال : و غيره قد رآهما فيه ، قال : و يقولون : إنهما قرنا الكبش الذى ذبح إبراهيم عليه السلام ، قال ابن جريج : و قالت صفية ابنة شيبة : كان فيه قرنا الكبش ، قال ابن جريج : و [5]حدثت أن[5] ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانا فيه . قال : و حدثت عن عجوز قالت : رأيتهما فيه . و مما يؤيد القول بأنه إسماعيل عليه السلام [وصف الله تعالى له بأنه صادق الوعد ، و لا صدق فى وعد أعظم من صدقه فى وعده بالصبر على الذبح ، و ممن قال من بنى إسراءيل أنه إسماعيل عليه السلام -[6]] عبد الله بن سلام رضى الله عنه - حكاه [عنه -[6]] ابن الجوزى ، و عد القائلين بكل من القولين[7] من الصحابة و غيرهم فقال :

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و مصنف عبد الرزاق : تخمرها (٢) و ذكر عبد الرزاق عثمان بدون ذكر أبيه (٣-٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يزعم. (٤) راجع من مصنفه ٥ / ٨٧ (٥-٥) فى ظ : حديث (٦) زيد ما بين الحاجزين من م و مد (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : القائلين .

إن القائلين بأنه إسحاق: عمر و علي و العباس و ابن مسعود و أبو موسى و أبو هريرة و أنس رضى الله عنهم، و بأنه إسماعيل: ابن عمر، و أن الرواية اختلفت عن ابن عباس رضى الله عنهما، فروى عنه عكرمة أنه إسحاق، و عطاء و مجاهد و الشعبي و أبو الجوزاء و يوسف بن مهران أنه[١] إسماعيل، فعلم من هذا رجحان القول بأنه إسماعيل، لأن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما تأخرا بعد من ذكر من أكابر الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، فلولا أنه رجح عندهما ما خالفا أبويهما، و نقل عكرمة عن ابن عباس بموافقة أبيه لايقدح فى ذلك بل يؤيده لأن الأكثر كما[٢] ترى رووا عنه الثانى، فلولا أنه صح عنده ما رجع عن الأول الذى هو موافق لرأى أبيه، و لأجل ثباته عليه اشتهر عنه - و الله أعلم.

و لما ذكر[٣] هؤلاء السادة الذين لهم من رتبة التجرد و النزاهة ما تقدم بيانه، و ختمهم بأخوين ما اجتمعا قط، و كان من أعظم المقاصد بذكرهم المنة على من اتصف بمثل صفاتهم بالقرب و النصرة تسلية و ترجية للنبى صلى الله عليه و سلم و لمن اتبعه من المؤمنين ممن قارب - من شدة البلاء و القهر - اليأس من النصر، أتبعهم بأمثالهم فى التجرد وابتدأهما[٤] بأخوين افترقا حين ولادة الثانى على[٥] حالة لايمكن الاجتماع

(١) سقط من ظ (٢) من ظ و م مد، و فى الأصل: مما (٣) زيد فى الأصل: به، و لم تكن الزيادة فى ظ و م ومد فحذفناها (٤) من ظ و مد، وفى الأصل و م: ابتداهم (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فى.

معها

[1]معها عادة، ثم اجتمعا[1] [2]فى الباطن مع الافتراق فى الظاهر ثم افترقا على حالة يبعد الاجتماع معها عادة ثم اجتمعا[2] اجتماعا لم يفترقا منه إلا بالموت و بدأهما بأول من تجرد منهما من حين ولادته إلى أوان هجرته، ثم من حين رجعته إلى أن جرد آله – و هم بعض ذرية إبراهيم عليه السلام –، و أنقذهم من علائق الكفرة، ثم تجرد معهم هو و أخوه عن المدن و القرى، و أكثر علائق البشر، ملازمين البرارى و الفلوات حيث يكثر ظهور الكلمة مع إرسال الله إليهما بمعادن الحكمة إلى أن ماتا / عليهما الصلاة و السلام و التحية و الإكرام، فقال مؤكدا / ٤١٣
تنبيها لمن يعد نصر المؤمنين محالا، عاطفا على ما تقديره: فلقد أنشأنا منهما من الأمم ما يعجز الوصف و يفوت الحصر، و مننا على كثير منهم بالإحسان من ولد إسماعيل عليه السلام إلى أن غير دينه عمرو بن[3] لحى، و من ولد إسحاق يعقوب و الأسباط عليهم السلام و من شاء الله من أولادهم: ﴿و لقد مننا﴾ [أى[4]] أنعمنا إنعاما مقطوعا به بما لنا من العظمة، على أول من أظهر لسان الصدق لإبراهيم عليه السلام و ذريته إظهارا تاما. و بدأهما بأعرقهما – كما تقدم – فى التجرد و أحقهما بالتقدم فقال: ﴿على موسىٰ﴾ أحد أعيان المتجردين، و من له القدم الراسخ فى ذلك ﴿و هٰرون ج﴾ أى عين من تجرد مع أخيه و وافقه أتم موافقة، و وازره أعظم موازرة، بما [5]أتيا به[5] من

(١ – ١) تكرر ما بين الرقمين فى الأصل و ظ (٢ – ٢) سقط ما بين الرقمين من مد (٣) سقط من م (٤) زيد من ظ و م و مد (٥ – ٥) من م، و فى الأصل و ظ: اتيناه، و فى مد: اتيا – دون «به».

النبوة و الكتاب و غير ذلك من أنواع الخطاب .

و لما كان جل المقصود ـ كما مضى ـ مقام التجرد ، و الإعلام بنصر المستضعفين من المؤمنين ، قال: ﴿ و نجينهما و قومهما ﴾ أى بنى إسرائيل و قد كانوا مرت لهم دهور فى ذل لايقاربه ذل المؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم فى أول أمرهم ﴿ من الكرب العظيم ج ﴾ أى الاستعباد[1] ، و ما يتبعه من عظائم الأنكاد ، و كان ذلك بهلاك القبط الذين استمروا على الضلال ، و هم أضعاف أضعاف بنى إسراءيل ، إلى أن[2] أهلكناهم فلم يفلت منهم إنسان ، فصح لبنى[3] إسراءيل حينئذ التجرد و زال عنهم ذل التجبر[4] و التمرد .

و لما بين[5] نعمة[6] النجاة من الأسر[7] ، أتبعها نعمة الالتذاذ بالنصر ، فقال: ﴿ و نصرنهم ﴾ أى موسى و هارون عليهما السلام و قومهما على كل من نازعهم فى ذلك الزمان من فرعون و غيره ﴿ فكانوا هم ﴾ أى خاصة ﴿ الغلبين ج ﴾ أى على كل من يسومهم سوء العذاب ، و هو فرعون و آله و على جميع من ناووه أو ناواهم . فاحذروا[8] يا معشر قريش

(١) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : الاستبعاد (٢) سقط من ظ (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بنى (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : التجر (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : كان (٦) زيد فى الأصل و ظ : التجرد ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الامر (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فاخذوا .

و العرب من مثل ذلك ، و لقد كان ما حذرهم منه [1]رسول الله[1] صلى الله عليه و سلم على أعظم ما يمكن أن يكون إلا أن نبينا صلى الله عليه و سلم لما كان نبى الرحمة لين الله قلوبهم حتى ردهم إلى ما اغتبطوا به من متابعته ، فصاروا به ملوك[2] الدنيا و الآخرة .

و لما كانت فائدة النصرة التمكن من إقامة الدين قال : ﴿و ءاتينهما﴾ أى بعظمتنا بعد إهلاك عدوهم ﴿الكتب المستبين ج﴾ أى الجامع البين الذى هو لشدة[3] بيانه طالب لأن يكون بينا و هو كذلك فانه ليس شيء من الكتب[4] مثل التوراة فى سهولة مأخذها ، و جمع هارون عليه السلام معه فى الضمير لأنه مثله فى تقبل الكتاب و العمل بجميع ما فيه و الثبات على ما يدعو إليه و إن كان نزوله خاصا بموسى عليه السلام : ﴿و هدينهما الصراط﴾ أى الطريق الواضح فى الإيصال إلى المقصود ﴿المستقيم ج﴾ [أى -[5]] الذى هو لعظيم تقومه كأنه طالب لأن يكون قويما ، فهو فى غاية المحافظة على القوم[6] فلا يزيغ أصلا ، و لذلك هو شرائع الدين القيم[7] .

و لما كان الذكر الجميل عند ذوى الهمم العالية و العزائم الوافية[8] هو الشرف قال : ﴿و تركنا عليهما[9]﴾ أى ما تعرفون من الثناء الحسن

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م و مد (٢) فى ظ : بذلك (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : من شدة (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الكتاب. (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : القوة (٧) فى ظ : القويم (٨) من ظ وم ومد ، و فى الأصل : الرافية (٩) فى الأصل فقط : عليه - خطأ .

﴿ فى الأخرين ۝ ﴾ أى كل من يجىء بعدهما إلى يوم الدين . و لما ظهر بهذا أن لهما من الشرف و السؤدد أمرا عظيما ، كانت نتيجته : /٤١٤ ﴿سلٰم ﴾ / اى عظيم ﴿على موسىٰ﴾ صاحب الشريعة العريق فى الاتصاف بمقصود[1] السورة ﴿ و هٰرون ۝ ﴾ وزيره و أخيه . و لما كان نصر النبى صلى الله عليه و سلم بمن معه من الضعفاء على قريش و سائر العرب عند قريش فى غاية البعد ، و كان التقدير : فعلنا معهما[2] ذلك لإحسانهما[3] ، علله بما يقطع قلوب قريش فى مظهر التأكيد فقال : ﴿انا كذلك﴾ أى مثل هذا الجزاء ﴿نجزى﴾ أى دائما فى كل عصر ﴿المحسنين ۝ ﴾ أى العريقين فى هذا الوصف ؛ ثم علل إحسانهما و بينه و أكده ترغيبا فى مضمونه ، و تكذيبا لمن يقول : إن المؤمنين لاينصرون ، بقوله : ﴿انهما من عبادنا ﴾ أى الذين محضوا العبودية و الخضوع لنا ﴿ المؤمنين ۝ ﴾ أى الثابتين فى وصف الإيمان .

و لما كان إلياس اعظم المتجردين [4]من أتباعهما المجددين[5] لما درس من أحكام التوراة ، و كان ترك أحكامها مع ما وصفت به من البيان و ما دعت إليه من الاستقامة فى غاية من الضلال تكاد أن لايصدق

---

(١) من م و مد ، و فى الاصل و ظ : لمقاصد (٢) زيد فى الأصل و ظ : لان ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٣) زيد فى الأصل : كان ذلك ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) العبارة من هنا الى « المجددين » ساقطة من ظ (٥) من م و مد ، و فى الأصل : المتجددين .

مثلها

مثلها، [١]أشار إلى الزيغ[١] عنه يأسا لأن القلوب بيده سبحانه فقال مؤكدا: ﴿ و ان الياس ﴾ أى الذى كان أحد بنى إسراءيل عند جميع المفسرين إلا ابن مسعود و عكرمة[٢]، و هو من سبط لاوى، و من أولاد هارون عليه السلام، و قال ابن عباس رضى الله عنهما[٣]: هو عم اليسع عليهم السلام، و أرسلناه إلى من كان منهم فى أرض بعلبك و نواحيها، فلما لم[٤] يرجعوا إليه نزعنا عنه الشهوات الإنسانية و خلقناه بالأوصاف الملكية، [و لا يبعد أن يكون الداعى إلى تسميته بهذا الاسم ما سبق فى علم الله أنه ييأس ممن يدعوهم إلى الله فيكون ممن يأتى يوم القيامة و ما معه إلا الواحد أو الاثنان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كما رواه الشيخان: البخارى فى الرقاق[٥] و الطب، و مسلم فى الإيمان[٦] عن ابن عباس رضى الله عنهما: عرضت على الأمم فرأيت النبى و معه رهيط و النبى و معه الرجل و الرجلان، و النبى ليس معه أحد، [٧]فجعل سبحانه اسمه مناسبا لأمره فى[٧] قومه بيأسه منهم حين فر إلى الجبال من شرهم، و يأسهم من القدرة علـى قتله، فانهم اجتهدوا فى ذلك حتى أعياهم، و أدل دليل على هذا المعنى قراءة ابن عامر[٨] بخلاف عنه بوصل الهمزة فى الدرج و فتحها فى الابتداء، و إن قال العلماء كما حكاه السمين[٩] فى إعرابه: إن ذلك من تلاعب

(١-١) من م و مد، و فى الأصل: اشعارا إلى الرفع (٢) فانهما قالا: الياس هو إدريس - كما فى معالم التنزيل بهامش اللباب ٦/٢٥ (٣) راجع المعالم بهامش اللباب ٦ / ٢٦ (٤) سقط من ظ (٥) راجع من صحيحه ٢ / ٩٦٨ (٦) راجع من صحيحه ١/١١٧ (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨) راجع نثر المرجان ٦/٤٥.
(٩) هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى المتوفى سنة ٧٥٦.

العرب بالأسماء العجمية، قطعوا همزته تارة و وصلوها أخرى، يَعنى نخاطبهم سبحانه بما ألفوه من لسانهم -[1]] ﴿لمن المرسلين ۝﴾ أى [2]إلى من[2] بدل أمر[3] التوراة و نابذ ما دعت إليه ﴿اذ قال لقومه﴾ منكرا عليهم ما [من -[1]] حقه الإنكار بقوله: ﴿الا تتقون ۝﴾ أى يوجد منكم تقوى

٥ وخوف، فان ما أنتم عليه يقتضى شرا طويلا، وعذابا وبيلا، و ما أنتم عليه من السكون و الدعة يقتضى أنه لا خوف عندكم أصلا، و ذلك غاية الجهل و الاغترار بمن تعلمون أنه لا خالق لكم و لا رازق غيره.

و لما كان هذا الانكار سببا للاصغاء، كرره مفصحا بسببه فقال: ﴿اتدعون بعلا﴾ أى إلها و ربا، و هو صنم[4] كان لهم فى مدينة بعلبك

١٠ كان من ذهب طوله عشرون ذراعا و له أربعة أوجه، فكان الشيطان يدخل فى جوفه و يتكلم بشريعة الضلالة[5]. و السدنة يحفظونها. و هم أربعمائة و يعلمونها الناس. [و يحتمل أن يكون علما على الصنم المذكور فيكون المفعول الثانى منويا، و حذف ليفهم الدعاء الذى لا دعاء يشبهه و هو الدعاء بالإلهية، و من قرأ شاذا «بعلاء» بوزن «حمراء» فهو إشارة

١٥ إلى كثرة حث امرأة الملك على عبادة بعل و قتل إلياس عليه السلام، و طاعة زوجها لها فى ذلك - كما حكاه البغوى[6]، فاستحق التأنيث لذلك،

---

(١) زيد ما بين الحاجزين من م و مد (٢ - ٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: المومن (٣) سقط من ظ (٤) راجع البحر المحيط ٧/٣٧٣ حيث ذكر كل ذلك (٥) من ظ و م و مد و البحر، و فى الأصل: الضلال (٦) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ / ٢٦ و ما بعده.

فأنث لكثرة ملابستها له ، و الجنسية علة الضم ـ[1]] .

و لما كان دعاؤهم إياه للعبادة[2] بينه بقوله : ﴿ و تذرون ﴾ و مادة « وذر » تدور على ما يكره ، فالمعنى : و تتركون ترك المهمل الذى من شأنه أن يزهد فيه ، و لو قيل : و تدعون ـ تهافتا على الجناس لم يفد هذا و انقلب المراد . و لما كان الداعى لايدعو إلا بكشف ضر[3] أو إلباس نفع ، فكان لايجوز أن يدعو إلا من يقدر على إعدام ما يشاء و إيجاد ما يريد ، قال منبها لهم على غلطهم فى الفعل و الترك : ﴿ احسن[4] الخالقين ﴾ أى و هو من[4] لا يحتاج فى الإيجاد و الإعدام إلى أسباب فلا تعبدونه . و لما كان الإنسان يعلم يقينا أنه لم يرب نفسه إلا بالإنشاء من العدم و لا بما بعده ، وكان الإحسان أعظم عاطف للانسان . قال مبينا لمن أراد مذكرا لهم باحسانه إليهم و إلى من يحامون عنهم ، و يوادون من كان يوادهم بالتربية بعد الإنشاء من العدم الذى هو أعظم تربية [مفخما للأمر و معظما بالإبدال و بجعل البدل اسم الجلالة فى قراءة النصب[5] ، و زائدا فى التعظيم بالقطع بالابتداء فى قراءة الجماعة بالرفع ـ[1]] : ﴿ الله ﴾ فذكر بالاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات تنبيها على أنه الأول المطلق الذى لم يكن شىء إلا به ﴿ ربكم ﴾ أى المحسن إليكم وحده . و لما كانوا ربما أسندوا إيجادهم إلى من قبلهم غباوة منهم أو عنادا قال :

---

(١) زيد ما بين الحاجزين من مد (٢) زيدت الواو فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : الضر (٤) سقط من ظ (٥) راجع نثر المرجان ٦ / ٤٦ .

﴿ و رب اٰبآئكم الاولين ﴾ أى الذين هم أول / لكم ، فشمل ذلك آباءهم الأقربين ، و من قبلهم إلى[1] آدم عليه السلام . ٤١٥ /

و لما كان من أعظم المقاصد - كما مضى - التسلية و الترجية ، سبب عن دعائه قوله : ﴿ فكذبوه ﴾ و لما كانت الترجية مستبعدة ، سبب عن التكذيب قوله مؤكدا لأجل تكذيبهم : ﴿ فانهم لمحضرون ﴾ أى مقهورون على إقحامنا إياهم فيما نريد من العذاب الأدنى و الأكبر ، و ذكرهم بالسوء و اللعن على مر الآباد و إن كرهوا ﴿ الا عباد الله ﴾ أى الذين علموا ما له من مجامع العظمة فعملوا بما علموا فلم يدعوا غيره فانهم لم يكذبوا ؛ ثم وصفهم بما أشار إليه من الوصف بالعبودية و الإضافة إلى الاسم الأعظم فقال: ﴿ المخلصين ﴾ أى لعبادته فلم يشركوا به [شيئا -[2]] جليا و لاخفيا ، فانهم ناجون من العذاب .

و لما جاهد فى الله تعالى و قام بما يجب عليه من حسن الثناء ، جازاه سبحانه فقال عاطفا على « فانهم لمحضرون » ﴿ و تركنا عليه ﴾ [أى -[2]] من الثناء الجميل و جميع ما يسره : ﴿ فى الاٰخرين ﴾ أى كل من كان بعده إلى يوم الدين . و لما كان السلام اسما جامعا لكل خير لأنه إظهار الشرف و الإقبال على المسلم عليه بكل ما يريد ، أنتج ذلك قوله : ﴿ سلٰم ﴾ و لما كان فى اسمه [على حسب تخفيف العرب له -[3]] [3] لغات إحداها[3] توافق الفواصل ، فكان لافرق فى تأدية المعنى بين

---

(١) سقط من ظ (٢) زيد من م و مد (٣ - ٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لغتين احدبهما .

الإتيان بما اتفق [1]منها، و كان[1] ما كثرت حروفه منها[2] أضخم و أجل و أفخم، و كان السياق بعد كثير من مناقبه لنهاية المدحة، كان الأحسن التعبير بما هو أكثر حروفا و هو موافق للفواصل [ليفيد ذلك تمكينه فى الفضائل و لتحقق أنه اسم أعجمى لا عربى مشتق من اليأس و إن أوهمت ذلك قراءة ابن عامر بوصل همزته -[3]] فقال: ﴿على ال ياسين ه﴾ و من قرأ آل يٰس فيجوز أن يكون المراد فى قراءته ما أريد من القراءة الأخرى لأن أهل اللغة قالوا: إن الآل هو الشخص نفسه، و يٰس إما لغة فى الياس أو اختصرت اللغة الثانية التى هى إلياسين لحذف منها الهمزة المكسورة[4] مع اللام. و يجوز أن يكون المراد بآله أتباعه، و يكون ذلك أضخم فى حقه لما تقدم مما[5] يدعو إليه السياق، و يجوز أن يقصد بهذه القراءة جميع الأنبياء المذكورين فى هذه السورة الذين هو أحدهم، اى على الأنبياء المذكورين عقب سورة يٰس دلالة على ما دعت إليه معانيها من الوحدانية و الرسالة و البعث و إذلال العاصى و إعزاز الطائع المجرد لنفسه فى حب مولاه عن جميع العوائق، [القاطع -[6]] للطيران إليه أقوى العلائق، و خص [7]بهذا هذه[7] القصة لأنها ختام القصص المسلم فيها على أهلها.

(١-١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: منها و كانت (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: منهما (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المسكورة (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بما (٦) زيد من ظ و م و مد. (٧-٧) من ظ و مد، و فى الأصل و م: بهذه.

و لما أظهر سبحانه شرف إلياس عليه السلام أو الأنبياء الذين هو أحدهم ، علله مؤكدا له تنبيها على أنه لابد من إعلاء النبي صلى الله عليه و سلم و أتباعه على كل من يناويهم و إن كذبت بذلك قريش فقال: ﴿ انا كذٰلك ﴾ أى مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزى المحسنين ﴾ أى الذين هو من أعيانهم؛ ثم علل الحكم باحسانه مؤكدا لما مضى فى مثله بقوله: ﴿ انه من عبادنا ﴾ أى الجديرين بالإضافة إلينا ﴿ المؤمنين ﴾ و يستفاد من التأكيد أيضا التنبيه على رسوخ قدمه فى الإيمان و أنه بحيث تشتد الرغبة و يقوى النشاط فى الإخبار به على ذلك الوجه .

و لما أتم ما أراد سبحانه من أمور المحسنين من ذرية إبراهيم عليه السلام المرسلين إلى ذريته فى التسلية ، و الترجية[1] و قدمهم لأن المنة عليهم منة عليه ، و الإنسان بابنه أسر منه بقريبه[2] ، وهم الذين أظهر الله بهم ما ترك[3] عليه ، من لسان الصدق فى الآخرين ، أتبعهم قصة ابن أخيه مع أهل [بلاد -[4]] الأردن من غير قومهم ، فقال مؤكدا للتنبيه[5] على / نصر /٤١٦ المؤمنين و إن كانوا فى القلة و الذلة على حال لايظن انجباره[6] و تكذيبا لليهود المكذبين برسالته أو الشاكين فيها: ﴿ و ان لوطا ﴾ أى الذى جرد نفسه من مألوفها من بلاده[7] و عشائره بالهجرة مع عمه إبراهيم

(١) من ظ وم ومد ، وفى الأصل: التوجيه (٢) من ظ وم ومد ، وفى الأصل: بقومه (٣) من م ومد ، و فى الأصل و ظ : نزل (٤) زيد من ظ و م و مد. (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تنبيها (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : انحيارة (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بلاد .

عليهما السلام ﴿لمن المرسلين﴾ و لما كان جل المقصود تبشير المؤمنين و تحذير الكافرين، و كان مخالفه كثيرا، و كان هو غريبا بينهم، قال في مظهر العظمة: ﴿اذ نجينه﴾ أي على [ما - [1]] لمخالفيه[2] من الكثرة و القوة، و لم يذكرهم لأنهم أكثر الناس انغماسا في العلائق البشرية و القاذورات البهيمية التي لا تناسب مراد هذه السورة المبنى على الصفات الملكية[3] ﴿و اهله اجمعين﴾ و لما كان الكفر قاطعا للسبب القريب كما أن الإيمان واصلا للسبب البعيد قال: ﴿الا عجوزا﴾ أي و هي امرأته فان كفرها قطعها عن الدخول في حكم أهله فجردوا عنها، كائنة ﴿في الغبرين﴾ أي الباقين في غبرة العذاب و مساءة الانقلاب.

و لما ذكر نجاته و ابتدأ بها اهتماما بالترجية قال مخوفا معبرا بأداة البعد إفادة مع الترتيب لعظيم رتبة ما دخلت عليه: ﴿ثم دمرنا﴾ أي أهلكنا بما لنا من العظمة ﴿الأخرين﴾ أي جردنا الأرض من قاذوراتهم و نزهنا[4] البلاد المقدسة منهم و من أرجاس فعلاتهم، [5] فلم نبق منهم أحدا[5] و لا احتجنا في إهلاكهم إلى استئذان أحد. و لما كان المقصود من مثل هذا تحذير المخالفين، و كان تجار قريش يرون البقعة التي كانت فيها أماكن قوم لوط، و هي البحيرة المعروفة، و لا يعتبرون بهم، عدّوا[6]

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: مخالفيه.
(٣) زيد في الأصل: قال، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها (٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: نزحنا (٥-٥) من م و مد، و في الأصل و ظ: فلم يبق منهم احد (٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: غدا.

منكرين للمرور عليهم فأبرز لهم الكلام فى سياق التأكيد فقيل : ﴿و انكم﴾ أى فعلنا بهم هذا و الحال أنكم يا معشر قريش ﴿ لتمرون عليهم ﴾ أى مواضع ديارهم فى تجاراتكم إلى الشام ﴿مصبحين﴾ أى داخلين فى الصباح[1] الوقت الذى قلبنا مدائنهم عليهم فيه ، و نص عليه للتذكير بحالهم فيه .

و لما [كان -[2]] لليل منظر فى الهول غير منظر النهار قال : ﴿و باليل﴾ و لما كان أمرهم كافيا للعاقل فى التقوى ، أنكر عليهم تماديهم فيما كان سبب أخذهم من تكذيب الناصح فقال : ﴿ افلا تعقلون ﴾ أى يكون لكم[3] عقول فتعتبروا بحالهم ، فتخافوا مثل مآلهم ، فتصدقوا رسولكم فانكم أجدر منهم بالأخذ لأنه منكم و أنتم تعرفون من شرف أصله و كريم قوله و فعله ما لايعرفه أولئك من رسولهم .

و لما أكمل سبحانه ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك فى الدنيا أو فى الآخرة ، ختم بمن آل أمر قومه إلى سلامة[4] و إيمان [5]ونعمة[5] و إحسان تغليبا للترجية على التأسية و التعزية فقال مؤكدا لأن ما يأتى من ذكر الأباق ربما أوهم شيئا فى امره : ﴿ و ان يونس ﴾ أى أحد أنبياء بنى إسراءيل و هو يونس بن متى عليه السلام ، حكى البغوى[6] فى قصة إلياس عليه السلام انه لما أرسله الله تعالى إلى سبطه من بنى إسراءيل الذين كانوا فى مدينة بعلبك ، فكذبوه و أراد ملكهم قتله

(١) زيد فى م : فى (٢) زيد من م و مد (٣) سقط من ظ (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اسلامه (٥-٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : رفعة .
(٦) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ / ٢٨ .

فاختفى

فاختفى فى تلك الجبال، اشتاق إلى الناس فنزل فمكث عند امرأة من بنى إسراءيل و هى / أم يونس بن متى عليه السلام، و كان يونس إذ ذاك ٤١٧ / رضيعا ثم رجع إلى الجبال فمات يونس عليه السلام، فأتت أمه إلى تلك الجبال، فما زالت تطوف حتى ظفرت بالياس عليه السلام، فسألته أن يدعو (١) لابنها فيحييه الله، فقال لها: إنى لم أومر بهذا، و إنما أنا عبد مأمور، فجزعت فزاد جزعها و تضرعها إليه، فرق لها و رحمها و سار معها [فوصل -(٢)] إلى بيتها بعد أربعة عشر يوما من حين مات، و هو مسجى فى ناحية البيت، فدعا الله فاحياه لها، و عاد إلياس عليه السلام إلى جبله ﴿لمن المرسلين ﴾.

و لما كان من أعظم المقاصد التسلية على استكبارهم عن كلمة التوحيد و قولهم: إنه شاعر مجنون، ذكر من أمر يونس عليه السلام ما يعرف منه صعوبة أمر الرسالة و شدة خطبها و ثقل امرها [و شدة عنايته سبحانه بالرسل عليهم السلام و أنه ما اختارهم إلا عن علم فهو لا يقولهم و إن اجتهدوا فى دفع الرسالة -(٣)] ليزدادوا ثباتا لأعبائها و قوة [فى -(٤)] القيام بشانها فقال(٥): ﴿اذ ابق﴾ أى هرب حين أرسل من سيده الذى شرفه الله بالرسالة ضعفا عن حملها لأن الأباق الهرب من السيد إلى حيث يظن أنه يخفى عليه ﴿الى الفلك﴾ أى البيت الذى

---

(١) زيد فى الأصل: الله، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٢) زيد من م و مد (٣) زيد من مد (٤) زيد من م (٥) العبارة من «ليزدادوا» إلى هنا ساقطة من مد.

يسافر فيه على ظهر البحر . و لما كان فعله على صورة فعل المشاحن[١] وكان قصده الإيغال[٢] فى البعد و الإسراع فى النقلة قال: ﴿المشحون لا﴾ أى الموقر ملأ ، فلا سعة فيه لشيء آخر يكون فيه، فليس لأهله حاجة فى الإقامة لحظة واحدة لانتظار شيء من الأشياء فحين وضع رجله فيه ساروا ، فاضطرب عليهم[٣] الأمر وعظم الزلزال حتى أشرف مركبهم على الغرق على هيئة عرفوا بها أن ذلك لعبد أبق من سيده، فان عند أهل البحر أن السفينة لا يستقيم سيرها و فيها آبق - نقله الكرمانى و غيره عن ابن عباس رضى الله عنهما، فسبب لهم ذلك المساهمة أى المقارعة كما هو رسمهم فى مثل ذلك الأمر فاستهموا فساهم، أى قارع يونس عليه السلام معهم؛ قال البغوى[٤]: و المساهمة إلقاء السهام على جهة القرعة . و لما آل وقوع القرعة عليه إلى رميه من السفينة من محل علو إلى أسفل، عبر عن ذلك [٥]بما يدل[٥] على الزلق الذى يكون من علو إلى سفل[٦] فقال مسببا عن المساهمة: ﴿فكان من المدحضين ج﴾ أى الموقعين فى الدحض، و هو الزلق، فنزل عن مكان الظفر بأن وقعت القرعة عليه فرموه [٧]فى البحر[٧] ﴿فالتقمه[٨]﴾ أى ابتلعه كما تبتلع اللقمة ﴿الحوت﴾ أى المعروف من جهة أنه لا حوت أكبر منه، فكأنه لا حوت غيره

---

(١) من م ومد، وفى الأصل وظ: الشاحن (٢) من م ومد، وفى الأصل وظ: الايصال (٣) فى ظ: عليه (٤) راجع المعالم بهامش اللباب ٦ / ٣١ (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بحال - كذا (٦) من م و مد: و فى الأصل و ظ: اسفل (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من ظ (٨) ساقط من الأصل فقط .

﴿ وهو ﴾ أى و الحال أن يونس عليه السلام ﴿ مليم ه ﴾ أى داخل فى الملامة .

و لما وقع له ما وقع فتجرد عن نفسه و غيرها تجردا لم يكن لأحد مثل مجموعه لاجرم ، زاد فى التجرد بالفناء[١] فى مقام الوحدانية فلازم التنزيه حتى أنجاه الله تعالى ، و إلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فلولآ انه كان ﴾ أى خلقا و خلقا ﴿ من المسبحين ه ﴾ أى العريقين فى هذا المقام ، و هو ما يصح إطلاق التسبيح فى اللغة عليـــه من التنزيه بالقلب و اللسان و الأركان بالصلاة و غيرها لأن خلقه مطابق لما هيئ[٢] له من خلقه ، فهو لازم لذلك فى وقت الرخاء و الدعة و الخفض و السعة ، فكيف به فى حال الشدة ، و حمله ابن عباس رضى الله عنهما[٣] عـــلى الصلاة ﴿ للبث فى بطنهٓ ﴾ أى حيا أو [بأن ـ[٤]] يكون غذاء له فتختلط أجزاؤه بأجزائه ﴿ الىٰ يوم يبعثون ﴾ أى هو و الحوت و غيرهما من الخلائق ، و عبر بالجمع لإفادة عموم البعث ، و لو أفرد لم يفد بعث الحيوانات العجم ، و لو ثنى لظن أن ذلك له و للحوت خاصة لمعنى يخصهما[٥] فلا يفيد بعث غيرهما ، / و قيل : للبث حيا فى بطنه[٦] ، و فى الآية إشارة إلى حديث / ٤١٨
« تعرف إلى الله [فى الرخاء ـ[٧]] يعرفك فى الشدة » و حث على الذكر

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى الفناء (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : هيا (٣) راجع معالم التنزيل ٦ / ٣١ (٤) زيد من م و مد (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : يخصها (٦) كما ذكره ابن حيان فى النهر من البحر ٧ / ٣٧٤ (٧) زيد من ظ و م و مد .

و تعظيم لشانه .

و لما كان التقدير : و لكنه لما كان ذكارا لله فى حال الرخاء ذكرناه فى حال الشدة ، فأنجيناه من بطنه ، و أخرجناه منه سالما ، وكان ذلك أمرا باهرا للعقل ، أبرزه فى مظهر العظمة فقال: ﴿فنبذنـه﴾ أى ألقيناه من بطن الحوت إلقاء لم يكن لأحد غيره ، وكان ذلك علينا يسيرا ﴿ بالعرآء ﴾ أى المكان القفر [الواسع -[1]] الخالى عن ساتر من نبت أو غيره ، و ذلك بساحل الموصل ،[و -[2]] قال أبو حيان[3]: قذفه فى نصيبين من ناحية الموصل . ﴿و هو سقيم ﴾ أى عليل جدا مما ناله من جوف الحوت بحيث أنه كان كالطفل ساعة يولد و هو إذ ذاك محمود غير مذموم بنعمة الله التى تداركته ، فكان مجتبي و[4] من الصالحين ﴿ و انبتنا ﴾ أى بعظمتنا فى ذلك المكان الذى لامقتضى[5] للنبات مطلقا فيه فضلا عما لاينبت إلا بالماء الكثير .

و لما كان سقمه متناهيا بالغا إلى حد يجل عن الوصف ، نبه عليه بأداة الاستعلاء فقال: ﴿ عليه ﴾ أى و رفعناها حال إنباتنا إياها فوقه لتظله كما يظل البيت الإنسان . و لما كان الدباء من النجم ، وكان قد أعظمها سبحانه لأجله ، عبر عنها بما له ساق فقال: ﴿شجرة﴾ و لما كانت هذه العبارة مفهمة لأنها مما له ساق ، نص[6] عـلى خرق العادة بقوله :

---

(١) زيد من مد (٢) زيد من ظ وم ومد (٣) راجع النهر بهامش البحر المحيط ٧ / ٣٧٤ (٤) زيد فى الأصل : كان ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لايقتضى (٦) زيد فى الأصل : عليه ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .

من

﴿من يقطين ﴾ أى من الأشجار التى تلزم الأرض [1]و تقطن فيها و تصلح لأن يأوى إليها[1] و يقطن عندها حتى يصلح حاله، فانه تعالى عظمها و أخرجها عن عادة أمثالها حتى صارت عليه كالعريش، و اليقطين: كل ما يمتد و ينبسط على وجه الأرض و لا يبقى على الشتاء و لا يقوم على ساق كالبطيخ و القثاء، و المراد به هنا – كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما[2] – شجرة القرع لعظم ورقها و برد ظلها و نعومة ملمسها[3] و أن الذباب لا يقربها، قال أبو حيان[2]: و ماء ورقه[4] إذا رش به مكان لا يقربه ذباب أصلا، و قال غيره: [فيه –[5]] ملاءمة لجسد الإنسان حتى لو ذهبت عظمة من رأسه فوضع مكانها قطعة من جلد القرع نبت عليها[6] اللحم و سد مسده، و هو من قطن بالمكان – إذا أقام به [إقامة –[7]] زائل لا ثابت.

و لما كان النظر إلى الترجية أعظم، ختم بها إشارة إلى [8]أنه لا يميته[8] صلى الله عليه وسلم حتى يقر عينه [9]بأمته كثرة و طواعية[9] و نعمة فقال: ﴿و ارسلنه﴾ أى بعظمتنا التى لا يقوم لها شيء. و لما لم يتعلق الغرض

(١–١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) راجع البحر المحيط ٣٧٥/٧ (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لمسها (٤) من ظ و م و مد و البحر، و فى الأصل: اورقه (٥) زيد من م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عليه. (٧) زيد من ظ و م و مد (٨–٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انها لا يمنيه (٩–٩) من م و مد، و فى الأصل: نامية كثيرة و طواعة، و فى ظ: بامته كثيرة و طواعية.

بتعيين المرسل إليهم ، و هل هم الذين ابق عنهم أولا ؟ قال : ﴿الى مائة الف﴾ و الجمهور على أنهم الذين أرسل إليهم أولا - قاله أبو حيان[1] . و لما كان العدد الكثير لايمكن ناظره[2] الوقوع فيه على حقيقة عدده ، بل يصير - و إن كان أثبت الناس نظرا - يقول[3] : هم كذا يزيدون قليلا أو ينقصونه ، و تارة يجزم بأنهم لاينقصون عن كذا ، و أما الزيادة فممكنة ، و تارة يغلب على ظنه الزيادة ، و هو المراد هنا ، قال : ﴿او يزيدون ج﴾ لأن الترجية فى كثرة الأتباع أقر للعين و أسر للقلب ، و إفهاما لأن الزيادة واقعة ، و هؤلاء المرسل إليهم هم أهل نينوى و هم من غير قومه ، فان حدود أرض بنى إسراءيل الفرات ، و نينوى من شرقى الفرات بعيدة عنه جدا .

و لما تسبب عن إتيانه إليهم انشراح صدره بعد ما كان حصل له من الضيق الذى أوجب له ما تقدم قال : ﴿فامنوا﴾ أى تجريدا[4] لأنفسهم من الحظوظ / النفسانية و لحوقا بالصفات الملكية . و لما كان إيمانهم سبب /٤١٩ رفع العذاب الذى كان أوجبه لهم كفرهم قال : ﴿فمتعنهم﴾ أى و نحن على ما نحن عليه من العظمة لم ينقص ذلك من عظمتنا شيئا و لا زاد فيها ﴿الى حين ﴾ أى[5] إلى انقضاء آجالهم التى ضربناها لهم فى الأزل .

---

(١) فى البحر المحيط ٧ / ٣٧٩ (٢) فى ظ : لناظره (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بقول (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : تجريد (٥) سقط من ظ .

ذكر قصة يونس عليه السلام من سفر الأنبياء

قال مترجمه[١]: نبدأ بمعونة الله و قوته [بكتب نبوة -[٢]] يونان ابن متى النبي: كانت كلمة الرب على يونان بن متى، يقول له: قم فانطلق إلى نينوى المدينة العظيمة و ناد فيها بأن شرارتكم قد صعدت قدامى، و قام يونان ليفر إلى ترسيس[٣] من قدام الرب، و هبط إلى يافا و وجد سفينة تريد تدخل [إلى -[٤]] ترسيس فأعطى الملاح أجرة و نزلها ليدخل معهم إلى ترسيس هاربا من قدام الرب. و الرب طرح ريحا عظيمة[٥] فى البحر، فكان فى البحر موج عظيم، و السفينة كانت تتمايل لتنكسر[٦]، و فرق الملاحون و جأر[٧] كل إنسان إلى إلهه، و طرحوا متاع السفينة فى البحر ليخففوا عنهم، بحق هبط يونان إلى أسفل السفينة و نام[٨] فدنا منه سيد الملاحين و قال له: لما ذا أنت نائم؟ قم فادع إلهك لعل الله يخلصنا و لا نهلك. و قال الرجل لصاحبه: تعالوا نقترع و نعلم هذا الشر من قبل من جاء علينا؟ فاقترعوا فجاءت القرعة على يونان، فقالوا[٩] له: أخبرنا ما هذا الشر؟ و ما ذا هو عملك، و من أين أنت، و من

---

(١) راجع سفر يونان الأصحاح الأول - الكتاب المقدس ص: ١٢٣٦ (٢) زيد من م ومد (٣) من م و مد، وفى الأصل وظ: توسيس، و فى سفر يونان: ترشيش - كذا فى كل موضع (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) فى مد: عظيما. (٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م: لتنكسر (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: حار (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قام (٩) فى ظ: فقال.

أيّ شعب أنت، و أيتها أرضك؟ فقال لهم يونان: أنا عبراني و لله رب السماء أخشى الذي خلق البر و البحر، ففرق أولئك القوم فرقا شديدا، فقالوا[1] له: ما ذا صنعت؟ لأن أولئك الناس علموا أنه من قدام إلهه هرب، فلما أخبرهم قالوا: ما نصنع بك حتى يسكن عنا البحر لأن البحر هو ذا منطلق يزخر[2] علينا؟ قال لهم يونان: خذوني فاطرحوني في البحر فيسكن[3] عنكم البحر لأني أعلم أن هـذا الموج العظيم من أجلي هاج عليكم، فجهد أولئك الناس أن يرجعوا إلى الساحل، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا، لأن البحر كان ذاهبا يزخر[2] عليهم، و دعوا إلى الرب و قالوا: أيها الرب لا يحسب علينا دم زكي، و لا نهلك بنفس هذا الرجل من أجل أنك أنت الرب، و كل ما شئت تصنع، فأخذوا يونان و طرحوه في البحر، فاستقر البحر من أمواجه، و فرق أولئك الناس من قدام الرب فرقا شديدا، و ذبحوا ذبائح للرب و نذروا له النذور، و هيأ الرب سمكة عظيمة فابتلعت يونان، و كان يونان في أمعاء السمكة ثلاثة أيام و ثلاث ليالي و قال: دعوت الرب في حزني فأجابني، و من بطن الجحيم تضرعت إليه، و سمع صوتي[4] و طرحني في الغوط[5] في قلب البحر، و الأنهار احاطت بي، و كل أمواجك و أهياجك عليّ [جازت -[6]].

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: عللوا (٢) من م و مد، و في الأصل و ظ: يزجر (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: فسكن (٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: صوطي (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: الفرط.

(٦) زيد من م و مد.

أنا

أنا بحق قلت : إنى قد تباعدت من قدام عينيك ، من الآن [1] أرى [1] أعود فأنظر إلى هيكلك المقدس ، و قد أحاطت بى المياه حتى نفسى [2] و الأهوال أحاطت بى ، و فى أسفل البحر احتبس [3] رأسى ، و إلى أسافل الجبال هبطت ، و الأرض أطبقت أغلاقها فى وجهى إلى الدهر ، إذا اغتمت نفسى للرب ذكرت و دخلت صلاتى قدامك إلى هيكلك المقدس ، فكل الذين يحفظون [4] الأنساك البطالة [4] رحمتهم فتركوا ، أنا بحق بصوت [5] الشكر أقرب لك و أذبح ، و الذى نذرته أوفيه للرب ! فأمر الرب السمكة [6] فقذفت يونان فى اليبس ، و أتى كلام الرب إليه المرة الثانية ، و قال له : قم يا يونان فانطلق إلى نينوى المدينة العظيمة ، و ناد فيها بالنداء / ٤٢٠ الذى أقوله [7] لك ، فقام يونان و انطلق إلى نينوى مثل كلمة الرب ، و نينوى كانت مدينة عظيمة للرب مسيرة ثلاثة أيام ، و تبدأ يونان أن يدخل إلى نينوى مسيرة يوم واحد و نادى و قال : من الآن و إلى أربعين يوما نينوى تنقلب . فآمن أهل نينوى لله و فرضوا الصوم و لبسوا المسوح من عظمائهم حتى صغارهم ، و انتهت الكلمة إلى ملك نينوى [8] فقام عن كرسيه [8]

(١ - ١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : أرى (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تعى (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : احتبست (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الانسال بطالة ، و هذه الجملة وردت فى السفر : الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : صوت (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : السمك (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قول (٨-٨) سقط ما بين الرقمين من ظ .

[1]و نزع تاجه، و اكتسى مسح شعر، و جلس على الرماد، ونادى فى نينوى[1] و قال الملك و أشرافه: و كل الناس و الغدائر و الثيران و الغنم فلا يذوقون شيئا من الطعام و لا يرعون، و ماء فلا يشربون، و لكن فليلبس الناس و الغدائر و يدعو الله بالتضرع، و يرجع كل إنسان عن طريقة السوء، و عن الاختطاف الذى فى يده، و قالوا: من ذا الذى يعلم أن الله يقبل منا و يترحم علينا و يرد عنا غضبه و رجزه[2] لكيلا نهلك، و نظر الله إلى أعمالهم أنهم قد تابوا عن طرقهم السوء فرد[3] عنهم غضب رجزه[2] و لم يبدهم، و حزن يونان حزنا شديدا، و تكره من ذلك جدا، و صلى قدام الرب و قال: أيها الرب! ألم تكن هذه كلمتى، و أنا بعد فى بلادى و لذلك[4] سبقت و فررت إلى ترسيس، قد عرفت بحق أنك الرحمن الإله الرؤف، طويل صبرك و كثيرة نعمتك، و ترد السوء الآن يا رب! انزع نفسى منى لأن الموت أنفع [لى -[5]] من الحياة، فقال له: جدا حزنت يا يونان، و خرج يونان من المدينة و اتخذ له ثمة مظلة و جلس تحتها فى الظل لينظر ما الذى يعرض للمدينة، و أمر الله الرب أصل القرع، و نبت و ارتفع على رأس يونان، فكان ظل[6] على رأسه فتفرج[7] من شدته و فرح [فرحا -[5]] كثيرا يونان بأصل القرع.

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) من م ومد، و فى الأصل وظ: زجره (٣) زيد بعده فى الأصل و ظ: الله، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها. (٤) من ظ و م ومد، و فى الأصل: كذلك (٥) زيد من م و مد (٦) فى سفر يونان: ظلا (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فتفرح.

و فى اليوم الآخر أمر الله الرب دودة فى مطلع الصبح فضربت أصل القرع و قرضته ، فلما طلعت الشمس أمر الله الرب ريح السموم[1] فيبست أصل القرع ، و حميت الشمس فى رأس يونان ، و اغتم و سال الموت لنفسه [و قال : إنك ـ[2]] يارب تقدر تنزع نفسى منى ، لأنى لم أكن أخبر[3] من إياى ، و قال الرب ليونان : جدا حزنت على أصل القرع ، [4]فقال يونان : جدا أحزن حتى الموت ، قال له الرب : أنت أشفقت على أصل القرع[4] الذى لم تعن[5] به و لم تربه ، الذى فى ليلة نبت ، و فى ليلة يبس ، فكيف لا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى فيها أكثر من اثنى[6] عشرة ربوة من الناس الذين[7] لايدرون ما بين يمينهم من شمالهم و كثرة من الغدائر ـ انتهى . و لعل أصل القرع المذكور هنا كان نبت عليه حين خرج من بطن الحوت ، فلما اتفق له ما ذكر هنا رجع[8] إليه و قد زاد عظمه فبنى تحته عريشا و جلس تحته ، فكان منه ما كان ، فلا يكون حينئذ ما هنا مخالفا لما ذكر أهل الأخبار فى هذه القصة ـ و الله الموفق .

ولما كان الذى سبق ادعاؤه أمرين[9] أحدهما أن هؤلاء المنذرين

---

(١) زيد فى الأصل : فهبت ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : خيرا .
(٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : لم تغنى (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اثنى (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الذى (٨) من ظ و م ومد ، و فى الأصل : راجع (٩) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : امران .

يسارعون في اقتفاء [1]آثار آبائهم[1] في الضلال، و الثاني أن أكثر الأولين ضلوا، و[2] سيقت دليلا[2] شهوديا على الثاني هذه القصص الست التي ما اهتدى من أهلها أمة بكمالها إلا قوم يونس عليه السلام، كان [ذلك -[3]] سببا للأمر بإقامة الدليل على ضلال هؤلاء تبعا لآبائهم بأمر ليس في بيان الضلال أوضح منه، فقال متهكما بهم [مخصصا الأمر به صلى الله عليه و سلم إشارة إلى عظم هذه النتيجة و أنه لا يفهمها حق فهمها سواه صلى الله عليه و سلم -[4]]: ﴿فاستفتهم﴾ أي فاطلب من هؤلاء الذين

٤٢١/ يعرضون عن دعوتك إلى أباطيلهم أن يجيبوك فتوة منهم و كرما: بأي دليل و بأي حجة حكموا بما يقولونه تبعا لآبائهم في الملائكة الذين تقدم في فاطر أنهم رسل الله، و في يس أنهم في غاية الشدة بحيث أن عذاب الأمة الكثيرة[5] يكفي فيه واحد منهم، و بحيث أن صيحة واحدة من أحدهم يميت الأحياء كلهم، و صيحة أخرى يحيي الأموات كلهم، هذا إلى[6] ما أفادته[7] هذه السورة لهم من الصف و الزجر و التلاوة حين ابتدأت بالإقسام بهم لأن لمقصودها[8] نظرا عظيما إلى أحوالهم في تجردهم وتقديسهم، و يلزم من هذا الاستفتاء [9]تنزيههم و تنزيه[9] الذي خلقهم وذلك[10]

(١ - ١) من م، و في الأصل و ظ: آثارهم بهم، و في مد: آثارهم.
(٢-٢) من م و مد، و في الأصل و ظ: سبقت دلايلا - كذا (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) زيد من م و مد (٥) في مد: الكبيرة (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: اي (٧) من م و مد، و في الأصل و ظ: فادته (٨) من ظ و م و مد، و في الأصل: مقصودها (٩ - ٩) من ظ و م و مد، و في الأصل: تبريتهم و تبرية (١٠) من ظ و م و مد، و في الأصل: كذلك كان هو.

مقصود

مقصود السورة ، [و لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى ما هو دليل عليها فإن الرسول دال على قدر من أرسله فقال -[1]] : ﴿ الربك ﴾ أى خاصة و هو الملك الأعلى الذى رباك و أحسن إليك بهدايتك و الهداية بك و غير ذلك من أمرك حتى كنت أكمل الخلق و أعلاهم فى كل أمر يكون به الكمال و القرب من الله فاصطفاك لرسالته ، ففى إفراد الضمير إشارة إلى أنه لايختار إلا الأكمل الأشرف الأفضل .

[و لما كان المراد تبكيتهم بكونهم جعلوا الأخس لله ، و كانت الإناث أضعف من الذكور ، و لكنها قد تطلق الأنوثة على غير الحيوان ، و كانت الإناث فى بعض الأجناس كالاسحار[2] أشرف ، عدل عن التعبير بالإناث و عبر بما ينص على المراد فقال - [1]] : ﴿ البنات ﴾ أى دون البنين ، و هم - مع أنهم مربوبون مقهورون - يأنفون منهم غاية الأنفة ﴿ و لهم ﴾ أى دونه ﴿ البنون لا ﴾ [مع أن الرب الذى خصوه بأدنى القبيلين تارة يخلق الذكر من تراب و يربيه أحسن تربية ، و أخرى من غيره أو يخرجه من بطن حوت أو غمرات نار أو غير ذلك ، فبأى وسيلة ادعوا له ولدا و الولد لا يكون إلا بالتدريج فى أطوار الخلق من النطفة إلى ما فوقها ، و لا يرضى بذلك إلا عاجز فكيف بادعاء أدنى الصنفين من الولد ، سبحان ربك رب العزة -[1]] .

و لما كان دعواهم لأنوثة الملائكة متضمنة لادعاء العلم باختصاصه عند دعوى الولدية بأدنى القبيلتين أو ادعاء العلم بأنه خلقهم إناثا بمشاهدة[3]

---

(١) زيد من م و مد (٢) ليس واضحا فى م و مد (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بشاهدة .

منهم أو كتاب منه إليهم ، و أما العقل فانه لامدخل له فى ذلك ، قال معلما بأنهم أهل لأن يبكتوا و يستهزأ بهم لأنه لاعلم عندهم باحدى الطريقين ، و لايقدرون[1] أن يدعوا ذلك لئلا يفتضحوا فضيحة لاتنجبر أصلا ، [عائدا إلى التصريح بمظهر العظمة إشارة إلى أن من شأنها كشافة الحجاب -[2]] : ﴿ام خلقنا﴾ أى على ما لنا من العظمة التى إن لم يقتض اختيار الأكمل لم يقتض [الاختصاص بالأدون لأنها منافية بكل اعتبار للدناءة ﴿الملئكة﴾ أى الذين حكموا -[3]] عليهم بالأنوثة ، و هم من أعظم رسلنا و أجل خواصنا و لم يروا منهم أحدا و لاسبيل لهم إلى العلم بأحوالهم باعترافهم بذلك ،[و لما تعين أن المراد بالأنوثة الخساسة و كان فى بعض الإناث قوة الذكور ، عبر بالأنوثة إلزاما لهم فى حكمهم ذلك بخساستين فقال - [2]] : ﴿ اناثا و هم ﴾ [أى و الحال أن هؤلاء الذين ينسبون إلى الله ما لا يليق به -[2]] ﴿ شهدون ه ﴾ أى ثابت لهم شهود ذلك لايغيبون عنه ، فانا كل يوم نجدد منهم من شئنا ، قال الرازى : و كل واحد من الملائكة نوع برأسه ، أما الآدميون فكلهم نوع واحد ، و هو ناقص فى ابتداء الفطرة مستكمل ، و له درجات فى الترقى إلى أن يبلغ[4] مقام المشاهدة ، و هو أن تتجلى له حلية[5] الحق الأول من ذاته و صفاته و ترتيب أفعاله علما[6] لاينفصل عنه و لايغيب فيترقى فى إدراكه عن المحسوسات و الخيالات ، و يترقى فعله عن أن

(١) فى ظ و م : لايقدروا (٢) زيد من م و مد (٣) زيد من ظ وم و مد.
(٤) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : بلغ (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : جبلة (٦) فى ظ : هما .

يكون لمقتضى الغضب أو الشهوة ، و بهذا يقرب من الله تعالى - انتهى .

و لما اشتد تشوف السامع إلى أن يعلم حقيقة قولهم الذى تسبب عنها هذا الاستفتاء ، أعلم سبحانه بذلك فى قوله مؤكدا إشارة إلى أنه قول[١] يكاد أن لا يقر أحد أنه قاله ، معجبا منهم فيه مناديا عليهم بما أبان من فضيحتهم بما قدم من استفتائهم : ﴿ الآ انهم من افكهم ﴾ أى [من أجل أن -[٢]] صرفهم الأمور عن وجوهها [عادتهم -[٢]] ﴿ ليقولون لا ﴾ أى قولا هم مستمرون عليه و إن كانوا لا يقدرون على إبرازه فى مقام / المناظرة ، [و عدل عن مظهر العظمة إلى اسم الجلالة العلم على الذات الجامعة لجميع الصفات إشارة إلى أن كل صفة من صفاته / ٤٢٢ و نعت من نعوته يأبى الولدية فقال -[٢]] : ﴿ ولد اللهلا ﴾ أى وجد له - و هو المحيط بصفات الكمال - ولد و هم على صفة الأنوثة [أى أتى بالولد ، فولد فعل ماض و الجلالة فاعل ، و قرئ شاذا برفع « ولد » على أنه خبر مبتدأ محذوف ، و جر الجلالة بالإضافة ، و الولد فعل بمعنى مفعول كالقبض ، فلذلك يخبر به عن المفرد و غيره و المؤنث و غيره -[٢]] .

و لما أتى سبحانه بالاسم الأعظم إشارة إلى عظيم تعاليه عن ذلك ، صرح به فى قوله دالا على الثبوت مؤكدا لأجل دعواهم أنهم صادقون : ﴿ و انهم لكذبون ﴾ و دل على كذبهم أيضا بانكاره موبخا لهم فى أسلوب الخطاب زيادة فى[٣] الإغضاب فى قوله : ﴿ اصطفى ﴾ بهمزة الاستفهام

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قولالا (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : على .

الإنكارى، و من أسقطها فهى عنده مقدرة مرادة ، أى أخبرونى هل اختار هذا السيد الذى أنتم مقرون بتمام علمه و شمول قدرته و علو[1] سؤدده [ما تسترذلونه . و لما كان التعبير بالبنت أكره إليهم من التعبير بالأنثى ، و التعبير بالابن أحب إليهم من التعبير بالذكور و أنص على المراد لأن الذكر مشترك بين معان ، قال - [2]] : ﴿ البنات ﴾ اللاتى تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم ، و تستحيون من نسبتهن إليكم ، حتى أن بعضكم ليصل فى إبعادهن إلى الوأد ﴿ على البنين ۛ ﴾ فكان حينئذ نظره لنفسه دون نظر أقلكم فضلا عن أجلكم ، و لذلك عظم حسنا و تناهى بلاغة قوله: ﴿ ما ﴾ أى [يا - [2]] معاشر العرب المدعين لصحة العقول و سداد الأنظار و الفهوم ! أىّ شيء ﴿ لكم قف ﴾ من الخير فى هذا المقال ؟ ثم زاد فى التقريع عليه بقوله [3]معجبا منهم[3] : ﴿ كيف تحكمون ﴾ أى فى كل ما سألناكم عنه بمثل هذه الأحكام التى لا تصدر عمن له أدنى مسكة من عقله ، [و عبر بالحكم لاشتهاره فيما يبت فيأبى النقص ، فكان التعبير به أعظم فى تقريعهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه - [2]] .

و لما كان هذا شديد المنافاة للعقول ، عظيم البعد عن الطباع ، حسن جدا قوله أيضا مبكتا : ﴿ افلا تذكرون ج ﴾ أى [4]أدنى تذكر بما أشارت إليه قراءة من خفف بما جمعت من التخفيف و الحذف ، فان الأمر فى غاية الظهور[4]

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عظيم (٢) زيد من م و مد . (٣-٣) من مد ، و فى الأصل وظ : لكم ، و الكلمة ساقطة من م (٤-٤) من م و مد ، و موضع ما بين الرقمين فى الأصل و ظ : يشتد تذكركم .

لما فى عقولكم و طباعكم [من ـ ١] أنكم لا ترضون لأنفسكم أخس[2] المنازل ، فكيف يختاره لنفسه ربكم الذى بيده كل شيء ؟ و إنه لا يكون الولد مطلقا [إلا ـ ٣] ممن[4] له جنس ، فيكون محتاجا إلى جنسه ، و المحتاج لا يكون إلها بوجه .[وأشارت قراءة الجماعة[5] بالتشديد و الإدغام إلى أن الأمر يحتاج إلى مزيد تذكر بما أشار إليه التشديد مع دقة بما أشار إليه الإدغام لأجل حل شبهة من يرى أفعال من يحيى المؤدة فيظن أن ذلك رغبة منهم فى الإناث ، و ليس ذلك إلا رغبة فى دفع فساد القتل و رحمة للضعيف ، و لم يقرأ بالفك إشارة إلى أن الأمر غنى عن الدرجة العليا فى التأمل ـ ١] .

و لما قررهم على شهود ذلك بما تضمن إبطاله عقلا ، فلم يبق من طرق[6] الأدلة إلا السمع ، عادل به قوله : ﴿ ام لكم ﴾ أى على ادعاء ذلك ﴿ سلطن ﴾ أى دليل سمعى بخبر سماوى [قاهر ـ ١] ، و أشار إلى أنه لا يتكلم فى أحوال الملوك[7] إلا بأمر[7] واضح بقوله : ﴿ مبين ﴾ .

و لما كان المراد بهذا ـ و لابد ـ البرهان السمعى ، بينه بما سبب عنه من قوله : ﴿ فاتوا بكتبكم ﴾ أى الذى أتاكم [بذلك السلطان ـ ١] من الملك فى أنه اختار لنفسه ذلك ، و دل على كذبهم تلويحا بعد أن أتى به تصريحا و هو أنكى ما يكون بالإتيان بأداة الشك فى قوله :

(١) زيد من م و مد (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : احسن (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) فى ظ : لمن (٥) راجع نثر المرجان ٦/٥٤ – ٥٥ (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : طريق (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الأمر .

﴿ ان كنتم صّدقين ه ﴾ و هذه الآيات[1] صادرة عن سخط عظيم و إنكار فظيع ، و الأساليب التى وردت عليها ناطقة بتسفيه أحلام المدعى لذلك و بجهل نفوسهم ، و استركاك عقولهم ، مع استهزاء و تهكم و تعجيب من أن يخطر مثل ذلك على بال فضلا عن[2] أن يتخذ معتقدا ، و يتظاهر به مذهبا .

و لما تم إظهار ضلالهم ، بكتهم فى أسلوب آخر معرضا عن خطابهم تخويفا من إحلال عذابهم فقال[3] : ﴿ و جعلوا ﴾ أى بعض العرب منابذين لما مضى بيانه من الأدلة ﴿ بينه و بين الجنة ﴾ أى الجن الذين هم شر الطوائف؛ [و أنثهم إشارة إلى تحقيرهم عن هذا الأمر الذى أهلوهم له ـ[4]] ﴿ نسبا[5] ﴾ بأن قالوا : إنه ـ جلت سبحات وجهه و عظم تعالى جده ـ تزوج بنات سروات الجن ، فأولد منهم الملائكة ، و من المعلوم أن أحدا لا يتزوج إلا من يجانسه ، فأبعدوا غاية البعد لأنه لا مجانس له . و لما كان النسيب يكرم[5] و لا يهان قال [مؤنثا لضميرهم زيادة فى تحقيرهم ـ[4]] : ﴿ و لقد علمت الجنة ﴾ أى مطلقا[6] السروات منهم و الأسافل ﴿ انهم ﴾ أى الجن كلهم ﴿ لمحضرون لا ﴾ أى إليه بالبعث كرها ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق يوم فصل القضاء / ، و التجلى فى مظاهر العز و العظمة /٤٢٣ و الكبرياء ، فهم أقل من أن يدعى لهم ذلك .

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الآية (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : على (٣) فى ظ : فقالوا (٤) زيد من و مد (٥) فى ظ : يكره (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مطلق .

و لما ذكر ذلك اليوم الأعظم الذى يظهر فيه لكل أحد معاقد الصفات، و تلاشي عند تلك المظاهر أعيان الكائنات، و تنمحى[1] لدى تلك النعوت آثار الفانيات، و كان ذكره على وجه مبين بُعد الجن عن المناسبة، كان مجزأ للتنزيه و موضحا بعد تلك الضلالات للتقديس نتيجة لذلك، فقال [مصرحا باسم التسبيح الجامع لجميع أنواعه، و الجلالة إشارة إلى عظم المقام -[2]]: ﴿سبحٰن الله﴾ أى تنزه[3] الذى له جميع العظمة تنزها[4] يفوت الحصر ﴿عما يصفون لا﴾ أى عما يصفه به جميع الخلائق الذين يجمعهم الإحضار ذلك اليوم، [أو الكفار الذين ادعوا له الولد و جعلوا الملائكة من الولد -[5]] ﴿الا عباد الله﴾ [أى -[2]] الذين يصلحون للاضافة إلى الاسم الأعظم [[6]من حيث إطلاقه على الذات الأعظم، و لذلك أظهر و لم يضمر، لأن الضمير يعود على عين الماضى، فربما أوهم تقييده بما ذكر فى الأول فيفهم تقييد تشريفهم بالتسبيح[6] ﴿المخلصين ه﴾ [6]من جميع الخلائق أو من العرب و هم من أسلم منهم بعد نزول هذه السورة[6] فانهم لايصفونه إلا بما أذن لهم فيه و لأجل أن هذه السورة سورة -[7]] المتجردين عن علائق العوائق عن السير إليه، كرر وصف الإخلاص فيها كثيرا.

و لما نزه نفسه المقدس سبحانه عن كل نقص، دل على ذلك بأنهم

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يتمحى (٢) زيد من م و مد (٣) سقط من مد (٤) فى ظ: تنزيها (٥) زيد من مد (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من ظ. (٧) زيد ما بين الحاجزين من ظ و م و مد.

و جميع ما[1] يعبدونه[2] من دونه لايقدرون على شيء لم يقدره، فقال مسببا عن التنزيه مؤكدا تكذيبا لمن يظن أن غير الله يملك شيئا [مواجها لهم بالخطاب لأنه أنكى و أجدر بالإغضاب -[3]] : ﴿ فانكم و ما تعبدون لا ﴾ أي من الأصنام و غيرها من كل من زعمتموه[4] إلها [و ابتدأ الخبر عن « ان » فصدره بالنافى فقال -[3]] : ﴿ مآ ﴾ [و غلب المخاطبين المعبر عنهم بكاف الخطاب على من عطف عليهم و هم معبوداتهم تنبيها على أنهم عدم كما حقرهم بالتعبير عنهم بما دون « من » فقال مخاطبا -[3]] : ﴿ انتم عليه ﴾ أى على [الله -[5]] خاصة ﴿ بفتنين لا ﴾ أى بمغيرين أحدا من الناس بالإضلال ﴿ الا من هو ﴾ أى فى حكمه و تقديره ﴿ صال الجحيم ۝ ﴾ أى معذب بعذابه لحكمه عليه بالشقاوة فعلم أنكم لاتقدرون أن تغيروا عليه إلا من غيره هو فبحكمه ضل لا بكم، نعوذ بك منك، لامهرب منك إلا إليك، و المراد بتقديم الجار أن غيره قد يقدر على أن يفسد عليه من لا يريد فساده و يعجز عن رد المفسد[6]، [فالتعبير بأداة الاستعلاء تهكم بهم بمعنى أنه ليس فى أيديكم من الإضلال إلا هذا الذى جعله لكم من التسبب، فان كان عندكم غلبة فسموه بها، و توحيد الضمير على لفظ « من » فى الموضعين للاشارة إلى أن الميت على الشرك بعد بعث النبى صلى الله عليه و سلم [7]من العرب[7] قليل، و قرئ شاذا « صالوا » دفعا لظن أنه واحد -[3]] .

(١) فى مد : من (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : يعدونه (٣) زيد ما بين الحاجزين من م و مد (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ : زعموه . (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) فى مد : المفسدين (٧ - ٧) ليس ما بين الرقمين فى مد .

و لما

و لما [1] كان من المعلوم أن هذا الاستفتاء من النبي صلى الله عليه و سلم [وقع -[2]] امتثالا للأمر المصدر به ، و بطل بهذه الجملة قدرتهم و قدرة معبوداتهم التي يدعون لها بعض القدرة ، [3]قال مؤكدا لذلك و مبطلا لقدرة المخلصين أيضا عطفا[4] على " فانكم و ما تعبدون " : ﴿و ما منآ﴾ أي نحن و أنتم و معبوداتكم و غير ذلك ، أحد ﴿الا له مقام معلوم لا﴾ قد قدره الله تعالى في الأزل ، ثم أعلم الملائكة بما أراد منه فلا يقدر أحد من الخلق على أن[5] يتجاوز ما أقامه فيه سبحانه نوع مجاوزة ، فلكل من الملائكة مقام معروف لايتعداه ، و الأولياء لهم مقام مستور بينهم و بين الله لايطلع عليه أحد ، و الأنبياء عليهم الصلاة و السلام لهم مقام[6] مشهور مؤيد بالمعجزات الظاهرة ، لأنهم للخلق قدوة[7] ، فأمرهم على

---

(١) العبارة من هنا إلى « المصدر به و » ساقطة من م (٢) زيد من م .
(٣) العبارة من هنا إلى « و ما تعبدون » ساقطة من نسخة مد ، و ورد موضعها فيها « و كان التقدير سلبا لقدرة المخلصين أيضا ، و ما المخلصون بها دين إليه إلا من حكم اله بجنات النعيم ، و كان من المعلوم أن المأمور بهذا الاستفتاء صلى الله عليه و سلم يتمثل الأمر فيقول : ما تقديره ؟ أفتونى أيها الضالون عما أمرت باستفتائكم عنه إن كنتم محقين وعزة ربى ما أنتم على تغطية شيء مما فضحتكم به هذه الآيات مما ادعيتموه في الملائكة و الجن بقادرين ، عطف عليه قوله تأكيدا لما تقدم من سلب القدرة عن غيره سبحانه إظهارا للنصفة في الحكم بعموم العجز لكل من سوى الله » (٤) من م ، و في الأصل و ظ : عطف (٥) في ظ : انه (٦) سقط من ظ (٧) من مد ، و في الأصل و ظ و م : قدرة .

الشهرة[١]، و أمر الأولياء على السترة ـ قاله القشيرى ، و غير المذكورين من أهل السعادة لهم مقام فى الشقاوة معلوم عند الله تعالى و عند من أطلعه عليه من عباده .

و لما سلب عن الكل كل شيء من القدرة إلا ما وهبهم ، و كان الكفار يدعون أنهم يعبدون الله تعالى و ينزهونه و أن الإشراك[٢] لا يقدح فى ذلك ، بين أن المخلصين خصوا دونهم بمواقف الصفاء ، و مقامات الصدق و الوفاء ، لأن طاعتهم أبطلها إشراكهم ، فقال مؤكدا و مخصصا : ﴿ و انا ﴾ أى يا معشر المخلصين ﴿ لنحن ﴾ أى دونكم ﴿ الصآفون ﴾ أى أنفسنا فى الصلاة و الجهاد و أجنحتنا فى الهواء[٣] فيما أرسلنا به و غير ذلك لاجتماع قلوبنا على الطاعة ﴿ و انا لنحن المسبحون ﴾ أى / المنزهون ٤٢٤ / له سبحانه عن كل نقص [[٤]مما ادعيتموه من البنات[٤] و يجوز أن يكون المعنى : لنا هذا الفعل ، و هو الصف و التسبيح ، و لا ينوى له مفعول البتة ـ[٥]] .

و لما بين ضلالهم و هداه صلى الله عليه و سلم و هدى من اتبعه ـ بما أشار إليه بصفة الربوبية التى أضافها إليه فى قوله « الربك » أعلم بأنهم زادوا على عيب الضلال فى نفسه عيب الإخلاف[٦] للوعد و النقض لما

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الشهود (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الاشتراك (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : هو . (٤-٤) ليس ما بين الرقمين فى م (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الاخلاص .

أكدوه من العهد، فقال مؤكدا إشارة إلى أنه لايكاد يصدق أن عاقلا يؤكد على نفسه فى أمر ثم يخلفه [جوابا لمن يقول: هل نزهوه كما نزهه المخلصون - [١]]: ﴿ و ان ﴾ أى فعلوا ذلك [من الضلال بالشبه التى افتضحت بما كشفناه من ستورها ولم ينزهوا كما نزه المخلصون - [١]] و الحال أنهم ﴿ كانوا ﴾ قبل هذا [٢] ﴿ ليقولون ﴾ أى قولا لا يزالون يجددونه مع ما فيه من التأكيد ﴿ لو ان عندنا ذكرا ﴾ أى على أىّ حال [كان - [٣]] من أحواله من كتاب أو غيره ﴿ من الاولين ﴾ أى من الرسل الماضين ﴿ لكنا عباد الله ﴾ أى بحيث أنا نصير أهلا للاضافة إلى المحيط بصفات الكمال ﴿ المخلصين ۝ ﴾ أى فى العبادة له بلا شائبة من شرك أصلا.

و لما كان هذا الذكر - الذى أتاهم مع كونه أعظم [٤] ذكر أتى [٤] مصدقا لكتب الأولين و كان الرسول الآتى به أعظم الرسل، فكان [٥] لذلك هو [٥] عين ما عقدوا عليه مع زيادة الشرف - سببا لكفرهم قال: ﴿ فكفروا به ﴾ [أى فتسبب عما عاهدوا عليه أنهم كفروا بذلك الذكر مع زيادته فى الشرف على ما طلبوا بالإعجاز و غيره [٢]] فتسبب عن ذلك تهديدهم ممن أخلفوا وعده، و نقضوا مع التأكيد عهده، فقال: ﴿ فسوف يعلمون ۝ ﴾ أى بوعيد ليس هو من جنس كلامهم، بل هو مما [٦] لاخلف فيه بوجه [٦].

---

(١) زيد من مد (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ذلك (٣) زيد من م و مد (٤ - ٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ذكرا أى (٥ - ٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: كذلك (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م.

[١]و لما كان التقدير كما أرشد إليه سياق التهديد : فلقد سبقت كلمتنا على[١] من خالف رسلنا بالخذلان المهين ، عطف عليه قوله : ﴿ و لقد سبقت ﴾ أى فى الأزل ﴿ كلمتنا ﴾ أى على ما لنا من العظمة ﴿ لعبادنا ﴾ أى الذين اخلصوا لنا العبادة فى كل حركة و سكون ﴿ المرسلين جصلے ﴾ الذين زدناهم على شرف الإخلاص فى العبودية شرف الرسالة .

و لما آذنت اللام بعلوهم ، أوضح ذلك ببيان[٢] ما سماه كلمة[٣] لانتظامه فى معنى واحد بقوله : ﴿ انهم ﴾ و زاد فى تأكيده فى نظير ما عند الكفرة على ما تدل عليه أعمالهم أنه[٤] فى غاية البعد فقال : ﴿ لهم ﴾ أى خاصة ﴿ المنصورون صلے ﴾ اى الثابت نصرهم فى الجدال و الجلاد و إن وقع للكفار عليهم فى الثانى ظهور ما . و لما خص بذلك المرسلين ، عم[٥] فقال : ﴿ و ان جندنا ﴾ أى من المرسلين و أتباعهم ، [و لما كان مدلول الجند فى اللغة العسكر و الأعوان و المدينة و صنفا من الخلق على حدة ، قال جامعا على المعنى دون اللفظ نصا على المراد -[٦]] : ﴿ لهم ﴾ أى لا غيرهم ﴿ الغلبون ﴾ أى و إن رئى[٧] أنهم مغلوبون لأن العاقبة لهم إن لم يكن فى هذه الدار فهو فى دار القرار ، و قد جمع لهذا النبى الكريم فيهما . و سمى هذا كله كلمة لانتظامه معنى واحدا ، و لا يضر انهزام فى بعض المواطن[٨] من بعضهم[٩] ولا وهن قد يقع ، وكفى دليلا على هذا

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : بيان. (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : كله (٤) فى ظ : انهم (٥) من ظ و م ومد ، وفى الأصل : اعم (٦) زيد من م (٧) من م و مد ، وفى الأصل وظ : راى (٨) فى مد : المواضع (٩) فى ظ : بعض .

سيرة النبي صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الثلاثة بعده رضى الله عنهم .

و لما ثبت لامحالة بهذا أنه صلى الله عليه و سلم هو المنصور لأنه من المرسلين[1] و من جند الله ، بل هو أعلاهم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فتولّ ﴾ أى فكلف[2] نفسك الإعراض ﴿ عنهم ﴾ أى عن ردهم عن الضلال قسرا ﴿ حتى حين لا ﴾ أى مبهم ، و هو الوقت الذى عيناه لنصرك فى الأزل ﴿ و ابصرهم ﴾ أى يبصرك و بصيرتك عند الحين[3] الذى ضربناه لك و قبله : كيف نؤديهم أحوالهم و تقلباتهم كلما[4] تقلبوا [إلى سفول -[5]] .

و لما كانوا قبل الإسلام عميا صما لأنهم لا[6] يصدقون وعدا [و -[5]] لا وعيدا ، و لا يفكرون فى عاقبة ، حذف المفعول من فعلهم فقال متوعدا محققا بالتسويف لا مبعدا : ﴿ فسوف يبصرون ﴾ اى يحصل لهم الإبصار الذى لاغلط فيه بالعين و القلب بعد ما هم فيه من العمى ، و هذا الحين واضح فى يوم بدر و ما كان من أمثاله قبل الفتح ، فانهم كان لهم فى تلك الأوقات نوع من القوة ، فلذلك / أثبتهم نوع إثبات فى أبصرهم[7] . /٤٢٥

و لما كانت عادتهم الاستعجال بما يهددون به استهزاء كلما ورد عليهم تهديد ، سبب عن ذلك الإنكار عليهم على وجه هو تهديد آخر لهم فقال : ﴿ افبعذابنا ﴾ أى على ما علم له من العظمة باضافته إلينا

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المرسل (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تكلف (٣) فى الأصل بياض ، ملأناه من ظ و م و مد (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : كما (٥) زيد من م و مد (٦) سقط من ظ (٧) فى ظ : ابصر .

﴿ يستعجلون ﴾ أى يطلبون أن يعجل لهم فيأتيهم قبل أوانه الذى ضربناه له[1] . و لما علم [2]من هذا[2] أنه لابشرى لهم يوم حلوله ، و لاقرار عند نزوله ، صرح بذلك فى قوله : ﴿ فاذا ﴾ أى هددناهم و أنكرنا عليهم بسبب أنه اذا ﴿ نزل بساحتهم ﴾ أى غلب عليها لأن ذلك شأن النازل بالشيء [3]من غير[3] إذن صاحبه و لا يغلب عليها إلا وقد غلب على أهلها فبرك عليهم بروكا لايقدرون معه على البروز إلى تلك الساحة [و هى الفناء الخالى من الأبنية كأنه متحدث القوم و موضع راحتهم ـ[4]] فى أى وقت كان بروكه من ليل أو نهار ، و لكنه لما[5] كانت عادتهم الإغارة صباحا ، قال على سبيل التمثيل مشيرا بالفاء إلى أنـــه السبب لا غيره ﴿ فسآء صباح المنذرين ﴾ أى الذين هم أهل للتخويف [من هؤلاء و غيرهم ـ[6]] ، و هذا[7] التهديد لا [يصلح لأن ـ[8]] ينطبق على يوم الفتح ، و لقد صار من لم يتأهل لغير الإنذار فيه فى غاية السوء ، و هم الذين قتلهم النبى صلى الله عليه و سلم فى ذلك اليوم ، ومنهم من تعلق بأستار الكعبة فلم يفده ذلك ، و لكنهم كانوا قليلا . و الباقون إن كان ذلك الصباح على ما ساءهم منظره فلقد سرهم[9] لعمر الله مخبره[10] .

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لهم (٢ ـ ٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بهذا (٣ ـ ٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بغير (٤) زيد من م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ما (٦) زيد من مد (٧) زيد فى الأصل : التخويف و ، ولم تكن الزيادة فى ظ وم ومد فحذفناها (٨) زيد من ظ و م ومد (٩) من ظ ومد ، و فى الأصل و م : شرهم (١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مخبرهم .

و لما كان صلى الله عليه و سلم نبي الرحمة لا يستأصل قومه بعذاب، قال دالا على ذلك بتكرير الأمر تأكيدا للتسلية، و وعد النصرة مع ما فيه من زيادة المعنى على الأول، عاطفا على « تول[1] » الأولى: ﴿ و تول ﴾ أى كلف نفسك الصبر عليهم فى ذلك اليوم الذى ينزل بهم العذاب الثانى و الإعراض ﴿ عنهم حتى حين ﴾ و كذا[2] فعل صلى الله عليه و سلم فانه حل بساحتهم يوم الفتح صباحا، فلم يقدروا على مدافعة[3].

و لما كابر بعضهم و دافع، لم يكن بأسرع من أن ولوا و طلبوا السلامة بالدخول فيما جعله صلى الله عليه و سلم علما على التأمين، و قال حماس بن قيس أخو[4] بنى بكر لما دخل بيته لامرأته: أغلقى على الباب، فعيرته بالهزيمة بعد أن كانت [5]تنهاه عن[5] منابذة المسلمين فلا ينتهى و يقول لها: [6]لابد، أن أخدمك بعضهم[7]:

إنك لو شهدت يوم الخندمه[8]   إذ فر صفوان و فر عكرمه

---

(١) من مد، وفى الأصل و ظ و م: قول (٢) من ظ و م ومد، وفى الأصل: كذلك (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مدافعته (٤) من ظ و م ومد، و فى الأصل: آخر (٥ - ٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تهدده على. (٦) زيد فى الأصل: بل، ولم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) زيد فى الأصل: شعرفى المعنى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها، و هذا الحدث و الأبيات الآتية قد ذكرها ابن هشام فى السيرة ٢ / ٢١٧ (٨) من ظ و م و مد و السيرة، و فى الأصل: الخدمة.

و استقبلتنا بالسيوف المسلمه[١] يقطعن كل ساعد و جمجمه

ضربا فلا يسمع إلا غمغمه لهم نهيت[٢] خلفنا و همهمه

لم تنطق [٣] فى اللوم[٣] أدنى كلمه

و لما كان هذا منطبقا على يوم الفتح ، وكان ذلك اليوم قد أحل الكفار محلا صاروا به بحيث لا اعتبار لهم قال : ﴿ و ابصر ﴾ مسقطا ضميرهم ، أى أبصر ما تريد من شؤنك التى يهمك النظر فيها ، و أما هم[٤] فصاروا بحيث لا يبالى بهم [٥]و لا يفكر[٥] فى أمرهم و لا يلتفت إليهم ، فانا أبدلنا من عزتهم ذلا ، و من كثرتهم قلا ، و جردنا تلك الأراضى من قاذورات الشرك[٦] ، و أحللنا [بها -[٧]] طهارة التنزيه و أقداس التحميد ، وكذا كان ، فانه صلى الله عليه و سلم قال لهم و هو على درج الكعبة و هم تحته كالغنم المجموعة فى اليوم المطير بعد أن قال[٨] / « لا إله /٤٢٦
إلا الله وحده [٩]لا شريك له[٩] صدق وعده و نصر عبده [٩]و أعز جنده و هزم[٩] الأحزاب وحده » : ما تظنون أنى فاعل بكم[١٠] يا معاشر قريش ؟ قالوا :

---

(١) هناك بعض المفارقات فى السيرة فى ترتيب الأبيات (٢) من ظ و م و مد و السيرة ، و فى الأصل : فمت - كذا (٣ - ٣) من م و مد و السيرة ، و فى الأصل و ظ : باللوم (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مهم (٥-٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كان يكن (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المشركين (٧) زيد من م و مد (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كان .
(٩-٩) ليس ما بين الرقمين فى ظ و م و مد (١٠) فى ظ و م و مد : فيكم .

خيرا

خيرا ، أخ كريم و ابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، و قال له صفوان بن أمية : اجعلنى بالخيار شهرين ، قال أنت بالخيار أربعة أشهر ، و لم يكلف أحدا منهم الإسلام حتى أسلموا بعد ذلك طوعا من عند آخرهم . و لما حاصر الطائف فعسرت عليه انصرف عنها ، فما لبثوا أن أرسلوا إليـــه رسلهم و أسلموا فحسن إسلامهم و لم يرتد أحد منهم فى الردة ، و هذا من معنى ﴿ فسوف يبصرون ۝ ﴾ .

و لما تقرر له سبحانه من العظمة ما ذكر ، فكان الأمر أمره و الخلق خلقه ، ثبت تنزهه عن كل نقص و اتصافه بكل كمال ، فلذلك كانت[١] نتيجة [ذلك -[٢]] الختم بمجامع التنزيـــه و التحميد [فقال -[٣]] : ﴿ سبحن ربك ﴾ أى المحسن إليك بارسالك و إقامة الدليل الظاهر المحرر على صدقك بكل ما يكون من أحوال أعدائك من كلام أو سكوت ، و تأييدك بكل قوة و إلباسك كل هيبة ﴿ رب العزة ﴾ [أى -[٢]] التى[٤] هو مختص بها - [بما -[٢]] أفهمته الإضافة و أفاده شاهد الوجود و حاكم العقل ، و قد علم بما ذكر فى هذه السورة أنها تغلب كل شىء و لا يغلبها شىء ، و فى إضافة الرب إليه و إلى العزة[٥] إشارة إلى اختصاصه صلى الله عليه و سلم و كل من وافقه فى أمره عن جميع الخلق بالعزة و إن رئى فى ظاهر الأمر غير ذلك ﴿ عما يصفون ۝ ج ﴾ مما يقتضى النقائص لما ثبت

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل وظ : كان (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) زيد من م و مد (٤) فى مد : الذى (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : العز .

من ضلالهم و بعدهم عن الحق .

و لما قدم السلام على من شاه تخصيصه فى هذه السورة من رسله عمهم فقال عاطفا على " سبحٰن " : ﴿ و سلٰم ﴾ أى تنزه له و سلامة و شرف و فخر و علا ﴿ على المرسلين ج ﴾ أى الواصفين له بما هو له أهل ، الذين اصطفاهم ، الصافين صفا ، الزاجرين زجرا ، التالين ذكرا ، من البشر و الملائكة المذكورين فى هذه السورة[١] و غيرهم لأجل ما حكم لهم به سبحانه فى الأزل من العز و النصر ﴿ و الحمد ﴾ أى الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أى الجامع لجميع الأسماء الحسنى التى[٢] دل عليها بمجموع خلقه ، و إلى ذلك أشار بقوله : ﴿ رب العٰلمين ع ﴾ فهو حينئذ الواحد المتعال ، الذى تنزه عن الأكفاء و الأمثال ، و النظراء و الأشكال ، فى كل شىء من الأقوال و الأفعال ، و الشؤن و الأحوال ، و لقد توافق آخرها - كما ترى - و أولها ، و تعانق مفصلها و موصلها - و الله الهادى[٣] إلى الصواب[٣] .

* * *

(١) فى ظ : السورتين (٢) من م و مد ، وفى الأصل وظ : الذى (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد ، و كتب هنا بهامش م : وافق الفراغ من كتابة هذا الجزء على يد أبى البقاء عبد القادر بن محمد العربانى رابع محرم الحرام سنة ١٠٧٣ .

سورة ص[1]

[2]المقصود منها بيان ما ذكر فى آخر الصافات من أن جند الله هم الغالبون - و إن رئى أنهم ضعفاء، و إن تأخر نصرهم - غلبة آخرها سلامة للفريقين، لأنه سبحانه واحد لكونه محيطا بصفات الكمال كما أفهمه آخر الصافات من التنزيه و الحمد و ما معها[3]، و على ذلك دلت تسميتها بحرف «ص» لأن مخرجه من طرف اللسان، و بين أصول الثنيتين السفليتين، و له من الصفات الهمس و الرخاوة و الإطباق و الاستعلاء و الصفير، فكان دالا على ذلك لأن مخرجه أمكن مخارج الحروف و أوسعها و أخفها و أرشقها و أغلبها. و لأن ما له من الصفات العالية أكثر من ضدها و أفخم و أعلى و أضخم، و لذلك ذكر من فيها من الأنبياء الذين لم يكن على أيديهم إهلاك، / بل ابتلوا و عرفوا و سلمهم الله من أعدائهم من / ٤٢٧ الجن و الإنس، و إلى ذلك الإشارة بما روى عن ابن عباس[4] رضى الله عنهما و عن غيره من أن معناه: [الله -[5]] صادق فيما وعد، أو صدق محمد صلى الله عليه و سلم، أو صاد محمد صلى الله عليه و سلم قلوب الخلق و استمالها، و به قرأ أبو عمرو فى رواية شاذة على أنه فعل ماض من

---

(١) وهى ثمان و ثمانون آية فى الكوفى وست و ثمانون فى الحجازى و البصرى و الشامى، و خمس و ثمانون فى عد أيوب بن المتوكل وحده - راجع روح المعانى ٧ / ٢٢٦ (٢) زيد قبله فى الأصل: مقصودها الذكر، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: معها.
(٤) راجع معالم التنزيل بهامش لباب التأويل ٦/ ٣٤ (٥) زيد من ظ وم ومد.

الصيد، و قرأ الحسن و غيره بكسر الصاد[1] على "أنه أمر"[2] من المصاداة و هى المعارضة[3] أى[4] عارض بما أنزلناه إليك "الخلائقَ و"[5] جادلهم به فانك تغلبهم لأن[6] الصدق سيف الله[7] فى أرضه، ما[6] وضعه على شىء إلا قطعه. و قد انبسط هذا الصدق الذى أشار إليه الصاد على كل صدق فى الوجود فاستمال [كل -[8]] من فيه نوع من الصدق، و لهذا قال فى السورة التى بعدها "و الذى جاء بالصدق و صدق به[9]" فذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام شاهد وجودى على ما هو معنى الصاد عند العلماء الربانيين من أنه مطابقة ما بين الخلق و الأمر؛ و تسمى سورة داود عليه السلام - كما قاله ابن الجوزى رحمه الله - و حاله صلى الله عليه و سلم أدل أحوال من فيها من الأنبياء على هذا المقصود، لما كان فيه من الضعف أولا و الملك آخرا ﴿ بسم الله ﴾ الذى يعز من انتمى إليه و إن كان ضعيفا لأنه العزيز ﴿ الرحمن ﴾ الذى له القدرة التامة على أن يرحم بالضراء كما يرحم بالسراء ﴿ الرحيم ﴾ الذى أكرم أهل وده، بالإعانة على لزوم شكره و حمده.

و لما نزه ربنا سبحانه نفسه الأقدس فى ختام تلك عن كل شائبة

---

(١) راجع نثر المرجان ٦ / ٦١ (٢ - ٢) فى الأصل و ظ بياض ملأناه من م و مد و نثر المرجان (٣) فى مد: المصادرة (٤) فى الأصل و ظ بياض ملأناه من م، و هذا اللفظ مع ما يليه ساقط من مد (٥-٥) من م ومد، و فى الأصل و ظ: اى (٦) فى الأصل و ظ بياض ملأناه من م و مد (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: انه (٨) زيد من ظ و م و مد (٩) راجع آية ٣٣.

نقص، و أثبت له كل كمال ناصا على العزة، و أوجب للمرسلين السلامة، افتتح هذه بالإشارة إلى دليل ذلك بخذلان من ينازع فيه فقال: ﴿صٓ﴾ أى إن أمرك - يا من أمرناه باستفتاء العصاة آخر الصّٰفّٰت [و -[1]] بشرناه بالنصر - [مهيأ -[2]] مع الضعف الذى أنتم به الآن و الرخاوة والإطباق، و علو و انتشار يملأ الآفاق ﴿و القرآن﴾ أى الجامع - مع البيان لكل خير - لأتباع لايحصيهم العد[3]، و لا يحيط بهم الحد. و لما كان [القسم -[1]] لايليق و لا يحسن إلا بما يعتقد المقسم له شرفه قال: ﴿ذى الذكر ۝﴾ أى الموعظة و التذكير بما يعرف، و العلو و الشرف و الصدق الذى لاريب فيه عند كل أحد، فكل من سمعه اعتقد شرفه و صدق الآتى به ليملأن شرفه المنزل عليه الأقطار، و ليزيدن[4] على كل مقدار، كما تقدمت الدلالة عليه بالحرف الأول، و الذين كفروا و إن أظهروا الشك فى ذلك و انتقصوه[5] [قولا -[1]] فانهم لاينتقصونه علما ﴿بل الذين كفروا﴾ بما يظهرون من تكذيبه ﴿فى عزة﴾ أى عسر و صعوبة و مغالبة بحمية الجاهلية[6] مظروفون لها، فهى معمية لهم عن الحق لإحاطتها بهم، و أنثها إشارة إلى ضعفها، و بشارة بسرعة زوالها و انقلابها إلى ذل[6] ﴿و شقاق ۝﴾ [أى -[7]] إعراض و امتناع و استكبار عن قبول الصدق من لسانى[8] الحال الذى أفصح به الوجود، و القال الذى

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد من مد (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: العدد (٤) فى م: ليردن (٥) من مد، و فى الأصل و ظ و م: تنقصوه (٦ - ٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) زيد من م و مد (٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تساق.

صرح به الذكر فهداهم إلى ما هو فى فطرهم و جبلاتهم بارشق عبارة و أوضح إشارة لو كانوا يعقلون، فأعرضوا عن تدبره عنادا منهم لا اعتقادا فانهم لايكذبونك[١] و لكن الظالمين بآيت الله يجحدون، و تنكيرهما للتعظيم، قال الرازى: حذف الجواب ليذهب فيه القلب كل مذهب ليكون أغزر و بحوره[٢] آزخر - انتهى.

/٤٢٨ و قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: / لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم فى العتو و التكذيب، و أن ذلك أعقبهم[٣] الأخذ الوبيل و[٣] الطويل، كان هذا مظنة لتذكير حال مشركى العرب و بيان سوء مرتكبهم و أنهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب، فحل بالمعاند سوء العذاب، فبسط حال هؤلاء[٤] و سوء[٤] مقالهم ليعلم أنه لافرق بينهم و بين مكذبى الأمم السالفة فى استحقاق العذاب و سوء الانقلاب، و قد وقع التصريح بذلك فى قوله تعالى " كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و فرعون ذو الاوتاد - إلى قوله: ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب " و لما آتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم فى قوله " عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب " أتبع ذلك بأمر نبيه صلى الله عليه و سلم بالصبر فقال " اصبر على ما يقولون " ثم آنسه بذكر الأنبياء و حال المقربين الأصفياء " وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك " - انتهى.

---

(١) فى ظ: لايكذبوك (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بجورة.
(٣ - ٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الوبل (٤ - ٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: موسر.

و لما كان للعلم الذى أراد الله إظهاره فى هذا الوجود طريقان: حال و مقال، فأما الحال فهو ما تنطق به أحوال الموجودات التى أبدعها سبحانه فى هذا الكون من علوم يدرك منها من أراد الله ما أراد، و أما المقال فهو هـــذا الذكر الذى هو ترجمة عن جميع الوجود، و كان سبحانه قد قـــدم الذكر لأنه أبين و أظهر، و أخبر أنهم أعرضوا عنه و شاقوه[1]، و كان من شاقق الملك استحق الهلاك، و كان ما[2] أبدوه من المغالبة أمرا غائظا [3]للمؤمنين، أتبعه ما يصلح لتخويف[3] الكافرين و ترجية المؤمنين مما[4] أفصح به لسان الحال من إهلاك المنذرين، و هو أبين ما يكون من دلالاته، و أظهر ما يوجد من آياته، فقال استئنافا: ﴿ كم اهلكنا ﴾ و كأن المنادين بما يذكر كانوا بعض المهلكين، و كانوا أقرب المهلكين إليهم فى الزمان، فأدخل الجار لذلك، فقال دالا على ابتداء الإهلاك: ﴿ من قبلهم ﴾ و أكد كثرتهم بقوله [مميزا -[5]]: ﴿ من قرن ﴾ أى كانوا فى شقاق مثل شقاقهم، لأنهم كانوا فى نهاية الصلابة و الحدة و المنعة - بما دل عليه « قرن ». و لما تسبب عن مسهم بالعذاب دلهم[6] قال [7]جامعا على معنى « قرن » لأنه أدل على عظمة الإهلاك[7]: ﴿ فنادوا ﴾ أى بما كان يقال لهم: إنه سبب للنجاة من الإيمان و التوبة، [8]و [9]استعانوا بمن[9] ينقذهم، أو فعلوا النداء

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: شاققوا (٢) فى ظ: من (٣-٣) تكرر ما بين الرقمين فى الأصل و ظ (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ما.
(٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: ولهم.
(٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨) العبارة من هنا إلى «لا فرار لهم» ص ٣٢٦ س ٣ ساقطة من م (٩-٩) من ظ و مد، و فى الأصل و م: استغاثوا من.

ذعرا و دهشة من غير قصد منادى ، فيكون الفعل لازما ، و قال الكلبي[١] : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا[٢] نادوا «مناص» أى عليكم بالفرار ، فأجيبوا بأنه لا فرار لهم .

و لما قرر سبحانه فى غير موضع أن التوبة لا تنفع إلا عند التمكن و الاختيار لا عند الغلبة و الاضطراب ، قال تعالى مؤكدا لهذا المعنى فى جملة حالية بزيادة التاء التى أصلها هاء فى «لا» أو فى «حين» كما أكدوا بزيادتها فى رب و ثم ، و الهاء فى أراق [٣]و التاء فى[٣] مثال و الان فقالوا : [٤]ربت و ثمت[٤] و اهراق و تمثال و تالان ﴿و لات﴾ أى و ليس[٥] الحين ﴿حين مناص ﴾ أى فرارا بتحرك بتقدم و لا تأخر ، بحركة قوية و لا ضعيفة ، فضلا عن نجاة ، قال ابن برجان[٦] : و النوص يعبر به تارة عن التقدم و تارة عن التأخر و هو كالجماح[٧] و النفار من الفرس ، و نوص حمار الوحش رفعه رأسه كأنه نافر جامح .

و لما كان جعل المنذر منهم ليس محلا للعجب فعدوه[٨] عجبا لما ظهر

---

(١) راجع البحر المحيط ٧ / ٣٨٤ (٢) من البحر ، و فى الأصل و ظ : فاضربوا ، و فى مد : فاضطربوا (٣-٣) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : الثال - كذا (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ربه و اثمة (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ليت (٦) هو عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبى الرجال أبو الحكم . انوى من أهل أشبيلية ، توفى سنة ٦٢٧ هـ - راجع معجم المؤلفين ٥ / ١٤٤ (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : كالخارج . (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فعدوا .

من تقسيمهم[١] القول فيه، عجب منهم فى قوله: ﴿ و عجبوآ ان ﴾ أى لأجل
أن ﴿ جآءهم ﴾ [٢] و لما / كان تعجبهم من مطلق نذارته لا[٣] مبالغته فيها أتى[٤] ٤٢٩
باسم الفاعل دون فعيل [فقال -[٥]]: ﴿ منذر منهم ز ﴾ أى من البشر
ثم من العرب [ثم -[٦]] من قريش و لم يكن من الملائكة مثلا[٧] و كان
ينبغى [لهم -[٨]] أن لايعجبوا من ذلك فان كون النذير بما يحل من
المصايب من القوم المنذرين - مع كونه أشرف لهم - أقعد فى النذارة
لأنهم أعرف به و بما هو منطو عليه من صدق و شفقة و غير ذلك،
و هو الذى جرت به العوائد فى القديم و الحديث [٩]لكونهم إليه[٩] أميل،
فهم لكلامه أقبل.

و لما كانوا أعرف الناس بهذا النذير صلى الله عليه و سلم فى أنه
أصدقهم لهجة و أعلاهم همة و أنه منفى عنه كل نقيصة و وصمة، زاد فى
التعجب بأن قال [١٠]معبرا بالواو دون الفاء لأن وصفهم له بالسحر
ليس شبيه هذا العجب[١٠]: ﴿ و قال ﴾ و لما كانوا يسترون الحق مع معرفتهم
إياه فهم جاحدون لاجاهلون، و معاندون لا غافلون، أظهر موضع الإضمار

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تعنتهم (٢) العبارة من هنا إلى « دون فعيل » ساقطة من م (٣) من ظ و مد، و فى الأصل: لأن منه (٤) من مد، و فى الأصل وظ: اى (٥) زيد من مد (٦) زيد من ظ و م ومد (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بملا - كذا (٨) زيد من م و مد (٩ - ٩) من م و مد، و فى الأصل: لكونه، و فى ظ: لأنه (١٠ - ١٠) سقطما بين الرقين من م.

إشارة إلى ذلك و إيذانا بشديد غضبه فى قوله : ﴿ الكٰفرون هٰذا ﴾ أى النذير .

و[1] لما كان ما يديه من الخوارق إعجازا فعلا و قولا يجذب القلوب ، و كان أقرب ما يقدحون به فيه[2] السحر قذفوه [به - [3]] و لم يعبروا بصيغة مبالغة لئلا يكون ذلك إيضاحا جاذبا للقلوب إليه فقالوا : ﴿ سٰحر ﴾ أى لأنه يفرق بما أتى به بين المرء و زوجه ، فاعترفوا - مع نسبتهم له إلى السحر و هم يعلمون أنهم كاذبون فى ذلك - أن ما أتى به فوق ما لهم من القوى ﴿ كذاب ج صلے ﴾ أى فى ادعائه أن[4] ما سحر به حق ليس هو كسحر السحرة ، و أتوا بوقاحة بصيغة المبالغة و قد كانوا [5] قبل ذلك يسمونه[5] الأمـــين و هم يعلمون أنه لم يتجدد له شىء إلا إتيانه بأصدق الصدق و أحق الحق مع ترقيه فى معارج الكمال من غير خفاء على أحد له أدنى تأمل .

و لما ذكر قولهم الناشئ عن عجبهم ، ذكر سببه ليعلم ان حالهم هو الذى يعجب منه لا حال من أنذرهم بقوله حاكيا قولهم إنكارا لمضمون ما دخل عليه : ﴿ اجعل ﴾ [6] أى صير بسبب ما يزعم أنه يوحى إليه[6] ﴿ الاٰلهة ﴾ أى التى نعبدها ﴿ الٰها واحدا ج صلے ﴾ و لما كان [6] الكلام فى الإلهية التى هى أعظم أصول الدين ، و كان[6] هو صلى الله عليه و سلم و كل من تبعه [بل - [7]] و كل منصف ينكرون أن يكون هذا عجبا ،

---

(١) العبارة من هنا إلى « للقلوب إليه فقالوا » ساقطة من م (٢) فى ظ : فى . (٣) زيد من مد (٤) من ظ و م و مد ، وفى الأصل : اى (٥-٥) فى م ومد : يسمونه قبل ذلك (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) زيد من م و مد .

بل العجب كل العجب ممن يقبل عقله أن يكون الإله أكثر من واحد ، أكدوا قولهم لذلك و إعلاما ١ لضعفائهم تثبيتا لهم ١ بأنهم على غاية الثقة و الاعتقاد لما يقولون ، لم يزلزلهم ما رأوا من منذرهم من الأحوال الغريبة الدالة و لا بد على صدقه ، فسموها سحرا لعجزهم عنها : ﴿ان هذا﴾ أى القول بالوحدانية ﴿لشیء عجاب ہ﴾ أى فى غاية العجب - بما دلت عليه الضمة و الصيغة ، ٢و لذلك قرئ شاذا بتشديد الجيم ، و هي٢ أبلغ ، قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : فلا هم عرفوا الإله و لا معنى الإلهية ، فان الإلهية هي القدرة على الاختراع ، [و تقدير القادرين على الاختراع -٤] غير صحيح لما يجب من وجود٥ التمانع بينهما و جوازه ، و ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا [كاملى الوصف لم يكونا -٤] إلهين ، و كل أمر جر ثبوته سقوطه فهو باطل مطرح٦ - انتهى . و ستأتى / الإشارة إلى الرد عليهم / ٤٣٠
بقوله " العزيز الوهاب " ثم بقوله " و ما من اله الا الله الواحد القهار " .

و لما كان العجب فكيف بالعجاب جديرا بأن يلزم صاحبه ليزداد الناظر عجبا ، بين أنهم فعلوا خلاف ذلك تصديقا لما نسبهم إليه من الشقاق فقال : ﴿و انطلق﴾ و لما كان ما فعلوه لا يفعله عاقل ، فربما ظن السامع ان المنطلق منهم أسقاط من الناس من غيرهم قال : ﴿الملا﴾

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) العبارة من هنا إلى « هى أبلغ » ساقطة من م (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل : هو (٤) زيد من م و مد (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : جود (٦) من ظ و م و مد . و فى الأصل : منطرح ، و هذه الكلمة قد تقدمت على « باطل » فى م و مد .

أى الأشراف، و قال: ﴿ منهم ﴾ أى لا من غيرهم فكيف بالأسقاط منهم و كيف بغيرهم، ثم حقق الانطلاق مضمنا له القول لأنه من لوازمه بقوله: ﴿ ان امشوا ﴾ أى قائلا كل منهم لذلك[1] آمرا لنفسه و لصاحبه بالجد فى المفارقة حالا و مقالا، [2]و إذا وقف على «ان» ابتدئ بكسر الهمزة[3] لأن أصله: امشيوا[4] فالثالث مكسور كما أنه لو قيل لامرأة: اغزى يبتدأ[5] بالضم لأن الأصل: اغزوى كاخرجى ﴿ و اصبروا على آلهتكم ج ﴾ أى لزوم عبادتها و عدم الالتفات[6] إلى ما سواها، قال القشيرى: و إذا تواصى[7] الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم فالمؤمنون[8] أولى بالصبر على عبادة معبودهم و الاستقامة فى دينهم.

و لما كان كل منهم قد أخذ ما سمعه من النبى صلى الله عليه و سلم قلبه و سلب لبه، على ما أشار إليه «ذى الذكر بل» فهو خائف من صاحبه أن يكون قد استحال عن اعتقاد التعدد بما يعرف من تزحزحه فى نفسه، أكدوا قولهم: ﴿ ان هذا ﴾ أى الصبر على عبادة الآلهة ﴿ لشىء يراد صلے ج ﴾ أى هو أهل[9] للإرادة فهو[10] أهل[11] لئلا ينفك عنه،

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كذلك (٢) العبارة من هنا إلى «كاخرجى» ساقطة من م (٣) زيد بعده فى الأصل: على، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٤) من مد، و فى الأصل و ظ: امشوا (٥) من ظ و مد، و فى الأصل: يبتدى (٦) فى مد: التفات (٧) من مد، و فى الأصل و ظ و م: نواصى (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فالمؤمنين (٩) من م و مد، و فى الأصل و ظ: أصل (١٠) من مد، و فى الأصل و ظ و م: هو.

أو

أو الذى يدعو إليه شيء يريده[1] هو و لا نعلم نحن ما هو على ما نحن عليه من الحذق، فهو شيء لا يعلم فى نفسه.

و لما كان كأنه قيل: فما حال ما يقوله؟ قالوا جوابا واقفا مع التقليد و العادة التى وجدوا عليها أسلافهم: ﴿ما سمعنا بهـذا﴾ أى الذى تذكره من الوحدانية ﴿فى الملة الأخرة ج﴾ و تقيدهم لها يدل على أنهم عالمون به فى الملة الأولى، و أنهم عارفون بأن إبراهيم عليه السلام و من وجد من أولاده الذين هم آباؤهم[2] إلى عمرو بن لحى[3] كانوا بعيدين من الشرك ملازمين للتوحيد و أنه لا شبهة لهم إلا كونه سبحانه لم يغير عليهم فى [4]هذه المدد الطوال[4]، و كانوا أيضا يعرفون البعث و لكنهم تناسوه، ذكر ابن الفرات فى تأريخه يوم حليمة من أيام العرب و قال: إن حجر بن عمرو آكل المرار [سار -[5]] إلى بنى أسد فقتلهم و سيرهم إلى تهامة فقال عبيد بن الأبرص من أبيات:

و منعتهم[6] نجدا فقد حلوا على [وحل[7] تهامه -[5]]
أنت المليك[8] عليهم و هم [9]العبيـد إلى[9] القيامـة

و روى الإمام أحمد[10] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يرده (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: او باوهم - كذا (٣) زيدت الواو فى ظ (٤-٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: هذا المد الطويل، و العبارة من بعده إلى «القيامة» ساقطة من م (٥) زيد من مد (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: صعتهم (٧) ليس واضحا فى م (٨) من ظ و مد، و فى الأصل: الميلك - كذا (٩-٩) ما بين الرقمين بياض فى الأصل ملأناه من مد (١٠) فى مسنده ١/ ٤٤٦.

عليه و سلم قال : إن أول من سيب السوايب و عبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر و أنى رأيته يجر أمعاءه فى النار . [1] و روى الطبرانى [2] عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه و سلم قال : أول من غير دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحى بن قمعة [3] . و روى
٤٣١ / البخارى فى فتح مكة [4] عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى / صلى الله عليه و سلم أخرج من البيت صورة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط . فبطل ما يقال [من - [5]] أن أهل الفترة جهلوا جهلا أسقط عنهم اللوم ، و يؤيده ما فى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ! أين أبى ؟ قال : فى النار ، فلما قفى [6] دعاه فقال [6] : إن أبى و أباك فى النار - أخرجه مسلم فى آخر كتاب الإيمان [7] . و قد مر فى سبحان فى قوله تعالى " و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " ما ينفع هنا ، و القاطع للنزاع فى هذا قوله " و لقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله و منهم من حقت عليه الضللة " فما تركت هذه الآية أحدا حتى شملته و حكمت عليه بالجنة أو النار .

---

(١) العبارة من هنا إلى « بالجنة أو النار » س ١٦ ساقطة من م (٢) راجع مجمع الزوائد ١ / ١١٦ (٣) زاد فى المجمع : بن خندف أبو خزاعة (٤) راجع من صحيحه ٢ / ٦١٤ (٥) زيد من ظ و مد (٦ - ٦) من مد ، و فى الأصل و ظ : قال (٧) راجع باب بيان أن من مات على الكفر فهو فى النار ١ / ١١٤ .

و لما كان قوله صلى الله عليه و سلم [وحده - [1]] جديرا بأن يزلزلهم فكيف إذا انضم إليه علمهم بأن أسلافهم لاسيما إسماعيل و أبوه إبراهيم عليهما السلام كانوا عليه[2]، أكدوا قولهم[3]: ﴿ ان ﴾ أي ما ﴿ هٰذآ ﴾ أي الذي يقوله ﴿ الا اختلاق ﴾ ج أي تعمد الكذب[4] مع أنه لاملازمة بين[5] عدم سماعهم فيها و بين كونـــه اختلاقا، بل هو قول يعرف معانيه بأدنى تأمل، روى الترمذي[6] - و قال: حسن صحيح - و النسائي[7] [و -[8]] ابن حبان في صحيحه و أحمد[9] و إسحاق[10] و أبو يعلى و الطبري[11] و ابن [أبي -[12]] حاتم[7] و غيرهم[13] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، و جاءه النبي صلى الله عليه و سلم و عند أبي طالب مجلس رجل فقام[14] أبو جهل كي يمنعه، قال: و شكوه إلى أبي طالب - زاد النسائي في الكبير[15] و أبو يعلى: و قالوا[16]: يقع في آلهتنا

---

(١) زيد من م و مد (٢) سقط من ظ (٣) في م: قوله (٤) العبارة من هنا إلى «بأدنى تأمل» ساقطة من م (٥) من مد، وفي الأصل وظ: عين (٦) راجع جامعه ٢ / ١٥٥ (٧) راجع الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٢٩٥ حيث أخرج الحديث من رواية النسائي و ابن أبي حاتم و غيره (٨) زيد من ظ و م و مد.

(٩) راجع مسنده ١ / ٢٢٧ (١٠) من م و مد، و في الأصل و ظ: ابو اسحاق.

(١١) راجع تفسيره ١٩ / ٧١ [طبعة قديمة] (١٢) زيد من م و مد (١٣) مثلا ابن المنذر و الحاكم و ابن أبي شيبة و ابن مردويه - كما في الدر المنثور.

(١٤) من مد و الجامع، و في الأصل و ظ و م: فقال (١٥) في م: الكبرى.

(١٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: قال.

فقال: يا ابن أخي! ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب و تؤدي إليهم العجم الجزية، قال: كلمة واحدة، قال: كلمـــة واحدة[1]، فقال: و ما هي؟ فقال: يا عم، قولوا «لا إله إلا الله» فقالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا[2] ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، قال: فنزل فيهم القرآن «ص و القرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة و شقاق - إلى قوله: اختلاق» و في التفاسير أنهم قالوا: كيف يسع الخلق كلهم[3] إله واحد.

و لما كان مرادهم بهذه التأكيدات[4] الدلالة على أنهم في غاية الثبات على ما كانوا عليه قبل دعائه، و أبى الله أن يبقى باطلا بغير إمارة يقرنه بها تفضحه، و سلطان يبطله و يهتكه، أتبع ذلك حكاية قولهم [الذي جعلوه دليلا على حرمهم، فكان -[5]] دالا[6] على عدم صدقهم في هذا الحكم الجازم غاية الجزم بالاختلاق[7] المنادي عليهم بأن أصل دائهم و الحامل لهم على تكذيبهم إنما هو الحســـد، فقال[8] [دالا بتعبيرهم بالإنزال على أنه صلى الله عليه و سلم كان جديرا بأن يتوهم فيه النبوة بما كان له قبل الوحي من التعبد و الأحوال الشريفة

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) من ظ و م و مد و الجامع، و في الأصل: واحد (٣) سقط من م (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: التأكيد (٥) زيد من مد (٦) من مد، و في الأصل و ظ و م: الدال (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: باختلاف (٨) زيد في الأصل و ظ و م: أحاكيا، و لم تكن الزيادة في مد فحذفناها.

و قدموا ما يدل على اختصاصه عنادا لما يعلمون من أحواله المقتضية للخصوصيــة بخلاف ما يذكر فى القمر، و عبروا بحرف الاستعلاء إشارة إلى أن مثل هذا الذى يذكره لايقوله إلا من غلب على عقله فقالوا -[1]] : ﴿ اءنزل عليه﴾ أى خاصة ﴿ الذكر ﴾ [أى -[2]] الذى خالف ما نحن عليه و صار يذكر به ، [و زادوا ما دلوا به على الاختصاص تصريحا فقالوا - [1]] : ﴿ من بيننا[4] ﴾ و نحن أكبر سنا و أكثر شيئا ، و هذا كله كما ترى مع مناداته عليهم بالحسد العظيم ينادى عليهم غاية المناداة بالفضيحة ، لأنــه إن كان المدار على رعاية حق الآباء حتى لايسوغ لأحد تغيير دينهم و الطعن عليهم بدين محدث و إن قامت عليه الأدلة و تعاضدت على حقيته البراهين فما لآبائهم غيروا دين آبائهم لأجل ما أحدثه عمرو بن لحى - شخص ليس من قبيلتهم ، و شهدوا على آبائهم بالضلال و هم عالمون بأن ما غيروه دين إسماعيل و من قبله إبراهيم و من تبعهما من صالحى أولادهما عليهم السلام ، و إن كان المدار على المحدث حتى ساغ تغيير دين الأنبياء[3] و من تبعهم باحسان عليهم السلام بما أحدثه عمرو بن لحى / فما لهم لايغيرون[4] ما ابتدع من الضلال بما آتاهم به النبى ٢-
صلى الله عليه و سلم و سموه محدثا ، و إن كان المدار على الحق فما لهم لاينظرون الأدلة و يتبعون الحجج .

و لما كان هذا دالا على انهم ليسوا على ثقة مما جزموا به قال[5] :

---

(١) زيد من مد (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ وم ومد ، وفى الأصل : الاباء (٤) من م ومد ، و فى الأصل و ظ : لايغير (٥) فى ظ : قالوا .

﴿ بل ﴾ أى إنهم ليسوا جازمين بما قالوا و إن أكدوه غاية التأكيد، بل ﴿هم فى شك﴾ أى تردد[1] محيط بهم [2]مبتدئ لهم[2] ﴿من ذكرى ج﴾ [أى -[3]] فلهذا لايثبتون [فيه -[3]] على قول واحد، أى إن أحوالهم فى أقوالهم و أفعالهم أحوال الشاك. [4]وعدل عن مظهر العظمة إلى الإفراد لأن هذا السياق للتوحيد فالإفراد[5] أولى به و ليكون[6] نصا على المراد بعد ذكر آلهتهم قطعا لشبه متعنتيهم.

و لما كانوا[7] فى الحقيقة على ثقة من حقيقته[8] و إن كان قولهم و فعلهم قول الشاك قال: ﴿ بل ﴾ أى ليسوا فى شك منه فى نفس الأمر و إن كان قولهم قول من هو فى شك. و لما كانوا قد جرت لهم مصايب و محن، و شدائد [1]و فتن[1]، ربما: ظنوا أنه[9] لايكون شيء من العذاب فوقها، نفى ان يكونوا ذاقوا شيئا من عذابه الذى يرسله عند إرادة الانتقام، فعبر بما يفيد استغراق النفى فى جميع الزمن الماضى فقال: ﴿ لما يذوقوا ﴾ من أول أمرهم إلى الآن ﴿عذابِ ه﴾ أى الذى أعددته للمكذبين فهم فى عزة و شقاق، و لو ذاقوه لانحلت عرى عزائمهم، و صاروا أذل شيء و أحقره أدناه و أصغره! [1]و إطباق[1]

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من مد (٣) زيد من م و مد (٤) العبارة من هنا إلى «لشبه متعنتيهم» ساقطة من م (٥) من ظ و مد، و فى الأصل: فالايراد (٦) من ظ و مد، و فى الأصل: يكون. (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كان هولا (٨) فى م: حقيته (٩) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ان.

[١]أهل الرسم و أكثر القراء على حذف يائه رسما و قراءة إشارة إلى أنه العذاب الأدنى المذهب لحمية الجاهلية، و إثبات يعقوب وحده لها فى الحالين إشارة إلى أنه العذاب المعد لإهلاك الأمم الطاغية لا مطلق العذاب[١].

و لما أرشد إنكارهم خصوصيته بالذكر بنى[٢] شكهم اللازم منه إثبات أنهم على علم بأنه مرسل، و أنه أحقهم بالرسالة إلى [أن -[٣]] التقدير: أفيهم غيره من هو أهل لتلق هذا الذكر حتى ينزله الله عليه و يترك هذا البشير النذير صلى الله عليه و سلم، عادل به قوله: ﴿ ام عندهم ﴾ أى خاصة دون غيرهم ﴿خزآئن رحمة﴾ [٤]و لما كان إنزال الوحى إحسانا إلى المنزل عليه، عدل[٥] عن إفراد الضمير إلى صفة الإحسان المفيدة للتربية، فقال مخاطبا له صلى الله عليه و سلم لأنه أضخم لشأنه، و أفخم لمقداره و مكانه: ﴿ ربك ﴾ أى المحسن إليك بانزاله ليخصوا[٦] به من شاؤا و يمنعوا من شاؤا " ام يقسمون رحمة ربك " و لما كان لا يصلح للربوبية إلا الغالب لكل ما سواه، المفيض على من يشاء، ما يشاء، [٧]قال: ﴿ العزيز الوهاب ﴾ [أى -[٨]] الذى يغلب كل شيء و لا يغلبه شيء، و يفيض [٧]على جهة التفضل[٧] ما يشاء على من يريد، و له صفة الإفاضة

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من م ومد، و فى الأصل و ظ: يتقى.
(٣) زيد من ظ و م و مد (٤) العبارة من هنا إلى « لمقداره و مكانه » ساقطة من م (٥) من مد، و فى الأصل و ظ: دل (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لحصوا - كذا (٧) العبارة من هنا إلى « التفضل ما يشاء » ساقطة من مد (٨) زيد من م.

متكررة الآثار على الدوام ، فلا معطى لما منع و لا مانع لما أعطى .

و لما سلب عنهم التصرف فى الخزائن ، أتبعه نفى الملك عما شاهدوا منها و هو جزء يسير جدا فقال : ﴿ ام لهم ﴾ أى خاصة ﴿ ملك السمٰوٰت و الارض ﴾ و لما كان الحكم على ذلك لايستلزم الحكم على الفضاء قال : ﴿ و ما بينهما قف ﴾ أى لتكون كلمتهم فى هذا الكون هى النافذة و يتكلموا فى الأمور الإلهية و يسندوا ما شاؤا من الأمور الجليلة إلى من شاؤا ، ثم بين عجزهم و بكتهم و قرعهم و وبخهم بما سبب عن ذلك من قوله : ﴿ فليرتقوا ﴾ أى يتكلفوا الرقى إن كان لهم / ذلك ﴿ فى الاسباب ﴾ أى الطرق الموصلة إلى السماء ليستووا على /٤٣٣ العرش الذى [هو -[1]] أمارة الملك فيدبروا العالم فيخصوا من شاؤا بالرسالة ليعلم أن لهم ذلك و أنه لايسوغ لأحد أن يختص دونهم بشيء .

و لما انتفى عنهم بما مضى و عن كل من يدعون مما لأته و مناصرته من آلهتهم و غيرها خصائص الإلهية ، أنتج ذلك[2] أنهم من جملة عباده سبحانه ، فعبر عن حالهم بأعلى ما يصلون إليه من التجمع و التعاضد الذى دل عليه ما تقدم الإخبار عنه من عزتهم و شقاقهم ، و نفرتهم عن القبول و انطلاقهم ، [3]فقال مخبرا عن مبتدأ حذف[4] لوضوح العلم به :

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد فى الأصل : من ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) العبارة من هنا إلى « لوضوح العلم به » ساقطة من م . (٤) من ظ و مد ، و فى الأصل : محذوف .

﴿ جند ما ﴾ أى ليسوا فى شىء مما مضى و إنما هم جند حقيرون من بعض جنودنا [1]متعاونون فى نجدة بعضهم لبعض[1]، قال أبو حيان[2]: و يجوز ان تكون « ما » صفة أريد بها[3] التعظيم على سبيل الهزء [بهم - [4]] أو[5] التحقير لأن « ما » الصفة تستعمل لهذين المعنيين . و بين بعدهم عن غير ما أقامهم فيه و استعملهم له من الرتب[6] التى فرضها لهم و سفولهم عنها بقوله [1]واصفا لجند[1]: ﴿ هنالك ﴾ أى فى الحضيض عن[7] هذه المرامى العالية، و بين أنه كثيرا ما تحزب أمثالهم على[8] الرسل فما ضروا إلا أنفسهم بقوله واصفا[9] بعد وصف مفردا تحقيرا: ﴿ مهزوم ﴾ أى له الانهزام [صفة - [10]] راسخة ثابتة ﴿ من الاحزاب ه ﴾ أى الذين[11] جرت عادتهم عزة و شقاقا بالتحزب على الأنبياء ثم تكون عليهم الدائرة[12]، و للرسل[13] عليهم [السلام - [14]] العاقبة، فلا تكترث بهم أصلا، قال ابن برّجان: فكان أول جند مهزوم منهم جند غزوة بدر، ثم انبسط

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) فى البحر المحيط ٧/٣٨٦ (٣) فى البحر: به (٤) زيد من البحر (٥) من ظ و مد، و فى الأصل و م « و » (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الترقب (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فى. (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عن (٩) من مد، و فى الأصل و ظ: وصفا، و العبارة من هنا بما فيها هذه الكلمة ساقطة من م إلى « تحقيرا ». (١٠) زيد من ظ و م و مد (١١) من مد، و فى الأصل و ظ و م: الذى. (١٢) فى مد: الدبرة (١٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ: المرسل. (١٤) زيد من م و مد.

صدق الحديث على جنود كثيرة فى وقائع مختلفة .

و لما أوجب[1] ذلك التشوف إلى بيان الأحزاب الماضية، و كانوا أحقر شيء بالنسبة إليه سبحانه مع شدتهم فى أنفسهم، بين ذلك بالتاء الدالة على الرتبة الثانية المؤخرة، و هى رتبة التأنيث اللازم منه الضعف فقال: ﴿ كذبت ﴾ [و لما كانت نيتهم التكذيب لا إلى آخر، عدّوا مستغرقين للزمان فنزع الجار و قيل -[2]] : ﴿قبلهم﴾ أى مثل[3] تكذيبهم .

و لما كان لأول المكذبين من الكثرة و القوة و الاجتماع على طول الأزمان ما لم يكن لمن بعدهم، كانوا مع تقدمهم فى الزمان أحق بالتقديم فى هذا السياق فقال: ﴿ قوم نوح ﴾ و استمروا فى عزتهم و شقاقهم إلى أن رأوا الماء قد أخذهم، و لم يسمحوا بالإذعان و لا بالتضرع إلى نوح عليه السلام فى أن يركبوا معه أو[4] يدعو لهم فينجوا[5] .

و لما كان لقوم هود عليه السلام بعدهم من الضخامة و العز ما ليس لغيرهم مع قوة الأبدان و علو الهمم و اتساع الملك حتى بنوا جنة فى الأرض، أتبعهم بهم، و من مناسبتهم لهم فى أن عذابهم بالريح التى هى سبب السحاب الحامل للماء فقال: ﴿و عاد﴾ مسميا لهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من المكنة بالملك. و استمروا فى شقاقهم إلى أن خرجت عليهم الريح، و رأوها تحمل الإبل فيما بين السماء و الأرض، و هجم

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : وجب (٢) زيد من مد (٣) من مد، و فى الأصل و ظ و م : قبل (٤) من ظ و م، و فى الأصل و مد «و» . (٥) فى م و مد : لينجوا .

عليهم أوائلها و هم يرون[١] هودا عليه السلام و من معه من المؤمنين رضى الله عنهم فى عافية منها، و لم يدعهم[٢] الشقاق يسألونه فى الدعاء لهم و لا يذعنون لما دعاهم إليه.

و لما كان لهم من القوة و الملك فى جميع الأرض و بناء إرم ذات العماد ما يتضاءل معه ملك كل ملك، أتبعهم ملكا ضخما قهر غيره بعز سلطانه و كثرة / أعوانه، حتى ادعى الإلهية فى زمانه، و تكبر بسعة [٤٣٤ /] ملكه و الأنهار الجارية من تحته مع[٣] ما له من الوفاق لهم بأن عذابه كان بالريح باطنا و إن كان بالماء ظاهرا، و ذلك أن موسى عليه السلام لما ضرب البحر أرسل الله الريح ففرقته طرقا[٤] و أيبست تلك الطرق، و لما خلص[٥] بنو إسراءيل أمرها الله تعالى فسكنت، فانطبق البحر على فرعون و آله، فقال تعالى: ﴿ و فرعون ﴾ ذكره باسمه نصا على حقيقة أمره و تصريحا بكفره إبطالا لما أظهره بعض الأخابث من شره طعنا فى الدين و تشكيكا لضعفاء[٦] المسلمين.

و لما نص على كفره، وصفه[٧] بما يدل مع الدلالة على مشاركة عاد فى ضخامة الأمر على كفر قومه فقال: ﴿ذِى الاوتاد ﴾ أى الأسباب الموجبة لثبات الملك و تقويته من علو السلطان بكثرة الأعوان و التفرد

---

(١) فى مد: يريدون (٢) زيدت الواو فى م (٣) فى ظ: من (٤) من ظ و مد، و فى الأصل و م: فرقا (٥) من م و مد، و فى الأصل وظ: خاض. (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لضعف (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: وضعفه.

بالأوامر و سعة العقل و دقة المكر و كثرة الحيل بالسحر و غيره و جودة التدبير بالعدل فيما يزعم و صولة القهر، قال أبو حيان[1] : و أصله من[2] البيت المطنب بأوتاده[3] - قال الأفوه الأودى[4] :

والبيت لايبتنى[5] إلا له عمد   و لا عماد إذا لم ترس أوتاد

و استمروا فى عزة و شقاق و هم يضربون تارة بالطوفان و تارة بالجراد و تارة بالقمل، و أخرى بالضفادع و بغير ذلك، إلى أن رأوا آية البحر التى هى الغاية و لم يردهم شيء من ذلك عن شقاقهم إلى أن غرقوا على كفرهم عن بكرة أبيهم كما صرحت به هذه الآية.

و لما كانت ثمود أضخم الناس بعدهم بما[6] لهم من إتقان الأبنية فى الجبال و السهول و التوسع بعمارة الحدائق و إنباط العيون و غير ذلك من الأمور، مع مناسبتهم لهم فى رؤية[7] الآيات المحسوسة الظاهرة العظيمة أتبعهم بهم فقال: ﴿ و ثمود ﴾ و استمروا فيما هم فيه إلى أن رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها، و لم يكن لهم فى ذلك زاجر يردهم عن عزتهم و شقاقهم.

و لما كان الحامل لثمود على المعصية الموجبة العذاب النساء لأن عاقر الناقة ما اجترأ على عقرها إلا لامرأة منهم جعلت له على عقرها

(١) فى البحر المحيط ٧/٣٨٦ (٢) زيد فى البحر: ثبات (٣) من مد والبحر، وفى الأصل و ظ و م: باوتاد (٤) فى البحر: العوذى (٥) من م و مد والبحر، و فى الأصل و ظ: لايبغى (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: عما (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: رواية.

زواجها

زواجها، و كان الموجب لعذاب قوم لوط إتيان الذكور، فالجامع بينهم شهوة الفرج مع الطباق بالذكور و الإناث، و[1] مع أن عذاب ثمود برجف ديارهم، و عذاب قوم لوط بقلع مدائنهم و حملها ثم قلبها، أتبعهم بهم فقال معبرا بما يدل على قوتهم [مضيفا لهم إلى نبيهم عليه السلام لأنهم عدة مداين ليس لهم اسم جامع كقوم نوح عليه السلام - [2]]: ﴿ و قوم لوط ﴾ [أى -[3]] الذين لهم قوة القيام بما يحاولونه و استمروا فى عزتهم و شقاقهم حتى ضربوا بالعشا و طمس الأعين، و لم يقدروا على الوصول إلى ما أرادوا من الدخول إلى بيت لوط عليه السلام و لا التمكن مما أرادوا و لم يردهم[4] ذلك عن عزتهم و شقاقهم، بل توعدوه بطلوع النهار.

و لما ذكر أهل المدر، أتبعهم طائفة من أهل الوبر يقاربونهم[5] فى الاستعصاء بالشجر[6]، مع أن عذابهم بظلة النار[7] كما كان لقوم لوط عليه السلام حجارة من نار فقال: ﴿ و اصحٰب لـئيكة ﴾ ثم عظم أمرهم تهوينا لأمر قريش و ردعا لهم بالحث على استحضار عذابهم فقال: ﴿ اولـٰئك ﴾ أى العظماء فى التجند و الاجتماع على من يناوونه ﴿ الاحزاب ۝ ﴾ أى الذين أقصى رتب هؤلاء فى المخالفة أن يكونوا مثل حزب منهم.

---

(١) سقطت الواو من ظ (٢) زيد من مد (٣) زيد من ظ وم ومد (٤) زيد فى الأصل و ظ: عن، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٥) فى ظ: يفارقونهم (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بالسحر (٧) من مد، و فى الأصل و ظ و م: النهار.

٤٣٥ / و لما / كان فى معرض المعارضة لتألبهم و شقاقهم، و تجمعهم على المناواة باطلا و اتفاقهم، و لما كانوا لما عندهم من العناد و حمية الجاهلية ربما أنكروا أن يكون هلاك هؤلاء الأحزاب لأجل التكذيب، و قالوا: هو عادة الدهر فى الإهلاك و التخالف فى أسباب الهلاك، قال مؤكدا بأنواع التأكيد: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ كل ﴾ من هذه الفرق كان لهلاكه سبب من الأسباب ﴿ الا ﴾ أنه ﴿ كذب الرسل ﴾ أى كلهم بتكذيب رسوله، فان من كذب رسولا واحدا مع ثبوت رسالته فقد استهان بمن أرسله، و ذلك ملزوم لتكذيب جميع من يرسله لتساوى أقـــدام المعجزات التى ثبتت[1] رسالتهم بها فى إيجاب التصـــديق ﴿ فحق ﴾ أى فتسبب عن ذلك التكذيب أنه حق ﴿ عقاب ع ﴾ أى ثبت عليه فلم يقدر على التخلص منه بوجه من الوجوه [و العدول إلى إفراد الضمير مع أسلوب التكلم لأن المقام للتوحيـــد كما مضى و هو أنص على المراد، و تقدم السر فى حذف الياء رسما فى جميع المصاحف، و قراءة عند أكثر القراء، و فى إثباتها فى الحالين ليعقوب وحده -[2]] .

و لما كان السياق للشقاق و الإذعان للذكر الذى هو الموعظة ذات الشرف:

و لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق عـــلى جوانبه الدم

كان الحال مقتضيا للعقوبة بخلاف ما فى " ق " فان السياق لإنكارهم البعث

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تثبت (٢) زيد من مد.

و صحة النذارة و إثبات المجد، فكان الوعيد فى ذلك كافيا .

و لما كان التقدير: فلقد أعقبنا كلا من أولئك الأحزاب لما حق عليهم العقاب بنوع من الأنواع لا شك فيه عند أحد و لا ارتياب، عطف عليه قوله: ﴿ و ما ﴾ و لما كانت قريش فى شدة العناد و التصميم على الكفر و الاستكبار عن الإذعان للحق و تعاطى جميع أسباب العذاب كأنهم ينتظرونه[1] و يستعجلونه، عبر بما يدل على الانتظار . و لما كانوا لمعرفتهم بصدق الآتى إليهم و القطع بصحة ما يقول كأنهم يرون[2] العذاب و لا يرجعون، جرد [3]فعل الانتظار[3] فقال[4]: ﴿ ينظر[5] ﴾ و حقرهم بقوله: ﴿ هؤلاء ﴾ أى الذين أدبروا عنك فى عزة و شقاق، غاية جهدهم أن يكونوا من الأحزاب الذين تحزبوا على جندنا فأخذناهم بما هو مشهور من وقائعنا و معروف من أيامنا بأصناف العذاب، و لم تغن عنهم كثرتهم و لا قوتهم شيئا و لم يضر جندنا ضعفهم و لا قلتهم ﴿ الا صيحة ﴾ و حقر أمرهم بالإشارة إلى أن أقل شيء من عذابه كافٍ فى إهلاكهم فقال: ﴿ واحدة ﴾ و لما كان السياق للتهديد فعلم به ان الوصف بالوحدة[6] للتعظيم، بينه بقوله: ﴿ ما لها ﴾ أى الصيحة ﴿ من فواق ﴾ أى مزيد أىّ شيء من جنسها يكون فوقها، يقال: فاق أصحابه فوقا و فواقا: علاهم، و قرأه

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ينظرونه (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يردون (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ (٤) زيد فى الأصل: ما، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) سقط من م (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بالواحدة .

حمزة بالضم[1] فيكون كناية عن سرعة الهلاك بها من غير تأخر أصلا، فان الفواق كغراب ما يأخذ المحتضر[2] عند النزاع، و المعنى أنه لايحتاج فى إهلاكهم إلى زيادة على الصيحة الموصوفة لأنه [لا -[3]] صيحة فوقها، ففى ذلك تعظيم أقل شيء من عذابه و تحقير أعلى شيء من أمرهم و يجوز أن تكون القراءتان من فواق الحلب، قال الصغانى[4]: [و الفواق و الفواق أى بالضم و الفتح : ما بين الحلبتين من الوقت -[3]] لأنها تحلب ثم تترك سريعة يرضعها الفصيل / [لتدر، قال فى القاموس -[5]]: أو ما بين فتح يدك و قبضها على الضرع، فالمعنى: ما لها من رجوع كما يرجع اللبن فى الضرع عند الفواق و كما يرجع المريض بالإفاقة من المرض إلى الصحة، أو ما لها من انفصال و افتراق بقـــدر ما يتنفس فيه أحد أقل تنفس و أقصره زمنا كما هى عادة الأصوات المألوفة يكون فيها ترجيع[6] يوجب فى الصوت تقطعا يصير به وقعه ضعيفا فاترا، و اعتماده على مخرجه رخوا، بل هى صماء على نمط واحد لا تفجأ أحدا إلا مات إلا من ثبته الله تعالى، و يجوز أن يكون من فواق[7] المحتضر، أى [أنه -[3]] ليس فيها مقدمة للموت غير قرع الصوت، و هذا موافق لقولهم : [ما لها -[3]]

/٤٣٦

(١) راجع نثر المرجان ٦/٧٣ (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ : المختصر.
(٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ : الصنعانى (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد. و فى الأصل : ترجع (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل : فوات.

من نظرة[1] و راحة - و الله اعلم .

و لما عجب منهم بما مضى، و أبطل شبههم و عرفهم أنهم قد عرضوا أنفسهم للهلاك تعريضا قريبا، أتبع ذلك [2]تعجيبا أشد[2] من الأول فقال: ﴿و قالوا﴾ أى استهزاء غير هائبين ما هددناهم به و لاناظرين فى عاقبته: ﴿ربنا﴾ أى أيها المحسن إلينا ﴿عجل لنا﴾ أى إحسانا إلينا ﴿قطنا﴾ أى نصيبنا من العذاب الذى توعدنا به و كتابنا الذى كتبت فيه ذلك و أحصيت فيه[3] أعمالنا، [و أصله من قط الشيء - إذا قطعه، و منه قط القلم، و أكثر استعماله فى الكتاب - [4]] .

و لما كان المراد بهذا المبالغة فى الاستهزاء بطلب العذاب فى جميع الأزمان التى بينهم و بين القيامة، أسقطوا حرف الجر[5] و قالوا: ﴿قبل يوم الحساب ۝﴾ فجعلوا جميع الزمان[6] الذى بينهم و بينه ظرفا لذلك، و جعلوا تعجيله من الإحسان ليهم دلالة على الإعراق فى الإستهزاء، و عبر بالقط زيادة فى التنبيه على ركوب الهوى من غير دليل فان مادته دائرة فى الأغلب على ما يكره، [و -[7]] اشتقاقه من القط و هو القطع، فالقط النصيب [و الصك -[7]] و كتاب المحاسبة لأنه قطعة من الورق،

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قطرة (٢ - ٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تعجبا اكثر (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فيها (٤) زيد من مد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الجد (٦) فى ظ: الأزمان.
(٧) زيد من ظ و م و مد.

و الحساب قطعة من الأمور ، و هو يقطع[1] فيه بما هو له ، و الساعة - لأنها قطعة من الزمان ، و تقطقط الرجل : ركب رأسه[2] أى تبع هواه الذى هو قطعة من أمره ، و جاءت الخيل قطاقط[3] أى قطعا و جماعات فى تفرقه ، و القط : القطع ، و القطط : القصير الجعد ، و الطقطقة[4] : حكاية صوت الحجارة ، فكأنهم قالوا : [عجل -[5]] من ذلك ما يكون مقطوعا به لاشك فيه و يسمع صوته على غاية الشدة فيهلك و يفرق بين الأحباب و يكتب فى كل صك ، و يتلى خبره فى سائر الأحقاب ، فان ذلك هو أنا لا نرجع عنه لشىء[6] أصلا ، فسبحان الحليم الذى أكرمنا و رحمنا بنبي الرحمة ، فلم يعجل لنا النقمة ، و أقبل بقلوبنا إليه ، و قصر هممنا بعد أن كانت فى أشد بعد عليه . و لما بلغ السيل[7] - فى ركوبهم الباطل عنادا - الزبى[8] ، و تجاوز فى طغيانـــه رؤس الربى ، و كان سؤالهم فى تعجيل العذاب استهزاء مع ما قدموا من الإكذاب ، و الكلام البعيد عن الصواب ، ربما اقتضى أن يسئل فى تعجيل ما طلبوا ، و ربما أوقع فى ظن أن إعراضهم و الابتلاء بهم ربما كان لشىء فى البلاغ أو المبلغ ، بين تعالى أن عادته الابتلاء للصالحين رفعة لدرجاتهم ، فقال تعالى مسليا و معزيا و مؤسيا لهذا النبى الكريم صلى الله عليه و سلم بمن[9] تقدمه من إخوانه الأنبياء

---

(١) من ظ و م ومد ، و فى الأصل : يقع (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : رايه (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قطاط (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : القطقطة (٥) زيد من م و مد (٦) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : بشىء (٧) من مد ، و فى الأصل و ظ وم : السبيل (٨) فى الأصل و ظ بياض ، ملأناه من م و مد (٩) من ظ و م ومد ، و فى الأصل : ممن .

و المرسلين، مذكرا له بما قاسوا[1] من الشدائد و ما لاقوا من المحن، و حاثا على العمل بأعمالهم آمرا بالتأنى و التؤدة و الحلم، و محذرا من العجلة و التبرم و الضجر، و بدأ بأهل الشرف لأن السياق لشرف القرآن الذى يلزم منه شرف صاحبه، تعريفا بأنه لايلزم / من الشرف الراحة فى الدنيا، /٤٣٧
و منبها على أن شرفه محوج عن قرب بكثرة الأتباع إلى الحكم بين ذوى الخصومات و النزاع الذى لا قوام له إلا بالحلم و الأناة و الصبر، و بدأ من أهل الشرف بمن كان أول أمره مثل أول [أمر - [2]] هذا النبى الكريم فى استضعاف قومه له[3] و آخر أمره ملكا ثابت الأركان مهيب السلطان، ليكون حاله مثلا له فيحصل به تمام التسلية: ﴿اصبر﴾ و أشار بحرف الاستعلاء إلى عظيم الصبر فقال: ﴿على ما﴾ و زاد فى الحث عليه بالمضارع فقال: ﴿يقولون﴾ أى يجددون قوله فى كل حين من الأقوال المنكية[4] الموجعة المبكية[5]، فانه ليس لنقص فيك، و لكنه لحكم تجل عن الوصف، مدارها زيادة شرفك و رفعة درجاتك، [و صرف الكلام إلى مقام العظمة لاقتضاء ما يذكر من التسخير لذلك - [6]]: ﴿و اذكر عبدنا﴾ أى الذى أخلصناه لنا و أخلص نفسه للنظر إلى عظمتنا و القيام فى خدمتنا، [و أبدل منه أو بينه بقوله - [6]]: ﴿داود ذا الايد ج﴾ أى القوى[7] العظيمة فى تخليص نفسه من علائق الأجسام، فكانت قوته

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قاموا (٢) زيد من م و مد (٣) سقط من مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المكنية (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: المبكتة (٦) زيد من مد (٧) فى م و مد: القوة.

فى ذلك سيبا لعروجه إلى المراتب العظام .

و لما كان أعظم الجهاد الإنقاذ من حفائر الهفوات و أوامر الشهوات ، بالإصعاد[1] فى مدارج[2] الكمالات ، و معارج الإقبال ، و كان ذلك لايكاد يوجد فى الآدميين لما حفوا به من الشهوات و ركز فى طباعهم من الغفلات ، علل قوته بقوله مؤكدا : ﴿ انه اواب ﴾ أى رجاع إلى الله تعالى ليصير إلى ما خلقه عليه من أحسن تقويم بالعقل المحض أطلق العلو درجة درجة على الرجوع ، لأن ذلك دون الرتبة التى تكون نهاية عند الموت ، فكان المقضى له بها أنزل نفسه عنها ، ثم صار يرجع إليها كل لحظة بما يكابد من المجاهدات و المنازلات و المحاولات حتى وصل إليها بعد التجرد عن الهوى كله . و لما كان الإنسان لايزال يتقرب إلى[3] الله تعالى حتى يحبه فاذا أحبه صار يفعل به سبحانه ، و ظهرت على يديه الخوارق ، قال مستأنفا جوابا لمن سأل عن جزائه[3] على ذلك الجهاد ، مؤكدا له لما طبع عليه البشر من إنكار الخوارق [4]لتقيده بالمألوفات[4] : ﴿ انا ﴾ أى [5]على ما[5] لنا من العظمة التى لايعجزها شىء ﴿ سخرنا الجبال ﴾ أى التى هى أقسى من قلوب قومك فانها أعظم الأراضى صلابة و قوة و علوا و رفعة . بأن جعلناها منقادة ذلولا كالجمل الأنف ، ثم قيد ذلك بقوله : ﴿ معه ﴾ أى مصاحبة له فلم يوجد ذلك التسخير

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى الاصعاد (٢) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : مدارجات (٣) سقط من ظ (٤-٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ليعيد هالمالوفات (٥-٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بما .

ظاهرا

ظاهرا لأحد بعده و لا قبله . و لما كان وجود التسبيح من الجبال شيئا فشيئا أعجب لأنها جماد[١]، عبر بالفعل المضارع ، فقال مصورا لتلك الحال[٢] [معبرا بضمير الإناث إشارة إلى أنها بعد ما لها من الصلابة صارت فى غاية اللين و الرخاوة ، يسبح كل جبل منها بصوت غير مشبه بصوت الآخر ، لأن ذلك أقرب إلى التميز و العلم بتسبيح كل على انفراده -[٣]] : ﴿يسبحن﴾ [و لم يقل : « مسبحة » أو « تسبح » لئلا يظن أن تسبيحها بصوت واحد ليشكل الأمر فى بعضها -[٣]] ، و هو يمكن أن يكون استئنافا و أن يكون حالا بمعنى أنهن ينقدن له بالتسبيح قالا و حالا انقياد المختار المطيع لله .

و لما كان فى سياق الأوبة ، و كان آخر النهار وقت الرجوع لكل ذى إلف إلى مألفه مع أنه وقت الفتور [و -[٤]] الاستراحة من المتاعب قال : ﴿ بالعشى ﴾ اى تقوية للعامل و تذكيرا للغافل . و لما كان فى سياق الفيض و التشريف بالقرآن قال : ﴿ و الاشراق ﴾ أى [فى -[٥]] وقت ارتفاع الشمس عند انتشاب[٦] الناس فى الأشغال ، و اشتغالهم بالمآكل و الملاذ من الأقوال و الأفعال ، تذكيرا لهم و ترجيعا عن مألوفاتهم إلى تقديس ربهم سبحانه . و ليس الإشراق طلوع الشمس ، إنما هو صفاؤها

---

(١) زيدت الواو بعده فى الأصل ، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الجبال (٣) زيد ما بين الحاجزين من مد . (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : انتساب .

و ضوؤها ، و شروقها طلوعها ، [و -[١]] روت أم هانئ رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه و سلم صلى فى بيتها الضحى و قال لها : هذه صلاة الإشراق[٢] / ، و فى الجامع لعبد الرزاق[٣] أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ٤٣٨ / صلاة الضحى فى القرآن ، و لكن لايغوص عليها إلا غائص ، ثم قرأ هذه الآية . و إليها الإشارة أيضا - و الله أعلم - بصلاة الأوابين "و اذكر عبدنا داوٗد ذا الايد انه اواب" "و وهبنا لداوٗد سليمٰن نعم العبد انه اواب" "يجبال اوبى معه" "و الطير محشورة كل له اواب" روى مسلم فى صحيحه و عبد بن حميد فى مسنده و الدارمى فى جامعه المسمى بالمسند عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قال[٤] : صلاة الأوابين حين ترمض الفصال ، و لفظ الدارمى أن النبي صلى الله عليه و سلم خرج عليهم و هم يصلون بعد طلوع الشمس فقال : صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال ، [و لفظ عبد أن النبي صلى الله عليه و سلم أتاهم فى مسجد قباء فرآهم يصلون الضحى فقال : هذه صلاة الأوابين و كانوا يصلونها إذا رمضت الفصال -[٥]] ، أى بركت من شدة الحر و إحراقه أخفافها ، من الرمض - بالتحريك ، و هو شدة الشمس على الرمل و غيره ، و الرمضاء : الشديدة الحر .

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٨ من عدة طرق و ببعض المفارقات (٣) راجع ٣ / ٧٩ (٤) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٩ عن ابن أبي شيبة و مسلم و الطبرانى (٥) زيد ما بين الحاجزين من م و مد .

و لما أخبر سبحانه عن تسخير أثقل الأشياء و أثبتها له، أتبعها أخفها و أكثرها انتقالا، و عبر فيها بالاسم الدال على الاجتماع جملة[1] و الثبات لأنه أدل على القدرة فقال [معبرا باسم الجمع دون الجمع إشارة إلى أنها فى شدة الاجتماع كأنها شيء واحد، ذكر حالها فى وصف صالح للواحد، و جعله مؤنثا إشارة إلى ما تقدم من الرخاوة اللازمة للاناث المقتضية لغاية الطواعية و القبول لتصرف الأحكام -[2]]: ﴿و الطير﴾ أى سخرناها له حال كونها ﴿ محشورة ﴾ أى مجموعة إليه كرها من كل جانب [دفعة واحدة - بما دل التعبير بالاسم دون الفعل و هو أدل على القدرة -[2]] وهى أشد نفرة من قومك وأعسر ضبطا و [3]هذا كما[3] كان الحصى يسبح فى يد رسول الله صلى الله عليه و سلم[4]، و فى يد بعض أصحابه، و كما تحرك الجبل فضربه برجله وقال «اسكن [أحد -[5]]» فسكن[6]، و كما حشر الدبر على رأس عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح رضى الله عنه فمنع من أخذه ليتلعب به، فلما جاء الليل أرسل الله سيلا فاحتمله إلى حيث لم يعرف له خبر و لا وقف له على أثر[7] ﴿ كل ﴾ أى كل واحد [8]من الجبال و الطير[8] ﴿ له اواب ﴾ أى رجاع لأجل داود عليه السلام [خاصة -[2]]

---

(١) سقط من مد (٢) زيد ما بين الحاجزين من مد (٣-٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لهذا (٤) مضى فيما تقدم (٥) زيد من م و مد (٦) راجع صحيح البخارى ١ / ٥١٩ فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه و سلم (٧) ذكره ابن سعد فى طبقاته ٣٣ - ٣٤ / ٣ / ٢ (٨-٨) من مد، و فى الأصل و ظ و م: منها.

عن مألوفه [لا بمعنى آخر مما ألفته -[1]]، فكلما رجع هو عن حكمه و ما هو [فيه -[1]] من الشغل بالخلق إلى تسبيح الحق رجعت معه بذلك الجبال و الطير، [و جعل الخبر مفردا إشارة إلى أنها فى الطواعية فى التأديب قد بلغت الغايـــة حتى كأنها الشيء الواحد، و لم يجعل مؤنثا إشارة إلى شدة زجلها بالتأديب و عظمته، و الإفراد أيضا يفيد الحكم على كل فرد، و لو جمع لطرقه احتمال أن الحكم على المجموع بقيد الجمع -[1]]، فكأن داود عليه السلام يفهم تسبيح الجبال و الطير، و ينقاد له كل منهما إذا أمره بالتسبيح، و كل من تحقق بحاله ساعده كل شيء - قاله القشيرى، ففى هذا إشارة إلى[2] النبي صلى الله عليه و سلم بأنا متى شئنا جعلنا قومك معك فى التسخير هكـذا، فلا تيأس منهم على شدة نفرتهم و قوة سماجتهم و غرتهم، فانا جعلناهم كـذلك لتروض نفسك بهم و تزداد بالصبر عليهم جلالا، و علوا و رفعة و كمالا - إلى غـــير ذلك من الحكم التى لا تسعها العقول، و لا تيأس من لينهم لك و رجوعهم إليك فانهم لا يعدون أن يكونوا كالجبال قوة و صلابة، أو الطير نفرة و طيشا و خفة، فنى شئنا جعلناهم لك مثل ما جعلنا الجبال و الطير مع داود عليه السلام، بل أمرهم أيسر و شأنهم أهون.

و لما كان هذا دالا على الملك من حيث أنه التصرف فى الأشياء العظيمة قسرا، فكان كأنه قيل: كل ذلك إثباتا لنبوته و تعظيما لملكه،

---

(١) زيد من مد (٢) زيد بعده : ف.

قال

قال : ﴿ و شددنا ﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿ ملكه[١] ﴾ بغير ذلك مما يحتاج إليه الملك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما[٢] : كان أشد ملوك الأرض سلطانا .

و لما كان أعظم المثبتات للملك المعرفة قال :: ﴿ و اتينه ﴾ أى بعظمتنا ﴿ الحكمة ﴾ أى النبوة التى ينشأ عنها العلم بالأشياء على ما هى عليه ، و وضع الأشياء فى أحكم مواضعها ، فالحكمة العمل بالعلم . و لما كان تمامه بقطع النزاع قال : ﴿ و فصل الخطاب ﴾ أى و معرفة الفرق بين ما يلتبس فى كلام المخاطبين له من غير كبير روية فى ذلك ، بل يفرق بديهة بين المتشابهات[٣] بحيث لايدع لبسا يمكن أن يكون معه نزاع لغير[٤] معاند[٤] و كسوناه عزا و هيبة و وقارا يمنع أن يجترئ أحد[٥] على العناد[٦] فى شيء من / أمره بعد ذلك البيان الذى فصل بين المتشابهات ، و [ميز[٧]] / ٤٣٩ بين المشكلات الغامضات ، و إذا تكلم وقف على المفاصل ، فيبين من سرده للحديث معانيه . و يضع الشيء فى أحكم مبانيه .

و لما كان السياق للتدريب على الصبر و التثبيت الشافى و التدبر[٨] التام و الابتلاء لأهل القرب ، و كان المظنون بمن[٩] أوتى فصل الخطاب

(١) سقط من ظ (٢) ذكر قوله فى معالم التنزيل بهامش اللباب ٦ / ٣٧ .
(٣) فى ظ و مد : المشتبهات (٤) العبارة من هنا إلى «العناد» ساقطة من مد .
(٥) زيد بعده فى الأصل : من حقها ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها .
(٦) من م ، و فى الأصل و ظ : العباد (٧) زيد من ظ و م و مد (٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : التدبير (٩) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ظن .

أن لا يقع له لبس فى حكم و لا عجلة فى أمر، و كان التقدير: هل أتتك هذه الأنباء، عطف عليه ـ مبينا عواقب العجلة معلما [1]أن على[1] من أعطى المعارف أن لا يزال ناظرا إلى[2] من أعطاه ذلك سائلا له التفهيم، استعجازا لنفسه متصورا لمقام العبودية التى كرر التنبيه عليها فى هذه السورة بنحو قوله «نعم العبد» ـ [قوله ـ[3]] فى سياق ظاهره الاستفهام و باطنه التنبيه على ما فى ذلك من الغرابة و العجب لتعظم الرغبة فى سماعه فيوعى حق الوعى: ﴿ و هل اتىك نبؤا الخصم ﴾ أى خبره العظيم جدا، [و أفرده و إن كان المراد الجمع دلالة على أنهم على كلمة واحدة فى إظهار الخصومة لا يظهر لأحد منهم أنه متوسط مثلا و نحو ذلك ـ[4]].

و لما كان الخصم مصدرا يقع على الواحد فما فوقه ذكرا كان أو أنثى، [و كان يصح تسمية ربقة المتخاصمين خصما لأنهم فى صورة الخصم ـ[4]] قال: ﴿ اذ ﴾ أى [خبر ـ[4]] تخاصمهم حين ﴿ تسوروا ﴾ أى صعدوا السور و نزلوا منه هم و من معهم، آخذا من السور و هو الوثوب ﴿ المحراب لا ﴾ أى أشرف[5] ما فى موضع العبادة الذى كان داود عليه السلام به، و هو كناية عن أنهم جاؤه فى يوم العبادة [و ـ[6]] من غير الباب. فخالفوا عادة الناس فى الأمرين، و كأن المحراب الذى تسوروه كان فيه باب من داخل باب آخر، فنبه على ذلك بأن أبدل

(١ - ١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: على ان (٢) زيد فى ظ: ان.
(٣) زيد من م (٤) زيد من مد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تشرف.
(٦) زيد من ظ و م و مد.

من «اذ» الأولى قوله: ﴿اذ﴾ أى حين ﴿دخلوا﴾، و صرح باسمه رفعا للبس و إشعارا بما له من قرب المنزلة و عظيم الود فقال: ﴿على داوٗد﴾ ابتلاء منا له مع ما له[1] من ضخامة الملك و عظم القرب منا، و بين أن ذلك [كان -[2]] على وجه يهول أمره إما لكونه فى موضع لايقدر عليه أحد أو[3] غير ذلك بقوله: ﴿ففزع﴾ [أى ذعر و فرق و خاف -[4]] ﴿منهم﴾ أى مع [ما -[2]] هو فيه من ضخامة الملك و شجاعة القلب و علم الحكمة و عز السلطان.

و لما كان[5] كأنه قيل: فما قالوا له؟ قال: ﴿قالوا لاتخف ج﴾ و لما كان ذلك موجبا لذهاب الفكر فى شأنهم كل مذهب، عينوا[1] أمرهم بقولهم: ﴿خصمٰن﴾ أى نحن فريقان فى خصومة، ثم بينوا ذلك بقولهم: ﴿بغىٰ بعضنا﴾ [أى طلب طلبة علو و استطالة -[2]] ﴿علىٰ بعض﴾ فأبهم أولا ليفصل ثانيا فيكون أوقع فى النفس. و لما تسبب عن هذا سؤاله فى الحكم قالوا: ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ أى الأمر الثابت الذى يطابقه الواقع، و إنما سألاه ذلك مع العلم بأنه لا يحكم إلا بالعدل ليكون أجدر بالمعاتبة عند أدنى هفوة ﴿و لاتشطط﴾ أى لا توقع البعد و مجاوزة الحد لا فى العبارة[6] عن ذلك بحيث يلتبس[7] علينا المراد و لا فى غير ذلك،

(١) فى ظ: فيه (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: «و» (٤) زيد من مد (٥) سقط من ظ (٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م: العبادة (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لا يلتبس.

أو [و -[1]] لاتمعن فى تتبع مداق الأمور فانى أرضى بالحق على أدنى الوجوه ، [و لذا أتى به من الرباعى و الثلاثى بمعناه ، قال أبو عبيد : شط فى الحكم و أشط - إذا جار ، و لذا أيضا فك الإدغام إشارة إلى أن النهى إنما هو عن الشطط الواضح جدا -[2]] . و لما كان الحق له أعلى و أدنى و أوسط ، طلبوا التعريف بالأوسط فقالوا : ﴿ و اهدنآ ﴾ أى أرشدنا ﴿ الىٰ سوآء ﴾ أى وسط ﴿ الصراط ۝ ﴾ اى الطريق الواضح ، فلا يكون بسبب التوسط ميل إلى أحد الجانبين : الإفراط فى تتبع مداق الأمور و التفريط فى إهمال ذلك .

و لما كانت هذه الدعوى بأمر مستغرب يكاد أن لا يسمعه أحد إلا أنكره ، ساق الكلام مؤكدا فقال : ﴿ ان هذآ ﴾ يشير إلى شخص من الداخلين ، ثم أبدل منه قوله : ﴿ اخى قف ﴾ أى فى الدين و الصحبة ، ٤٤٠ /
ثم أخبر عنه بقوله : ﴿ له تسع و تسعون نعجة ﴾ و يجوز أن يكون " اخى " هو الخبر و التأكيد حينئذ لأجل استبعاد مخاصمة الأخ و عدوانه على أخيه و يكون ما بعده استئنافا ﴿ و لى ﴾ أى أنا أيها المدعى ﴿ نعجة ﴾ و لما كان ذلك محتملا لأن يكون جنسا أكده بقوله : ﴿ واحدة قف ﴾ [ثم -[3]] سبب عنه قوله : ﴿ فقال ﴾ أى الذى له الأكثر : ﴿ اكفلنيها ﴾ أى أعطنيها لأكون كافلا لها ﴿ و عزنى ﴾ أى غلبنى [و قوى علىّ و اشتد و أغلظ بى -[2]] ﴿ فى الخطاب ۝ ﴾ أى الكلام الذى له شأن من جدال

---

(١) زيد من م و مد (٢) زيد من مد (٣) زيد من ظ و م و مد .

و غيره

و غـــيره بأن حاورنى إلى أن أملنى فسكتّ عجزا عن التمادى معه، و لم يقنع منى بشيء دون مراده .

و لما تمت الدعوى، حصل التشوف إلى الجواب فاستؤنف[١] قوله: ﴿ قال ﴾ أى على تقدير صحة ما قلت، و ذلك أنه لما رأى الخصم قد سكت و لم ينكر مما قال المدعى شيئا، و ربما أظهر هيئة تدل على تصديقه قال[٢] ذلك فعوتب و إن كان له مخرج، كل ذلك تدريبا على التثبت فى القضاء و أن لاينحى نحو القرائن، و أن لايقنع فيه[٣] إلا بمثل الشمس، و أكد قوله فى سياق القسم ردعا للظالم على تقدير صحة الدعوى بالمبالغة فى إنكار فعله لأن حال من فعل شيئا مؤذن بانكار كونه ظالما وكون فعله ظلما، مفتتحا لقوله بحرف التوقـــع لاقتضاء حال الدعوى له: ﴿ لقد ظلمك ﴾ أى و الله قد أوقع ما فعله معك فى غير موقعه على تقدير صحة دعواك ﴿ بسؤال نعجتك ﴾ أى بأن [سألك أن -[٤]] يضمها، [و أفاد أن ذلك على وجه الاختصاص بقوله -[٤]] : ﴿ الى نعاجه[٤] ﴾ [بنفسه أو بغيره نيابة عنه و لذا لم يقل: بسؤاله -[٤]]، ثم عطف على ذلك أمرا كليا جامعا لهم و لغيرهم واعظا و مرغبا و مرهبا، و لما كانت الخلطة موجبة لظن الآلفة لوجود العدل و النصفة و استبعاد وجود البغى معها، أكد قوله واعظا للباغى[٥] إن كان و ملوحا بالإغضاء و الصلح

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فاستأنف (٢) زيدت الواو فى الأصل و ظ وم، و لم تكن فى مد فحذفناها (٣) من ظ وم و مد، و فى الأصل: به. (٤) زيد من مد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: للساعى.

للظلوم : ﴿ و ان كثيرا من الخلطآء ﴾ أى مطلقا منكم و من غيركم ﴿ليبغى﴾ أى يتعدى [و يستطيل -[١]] ﴿بعضهم﴾ [عاليا -[١]] ﴿على بعض﴾ فيريدون غير الحق ﴿ الا الذين 'امنوا﴾ [من الخلطاء -[٢]] ﴿و عملوا﴾ أى تصديقا لما ادعوه من الإيمان [٣] ﴿ الصّٰلحٰت ﴾ [أى - [٢]] كلها فانهم لايقع منهم بغى ﴿و قليل﴾ و أكد قلتهم و عجب منها[٤] بما أبهم فى قوله : ﴿ ما ﴾ مثل نعما و لأمرما ﴿ هم ﴾ [و أخر هذا المبتدأ و قدم الخبر اهتماما به لأن المراد التعريف بشدة الأسف على أن العدل فى غاية القلة - [٢]] ، أى [٥] فتأس[٦] بهم أيها المدعى و كن منهم أيها المدعى عليه .

و لما أتم ذلك ذهب الداخلون عليه فلم ير [٧]منهم أحدا[٧] فوقع فى نفسه أنه لاخصومة ، و أنهم إنما أرادوا أن يجربوه فى الحكم و يدربوه عليه ، و أنه يجوز للشخص أن يقول ما[٨] لم يقع إذا انبنى عليه فائدة عظيمة تعين ذلك الكلام طريقا للوصول إليها أو كان أحسن الطرق مع خلو الأمر عن فساد ، و حاصله أنه تذكر كلام ، و المراد به بعض لوازمه ، فهو مثل دلالة التضمن فى المفردات ، و هذا مثل قول سليمان عليه السلام « ائتونى بالسكين أشقه بينهما » و ليس مراده إلا ما يلزم عن ذلك من

---

(١) زيد من مد (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) زيد فى الأصل و ظ : اى ، ولم تكن الزيادة فى م ومد فحذفناها (٤) من مد ، وفى الأصل وظ وم : منهم . (٥) سقط من مد (٦) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : قياس (٧ - ٧) فى م و مد : احدا منهم (٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لما .

معرفة الصادقة و الكاذبة بإباء الأم لذلك و تسليم المدعية كذبا ، و تحقيقه أنه لا ملازمة بين الكلام و إرادة المعنى المطابق[١] لمفردات ألفاظه بدليل لغو اليمين ، و قول النبي صلى الله عليه و سلم لصفية رضى الله عنها « عقرى حلقى » و لأم سلمة رضى الله عنها « تربت يمينك » و قوله صلى الله عليه و سلم « ثلاث جدهن جد و هزلهن جد » مشير[٢] إلى أن الكلام قد لا يراد به معناه ، و من هنا كان الحكم فى ألفاظ الكنايات أنه لا يقع بها شىء إلا إن اقترن[٣] بقصد المعنى ، و لما كان/ هذا القدر معلوما عطف عليه قوله : / ٤٤١
﴿ و ظن داود ﴾ أى بذهابهم قبل فصل الأمر [٤]و قد دهمه من ذلك أمر عظيم من[٥] عظمة الله لا عهد له بمثله ﴿ انما فتنّه ﴾ أى اختبرناه بهذه الحكومة فى الأحكام التى يلزم الملوك مثلها ليتبين أمرهم فيها . و علم أنه بادر إلى نسبة المدعى عليه إلى أنه ظلم من قبل أن يسمع كلامه و يسأله[٦] المدعى الحكم ، فعاتبه الله على ذلك ، و الأنبياء عليهم السلام لعلو مقاماتهم يعاتبون على مثل هذا ، [٧]و هو من قصر الموصوف على الصفة قلبا ، أى هذه القصة مقصورة على الفتنة لا تعلق لها بالخصومة[٧] ، و لو كان المراد ما قيل من قصة المرأة التى على كل مسلم تنزيهه و سائر إخوانه عليهم السلام عن مثلها لقيل « و علم داود » و لم يقل : وظن -

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : المطابق (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مشيرا (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اقترف (٤) العبارة من هنا إلى « له بمثله » ساقطة من ظ (٥) سقط من مد (٦) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : يسلمه (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م .

كما يشهد بذلك كل من له أدنى ذوق فى المحاورات - و الله الموفق، و قال الزمخشرى[1]: و عن سعيد بن المسيب و الحارث الأعور أن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة و ستين، و هو حد الفرية على الأنبياء عليهم السلام، و روى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز، و عنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث به و قال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله عز و جل فما ينبغى أن يلتمس خلافها، و أعظم بأن يقال غير ذلك، و إن كانت على ما ذكرت [2]و كف[2] الله عنها سترا على نبيه صلى الله عليه و سلم فما ينبغى إظهارها عليه[3]، فقال عمر [4]بن عبد العزيز[4]: لسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس. و تلك القصة و أمثالها من كذب اليهود، و أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه[5].

و لما ظن هذا، سبب له تحقيق ما وصفه الله به من الأوبة [5]فعبر عن ذلك بقوله[5]: ﴿فاستغفر﴾ [6]ولما استغرقته العظمة التى هذا مخرها، رجع إلى ذكر[7] الإحسان و اللطف فقال: ﴿ربه﴾ أى طلب[8] الغفران

---

(١) راجع الكشاف م ٣/٣٦٦ (٢-٢) من م و مد و الكشاف، و فى الأصل وظ: فكف (٣) من م و مد و الكشاف، و فى الأصل و ظ: عليهم (٤-٤) فى م و مد: رحمه الله (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) العبارة من هنا إلى «و اللطف فقال» ساقطة من م (٧) من ظ و مد، و فى الأصل: ذلك (٨) من ظ و م و مد. و فى الأصل: طالب.

من

من مولاه الذى أحسن إليه باحلاله ذلك المحل العظيم من أن يعود الحكم للأول[1] بدون أن يسمع الآخر ﴿و خر﴾ أى سقط من قيامه توبة لربه عن ذلك . و لما كان الخرور قد يكون لغير العبادة قال: ﴿راكعا﴾ أى ساجدا لأن الخرور لا يكون [إلا ـ[2]] للسقوط على الأرض، و لأن النبى صلى الله عليه و سلم فسره بالسجود فيما روى[3] النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه و سلم سجد فى "ص" و قال: سجدها داود توبة و نسجدها شكرا. و عبر بالركوع عن[4] السجود ليفهم أنه كان عن قيام و أنه[5] فى غاية السرعة لقوة الاهتمام به و توفر الداعى إليه بحيث أنه وصل إلى السجود فى مقدار ما يصل غيره إلى الركوع، قال ابن التيانى[6] فى كتابه الموعب: و كل شىء [يكب ـ[7]] لوجهه فتمس ركبته الأرض بعد أن يطاطئ رأسه فهو راكع . ابن دريد: الراكع الذى [يكبو ـ[7]] على وجهه ـ انتهى . و الركعة ـ بالضم: الهوة من الأرض، كأنها سميت بذلك لأنها تسقط فيها على الوجه، وكأنها هى أصل المادة، و قال فى القاموس: ركع أى صلى، فحينئذ

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الأول (٢) زيد من م و مد (٣) من م ومد، و فى الأصل وظ: يروى، و راجع لرواية النسائى الدر المنثور ٥/٣٠٤. (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: دون (٥) زيد فى الأصل: كان، ولم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٦) هو تمام بن غالب بن عمر المرسى الأندلسى، أديب لغوى، توفى سنة ٤٣٦ هـ، و قيل عن كتابه « الموعب »: لم يؤلف مثله اختصارا و اكتنازا ـ راجع الأعلام ٢/٧٠ (٧) زيد من ظ وم ومد.

يكون المعنى : سقط مصليا ، و معلوم أن صلاتهم لا ركوع فيها و قد تقدم ذلك في[1] آل عمران و البقرة ﴿ و اناب السجدة ﴾ / أي تاب أي رجع غن أن يعود لمثلها . [2]و لما كان الحال قد يشكل في الإخبار عن المغفرة لو عبر بضمير الغائب لإيهام أن ربه غير المتكلم ، و كان الغفران لا يحسن إلا مع القدرة ، عاد إلى مظهر العظمة إثباتا للكمال [3]و نفيا[3] للنقص فقال : ﴿ فغفرنا ﴾ أي بسبب ذلك [و -[4]] في أثره على عظمتنا و تمام قدرتنا غفرا يناسب مقداره ما لنا من العظمة ﴿ له ذلك[5] ﴾ أي[5] الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه ، و كان النبي صلى الله عليه و سلم اشترط على ربه سبحانه لأجل هذه القصة أن كل من سبه أو دعا عليه و ليس أهلا لذلك أن يكون ذلك له صلاة و بركة و رحمة[6] ، و الحاصل أن هذه القضية لتدريب النبي صلى الله عليه و سلم على الصبر على قومه ، و الثاني فان هذه السورة على ما روى عن جابر ابن زيد من أوائل ما أنزل بمكة ، و على هذا دل الحديث السابق عن ابن عباس رضى الله عنهما في شكوى المشركين منه صلى الله عليه و سلم [7]إلى عمه أبي طالب الوقوع في آلهتهم فانه كان في أوائل الأمر ، فان النبي صلى الله عليه و سلم[7] أول ما دعاهم لم يؤمر بذكر آلهتهم فلم يجيبوه و لم يبعدوا عنه كل البعد ، ثم أمره الله بذكر آلهتهم فناكروه حينئذ

(١) من ظ وم ومد ، وفي الأصل : من (٢) العبارة من هنا إلى «للنقص فقال» ساقطة من م (٣ - ٣) في الأصل و ظ بياض ملأناه من مد (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) سقط من م (٦) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٣٩ عن أبي هريرة (٧-٧) ورد ما بين الرقمين في ظ قبل «مرة بعد أخرى» ص ٣٦٥ س ١.

و باعدوه ، و تقدموا ذلك بالشكوى إلى أبى طالب مرة بعد أخرى ليرده عنه[1] ، فكانت هذه الدعوى تدريبا لداود عليه السلام فى الأحكام ، و ذكرها للنبى صلى الله عليه و سلم تدريبا له [2]على الأناة[3] فى جميع اموره على الدوام . و لما [كان -[4]] ذكر هذا ربما أوهم شيئا فى مقامه صلى الله عليه و سلم ، سيق فى أسلوب التأكيد قوله : ﴿و ان له﴾ اى مع الغفران ، و عظم ذلك بمظهر العظمة لأن ما ينسب إلى العظيم لا يكون إلا عظيما فقال : ﴿عندنا﴾ و زاد فى إظهار الاهتمام بذاك نفيا لذلك الذى ربما توهم ، فأكد قوله : ﴿ لزلفى ﴾ أى قربة عظيمة ثابتة بعد المغفرة ﴿و حسن مآب ﴾﴾ أى مرجع فى كل ما يؤمل من الخير ، و فوق ذلك فهذا معلم و لابد بأن[5] هذه القضية لم يجر إلى[6] ذكرها إلا الترقية فى رتب الكمال لا[6] غير ذلك ، و أدل[7] دليل على ما ذكرته ـ أن هذه الفتنة إنما هى بالتدريب فى الحكم لا بامرأة و لاغيرها و أن ما ذكروه من قصة المرأة باطل و إن اشتهر ، فكم من باطل مشهور و مذكور [هو -[8]] عين الزور ـ قوله تعالى عقبها على هيئة الاستثمار منها [9]صارفا القول عن[10] مظهر

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و ظ : عنهم (٢-٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى الاناية (٤) زيد من ظ و م (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : من (٦) زيد فى الأصل و ظ : ما ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها .
(٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الا (٧) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : أول (٨) زيد من ظ و م و مد (٩) العبارة من هنا إلى « بين الأحباب » ص٣٦٦ س ١ ساقطة من م (١٠) من مد ، و فى الأصل و ظ : الى .

العظمة إلى المواجهة بلذيذ الخطاب، على نحو ما يجرى بين الأحباب: ﴿ يٰداوٗد ﴾.

و لما كان مضمون الخبر لزيادة عظمه مما من شأنه أن تستنكره نفوس البشر، أكده لذلك و إظهارا لأنه مما يرغب فيه لحسنه و جميل أثره و ينشط غاية النشاط لذكره فقال: ﴿ انا ﴾ أى على ما لنا من العظمة ﴿ جعلنٰك ﴾ فلا تحسب لشيء من أسبابه حسابا و لا تخش[1] له عاقبة ﴿ خليفة ﴾ أى من قبلنا تنفذ أوامرنا فى عبادنا لحكمك[2] حكمنا، و حذف ما يعلم أنه مراد من نحو " قلنا " إشارة إلى أنه استقبل بهذا الكلام الألذ عند فراغه من السجود إعلاما بصدق ظنه، و قال[3]: ﴿ فى الارض ﴾ أى كلها إشارة إلى إطلاق أمره فى جميعها. فلا جناح [عليه -[4]] فيما فعل فى أى بلد أرادها، و لم يذكر المخلوف تعظيما له بالإشارة إلى أن كل ما جوزه العقل فيه [فهو -[4]] كذلك فهو كان خليفة فى بيت المقدس بالفعل [5]على ما اقتضاه صريح الكلام بالتعبير بفى، و أشار الإطلاق / و التعبير بال إلى[5] أنها[6] الأرض الكاملة لانبساط[7] ٤٤٣ /
الحق منها بابراهيم عليه السلام و ذريته على سائر الأرض و هو خليفة فى جميع الأرض بالقوة بمعنى انه مهما حكم [به -[4]] فيها صح، و ذلك أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يرسل إلى قومه خاصة فيكون

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لا تحشر (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: محكمنا (٣ - ٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فقال (٤) زيد من م و مد (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) فى ظ: ان، و فى م: و هى. (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الانبساط.

ما

ما يؤديه إليه واجبا عليه، و أما بقية الناس فأمره معهم من باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، مهما فعله منه صح و مضى، ثم كان خليفة فى جميع الأرض حقيقة بالفعل بابنه سليمان عليه السلام فاستوفى الإطلاق "و ال" المكملة[١] أقصى ما يراد منه، إعلاما بأن كلام القدير كله كذلك و إن لم يظهر فى الحالة الراهنة، و ذلك كما أن المنزل عليه هذا الذكر و بسببه محمد صلى الله عليه و سلم كان خليفة بالفعل فى أرض العرب التى هى الأرض كلها، لأن الأرض دحيت منها، و بيتها أول بيت وضع للناس، و هو قيام لهم، و منه انبسط القيام بالنور و العدل على جميع الأرض [٢]و فى جميع الأرض[٢] بالقوة بمعنى أنه مهما حكم به فيها مضى، فقد أعطى تميما الدارى رضى الله عنه أرض[٣] بلد الخليل من بلاد الشام قبل أن يفتح و صح و نفذ، و أعطى شويلا رضى الله عنه بنت بقيلة[٤] من أهل الحيرة[٥] وصح ذلك و نفذ و قبض كل منهما عند الفتح ما أعطاه صلى الله عليه و سلم، ثم يكون خليفة فى جميع الأرض بالفعل بخليفته الذى أيده الله به فى دينه عيسى عليه السلام الذى هو من ذرية داود عليه السلام ثم فى جميع الوجود يوم القيامة يوم الشفاعة العظمى يوم يكون الأنبياء [كلهم -[٦]] تحت لوائه، و يغبطه الأولون و الآخرون بذلك المقام المحمود.

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الكلمة (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ (٣) سقط من ظ (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بقبيلة (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الحبرة (٦) زيد من م و مد.

و لما تمت النعمة، سبب عنها قوله: ﴿ فاحكم بين الناس ﴾ أى الذين يتحاكمون إليك من أى قوم كانوا ﴿ بالحق ﴾ أى الأمر الثابت الذى يطابقه الواقع. و لما كان أعدى عدو للانسان نفسه التى بين جنبيه لما لها من الشهوات، و أعظم جناياته و أقبح خطاياه ما تأثر عنها من غير استناد إلى أمر الله، قال مشيرا بصيغة الافتعال إلى أنه سبحانه عفا عن الخطرات، و ما بادر الإنسان الرجوع عنه و الخلاص منه توبة إلى الله تعالى: ﴿ و لا تتبع الهوى ﴾ أى ما يهوى بصاحبه فيسقطه من أوج الرضوان إلى حضيض الشيطان، ثم سبب عنه قوله: ﴿فيضلك﴾ أى ذلك الاتباع أو الهوى لأن النفس إذا ضربت على ذلك صار لها خلقا[1] فغلب[2] صاحبها عن[3] ردها عنه، [4]و لفت القول عن مظهر العظمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع الأسماء الحسنى و الصفات العلى تعظيما لأمر سبيله، وحثا على لزومه و التشرف بحلوله، فقال[4]: ﴿عن سبيل الله﴾ أى طريقه التى شرعها للوصول إليه بما أنزل من النقل المؤيد بأدلة ما خلق من العقل، و لا يوصل إليه بدونها لأن[5] اتباعه يوجب الانهماك فى اللذات[6] الجسمانية، و الإهمال لتكميل القوى الروحانية، الموصلة إلى السعادة الأبدية، فان دواعى البدن و الروح متضادتان فبقدر زيادة إحداهما تنقص الأخرى.

---

(١) فى م: خلقا (٢) من مد، و فى الأصل و ظ و م: فغلبت (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: على (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كان (٦) من ظ و م و مد، وفى الأصل: الذات.

و لما كانت النفس نزاعة إلى الهوى، ميالة[1] عن السوى، قال معللا للنهي مؤكدا لما للنفس من التعللات عند المخالفة بالكرم و المغفرة الدافع للعذاب: ﴿ ان الذين يضلون ﴾ أي يوجدون الضلال باهمالهم التقوى [2]الموجب لاتباع الهوى المقتضي لأن يكون متبعه ضالا[2] ﴿ [3]عن سبيل الله[3] ﴾ /٤٤٤
أعاده تفخيما لأمره و تيمنا بذكره [2]و إيذانا بان سبيله مأمور به مطلقا من غير تقييد بداود عليه السلام و لا غيره[2] فيه ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي بسبب ضلالهم.

و لما أمر سبحانه و نهى، و ذكر أن السبب في النهي كراهة الضلال و علم منه أن سبب الضلال الهوى، ذكر سبب هذا السبب فقال معبرا بالنسيان إشارة إلى أنه من شدة ظهوره كما كان محفوظا فنسي، و فك المصدر لأنه أصرح لأنه لو عبر بالمصدر لأمكن إضافته إلى المفعول، و اختيرت[4] "ما" دون ["ان" -[5]] لأن صورتها صورة الموصول الاسمي، و هو أبلغ مما هو حرف صورة و معنى[6]: ﴿ بما نسوا يوم الحساب ع ﴾ أي عاملوه معاملة المنسي بعضهم بالإنكار و بعضهم بخبث الأعمال، فانهم لو ذكروه حقيقة لما تابعوا الهوى المقتضي للضلال على أنه مما لا يجهله من له أدنى مسكة من عقل فانه لا يخطر في عقل عاقل أصلا أن أقل الناس و أجهلهم يرسل أحدا إلى مزرعة له يعملها، ثم لا يحاسبه عليها

(١) من م و مد، و في الأصل و ظ: مبات (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣-٣) ليس في الأصل و ظ (٤) من ظ و مد، و في الأصل: اختير. (٥) زيد من مد (٦) العبارة من «و فك المصدر» إلى هنا ساقطة من م.

فكيف إذا كان حكيما فكيف إذا كان ملكا فكيف و هو ملك الملوك، [1]و قال الغزالى فى آخر كتاب العلم من الإحياء[2] فى الكلام على العقل: ثم لما كان الإيمان مركوزا فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسى. و هم الكفار، و إلى من جال فكره فتذكر، وكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها، و لذلك قال تعالى "لعلهم يتذكرون" "و ليتذكر اولوا الالباب" "و اذكروا نعمة الله عليكم و ميثاقه الذى واثقكم به" "و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" و تسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد، وكأن التذكر ضربان: أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه، لكن غابت بعد الوجود، و الآخر أن يكون عن صورة كانت متضمنة فيه بالفطرة، و هذه حقائق ظاهرة لناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروح إلى السماع و التقليد دون الكشف و العيان - انتهى. و قد علم من هذه القصة و ما قبلها أن المعنى: اصبر على ما يقولون الآن، فلننصرنك فيما يأتى من الزمان. و لنؤيدنك كما أيدنا داود العظيم الشأن.

و لما كان التقدير: فما قضيناه[3] فى الأزل بيوم الحساب و توعدنا به سدى، [عطف -[4]] عليه قوله[5] صارفا الكلام [عن الغيبة -[6]] إلى مظهر العظمة إشارة [7]إلى أن العظيم[7] تابى له عظمته غير الجد العظيم:

(١) العبارة من هنا إلى « و العيان انتهى » ساقطة من م (٢) ما وجدناه فى مظانه (٣) فى ظ و م و مد: قضينا (٤) زيد من م و مد (٥) العبارة من هنا إلى « غير الجد العظيم » ساقطة من م (٦) زيد من مد (٧-٧) فى الأصل و ظ بياض ملأناه من مد.

و ما

﴿ و ما خلقنا ﴾ أى على ما لنا من العظمة، و[1] يجوز أن تكون الجملة حالية . و لما كان السياق لما وقع منهم من الشقاق عنادا لا جهلا ، ذكر من السماوات ما لا يمكن النزاع فيه مع أن اللفظ للجنس فيشمل الكل فقال : ﴿ السمآء ﴾ أى التى ترونها ﴿ و الارض و ما بينهما ﴾ مما تحسونه من الرياح و غيرها خلقا[2] ﴿ باطلا ﴾ أى لغير غاية أردناها بذلك من حساب من فيهما[3] كما يحاسب أقل من فيكم إجراء ، و مجازاة من فيهما بالثواب لمن أطاع و العقاب لمن عصى كما يفعل أقل ملوككم فان [أدنى -[4]] الناس عقلا لا يبنى[5] بناه ضخما إلا لغاية أرادها ، و تلك الغاية هى الفصل بين الناس الذين أعطيناهم القوى و القدر فى هذه الدار ، و بثثنا بينهم الأسباب الموجبة لانتشار الصفاء فيهم / و الأكدار ، / ٤٤٥
و أعطيناهم العقول تنبيها على ما يراد بهم ، و أرسلنا فيهم الرسل، و أنزلنا إليهم الكتب ، بالتعريف بما يرضينا و يسخطنا ، فنابذوا كل ذلك فلو تركناهم بلا جمع لهم و لا إنصاف بينها لكان هذا الخلق كله باطلا لا حكمة فيه أصلا ، لأن خلقه للضر أو النفع أو [لا -[6]] لواحد منهما ، و الأول باطل لأنه [غير -[6]] لائق بالرحيم الكريم ، و الثالث باطل لأنه كان فى حال العدم كذلك ، فلم يبق للايجاد مرجح ، فتعين الوسط و هو النفع ، و هو لا يكون بالدنيا لأن ضرها أكثر من نفعها ، و تحمل ضر كثير لنفع

(١) سقطت الواو من ظ (٢) سقط من م (٣) فى ظ : فيها (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لا ينسى (٦) زيد من م و مد .

قليل غير لائق بالحكيم[١] الكريم ، فتعين ما وقع الوعد الصادق به من نفع الآخرة المطابق لما ذكر من عقل العقلاء و سير النبلاء .

و لما كان هذا - و هو منابذة الحكمة - عظيما جدا ، عظمه بقوله : ﴿ذلك﴾ أى الأمر البعيد عن الصواب ﴿ظن الذين كفروا ج﴾ أى من أوقع هـذا الظن فى وقت ما ، فقد أوجد الكفر لأنه جحد الحكمة التى هى البعث لإظهار صفات الكمال و المجازاة بالثواب و العقاب ، و من جحد الحكمة فقد سفه الخالق ، فكان إقراره بأنه خالق كلا إقرار[٢] فكان كافرا به ، ثم سبب عن هذا الظن قوله : ﴿فويل﴾ أى هلاك عظيم بسبب هذا الظن ، [٣]و أظهر فى موضع الإضمار تعميما و تعليقا للحكم بالوصف فقال[٣] : ﴿للذين كفروا﴾ [٤]أى مطلقا بهذا[٥] الظن و بغيره ﴿من﴾ أى مبتدأ من ﴿النار ط﴾ أى الحكم عليهم بها .

و لما كان التقدير : أفنحن[٦] نخلق ذلك باطلا ؟ فلا يكون [له -[٧]] مآل يظهر فيه حكمته و نحن منزهون[٨] عن العبث ، عطف عليه قوله إنكارا لما يلزم من ترك البعث من التسوية بين ما حقه المفاوتة فيه ، و ذلك أشد من العبث و إن كان له أن يفعل ذلك لأنه لا يقبح منه شيء : ﴿ام نجعل﴾ أى على عظمتنا ﴿الذين آمنوا﴾ أى امتثالا

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بالحلم (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كلا اقراره (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) العبارة من هنا إلى « و بغيره » ساقطة من م (٥) من مد ، و فى الأصل و ظ : لهذا (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فنحن - بدون همزة الإستفهام (٧) زيد من م و مد (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ينزهون .

لأوامرنا ﴿ و عملوا ﴾ أى تصديقا لدعواهم الإيمان ﴿ الصّٰلحٰت ﴾ من الأعمال ¹كالذين أفسدوا و عملوا السيئات أم نجعل المؤمنين المصلحين فى الأرض¹ ﴿ كالمفسدين ﴾ أى المطبوعين على الفساد الراسخين فيـــه ﴿ فى الارض ﴾ أى بالكفر و غيره ، و التسوية بينهم لا يشك عاقل فى [أنها - ²] سفه ﴿ ام نجعل ﴾ على ما لنا من العز و المنعة ¹الذين اتقوا كالذين فجروا أم نصيّر¹ ﴿ المتقين ﴾ أى الرّاسخين من المؤمنين فى التقوى الموجبة للتوقف عن كل ما لم يدل عليه دليل ﴿ كالفجار ﴾ أى الخارجين من غير توقف عن دائرة التقوى من هؤلاء الذين كفروا أو من غيرهم فى أن كلا من المذكورين يعيش على ما أدى إليه الحال فى الدنيا ، و فى الأغلب يكون عيش الطالح أرفع من عيش الصالح ، ثم يموت و لا يكون شىء بعد ذلك ، و لا شك أن المساواة بين المصلح و المفسد و المتقى و المارق لا يراها حكيم و لا غيره من سائر أنواع العقلاء فهو لا يفعلها سبحانه و إن كان له أن يفعل ذلك ، فانه لا يجب عليه شىء و لا يقبح منه شىء³ ، و قد علم أن الآية من الاحتباك ، و أنه مشير إلى احتباك آخر ، فانه ذكر " الذين امنوا " أولا دليلا على « الذين افسدوا » ثانيا ، و ذكر " المفسدين " ثانيا دليلا « على المؤمنين » أولا . و أفهم ذلك ذكر " الذين اتقوا " و أضدادهم / و سر ما ذكر و ما ⁴حذف أنه ذكر أدنى اسنان الإيمان تنبيها على شرفه و أنه سبب السعادة و إن كان على⁴ /٤٤٦

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من م و مد (٣) العبارة من هنا إلى « إلى أوجها » ص ٣٧٤ س ٤ ساقطة من م (٤ - ٤) ما بين الرقمين بياض فى الأصل و ظ ملأناه من مد .

[1]أدنى الوجوه و ذكر أعلى أحوال الفساد، إشارة إلى[1] أنه يغفر ما دون ذلك [لمن يشاء -[2]] و ذكر أعلى أحوال التقوى إيماء [إلى -[3]] أنه لا يوصف بها و يستحق جزاءها إلا الراسخ فيها ترغيبا للمؤمن في أن يترقى إلى أوجها.

و لما ثبت بما ذكر من أول السورة إلى هنا ما ذكر في هذا الذكر من البراهين التي لا يأباها إلا مدخول الفكر مخالط العقل، ثبت أنه ذو الذكر و الشرف الأعظم فقال تعالى منبها على ذلك تنبيها على أنه القانون الذي يعرف به الصلاح ليتبع و الفساد ليجتنب[4] مخبرا عن مبتدأ[5] تقديره هو: ﴿كتب﴾ أي له من العظمة ما لا يحاط [به -[6]]، [7]و وصفه بقوله[7]: ﴿انزلنه﴾ أي[8] بما لنا من العظمة ﴿اليك﴾ و ذلك من عظمته لأنك أعظم الخلق، ثم[7] أخبر عن مبتدأ آخر مبين لما قبله على طريق الاستئناف فقال[7]: ﴿مبرك﴾ أي دائم الخير كثير النفع ثابت[9] كل ما[9] فيه ثباتا[10] لا يزول أبدا و لا ينسخه كتاب و لا شيء.

و لما ذكر ما له من العظمة إشارة و عبارة، ذكر غاية إنزاله المأمور بها فقال: ﴿ليدبروا﴾ [11] بالفوقانية و تخفيف الدال بالخطاب

(١-١) ما بين الرقمين بياض في الأصل و ظ ملأناه من مد (٢) زيد من ظ و مد (٣) زيد من مد (٤) العبارة من هنا إلى « تقديره » ساقطة من م.
(٥) من مد، و في الأصل و ظ: ابتدا (٦) زيد من ظ و م و مد.
(٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨) سقط من م (٩-٩) من ظ و م و مد، و في الأصل: كلها (١٠) من م و مد، و في الأصل و ظ: ثابتا (١١) العبارة من هنا إلى قوله « جمعه و قرآنه » ص ٣٧٥ س ٦ ساقطة من م.

في

فى قراءة أبى جعفر[١] مشرفا للأمة بضمهم[٢] بالخطاب[٣] إلى حضرته الشماء صلى الله عليه و سلم، و لافتا للقول فى قراءة الجماعة بالغيب و تشديد الدال إلى من يحتاج إلى التنبيه على العلل، [٤]لما له من[٤] الشواغل الموقعة فى الخلل، و أما هو صلى الله عليه و سلم ففى غاية الإنعام للنظر، [٥]و التدبر[٥] بأجلى الفكر، من حين الإنزال، لعلمه بعلة[٦] الإنزال بحيث أنه من شدة إتعابه لنفسه الشريفة أمر بالتخفيف و ضمن له تعالى جمعه و قرآنه ﴿ ءايٰته ﴾ أى لينظروا فى عواقب كل آية و ما تؤدى إليه و توصل إليه من المعانى الباطنة التى أشعر[٧] بها طول التأمل فى الظاهر، فمن رضى بالاقتصار على حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور[٨] لايحلبها، و مهرة نتوج لايستولدها، و كان جديرا بأن يضيع حدوده فيخسر خسرانا مبينا . و لما كان كل أحد مأمورا بأن يتنبه بكل ما يرى و يسمع على ما وراءه[٩] و لم يكن فى وسع كل أحد الوصول إلى النهاية فى ذلك، قنع منهم بما دونها فأدغمت تاء التفعل فى [فاء -[١٠]] الكلمة إشارة إلى ذلك [١١]كما تشير إليه قراءة أبى جعفر، و ربما كانت قراءة الجماعة[١١] إشارة إلى الاجتهاد فى فهم

---

(١) راجع نثر المرجان ٦/٨٥ (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: بعضهم (٣) فى ظ: فى الخطاب (٤-٤) من مد، و فى الأصل و ظ: لمال - كذا مع قدر إصبع من البياض (٥ - ٥) فى الأصل و ظ بياض ملأناه من مد (٦) من مد، و فى الأصل و ظ: بعد (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: شعر (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: درو (٩) من م و مد، و فى الأصل و ظ: رواه . (١٠) زيد من م و مد (١١-١١) فى م: كانت .

خفاياه ـ [و الله أعلم ـ[١]] .

و لما كان السياق للذكر ، و أسند إلى خلاصة الخلق ، و كان استحضار ما كان عند الإنسان و غفل عنه لايشق لظهوره ، أظهر التاء حثا على بذل الجهد فى إعمال الفكر و المداومة على ذلك فانه يفضى بعد المقدمات الظنية إلى أمور يقينية قطعية إما محسوسة أولها شاهد فى الحس فقال : ﴿ و ليتذكر ﴾ أى بعد التدبر تذكرا [٢]عظيما جليا ـ بما أشار إليه الإظهار[٢] ﴿ اولوا الالباب ۝ ﴾ أى كل ما أرشد[٣] إليه مما عرفه الله لهم فى أنفسهم و فى الآفاق فانهم يجدون ذلك معلوما لهم بحس أوغيره فى أنفسهم أو غيرها ، لايخرج شيء مما فى القرآن عن النظر إلى شيء معلوم للانسان لا نزاع له فيه أصلا ، ولكن الله تعالى يبديه لمن يشاء و يخفيه عمن يشاء "سنريهم ايتنا فى الأفاق و فى انفسهم" و أظهره يوم القيامة فانه مركوز فى طبع كل أحد أن الرئيس لايدع من تحت يده بغير حساب أصلا .

و لما كان / الإنسان و إن أطال[٤] التدبر و أقبل بكليته على التذكر / ٤٤٧ لابد له من نسيان و غفلة و ذهول ، و لما كان الممدوح إنما هو الرجاع « لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » و كان الله تعالى هو الملك الذى لا شريك له و المالك الذى له الملك كله فهو يرفع

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ارشدوا (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : طال .

من يشاء ممن[1] لايخطر فى وهم أن يرتفع ، و يخفض من يشاء ممن علا فى الملك حتى لايقع فى خاطر أنه يحصل له خلل و لاسيما إن كان على [أعلى -[2]] خلال الطاعة ليبين لكل ذى لب أن الفاعل لذلك[3] هو الفاعل المختار ، فلا يزال خيره مرجوا ، و انتقامه مرهوبا مخشيا ، قال تعالى : ﴿ و وهبنا ﴾ أى بما لنا من [4]الحكمة و[4] العظمة ﴿ لداود سليمٰن ﴾ فجاء عديم النظير فى ذلك الزمان دينا و دنيا و علما و حكمة[5] و حلما و عظمة و رحمة ، و لذلك نبه على أمثال هذه المعانى باستئناف الإخبار عما حرك النفس إلى السؤال عنها من إسناد الهبة[6] إلى نون[7] العظمة فقال : ﴿ نعم العبد ﴾ و لما كان السياق لسرعة الانتباه من الغفلات ، و التفصى من الهفوات ، و التوبة من الزلات ، و بيان أن الابتلاء ليس منحصرا فى العقوبات ، بل قد يكون لرفعة الدرجات ، وكان هذا بعيدا من العادات ، علل مدحه مؤكدا [له -[8]] بقوله : ﴿ انه اواب ﴾ أى رجاع إلى الازدياد من الاجتهاد[9] فى المبالغة فى الشكر و الصبر على الضر كلما علا عن مقام بالاستغفار منه و عده مع ما له من الكمال مما يرغب عنه .

و لما كانت الخيل من أعظم ما زين للناس من حب الشهوات ،

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بما (٢) زيد من م و مد (٣) زيدت الواو فى الأصل و ظ و لم تكن فى م و مد فحذفناها (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : حكما (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الهيبة (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : نور . (٨) زيد من ظ و م و مد (٩) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الجهاد .

وكان السياق للعزة و الشقاق الدالين على عظيم الاحتياج إلى ما يكف ذلك مما أعظمه الخيل ، ذكر فيها آمرا له صلى الله عليه و سلم ، دل على أنه مع ما له من عظمة الملك كثير الأوبة عظيمها لأن من لم يكن ذلك له طبعا لم يقدر على ما فعل فقال : ﴿ اذ ﴾ أى اذكر لتقف على شاهد ما أخبرناك به حين ﴿عرض عليه بالعشيّ ﴾ أى فيما بعد زوال الشمس ﴿ الصّفنت﴾ اى الخيول العربية الخالصة التى لاتكاد تتمالك بجميع قوائمها الاعتماد على الأرض اختيالا بأنفسها و قربا من الطيران بلطافتها و همتها و إظهارا لقوتها و رشاقتها و خفتها ، قال فى القاموس : صفن الفرس يصفن صفونا : قام على ثلاث قوائم و طرف حافر الرابعة ، و قال القزاز : قام على ثلاث قوائم و قائمة يرفعها عن الأرض أو ينال سنبكها الأرض ليستريح بذلك ، و أكثر ما تصفن الخيل العتاق ، قال : و قالوا : كل ذى حافر[1] يفعله و لكنه من الجياد أكثر ، لايكاد يكون إلا فى العراب الخلص[2] ، و قيل : الصافن الذى يجمع يديه و يثنى طرف سنبك إحدى رجليه ، و قيل : الصافن الذى يرفع سنبك إحدى يديه فاذا رفع [طرف -[3]] سنبك إحدى رجليه فهو مخيم ، و قد أخام - إذا فعل ذلك .

و لما تحرر أنه يجوز أن يحمل الصافن على غير العتيق[4] و إن كان قليلا ، حقق [أن -[3]] المراد الوصف بالجودة واقفة و جارية فقال : ﴿ الجياد ۙ ﴾ أى التى تجود فى جريها بأعظم ما تقدر عليه ، جمع جواد ،

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : حافطر - كذا (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الخاصر (٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد ، و فى الأصل : المضيق ، و فى ظ : الضيق .

فلم تزل تعرض عليه حتى فاتته صلاة آخر النهار، وكان المفروض على من تقدمنا ركعتين أول النهار و ركعتين آخره، فانتبه فى الحال.

و لما كان بيان ضخامة ملكه و كثرة[١] هيبته و عزته مع زيادة أوبته لتحصل التأسية به / فى حسن ائتماره [و انتهائه - [٢]] و التسلية /٤٤٨ بابتلائه مع ذلك من شرفه و بهائه[٣]، أشار إلى كثرة الخيل جدا و زيادة محبته لها و سرعة[٤] أوبته[٥] بقوله: ﴿فقال﴾ و لما كان اللائق بحاله و المعروف من فعاله[٦] أنه لايؤثر على ذكر الله شيئا فلا يكاد أحد ممن[٧] شاهد ذلك يظن به ذلك بل يوجهون له فى ذلك وجوها و يحملونه [٨]على محامل[٨] تليق بما يعرفونه من حال من الإقبال على الله و الغنا عما سواه، أكد قوله تواضعا لله تعالى ليعتقدوا أنه بشر يجوز عليه ما يجوز عليهم لو لا عصمة الله: ﴿انىّ﴾ و لما كان الحب أمرا باطنا لايظهر فى شيء إلا بكثرة الاشتغال به، و كان الاشتغال قد يكون لغير الحب فهو غير دال عليه إلا بقرائن قال اعترافا: ﴿احببت﴾ أى أوجدت و أظهرت بما ظهر منى من الاشتغال بالخيل مقرونا ذلك بأدلة الود ﴿حب الخير﴾

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: كبر (٢) زيد من م و مد (٣) من مد، و فى الأصل و ظ و م: مهابته، و زيدت الواو بعده فى الأصل و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: سرعته (٥) زيد فى الأصل و ظ: لها، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٦) فى م و مد: أفعاله (٧) من ظ و مد، و فى الأصل و م: مما (٨-٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فى محال.

و هو المال [1]بل خلاصة[1] المال و سبب كل خير دنيوى و أخروى «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» أظهرت ذلك بغاية الرغبة غافلا ﴿عن ذكر ربى﴾ [4] المحسن إلىّ بهذه الخيل التى شغلتنى، وغيرها، فلم أذكره بالصلاة التى كانت وظيفة الوقت و إن كان غرضى لها لكونه[2] فى طاعته ذكرا[3] له. و لم يزل ذلك بى ﴿حتى توارت﴾ أى الشمس المفهومة من «العشى» ﴿بالحجاب ﴿٣٢﴾﴾ و هى الأرض التى حالت بيننا و بينها فصارت وراءها حقيقة.

و لما اشتد تشوف السامع إلى الفعل الذى أوجب له الوصف بأواب[4] بعد سماع قوله فى لومه[5] نفسه ليجمع بين معرفة القول و الفعل، أجيب بقوله: ﴿ردوها﴾ أى قال سليمان عليه السلام: ردوا ﴿علىّ﴾ الخيول التى شغلتنى. و لما كان [التقدير - [6]]: فردوها عليه، نسق به قوله: ﴿فطفق﴾ أى أخذ يفعل ظافرا [بمراده - [7]] لازما له مصمما عليه واصلا له معتمدا[8] على الله فى التقوية على العدو لا على الأسباب التى من أعظمها الخيل مفارقا ما كان سبب ذهوله عن الذكر معرضا عما يمكن أن يتعلق به القلب متقربا به إلى الله تعالى كما يتقرب فى هذه [الملة - [6]]

(١ - ١) من ظ و م و مد. و فى الأصل: بلاخاصة (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لكونها (٣) من ظ و مد، و فى الأصل و م: ذاكرا (٤) العبارة من هنا إلى «القول و الفعل» ساقطة من م (٥) فى ظ: لومة، و فى مد: لوم (٦) زيد من م و مد (٧) زيد من ظ و م و مد (٨) من ظ و مد، و فى الأصل و م: متعمدا.

بالضحايا ﴿ مسحا ﴾ أى يوقع المسح - أى القطع - فيها بالسيف إيقاعا عظيما . و لما كان السيف إنما يقع فى جزء يسير من العضوين أدخل الباء فقال : ﴿ بالسوق ﴾ أى منها ﴿ و الاعناق ﴾ يضربها[1] ضربا بسيف ماض و ساعد شديد و صنع سديد يمضى فيها من غير وقفة أصلا حتى كأنه يمسحه مسحا على ظاهر جلودها كما يقال : مسح علاوته ، أى ضرب عنقه - و الله أعلم .

و لما ظهر بهذا ما له من ضخامة الملك و عز السلطان ، و كانت الأوبة عظيمة جدا ، و كان الثبات[2] على مقام الشهود مع حفظه من جميع جهاته أعظم ، نبه عليه بقوله مؤكدا لما طبعت[3] عليه النفوس من ظن [4]أن الأواب[4] لاينبغى أن يواجه بالعتاب : ﴿ و لقد فتنا ﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿ سليمن ﴾ أى مع إسراعه بالرجوع إلى الله و التنبه لما فيه رضاه نوعا من الفتنة ، الله أعلم بحقيقتها ، [5]فأسفرت تلك[5] الفتنة عن رسوخه فى مقام الأوبة فتنبه لما أردنا بها من تدريبه على ما أقمناه فيه كما فعلنا بأبيه داود عليهما السلام فاقتد بهما فى الاستبصار بالبلاء ، فانا نريد بك أمرا عظيما جليلا [6]شريفا كريما[6] ﴿ و ألقينا ﴾ أى بما[7] لنا من العظمة ﴿ على كرسيه ﴾ / الذى كانت تهابه أسود الفيل . ٤٤٩ /

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : يضرب (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : النبات (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : طلعت (٤-٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الادب (٥-٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فاستقرت (٦-٦) فى ظ : كريما شريفا (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لما .

و لما كانت العبرة إنما هي بالمعانى ، فمن[١] كان معناه ناقصا كان كأنه جسد لا روح فيه[٢] ، له صورة بلا معنى ، قال : ﴿جسدا﴾ فغلب على ذلك المكان الشريف مع ما كنا شرفناه به من هيبة النبوة المقرونة بالملك بحيث لم يكن أحد[٣] يظن أن احدا يقدر على أن يدنو إليه فضلا عن أن يغلب عليه ، فمكنا هذا الجسد منه تمكينا لا كلفة عليه فيه ، بل كان ذلك بحيث كأنه ألقى عليه بغير اختياره ليعلم أن الملك إنما هو لنا ، نفعل ما نشاء بمن[٤] نشاء ، فالسعادة لمن رجانا[٥] و الويل لمن يأمن مكرنا فلا[٦] يخشانا ، فعما قليل تصير هذه[٧] البلدة فى قبضتك[٨] ، و أهلها مع العزة و الشقاق طوع مشيئتك ، و يكون لك بذلك أمر لا يكون لأحد بعدك كما أنه ما كان لأحد كان قبلك من نفوذ الأمر و ضخامة العز و إحلال[٩] الساحة الحرام بقدر الحاجة[١٠] ، و سعة الملك و بقاء الذكر ، و الذى أنت فيه [الآن -[١١]] ابتلاء و اختبار و تدريب على ما يأتى من الأمور الكبار .

و لما كان المراد باطلاق الجسد عليه التعريف بأنه لامعنى له ، لا[١٢] أنه لا روح فيه ، اطلقه و لم يتبعه ما يبين[١٣] أنه جماد كما فعل فى

---

(١) من ظ و م و مد . و فى الأصل : فما (٢) سقط من ظ و م و مد . (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : احدا (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بما (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : رجا (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ولا (٧) من ظ و م و مد . و فى الأصل : هذا . (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قبضتنا (٩) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اجلال (١٠) من م و مد ، و فى الأصل وظ : الساحة (١١) زيد من م و مد (١٢) من م و مد ، و فى الأصل وظ : الا (١٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بين .

العجل حيث قال « له خوار » فبين بذلك أنه لا روح له، و إن صح أن هذا الجسد هو صخر الجنى و أن سببه سجود الجرادة[1] امرأة سليمان عليه السلام لصورة أبيها[2] بغير علم نبى الله سليمان عليه السلام و لا إرادته ، فالإشارة بذلك فى التسلية أنا سلبنا الملك من صفينا لصورة رفع سجود بعض من ينسب إليه لها فى بيتـــه بغير أمره وَ لا إرادته و لا علمه ، فكيف بمن يسجد لهذه الأوثان فى البيت الحرام فما قليل نزيل أمرهم و نخمد شرهم و نمحو[3] ذكرهم .

و لما كانت الإنابة رجوعا إلى ما كان ، فهى استرجاع لما[4] فات قال: ﴿ثم اناب ﴾ و فسر الإنابة ليعلم أنه تعالى فتنه مع أنه عبد عظيم المنزلة مجاب الدعوة[5] بقوله جوابا لمن سأل عنها: ﴿قال ربّ﴾ أى أيها المحسن إلىّ ﴿ اغفر لى ﴾ أى الأمر الذى كانت الإنابة بسببه . و لما قدم أمر الآخرة، أتبعه قوله: ﴿ و هب لى ﴾ أى بخصوصى ﴿ ملكا لاينبغى ﴾ أى لايوجد طلبه وجودا تحصل معه المطاوعة و التسهل ﴿لاحد﴾ فى زمان ما طال أو قصر [سواء كان كاملا فى الصورة و المعنى أو جسدا خاليا عن العز كما حصلت بــــه الفتنة من قبل، و بعّض الزمان بذكر الجار فقال -[6]]: ﴿ من بعدى ج﴾ حتى أتمكن من كل ما أريد من التقرب

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : جواة (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : ابيعها (٣) من م و مد ، وفى الأصل و ظ : تمحوا (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الى ما (٥) زيد فى الأصل : أشار ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٦) زيد من مد .

إليك و جهاد من عاداك ، و يكون ذلك أمارة لى على قبول توبتى و لا تحصل لى فتنة بالقاء شيء على مكان حكمى و لا غيره ، و هذا يشعر بأن الفتنة كانت فى الملك ، وكذا ذكر الإلقاء على الكرسى مضافا إليه من غير أن ينسب إليه هو صلى الله عليه و سلم شيء ، و هو مناسب لعقر الخيل الذى هو إذهاب ما به العز - و الله أعلم ، و بهذا التقدير علم أنه لو ذكر الظرف من غير حرف لأوهم تقيد الدعوة بملك يستغرق الزمان الذى بعده ، ثم علل ما طلبه من الإعطاء و المنع بقوله على[1] سبيل التأكيد إسقاطا لما غلب على النفوس من رؤية الأسباب : ﴿انك انت﴾ أى وحدك ﴿الوهاب ﴾ أى العظيم المواهب مع التكرار كلما أردت ، فتعطى بسبب و بغير سبب من تشاء و تمنع من تشاء .

٤٥٠/ و لما تسبب عن دعائه الإجابة ، أعلم به سبحانه / بقوله : ﴿فسخرنا﴾ أى ذللنا بما لنا من العظمة ﴿ له الريح ﴾ لإرهاب العدو و بلوغ المقاصد عوضا عن الخيل التى خرج عنها لأجلنا ؛ ثم بين التسخير بقوله مستأنفا : ﴿ تجرى بأمره رخاء ﴾ أى حال كونها لينة[2] غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا يدرك بالخيل "غدوها شهر و رواحها شهر" و كل من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ، و هو هنا مبالغة من الرخاوة . و لما كانت إصابته لما يشاء ملازمة لإرادته ، عبر بها عنها لأنها المقصود بالذات فقال : ﴿ حيث اصاب ﴾ أى أراد إصابة شيء من الأشياء ، و قد جعل الله

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لا . (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لينتهى .

لنبينا صلى الله عليه و سلم أعظم من ذلك و هو أن العدو يرعب منه إلى مسيرة شهر من جوانبه الأربعة فهي أربعة أشهر ﴿ و الشيطين ﴾ أي الذين عندهم خفة الريح مع الاقتران بالروح سخرناهم له ؛ ثم نبه على منفعتهم بالإبدال[1] منهم فقال: ﴿كل﴾ و عبر ببناء المبالغة[2] لأنه في سياق الامتنان فقال: ﴿بنآء و غواص ﴾ أي عظيم في البناء صاعدا في جو السماء و الغوص نازلا في أعماق الماء، يستخرج[3] الدر و غيره من منافع البحر.

و لما دل على مطلق تسخيرهم، دل على أنه عن قهر و غلبة كما هو شأن أيالة الملك و صولة العز فقال: ﴿ و آخرين ﴾ أي سخرناهم له من الشياطين حال كونهم ﴿ مقرنين ﴾ بأمره إلى من يشاكلهم أو مقرونة أيديهم بأرجلهم[4] أو بأعناقهم. و عبر به مثقلا دون «مقرونين» مثلا إشارة إلى شدة وثاقهم و عظيم تقرينهم. و لما كانت مانعة لهم من التصرف في أنفسهم، جعلوا كأنهم بأجمعهم فيها[5] و إن لم يكن فيها إلا بعض أعضائهم مثل "جعلوا اصابعهم في اذانهم" فقال: ﴿في الاصفاد ﴾ أي القيود التي يوثق بها الأسرى[6] من حديد أو قيد[7] أو غير ذلك، جمع صفد - بالتحريك، روى البخاري[8] و مسلم[9] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله

---

(١) في ظ: في الإبدال (٢) من مد، و في الأصل و ظ و م: المتابعة (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: يسخر (٤-٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: بأيديهم و أرجلهم (٥) من م و مد، و في الأصل و ظ: فيه (٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: الاسر (٧) من مد، و في الأصل و ظ و م: قد (٨) راجع كتاب التفسير من صحيحه ٢ / ٧١٠ (٩) راجع كتاب المساجد من صحيحه ١ / ٢٠٥.

عليه و سلم قال: إن عفريتا من الجن تفلت[1] عليّ البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان "هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي" فرددته خاسئا. [2]و قد حكمه الله في بعض الجن، فحمى من الذين يطعنون دار مولده و دار هجرته، روى أحمد في مسنده[3] بسند حسن إن شاء الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: المدينة و مكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منهما ملك، فلا يدخلها الدجال و لا الطاعون. هذا في البلدين، و أما المدينة خاصة ففيها أحاديث عدة عن عدة من الصحابة في الصحيحين و غيرهما، و قد عوض الله[4] نبينا صلى الله عليه و سلم عن الشياطين التأييد بجيوش الملائكة في غزواته[5]، و قد كان نبينا عبدا كما اختار فلم يكن له حاجة بغير ذلك.

و لما كان ذلك ملكا عظيما، نبه على عظمته بكثرته و دوامه و عظمة مؤتيه فقال مستأنفا [6]بتقدير: قلنا له و نحوه[6]: ﴿هذا﴾ اي الأمر الكبير ﴿عطآؤنا﴾ اي على ما لنا من العظمة؛ ثم سبب عن ذلك

---

(١) من ظ و مد و صحيح البخاري، و في الأصل و م: تغلب، و في صحيح مسلم: يفتك (٢) العبارة من هنا إلى «الصحيحين و غيرهما» ساقطة من مد. (٣) راجع ٢ / ٤٨٣ (٤) ليس في م و مد (٥) من م و مد، و في الأصل و ظ: غزاته (٦-٦) ما بين الرقمين بياض في الأصل و ظ ملأناه من م و مد إلا أن العبارة في م وردت قبل "فامنن" ص ٣٨٧ س ٣.

إطلاق التصرف الذى هو أعظم المقاصد، فكم من / مالك لشىء و هو مغلول / ٤٥١ اليد عن التصرف فيه، فقال [١] بادئا بما يوجب الحب و يقبل بالقلوب دالا على عظمته و ظهور أمره بفك الإدغام [١] : ﴿ فامنن ﴾ أى أعط من [٢] شئت عطاء مبتدئا من غير تسبب من المعطى : ﴿ او امسك ﴾ أى عمن شئت .

و لما كان هذا عطاء يفوت الوصف عظمه، زاده تعظيما بكثرته و تسهيله و سلامة العاقبة فيه فقال : ﴿ بغير ﴾ أى كائنا كل ذلك من العطاء و المن خاليا عن ﴿ حساب ﴾ لأنك لاتخشى من نقصه [و - [٣]] ربك هو المعطى و الآمر، و لا من كونه مما يسأل عنه فى الآخرة لأنه قدأذن لك، فنفى الحساب عنه يفيد [٤] شيئين الكثرة و عدم الدرك فى إعطاء أو منع، و جعله مصدرا مزيدا يفهم أنه إنما ينفى عنه حساب يعتد به لا مطلق حسب بالتخمين كما [٥] يكون فى [٥] الأشياء التى تعيى الحاصر [٦] فيقرب أمرها بنوع حدس .

و لما رفع [٧] الحرج عنه [٧] فى الدارين . أثبت المزيد فقال عاطفا على ما تقديره : هذا له فى الدنيا. مؤكدا زيادة فى الطمأنينة لكونه خارقا لما حكم به من العادة [٨] فى أنه [٨] كل ما زاد عن الكفاف فى الدنيا كان ناقصا

(١-١) وقع ما بين الرقمين فى الأصل و ظ و م قبل « هذا أى الأمر » ص ٣٨٦ س ١٤ والترتيب من مد (٢) من ظ و مد، و فى الأصل و م : ما (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : تقييد (٥-٥) ما بين الرقمين بياض فى الأصل و ظ ملأناه من م و مد (٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م : الخاضين (٧-٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ : عنه الحرج . (٨-٨) من م و مد . و فى الأصل و ظ : فانه .

للحظ فى الآخرة[1]: ﴿ و ان له ﴾ أى خاصا بـــه ﴿ عندنا ﴾ أى فى الآخرة ﴿ لزلفى ﴾ أى قربى عظيمة ﴿ و حسن مآب ﴾ أى مرجع.

و لما انقضى الخبر عن الملك الأواب الذى ملك الدنيا بالفعل قهرا و غلبة شرقا و غربا، و كان أيوب عليه السلام فى ذروة الملوك و إن لم يكن ملكا بالفعل، و كان تكذيب من كذب بالنبى صلى الله عليه و سلم إنما هو بتسليط الله الشياطين بوسوسته عليهم، و أمره سبحانه بالصبر على ذلك و قص عليه من أخبار الأوابين تعليما لحسن الأوبة إن وهن الصبر، اتبعه الإخبار عن الصابر الأواب الذى لم يتاوه إلا من وسوسة الشيطان لزوجه بما كان يفتنها ليزداد النبى صلى الله عليه و سلم بذكر[2] هذه الأخبار صبرا[3] و يتضاعف إقباله على الله تعالى [و تضرعه له اقتداء باخوانه الذين لم تشغلهم عنه منحة السراء و لا محنة الضراء، وتذكيرا لقدرة الله -[4]] على كل ما يريده تنبيها على أنه قادر على رد قريش عما هم فيه و نصر المستضعفين[5] من عباده عليهم بايسر سعى فقال: ﴿ و اذكر عبدنا ﴾ [أى -[6]] الذى هو أهل للاضافة إلى عظيم جنابنا. و بينه بقوله: ﴿ ايوب ﴾، هو من الروم من أولاد عيص بن إسحاق عليهم السلام لتتأسى بحاله فتصبر على قومك و إن رأيت ما لا

---

(١) فى ظ و مد: الأخرى (٢) من ظ و م و مد. و فى الأصل: بذكره. (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: صبر (٤) زيد ما بين الحاجزين من م و مد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: للمستضعفين (٦) زيد من ظ و م و مد.

صبر لك عليه دعوت الله فى إصلاحه .

و لما أمره بذكره، بين أن معظم المراد بعض أحواله الشريفة ليتأسى به فقال مبدلا منه بدل اشتمال : ﴿ اذ ﴾ أى اذكر [1]حاله الذى[1] كان حين : ﴿ نادىٰ ﴾ [و صرف القول عن مظهر العظمة إلى صفة الإحسان لأنه موطنه لاقتضاء حاله ذلك فقال - [2]] : ﴿ ربّه ﴾ : أى المحسن إليه [الذى - [3]] عرف إحسانه إليه فى تربيته ببلائه كما عرف امتنانه بظاهر نعمائه و آلائه، ثم ذكر المنادى به حاكيا له بلفظه فقال مشيرا بالتأكيد إلى أنه - و إن كان حاله فيما عهد من شدة صبره مقتضيا عدم الشكوى - أتاه ما لا صبر عليه : ﴿ انى ﴾ أى رب أدعوك بسبب أنى . و لما كان هنا فى سياق التصبير، عظم الأمر باسناد الضر إلى أعدى الأعداء إلهابا إلى الإجابة [4]و أدبا[4] مع الله فقال : ﴿ مسّنى ﴾ أى و أنا من أوليائك ﴿ الشيطن ﴾ أى المحترق باللعنة البعيد من الرحمة بتسليطك له ﴿ بنصب ﴾ اى ضر و مشقة و هم و داء و وجع و بلاء يثقل صاحبه فيتعبه و يعييه و يكده[5] و يجهده و يصل به إلى الغاية من كل ذلك، و قرئ بضم الصاد[6] أيضا و قرئ / بالتحريك كالرُشد و الرَشد . و كان ذلك إشارة إلى أحوال / ٥٢ ٤ الضر فى الشدة و الخفة فالمسكن أدناه، و المحرك أوسطه، و المثقل [بالضم - [3]] أعلاه ﴿ و عذاب ﴾ أى نكد قوى جدا دائم مانع من

(١-١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : حال (٢) زيد ما بين الحاجزين من م و مد (٣) زيد من ظ و م و مد (٤-٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : عاديا (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ : يكدره (٦) راجع نثر المرجان ٦ / ٩٢ .

كل ما يلذ، و يمكن أن يساغ و يستطعم أجمله، و نكره تنكير لتعظيم استغنائه[1] على وجازته عن جمل طوال و دعاء عريض إعلاما بأن السيل[2] قد بلغ الزبى[3]، و أوهن البلاء القوى، و لم يذكره بلفظ إبليس الذى هو من معنى اليأس و انقطاع الرجاء دلالة على أنه هو راج فضل الله غير آيس من روحه، و ذلك أن الله تعالى سلطه على إهلاك أهله و ولده و ماله فصبر ثم سلطه على بدنه إلى أن سقط لحمه و استمر على ذلك مددا طوالا، فلذلك ثم تراءى لزوجته[4] رضى الله عنها فى زى طبيب و قال لها: أنا أداويه و لا أريد [إلا - [5]] أن يقول لى، إذا عوفى أنت شفيتنى، و قيل: قال لها: لو سجد لى سجدة واحدة شفيته، فأتته و حدثته بذلك [6]فأخبرها و عرفها[6] أنه الشيطان، و حذرها منه و خاف غائلته عليها، فدعا الله بما تقدم و شدد التنكير و التعظيم لما وسوس لها به بأن حلف ليضربنها مائة ضربة، ردعا لها عن الإصغاء إلى شيء من ذلك، و تهوينا لما يلقاه من بلائه فى جنبه.

و لما تشوف السامع إلى جوابه عن ذلك، استأنف قوله:

[7]﴿ اركض ﴾ أى قلنا له: اضرب الأرض [و أوجد الركض و هو

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مستغنابه (٢) من م ومد، و فى الأصل و ظ: السبيل (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الزل (٤) فى ظ و م و مد: لزوجه (٥) زيد من ظ و م و مد (٦ - ٦) فى ظ و م و مد: نعرفها.
(٧) العبارة من هنا إلى « عطف عليه قوله » ص ٣٩١ س ٧ ساقطة من ظ.

المشى و التحريك و الإسراع و الاستحثاث -[١]] ﴿برجلك ج﴾ يخرج منها ماء نافع حسن لتغتسل فيه و تشرب منه ففعل فأنبعنا له عينا، فقيل له: ﴿هذا﴾ باشارة القريب إشارة إلى تسهله ﴿مغتسل﴾ أى ماء يغتسل به [و موضعه و زمانه -[١]] ﴿بارد﴾ أى يبرد حر الظاهر ﴿و شراب ٥﴾ يبرد حر الباطن .

و لما كان التقدير: ففعل اغتسل و شرب فبرأ ظاهره و سر باطنه، عطف عليه قوله [صارفا القول إلى مظهر الجلال تنبيها على عظمة الفعل -[١]]: ﴿و وهبنا﴾ أى بما لنا من العظمة ﴿له أهله﴾ أى الذين كان الشيطان سلط عليهم بأن أحييناهم، [و جمع اعتبارا بالمعنى لأنه أفخم و أقرب إلى فهم المراد فقال -[١]]: ﴿و مثلهم﴾ [و أعلم باجتماع الكل فى آن واحد فقال -[١]]: ﴿معهم﴾ جددناهم له ليعلم من يسمع ذلك أنه لاعبرة بشىء من الدنيا و أنها و كل ما فيها عرض زائل لاثبات له أصلا إلا ما كان لنا، فانه من الباقيات الصالحات، فلا يغير أحد بشىء منها و لايشتغل عنا أصلا، و يعلم من هذا من صدقه القدرة على البعث بمجرد تصديقه له و من توقف فيه سأل أهل الكتاب فعلم ذلك بتصديقهم له[٢]، ثم علل سبحانه فعله ذلك بقوله: ﴿رحمة﴾ و لما كان فى مقام الحث على الصبر عظم الأمر بقوله: ﴿منا﴾ فانه أعظم من التعبير فى سورة الأنبياء بعندنا[٣]، ليكون ذلك أحث على لزوم الصبر، و إذا نظرت إلى ختام الآيتين عرفت تفاوت العبارتين و لاح لك أن مقام الصبر لايساويه

---

(١) زيد من م و مد (٢) فى ظ: به (٣) راجع آية ٨٤ .

شيء، لأن الطريق إليه سبحانه لاينفك شيء منه عن صبر و قهر للنفس و جبر، لأنها بالإجماع خلاف ما تدعو إليـــه الطبائع[1] ﴿ و ذكرىٰ ﴾ [أى -[2]] إكراما و تذكيرا عظيما ﴿لاولى الالباب ﴾ أى الأفهام الصافية، جعلنا ذلك لرحمته و لتذكير غيره من الموصوفين على طول الزمان ليتأسى به كل مبتلى و يرجو مثل ما رجا، فان رحمة الله واسعة، و هو عند القلوب المنكسرة، فما بينه و بين الإجابة إلا حسن الإنابة، فمن دام إقباله عليه أغناه عن غيره:

لكل شيء إذا فارقته عوض   و ليس لله إن[3] فارقت من عوض

و لما أجمل العذاب الصالح لألم الظاهر، و ذكر المخلص منه، اتبعه

٤٥٣ / التنبيه على أعظمه و هو ألم / الباطن، بل أبطن الباطن التعلق بالاعتقاد فيما وسوس لزوجه رضى الله عنها بما كاد[4] يزلها فحلف ليضربنها[5] مائة لئلا تعود إلى شيء من ذلك فيزلها عن مقامها[6] كما أزل[7] غيرها فأرشده سبحانه و تعالى إلى المخلص [من ذلك الحلف على أخف وجه لأنها كانت صابرة محسنة، فشكر الله لها ذلك، و جعل هذا المخلص -[8]] بعدها سنة باقية لعباده تعظيما لأجرها و تطييبا لذكرها فقال عاطفا على

---

(١) فى ظ و مد: الطباع (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من ظ و م و مد. و فى الأصل: اذ (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كان (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ليضربها (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: مقلها (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: اعزل (٨) زيد ما بين الحاجزين من م و مد.

"اركض" : ﴿ و خذ بيدك ﴾ أى التى قد صارت فى غايــة الصحة ﴿ ضغثا ﴾ أى حزمة صغيرة من حشيش فيها مائة عود كشمراخ النخلة ، قال الفراء : هو كل ما جمعته من[1] شيء مثل الحزمة الرطبة ، [و قال السمين[2] : و أصل المادة يدل على جمع المختلطات -[3]] ﴿ فاضرب به ﴾ أى مطلق ضرب ضربة واحدة ﴿ و لا تحنث ﴾ فى يمينك [أى تأثم بتركك ما حلفت على فعله -[3]] ، فهذا تخفيف على[4] كل منهما لصبره ، و لعل الكفارة لم تكن فيهــم و خصنا الله بها مع شرعه فينا ما أرخصه له تشريفا لنا ، و كل[5] هذا إعلاما بأن الله تعالى ابتلاه صلى الله عليه و سلم فى بدنه و ولده [و ماله -[3]] ، و لم يبق له إلا زوجة نوسوس لها الشيطان طمعا فى إيذائهما كما آذى آدم و حواء عليهما السلام ، إلى أن قارب منها بعض ما يريد ، و المراد بالإعلام به تذكير النبى صلى الله عليه و سلم بأنه إن [كان -[6]] مكن[7] الشيطان من الوسوسة لأقاربه و الإغواء و الإضلال فقد من عليه بزوجه أعظم وزراء الصدق و كثير من أقاربه الأعمام و بنى الأعمام و غيرهم ، و حفظ له بدنــه و ماله ليزداد شكره لله تعالى ، و فى القصة إشارة إلى أنه قادر على أن يطيع له من يشاء ، فانه قادر على التصرف فى المعانى كقدرته على التصرف فى الذوات ، و أنه سبحانه يهب لهذا النبى الكريم قومه العرب الذين هم الآن أشد الناس

(١) زيد فى ظ : كل (٢) مر التعليق عليه (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لعل .
(٦) زيد من مد (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : امكن .

[١]عليه و غيرهم[١] فيطيعه الكل .

و لما كان الصبر و الأفعال المرضية عزيزة فى العباد لا تكاد توجد فلا يكاد يصدق بها، علل سبحانه هذا الإكرام له صلى الله عليه و سلم و أكده، فقال على سبيل الاستنتاج مما تقدم ردا على من يظن أن الشكوى إليه تنافى الصبر، و إشارة إلى أن السر فى التذكير به التأسى فى الصبر: ﴿ انا ﴾ أى على ما لنا من العظمة ﴿ وجدنٰه ﴾ أى فى عالم الشهادة طبق ما كان [لنا - [٢]] فى عالم الغيب ليتجدد للناس من العلم بذلك ما كنا به عالمين . و لما كان السياق للحث على مطلق الصبر فى قوله تعالى "و اصبر على ما يقولون" أتى باسم الفاعل مجردا عن مبالغة فقال: ﴿ صابرا ط ﴾ ثم استأنف قوله: ﴿ نعم العبد ط ﴾ ثم علل بقوله مؤكدا لئلا يظن [٣]أن بلاءه[٣] قادح فى ذلك: ﴿ انه اواب ۝ ﴾ أى رجاع بكليته إلى الله سبحانه على خلاف ما يدعو إليه طبع البشر، قال الرازى فى اللوامع: قال ابن عطاء: وافقه[٤] معنا بحسن الأدب لا يغيره دوام النعمة، و لا يزعجه تواتر البلاء و المحنة . روى عبد بن حميد فى مسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: وضع رجل يده على النبى صلى الله عليه و سلم فقال: و الله ما أطيق ان [٥]أضع يدى عليك من[٥] شدة حماك . فقال النبى صلى الله عليه و سلم: إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا

(١ - ١) من م و مد ، و فى الاصل و ظ : عليهم و د غيرهم (٢) ريد من م و مد (٣ - ٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : انه (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : وافق (٥-٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اضيع يدك عن .

البلاء

البلاء كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله و إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر / حتى يأخذ العباة[1] / ٤٥٤ فيحويها و إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء.

و لما ذكر سبحانه من ابتلاه في بدنه و ماله و ولده ثم جعل له الماء بردا و سلاما[2] و عافية و نظاما و شفاء و قواما[3]، عطف عليه من ابتلاه بالنار على أيدي الجبابرة فجعلها عليه بردا و سلاما باعتماده عليه و صبره لديه، و نجاه من كيدهم[4]، و جعل أيده بمفرده فوق أيدهم، ثم ابتلاه بالهجرة لوطنه و أهله و عشيرته و سكنه، ثم بذبح ابنه. فصبر على ذلك كله، اعتمادا على فضل الله و منه فقال: ﴿و اذكر عبدنا﴾ بالتوحيد في رواية [ابن - ٥] كثير للجنس أو لإبراهيم وحده عليه السلام لأنه أصل من عطف عليه دينا[6] و أبوة، [فبين الله أساس عطفه عليه في المدح بالعبودية أيضا -٥]. ثم بين المراد بقوله: ﴿إبراهيم﴾ و عطف[7] على العبد[7] [لا على مبينه لئلا يلزم بيان واحد بجماعة إذا أريد به إبراهيم وحده لا الجنس - ٥] ابنه لصبره على دينه في الغربة بين عباد الأوثان و مباعدي الإيمان، فلم يلفت[8] لفتهم و لا داناهم، بل أرسل إلى أقاربه في

(١) من مد، و في الأصل و ظ و م: العبادة (٢) زيد في الأصل: باعتماده عليه و صبره. و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: قياما (٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: كفرهم. (٥) زيد من م و مد (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: رينا (٧ - ٧) من م و مد، و في الأصل و ظ: عليه (٨) من مد، و في الأصل و ظ و م: لم يلتفت.

بلاد الشرق . فتزوج منه من وافقته على دينه الحق ، و استمر على إخلاص العبادة لا يأخذه فى الله لومة لائم إلى ان مضى لسبيله فقال : ﴿ و اسحٰق ﴾ ثم أتبعه ولده الذى قفا أثره . و صبر صبره ، و ابتلى بفقد ولده ، و بهجة كبده ، فصبر أتم الصبر فى ذلك[1] الضر ، و أبلغ فى الحمد و الشكر ، فقال تعالى : ﴿ و يعقوب ﴾ و ألحقهما سبحانه بأبيهما [بعد أن بينت قراءة الإفراد إصالته فى المدح بالعبودية فعطفهما عليه نفسه -[2]] فى قراءة غير ابن كثير "عبادنا" بالجمـــع كما قال تعالى "و الذين امنوا و اتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم" .

و لما اجتمعوا بالعطف أو البدل[3] وصفهم بقوله : ﴿ اولى الايدى ﴾ أى القوة[4] الشديدة و الأعمال السديدة لأن الأيدى أعظم آلات ذلك ﴿ و الابصار ﴾ أى الحواس الظاهرة و الباطنة التى هى حقيقة بأن تذكر و تمدح بها لقوة إدراكها و عظمة نفوذها فيما هو جدير بأن يراعى من جلال الله و مراقبته فى الحركات و السكنات سرا و علنا ، و عبر عن ذلك بالأبصار لأنها[5] أقوى مبادئه ، و من لم يكن مثلهم كان مسلوب القوة و العقل ، فلم يكن له عقل فكان عدما . فهو أعظم توبيخ لمن رزقـــه الله قوة و عقلا ، ثم لا يصرفـــه فى عبادة الله و المجاهدة فيه سبحانه .

---

(١) زيد فى الأصل و ظ : على ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد . و فى الأصل و ظ : ابدل (٤) فى م : القوى .
(٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لأنه .

و لما اشتد تشوف السامع لما استحقوا به هذا الذكر، قال مؤكدا إشارة إلى محبته سبحانه لمدحهم و ردا على من ينسب إليهم أو إلى أحد منهم ما لا يليق كما كذبه اليهود فيما بدلوه[1] من التوراة فى حق إسحاق عليه السلام فى بعض المواضع [معديا للفعل بالهمزة إشارة إلى انه جذبهم من العوائق إليه جذبة واحدة هى فى غاية السرعة -[2]]: ﴿انآ اخلصنهم﴾ أى لنا إخلاصا يليق بعظمتنا التى لاتدانيها عظمة ﴿بخالصة﴾ أى أعمال و أحوال و مقامات و بلايا و محن [هى سالمة عن شوب ما -[3]]، فصاروا[4] بالصبر عليها فى غاية الخلوص.

و لما كان سبب الإخلاص تذكر يوم الدين [و -[5]] ما يبرز فيه من صفات الجلال و الجمال و ينكشف فيه من الأمور التى لاتوصف عظمتها، بينها بقوله: ﴿ذكرى الدارج﴾ [أى -[5]] تذكرهم تلك الخالصة تذكيرا عظيما لايغيب عنهم أصلا الدار التى لايستحق غيرها أن يسمى دارا بوجه بحيث نسوا بذكر هذا الغائب [ذكر ما يشاهدونه من دار الدنيا فهم لاينظرون إليه أصلا بغضا فيها، فقد أنساهم هذا الغائب -[5]] الثابت الشاهد الزائل عكس ما عليه العامة. و إضافة نافع [و أبى جعفر وهشام عن ابن عامر بخلاف عنه -[5]] لخالصة[6] مؤيد لما قلت من أن ذكرى بيان لأنها إضافة / الصفة إلى الموصوف، و المعنى أنهم لايعملون[7] شيئا إلا و هو / ٤٥٥

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يذكر (٢) زيد من مد (٣) زيد من م و مد (٤) من مد، و فى الأصل و ظ وم: صادا (٥) زيد من ظ وم و مد. (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لخاصة (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لايعلمون.

مقرب للآخرة، فالمعنى أن ذكرهم لها خالص عن سواه لايشاركه فيه شيء و لايشوبه شوب أصلا .

و لما دلت هذه الجملة على هذا المدح البليغ، عطف عليه ما يلازم الإخلاص فقال مؤكدا لمثل ما تقدم من التنبيه على أنهم ممن يغتبط بمدحهم، و ردا على من ربما ظن خلاف ذلك بكثرة مصائبهم في الدنيا : ﴿و انهم عندنا﴾ أى على ما لنا من العظمة و الخبرة ﴿لمن المصطفين﴾ المبالغ فى تصفيتهم مبالغة كأنها بعلاج ﴿ الاخياره﴾ الذين كل واحد منهم خير بليغ فى الخير، و إصابتنا إياهم بالمصائب دليل ذلك لا دليل عكسه كما يظنه[1] من طمس قلبه[2]. [و الآية من الاحتباك : ذكر « أخلصناهم » أولا دليلا على " اصطفيناهم " ثانيا، و " المصطفين " دليلا على « المخلصين » أولا، و سر ذلك أن الإخلاص يلزم منه الاصطفاء، لاسيما إذا أسنده إليه بخلاف العكس بدليل "ثم اورثنا الكتب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه" - [3]] .

و لما أتم الأمر بذكر الخليل و ابنه عليهما السلام الذى لم يخرج من كنفه قط و نافلته المبشر به للتأسى بهم فى صبرهم على الدين و إن خالفهم من خالفهم، أتبعه ولده الذى أمر بالتجرد عنه مرة بالإسكان عند البيت الحرام ليصير أصلا برأسه فى أشرف البقاع، و مرة بالأمر بذبحه فى تلك المشاعر الكرام، فصار ما أضيف إليـــه من الأحوال

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : يظن (٢) من م، و مد، و فى الأصل و ظ : بصره (٣) زيد ما بين الحاجزين من مد .

و الأفعال

و الأفعال من المناسك العظام عليه الصلاة و السلام، و أفرده بالذكر دلالة على أنه أصل عظيم برأســـه من أصول الأئمة الأعلام، فقال: ﴿ و اذكر اسمٰعيل ﴾ أى أباك و ما صبر عليه من البلاء بالغربة و الانفراد و الوحدة و الإشراف على الموت فى الله غير مرة و ما صار إليه بعد ذلك البلاء من الفرج و الرئاسة و الذكر فى هذه البلدة ﴿ و اليسع ﴾ أى الذى استخلفه إلياس عليه السلام على بنى إسراءيل فجمعهم الله عليه بعد ذلك الخلاف الشديد الذى كان منهم لإلياس عليه السلام ﴿ و ذا الكفلْ ﴾ أى النصيب العظيم بالوفاء بما يكفله[1] من كل أمر علىّ، و عمل صالح زكى.

و لما تقدم [وصف -[2]] من قبل إبراهيم عليه السلام بالأوبة و خصوا بالتصريح، لما كان لهم من الشواغل عنها بكل من منحة السراء و محنة[3] الضراء [و كذلك الوصف بالعبودية سواء -[4]]، و كان الأمر بالذكر - مع حذف الوصف المذكور لأجله و الإشارة إليه بالتلويح و لامانع من ذكره - دالا على غاية المدح له[5] لذهاب الوهم فى تطلبه[6] كل مذهب، قال معمما للوصف [بالعبودية و الأوبة -[4]] بها جميع المذكورين، عاطفا بما أرشد إليه العطف على غير مذكور على [ما -[2]] تقديره: إنهم أوابون، ليكون تعليلا[7] لذكرهم بما علل به ذكر أول مذكور فيهم:

(١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: يكلفه (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: منحه (٤) زيد من م و مد (٥) سقط من م و مد (٦) من م و مد، فى الأصل: طلبه، و فى ظ: مطلبه (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تقليلا.

﴿ و كل ﴾ اى من هؤلاء المذكورين فى هـــذه السورة من الأنبياء [١ قائمون بحق العبودية فهم من خيار عبادنا١ من هؤلاء الثلاثة و من قبلهم -٢] ﴿من الاخيار ﴾ أى كما أن كلا منهم أواب بالعراقة فى وصف الصبر - كما مضى فى الأنبياء، و بغير ذلك من كل خير على أن الصبر جامع لجميع الطريق ، فهم الذين يجب الاقتداء بهم فى الصبر على الدين و لزوم طريق المتقين٣ .

و لما أتم سبحانه ما أراد من ذكر هؤلاء الأصفياء عليهم السلام الذين عافاهم بصبرهم و عافى من دعوهم ، فجعلهم سبحانه سبب الفلاح و لم يجعلهم سببا للهلاك . [قال مؤكدا لشرفهم -٤] و شرف ما ذكروا به ، حاثا على٥ إدامة تذكره و تأمله و تدبره للعمل به ، مبينا ما٦ لهم فى الآخرة على ما ذكر من أعمالهم و ما٧ لمن ٨ نكب عن طريقهم٨ على سبيل التفصيل : ﴿هٰذا﴾ أى ما تلوناه عليك من أمورهم و أمور غيرهم ﴿ ذكر ﴾ أى شرف فى الدنيا و موعظة من ذكر القرآن ذى الذكر ،

٤٥٦/ ثم عطف على قوله " ان الذين / يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد" ما لأضدادهم ، فقال مؤكدا ردا على من ينكر ذلك من كفار العرب

(١-١) ليس ما بين الرقمين فى مد (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اليقين (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد فى الأصل و ظ : ان ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مما (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لما (٨-٨) من مد . و فى الأصل و م : يكب على طريقه ، و فى ظ : نكب عن طريقه .

و غيرهم : ﴿ و ان ﴾ و يجوز - و هو أحسن - أن يكون معطوفا على "هذا" و تقديره : هذا ذكر للصابرين .

و لما أداهم [إليه صبرهم فى الدنيا و أن لهم على ما وهبناهم -[١]] من الأعمال الصالحة التى جمعها[٢] الصبر لمرجعا[٣] حسنا ، و لكنه أظهر الوصف الذى أداهم إلى هذا المآب تعميما لكل من اقتدى بهم حثا على الاقتداء فقال : ﴿ للمتقين ﴾ أى جميع [العريقين فى وصف التقوى -[١]] الذين يلزمون لتقواهم الصراط المستقيم ﴿ لحسن مآب لا ﴾ أى مصير و مرجع ؛ و لما شوق سبحانه إلى هـذا الجزاء [أبدل منه أو -[١]] بينه بقوله : ﴿ جنت عدن ﴾ أى إقامة [فى استمراء و طيب عيش و نمو و امتلاء و شرف أصل -[٤]] .

و لما كانت من الأعلام[٥] الغالبة ، نصب[٦] عنها على الحال قوله : ﴿ مفتحة ﴾ أى تفتيحا[٧] كثيرا و بليغا [من غير أن يعانوا فى فتحها شيئا من نصب أو طلب أو تعب ، و أشار جعل هذا الوصف مفردا أن تفتيحها على كثرتها كان لهم فى آن واحد حتى كأنها باب واحد -[٤]] ﴿ لهم ﴾ أى لا لغيرهم ﴿ الابواب ج ﴾ التى لها و التى فيها فلا يلحقهم فى دخولها ذل الحجاب و لا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة

---

(١) زيد من م و مد (٢) من م و مد . و فى الأصل وظ : يجمعها (٣) من ظ و م و مد ، و فى الاصل : مرجعا (٤) زيد من مد (٥) من م و مد ، و فى الاصل و ظ : الاعمال (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فصب (٧) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : تفتحا .

بالتبجيل و الإكرام .

و لما ذكر إقامتهم و يسر دخولهم ، [1]وصف حالهم[1] إذ ذاك فقال: ﴿متكئين فيها[2]﴾ أى ليس لهم شغل سوى النعيم و لا عليهم كلفة أصلا. و لما كان المتكئ لايتم نعيمه إلا أن كان مخدوما ، دل على سؤددهم[3] بقوله : ﴿يدعون فيها﴾ أى كلما أرادوا من غير مانع أصلا و لاحاجة إلى قيام و لا قعود يترك به الاتكاء . و لما كان أكلهم[4] إنما هو للتفكه لا لحفظ الجسد من آفة قال: ﴿بفاكهة كثيرة﴾ فسمى جميع مآكلهم فاكهة . و لما كانت الفاكهة لايمل منها ، و الشراب لايؤخذ منه إلابقدر الكفاية، وصفها دونه فقال : ﴿و شراب ﴾ .

و لما كان الأكل و الشرب داعيين إلى النساء لاسيما مع الراحة قال : ﴿و عندهم ﴾ أى لهم من غير مفارقة أصلا . [5]و لما كان سياق الامتنان مفهما كثرة الممتن به لا سيما إذا كان من العظيم[6] ، أتى بجمع القلة مريدا به الكثرة لأنه أشهر و أوضح و أرشق من « قواصر » المشترك بين جمع قاصر و قوصرة ـ بالتشديد و التخفيف ـ لوعاء التمر فقال: ﴿قصرٰت[7]﴾ [8]و لما كن على خلق واحد فى العفة و كمال الجمال وحد فقال[8] :

(١ - ١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : وصفهم (٢) ليس فى الأصل فقط. (٣) من م و مد ، و فى الاصل و ظ : تودهم (٤) من ظ و م و مد ، و فى الاصل : كلهم (٥) العبارة من هنا إلى «لوعاء التمر فقال» ساقطة من م (٦) فى الأصل و ظ بياض . ملأناه من مد (٧) و قع فى الأصل و ظ قبل « و لما كان سياق الامتنان » و الترتيب من مد (٨-٨) وقع ما بين الرقمين فى الأصل و ظ بعد « غير مفارقة أصلا » و الترتيب من مد ، و العبارة ساقطة من م .

﴿ الطرف ﴾ أى طرفهن لعفتهن[1] و طرف أزواجهن لحسنهن، [و لما لم تنقص صيغة جمع القلة المعنى، لكونه فى سياق المدح و الامتنان، و كان يستعار للكثرة، أتى على نمط الفواصل بقوله -[2]]: ﴿ اتراب ۝ ﴾ أى على سن واحد مع أزواجهن و هو الشباب، سمى القرين تربا لمس التراب جلده و جلد قرينه فى وقت واحد، قال البغوى[3]: بنات ثلاث و ثلاثين سنة . لأن ذلك ادعى للتآلف[4] فان التحاب بين الأقران أشد و أثبت .

و لما ذكر هذا النعيم لأهل الطاعة، و قدم ذلك العذاب لأهل المعصية قال: ﴿ هٰذا ﴾ اى الذى ذكر هنا و الذى مضى ﴿ ما ﴾ و بنى للفعول اختصارا[5] و تحقيقا للتحتم قوله: ﴿ توعدون ﴾ من الوعد و الإيعاد، [و قراءة الغيب على الأسلوب الماضى، و من خاطب لفت الكلام للتلذيذ بالخطاب تنشيطا لهممهم و إيقاظا لقلوبهم -[6]] ﴿ ليوم الحساب ۝ ﴾ أى ليكون فى ذلك اليوم .

و لما كان هذا يصدق بأن يوجد ثم ينقطع كما هو المعهود من حال الدنيا، أخبر أنه على غير [7]هذا المنوال[7] فقال: ﴿ ان هٰذا ﴾ أى المشار إليه إشارة[8] الحاضر الذى لايغيب ﴿ لرزقنا ﴾ أى للرزق الذى

---

(١) من ظ وم و مد، و فى الأصل: لعفتهم (٢) زيد من مد (٣) راجع معالم التنزيل بهامش اللباب ٦/٥٢ (٤) من مد، و فى الأصل و ظ و م: للتأليف. (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اختار (٦) زيد من م و مد (٧-٧) من م و مد . و فى الأصل و ظ: منوال (٨) زيد فى الأصل و ظ: كما هو، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها .

يستحق الإضافة إلينا فى مظهر العظمة، فلذلك كانت[١] النتيجة: ﴿ما له من نفاد ج﴾ أى فناء و انقطاع، بل هو كالماء المتواصل فى نبعه، كلما أخذ منه شيء أخلف فى الحال بحيث أنه لا يميز المأخوذ من الموجود بوجه من الوجوه، فيكون [فى - ٢] ذلك تلذيذ و تنعيم لأهل الجنة بكثرة ما عنده، و بمشاهدة ما كانوا يعتقدونه و يثبتونه لله تعالى من القدرة على الإعادة فى كل وقت، جزاء وفاقا / عكس ما يأتى لأهل النار. ٤٥٧ /

و لما كانت النفوس نزاعة للهوى ميالة إلى الردى، فكانت محتاجة إلى مزيد تخويف و شديد تهويل، قال تعالى متوعدا لمن ترك التأسى بهؤلاء السادة فى احوال العبادة، مؤكدا لما مضى من إبعاد العصاة و تخويف العتاة: ﴿هذا ط﴾ [أى - ٢] الأمر العظيم الذى هو جدير بأن يجعل نصب العين و هو أنه لكل من الفريقين ما ذكر و إن أنكره [الكفرة - ٣]، و حذف الخبر بعد إثباته فى الأول أهول[٤] ليذهب الوهم فيه كل مذهب[٥] ﴿و ان للطغين﴾ اى الذين لم يصبروا على تنزيلهم [أنفسهم - ٣] فى منازلها بالصبر على ما أمروا به فرفعوا أنفسهم فوق قدرها، و تجاوزوا الحد و علوا فى الكفر به و أسرفوا فى المعاصى و الظلم و تجبروا و تكبروا فكانوا احمق الناس ﴿لشر مآب لا﴾ أى مصير و مرجع،

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: كان (٢) زيد من م و مد (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من ظ و مد، و فى الأصل: اهوال (٥) العبارة من « و حذف الخبر » إلى هنا ساقطة من م.

و أبدل منه أو[1] بينه بقوله : ﴿ جهنم ج ﴾ أي الشديدة الاضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة و التجهم .

و لما كان اختصاصهم بها ليس بصريح فى عذابهم ، استأنف التصريح به فى قوله : ﴿ يصلونها ج ﴾ أي يدخلونها فيباشرون شدائدها . و لما أفهم هذا غاية الكراهة [لها -[2]] و أنه لا فراش لهم غير جمرها ، فكان التقدير : فيكون مهادا لهم لتحيط بهم فيعمهم صليها[3]، سبب عنه قوله: ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي الفراش هى . فان فائدة الفراش تنعيم الجسد ، و هذه تذيب الجلد و اللحم ثم يعود فى الحال كلما[4] ذاب عاد عقوبة لهم ليريهم الله ما كانوا يكذبون به من الإعادة فى كل وقت دائما أبدا ، كما كانوا يعتقدون ذلك دائما أبدا جزاء وفاقا عكس ما لأهل الجنة من التنعيم و التلذيذ باعادة كل ما قطعوا من فاكهتها و أكلوا من طيرها ، لأنهم يعتقدون الإعادة فنالوا هذه السعادة .

و لما قدم أن لأهل الطاعة فاكهة و شرابا ، وكان ما وصف به مأوى العصاة لا يكون إلا عذابا ، و كان مفهما لا محالة أن الحرارة تسيل[5] من أهل النار عصارة من صديد و غيره قال : ﴿ هذا لا ﴾ أى العذاب للطاغين ﴿ فليذوقوه ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ حميم ﴾ أى ماء حار ، و أشار بالعطف بالواو إلى تمكنه فى كل من الوصفين فقال : ﴿ و غساق لا ﴾

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ « و » (٢) زيد من م و مد (٣) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : حيلها (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كما. (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل و ظ : لا تسيل .

أى سيل منتن عظيم جدا باردٍ أسود مظلم شديد فى جميع هذه الصفات من صديد و نحوه ، و هو فى قراءة الجماعة[1] بالتخفيف[2] اسم كالعذاب و النكال من غسقت عينه ، أى سالت ، و غسق الشيء ، [أى -[3]] امتلأ ، و منـــه الغاسق للقمر لامتلائه و كماله ، و فى قراءة حمزة و الكسائى و حفص بالتشديد صفة كالخباز و الضراب ، تشير إلى شدة أمره فى جميع ما استعمل فيه من السيلان و البرد و السواد .

و لما كان فى النار - اجارنا الله منها بعفوه و رحمته - ما لايعد من [4]أنواع العقاب[4]، قال [عاطفا على هذا -[3]]، ﴿ و اخر ﴾ أى من أنواع المذوقات - على قراءة البصريين بالجمع[2] لأخرى ، و مذوق على قراءة غيرهما بالإفراد ، و هو حينئذ للجنس ، [و أخبر عن المبتدأ بقوله -[3]] : ﴿ من شكله ﴾ أى شكل هذا المذوق و لما كان المراد الكثرة فى المعذبين و هم الطاغون و فى عذابهم مع افتراقه[5] بالأنواع و إن اتحد فى جنس العذاب ، صرح بها فى قوله : ﴿ ازواج ٥ ﴾ أى هم أو هى[6] أو هو ، أى جنس عذابهم انواع كثيرة .

و لما كان مما أفهمه الكتاب فى هذا الخطاب أن الطاغين الداخلين إلى جهنم أصناف كثيرة ، و كانت العادة جارية بأن الأصناف إذا اجتمعوا

(١) فى م و مد : الجمهور (٢) راجع نثر المرجان ٦/١٠٠ و ١٠١ (٣) زيد من م و مد (٤ - ٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الأنواع (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اقترانه (٦) زيد فى م : أى المذوقات .

كانت

كانت بينهم محاورات و لاسيما إن كانوا من الطغاة العتاة ، تحرك اليبامع إلى تعرف ذلك فقال تعالى مستأنفا جوابه بما يدل على تقاولهم بأقبح [المقاولة - ١] و هو التخاصم الناشئ عن التباغض و التدابر الذى من شأنه أن يقع بين الذين / دبروا أمرا فعاد عليهم بالوبال فى أن كلا /٤٥٨ منهم يحيل ما وقع بـه العكس على صاحبه ، و ذلك أشد لعذابهم : ﴿ هٰذا ﴾ أى قال أطغى الطغاة لما دخلوها أولا كما هم أهل له لأنهم ضالون مضلون و [٢] رأوا جمعا [٢] من الأتباع داخلا عليهم : هذا ﴿ فوج ﴾ أى جماعة كثيفة مشاة مسرعون ، و لما كانوا يدخلونها من شدة ما تدفعهم الزبانية على هيئة الواثب قال [٣] مشيرا بالتعبير بالوصف مفردا إلى أنهم فى الموافقة فيه و التسابق كأنهم نفس واحدة [٣] : ﴿ مقتحم ﴾ أى رام بنفسه فى الشدة بشدة فجاءة بلا روية كائنا ﴿ معكم ج ﴾ .

و لما كان أهل النار يؤذى بعضهم بعضا بالشهيق و الزفير و الزحام و الدفاع و البكاء و العويل و ما يسيل من بعضهم على بعض من القيح و الصديد و غير ذلك من أنواع النكد . و لاسيما إن كانوا أتباعا لهم فى الدنيا ، فصاروا مثلهم فى ذلك الدخول فى الرتبة . لايتحاشون عن دفاعهم وخصامهم و نزاعهم ، قالوا استئنافا : ﴿ لا مرحبا ﴾ ثم بينوا [٤] المدعو عليه فقالوا : ﴿ بهم ط ﴾ و هى كلمة واقعة فى أتم مواقعها لأنها دالة على

(١) زيد من م و مد (٢-٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : روابها - كذا (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) من ظ و م ، و فى الأصل : بين ، و العبارة من « ثم بينوا » إلى « فقالوا » ساقطة من مد .

التضجر و البغضة مع الصدق فى أهل مدلولها الذى هو مصادفة الضيق ، مفعل من الرحب مصدر ميمى و هو[1] السعة ، [2] أى لا كان بهم[3] سعة أصلا و لا اتسعت بهم هذه الأماكن [4]و لا هذه الأزمان[4] و لا حصلت لهم و لا بهم[5] راحة ، و لذلك عللوا استحقاقهم لهذا الدعاء بقولهم مؤكدين لما كان استقر فى نفوسهم و تطاول عليه الزمان من إنكارهم له : ﴿انهم صالوا النار ﴾ أى و من صليها[6] صادف من الضيق ما لم يصادفه أحد و آذى[7] كل من جاوره .

و لما كان من المعلوم على ما جرت به العوائد أنهم يتأثرون من هذا القول فيحصل التشوف إلى ما يكون من أمرهم هل يجيبونهم أم تمنعهم هيبتهم على ما كانوا فى الدنيا ، أعلم بما يعلم منه انقطاع الأسباب هناك ، فلا يكون من أحد منهم خوف من آخر ، فقال مستأنفا : ﴿ قالوا ﴾ أى الأتباع المعبر عنهم بالفوج لسفولهم و بطون أمرهم : ﴿ بل انتم قف ﴾ أى خاصة أيها الرؤساء ﴿ لا مرحبا ﴾ و بينوا بقولهم : ﴿ بكم ط ﴾ أى هذا الذى دعوتم به علينا أنتم أحق به منا ، [ثم -[8]] عللوا قولهم بما أفهم أنهم شاركوهم فى الضلال و زادوا[9] عليهم بالإضلال[10]

---

(١) من مد ، و فى الأصل وظ وم : هى (٢) العبارة من هنا إلى «سعة أصلا» ساقطة من م (٣) من مد ، و فى الأصل وظ : لهم (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من م و مد ، وفى الأصل وظ : لهم (٦) من م و مد ، وفى الأصل وظ : صلاها (٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : آوى (٨) زيد من م و مد (٩) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ردوا (١٠) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فى الإضلال .

فقالوا : ﴿ انتم ﴾ أى خاصة ﴿ قدمتموه ﴾ أى الاقتحام فى العذاب بما أقحمتمونا[١] فيه [من أسبابه -[٢]] و قدمتم فى دار الغرور[٣] من تزيينه ﴿ لنا ج ﴾ و لما كان الاقتحام و هو الوثوب أو الدخول على شيء بسرعة كأنها الوثوب ينتهى منه إلى استقرار ، و كان الفريقان قد استقروا فى مقاعدهم فى النار ، سببوا عن ذلك قولهم : ﴿ فبئس القرار ه ﴾ أى قراركم .

و لما كان قول الأتباع هذا مفهما لأنهم علموا أن سبب ما وصلوا إليه من الشقاء هو الرؤساء ، و كان هذا موجبا لنهاية غيظهم منهم ، تشوف السامع لما يكون من أمرهم معهم ؟ هل يكتفون بما أجابوهم به أو يكون إمنهم شيء آخر ؟ فاستأنف[٤] قوله إعلاما بأنهم لم يكتفوا بذلك و علموا أنهم لا يقدرون على الانتقام[٥] منهم : ﴿ قالوا ﴾ أى الاتباع : ﴿ ربنا ﴾ أى أيها المحسن إلينا الذى منعنا هؤلاء عن الشكر له ﴿ من قدم لنا هذا ﴾ أى العذاب بما قدم [لنا -[٦]] من الأسباب التى اقتحمناه ، و قدموا ذلك اهتماما به و أجابوا الشرط بقولهم : ﴿ فزده ﴾ أى على العذاب الذى استحقه بما استحققنا به نحن و هو الضلال ﴿ عذابا ضعفا ﴾ أى زائدا / على ذلك مثله مرة أخرى بالإضلال ، و قيدوه ٤٥٩ / طلبا لفخامته بقولهم [٧]معبرين بالظرف لإفهام الضيق الذى تقدم الدعاء[٧]

(١) من مد ، و فى الأصل و ظ و م : اقتحمونا (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العز (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : استأنف (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : انتقام (٦) زيد من م و مد (٧-٧) سقط من ما بين الرقمين من م .

[1]المجاب فيه به ليكون عذابا آخر فهو أبلغ مما فى الأعراف لأن السياق هنا للطاغين و هناك لمطلق الكافرين[1] ﴿ فى النار ﴾ [1]أى كائنا فيها[1]، و هذا مثل الآيـة الأخرى ربنا [2]اتهم ضعفين من العذاب[2] و العنهم لعنا كبيرا[2] أى مثل عذابنا مرتين .

و لما ذكر من اقتحامهم فى العذاب و تقاولهم بما دل على خزيهم [3]و حسرتهم و حزنهم ، أعلم بما دل على زيادة خسرانهم[3] و حسرتهم و هوانهم بمعرفتهم بنجاة المؤمنين الذين كانوا يهزؤن بهم و يذلونهم فقال : ﴿ و قالوا ﴾ أى الفريقان : الرؤساء و الأتباع بعد أن قضوا وطرهم مما لم يغن عنهم شيئا من[4] تخاصمهم : ﴿ ما ﴾ أى أىّ شىء حصل ﴿ لنا ﴾ مانعا فى أنا ﴿ لا نرى ﴾ أى فى هذا المحل الذى أدخلناه ﴿ رجالا ﴾ يعنون فقراء المؤمنين ﴿ كنا نعدهم ﴾ أى[5] فى دار الدنيا ﴿ من الاشرار ﴾ اى الأراذل الذين لاخير فيهم ، بأنهم قد قطعوا الرحم ، و فرقوا بين العشيرة و أفسدوا ذات البين ، وغيروا الدين بكونهم لايزالون يخالفون الناس فى أقوالهم و أفعالهم . مع ما كانوا فيه من الضعف و الذل و الهوان و سوء الحال فى الدنيا ، فيظن أهلها نقص حظهم منها و كثرة مصائبهم[6] فيها لسوء حالهم عند الله و ما دروا انه تعالى يحمى احباءه[7] منها كما

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ وم ومد.
(٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : مما .
(٥) سقط من ظ (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : صابيهم (٧) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : احبابه.

يحمى الإنسان عليه الطعام و الشراب و من يرد به خيرا يصب منه[1] .

و لما كانوا يسخرون من المؤمنين و يستهزؤن بهم، و هم ليسوا موضعا لذلك، بل حالهم فى جِدهم و جَدهم فى غاية البعد عن ذلك، قالوا مستفهمين، أما على قراءة الحرميين و ابن عامر و عاصم[2] فتحقيقا، و أما على قراءة غيرهم فتقديرا: ﴿ اتخذنٰهم ﴾ أى كلفنا أنفسنا و عالجناها فى أخذهم ﴿ سخريا ﴾ أى نسخر منهم و نستهزئ بهم - على قراءة الكسر، و نسخرهم أى نستخدمهم على قراءة الضم. و هم ليسوا أهلا لذلك، بل كانوا خيرا منا فلم يدخلوا هنا لعدم شرارتهم، [و كأنهم كانوا إلى تجويز كونهم فى النار معهم و منعهم من رؤيتهم أميل. فدلوا على ذلك بتأنيث الفعل ناسبين خفاءهم عنهم إلى رخاوة فى أبصارهم على قوتها فى ذلك الحين فقالوا -[3]]: ﴿ أم زاغت ﴾ أى مالت متجاوزة ﴿ عنهم ﴾ .

و لما كان تعالى يعيد الخلق فى القيامة على غاية الإحكام فى ابدانهم و معانيها فتكون أبصارهم أحد ما يمكن أن تكون و أنفذه[4] " أسمع بهم و أبصر يوم يأتوننا فبصرك اليوم حديد" عدوا أبصارهم فى الدنيا بالنسبة إليها عدما، فلذلك عرفوا قولهم: ﴿ الابصار ﴾ أى منا [التى لا أبصار فى الحقيقة سواها[3]] فلم نرهم و هم فينا و معنا فى النار، و لكن حجبهم عنا بعض اوديتها و جبالها و لهبها، فـ" ام " معادلة لجملة السخرية، و قد

---

(١) زيد فى الأصل: انتهى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .

(٢) راجع نثر المرجان ٦ / ٣٠٠ ؛ (٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: أبعده .

علم بهذا التقرير ان معنى الآية إلى انفصال حقيقي معناه : أهم معنا أم[١] لا[٢] ؟ فهي من الاحتباك : أثبت الاتخاذ المذكور الذي يلزمه بحكم[٣] العناد بين[٣] الجملتين عدم كون المستسخر بهم [معهم -[٤]] في النار أولا دليلا على ضده ثانيا ، و هو كونهم معهم فيها ، و أثبت زيـغ الأبصار ثانيا اللازم منه بمثل ذلك كونهم معهم في النار دليلا على ضده أولا و هو كونهم ليسوا معهم ، و سر ذلك [أن - [٤]] الموضع لتحسرهم و لومهم لأنفسهم ، في غلطهم و الذي ذكر عنهم أقعد في ذلك .

و لما كان هذا أمرا رائعا جدا زاجرا لمن له عقل فتأمله مجردا لنفسه من الهوى ، و كانت الجدود[٥] تمنعهم عن التصديق به ، كان موضعا لتأكيد الخبر عنه فقال : ﴿ان ذلك﴾ أي الأمر العظيم الذي تقدم الإخبار به ﴿ لحق ﴾ أي ثابت لابد من وقوعه إذا[٦] وقـع مضمونه وافق الواقع منه هذا الإخبار عنه . و لما كان أشق ما فيه عليهم
/٤٦٠ و[٧] أنكأ تخاصمهم[٧] جعله هو المخبر به وحده ، فقال / مبينا له مخبرا عن مبتدإ استئنافا تقديره . هو ﴿ تخاصم اهل النارۚ ﴾ لأنه ما أثاره لهم إلا الشر و النكد فسمى تخاصما[٨] .

(١) تكرر في الأصل فقط (٢) زيد في الأصل : في ، و لم تكن الزيادة في ظ و م ، مد فحذفناها (٣-٣) من مد ، و في الأصل و ظ وم : العبارتين (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) في م و مد : الحظوظ (٦) من م و مد ، و في الأصل و ظ : اذ (٧-٧) من ظ و م و مد ، و في الاصل : انكار تخاصمهم (٨) من م و مد ، و في الأصل و ظ : تخاصمهم .

و لما كانت قد جرت عادتهم عند التخويف أن يقولوا: عجل لنا هذا إن كنت صادقا فيما ادعيت، و من المقطوع به أنه لايقدر على ذلك إلا الإله فصاروا كأنهم نسبوه إلى أنه ادعى الإلهية، قال تعالى منبها على ذلك آمرا له بالجواب: ﴿ قل ﴾ أى لمن يقول لك ذلك: ﴿ انمآ انا منذر ﴾ أي مخوف لمن عصى، و لم أدع[1] أنى إله، ليطلب مني ذلك فانه لايقدر على مثله إلا الإله، فهو قصر قلب للموصوف على الصفة، و أفرد قاصرا للصفة فى قوله: ﴿ و ما ﴾ و أعرق فى النفي بقوله: ﴿ من اله ﴾ أي معبود بحق لكونه محيطا بصفات الكمال. و لما كان السياق للتوحيد الذى هو أصل الدين، لفت القول عن مظاهر العظمة إلى أعظم منه و أبين فقال: ﴿ الا الله ﴾ و للإحاطة عبر بالاسم العلم[2] الجامع لجميع الأسماء الحسنى و لو شاركه شيء لم يكن محيطا و للتفرد قال مبرهنا على ذلك: ﴿ الواحد ﴾ أى بكل اعتبار فلا يمكن أن يكون له جزء أو يكون له شبيه فيكون محتاجا مكافئا ﴿ القهار ﴾ أى الذى يقهر غيره على ما يريد، و هذا برهان على أنه الإله وحده و ان آلهتهم بعيدة عن استحقاق الإلهية لتعددها و تكافؤها بالمشابهة و احتياجها.

و لما وصف نفسه سبحانه بذلك، دل عليه بقوله: ﴿ رب السموت ﴾ أى مبدعها و حافظها على علوها و سعتها و إحكامها بما لها من الزينة[3] و المنافع. و جمع لأن المقام للقدرة، و إقامة الدليل على تعددها سهل

(١) من مد، و فى الأصل و ظ و م: لم ادعى (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: العلم (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الرتبة.

﴿و الارض﴾ على سعتها و ضخامتها و كثافتها و ما فيها من العجائب .

و لما كان القائل مخيرا كما قال ابن مالك فى الكافية الشافية عند اختلاط العقلاء بغيرهم فى إطلاق ما شاء من « مَن » التى أغلب إطلاقها على العقلاء و « ما » التى هى بعكس ذلك ، و كان ربما وقع فى وهم أن تمكنه تعالى من العقلاء دون تمكنه من غيرهم لما لهم من الحيل التى يحترزون بها عن المحذور ، و ينظرون بها فى عواقب الأمور ، أشار إلى أن حكمه فيهم كحكمه فى غيرهم من غير فرق بالتعبير عنهم بـ « ما » التى أصلها و أغلب استعمالها لمن لايعقل ، و سياق العظمة بالوحدانية و آثارها دال على دخولها فى العبادة قطعا فقال : ﴿ و ما بينهما ﴾ أى الخافقين من الفضاء و الهواء [و غيرهما من العناصر و النبات و الحيوانات العقلاء - [1]] وغيرها ، ربّ كل شيء من ذلك إيجادا و إبقاء على ما يريد و إن كره ذلك المربوب ، فدل ذلك على قهره ، و تفرده فى جميع أمره[2]

و لما كان السياق للانذار ، كرر ما يدل على القهر فقال : ﴿ العزيز ﴾ أى الذى يعز الوصول إليه ، و يغلب كل شيء و لايغلبه شيء[3] ، و لما ثبت انه يغلب[4] كل شيء و لا يغلبه شيء ، وكانت دلالة الوصفين العظيمين على الوعيد أظهر من إشعارها[5] بالوعد ، كان موضع قولهم :

---

(١) زيد من م و مد (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اموره .
(٣) العبارة من هنا إلى « لا يغلبه شيء » ساقطة من ظ (٤) زيد فى الأصل : على ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٥) فى م : إشعارهما .

فما

فما له لا يعجل بالهلاك[1] لمن يخالفه فقال: ﴿ العفار ﴾ أى المكرر ستره لما[2] يشاء من الذنوب حلما إلى وقت الماحى لها بالكلية [بالنسبة - [3]] إلى من يشاء من العباد كما فعل مع أكثر الصحابة رضى الله عنهم حيث غفر لهم ما اقترفوه قبل الإسلام .

و لما ثبت بهذا وحدانيته و قدرته و لم يزعهم[4] ذلك عن ضلالهم، و لا ردهم عن عتوهم / و محالهم، مع كونه موجبا لأن يقبل كل أحد / ٤٦١
عليه و لا يعدل أبدا عنه ، قال آمرا له بما[5] ينبههم على عظيم خطائهم : ﴿ قل هو ﴾ أى هذا الأمر الذى تلوته عليكم من الأخبار عن[6] الماضى و الآتى[6] من القيامة[7] المشتملة على[8] التخاصم المذكور و غيرها و الأحكام و المواعظ ، فثبت بمضمونه الوحدانية ، و تحقق باعجازه مع ثبوت الوحدانية و تمام القدرة و جميع صفات الكمال انه كلام الله : ﴿ نبؤا عظيم ﴾ أى خبر يفوت الوصف فى الجلال و العظم بدلالة العبارة[9] و الصفة لا يعرض عن مثله إلا غافل لا وعى له و لا شيء من راى .

و لما كانوا يدعون أنهم أعظم الناس إقبالا على الغرائب ، و تنقيبا عن الدقائق و الجلائل من المناقب ، بكتهم بقوله واصفا له : ﴿ انتم عنه ﴾

(١) سقط من ظ (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لمن (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : يرغمهم (٥) فى م : لما ، و فى مد : بان (٦ - ٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الآتى و الماضى (٧) من ظ ، و فى الأصل و م و مد : القيمة (٨) زيد فى الأصل و ظ : الخصومة و ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٩) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العبادة .

أى خاصة لا عن غيره [1]و الحال ان غيره[1] من المهملات . و لما كان أكثرهم متهينا[2] للاسلام و الرجوع عن الكفران لم يقل: مدبرون، و لا 'يعرضون' بل قال: ﴿معرضون ه﴾ أى ثابت لكم الإعراض فى هذا الحين، و قد كان ينبغى لكم الإقبال عليه خاصة و الإعراض عن [كل -[3]] ما عداه[4] لأن فى ذلك السعادة الكاملة . و لو أقبلتم عليه بالتدبر لعلمتم قطعا صدقى و أنى ما أريد بكم إلا السعادة فى الدنيا و الآخرة، فبادرتم الإقبال إلىّ و القبول لما أقول.

و لما قصر نفسه الشريفة على الإنذار، و كانوا ينازعون فيه و ينسبونه إلى الكذب، دل على صدقه و على عظم هذا النبأ بقوله: ﴿ما كان لى﴾ و أعرق فى النفى بالتأكيد فى قوله: ﴿من علم﴾ أى من جهة أحد من الناس كما تعرفون ذلك من حالى له إحاطة [ما -[5]] ﴿بالملا﴾ أى الفريق المتصف بالشرف ﴿الاعلى﴾ و هم الملائكة أهل السماوات العلى و آدم و إبليس، و كأن مخاطبة الله لهم [كانت -[6]] بواسطة ملك كما [هو -[6]] أليق بالكبرياء و الجلال، فصح أن المقاولة[7] بين الملأ ﴿اذ﴾ أى حين . و لما أفرد وصف الملأ إيذانا بأنهم فى الاتفاق فى علو رتبة الطاعة كأنهم شيء واحد، جمع لئلا يظن حقيقة الوحدة فقال: ﴿يختصمون ه﴾ اى فى شأن آدم عليه السلام، أول خليفة فى الأرض

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) من م و مد، وفى الأصل و ظ: مهيا. (٣) زيد من م و مد (٤) فى مد: سواه (٥) زيد من مد (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المقالة.

بل الخليفة المطلق، لأن خلافة أولاده من خلافته، و فى الكفارات الواقعة من بينه، كما أنه ما كان لى من علم بأهل النار إذ يختصمون، و لا بالخصم الذين دخلوا على داود عليه السلام الذى جعله الله تعالى خليفة فى الأرض إذ يختصمون، و قد علمت ذلك علما مطابقا للحق بشهادة الكتب القديمة و أنتم تعلمون أنى لم أخالط عالما قط، فهذا علم من أعلام النبوة واضح فى أنى لم أعلم ذلك إلا بالوحى لكونى رسول الله، و عبر هنا بالمضارع - و إن كان قد وقع و مضى من أول الدهر - تذكيرا بذلك الحال و إعلاما بما هم فيه الآن من مثله فى الدرجات، كما سيأتى قريبا فى الحديث القدسى، و عبر فى تخاصم أهل النار - و هو لم يأت - بالماضى تنبيها على أن وقوعه مما لا ريب فيه، فكأنه وقع و فرغ منه لأنه قد فرغ من قضائه من[1] لا راد له قضاء، لأنه الواحد فلا شريك له و لا منازع.

و لما كانوا ربما قالوا فى تعنتهم: فلعله مثل ما أوحى إليك بعلم ما لم تكن تعلم، يوحى إليك بالقدرة على ما لم تكن تقدر عليه، فتعجل لنا الموت ثم البعث لنرى ما أخبرتنا به من التخاصم مصورا، لعلنا نصدقك فيما أتيت به، / قال مجيبا[2] لهم قاصرا[3] للوحى على قصره على النذارة / ٤٦٢
و هى إبلاغ ما أنزل إليه، لا تعجيل شىء مما توعدوا به: ﴿ان﴾ أى ما ﴿يوحىٓ﴾ [أى - [4]] فى وقت من الأوقات، و بناه للمفعول لأن

---

(١) فى ظ: ممن (٢) فى ظ: موجبا (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قاصر (٤) زيد من ظ و م و مد.

ذلك كاف فى تنبيههم على موضع الإشارة فى أن دعواه إنما هى النبوة لا الإلهية ﴿ الىّ الآ ﴾ و لما كان الوحى قولا قرأ أبو جعفر [بكسر -[1]] ﴿ انمآ انا نذير ﴾ أى قصرى[2] على النذارة لا أنى[3] أنجز ما يتوعد به الله ؛ فانما مفعول [« يوحى » -[1]] القائم مقام الفاعل فى القراءتين و إن اختلف التوجيهان فالتقدير على قراءة الجماعة بالفتح : إلا الإنذار أو إلا كونى نذيرا، و على قراءة الكسر : إلا هذا القول و هو أنى أقول لكم كذا ﴿ مبين ﴾ أى لا أدع لبسا فيما أبلغه[4] بوجه من الوجوه .

و لما دل على أنه نذير، و أزال ما ربما أوردوه[5] عليه، أتبعه ظرف اختصام الملأ الأعلى، أو بدل « اذ » الأولى فقال: ﴿ اذ ﴾ أى حين ﴿ قال ﴾ و دل على أن هذا كله إحسان إليه و إنعام عليه بذكر الوصف الدال على ذلك، و لفت القول عن التكلم[6] إلى الخطاب لأنه أقعد[7] فى المدح و أدل على أنه كلام الله كما فى قوله "قل من كان عدوا لجبريل" دليلا يوهم أنه ظرف ليوحى أو لنذير فقال: ﴿ ربك ﴾ أى المحسن إليك بجعلك خير المخلوقين و أكرمهم عليه فانه أعطاك الكوثر، و هو كل ما يمكن أن تحتاج إليه ﴿ للملئكة ﴾ و هم الملأ الأعلى و إبليس منهم

(١) زيد من م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : قصدى (٣) من ظ و م ومد، وفى الأصل : ان (٤) زيد فى الأصل و ظ : به، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٥) من م و مد . و فى الأصل و ظ : اورده (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ : المتكلم (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ : اوقع .

لأنه

لأنه كان إذ ذاك معهم و فى عدادهم . و لما كانوا عالمين [بما - [1]] دلهم عليه دليل من الله كما تقدم فى سورة البقرة أن البشر يقع منه الفساد، فكانوا يبعدون أن يخلق سبحانه من فيه فساد لأنه الحكيم الذى لاحكيم سواه، أكد لهم سبحانه قوله: ﴿ انى خالق بشرا ﴾ أى شخصا ظاهر البشرة لاساتر له من ريش و لا شعر و لا غيرهما ليكون التأكيد دليلا على ما مضى من مراجعتهم لله تعالى التى اشار إليها بالاختصام، و بين أصله بقوله معلقا بخالق أو بوصف بشر: ﴿ من طين ﴾ أجعله خليفتى فى الأرض و إن كان فى ذلك فساد لأنى أريد أن أظهر حلمى و رحمتى و عفوى و غير ذلك من صفاتى التى لايحسن فى الحكمة إظهارها إلا مع الذنوب «لو لم تذنبوا فتستغفروا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» قال القشيرى: و إخباره للملائكة بذلك يدل على تفخيم شأن آدم عليه السلام لأنه خلق [2]ما خلق[2] من الكونين و الجنة و النار و العرش و الكرسى و الملائكة، و لم يقل فى صفة شيء منها ما قال فى صفة ادم عليه السلام و أولاده. و لم يأمر بالسجود لشيء غيره.

و لما أخبرهم سبحانه بما يريد ان يفعل، سبب عنه قوله: ﴿ فاذا سويته ﴾ أى هيأته باتمام خلقه لما يراد منه من قبول الروح و ما يترتب عليه ﴿ و نفخت فيه من روحى ﴾ فصار حساسا متنفسا، شبه سبحانه إفاضته الروح بما يتأثر عن نفخ الإنسان من لهب النيران، و غير ذلك من التحريك و الإسكان، و الزيادة و النقصان، و أضافه سبحانه إليه تشريفا له،

(١) زيد من م و مد (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ .

﴿ فقعوا له ﴾ أى خاصة ﴿ سٰجدين ه ﴾ أى اسجدوا له للتكرمة امتثالا لأمرى سجودا هو بغاية ما يكون من الطواعية و الاختيار و المحبة لتكونوا كأنكم وقعتم بغير اختيار، ففعلوا ما أمرهم [به - [1]] سبحانه من غير توقف. و لذلك ذكر [2]فعلهم مع[2] جواز تأنيثه فقال: ﴿ فسجد ﴾ أى عند ما نفخ فيه الروح ﴿ الملٰئكة ﴾ على ما أمرهم الله. و لما كان / إسناد الخبر إلى الجمع قد يراد به أكثرهم، أكد بقوله: ﴿ كلهم ﴾ ٤٦٣ إرادة لرفع المجاز ه

و لما كان لايقدح فى ذلك واحد مثلا أو قليل[3] لايعبأ بهم لضعف أو نحوه، رفع ذلك بقوله[4]: ﴿ اجمعون لا ﴾ مع إفادة أن السجود كان فى آن واحد إعلاما بشدة انقيادهم، و حسن تأهبهم للطاعة و استعدادهم، ثم زاد فى إيضاح العموم بالاستثناء الذى هو معياره فقال: ﴿ الآ ابليس ط ﴾ عبر عنه بهذا الاسم لكونه من الإبلاس و هو انقطاع الرجاء إشارة إلى أنه فى أول خطاب الله له بالإنكار عليه كان على كيفية علم منها تأبد الغضب عليه و تحتم العقوبة له ‏.

و لما عرف بالاستثناء أنه لم يسجد، و كان مبنى السورة على استكبار الكفرة بكونهم[5] فى عزة و شقاق، بين أن المانع له من السجود

(١) زيد من ظ و مد (٢ - ٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فعلها. (٣) من ظ و م و مد. و فى الأصل: قليلا (٤) زيد فى الأصل: كلهم، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لكونهم.

الكبر تنفيرا عنه مقتصرا فى شرح الاختصام عليه و على ما يتصل به فقال: ﴿ استكبر ﴾ أى طلب أن يكون أكبر من أن[١] يؤمر بالسجود له و أوجد الكبر على أمر الله، و كان من المستكبرين العريقين فى هذا الوصف كما استكبرتم أيها الكفرة على رسولنا، و سنرفع رسولنا صلى الله عليه و سلم كما رفعنا آدم صفينا عليه السلام على من استكبر عن السجود له، و نجعله خليفة هذا الوجود كما جعلنا آدم عليه السلام، و أشرنا إلى ذلك فى هذه السورة بافتتاحها بخليفة و اختتامها بخليفة أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بذكر كل من أحوالها.

و لما كان الفعل الماضى ربما أوهم أنه حدث فيه وصف لم يكن، و كان التقدير: فكفر بذلك، عطفا عليه بيانا لأنه جبل على الكفر و لم يحدث منه إلا ظهور ذلك للخلق قوله: ﴿ و كان ﴾ أى جبلة و طبعا ﴿ من الكفرين ه ﴾ أى عريقا فى وصف الكفر الذى منشأه الكبر على الحق المستلزم للذل للباطل، فالآية من الاحتباك: ذكر فعل الاستكبار أولا دليلا على فعل الكفر ثانيا [٢]و وصف الكفر ثانيا[٢] دليلا على وصف الاستكبار اولا، و سر ذلك أن ما ذكره أقعد فى التحذير بأن من وقع منه كبر جره إلى الكفر.

و لما كان من خالف أمر الملك جديرا بأن يحدث إليه أمر ينتقم به منه، فتشوف السامع لما كان من الملك إليه، استأنف البيان لذلك بقوله: ﴿ قال ﴾ و بين أنه بمحل البعد بقوله: ﴿ يآ ﴾ و بين يأسه من

(١) سقط من ظ (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ .

الرحمة و أنه لاجواب له أصلا بتعبيره بقوله : ﴿ابليسُ ما﴾ أى، أىّ شىء ﴿ منعك ان تسجد ﴾ و بين ما يوجب طاعته و لو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله معبرا بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلا كامل العقل : ﴿ لما خلقت ﴾ فأنا العالم به و بما يستحقه دون غيرى، و ما أمرت بالسجود له إلا لحكمة فى الأمر و ابتلاء للغير، و أكد بيان ذلك بذكر اليد و تثنيتها فقال : ﴿ بيدىّ ﴾ أى من غير توسط سبب من بين هذا النوع و ما ذاك إلا لمزيد اختصاص، و المراد باليد هنا صفة شريفة غير النعمة و القدرة معلومة له سبحانه و لمن تبحر فى علمى اللغة و السنة، خص بها خلق آدم عليه السلام تشريفا له و فى تثنية اليد إشارة إلى أنه ربما أظهر فيه معانى الشمال و إن كان كل من يديه مباركا، ثم قدم المانع إلى طلب العلو و وجود العلو مع الإنكار عليه فى الاستناد[1] إلى شىء منهما، فقال فى صيغة استفهام التقرير[2] / مع الإنكار و التقريع، ٤٦٤ / بيانا لأنه يلزمه لامحالة زيادة على ما كفر به أن يكون على أحد هذين الأمرين : ﴿ استكبرت ﴾ أى طلبت أن تكون اعلى منه و انت تعلم أنك دونه فأنت بذلك ظالم، فكنت من المستكبرين العريقين فى وصف الظلم، فان من اجترأ على أدناه أوشك أن يصل إلى أعلاه ﴿ام كنت﴾ أى بما لك من الجبلة الراسخة ﴿ من العالين ﴾ أى الكبراء المستحقين للكبر و أنا لا أعلم ذلك فنقصتك من منزلتك فكنت جائرا فى أمرى

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : الاسناد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : التقريع .

لك

لك بما[1] أمرتك به، فلذلك علوت بنفسك فلم تسجد له، هذا المراد لا ما[2] يقوله بعض الملاحدة من أن العالين جماعة من الملائكة لم يسجدوا لأنهم لم يؤمروا لأن ذلك قدح في العموم المؤكد هذا التاكيد العظيم، و في تفسير العلماء له من غير شبهة، و الآية من الاحتباك: دل فعل الاستكبار أولا على فعل العلو ثانيا، و وصف العلو ثانيا على وصف الاستكبار أولا، و سر ذلك أن إنكار الفعل المطلق مستلزم لإنكار المقيد لأنه المطلق بزيادة، و إنكار الوصف مستلزم لإنكار الفعل[3] لأنه جزؤه مع أن إنكار الفعل من هذا مستلزم لإنكار[3] الفعل من ذاك، فيكون كل من الفعلين مدلولا على إنكاره مرتين: تارة بانكار فعل عديله و أخرى بانكار وصفه نفسه، و الوصفان كذلك، و فعل الكبر أجدر بالإنكار من فعل العلو و "أم" معادلة لهمزة الاستفهام و إن حذفت من قراءة بعضهم لدلالة "أم" عليها و إن اختلف الفعل، قال أبو حيان[4]: قال سيبويه: تقول: أضربت زيدا أم قتلته، فالبدء[5] هنا بالفعل[6] أحسن لأنك إنما تسأل عن أحدهما لاتدرى[7] أيهما كان، و لاتسأل عن موضع أحدهما كأنك قلت: أى ذلك كان - انتهى.

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: فيما (٢) في م: لما (٢ - ٣) سقط ما بين الرقمين من ظ (٤) راجع البحر المحيط ٧ / ٤١٠ (٥) من ظ و مد و البحر المحيط، و في الأصل و م: فالبداة (٦) زيد في الأصل: اولى و، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد و البحر المحيط فحذفناها (٧) من مد و البحر المحيط، و في الأصل و ظ و م: لايدرى.

و لما صدعه سبحانه بهذا الإنكار، دل على إبلاسه بقوله مستأنفا: ﴿ قال ﴾ مدعيا لأنه من العالين: ﴿ انا خير منه ﴾ أى فلا حكمة فى أمرى بالسجود [له -[1]]، ثم بين ما ادعاه بقوله: ﴿ خلقتنى من نار ﴾ [أى -[1]] و هى فى غاية القوة و الإشراق ﴿ و خلقته من طين ﴾ أى و هو[2] فى غاية الكدورة و الضعف، و استؤنف[3] بيان ما حصل التشوف[4] إليه من علم جوابه بقوله معرضا عن القدح فى جوابه لظهور سقوطه بان المخلوق المربوب لا اعتراض له على ربه بوجه: ﴿ قال فاخرج ﴾ أى بسبب تكبرك و نسبتك الحكيم الذى لا اعتراض عليه إلى الجور ﴿ منها ﴾ أى من الجنة محل الطهر عن الأدواء الظاهرة و الباطنة، ثم علل ذلك بقوله موكدا [لأجل -[5]] ادعاه أنه[6] أهل لأقرب القرب: ﴿ فانك رجيم ﴾ أى مستحق للطرد و الرجم، و هو الرمى بالحجارة الذى هو للمبالغة فى الطرد

و لما كان الطرد قد يكون فى وقت يسير، بين انه دائم بقوله، مؤكدا إشارة إلى الإعلام بما فى نفسه من مزيد الكبر: ﴿ و ان عليك ﴾ أى خاصة. و لما كان السياق هنا للتكلم[7] فى غير مظهر العظمة لم يات بلام الكلام بخلاف الحجر فقال: ﴿ لعنتى ﴾ أى إبعادى مع الطرد و الخزى و الهوان و[8] الذل مستعل ذلك عليك دائما قاهرا لك لا تقدر على

(١) زيد من م و مد (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: هى (٣) من م و مد. و فى الأصل و ظ: استأنف (٤) فى م: التشوق (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لأنه (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: للتكلم (٨) سقط من ظ.

الانفكاك عنه بوجه ، و أما غيرك فلا يتعين للعن[1] بل يكون بين الرجاء و الخوف لا علم للخلائق بأنه مقطوع بلعنه ما دام حيا ، إلا من أخبر /٤٦٥ عنه نبي من الأنبياء بذلك ، ثم غي هذا اللعن بقوله : ﴿ الى يوم الدين ﴾ أى فاذا جاء ذلك اليوم أخذ فى المجازاة لكل عامل بما عمل و لم يبق لمذنب وقت يتدارك فيه ما فاته ، و حينئذ يعلم أهل الاستحقاق للعن كلهم[2]، و لم يبق علم ذلك خاصا بابليس ، بل يقع العلم بجميع أهل اللعنة . فالغاية لعلم الاختصاص باللعن لا للعن .

و لما كان ذلك ، تشوف السامع إلى ما كان منه فأخبر سبحانه [به -[3]] فى سياق معلم أنه منعه التوفيق فلم يسأل التخفيف ، و لا عطف نحو التوبة ، بل أدركه الخذلان بالتمادى فى الطغيان . فطلب ما يزداد به لعنة من الإضلال و الإغراق فى الضلال [ضد -[3]] [4]ما أنعم به[4] على آدم عليه السلام ، فقال ذاكرا صفة الإحسان و تسبيب[5] لسؤال الإنظار لما جرأه عليهما من ظاهر العبارة[6] فى أن اللعنة مغياة بيوم[7] الدين : ﴿ قال رب ﴾ أى[8] أيها المحسن إلىّ بايجادى و جعلى فى عداد الملائكة الكرام ﴿ فانظرنى ﴾ أى بسبب ما عذبتنى به من الطرد ﴿ الى يوم يبعثون ﴾ أى آدم و ذريته الذين تبعثهم ببعث جميع الخلائق : ﴿ قال ﴾ مؤكدا لأن

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : للعين (٢) سقط من ظ (٣) زيد من م و مد (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : التسبب (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العبادة (٧) فى م : ليوم (٨) سقط من م .

[مثل - [1]] ذلك فى خرقه للعادة لايكاد يتصور : ﴿ فانك ﴾ اى بسبب هذا السؤال ﴿ من المنظرين لا ﴾ و هذا يدل على أن مثل هذا الإنظار لغيره أيضا .

و لما دج فى عبارته بما يقتضى السؤال فى أن لايموت ، فان يوم البعث ظرف لفيض الحياة لا لغيضها و [2]لبسطها لا لقبضها ، منعه ذلك بقوله : ﴿ الى يوم الوقت ﴾ و لما كان تدبيجه فى السؤال قد أفهم تجاهله بما هو [4] أعلم الخلق به من تحتم الموت لكل من لم يكن فى دار الخلد الذى أبلغ الله تعالى فى الإعلام به ، قال : ﴿ المعلوم ه ﴾ [3]و هو الصعقة الأولى [5]و ما يتبعها[5] .

و لما كانت هذه الإجابة سببا لأن يخضع و ينيب[6] شكرا عليها ، و أن يطغى و يتمرد و يخيب لأنها[7] تسليط و تهيئة للشر ، فاستشرف السامع إلى معرفة ما يكون من هذين المسببين ، عرف أنه منعه الخذلان من اختيار الإحسان بقوله : ﴿ قال فبعزتك ﴾ اى التى أبت أن يكون لغيرك فعل لابغير ذلك . و يجوز أن تكون الباء للقسم ﴿ لاغوينهم ﴾ اى ذرية آدم عليه السلام ﴿ اجمعين لا ﴾ قال القشيرى : و لو عرف عزته لما

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد فى الأصل : لا ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) زيدت الواو فى الأصل و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد فى الأصل : من ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها . (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : يثيب (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لأنه .

أقدم بها على مخالفته .

و لما كان عالما بأن القادر ما خلق آدم عليه السلام و شرفه بما شرفه به ليشقي ذريته كلهم قال: ﴿ الا عبادك ﴾ فأضافهم إليه سبحانه تنبيها على أن غيرهم قد انسلخوا من التشرف بعبوديته بالنسبة إلى من أطاعوه . و لما كان يمكن أن يكون المستثنى من غير البشر قيد بقوله : ﴿منهم المخلصين ۝﴾ اى الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته فأخلصوا قصدهم لها، و عرف من الاستثناء أنهم قليل و أن الغواة هم الأصل .

و لما حصل التشوف إلى جوابه، دل عليه بقوله: ﴿قال فالحق ز﴾ أى فبسبب إغوائك و غوايتهم أقول الحق ﴿و الحق﴾ أى لا غيره ابدا[١] ﴿ اقول ج﴾ أى لا أقول إلا الحق ، فان كل شيء قلته ثبت ، فلم يقدر [أحد -[٢]] على نقضه و لا نقصه . و لما كانت إجابته بالإنظار ربما[٣] كانت سببا لطمعه فى الخلاص ، قطع رجاءه بما أبرزه فى أسلوب التأكيد من قوله جوابا[٤] لقسم مقدر / : بيانا للحق . و فى قراءة عاصم و حمزة[٥] /٦٦ ٤
برفع " فالحق " يكون هو المقسم به اى فالحق قسمي ، [٦]و الجواب[٦] ﴿ لاملئن ﴾ و ما بينهما اعتراض مبين أن هذا مما لا يتخلف أصلا ﴿ جهنم ﴾ أى النار العظيمة التى من شأنها تجهم من حكم بدخوله إياها ﴿ منك ﴾ فى نفسك و كل[٧] من كان على شاكلتك من جنسك من

(١) سقط من ظ و م و مد (٢) زيد من م و مد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بما (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : جوابه (٥) راجع نثر المرجان ٦ / ١١١ (٦ - ٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فالجواب .
(٧) سقط من مد .

جميع الجن ﴿ وممن ﴾ .

ولما كان الأغلب[1] على سياقات هذه السورة سلامة العاقبة[2]، كان توحيد الضمير في "تبع" أولى، وليفهم الحكم على كل فرد ثم الحكم على المجموع قال: ﴿ تبعك ﴾ ولما كان ربما قال متعنت: إن المالىء لجهنم[3] من غير البشر قال: ﴿ منهم ﴾ أي الناس الذين طلبت الإمهال لأجلهم، وأكد ضمير "منك" والموصول في "ممن" بقوله: ﴿ اجمعين ه ﴾ لا تفاوت في ذلك بين أحد منكم، وهذا الخصام الذي بين سبحانه أنه كان بين الملأ الأعلى كان سببا لهم إلى انكشاف علوم كثيرة منها أن السجود والتحيات والاستغفار والكفارات سبب الوصول إلى الله والقربات، فصاروا بعد ذلك يختصمون فيها، فكانت هذه القضية[4] سببا لإطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على أسرار الملك والملكوت. وإلى ذلك الإشارة بالحديث الذي رواه أحمد[5] والترمذي[6] - وقال: حسن غريب - والدارمي[7] والبغوي[8] في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إني نعست فاستثقلت[9]

---

(١) من ظ وم ومد. وفي الأصل: الابنغ (٢) من ظ وم ومد، وفي الأصل: العافية (٣) في م: بجهنم (٤) من م ومد، وفي الأصل وظ: القصة.

(٥) في مسنده ١/٣٦٨ (٦) في جامعه باب تفسير سورة ص ٢/١٥٥ - ١٥٦.

(٧) في مسنده كتاب الرؤيا باب في رؤية الرب تعالى في النوم ص ٢٥٤.

(٨) في معالم التنزيل - راجع هامش لباب التأويل ٦/٥٣ - ٥٤ (٩) من م ومد والجامع، وفي الأصل وظ: فستقلت.

نوما فأتانى ربى - و فى رواية : آتٍ من ربى - فى أحسن صورة ، فقال لى : يا محمد ، قلت : لبيك ربى و سعديك ، قال : هل تدرى فيم يختصم[1] الملأ الأعلى ، فقلت : لا يا رب - و فى رواية : قلت : أنت أعلم أى رب مرتين - قال : فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى[2] - أو[3] قال[4] : نحرى - فعلمت ما فى السماوات و ما فى الأرض - و فى رواية : ما بين المشرق و المغرب - و فى رواية الدارمى و البغوى : ثم تلا هذه الآية " و كذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات و الارض و ليكون من الموقنين " قال : يا محمد ! هل تدرى فيم يختصم[1] الملأ الأعلى ، قلت : نعم ، فى الدرجات و الكفارات ، قال : و ما هن ؟ قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، و المشى على الأقدام إلى الجماعات ، و إسباغ الوضوء فى المكاره - و فى رواية : فى السبرات - و انتظار الصلاة بعد الصلاة ، قال : من فعل ذلك عاش بخير و مات بخير ، و كان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، و قال : يا محمد ، قلت : لبيك و سعديك ، قال : إذا صليت فقل « اللهم إنى أسالك فعل الخيرات و ترك المنكرات و حب المساكين و أن تغفر لى و ترحمنى ، و إذا اردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك

(١) من م و مد والمراجع ، و فى الأصل وظ . اختصم (٢) فى الأصل بياض ، ملأناه من ظ و م و مد و المراجع (٣) من ظ و م و مد و مسند أحمد ، و فى الأصل « و » (٤) زيد فى الأصل : فى - مكررا . و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد و مسند أحمد فحذفناها .

غير مفتون» قال: «الدرجات إفشاء السلام و إطعام الطعام و الصلاة بالليل و الناس نيام»، قال المنذري[1]: الملأ الأعلى: [الملائكة - [2]] المقربون، و السبرات - بفتح [السين - [2]] المهملة و سكون الباء الموحدة: جمع سبرة، و هي شدة البرد، و عزاه شيخنا في تخريج أحاديث الفردوس إلى أحمد و الترمذي عن معاذ [3]رضي الله عنه أيضا[3] و قال: و في اللباب عن ثوبان رضي الله عنه عند أحمد بن منيع و عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري[4] و أبي رافع و أبي أمامة و أبي عبيدة و أسامة و جابر ابن سمرة و جبير بن مطعم و أسامة بن عمير و أنس رضي الله عنهم عند أحمد، فهذا اختصام سبب العلم بتفاصيله الاختصام الأول و هو ما في شأن آدم عليه السلام و ذريته، و العلم الموهوب لمحمد صلى الله عليه و سلم [بسبب السؤال عن هذا الاختصام كالعلم الموهوب لأبيه آدم عليه السلام - [5]] بسبب ذلك الاختصام، و هذا الاختصام - و الله
/٤٦٧ أعلم - هو اختلافهم في مقادير[6] جزاء العاملين[7] من الثواب المشار إليه بالدرجات الحامل عليها العقل الداعي إلى أحسن تقويم، و العقاب المشار إليه بالكفارات الداعي إلى أسبابها الوساوس الشيطانية الرادة إلى أسفل سافلين التي [سال - [5]] إبليس الإنظار لأجلها، و سبب اختلافهم في

(١) في الترغيب و الترهيب (٢) زيد من ظ و م و مد (٣ - ٣) في ظ و م و مد: أيضا رضي الله عنه (٤) ليس في م و مد (٥) زيد من م و مد (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: تقارير (٧) من م و مد، و في الأصل و ظ: العاطلين.

مقادير

مقادير الجزاء اختلاف مقادير الأعمال الباطنة من صحة النيات و قوة العزائم و شدة المجاهدات و لينها على حسب دواعي الحظوظ و الشهوات التي كان سبب علمهم بها الاختصام في أمر آدم عليه السلام و ما نشأ عنه من تفصيله بأمور دقيقة المأخذ المظهرة لأن الفضل ليس بالأمور الظاهرة، و إنما هو بما يهبه الله من الأمور الباطنة، و سمى تقاولهم في ذلك اختصاما دلالة على عظمة ما تقاولوا فيه، لأن الخصومة لا تكون إلا بسبب أمر نفيس[1]. فالمعنى أن الملائكة كل واحد منهم مشغول بما اقيم فيه من الخدمة، فليس بينهم تقاول يكون بغاية الجد و الرغبة كما هو شأن الخصام إلا في هذا[2] لشدة عجبهم منه لما يعلمون من صعوبة هذه الأمور على الآدمي لما عنده من الشواغل و الصوارف عنها بما وهبهم الله من العلم جزاء لانقيادهم للطاعة بالسجود بعد ذلك الخصام فنزوع الآدمي عن صوارفه و حظوظه إلى ما للملائكة من الصفوف في الطاعة و الإعراض أصلا عن المعصية غاية في العجب، و علمه صلى الله عليه و سلم لما في السماوات و ما في الأرض علم عام لما كان في حين الرؤيا ظهر له به ملكوتهما، و نسبة ذلك كله إلى علم الله تعالى كالنسبة التي ذكرها الخضر لموسى عليهما السلام في نقرة العصفور من البحر، و الذي ذكره العلماء في ذلك أنه تقريب للافهام فانه لا نسبة في الحقيقة لعلم أحد من علمه تعالى و لا ينقص علمه أصلا سبحانه عما[3] يلم بنقص أو يدني إلى وهن " قل

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: تقيس (٢) في ظ: هذه (٣) في ظ: بما.

لو كان البحر مدادا" الآية "ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام" الآية "يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا اجبتم قالوا لا علم لنا" و يقال للنبي صلى الله عليه و سلم فى ناس اختلجوا دونه عن حوضه «إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك؟ فيقول: فسحقا سحقا».

و لما تم ما أراد من الدليل على أن ما ذكره لهم نبأ عظيم هم عنه معرضون بما أخبر به من الغيب مع ما له من الإعجاز، فثبت بذلك ما اقتضى أنه صادق فى نسبته إلى الله تعالى، و ختم بالتحذير من اتباع إبليس، أمره بالبراءة من طريقه و[1] أن ينفى عن نفسه ما قد يحمل على التقول[2] بقوله: ﴿قل﴾ أى لأمتك: ﴿مآ اسئلكم[3]﴾ سؤالا مستعليا، و علق به لا "باجر" قوله: ﴿عليه﴾ أى على التبليغ و الإنذار مما أنتم متعرضون له من الهلاك بالإعراض، فأداة الاستعلاء للاحتراز عن سؤال المودة فى القربى و حسن الاتباع فانهما مسؤلان و هما روح الدين، و لكن سؤالهما[4] [ليس -[5]] مستعليا على الإبلاغ بحيث أنهما لو انتفيا انتفى. و أعرق فى النفى بقوله: ﴿من اجر﴾ أى فيكون لكم فى الرد شبهة ﴿و مآ انا من المتكلفين[6]﴾ أى المتحلين بما ليسوا من أهله من قول

---

(١) زيد فى م: امره (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: المقول (٣) من م و مد و القرآن الكريم، و فى الأصل و ظ: سالتكم (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: سولهما (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد و القرآن الكريم، و فى الأصل و ظ: المكلفين.

و لا فعل، الذين يكلفون أنفسهم تزوير الكلام و التصنع فيه و ترتيبه على طريق من الطرق بنظم أو نثر مجمع أوخطب أو غير ذلك، أو وضع أنفسهم فى غير مواضعها، كما فعل إبليس، لست منهم بسبيل[1] و لا أعد فى عدادهم بوجه، لا أفعل أفعالهم و لا أحبهم و لا أتعصب لهم، فهو أبلغ من «و ما أنا متكلفا» قد عرفتمونى طول عمرى كذلك، و من المعلوم أن[2] ذلك لو كان فى غرزتى / لما كففت عنه طول [زمانى -[3]] ‎/٤٦٨ النمو من الصبي و الشباب اللذين توجد فيهما الغرائز و لا توجد بعدهما، فاذا ثبت أن ذلك لم يكن لى إذ ذاك ثبت أنه متعذر بعده، لما تقرر من أنه لا توجد غريزة بعد الوقوف عن النمو فى سن الثلاث و الأربعين، فاذا علم أنى لست كذلك علم أنى مأمور بما أنا فيه من القول و الفعل، فأنا من المكلفين لا المتكلفين، فكل من قال أو فعل ما لم يؤمر به فهو متكلف، و روى[4] الثعلبي بسنده[5] من حديث سلمة بن نفيل رضى الله عنه مرفوعا والبيهقى فى الشعب من قول علي بن ارطاة و أبونعيم فى الحلية[6] من قول وهب: علامة المتكلف ثلاث: ينازع من فوقه، و يتعاطى ما لا ينال، و يقول ما لا يعلم.

و لما أثبت المقتضيات لأنه من عند الله و أزال الموانع، بين حقيقته التى لا يتعداها لى ما نسوه إليه بقوله: ﴿ ان ﴾ أى ما ﴿ هو الا ذكر ﴾

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لسبيل (٢) تكرر فى الأصل فقط. (٣) زيد من م و مد (٤) من مد، و فى الأصل و ظ و م: رواه (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بسند (٦) راجع ٤ / ٤٧.

أى عظة و شرف ﴿ للعلمين ﴾ اى كلهم يفهم كل فرد منهم ما تحتمله قواه[1] [منه - [2]] ذكيا كان أو غبيا على ما هو عليه من العلو[3] الذى لايدانيه فيه كلام بخلاف الشعر و الكهانة التى محطها السجع و الكذب فى الإخبار ببعض المغيبات ، فانهما مع سفول رتبتهما لايفهمهما من العالمين إلا ذاك و ذاك .

و لما كان التقدير: أنا عالم بذلك، عطف عليه قوله جوابا لقسم: ﴿ و لتعلمن ﴾ اى أنتم ايضا ﴿ نبأه ﴾ اى صدقى فى جميع ما أنباتكم به[4] فيه و عنه من الأخبار العظيمة و فيما أشار إليه افتتاح هؤلاء الأنبياء المذكورين فى هذه السورة بخليفة و ختامهم بخليفة من أن عزتكم تصير إلى ذل و شقاقكم[5] يصير إلى مسالمة و ألفة، و كثرتكم تصير إلى قل، و أن[6] ما أنا فيه الآن يفضى بى إلى خلافة الله فى أرضه، و أن أوسط أمرى يصير إلى مثل خلافة الأول فى جميع جزيرة العرب التى هى أرض المسجد الأعظم الذى هو قبل المسجد الأقصى الذى هو محل خلافته، ثم يزاد أمر خلافتى فى سائر البلاد و لايزال حتى يعم[7] الأرض بطولها و العرض على [8] يد ابنه[8] عيسى عليه السلام خاتمة [أكابر - [2]] اتباعى

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قوا (٢) زيد من م و مد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : المعلوم (٤) زيدت الواو فى الاصل وظ ، و لم تكن فى م و مد فحذفناها (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : شقاكم (٦) سقط من ظ (٧) من م و مد ، و فى الأصل وظ : يعمر (٨-٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ابيه .

و أنصارى

و أنصارى و أشياعى . و ترك الجار إعلاما باستغراق العلم لزمان البعد فقال : ﴿ بعد حين ﴾ أى مبهم عندكم معلوم لى فى الدنيا إذا ظهر عبادى عليكم و فى الآخرة مطلقا ، و إنما آخروا إلى هذا الحين ليبلغ فى الإعذار إليهم فتنقطع حججهم و تتناهى ذنوبهم التى يستحقون الأخذ بها ، و لقد و الله علموا ذلك ثم ندموا من مات منهم و من عاش قبل مضى عشرين سنة من إعلاء كلمته و إظهار رسالته و إتمام دينه ، و استمر العلم لهم و لمن بعدهم بما بث فيه من العلوم ، و جمع فيه من شريف الرسوم . و أظهر مما تقدم الوعد به فيه إلى هذا الزمان ، و إلى أن يفنى كل فان ، ثم يبعثوا إلى الجنان أو النيران ، فقد أثبتت هذه الآية من كون القرآن ذكرا ما أثبتته أول آية فيها على أتم وجه مع زيادة الوعيد ، فانعطف الآخر على الأول ، و اتصل به احسن اتصال و أجمل ، و نظر إلى أول الزمر أعظم نظر و أكمل ، فلله در هذا الانتظام ، فهو لعمرى اضوأ من شمس الضحى و أتم من بدر التمام ، فسبحان من [انزله و -[1]] اجمله و فصله ، [2]و فضله و شرفه و كرمه - و الله أعلم[2] .

(١) زيد من م و مد (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد .

سورة الزمر[1] و تسمى تنزيل و الغرف

٤٦٩ / / مقصودها الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، و أنه غالب لكل شيء، فلا يعجل لأنه لا يفوته شيء، و يضع الأشياء في أوفق محالها يعرف ذلك أولوا الألباب المميزون بين القشر و اللباب، و على ذلك دلت تسميتها "الزمر[2]" لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلا من المحشورين داره المعدة له بعد الإعذار في الإنذار، و الحكم بينهم بما استحقته أعمالهم عدلا منه سبحانه في أهل النار، و فضلا على المتقين الأبرار، وكذا[3] تسميتها "تنزيل" لمن تامل آيتها[4]، و حقق عبارتها و إشارتها، وكذا "الغرف"، لأنها[5] إشارة إلى حكمه سبحانه في الفريقين أهل الظلل النارية و الغرف النورية، تسمية للشيء بأشرف جزئيه[6]، فالقول فيها كالقول في الزمر سواء، و يزيد أهل الغرف ختام آيتهم "وعد الله لا يخلف الله الميعاد" ﴿ بسم الله ﴾ الذي تمت كلمته فعز أمره ﴿ الرحمن ﴾ الذي وضع رحمته العامة احكم وضع فدق لذي الأفهام سره ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بالتوفيق لطاعته فعمهم بره.

---

(١) التاسعة و الثلاثون من سور القرآن الكريم، مكية، و عدد آيها خمس و سبعون في الكوفي و ثلاث في الشامي و اثنتان في الباقي - راجع روح المعاني ٥ / ٣٨٠ (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: بالزمر (٣) من م و مد، و في الأصل و ظ: كذلك (٤) من ظ و مد، و في الأصل و م: آياتها. (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: لأنه (٦) من ظ و مد، و في الأصل و م: جزئياته.

لما تبين من التهديد[1] فى ص أنه سبحانه قادر على ما يريد، ثم ختمها بأن القرآن ذكر للعالمين، و أن كل ما فيه لا بد أن يرى لأنه واقع[2] لا محالة لكن من غير عجلة، فكانوا ربما قال متعنتهم: ما له إذا كان قادرا لايعجل ما يريده بعد حين، علل ذلك بأنه ﴿ تنزيل ﴾ اى بحسب التدريج لموافقة المصالح فى أوقاتها و تقريبه[3] [للأفهام على ما له من العلو حتى صار ذكرا للعالمين، و وضع موضع الضمير قوله -[4]]: ﴿ الكتٰب[5] ﴾ للدلالة على جمعه لكل صلاح، أي لابد أن يرى جميع ما فيه لأن الشأن العظيم إنزاله على سبيل التنجيم للتقريب فى فهمه و إيقاع كل شيء منه فى أحسن[6] أوقاته من غير عجلة و لا توان، ثم أخبر عن هذا التنزيل بقوله: ﴿ من الله ﴾ أى المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ العزيز ﴾ فلا يغلبه شيء و هو يغلب كل شيء ﴿ الحكيم ۝ ﴾ الذى يضع الأشياء فى محالها التى هى أوفق لها؛ فلكونه منه لا من غيره كان ذكرا للعالمين، صادقا فى كل ما يخبر به، حكيما فى جميع[7] أموره.

و قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: لما بنيت سورة ص على ذكر المشركين و عنادهم و سوء ارتكابهم و اتخاذهم الأنداد و الشركاء، ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذى هو نقيض

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: التحديد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: واضح (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تعريفه (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) ليس فى الأصل و ظ (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: احسان (٧) فى ظ: كل.

حال من تقدم، و ذكر ما عنه يكون و هو الكتاب، فقال تعالى " تنزيل الكتب من الله العزيز الحكيم" " انا انزلنا اليك الكتب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين" " الا لله الدين الخالص" و جاء قوله تعالى " و الذين اتخذوا من دونه اولياء" - الآية في معرض [1]أن لو[1] قيل: عليك بالإخلاص و دع من أشرك و لم يخلص، فسترى حاله، و هل ينفعهم اعتذارهم بقولهم "ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى" و هؤلاء هم الذين بنيت[2] سورة ص على ذكرهم، ثم وبخهم الله تعالى و قرعهم فقال[3] " لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى" - الآية، فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه " هو الله الواحد القهار" ثم ذكر بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات و الأرض و تكوير الليل على النهار [و تكوير النهار على الليل - [4]] و ذكر آيتي [5]النهار و الليل[5] ثم خلق [الكل من - [4]] البشر من نفس واحدة، و هي نفس آدم عليه السلام، و لما حرك تعالى إلى الاعتبار[6] بعظيم هذه الآيات [7]و كانت أوضح شيء و أدل شاهد، عقب ذلك بما / يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد[7] وضوح الدلائل، ثم بين تعالى / ٤٧٠ انه غني عن الكل بقوله " ان تكفروا فان الله غني عنكم" ثم قال

(١-١) من ظ و م و مد، و في الأصل: لو أن (٢) زيد في الأصل و م: لهم، و لم تكن الزيادة في ظ و مد فحذفناها (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: فقالوا (٤) زيد من م و مد (٥-٥) من م و مد، و في الأصل و ظ: الليل و النهار (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: الاختبار (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من ظ.

ولا

”و لا يرضى لعباده الكفر“ فبين أن من اصطفاه و قربه و اجتباه من العباد لايرضى له بالكفر، و حصل من ذلك مفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع بارادته و رضاه لمن ابتلاه به[1] ثم آنس من آمن و لم يتبع سبيل الشيطان[2] و قبيلته من المشار إليهم فى السورة قبل فقال تعالى ”و لاتزر وازرة وزر اخرى“[3] ”ان احسنتم احسنتم لانفسكم“ ”و لا تكسب كل نفس الا عليها“ ثم تناسجت الآى و التحمت الجمل إلى خاتمة السورة - انتهى.

و لما أخبر أنه من عنده، علل ذلك بما ثبت به جميع ما مضى من الخير، فقال صارفا القول عن الغيبة منبها على زيادة عظمته بذكر إنزاله ثانيا، مبرزا له فى أسلوب العظمة مخبرا أنه خص به أعظم خلقه، معبرا بالإنزال الظاهر فى الكل تجوزا عن الحكم الجازم الذى لا مرد له: ﴿ انآ ﴾ أى على ما لنا من العظمة ﴿انزلنآ﴾ أى بما لنا من العظمة، و قرن هذه العظمة بحرف الغاية المقتضى للواسطة إشارة إلى أن هذا كان فى البداية بدلالة اتباعه بالأمر بالعبادة، بخلاف ما يأتى فى هذه السورة فانه للنهاية بصيرورته خلقا [له -[4]] صلى الله عليه و سلم، فكان بحرف الاستعلاء أنسب دلالة على أن ثقله[5] الموجب لتفطر القدم و سبب اللم خاص به صلى الله عليه و سلم، و من قرب منه

---

(١) سقط من ظ و م (٢) فى ظ بياض، و فى مد: الله (٣) زيدت الواو فى الأصل و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) زيد من مد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: نقل.

و يسره و سهولته لأمته فقال : ﴿ اليك ﴾ أى خاصه بواسطة الملك ، لايقدر أحد من الخلق أن يدعى مشاركتك فى شىء من ذلك ، فتكون دعواه موجبة لنوع من اللبس[1] ، و أظهر موضع الإضمار تفخيما بالتنبيه على ما فيه من جمع الأصول و الفروع و اللطائف و المعارف ﴿ الكتب ﴾ اى الجامع لكل خير مع البيان القاطع و الحكم الجازم بالماضى و الآتى و الكائن ، متلبسا ﴿ بالحق ﴾ و هو مطابقة الواقع لجميع أخباره ، فالواقع تابع لأخباره ، لايرى له خبر إلا طابقه مطابقة لاخفاء بشىء منها ، لاحلية[2] له و لا لباس إلا الحق ، فلا دليل أدل على كونه من عنده من ذلك ، فليتبعوا خبره ، و لينظروا عينه و أثره .

و لما ثبت بهذا أنه خصه سبحانه بشىء عجز عنه كل أحد ، ثبت أنه سبحانه الإله وحده ، فتسبب عن ذلك قوله لفتا للقول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه بلحظ جميع صفات الكمال لأجل العبادة تعظيما لقدرها لأنها المقصود بالذات : ﴿ فاعبد الله ﴾ أى الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك ﴿ مخلصا ﴾ و الإخلاص هو القصد إلى الله بالنية بلا علة ﴿ له ﴾ أى وحده ﴿ الدين ؕ ﴾ بموافقة الأمر على غاية الخضوع لأنه خصك بهذا الأمر العظيم فهو أهل منك لذلك و خسأ عنك الأعداء ، فلا أحد منهم يقدر على الوصول إليك بما يوهن شيئا من أمرك فأخلص لتكون رأس المخلصين الذين تقدم آخر سورة ص أنه لاسبيل للشيطان

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الميل (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : حيلة .

عليهم[1] و تقدم ذكر كثير من رؤسهم، و وقع الحث على الاقتداء بهم بما ذكر من أمداحهم لأجل صبرهم فى إخلاصهم، قال الرازى: قال الجنيد: الإخلاص أصل كل عمل وهو مربوط بأول الأعمال، و هو تصفية النية و منوط بأواخر الأعمال بأن لا يلتفت إليها[2] و لا يتحدث بها[3] و يضمر فى جميع الأحوال، و هو إفراد الله بالعمل. و فى الخبر / «أنا أغنى الشركاء ٤٧١ /
عن الشرك».

و لما أمره سبحانه بهذا الأمر، نادى باستحقاقه لذلك و أنه لم يطلب غير حقه، و أن ذلك لايتصور أن يكون لغيره، فقال فى جواب من كأنه قال: لم منعه من الالتفات إلى غيره؟ مناديا إشارة إلى أنه لامكافئ له فلا [4]يسع أحدا[4] يبلغه هذا النداء إلا الخضوع طائعا[5] أوكارها: ﴿ألا لله﴾ أى الملك الأعلى وحده ﴿الدين الخالص﴾ لأنه له [6]الأمر و الخلق[6] لايشركه فيه أحد، فكما تفرد بأن خلقك و خلق كل ما لك من شيء فكذلك ينبغى أن تفرده بالطاعة، و لأنه إذا عبده أحد مخلصا كفاه [كل شيء -[7]]، و أما غيره فلو أخلص له أحد لم يمكن أن يكفيه شيئا من الأشياء فضلا عن كل شيء، و الدين الذى هو أهل للاخلاص هو الإسلام الذى كان فى كل ملة المنبنى على القواعد

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: إليهم (٢) من ظ و مد. و فى الأصل و م: إليه (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: به (٤ - ٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يسمع أحد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: طائع. (٦-٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م: الخلق و الأمر (٧) زيد من م و مد.

الحس المثبتة بالإخلاص المحض الناشى من المراقبة فى الأوامر[1] و النواهى و جميع ما يرضى الشارع للدين أو يسخطه، فتكون جملته لله من غير شهوة ظاهرة أو باطنة فى شهرة[2] و لا غيرها، و إنما استحقه سبحانه دون غيره لأنه هو الذى شرعه و لا أمر لأحد معه فكيف يشركه من لا أمر له بوجه من الوجوه، و أما ما كان فيه أدنى شرك فهو رد على عامله و الله غنى حميد، و هذه كما ترى مناداة لعمرى تخضع لها الأعناق فتنكس الرؤس و لا يوجد لها جواب إلا بنعم و عزته [و أى -[3]] و كبريائه و عظمته. قال القشيرى: و ما للعبد فيه نصيب فهو عن الاخلاص بعيد[4] [اللهم إلا أن يكون بأمره فانه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته فأطاعه لا يخرج عن الاحتساب -[4]] باحتسابه أمره فيه، و لو لا هذا لما صح أن يكون فى العالم مخلص، قال ابن برجان: و ذلك - أى ترك الإخلاص - كله مولد عن حب البقاء فى الدنيا و نسيان لقاء الله تعالى، ثم قال ما معناه: إن ذلك من الشرك، و هو ثلاثة أنواع: شرك فى الالهية و هو [أن -[4]] يرى مع الله إلها آخر، و هو شرك المجوس و المجسمة[5] و الوثنية. و يضاهيه غلط القدرية، الثانى شرك فى العبادة بالرياء و إضافة العمل إلى النفس. و الثالث الشرك الخفى و هو الشهوة الخفية. و هو أن يخفى العمل و يخاف من إظهاره و يحب لو اطلع عليه و مدح بأسراره. و من احسن العون على الإخلاص الحياء من الله

(١) من ظ وم ومد، وفى الاصل: الأمر (٢) فى م: شهوة (٣) زيد من ظ وم ومد (٤) زيد من م ومد (٥) من ظ وم و مد، وفى الأصل: المحسة - كذا.

أن

أن تتزين لغيره بعمل الهمك[١] إياه و قواك [عليه -[٢]] و خلت فيه و زعمت تطلب التقرب إلية فاتاك عدوه إبليس الذى عاداه فيك فتطيعه فيما يضرك و لا ينفعك ، فاستعن على عبادتك[٣] بالستر فاستر حسناتك كما تستر سيئاتك ، فان عمل السر يزيد على عمل العلانية سبعين ضعفا ، و ذلك كالشجرة إذا ظهرت عروقها ضعف شربها ، و أضر بها حرارة الهواء و برده ، و تعرضت الآفات من قطع و يبس و غير ذلك[٤] و لم[٤] تحسن فروعها و خف ورقها فقل نفعها ، و إذا غاضت عروقها غابت عن الآفات و أمنت القطع من أيدى الناس ، فكثر شربها لجرى ماؤها فيها ، فتزايدت لذلك فروعها و اخضر ورقها و كثر خيرها و طاب ثمرها لجانيها ، فكذلك العمل إذا كانت له اصول فى القلب مستورة زكا فى نفسه و طهر من الأدناس و كثر خيره و طاب ثوابه لعامله ، و إذا بدا لم يؤمن عليه من أبصار الناظرين ، و إذا خفى لم يبق ما يخاف منه إلا العجب و محبـــة أن يطلع عليه ، و هى الشهوة الخفية ، و من قولهم / « من عرف الله بعد الضلالة و عرف الإخلاص بعد الرياء و أنزل / ٤٧٢
الموت حق منزلته لم يغفل عن الموت و الاستعداد له بما أمكنه » انتهى .

و لما أخبر سبحانه عما له وحده ، و كان محط أمر الإنسان بل جميع الحيوان[٥] على الهداية إلى مصالحه ليفعلها و مفاسده ليتركها ، و ارشد

(١) من ظ و م و مد ، و فى الاصل : الهك (٢) زيد من م و مد (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عبادك (٤ - ٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لم (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الحيوانات .

السياق إلى أن التقدير : فمن أخلص له الدين هداه فى جميع أموره، و إن اشتد الإشكال ، و تراكمت وجوه الضلال ، عطف عليه الإخبار عمن لزم الضلال ، و الغى و المحال ، فقال محذرا من مثل حاله ، بما حكم عليه فى مآله : ﴿ و الذين ﴾ و لما كان الإنسان مفطورا على الخضوع للملك الديان ، و لا يلتفت إلى غيره إلا بمعالجة النفس بما لها من الهوى و الطغيان ، عبر بصيغة الافتعال فقال : ﴿ اتخذوا ﴾ أى عالجوا عقولهم حتى صرفوها عن الله فأخذوا ، و نبههم على خطائهم فى رضاهم بالأدنى على الأعلى بقوله : ﴿ من دونه ﴾ و معلوم أن كل شىء دونه ﴿ اولياء ﴾ أى يكلون إليهم أمورهم ، و يدخل فيهم الذين اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله مع اعترافهم بأن الله تفرد بخلقهم و رزقهم .

و لما كان من العجب العجيب فعلهم[1]، هذا بين ما وجهوا به فعلهم ليكون آية بينة فى أنه لا هدى لهم فقال : ﴿ ما ﴾ أى قائلين لمن أخلصوا له الدين إذا أنكروا [عليهم -[2]] أن يتخذوا من دونه وليا : ما ﴿ نعبدهم ﴾ لشىء من الأشياء ﴿ الا ليقربونا ﴾ و نبه سبحانه على بعدهم عن الصواب بالتعبير بالاسم الأعظم مع حرف الغاية فقال : ﴿ الى الله ﴾ الذى له معاقد العز و مجامع العظمة ، تقريبا عظيما على وجه التدريج و يزلفونا إليه ﴿ زلفى ﴾ اى تقريبا حسنا سهلا بهجا زائدا ناميا متعاليا ، قال القشيرى : و لم يقولوا هذا من قبل الله و لا باذنه ، و إنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فرد الله عليهم ، و فى هذا إشارة إلى ما يفعله العبد

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فعلتم (٢) زيد من م و مد .

من القرب بنشاط نفسه من غير ان يقتضيه[1] حكم الوقت. فكل ذلك اتباع هوى - انتهى - و الآية من الاحتباك: ذكر فعل التقريب أولا دليلا على فعل الزلف ثانيا. و اسم الزلف ثانيا دليلا على الاسم من التقريب أولا، و سره أنهم[2] أرادوا بهذا الاعتذار المسكت عن قبيح[2] صنيعهم، فأتى سبحانه فى حكايته عنهم بالتأكيد على أبلغ وجه لأن[3] الدلالة على المعنى بلفظين أجدر فى ثباته و تكثيره من لفظ واحد، و بدأ، بأرشق الفعلين و أشهرهما و أخفهما و أوضحها. و قد[4] خسر لعمرى غاية الخسارة قوم تمذهبوا بأقبح المذاهب و جعلوا [5]عذرهم هذه[5] الآية التى ذم الله المعتذر بها. و على ذلك فقد راج اعتذارهم بها على كثير من العقول، و هم أهل الاتحاد الذين لا[6] أسخف من عقولهم و لا أجمد من أذهانهم.

و لما كان إنما محط دينهم الهوى. و كان كل من تبع الهوى لاينفك عن الاضطراب فى نفسه، فكيف إذا كان معه غيره فكيف إذا كانوا كثيرا فيكثر الخلاف و النزاع. و إن لم يحصل ذلك بالفعل كان بالقوة. و لذلك كان لكل قبيلة ممن يعبد الأصنام صنم غير صنم الأخرى. و كان بعض القبائل يعبد الشعرى. و بعضهم يعبد الملائكة. و بعضهم غير ذلك

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يقضيه (٢) سقط من ظ (٣) من ظ و م و مد. و فى الأصل: انها (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل. لقد. (٥-٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عدعم هذا (٦) من ظ و مد، و فى الأصل و م: الا.

"ان الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم فى شىء فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون" نبه على ذلك مهددا لهم بقوله مخبرا مؤكدا لأجل إنكارهم: ﴿ ان الله ﴾ أى الذى له جميع صفات / الكمال. و لما لم يقيد الحكم بالقيامة و كانوا معترفين بأن المصائب فى /٤٧٣/ الدنيا منه قال: ﴿ يحكم بينهم ﴾ من غير تأكيد آخر أى بين جميع المخالفين[1] فى الأديان و غيرها من المتخذين للأولياء من دونه و من المخلصين و غيرهم فلا بد أن ينصر أهل الحق على جميع أهل الباطل.

و لما كانوا أوزاعا أكثر قبائلهم[2] على خلاف ما يعتقده[3] غيرها، [قال -[4]]: ﴿ فى ما ﴾ اى فى الدين الذى و الأمر الذى. و لما كان تحكيمهم للهوى موفرا لدواعيهم على الاختلاف، و كان الاتخاذ الذى بنى الكلام عليه له نظر عظيم إلى علاج الباطن بخلاف سورة يونس[5] أثبت الضمير هنا فقال: ﴿ هم ﴾ اى بضمائرهم ﴿ فيه يختلفون ﴾ أى ليس لهم أصل يضبطهم، فهم لا يرجعون إلا إلى الخلاف كيف ما تقلبوا لأنهم مظروفون لذلك العمل الذى مبناه الهوى الذى هو منشأ الاختلاف، فكيف إذا انضم إلى ذلك خلاف المخلصين و إنكارهم عليهم الذى أرشد إليه اعتذارهم. فظهر من هذا أن اختلاف الأئمة فى فهم كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم لقواعد استنبطوها من ذلك لايخرجون

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لمتخالفين (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: قبائلهم (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يعتقد (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) راجع آية ٩٣.

عنها ليس خلافا بل وفاق لوحدة ما يرجعون إليه من الأصل الصحيح الثابت عن الله، و من هذا إنكار النبي صلى الله عليه و سلم على عمر و أبي و غيرهما رضي الله عنهم لما أنكر كل منهم على من خالفه في القراءة و قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تختلفوا، فلا فرق بين أن يستند كل من الأمرين إلى النبي صلى الله عليه و سلم نقلا أو اجتهادا لأنه في قوة الاتفاق لوحدة مرجعه - و الله الموفق، و يجوز أن يكون الضمير في «بينهم» لهم و لمعبوداتهم فانهم ليس منهم معبود[1] صامت و لا ناطق إلا و هو صارخ بلسان حاله إن لم ينطق لسان قاله بأنه مقهور مربوب عابد لامعبود، فهم مع من يعبدهم[2] في غاية الخلاف.

و لما كان [من - [3]] الأمر الواضح[4] أن الدين لايكون صالحا إلا إن انتظم بنظام غير مختل، و كان الدين إذا كان معوجا داعيا إلى التفرق مناديا على نفسه بالانخلاع عنه و البعد منه[5]. فكان الحال مقتضيا للتعجب ممن تدين به، فضلا عمن يدوم[6] عليه، فضلا عمن لاينتبه عند التنبيه، فضلا عمن يقاتل دون ذلك، أجاب من كأنه قال: ما سبب عكوفهم على هذا الضلال الذي اوجب لهم قطعا الاختلاف بالفعل أو بالقوة، فقال مؤكدا تكذيبا لمن ينكر ما تضمنه هذا الإخبار و إن

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: معبودهم (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: يعبد (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: الصحيح (٥) من ظ و مد، و في الأصل و م: عنه (٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: لايدوم.

ظهر لبعض العمى غير ذلك مما يبدو من الكذبة و الكفرة من اعمال مزينة و أفكار دقيقة فتظن هدى و إنما هي استدراج ‧ و لما أرشد السياق إلى أن المعنى : لأنهم غير مهتدين لأن الله لم يخلق الهداية في قلوبهم ، نسق به قوله : ﴿ ان الله ﴾ أي الملك القادر القاهر الحكيم . و لما كان الأصل : لايهديهم ، و أراد سبحانه التعميم و تعليق الحكم بالوصف تنفيرا عنه قال : ﴿ لايهدى ﴾ أي لايخلق الهداية في قلب ﴿ من هو ﴾ أي لضميره ﴿ كذب ﴾ أي مرتكب الكذب[1] عريق فيه حتى أداه كذبه إلى أن يقول على ملك الملوك [أن - [2]] شيئا يقرب إليه بغير إذنه ، و يخضع بالعبادة التي هي نهاية التعظيم . فهي لاتليق بغير من ينعم غاية الإنعام لمن لا يملك ضرا و لا نفعا . و [3]لم يعبر[3] في الكذب بصيغة مبالغة لأن الذين السياق لهم لم يقع منهم كذب إلا في ادعائهم / أنهم يقربونهم[4] ‧ / ٤٧٤

و لما كان من كفر في[5] حين [من - [6]] الدهر قد ضاعف كفره لكثرة ما على الوحدانية من الدلائل و ما لله عليه من الإحسان ، و كان هؤلاء الذين لهم السياق قدكفروا بتأهيلهم لشركائهم للعبادة و لعبادتهم بالفعل و لادعائهم فيهم التقريب[7] قال ﴿ كفار ﴾ بصيغة المبالغة . و الأحسن ان

---

(١) من م و مد ، و في الأصل و ظ . الكذب (٢) زيد من م و مد (٣-٣) من ظ و م و مد ، و في الأصل : لايعبر (٤) من ظ و م و مد ، و في الأصل : يقربوهم (٥) من ظ و م و مد ، و في الأصل : من (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من م و مد ، و في الأصل و ظ . التقرير .

يقال: إن المبالغة لإفهام[1] ان الذى لا يهديه إنما هو من ختم عليه سبحانه الموت على ذلك، قال القشيرى: و الإشارة إلى تهديد من يتعرض لغير مقامه و يدعى شيئا ليس بصادق فيه. فالله لا يهديه قط إلى ما فيه سداده و رشده، و عقوبته أن يحرمه ذلك الشيء الذى تصدى له بدعواه قبل تحققه بوجوده و ذوقه.

و لما أخبر سبحانه بالحكم بينهم. فكان ذلك مع تضمنه التهديد وافيا بنفى الشريك، كافيا فى ذلك لأن المحكوم فيه لا يجوز أن يكون قسيما للحاكم، فلم يبق فى شيء من ذلك شبهة إلا عند ادعاء[2] الولدية، قال نافيا لها على سبيل الاستئناف جوابا لمن يقول: فما حال من يتولى الولد؟ - قال القشيرى: و المحال يذكر على جهة الإبعاد أن لو كان كيف حكمه -: ﴿لو اراد الله﴾ أى الذى له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ان يتخذ﴾ أى[3] يتكلف كما هو دابكم، و لا يسوغ فى عقل أن الإله يكون متكلفا ﴿ولدا﴾ أى كما زعم من زعم ذلك. و لما كان الولد لا يراد إلا أن يكون خيارا، و كان الله قادرا على كل شيء، عدل عن أن يقول "لاتخذ" إلى قوله: ﴿لاصطفى﴾ أى اختار على سبيل التبنى[4] ﴿مما يخلق﴾ أى يبدعه فى أسرع من الطرف. و عبر بالأداة التى أكثر استعمالها فيما لا يعقل إشارة إلى أنه قادر على جعل اقل الأشياء

---

(١) من م و مد، و فى الاصل و ظ: للافهام (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: دعا (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ان (٤) من ظ و م ومد، و فى الأصل: السبى - كذا.

آجلها على سبيل التكرار و الاستمرار - كما أشار إليه التعبير بالمضارع فقال: ﴿ ما يشآء لا ﴾ أى مما يقوم مقام الولد فانه لايحتاج إلى التطوير فى إتيان الولد إلا من لايقدر على الإبداع بغير ذلك .

و لما كان لايرضى إلا بأكمل الأولاد و هم الأبناء، لكنه لم يرد ذلك فلم يكن، فهذا[1] أقصى ما[2] يمكن أن يجوز فى العقل أن يخلق خلقا [شريفا -[3]] و يسميه ولدا[4]. إشارة إلى شدة إكرامه له و تشريفه إياه . أو يقربه غاية التقريب كما فعل بالملائكة و عيسى عليهم السلام، فكان ذلك سببا لغلطكم فيهم حتى ادعيتم أنهم أولاد ثم زعمتم أنهم بنات، فكنتم كاذبين من جهتين ، هذا غاية الإمكان، و أما أنه يجوز عليه التوليد فلا ، بل هو مما يحيله العقل . لأن ذلك لا يكون إلا لمحتاج ، و الإله لايتصور فى عقل أن يكون محتاجا أصلا . قال ابن برجان ما معناه : كان معهود الولاده على وجهين . ولد منسوب إلى والده بنوة و ولادة[5] و رحما ، فهذا ليس له فى الوجود العلى وجود ، و لا فى الإمكان تمكن ، و لا فى الفعل[6] مسوغ بوجه من الوجوه . و ولد بمعنى التبنى و الاتخاذ ، و قد كانت العرب [و غيرها من الأمم -[7]] يفعلونه حتى نسخه القرآن ، فلا يبعد أن تكون هذه العباره[8] كانت جائزة فى الكتب قبلنا ، فلما أعضل

(١) من م و مد . و فى الأصل و ظ . و هذا (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : مما (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : و كذا (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : و لاة (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العقل (٧) زيد من م و مد (٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العبادة .

[بهم -[1]] الداه و ألحدوا[2] فى ذلك عن سواء [3]القصد الذى هو الاصطفاء إلى بنوة[3] الولادة أضلهم الله و أعمى ابصارهم و سد السبيل عن العبادة عن ذلك، و كشف معنى الاصطفاء، و اظهر معنى الولاية، و نسخ ذلك بهذا، لأن هذا لا يداخله لبس، و ذلك كله لبيان كمال هذه الأمة و علوها فى كل أمر.

/ و لما كانت نسبة الولد إليه كنسبة الشريك او أشنع، و انتفى الأمران /٤٧٥ بما تقدم من الدليل بالحكم باعترافهم بأن حكمه سبحانه نافذ فى كل شىء لشهادة الوجود، و لقيام الأدلة على عدم الحاجة إلى شىء أصلا فضلا عن الولد، نزه نفسه بما يليق بجلاله من التنزيه فى هذا المقام، فقال: ﴿سبحنه﴾ اى له التنزيه التام عن كل نقيصة. ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضى لتفرده فقال: ﴿هو﴾ أى الفاعل لهذا الفعال، و القائل لهذه الأقوال، ظاهرا و باطنا ﴿الله﴾ أى الجامع لجميع صفات الكمال، ثم ذكر من الأوصاف ما هو كالعلة لذلك فقال: ﴿الواحد﴾ أى الذى لا ينقسم أصلا، و لا يكون له مثل فلا يكون له[4] صاحبة و لا ولد، لأنه لو كان شىء من ذلك لما كان لا مجانسا و لا جنس له و لا شبه بوجه من الوجوه ﴿القهار﴾ أى الذى له هذه الصفة، فكل شىء تحت قهره ألهتهم و غيرها [على سبيل التكرار و الاستمرار -[5]]،

(١) زيد من م و مد (٢) من و مد، و فى الأصل و ظ و م: ألحد.
(٣ - ٣) من ظ و م و مد، و فى الاصل: لما بنوة (٤) سقط من ظ.
(٥) زيد من م و مد.

فصح من غير شك أنه لايحتاج إلى شيء اصلا، و جُعِل ما لا حاجة إليه و لا داعي يبعث عليه عبث ينزه عنه العاقل فكيف من له الكمال كله.

و لما أثبت هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد، و أثبتت له الكمال المطلق، دل عليها بقوله: ﴿ خلق السموٰت والارض ﴾ أي أبدعهما من العدم ﴿ بالحق ﴾ أي خلقا متلبسا بالأمر الثابت الذي ليس بخيال و لا سحر، على وجه لا نقص فيه بوجه، و لا تفاوت و لا خلل [1]يقول أحد[1] فيه انه مناف للحكمة و لما كان من أدل الأشياء على صفتي[2] الوحدانية و القهر. و تمام القدرة و كمال الأمر، بعد إيجاد الخافقين اختلاف الملوين، و كان التكوير[3] - و هو إدارة[4] الشيء على الشيء بسرعة و إحاطته به بحيث يعلو عليه و يغلبه و يغطيه - ادل على صفة القهر من الإيلاج[5]. قال مبينا لوقت إيجاد الملوين: ﴿ يكور ﴾ أي خلقهما اى صورهما في حال كونه يلف و يلوى و يدير فيغطي مع السرعة و العلو و الغلبة تكويرا كثيرا متجددا مستمرا إلى أجله[6] ﴿ اليل على النهار ﴾ بأن يستره به ألا يدع له أثرا[7]. و لعظمة هذا الصنع أعاد العامل فقال: ﴿ و يكور النهار ﴾ عاليا تكويره و تغطيته ﴿ على اليل ﴾ فيذهبه كذلك

(١ - ١) من م و مد. و في الأصل و ظ: مقول (٢) من ظ و مد، و في الأصل و م: صفة (٣) في ظ: التكوين (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل: ارادة (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: الايلاح (٦) من م و مد. و في الأصل و ظ: اجل (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: اثر.

و يدخل فى هذا[1] الزيادة فى كل منهما بما[2] ينقص من الآخر لأنه إذا ذهب أحدهما و أتى الآخر مكانه . فكأن الآتى لف على الذاهب و ألبسه كما يلف اللباس على اللابس، أو[3] أنه شبه الذاهب فى خفائه بالآتى بشىء[4] ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، أو[3] أن كلا منهما لما كان يكر على الآخر كرورا متتابعا شبه ذلك بتتابع[5] أكوار العمامة بعضها على بعض، فتغيب ما تحتها .

و لما كانت الظلمة سابقة على الضياء، و كان الليل إنما هو ظلمة يسبقها ضياء بطلوع الشمس، رتب سبحانه هذا الترتيب[6] على حسب الإيجاد، و لذلك قدم آية النهار فقال معبرا[7] بالماضى بخلقه الآيتين مسخرتين[8] على منهاج[9] معلوم لكل منها لايتعداه، و حد محدود لايتخطاه ﴿و سخر﴾ أى ذلل و أكره و قهر[10] و كلف لما يريد من غير نفع للمسخر ﴿الشمس﴾ أى التى محت[11] ما كان من الظلام فأوجبت اسم النهار ﴿و القمر﴾ أى آية الليل . و لما أخبر بقهرهما، بين ما صرفهما فيه . فقال بيانا لهذا

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : هذه، و بين سطرى م : أى التكوير . (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : مما (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل : « و » (٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل : شىء (٥) فى الأصل و ظ بياض، ملأناه من م و مد (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ : على . (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل : موكدا (٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ : المسخرتين (٩) زيد فى م : واحد (١٠) من ظ و م و مد، و فى الأصل : اقهر (١١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : تحت .

التسخير: ﴿ كل ﴾ أى منهما ﴿ يجرى ﴾ أى بقضائنا الذى لا مرد له، و هـذا آية لاختلاف أحوال العبد لأن خلقه جامع، فيختلف فى /٤٧٦ القبض و البسط و الجمع و الفرق/ و الأخذ و الرد و الصحو و السكر، و فى نجوم العقل، و أقمار العلم، و شموس المعرفة، و نهار التوحيد، و ليل الشك و الجحد، و نهار الوصل و ليالى الهجر[1] و الفراق، و كيفية اختلافها و زيادتها و نقصانها - قاله القشيرى.

و لما كان من مقصود السورة العزة التى محطها الغلبة، و كان السياق للقهر، و كان القضاء لعلة لايتخلف[2] عنها المعلول أدل على القهر من ذكر الغاية مجردة عن العلة قال: ﴿ لاجل مسمى[4] ﴾ أى لمنتهى الدور و منقطع الحركة. و لما ثبت بهذا قهره، قال مناديا رشقا فى قلوب المنكرين[3]: ﴿ الا هو ﴾ أى وحده ﴿ العزيز ﴾ و لما كان ربما قال متعنت: فما له لايأخذ من يخالفه؟ و كانت صفة القهر و العزة ربما أقنطت العصاة فأخرتهم عن الإقبال، قال مبينا لسبب التأخير و مستعطفا: ﴿ الغفار ﴾ أى الذى له صفة الستر على الذنوب متكررة فيمحو ذنوب من يشاء[4] عينا، و أثرا بمغفرته و يأخذ من يشاء بعزته.

و لما كان خلق الحيوان أدل على الوحدانية و القهر بما خالف به الجمادات من الحياة التى لايقدر على الانفكاك [عنها - [5]] قبل أجله،

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ : البحر (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ : لايختلف (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ : المتكبرين.
(٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ : شاه (٥) زيد من م و مد.

و بما

و بما له من أمور اضطرارية لا محيص له عنها، و أمور اختيارية موكولة[1] في الظاهر إلى مشيئته، و كان [2]أعجبه خلقا[2] الإنسان بما له من قوة النطق، قال دالا على ما دل عليه بخلق الخافقين لافتا[3] القول إلى خطاب النوع كله إيذانا بتأهلهم للخطاب، و ترقيهم في علا الأسباب، من غير عطف إيذانا بأن كلا من خلقهم و خلق ما قبلهم مستقل[4] بالدلالة على ما سيق له: ﴿خلقكم﴾ أي أيها الناس المدعون لإلهية غيره ﴿من نفس واحدة﴾ هي آدم عليه السلام.

و لما كان إيجادنا منها بعد شق الأنثى منها، قال عاطفا على ما تقديره: أوجدها من تراب، مبينا بلفظ الجعل أن الذكر[5] هو سببها و مادتها منبها بأداة التراخي على القهر الذي السياق له بالتراخي في الزمان بتأخير المسبب عن سببه المقتضي له إلى حين مشيئته لأن إيجادها منه كان بعد[6] مدة [من -[7]] إيجاده، و الأصل في الأسباب ترتب المسببات عليها من غير مهلة و على التراخي في الرتبة أيضا بأن ذلك - لكونه شديد المباينة لأصله - من أعجب العجب: ﴿ثم﴾ أي بعد حين، و عبر بالجعل لأنه كاف في [نفي -[7]] الشركة التي هذا[8] أسلوبها و ليبين أنه ما خلق آدم عليه السلام إلا ليكون سببا لما يحدث عنه من الذرية ليترتب على ذلك إظهار ما له

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: موكده (٢ - ٢) من م و مد، و في الأصل و ظ: اعجب خلق (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: على فتا.
(٤) من م و مد، و في الأصل و ظ: مستقلا (٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: الذاكر (٦) في م: بعده (٧) زيد من م و مد (٨) من ظ و م و مد، و في الأصل: هي.

سبحانه من صفات الكمال فقال: ﴿ جعل منها ﴾ أى تلك النفس ﴿ زوجها ﴾ أى و نقلكم [بعد خلقكم -[١]] منه إليها ثم أبرزكم إلى الوجود الخارجى منها، و يجوز - و هو أحسن - أن يكون المعنى لأن السياق لإحاطة العلم المدلول عليه بانزال الكتاب و ما تبعه: قدر خلقكم على ما أنتم عليه من العدد و الألوان و جميع الهيئات حين خلق آدم بأن هيأه لأن[٢] تفيضوا منه، فلا تزيدون على ما قدره شيئا و لا تنقصون، و أن تفيض منه زوجه، و ذلك قبل خلق حواء منه، ثم أوجدها فكان الفيض منها فيضا منه فالكل منه. و لهذا ورد الحديث فى مسند أحمد بن منيع[٣] عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال: خلق الله آدم يوم خلقه و ضرب على كتفه اليمنى فأخرج ذرية[٤] بيضاء كأنهم الذر، و ضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية[٤] / ٤٧٧ / سوداء كأنهم الحمم[٥]، فقال للذى فى يمينه: إلى الجنة و لا أبالى، و قال للذى فى يساره: إلى النار و لا أبالى.

و لما كان تنويع الحيوان إلى أنواع متباينة أدل على القدرة التى هى منشأ القهر، و كان سبحانه موصوفا[٦] بالعلو، و كان أكثر الأنعام أشد من الإنسان، و كان تسخيره له [و تذليله[٧]] إنزالا له عن قوته

(١) زيد من م و مد (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لا (٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/٨٥، من رواية أحمد و البزار و الطبرانى (٤) من م و مد والمجمع، و فى الأصل و ظ: ذريته (٥) من المجمع، و فى الأصول: الحميم (٦) من م و مد، و فى الأصل و ظ: موصفا (٧) زيد من مد، و موضعه فى ظ: أشد - كذا.

و إبهاما لشدته ، قال دالا على ذلك الإنشاء و الجعل بلفظ الإنزال : ﴿ و انزل لكم ﴾ أى خاصة ﴿ من الانعام ﴾ أى الإبل بنوعيها ، و البقر كذلك ، و الضان و المعز . و لما لم يكن عند العرب البخاتى[1] و الجواميس لم يذكرها سبحانه ، و اقتصر على ما عندهم ، و قال : ﴿ ثمنية ازواج ﴾ أى من كل نوع زوجين ذكرا و أنثى ، و الزوج اسم لواحد معه آخر لايكمل نفعه إلا به ، و إذا نظرت هذه العبارة مع العبارة عن خلق الإنسان فهمت أن الأنعام خلق كل من ذكرها و أنثاها على انفراده ، لا ان أحدا منها من صاحبه . و ذلك أدل على إطلاق التصرف و تنويعه مما لو جعل خلقها مثل خلق الآدمى .

و لما كان تكوينهم فى تطورهم عجبا ، قال مستأنفا بيانا لما أجمل قبل : ﴿ يخلقكم ﴾ أى يقدر إيجادكم أنتم و الأنعام على ما أنتم عليه من أخلاط العناصر ﴿ فى بطون امهتكم ﴾ و لما كان تطوير الخلق داخل البطن حيث لاتصل إليه يد مخلوق و لا بصره . قال [2]دالا على عظمته و دلالته على تمام القدرة و القهر[3] : ﴿ خلقا ﴾ و دل على تكوينه شيئا بعد شيء باثبات الحرف فقال : ﴿ من بعد خلق ﴾ أى فى تنقلات الأطوار و تقلبات[4] الأدوار . و لما كان الحيوان لايعرف ما هو [إلا - [5]]

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : النجاتى (٢) العبارة من هنا إلى « و القهر » ساقطة من م (٣) زيد فى الاصل و ظ : فقال ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٤) زيد فى الأصل : الاطوار و ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) زيد من م و مد .

فى التطوير الرابع، و كان الجهل ظلمة قال: ﴿فى ظلمٰت ثلٰث﴾ ظلمة النطفة ثم العلقة ثم المضغة، فاذا صار[1] عظاما مكسوة لحما عرف هل هو ذكر أو أنثى فزالت[2] عنه ظلمات الجهل، و صار خلقا آخر، و قيل: ظلمة البطن و الرحم و المشيمة[3] - نقل عن ابن عباس[4] رضى الله عنهما و عزاه ابن أبى الدنيا فى [كتاب -[5]] القناعة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام.

و لما ثبت له سبحانه كمال العظمة و القهر، قال مستأنفا ما أنتجه الكلام السابق معظما بأداة البعد و ميم الجمع: ﴿ذٰلكم﴾ أى العالى المراتب شهادتكم أيها الخلق كلكم، بعضكم بلسان قاله، و بعضكم بناطق حاله، الذى جميع ما ذكر من أول السورة إلى هنا أفعاله. [6]و لما أشار إلى عظمته بأداة البعد، اخبر عن اسم الإشارة فقال[6]: ﴿الله﴾ أى [الجامع -[7]] لجميع صفات الكمال. [8]و نبه على جهلهم[9] مما يعلمون من ربوبيته لعملهم بالشرك عمل جاهل بذلك فقال واصفا: ﴿ربكم﴾ أى المالك و المربى لكم بالخلق و الرزق. و لما كان المربى قد لايكون ملكا قال[6] نتيجة لما سبق[6]: ﴿له﴾ أى وحده ﴿الملك﴾ و لما كان المختص بالملك قد لايكون[10] إلها، قال مثبتا له الإلهية على ما يقتضيه من الوحدانية [6]و هو[6]

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: كان (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فتزات (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المشية - كذا. (٤) راجع لباب التأويل ٦ / ٥٧ (٥) زيد من م و مد (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) زيد من ظ و م و مد (٨) العبارة من هنا إلى «واصفا» ساقطة من م (٩) من ظ و مد، و فى الأصل: جعلهم (١٠) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لايصلى.

بمنزلة

[1]بمنزلة نتيجة النتيجة[1] : ﴿ لآ الـه الا هو ج ﴾ .

و لما تكفل هـــذا السياق بوجوب الإخلاص فى الإقبال عليه و الإعراض عما سواه ، لأن الكل تحت قهره ، و شمول نهيه و أمره ، سبب [عنه - [2]] قوله : ﴿ فأنى ﴾ [أى - [3]] فكيف و من أى وجه ﴿ تصرفون ﴾ أى قهرا عن الإخلاص[4] له إلى الإشراك به بصارف ما و إن كان عظيما ، و نبه بالبناء للفعول مع هذا على انهم مقهورون فى[5] فعل ما هم عليه لأنهم تابعون للهلاك المحض ، تاركون للأدلة التى لا خفاء فى شيء منها ، و معلوم أنه لا يترك أحد الدليل فى الميافى / المعطشة الذى / ٤٧٨ إن تركه هلك إلا قهرا ، و أن الناس هيئوا لطريق الهدى بما خلقوا عليه من أحسن تقويم بسلامة الفطر و استقامة العقول ، و أشار إلى هذا لأنهم يأنفون[6] من النسبة إلى القهر و أن يفعلوا شيئا بغير اختيار لما عندهم من الأنفة و علو الهمم و العظمة .

و لما ظهرت الأدلة و بهرت الحجج ، بين ما على من غطاها بالإصرار ، و ما لمن تاب و رجع التذكار ، فقال[7] مستأنفا لما هو نتيجة ما مضى ، معرفا لهم نعمته عليهم بأنه ما تعبد لشيء[8] يخصه من نفع أو ضر ، و إنما هو لمصالحهم خاصة بادئا بما هو من درء المفاسد : ﴿ إن تكفروا ﴾

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من م و مد (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اخلاص (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : على (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ينافون (٧) سقط من مد (٨) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بشيء .

أى تستروا الأدلة فتصروا[1] على الانصراف عنه بالإشراك ﴿فإن الله﴾ لأنه[2] الجامع لصفات الكمال ﴿غنى عنكم قف﴾ اى[3] فلا يضره كفركم و لا تنفعه طاعتكم، و أما أنتم فلا غنى لكم عنه بوجه. و لا بد أن يحكم بينكم فلم تضروا [3]إلا أنفسكم[3] ﴿و لا يرضى﴾ لكم - هكذا كان الأصل بدليل ما سبقه و لحقه. و إنما أظهر ليعم و ليذكرهم[4] بما يجدونه فى أنفسهم من أن أحدا [منهم - [5]] لا يرضى لعبده أن يؤدى خرجه[6] إلى غيره بغير إذنه فقال: ﴿لعباده﴾ أى الذين تفرد بإيجادهم و تربيتهم ﴿الكفر ج﴾ بالإقبال على[7] سواه و أنتم لا ترضون ذلك لعبيدكم مع ان ملككم لهم فى غاية الضعف، و معنى عدم الرضى أنه لا يفعل فعل الراضى بأن يأذن فيه و يقر عليه أو يثيب فاعله و يمدحه، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه و يذم عليه و يعاقب مرتكبه ﴿و ان تشكروا﴾ أى بالعبادة و الإخلاص فيها ﴿يرضه﴾ أى الشكر الدال عليه فعله ﴿لكم ط﴾ أى الرضى اللائق بجنابه سبحانه بأن يقركم عليه و[8] يأمركم به و يثيبكم على فعله، و القسمان بإرادته. و اختلاف القراء فى هائه دال على مراتب الشكر - و الله أعلم. فالوصل للواصلين[9] إلى النهاية على اختلاف مراتبهم فى

(١) من م و مد. و فى الأصل و ظ: اى (٢) سقط من ظ و مد (٣-٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لانفسكم (٤) من م و مد. و فى الأصل و ظ: ليذكركم (٥) زيد من م و مد (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل. خراجه. (٧) زيد فى الأصل و ظ: ما، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ: او (٩) من ظ و م و مد، و فى الأصل: للواصلين.

الوصول و الاختلاس للمتوسطين و الإسكان[1] لمن في الدرجة الأولى منه .

و لما كان في سياق الحكم و القهر، و كانت عادة القهارين أن يكلفوا بعض الناس ببعض و يأخذوهم بجرائرهم لينتظم لهم العلو على الكل لعدم إحاطة علمهم بكل[2] مخالف لأمرهم، بين أنه سبحانه على غير ذلك فقال: ﴿ و لا تزر وازرة ﴾ أي وازرة كانت ﴿ وزر اخرى ﴾ بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها، يحفظ عليها مدة كونها في دار العمل، و الإثم الذي يكتب على الإنسان بترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ليس وزر غيره، و إنما هو وزر نفسه، فوزر الفاعل على الفعل، و وزر الساكت على الترك لما لزمه من الأمر و النهي ﴿ ثم الى ربكم ﴾ أي وحده لا إلى احد ممن أشركتموه به ﴿ مرجعكم ﴾ أي بالبعث بعد الموت إلى دار الجزاء . و لما كان الجزاء تابعا للعلم، قال معبرا عنه به: ﴿ فينبئكم ﴾ أي فيتسبب عن البعث انه يخبركم إخبارا عظيما ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي بما كان في طبعكم العمل به سواء عملتموه بالفعل أم لا ثم يجازيكم عليه إن شاء .

و لما كان المراد - كما أشار إليه بكان - الإخبار بجميع الأعمال الكائنة بالفعل أو القوة، حسن التعليل بقوله: ﴿ انه عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي بصاحبتها من الخواطر و العزوم[3]، و ذلك بما دلت عليه الصحبة - كل ما لم يبرز إلى الخارج، فهو بما برز أعلم .

---

(١) من ظ و م و مد، و في الأصل: اسكان (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: بل (٣) من م و مد، و في الأصل و ظ: العدوم.

و لما ذكر سبحانه أنه المختص بالملك وحده. و أتبعه بما يرضيه و ما يسخطه ، أقام الدليل على ذلك الاختصاص مع أنه أوضح من الشمس بدليل وجداني[1] لكل أحد على وجه ذمهم فيه بالتناقض الذي
٤٧٠ / هم أعظم / البأس ذما له و نفرة منه و ذما به فقال : ﴿ و اذا ﴾ و هي - و الله أعلم - حالية من واو " تصرفون "[4] و كان الأصل : مسكم ، ولكنه عمم[2] و دل بلفت القول عن الخطاب على الوصف الموجب للنسيان فقال : ﴿ مس الانسان ﴾ أي هذا النوع الآنس بنفسه مؤمنه و كافره ﴿ ضر ﴾ أي [3]ضر كان[3] [4]من جهة يتوقعها - بما أشار إليه الظرف بمطابقة لمقصود السورة مع تهديد آخر التي قبلها[4] ﴿ دعا ربه ﴾ أي المحسن إليه الذي تقدم تنبيهكم من غفلتكم عليه بقوله « ذلكم الله ربكم » [4]ذاكرا صفة إحسانه[4] ﴿ منيبا ﴾ أي راجعا رجوعا عظيما ﴿ إليه ﴾ بباطنه مخلصا في ذلك عالما انه لا يكفيه أمره غيره ضرورة يجدها في نفسه [5]لأن الضر أزال عنه الأهوية و الحظوظ ، معرضا عما كان يزعم من الشركاء ، معرفا لسان حاله أنه لا شريك له سبحانه كما هو الحق فتطابق في حال الضراء[6] الحق و الاعتقاد .

و لما كان الإنسان لما جبل عليه من الجزع و اليأس إذا كان في

---

(١) من م و مد ، و في الأصل و ظ : وحداني (٢) من ظ و مد ، و في الأصل و م : غم (٣ - ٣) من ظ و م و مد ، و في الأصل : غير كاين . (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) العبارة من هنا إلى « الحق و الاعتقاد » ساقطة من مد (٦) في ظ : الضر .

ضر استبعد كل البعد أن يكشف عنه ، لتقيده بالجزئيات و قصوره على التعلق بالأسباب ، أشار إلى ذلك مع الإشارة إلى الوعد بتحقيق الفرج فقال : ﴿ ثم ﴾ أى بعد استبعاده جدا . و لما كان الرخاء محققا ، و هو أكثر من الشدة ، عبر بأداة التحقق ، فقال منبها بالتعبير بـ « خول » على ان عطاءه ابتداء فضل منه لا يستحق أحد عليه شيئا ، لأن التخويل لا يكون جزاء بل ابتداء : ﴿ اذا خوّله ﴾ اى أعطاه عطاء متمكنا ابتداء ، و جعله حسن القيام عليه قادرا على إجادة[1] تعهده ﴿ نعمة منه ﴾ و مكنه فيها ﴿ نسى ﴾ أى مع ادعائه انه يشكر على الاحسان ، فكانت مدة تخويله ظرف نسيانه ، فعلم أن صلاحه بالضراء ﴿ ما ﴾ أى الأمر الذى ﴿ كان يدعوا ﴾[2] ربه على وجه الإخلاص ﴿ اليه ﴾ اى إلى كشفه من ذلك الضر الذى كان ، و أعلم بتقارب[3] وقتى النسيان و الإنابة باثبات الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أى قبل حال التخويل ﴿ و جعل ﴾ زيادة على الكفران[4] [5]بنسيان الإحسان[5] ﴿ لله ﴾ اى الذى لا مكافئ له بشهادة الفطرة و العقل و السمع ﴿ اندادا ﴾ اى لكونه يتأهلهم ، فينزلهم بذلك منزلة من يكون قادرا على المعارضة و المعاندة ، فقد علم من التعبير بالنسيان أنه عالم بربه ، و لذلك دعاه فى كشف ضره و أنه جعل[6] علمه عند الإحسان إليه جهلا ، فكان كمن لا يعلم من سائر الحيوانات العجم .

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اجازه (٢) زيد فى م : اى عن (٣) فى ظ : بتفاوت (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الكفر (٥ - ٥) فى م و مد : بالنسيان للاحسان (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : على .

و لما كان ذلك فى غاية الضلال، لكونه - مع أنه خطاه - موجبا لقطع الإحسان[1] و عدم الإجابة فى كشف الضر مرة [أخرى - [2]] وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس، و كان هذا الضلال فى غاية الظهور، و كان العاقل لايفعل شيئا إلا لعلة، عظمهم تهكما بهم عن أن يكونوا ضلوا[3] هذا الضلال الظاهر من غير قصد إليه، فقال مشيرا إلى ذلك كله : ﴿ ليضل ﴾ أى بنفسه عند من فتح الياء، و يضل غيره عند من ضمها[4] ﴿ عن سبيله[5] ﴾ اى الطريق الموصل إلى رضوانه، الموجب للفوز باحسانه.

و لما كان من المعلوم المحقق المقطوع به المركوز فى الفطر الأولى المستمر فيما بعدها أن الملك / لايدع من[5] يعصيه بغير عقاب[6]، و كان / ٤٨٠ قد ثبت بقضية الإجماع وقت الاضطرار أنه لايلتفت إلى أحد سوى الله و كان من التفت - بعد أن أنجاه الله من ضرره و أسبغ عليه من نعمه - كافرا من غير شك عند ذى عقل، و كان من كان بهذه المثابة فى هذه الدار [هم - [7]] أهل النعم الكبار، و التمتع الصافى عن الأكدار، كان من المعلوم انه لابد من[8] عقوبته فى دار القرار، فقال تعالى مبينا

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الأسباب (٢) زيد من م و مد (٣) زيد فى الأصل: عن، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) راجع نثر المرجان ٦/ ١٢٥ (٥) سقط من ظ (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: حساب (٧) زيد من ظ و م و مد (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عن.

لأن هذا التمتع إنما هو سبب [هذا –[1]] الكفران استدراجا مع الإعراض المؤذن[2] بالغضب. ﴿قل﴾ [أى –[1]] يا أحب خلقنا إلينا المستحق للاقبال عليه بالخطاب، لهذا الذى قد حكم بكفره مهددا له بما يفوته بلذيذ عيشه فى الدنيا من الفيض من الجناب الأقدس و يؤل إليه أمره من العذاب الأكبر: ﴿ تمتع ﴾ أى فى هذه الدنيا التى هى و كل ما فيها – مع كونه زائلا – يفيض إلى الله، فهو من جملة المقت إلا لمن صرفه فى طاعة الله.

و لما ذكر تمتيعه بالخسيس، ذكر سببه الخسيس تعظيما لأجور المؤمنين لانصرافهم عن الكفر[3] مع علمهم بأنه من أسباب التمتيع و بيانا لذوى الهمم العوال من غيرهم فقال: ﴿ بكفرك ﴾ ثم أشار إلى قلة زمن الدنيا و ما فيها فى جنب الآخرة فقال: ﴿ قليلا ﴾ ثم علل ذلك بما إذا غمس فى عذابه أنعم أهل الدنيا غمسة واحدة قال: ما رأيت نعيما قط، [4]فقال مؤكدا لأجل تكذيبهم بالنار، و دفعا لما استقر فى نفوسهم أن تنعيمهم فى الدنيا[4] إنما هو لقربهم من الله و محبته لهم، و أن ذلك يتصل بنعيم الآخرة على تقدير كونها: ﴿ انك ﴾ و هذا الأمر هنا يراد به الزجر، تقديره: إن تمتعت هكذا كنت ﴿من اصحٰب النار﴾ أى الذين لم يخلقوا[5] إلا لها "و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و الانس

(١) زيد من م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بالموذن (٣) من ظ و مد، و فى الأصل و م: الفكر (٤ – ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ. (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لم يخلقوا.

لهم قلوب لايفقهون بها " - الآية .

و لما أرشدت " أم " قطعا فى قراءة من شدد[1] إدغاما لإحدى الميمين فى الأخرى أن التقدير شرحا لأحوال المؤمنين بعد أحوال المشركين : ا هذا - الذى يدعو الله مرة ، و غيره ممن يجعله له ندا أخرى[2] - أسد طريقة و أقوم قيلا : ﴿ امّن هو ﴾ و التقدير فى قراءة نافع و ابن كثير و حمزة بالتخفيف : أمن هو بهذه الصفة خير أم ذلك الكافر الناسى لمن أحسن إليه ، و يرجح التقدير بالاستفهام دون النداء إنكار التسوية[3] بين العالم الذى حداه علمه على القنوت و الذى لا يعلم حقيقة أو مجازا لعدم الانتفاع بعلمه ﴿ قانت ﴾ أى مخلص فى عبادته الله تعالى دائما ﴿ انآء اليل ﴾ أى جميع ساعاته .

و لما كان المقام للاخلاص ، و كان الإخلاص أقرب مقرب إلى الله لأنه التجرد[4] عن جميع الأغيار ، و كان السجود أليق الأشياء بهذا الحال ، و لذلك كان أقرب مقرب للعبد من ربه ، لأنه خاص بالله تعالى ، قال : ﴿ ساجدا ﴾ أى و راكعا ، و دل على تمكنه من الوصفين بالعطف فقال : ﴿ و قآئما ﴾ أى و قاعدا ، و عبر بالاسم تنبيها على دوام إخلاصه فى حال سجوده و قيامه . و الآية من الاحتباك : ذكر السجود دليلا على الركوع و القيام دليلا على القعود ، و السر فى ذكر ما ذكر و ترك ما ترك أن

---

(١) راجع نثر المرجان ٦ /١٢٥ (٢) زيدت الواو فى ظ (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تسوية (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تجرد .

السجود يدل على العبادة، و قرن القيام به دال على أنه قيام منه فهو عبادة، و ذلك مع الإيذان بأنهما أعظم الأركان، فهو ندب إلى تطويلهما على الركنين الآخرين لأن القعود إنما هو للرفق بالاستراحة، و الركوع إنما أريد به إخلاص الأركان للعبادة، لأنه لا يمكن عادة أن يكون لغيرها، و أما السجود فيطرقه احتمال السقوط و القيام و القعود مما جرت به العوائد، فلما ضم إليهما الركوع تمحضا / للخضوع بين يدى الملك العليم / ٤٨١ العزيز الرحيم.

و لما كان الإنسان محل الفتور و الغفلة و النسيان، و كان ذلك فى محل الغفران، و كان لا يمكن صلاحه إلا بالخوف من الملك الديان، قال معللا أو مستأنفا جوابا لمن كأنه يقول: ما له يتعب نفسه هذا التعب و يكدها هذا الكد: ﴿ يحذر الاخرة ﴾ أى عذاب الله فيها، فهو دائم التجدد لذلك كلما غفل عنه. و لما ذكر الخوف، أتبعه قرينه الذى لا يصح بدونه فقال: ﴿ و يرجوا رحمة ربه ﴾ [أى[1]] الذى لم يزل يتقلب فى إنعامه.

و لما كان الحامل على الخوف و الرجاء و العمل إنما هو العلم النافع، و كان العلم الذى لا ينفع كالجهل او الجهل خير، كان جواب ما تقدم من الاستفهام: لا يستويان، لأن المخلص عالم و المشرك جاهل. فأمره بالجواب بقوله: ﴿ قل ﴾ أى لا يستويان، لأن الحامل على الإخلاص العلم و على الإشراك الجهل و قلة العقل، ثم أنكر[2] على من يشك فى ذلك فقل

(١) زيد من ظ و م و مد (٢-٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فقال قل.

له : ﴿هل يستوى﴾ أى فى الرتبة ﴿الذين يعلمون﴾ أى فيعملون على مقتضى العلم ، فأداهم علمهم إلى التوحيد و الإخلاص فى الدين ﴿و الذين لايعلمون﴾ فليست أعمالهم على مقتضى العلم إما لجهل و إما لإعراض عن مقتضى العلم ، فصاروا لا علم لهم [لأنه - ١] لا انتفاع لهم به ، لأنهم لو تأملوا أدنى تأمل مع تجريد الأنفس من الهوى لرجعوا إليه من أنه لايرضى أحد أصلا لعبده أن يخالف أمره ، و إلى أنه لايطلق العلم إلا على العامل أرشد قول ابن هشام فى السيرة "و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا" أن يقول الناس : علماء ، و ليسوا[٢] بأهل علم ، لم[٣] يحملوهم على هدى[٤] و لا حق .

و لما كان مدار السداد التذكر ، و كان مدار التذكر الذى به الصلاح و الفساد هو[٥] القلب لأنه مركز العقل الذى هو آلة العلم ، وكان القلب الذى لايحمل على الصلاح عدما ، بل العدم خير منه ، قال : ﴿انما يتذكر﴾ أى تذكرا[٦] عظيما بما أفهمه إظهار التاء فيعلم[٧] أن المحسن لايرضى بالإحسان إلى من يأكل خيره و يعبد غيره ﴿اولوا الالباب ع﴾ أى العقول الصافية و القلوب النيرة ، و هم الموصوفون آخر آل عمران بقوله تعالى "الذين يذكرون الله [قيما و قعودا و على جنوبهم" - ١] - إلى

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من م و مد و السيرة ١/٢٠٣ ، و فى الأصل و ظ : ليس (٣) من ظ و م ومد و السيرة ، و فى الأصل : بل (٤) من ظ و م و مد و السيرة و فى الأصل : هدد (٥) سقط من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : تذكيرا (٧) من م ومد ، و فى الأصل و ظ : فعلم .

آخرها ، و ما أحسن التعبير هنا باللب الذى هو خلاصة الشيء لأن السياق للاخلاص ، قال الرازى [1]فى اللوامع[1]: قال الإمام محمد بن على الترمذى : خلق الله تعالى الأشياء مسخرة للآدمى ، و خلق الآدمى للخدمة ، و وضع فيه أنواره ليخرج الخدمة لله تعالى من باطنه بالحاجة ، فالآدمى مندوب إلى العلم بالله تعالى و بأوامره حسب ما خلق له ، و الخدمة و القنوت بقلبك بين يديه ماثلا منتصبا محقا مبادرا مسارعا سائقا مركبك فى جميع أمورك بالحب له ، و علم الخدمة علم البساطين : بساط القدرة و بساط العبودة[2] فاذا طالعت بساط القدرة بعقل وافر و هو أن تعرف نفسك و تركيبك من روحانى[3] و جسمانى ، و طالعت بساط العبودة بكياسة تامة أدركت تدبيره فى العبودة و باطن أمره و نهيه و علل التحريم و التحليل[4] ، و بسط الله بساط الربوبية من باب القدرة ، و بسط بساط العبودة من باب العظمة ، ثم كان آخر خلقه سبحانه هذا الإنسان الذى بسط له هذين البساطين ، و جمع فيه العالمين ، و زاد على ما فيهما من قبول الأمر اختيارا و[5] طوعا ، و كل شيء أعطاك إنما أعطاك لتبرزه إلى جوارحك ، و تستعمله فيما خلق له ، فلو لم يعطك لم يطلب منك ، فلا تطلب الزكاة / ممن لامال ٤٨٢ / له ، و لا الصلاة قياما ممن لارجل له .

و لما ثبت أن القانت خير ، و كان المخالف له كثيرا ، و كان أعظم

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : العبودية (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : رحمانى (٤) من م و مد ، وفى الأصل و ظ : التحلل (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ « او » .

حامل له على القنوت التقوى، و كانت كثرة[١] المخالف اعظم مزلزل، وكان الإنسان ـ لما له من النقصان ـ أحوج شيء إلى التثبيت، و كان التثبيت من [٢]المجانس، و التأنيس[٢] من المشاكل أسكن[٣] للقلب و أشرح للصدر، أمر أكمل الخلق و أحسنهم ملاطفة بتثبيتهم فقال: ﴿ قل ﴾ و لما كان الثبات[٤] لا يرسخ مع كثرة المخالف، و توالى الزلزال و المتالف، [إلا -[٥]] إذا كان عن الملك، جعل ذلك عنه سبحانه ليجتمع عليه الخالق و الأقرب إليه من الخلائق، فقال: ﴿ يٰعباد ﴾ دون ان يقول: يا عباد الله، مثلا تذكيرا لهم[٦] تسكينا لقلوبهم بما علم من أن التقدير: قال [الله ـ [٥]]، و تشريفا لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف و شدة الخصوصية، و إعلاما لهم بأنه حاضر لا يغيب عنهم بوجه: ﴿ الذين ءامنوا ﴾ أى أوجدوا هذه الحقيقة و لو على أدنى حالاتها.

و لما كان الإحسان ربما جرأ[٧] على المحسن، اشار سبحانه إلى سداد قول العارفين « اجلس على البساط و إياك و الانبساط » و نبه بلفت القول عن مظهر التكلم إلى[٨] الوصف بما يدل على أن العاقل [من -[٥]]

---

(١) من ظ و مد، و فى الأصل و م: كثيرة (٢ - ٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: المحاسن و التاييس (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: أشكل (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الثابت (٥) زيد من م و مد. (٦) زيدت الواو فى الأصل و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها. (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: جرى (٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ: على.

أوجب

أوجب له[1] الإحسان إجلالا و إكبارا، و أثمر له العطف و التقريب ذلا فى نفسه و صغارا، و خوفا و انكسارا. مما أقله قطع الإحسان فقال: ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أى اجعلوا بينكم و بين غضب المحسن إليكم وقاية بأن ترقوا فى درجات طاعته مخلصين له كما خلقكم لكم لا لغرض [له - [2]] ليرسخ إيمانكم و يقوى إحسانكم، و هذا أدل دليل على أن الإيمان يكون مع عدم التقوى .

و لما أرشدهم بالاسم الناظر إلى الإحسان إلى أن يقولوا: فما لنا إن فعلنا؟ قال مجيبا معللا: ﴿ للذين احسنوا ﴾ أى لكم، و لكنه أظهر الوصف الدال على سبب جزائهم تشويقا إلى الازدياد منه، و لما كان العمل لا ينفع إلا فى دار التكليف قال: ﴿ فى هذه ﴾ باسم الإشارة زيادة فى التعيين ﴿ الدنيا ﴾ أى الدنية الوضرة التى لا تطهر الحياة فيها إلا بالتقديس بعبادة الخالق و التخلق بأوصافه ﴿ حسنة ﴾ أى عظيمة فى الدنيا بالنصر و المعونة مع كثرة المخالف و فى الآخرة بالثواب، و يجوز أن يكون معنى « احسنوا » أوقعوا الإحسان، و معلوم أنه فى هذه الدنيا، فيكون ما بعده مبتدأ و خبرا، لكنه يصير خاصا بثواب الدنيا، فالأول حسن .

و لما كان ربما عرض للانسان فى أرض من يمنعه الإحسان، و يحمله على العصيان، حث سبحانه على الهجرة إلى حيث يزول عنه

(١) سقط من ظ و مد (٢) زيد من م و مد .

ذلك المانع ، تنبيها على أن مثل هذا ليس عذرا فى التقصير كما قيل :

و إذا [1]نبا بك[1] منزل فتحول

فقال : ﴿و ارض الله﴾ أى الذى له الملك كله و العظمة الشاملة ﴿واسعة﴾ و وجوده بعلمه و قدرته فى كل أرض على حد سواء ، فالمتقيد بمكان منها ضعيف العزم واهن اليقين ، فلا عذر للفرط فى الإحسان بعدم[2] الهجرة .

و لما كان الصبر على هجرة الوطن و لاسيما إن كان ثم أهل و عشيرة شديدا جدا ، ذكر ما للصابر على ذلك لمن تشوف إلى السؤال عنه فقال : ﴿انما يوفى﴾ أى التوفية العظيمة ﴿الصّٰبرون﴾ أى على ما تكرهه النفوس فى مخالفة الهوى و اتباع أوامر الملك الأعلى من الهجرة و غيرها ﴿اجرهم بغير حساب ۝﴾ أى على وجه من الكثرة لا يمكن فى العادة حسبانه ، و ذلك لأن[3] الجزاء من جنس العمل ، و كل عمل يمكن عده و حصره إلا الصبر[4] فانه دائم مع الأنفاس ، / و هو معنى من المعانى الباطنة ٤٨٣ / لا يطلع خلق على مقداره فى قوته و ضعفه و شدته و لينه [لأنه -[5]] مع خفائه يتفاوت مقداره ، و تتعاظم آثاره ، بحسب الهمم فى علوها و سفولها ، و سموها و نزولها . و يجوز أن يكون المعنى أن من كمل صبره - بما أشارت إليه لام الكمال - لم يكن عليه حساب ، لما رواه البزار و ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاءت امرأة

(١ - ١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ساءك (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بعد (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : إن (٤) من ظ وم و مد ، و فى الأصل : بالصبر (٥) زيد من م و مد .

بها لمم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالت: يا رسول الله، ادع الله لى، قال: إن شئت دعوت الله فشفاك، و إن شئت صبرت و لا حساب عليك، قالت: بل أصبر و لا حساب على.

و لما كانت الأعين ناظرة إلى الآمر هل يفعل [١]ما يأمر به[١] و مقيدة بالرئيس لتأسى به، و كان أعظم الصابرين من جاهد نفسه حتى خلص أعمالها من الشوائب و حماها من الحظوظ و العوائق، و صانها من الفتور و الشواغل، أمره بما يرغبهم فى المجاهدة، و يكشف لهم عن حلاوة الصبر، بقوله: ﴿ قل ﴾ و لما كان الرئيس لقربه من الملك بحيث يظن أنه يسامحه فى كثير مما يكلف به غيره أكد قوله: ﴿ انى امرت ﴾ و بنى الفعل لما لم يسم فاعله تعظيما للآمر بانه قطع و مضى بحيث لم يبق فيه مثنوية، و أقام مقام الفاعل دليلا على أنه العمدة للحث على لزومه قوله: ﴿ ان اعبد الله ﴾ أى الذى الخلق كلهم سواه بالنسبة إلى قبضته و علوه و عظمته لأنه غنى عن كل شىء ﴿ مخلصا له الدين ﴾ أى العبادة التى[٢] يرجى منه الجزاء عليها.

و لما كان الرئيس إذا سابق إلى شىء شوق النفوس إليه، و اوجب عليها العكوف عليه قال: ﴿ و امرت ﴾ أى، وقع الأمر لى و انبرم بأوامر عظيمة وراءه ما أمرتم[٣] به لاتطيقونها ﴿ لان ﴾ أى لأجل

(١ – ١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الذى (٣) زيدت الواو فى الأصل و ظ، و لم تكن فى م و مد فحذفناها.

أن ﴿اكون﴾ فى وقتى و فى شرعى ﴿اول﴾ أى أعظم ﴿المسلمين ه﴾ أى المنقادين فى الرتبة الحائزين قصب السبق بكل اعتبار لأوامر الإله الذى لا فوز إلا بامتثال[٣] أوامره أو[١] أسبق الكائنين منهم فى زمانى، فجهة [هذا - [٢]] الفعل غير جهة الأول، فلذلك عطف عليه لأنه لإحراز قصب السبق، و الأول لمطلق الإخلاص فى العبادة.

و لما كان ما أمر به مفهما لأن يكون مع ترغيب و مع ترهيب، وكان ربما ظن أن الرئيس لا يرهب الملك لأمور ترجى منه أو تخشى، و كان تكرير الأمر بابلاغ المأمورين أوقع فى قلوبهم و أشد إقبالا بنفوسهم قال تعالى: ﴿قل﴾ أى لأمتك، و أكد - لما فى الأوهام أن الرئيس لايخاف - قوله: ﴿انى اخاف﴾ أى مع تأمينه لى بغفران ما تقدم و ما تأخر إخلاصا فى إجلاله و إعظامه[٣] و فعلا لما على العبد لمولاه الذى له جميع الكبرياء و العظمة - [٣]]. و لما كان وصف الإحسان ربما جرأ عـلى العصيان، بين أنه لا يكون ذلك إلا لعادم العرفان فقال[٤]: ﴿ان عصيت ربى﴾ أى المحسن إلى المربى لى بكل جميل فتركت الإخلاص له ﴿عذاب يوم عظيم ه﴾ و إذا كان يوم عظيما، فكيف يكون عذابه.

و لما بين ما أمر به، و أعلم أنه يخاف من مخالفة الآمر له بذلك فأفهم أنه ممتثل لما أمر به، أمره سبحانه بأن[٥] يصرح بذلك لأن للتصريح

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: «و» (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: عظاما (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: قال (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: ان.

من

من المزية ما لايخفى فقال: ﴿قل الله﴾ أى المحيط بصفات الكمال وحده ﴿اعبد﴾ تخصيصا له بذلك، لا أعرج اصلا بالعبادة نحو غيره أبدا ﴿مخلصا له﴾ وحده ﴿دينى لا﴾ أى امتثالا لما أمرت به فلا أشينه بشائبة أصلا لا طلبا لجنة ولا خوفا من نار فانه قد غفر لى ما تقدم[1] و ما تأخر، فصارت عبادتى لأجل وجهه و كونه مستحقا للعبادة خاصة شوقا إليه و حبا له و حياء منه، و أما الرغبة فيما عنده سبحانه و الخوف من سطواته التى جماعها / قطع الإحسان لذى هو عند الأغبياء أدنى ما يخاف فانما خوفى / ٤٨٤ لأجل إعطاء المقام حقه من ذل العبودية و عز الربوبية .

و لما علم من هذا غاية الامتثال بغاية الرغبة و الرهبة و هم يعلمون أنه صلى الله عليه و سلم أقواهم قلبا و أصفاهم لبا، و أجرأهم نفسا و أصدقهم إقداما و أشجعهم عشيرة و حزبا، كان خوف غيره من باب الأولى، فسبب عنه تهديدهم أعظم تهديد بقوله: ﴿فاعبدوا﴾ اى أنتم أيها الداعون له فى وقت الضراء المعرضون عنه فى وقت الرخاء ﴿ما شئتم﴾ اى من جماد أو غيره. و نبه على سفول رتبة كل شيء بالنسبة إليه سبحانه تسفيها لمن يلتفت إلى سواه بقوله: ﴿من دونه ط﴾ فان عبادة ما دونه تؤدى إلى قطع إحسانه، و لا إحسان إلا إحسانه، فاذا انقطع حصل كل سوء، و فى ذلك جميع الخسارة.

و لما كانوا يدعون الذكاء، و يفعلون ما لايفعله عاقل، امره ان يقول لهم ما ينبههم على غباوتهم بما يصيرون إليه من شقاوتهم فقال:

---

(١) زيد فى الأصل و ظ: من ذنبى، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها.

﴿ قل ان الخسرين ﴾ اى الذين خسارتهم هى الخسارة لكونها[1] النهاية فى العطب ﴿ الذين خسروآا انفسهم ﴾ أى بدخولهم النار التى هى معدن الهلاك لعبادتهم غير الله من كل ما يوجب الطغيان . و لما كان[2] أعز ما على الإنسان بعد نفسه أهله الذين عزه بهم قال : ﴿ و اهليهم ﴾ أى لأنهم إن كانوا مثلهم فحالهم فى الخسارة كحالهم ، و لا يمكن أحدا منهم أن يواسى صاحبه بوجه فانه لكل منهم شأن يغنيه ، و إن كانوا ناجين فلا اجتماع بينهم .

و لما كانت العاقبة هى المقصودة بالذات ، قال : ﴿ يوم القيمة ﴾ لأن ذلك اليوم هو الفيصل لايمكن لما فات فيه تدارك أصلا . و لما كان فى ذلك غاية الهول . كرر التعريف بغباوتهم تنبيها على رسوخهم فى ذلك الوصف على طريق النتيجة لما أفهمه ما قبله . فقال مناديا لأنه أهول مبالغا بالاستئناف و حرف التنبيه و ضمير الفصل و تعريف الخبر و وصفه : ﴿ الا ذلك ﴾ اى الأمر العظيم البعيد الرتبة فى الخسارة جدا ﴿ هو ﴾ أى وحده ﴿ الخسران ﴾ أى[3] بصيغة الفعلان المفهم مطلقها للمبالغة فكيف اذا بنيت على الضم الذى هو أثقل الحركات . و زاد فى تقريعهم بالغباوة بقوله : ﴿ المبين ﴾ .

و لما علم بهذا أنه البين فى نفسه المنادى بما فيه من القباحة بأنه لاخسران غيره ، فصله بقوله على طريق التهكم بهم : ﴿ لهم ﴾ فان عادة

---

(١) فى م : بكونها (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كانوا (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : اى .

اللام عند مصاحبة المجرور و لا سيما الضمير إفهام المحبوب للضمير[1] لاسيما مع ذكر الظلل، و أشار إلى قربها[2] منهم باثبات الجار فقال: ﴿ من فوقهم ظلل ﴾ و لما أوهمهم[3] ذلك الراحة، أزال ذلك بقوله: ﴿ من النار ﴾ و ذلك أنكأ مما لو أفهمهم الشر من أول الأمر. و لما كان في القرار - كائنا ما كان على أيّ حال [كان -[4]] - نوع من الراحة بالسكون، بين أنهم معلقون في غمرات الاضطراب، يصعدهم اللهيب تارة، و يهبطهم انعكاسه[5] عليهم برجوعه إليهم أخرى؛ فلا قرار لهم أصلا كما يكون الحب في الماء على النار، يغلي به صاعدا و سافلا، لايقر في أسفل القدر[6] أصلا بقوله: ﴿ و من تحتهم ﴾.

[و لما كان كون الظلة المأخوذة من الظل من تحت في غاية الغرابة، أعادها و لم يكتف بالأولى، و لم يعد ذكر النار لفهمها في التحت من باب الأولى فقال -[4]] : ﴿ ظلل[7] ﴾ و مما يدل على ما فهمته من عدم القرار ما رواه البخاري في صحيحه[8] عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا، فسألنا يوما قلنا: لا، قال: لكني رأيت

(١) بين سطري م: أي الشبه الخفي (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: قربه (٣) من م و مد، و في الأصل و ظ: اوهم (٤) زيد من م و مد. (٥) من ظ و مد، و في الأصل و م: العكاسة (٦) من مد، و في الأصل و ظ و م: السدست (٧) ليس في الأصل و ظ (٨) راجع ١ / ١٨٥ - كتاب الجنائز.

الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدى و أخرجانى إلى الأرض المقدسة - فذكره بطوله حتى قال : فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق و أسفله واسع، توقد تحته نار، فاذا فيه رجال و نساء عراة[1] فيأتيهم اللهيب من تحتهم، فاذا / اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فاذا خمدت رجعوا فذكره /٤٨٥
و هو طويل عظيم، ثم فسرهم بالزناة .

و لما كان هذا أمرا مهولا، و هم لا يرهبونه و لا يرجعون عن غيهم به، ذكر فائدته مع الزيادة فى تعظيمه فقال : ﴿ذلك﴾ أى الأمر العظيم الشأن ﴿يخوف الله﴾ أى الملك الأعظم الذى صفاته الجبروت و الكبر ﴿به عباده﴾ أى الذين لهم أهلية الإقبال عليه ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم فيعيذهم منه . و لما أهلهم للاضافة إليه و خوفهم سطواته، أقبل عليهم عند تهيئهم للاستماع منها على أنه تخويف استعطاف فقال : ﴿ يٰعباد فاتقون ﴾ أى سببوا عن ذلك أن تجعلوا بينكم و بين ما يسخطنى وقاية مما يرضينى لأرضى عنكم .

و لما ذكر ما لمن عبد الطاغوت، عطف عليه أضدادهم ليقترن الوعد بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب و الترهيب فقال : ﴿ و الذين اجتنبوا ﴾ أى كلفوا أنفسهم ذلك لما [2]لها فى الانسياق إليه من الهوى مع تزيين الشيطان «حفت النار بالشهوات» و لما كان للاجمال ثم البيان [3]موقع عظيم[3]، قال : ﴿الطاغوت﴾ و هو كل ما عبد من دون الله، فلعوت من

(١) من م و مد و الصحيح، و فى الأصل و ظ : عداة (٢) العبارة من هنا إلى ما سننبه عليه ساقطة من مد (٣-٣) فى الأصل و ظ و م : موقعا عظيما .

الطغيان، و هو صيغة مبالغة، و فيه مبالغة أخرى بجعل الذات عين المعنى، و دل على عكس من تبعها بتكيس حروفها . و لما ذكر اجتنابها مطلقا ترغيبا فيه، بين خلاصة ما يجتنب لأجله مع التنفير منها بتأنيثها الذى أبصره المنيبون بتقوية[1] الله لهم عليها حتى كانوا ذكرانا و هم إناثا عكس ما تقدم للكفار فى البقرة. فقال مبدلا منها بدل اشتمال: ﴿ ان يعبدوها ﴾ .

و لما ذكر اجتناب الشرك، أتبعه التزام التوحيد فقال: ﴿ و انابوا ﴾ أى رجعوا رجوعا عظيما أزالوا فيه النوبة و جعلوها إقبالة واحدة لا صرف فيها ﴿ الى الله ﴾ أى المحيط بصفات الكمال فلا معدل عنه ﴿ لهم البشرٰى ج ﴾ فى الدنيا على السنة الرسل و عند الموت تتلقاهم الملائكة فقد ربحوا ربحا لا خسارة معه لأنهم انتفعوا[2] بكلام الله فأخلصوا دينهم له فبشرهم - هكذا كان الأصل، و لكنه أظهر تعميما و تعليقا بالوصف فقال مسببا عن عملهم، صارفا القول إلى التكلم بالإفراد تشريفا للبشرين الموصوفين: ﴿ فبشر عباد لا ﴾ [أى -[3]] الذين اهلوا أنفسهم بقصرهممهم على[3] للاضافة إلى[3] ﴿ الذين يستمعون[4] ﴾ أى بجميع قلوبهم ﴿ القول ﴾ اى هذا الجنس من كل قائل ليسوا جفاة عساة[5] إذا أقبلوا على[6]

(١) من م، و فى الأصل و ظ: لتقوية (٢) من ظ و م، و فى الأصل: انتفصوا (٣) زيد من ظ و م (٤) من ظ و م و القرآن الكريم، و فى الأصل: يجتمعون (٥) من ظ و م، و فى الأصل: عشاة (٦) زيد فى الأصل وظ: كل، و لم تكن الزيادة فى م فحذفناها .

شيء أعرضوا عن غيره بغير دليل ﴿ فيتبعون ﴾ أى بكل عزائمهم بعد انتقاده : ﴿ احسنه ﴾ بما دلتهم عليه عقولهم من غير عدول إلى أدنى هوى ، و يدخل فى هذه الآية دخولا بينا حث أهل الكتاب على اتباع هذا القرآن العظيم ، فان كتب الله كلها حسنة ، و هذا القرآن أحسنها كلاما ، و معانى و نظاما ، لايشك فى هذا أحد له أدنى ذوق .

و لما بين عملهم ، أنتج ذلك مدحهم فقال ، مظهرا زيادة المحبة لهم و الاهتمام بشأنهم بالتأكيد : ﴿ اولـئك ﴾ أى العالو الهمة و الرتبة خاصة ﴿ الذين ﴾ و لما كان فى هؤلاء المجتبين العالو الرتبة جدا و غيره ، أبرز المفعول فقال محولا الأسلوب إلى الاسم الأعظم إشارة إلى عظيم هدايتهم[1] ﴿ هدىهم الله ﴾ بما له من صفات الكمال فبين سبحانه أن لا وصول إليه إلا به ، و هـذا بخلاف آية الأنعام حيث ذكر الأنبياء عليهم الصلاة و السلام فقال " اولئك الذين هدى الله " فحذف المفعول لتصير هدايتهم مكررة بوجوب تسليط[2] العامل على الموصول[3] الذى [أعاد -[4]] عليه الضمير فى هذه الآيـة ، و كرر الإشارة زيادة / فى تعظيمهم فقال: ٤٨٦ /
﴿ و اولـئك هم ﴾ أى خاصة ﴿ اولوا الالباب ﴾ أى العقول الصافية عن شوب كدر .

و لما خص سبحانه البشارة بالمحسنين ، علم أن غيرهم قد حكم بشقاوته ،

---

(١) زيد فى الأصل : فقال ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م فحذفناها (٢) من م ، و فى الأصل و ظ : تسلط (٣) من م ، و فى الأصل و ظ : الوصول (٤) زيد من ظ و م .

و كان صلى الله عليه و سلم لما جبل عليه من عظيم الرحمة و مزيد الشفقة جديرا بالأسف على من أعرض، سبب عن أسفه عليهم قوله: ﴿افمن حق﴾ و أسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيدا للنهى عن الأسف عليهم ﴿عليه كلمة العذاب[1]﴾ بإبائه و توليه، فكان لذلك منغمسا فى النار التى أبرمنا [القضاء -[1]] بأنها جزاء الفجار لا يمكن إنقاذه منها، أفأنت تنقذه من إعراضه الذى غمسه فى النار؟ ثم دل على هذا الذى قدرته بقوله مؤكدا بإعادة حرف الاستفهام لأجل طول الكلام و لتهويل الأمر و تفخيمه للنهى عن تعليق الهم بهم لما عنده صلى الله عليه و سلم من جبلة العطف و الرقة على عباد الله: ﴿افأنت تنقذ﴾ أى تخلص و تمنع و تنجى، و وضع موضع ضميره قوله شهادة عليه بما هو مستحقه و لا يمكن غير الله فكه منه ﴿من فى النار ج﴾ متمكنا فيها[2] شديد الانغماس فى طبقاتها، و الرسوخ بحيث أنها قد أحاطت به من كل جانب، و كان الأصل: أنت تنقذ من حق عليه العذاب، فقدم المفعول و جعله عمدة الكلام ليقرع السمع [3]و يترقب[3] الخبر عنه. ثم حذف خبره ليكون أهول[4] فتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم أنكر أن يكون أعلى الخلق ينقذه، فغيره من باب الأولى. فصار الكلام بذلك من الرونق و البهجة و الهول و الإرهاب ما لا يقدر البشر على مثله.

و لما بين أن من عبد الأنداد هالك لخروجه عن دائرة العقل بجراءة

(١) زيد من م (٢) من م، و فى الأصل و ظ: فيه (٣-٣) فى م: فيترقب؛
(٤) من ظ و م، و فى الأصل: اهل.

و عدم تدبير، بين ما لأضدادهم . فقال صارفا القول عن الاسم الأعظم إلى وصف الإحسان إشارة إلى كرم المتقين بما لهم من إصالة الرأي التي أوجبت خوفهم مع تذكر الإحسان ليدل على أن خوفهم عند تذكر الانتقام أولى: ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ أي جعلوا بينهم و بين سخط المحسن إليهم وقاية في كل حركة و سكنة، فلم يفعلوا شيئا من ذلك إلا بنظر يدلهم على رضاه ﴿ لهم غرف ﴾ أي علالي من الجنة يسكنونها في نظير ظلل الكفار . و لما كانت الغرف في قرار تقر به العيون لم يقل «من فوقهم» كما قال في أهل النار و قال: ﴿ من فوقها غرف ﴾ أي شديدة[1] العلو . و لما كان ربما ظن أن الطبقة الثانية السماء، لأن الغرفة أصلها العالي، و لذلك سميت السماء السابعة غرفة، و أن تكون الغرفة مثل ظلل النار ليس لها قرار . قال تحقيقا للحقيقة مفردا كما هو المطرد في وصف[2] جمع الكثرة لما لا يعقل: ﴿ مبنية ﴾ . و لما كانت المنازل لا تطيب إلا بالماء، وكان الجاري[3] اشرف و أحسن[3] قال: ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي الغرف من [4] الطبقة السفلى و الطبقة العليا من غير تفاوت بين العلو و السفل، لأن القدرة صالحة لأكثر من ذلك ﴿ الأنهر ﴾ .

و لما ذكر يوم القيامة و ما يكون فيه، بين أنه أمر لا بد منه بقوله، رادا السياق إلى الاسم الأعظم الذي لا يتصور مع استحضار ما له من الجلال إخلاف: ﴿ وعد الله ﴾ مؤكدا لمضمون الجملة بصيغة المصدر

---

(١) من م ، و في الأصل و ظ : شديد (٢) زيد في م : في (٣-٣) في م : أحسن و أشرف (٤) و من هنا تستانف نسخة مد .

الدال

الدال على الفعل الناصب له، و هو واجب الإضمار و الإضافة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات، ثم أتبع ذلك بيان ما يلزم من كونه وعده بقوله على سبيل النتيجة: ﴿لايخلف الله﴾ أي الملك الذي لاشريك له يمنعه من شيء يريده. و لما كان الرعي لزمان الوعد[1] و مكانه إنما يكون للمحافظة[2] عليه فهو أبلغ / من رعيه نفسه، عبر بالمفعال فقال: /٤٨٧ ﴿الميعاد﴾ لأنه لا سبب أصلا يحمله على الإخلاف.

و لما أخبر سبحانه بقدرته على البعث، دل عليها بما يتكرر مشاهدته من مثلها، و خص المصطفى صلى الله عليه و سلم بالخطاب حثا على [تأمل -[3]] هذا الدليل تنبيها على عظمته فقال مقدرا: ﴿الم تر﴾ [أي -[3]] بما يدلك على قدرته سبحانه على إعادة ما اضمحل و تمزق، و ارفت و تفرق: ﴿ان الله﴾ أي الذي له [4]كل صفة[4] كمال ﴿انزل من السمآء﴾ أي التي لايستمسك الماء فيها إلا بقدرة باهرة تقهره على ذلك ﴿مآء﴾ كما تشاهدونه في كل عام[5] ﴿فسلكه﴾ أي في خلال التراب حال كونه ﴿ينابيع﴾ أي عيونا فائرة ﴿في الارض﴾ فقهره على الصعود بعد أن غيبه في أعماقها بالفيض و الصوب بعد أن كان قسره على الانضباط في العلو ثم أكرهه على النزول على مقدار معلوم و كيفية مدبرة و أمر مقسوم، قال الشعبي و الضحاك[6]: كل ماء في

(١) من ظ وم ومد، وفي الأصل: الموعد (٢) من م و مد، وفي الأصل و ظ: للحافظ (٣) زيد من م و مد (٤-٤) من ظ وم ومد، وفي الأصل: صفة كل.
(٥) من ظ و م و مد، و في الأصل: علم (٦) ذكره في معالم التنزيل مختصرا عن الشعبي - راجع هامش اللباب ٦ / ٦٥.

الارض من السماء ينزل إلى الصخرة ثم يقسم منها العيون و الركايا .

و لما كان إخراج النبات متراخيا عن نزول المطر ، عبر بثم ، و فيها أيضا تنبيه على تعظيم الأمر فيما تلاها بأنه محل الشاهد فقال : ﴿ ثم يخرج ﴾ أى الله ﴿ به ﴾ أى الماء ﴿ زرعا ﴾ و لما كان اختلاف المسبب مع اتحاد السبب أعجب فى الصنعة و أدل على بديع القدرة ، قال : ﴿ مختلفا الوانه ﴾ أى فى الأصناف و الكيفيات و الطبائع و الطعوم و غير ذلك مع اتحاد الماء الذى جمعه من أعماق الأرض بعد أن تفتت فيها و صار ترابا . و لما كان الإيقاف بعد قوة الإشراف دالا على القهر و نفوذ الأمر ، قال إشارة إلى أن الخروج عن الحد غير محمود فى شيء من الأشياء فانه يعود عليه بالنقص ﴿ ثم يهيج ﴾ و زاد فى تعظيم هذا المعنى للحث على تدبره باسناده إلى خير الخلق صلى الله عليه و سلم فقال : ﴿ فترٰه ﴾ أى فيتسبب عن هيجه و هو شدة ثورانه فى نموه[1] بعد التمام بتوقيع الانصرام أنك تراه ﴿ مصفرا ﴾ آخذا فى الجفاف بعد تلك الزهرة و البهجة و النضرة . و لما كان السياق لإظهار القدرة التامة ، عبر بالجعل مسندا إليه سبحانه بخلاف آية الحديد التى عبر فيها[2] بالكون لأن السياق ثم لأن الدنيا عدم فقال : ﴿ ثم يجعله حطاما ﴾ أى مكسرا مفتتا باليا .

و لما تم هذا على هذا المنوال البديع الدال بلا شك لكل من رآه على أن فاعله قادر على الإعادة لما يريد بعد الإبادة ، كما قدر على الإيجاد

(١) من ظ وم ومد، وفى الأصل : غده (٢) منم ومد، وفى الأصل وظ : عنها .

من العدم و الإفادة لكل ما لم يكن، قال على سبيل التأكيد للتنبيه على [أن -^١] إنكارهم غاية فى الحمق و الجمود: ﴿ ان فى ذلك ﴾ أى التدبير على هذا الوجه ﴿ لذكرىٰ ﴾ أى تذكيرا عظيما واضحا على البعث و ما يكون بعده، فان النبات كالإنسان سواء، يكون ماء ثم ينعقد بشرا، ثم يخرج طفلا، ثم يكون شابا، ثم يكون كهلا، ثم شيخا، ثم هرما، ثم ترابا مفتتا فى الأرض، ثم يجمعه فيخرجه كما أخرج الماء النبات: ﴿ لاولى الالباب ع ﴾ أى العقول الصافية جدا كما نبه عليه بخصوص الخطاب فى أول هذا الباب للمنزل عليه هذا الكتاب، و أما غيره و غير من تبعه باحسان فهم كبهائم الحيوان.

و لما كان الذى قرر به أمرا فيما يظنه السامع ظاهرا كما^٢ كان جديرا بأن ينكر بعض الواقفين مع الظواهر تخصيص الألباء به، سبب عن ذلك الإنكار فى قوله: ﴿ افمن شرح الله ﴾ أى الذى له القدرة الكاملة و العلم الشامل ﴿ صدره للاسلام ﴾ أى الانقياد للدليل، فكان قلبه^٣ لينا فانقاد للايمان فاهتدى لباطن هذا الدليل ﴿ فهو ﴾ أى فيتسبب عن إسلام ظاهره / و باطنه للداعى أن كان ﴿ على نور ﴾ أى بيان عظيم بكتاب، ٤٨٨ / به يأخذ، و به يعطى، و إليه فى [كل -^٤] أمر ينتهى قد استعلى عليه فهو كأنه راكبه، يصرفه حيث يشاء، و زاد فى بيان عظيم هدايته بلفت

---

(١) زيد من ظ وم ومد (٢) سقط من م و مد (٣) من م ومد، و فى الأصل و ظ: قلبا (٤) زيد من م و مد.

القول إلى مظهر[1] الإحسان فقال: ﴿ من ربه ﴾ أى المحسن إليه باحسانه فى انقياده، فبشرى له فهو على صراط مستقيم، كمن جعل صدره ضيقا [حرجا -[2]] فكان قلبه قاسيا، فكان فى الظلام خابطا، فويل له - هكذا كان الأصل و لكن قيل: ﴿ فويل للقسية قلوبهم ﴾ أى لضيق صدورهم، و زاد فى بيان ما بلاهم به من عظيم القسوة بلفت القول[3] إلى الاسم الدال على جميع الأسماء الحسنى و الصفات العلى فقال: ﴿ من ذكر الله ﴾ فان من تبتدئ قسوته مما تطمئن به القلوب و تلين له الجلود، من مدح الجامع لصفات الكمال فهو أقسى من الجلمود.

و لما كان من رسم بهذا الخزى أخسر الناس صفقة، أنتج وصفه قوله تعالى: ﴿ اولـئك ﴾ أى الأباعد الأباغض ﴿ فى ضلل مبين ﴾ أى واضح فى نفسه موضح امره لكل أحد. فالآية من الاحتباك: ذكر أولا الشرح و النور دليلا على حذف ضده ثانيا، و ثانيا الويل للقاسى و الضلال دليلا على حذف ضده أولا - روى[4] البيهقى فى الشعب و البغوى[5] من طريق الثعلبى و الحكيم[6] الترمذى من وجه آخر عن ابن مسعود رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه و سلم قرا هذه الآية، قال: فقلنا: يا رسول الله! كيف انشرح صدورهم؟ قال: إذا دخل النور القلب

---

(١) زيد فى الأصل: العظمة و، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٢) زيد من م (٣) من م، و فى الأصل و ظ: الخطاب (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: و روى (٥) فى معالم التنزيل - راجع اللباب ٦/٦٠ (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الحاكم و.

انشرح

انشرح و انفسح ، قلنا : يا رسول الله ؟ فما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود و التجافى عن دار الغرور و التأهب للموت قبل نزول الموت . و قال الأستاذ ابو القاسم القشيرى : و النور الذى من قبله سبحانه نور اللوائح بنجوم العلم ، ثم نور اللوامع ببيان الفهم ، ثم[1] نور المحاضرة بزوائد[2] اليقين ، ثم نور المكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد ، فعند ذلك لا وجد [و -[3]] لا قصد ، و لا قرب و لا بعد ، كلا بل هو الله الواحد القهار ، و ذلك كما قيل : المؤمن بقوة عقله يوجب استقلاله بعلمه إلى أن يبدو و منه كمال تمكنه[4] من وقادة بصيرته ، ثم إذا بدا له لائحة من سلطان المعارف تصير تلك[5] الأنوار مقمرة ، فاذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة ، فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار تلك[5] الكواكب .

و لما كان من المستبعد جدا أن يقسو قلب من ذكر الله ، بينه الله و صوره فى أعظم الذكر فانه كان للذين آمنوا هدى و شفاء ، و للذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر و فى أبصارهم عمى ، فقال مدحا للمنزل[6] بجعل الاسم الأعظم [7]مبتدأ و بناء[7] الكلام عليه : ﴿ الله ﴾ أى الفعال

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ثور (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بزايد (٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : تمكنه (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من ظ (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : للستر (٧-٧) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : نبامتبدا .

لما يريد الذى له مجامع العظمة و الإحاطة بصفات الكمال ﴿ نزّل ﴾ أى بالتدريج للتدريب و للجواب عن كل شبهة ﴿ احسن الحديث ﴾ و أعظم الذكر ، و لولا أنه هو الذى نزله لما كان الأحسن ، و لقدر - و لو يوما واحدا - على الإتيان بشيء من مثله ، و أبدل من "احسن" قوله : ﴿ كتبا ﴾ أى جامعا لـــكل خير ﴿ متشابها ﴾ أى فى البلاغة [المعجزة -[1]] و الموعظة الحسنة ، لا تفاوت فيه أصلا فى لفظ و لا معنى ، مع كونه نزل مفرقا فى نيف و عشرين سنة ، و أما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت و إن طال الزمان فى التهذيب سواء اتحد زمانه أو لا ، و الاختلاف فى [2]المختلف فى[2] الزمان أكثر ، و لم يقل : مشتبها ، لئلا يظن أنه [كله -[3]] غير واضح الدلالة[4] و ذلك لا يمدح به .

و لما كان مفصلا إلى سور و آيات و جمل ، وصفه بالجمع فى قوله : ﴿ مثانى ق ﴾ جمع مثنى مفعل [من التثنية بمعنى التكرير - [1]] أى تثنى فيه القصص و المواعظ و الأحكام و الحكم ، مختلفة البيان فى وجوه من الحكم ، متفاوتة الطرق فى وضوح الدلالات ، من غير اختلاف أصلا فى أصل المعنى ، و لا يمل من تكراره ، و ترداد قراءته و تأمله و اعتباره ، مع أن جميع ما فيه أزواج من الشيء و ضده : المؤمن و الكافر ، و المطيع[5] و العاصى ، و الرحمة العامة و الرحمـــة الخاصة ، و الجنة و النار ، و النعيم

---

(١) زيد من م و مد (٢ - ٢) من م و مد ، و فى الأصل : المحل ، و فى ظ بياض (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) بياض فى الأصل ، ملأناه من ظ و م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الطائع .

و الشقاء، و الضلال و الهدى، و السراء و الضراء، و البشارة و النذارة، ٤٨٩/ فلا ترتب على شيء من ذلك جزاء صريحا إلا ثنى بافهام ما لضده تلويحا، فكان مذكورا مرتين، و مرغبا فيه أو مرهبا منه كرتين، و يجوز أن يكون التقدير : متشابهة مثانيه، فيكون نصبه على التمييز، و فائدة التكرير أن النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ[١] و النصيحة، فما لم يكرر عليها عودا[٢] على بدء لم يرسخ عندها و لم يعمل عمله، و من ثم كان النبي صلى الله عليه و سلم يكرر قوله ثلاث مرات فأكثر[٣].

و لما كان التكرار يمل، ذكر أن من خصائص هذا الكتاب أنه يطرب مع التكرار، و يزداد حلاوة و لو ثنى آناء الليل و أطراف النهار، فقال : ﴿ تقشعر ﴾ اى تهتز [و تتجمع -[٤]] و تتقبض تقبضا شديدا، من القشع و هو الأديم اليابس، و زيد [٥]حرفا لزيادة[٥] المعنى، و اختير حرف التكرير إشارة إلى المبالغة فيه. و كونه حرف التطوير أشد للمناسبة ﴿ منه جلود ﴾ أى [ظواهر -[٦]] أجسام ﴿ الذين يخشون ﴾ أى يخافون خوفا شديدا[٧] و يلتذون لذة توجب إجلالا و هيبة، فيكون ذلك سبب ذلك، و زاد فى مدحهم بأنهم يخافون المحسن، فهم عند ذكر أوصاف الجلال أشد خوفا، فلذلك لفت القول إلى وصف الإحسان فقال :

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل : الوعد (٢) من م و مد. و فى الأصل و ظ : عود (٣) من ظ و م و مد. و فى الأصل : فاكد (٤) زيد من مد. (٥-٥) من ظ و م و مد. و فى الأصل : حرف الزيادة (٦) زيد من ظ و م و مد (٧) من ظ و م و مد. و فى الأصل : شديد.

﴿ربهم ج﴾ أي المربي لهم المحسن إليهم لاهتزاز قلوبهم ، روى الطبراني عن العباس[1] رضي الله عنه [2]أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت خطاياه[2] ، و روى عن ابن عمر رضي الله عنهما انه مر برجل من أهل العراق ساقط ، قال : فما بال هذا ؟ قال : إنه إذا قرئ عليه القرآن و سمع ذكر الله سقط ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : إنا لنخشى الله و ما نسقط و إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم . ﴿ثم تلين﴾ أي تمتد و تنعم ، و قدم ما صرح فيه بالاقشعرار الذي يلزمه اليبس ، و أخر القلوب إبعادا لها عما قد يفهم يبسا فيوهم قسوة [فقال -[3]] : ﴿جلودهم﴾ لتراجعهم بعد رهة إلى الرجاء و إن اشتدت[4] صلابتها ﴿و قلوبهم﴾ و ذكره لتجدد لين القلوب مع الجلود دال على تقدير اقشعرارها[5] معها من شدة الخشية ، فان الخشية لا تكون إلا في القلب ، و كان سر حذف التصريح بذلك تنزيهها عن ذكر ما [قد -[6]] يفهم القسوة .

و لما كان القلب شديد الاضطراب و التقلب ، دل على حفظه له بنافذ أمره و باهر عظمته بالتعدية بـ « إلى » ليكون المعنى : ساكنة مطمئنة

---

(١) من مد و مجمع الزوائد ١٠/٣١٠ ، و في الأصل و ظ و م : ابن عباس .
(٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد ، و في الأصل و ظ : اشتد (٥) من ظ و م و مد ، و في الأصل : اقشعرار .
(٦) زيد من ظ و م و مد .

إلى

﴿إلى ذكر الله﴾ أى ذى الجلال و الإكرام، فان الأصل فى ذكره[1] الرجاء لأن رحمته سبقت غضبه، و أظهر موضع الإضمار لأحسن الحديث لئلا يوهم أن الضمير للرب، فيكون شبهة لأهل الاتحاد أو غيرهم من أرباب البدع، و لم يقل: إلى الحديث أو الكتاب - مثلا، بل عدل إلى ما عرف / أنه ذكره سبحانه ليكون أفخم لشأنه، و زاده فخامة بصرف القول عن / ٤٩٠ الوصف المقتضى للاحسان إلى الاسم الجامع للجلال[2] و الإكرام.

و لما كان ما ذكر من الآثار[3] عجبا، دل على عظمته بقوله على طريق الاستنتاج: ﴿ذلك﴾ أى الأمر العظيم الغريب من الحديث المنزل و القبض و للبسط ﴿هدى الله﴾ [أى -[4]] الذى لايمتنع عليه شيء ﴿يهدى به من يشآء﴾ و من هداه الله فما له من مضل. و يضل به من يشاء فلا تتأثر جلودهم لقساوة قلوبهم، فيكون هدى لناس ضلالا لآخرين ﴿و من يضلل الله﴾ أى الملك الأعظم المحيط بكل شيء إضلالا راسخا فى قلبه بما أشعر به الفك ليخرج الضلال العارض ﴿فما له من هاد ۝﴾ لأنه لا راد لأمره و لا معقب لحكمه، لأنه الواحد فى ملكه. فلا شريك له، فالآية من الاحتباك: ذكر أولا إطلاق امره فى الهداية دليلا على حذف مثله [فى الضلال، و ثانيا انسداد باب الهداية على من أضله دليلا على و حذف مثله -[5]] فيمن هداه[6] و هى دامغة للقدرية.

(١) من و م و مد. و فى الأصل و ظ: ذكرها (٢) فى ظ: للاجلال (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الاوصاف (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) زيد من م و مد (٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م: هدا.

و لما أتم الإنكار على من سوى، بين من شرح صدره و من ضيق، و ما تبعه [و -[1]] ختم بأن الأول مهتد، و الثاني ضال، شرع في بيان ما لكل منهما نشرا[2] مشوشا في أسلوب الإنكار أيضا، فقال مشيرا إلى أن الضلال سبب العذاب، و الهدى سبب النعيم، و حذف هنا المنعم الذي سبب له النعيم لين قلبه كما حذف القاسي القلب في آية الشرح الذي سببت له قسوته العذاب، لتتقابل الآيتان، و تتعادل العبارتان: ﴿ افمن ﴾ و أفرد علی لفظ "من" لئلا يظن أن الوجوه[3] الأكابر فقال: ﴿يتقي﴾ و دل على أن يده التي جرت العادة بأنه يتقي بها المخاوف مغلولة بقوله: ﴿ بوجهه ﴾ الذي كان يقيه المخاوف و يحميه منها بجعله و هو أشرف أعضائه وقاية يقي به غيره من بدنه[4] ﴿ سوء العذاب ﴾ أي شدته و مكروهه لأنه تابع نفسه على هواها حتى قسى قلبه و فسد لبه ﴿يوم القيمة﴾ لأنه يرمى به في النار منكوسا و هو مكبل، لاشيء له من اعضائه مطلق يرد به عن وجهه، في عنقه صخرة من الكبريت مثل الجبل العظيم، و يسحب في النار على وجهه، كمن امن العذاب فهو يتلقى النعيم بقلبه و قالبه .

و لما كان مطلق التوبيخ و التقريع منكئا، بنى للمفعول قوله: ﴿و قيل﴾ له - هكذا كان الأصل، و لكنه أظهر الوصف تعميما و تعليقا للحكم به و جمع تنبيها على أن كثرتهم لم تغن عنهم شيئا فقال:

---

(١) زيد من ظ و مد (٢) من م و مد، و في الأصل و ظ : قسرا (٣) في مد : الوجود (٤) من ظ و م و مد، و في الأصل : المكاره .

﴿للظالمين﴾ أى الذين تركوا طريق الهدى و اتبعوا الهوى فضلوا و أضلوا : ﴿ذوقوا ما﴾ أى جزاء ما ﴿كنتم تكسبون﴾ [أى -[1]] تعدونه فائدة و ثمرة لأعمالكم و تصرفاتكم، و قيل لأهل النعيم : طيبوا نفسا و قروا عينا جزاء بما كنتم تعملون، فالآية من الاحتباك : ذكر الاستفهام أولا دليلا على حذف متعلقه ثانيا، و ما يقال للظالم ثانيا دليلا على ما يقال للعدل أولا .

و لما ذكر ما أعد لهم فى الآخرة، و كانوا فى مدة كفرهم كالحيوانات العجم لاينظرون إلا الجزئيات الحاضرة، خوفهم بما يعملونه[2] فى الدنيا، فقال على طريق الاستئناف فى جواب من يقول : فهل يعذبون فى الدنيا : ﴿كذب الذين﴾ و أشار إلى قرب زمان المعذبين من زمانهم بادخال الجار فقال : ﴿من قبلهم﴾ أى مثل سبأ و قوم تبع و أنظارهم : ﴿فأتىهم العذاب﴾ و كان[3] أمرهم علينا يسيرا، و أشار إلى أنه[4] لم يغنهم حذرهم بقوله : ﴿من حيث﴾ أى من جهة ﴿لايشعرون﴾ أنه يأتى منها عذاب، جعل اتيانه من مأمنهم ليكون ذلك أوجع للعذب، و أدل على القدرة، بأنه سواء عنده تعالى الإتيان بالعذاب من جهة يتوقع منها و من جهة لايتوقع أبدا ان يأتى منها شر ما، فضلا عما اخذوا به، بل لايتوقع منها[5] إلا الخير .

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من م، و فى الأصل و ظ و مد : يعلمونه .
(٣) زيد فى الأصل و ظ : من، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ : انهم (٥) من م و مد. و فى الأصل و ظ : منهم .

و لما بين سفههم و شدة حمقهم باستعجالهم بالعذاب استهزاء، سبب عنه تبكيت من لم يتعظ بحالهم فقال: ﴿ فاذاقهم الله ﴾ [أى - ١] الذى لا راد لأمره ﴿ الخزى ﴾ أى الذل الناشئ عن الفضيحة و العذاب الكبير بما أراده من إخزاء الرسل بتكذيبهم ﴿ فى الحيوة الدنيا ج ﴾ أى العاجلة الدنية . و لما كان انتظار الفرج مما يسلى، قال معلما أن عذابهم دائم علـــى سبيل الترقى إلى ما هو أشد، و أكده لإنكارهم إياه: ﴿ و لعذاب الأخرة ﴾ أى الذى انتقلوا إليه بالموت و يصيرون إليه بالبعث: ﴿ اكبر م ﴾ من العذاب الذى اهلكهم فى الدنيا، و أشدهم إخزاء، فالآية من الاحتباك: ذكر الخزى أولا دليلا على إرادته ثانيا، و الأكبر ثانيا دليلا على الكبير أولا، و سره تغليظ الأمر عليهم بالجمع بين الخزى و العذاب بما فعلوا برسله عليهم الصلاة و السلام بخلاف ما يأتى فى فصلت . فان سياقه للطعن فى الوحدانية، و هى لكثرة أدلتها و بعدها عن الشكوك وعظيم المتصف بها و عدم تأثيره بشيء[2] يكفى فى نكال الكافر به مطلق العذاب .

و لما كان من علم أن فعله يورث نكالا كف عنه و لايكفون و لايتعظون قال: ﴿ لو كانوا يعلمون ه ﴾ أى لو كان لهم علم ما لعلموا أنه أ دبر فاتعظوا و آمنوا . و لكنه لاعلم لهم أصلا، بل هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا، لأن الجزئيات لاتنفعهم كما تنفع سائر الحيوانات، فان الشاة ترى الذئب فتنفر منه إدراكا لان بينها و بينه عدوة بما خلق

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لشيء.

الله

الله فى طبعه من أكل أمثالها ، و هؤلاء يرون ما حل بأمثالهم من العذاب لتكذيبهم الرسل فلا يفرون منه إلى التصديق .

و لما ذكر سبحانه حال الأولين موعظة للعرب ، فكان[1] كأنه قيل صرفا للقول إلى مظهر العظمة تذكيرا بما فى الأناة معها [من المنة -[2]] لأن حالها يقتضى المعاجلة بالأخذ و المبادرة باحلال السطوة ، ضربنا لكم حالهم مثلا لحالكم لتعتبروا به ، فان الأمثال يفهم بها المعانى الغائبة ، و تصير كأنها محسوسة مشاهدة ، عطف عليه قوله مؤكدا لإنكارهم أن يكون فى القرآن بيان شاف و ادعائهم أنه إنما هو شعر و كهانة و سحر : ﴿و لقد ضربنا﴾ على ما لنا من العظمة . و لما كان فى سياق المفاضلة بين المتقى و غيره من أوائل السورة حين قال « امن هو قانت » إلى أن ختم [بقوله - [2]] " افمن يتقى بوجهه " و أسس ذلك كله على ابتداء الخلق من نفس واحدة ، كانت العناية فى هذا السياق بالمخاطبين أكثر ، فقدم قوله : ﴿ للناس ﴾ أى عامة لأن رسالة رسولكم عامة .

و لما كان المتعنت كثيرا ، عين المحدث عنه بالإشارة التى هى أعرف المعارف ، و جعلها ما يعبر به عن القرب ، إشارة إلى أنه لما أتى به الرسول صلى الله عليه و سلم خلع القلوب و ملأها ، فلا حاضر فيها سواه و إن كان المعاند يقول غير ذلك فقوله زور و بهتان و إثم و عدوان ، فقال : ﴿ فى هذا القرآن ﴾ اى الجامع لكل علم . و لما كانت كلماته سبحانه لاتنفد ، و عجائبه لا تعد و لا تحد ، و كان فى

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فكانه (٢) زيد من م و مد .

سياق التعجيب من توقفهم قال: ﴿ من كل مثل ﴾ أى يكفى ضربه فى البيان لإقامة الحجة البالغة ، ثم بين علة الضرب بقوله: ﴿لعلهم يتذكرون ﴾ أى ليكون حالهم بعد ضربه حال من يرجى تذكره بما ضرب له ما يعرفه فى الكون فى نفسه أو فى الآفاق[١] تذكرا واضحا مكشوفا ـ بما أرشد إليه الإظهار ، فيتعظ / لما فى تلك الأمثال المسوقة[٢] ٤٩٢ / فى أحسن المقال المنسوقة بما يلائمها[٣] من الأوضاع و الأشكال من البيان و أوضح البرهان .

و لما كان ذلك غاية فى الشرف ، دل على زيادة شرفه بحال مؤكدة دالة على شدة عنادهم ، تسمى موطئه لأن الحال فى الحقيقة ما بعدها بقوله: ﴿ قرانا ﴾ [أى ـ[٤]] حال كون ذلك المضروب[٥] جامعا[٦] لكل ما[٦] يحتاج إليه ، و يجوز أن يكون النصب على المدح ﴿ عربيا ﴾ جاريا على قوانين لسانهم فى جمعه باتساعه[٧] و وضوحه و احتمال اللفظ الواحد منه لمعان كثيرة ، فكيف إذا انضم إلى غيره فصار كلاما . و لما كان الشيء قد يكون مستقيما بالفعل و هو معوج[٨] بالقوة ، قال تعالى: ﴿ غير ذى عوج ﴾ اى ليس بمنسوب إلى شيء من العوج و لا من

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : الاوقات (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : المشوقة (٣) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : لا يلائمها .
(٤) زيد من ظ و م و مد (٥) من م و مد . و فى الأصل و ظ : المضرب .
(٦-٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لما (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : و اتساعه (٨) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : عوج .

شأنه العوج، فلا [يصح أن - ١] يكون معوجا أصلا فى شىء من نظمه و لا معناه باختلاف و لا غيره كما فى آية الكهف سواء، و فى الإتيان بعوج الذى هو مختص بالمعانى بيان أن الوصف له حقيقة، فهو أبلغ من غير معوج، لأنه يحتمل إرادة أهله على المجاز .

و لما كان التذكر بالتذكير لكونه أبلغ للوعظ حاملا، و لابد للعاقل على الخوف المسبب للنجاة قال: ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى ليكون حالهم بعد التذكير الناشئ عن التذكير حال من يرجى له أن يجعل بينه و بين غضب الله وقاية .

و لما أقام سبحانه الدليل المنير على التفاوت العظيم، بين من هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يدعو الله مخلصا له الدين و بين من يدعو لله أندادا، و ختم بضرب الأمثال، و كان الأمثال أبين فيما يراد من الأحوال، قال منبها على عظمتها بلفت القول عن مظهر العظمة إلى الاسم [الأعظم - ١] الجامع لجميع صفات الكمال: ﴿ ضرب الله ﴾ أى الملك الأعظم المتفرد بصفات الكمال ﴿ مثلا ﴾ لهذين الرجلين مع أنه لايشك ذو عقل أن المشرك لايدانى المخلص فضلا عن أن يقول: إن المشرك أعظم كما يقوله المشركون . و لما كان الذكر أقوى من الأنثى، و أعرف بمواقع النفع و الضر، و كان كونه بالغا أعظم لقوته و أشد لشكيمته، فيكون آنف للعار[٢] عن نفسه و أدفع للظلم عن جانبه و أذب عن حماه، قال مبينا للمثل مشيرا إلى تبكيت الكفار و رضاهم لأنفسهم [بما لايرضاه لنفسه - ١]

---

(١) زيد من م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المعار .

أدنى الأرقاء ﴿رجلا فيه﴾ أى خاصة . و لما كانت معبوداتهم - لكونها من جملة المخلوقات - كثيرة الأشباه[1] و النظائر، عبر عنها بجمع الكثرة فقال: ﴿ شركآء ﴾ فى الظاهر من الأصنام و فى الباطن من الحظوظ و الشهوات، و وصف الشركاء بقوله: ﴿ متشكسون ﴾ أى مختلفون عسرون يتجاذبون مع سوء الأخلاق و ضيقها و قباحة الشركة، فليس أحد منهم يرضى بالانصاف، فهو لا يقدر أن يرضيهم أصلا ﴿و رجلا سالما﴾ أى من نزاع ﴿ لرجل ﴾ فليس فيه لغيره شركة و لا علاقة أصلا ، فهو أجدر بأن يقدر على رضاه مع راحته من تجاذب الشركاء - هذا على قراءة المكى والبصرى[2]، و على قراءة الباقين بحذف الألف و فتح اللام هو وصف بالمصدر على المبالغة .

و لما انكشف الحال فيها جدا قال: ﴿هل يستوين﴾ أى الرجلان

٤٩٣ / يكون أحدهما مساويا للآخر بوجه من الوجوه/ و لو بغاية الجهد و العناية .
و لما كان الاستواء مبهما قال: ﴿ مثلا ﴾ أى من جهة المثل، أى هل يستوى مثلهما أى يجمعهما مثل واحد حتى أن يكونا هما متساويين فهو تمييز محول فى الأصل عن الفاعل، و الجواب فى هذا الاستفهام الإنكارى قطعا: لا سواء، بل مثل الرجل السالم فى غاية الحسن فكذا ممثوله و هو القانت المخلص، و مثل الرجل الذى وقع فيه التشاكس فى غاية القبح فكذا ممثوله و هو الداعى للأنداد .

---

(١) من ظ ومد . و فى الأصل وم: الاشتباه (٢) راجع نثر المرجان ٦/١٤٥ .

و لما علم بهذا المثل المضروب للرجلين سفول المشترك و هو الداعى للانداد، و علو السالم و هو القانت، ظهر بذلك بلا ريب حقارة المتشاركين و جلالة المتفرد و هو الله، فأنتج قطعا قوله: ﴿ الحمد ﴾ أى الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله[1] ج ﴾ الذى لامكافئ له، يعلم ذلك كل أحد لما له من الظهور لما عليه من الدلائل، فلا يصح أن يكون له شريك ﴿ بل اكثرهم ﴾ أى الناس ﴿ لايعلمون ه ﴾ لأنهم يعملون[2] بما لايليق بهذا العلم فيشركون به إما جليا و إما خفيا، و يجوز أن يقال: له الكمال كله، فليس الملتفتون[3] إلى غيره أدنى التفات علماء، بل لا علم لهم أصلا، و هم المشركون شركا [جليا -[4]]، و أما أصحاب الشرك الخفى فهم، و إن كان لهم علم - فليس بكامل.

و لما كان السالم مثلا له صلى الله عليه و سلم و لأتباعه، و الآخر للمخالفين، و كان سبحانه قد أثبت جهلهم، و كان الجاهل ذا حمية و إباء[5] لما يدعى إليه من الحق و عصبيته:

و الجاهلون لأهل العلم أعداء

فكان لذلك التفكر[6] فى أمرهم و مايؤدى [إليه -[4]] من التقاعد عن الاتباع و التصويب بالأذى و لاسيما و هم أكثر من أهل العلم مؤديا

---

(١) وقع فى الأصل و ظ بعد «الحمد» و الترتيب من م و مد (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: يعلمون (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: المتلفتون (٤) زيد من م و مد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: اباة.
(٦) زيد فى الأصل: فى اصلهم و، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها.

إلى الأسف و شديد القلق فكان موضع أن يقال : فما يعمل ؟ و كان لا ينبغى فى الحقيقة أن يقلق إلا من ظن دوام النكد ، قال تعالى مسليا و معزيا و موسيا فى سياق التأكيد[1] ، تنبيها على أن من قلق كان حاله مقتضيا لإنكار انقطاع التأكيد : ﴿ انك ﴾ فخصه صلى الله عليه و سلم لأن الخطاب إذا كان للرأس كان اصدع[2] لأتباعه ، فكل موضع كان للاتباع و خص فيه صلى الله عليه و سلم بالخطاب دونهم فهم المخاطبون فى الحقيقة على وجه أبلغ .

و لما لم يكن لممكن من نفسه إلا العدم قال : ﴿ ميت ﴾ أى الآن لأن هذه صفة لازمة بخلاف « مايت » [يعنى -[3]] : فكن كالميت بين يدى الغاسل فانك مستريح قريبا عما[4] تقاسى من أنكادهم[5] ، و راجع إلى ربك ليجازيك على[6] طاعتك له ﴿ و انهم ﴾ أى العباد كلهم أتباعك و غيرهم ﴿ ميتون ﴾ فمنقطع ما هم فيه من اللدد[7] و العيش و الرغد .

و لما كان الشفاء الكامل إنما يكون بأخذ الثار ، و إذلال الظالم ، قال مشيرا بأداة التراخى إلى مدة البرزخ مؤكدا لأجل إنكارهم البعث فضلا عن القصاص صادعا [لهم -[3]] بالخطاب بعد الغيبة : ﴿ ثم انكم ﴾ [أى[3]] أيها العباد كلكم ، فان كل أحد مسئول عن نفسه و عن غيره

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : التنكيد (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اصرح (٣) زيد من م و مد (٤) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : ما (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : انكارهم (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : عند (٧) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اللدود .

هل راعى[1] حق الله فيه ، او أنت و هم من باب تغليب[2] المخاطب و إن كان واحدا[3] لعظمته على[4] الغائبين ، و زاد فى إثبات المعنى بقوله : ﴿ يوم القيمة ﴾ فساقه مساق ما لا خلاف فيه ، و بين أن ذلك الحال مخالف لهذا الحال لانقطاع الأسباب بقوله ، صارفا القول إلى وصف التربية الذى يحق له الفضل على الطائع و العدل فى العاصى ﴿عند ربكم﴾ أى المربى لكم بالخلق و الرزق ، فلا / يجوز فى الحكمة أن يدعكم يبغى / ٤٩٤ بعضكم على بعض كما هو مشاهد من غير حساب كما أن أقلكم عقلا لا يرضى بذلك فى عبيده الذين ملكه الله إياهم ملكا ضعيفا ، أو ولاه عليهم ولاية مزلزلة ، فكيف بمن فوقه فكيف بالحكماء ﴿ تختصمون ﴾ أى تبالغون فى الخصومة ليأخذ بيد المظلوم و ينتقم له من الظالم ، و يجازى كلا بما عمل ، أما فى الشر فسوءا بسوء ، لا يظلم مثقال ذرة و لا ما دونه ، و اما فى الخير فالحسنة بعشرة[5] أمثالها - إلى ما فوق ذلك مما[6] لا يعلمه غيره ، فلا ينبغى أبدا لمظلوم ان يتوهم دوام نكده و عدم الأخذ بيده فيقتصر فى العمل و يجنح إلى شيء من الخوف و الوجل ، بل عليه أن يفرح بما يجزل ثوابه ، و يسر بما ييسر حسابه ، و يشتغل بما يخلص به نفسه فى يوم التلاق الذى الناس فيه فريقان ، و لا يشتغل بما لا يكون

---

(١) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : رعى (٢) من ظ و مد ، و فى الاصل و م : تغليب (٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : واحد (٤) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : عن (٥) فى ظ و م و مد : بعشر (٦) من ظ و مد ، و فى الأصل و م : بما .

من تصفية دار الكدر عن الأكدار، و قرارة الدنس عن [1]الأقذاء و[1] الأقذار. فإن الدوام فيها محال على حال من الأحوال، قال القشيري: نعاه صلى الله عليه و سلم إليه و نعى المسلمين إليهم ففرغوا بأنفسهم عن مأتمهم[2]، و لا تعزية في العادة بعد ثلاث، و من لم يتفرغ عن[3] مأتم نفسه و أنواع [4]غمومه و[4] همومه، فليس له من هذا الحديث شمة، و إذا فرغ [قلب -[5]] عن[6] حديث نفسه و عن الكون بجملته، فحينئذ يجد الخير من ربه. و ليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم، و انشد بعضهم -[4]يعني في لسان الحال عما قدمنا[4]:

كتبت إليكم بعد موتي بليلة   و لم أدر أني بعد موتي أكتب

انتهى. و من المعلوم [أنهم -[7]] إذا أماتوا نفوسهم حييت أرواحهم، فانفسحت صدورهم، و انتعشت قوى قلوبهم فاتسعت علومهم، و استنارت فهومهم، و تجلت لهم حقائق الأمور، فحدثوا عن مشاهدة "الناس نيام" فإذا ماتوا انتبهوا.

و لما أخبر سبحانه بأنهم جعلوا لله أندادا، و أعلم بأنهم كذبة في ذلك كافرون ساترون للحق. و أنه لا يهدي من هو كاذب كفار، و أخبر أنه لابد من خصام الداعي لهم بين يديه سبحانه. لأنه لا يجوز

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) في الاصل و ظ بياض، ملأناه من م و مد (٣) من مد، و في الأصل و ظ و م: من (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد، و في الأصل و ظ: من (٧) زيد من ظ و م و مد.

في

فى الحكمة تركهم هملا كما هو مقرر فى العقول و موجود فى الفطر الأولى، و معلوم بالمشاهدة من أحوالهم فينعم على المظلوم، و ينتقم من الظالم، و كان الكاذب فى أقل الأشياء ظالما، و أظلم منه الكاذب على الأكابر، و أظلم الظالمين الكاذب على الله، قال تعالى مسببا عما مضى: ﴿فمن اظلم﴾ أى منهم - هكذا كان الأصل ولكنه قال: ﴿ممن كذب﴾ تعميما و تعليقا بالوصف، فكفر بستر الصدق الثابت و إظهار ما لاحقيقة له.

و لما كان الكذب عظيم القباحة فى نفسه فكيف إذا كان [كما مضى على الأكابر فكيف إذا كانوا ملوكا، فكيف إذا كان -[1]] على ملك الملوك، لفت القول إلى مظهر الاسم الأعظم تنبيها على ذلك فقال: ﴿ على الله ﴾ أى الذى الكبرياء رداؤه و العظمة إزاره، فمن نازعه واحدة منهما قصمه. فزعم فى كذبه أن [2]له سبحانه[2] أندادا، و شركاء و أولادا.

و لما كان وقوع الحساب يوم القيامة حقا لكونه واقعا لامحالة وقوعا يطابق الخبر عنه، لما علم من أنه لايليق فى الحكمة غيره، لما علم من أن أقل الخلق لايرضى أن يترك عبيده سدى، فكيف بالخالق؟ فكان الخبر به صدقا لوقوع العلم القطعى بأنه يطابق ذلك الواقع قال: ﴿ و كذب ﴾ / اى أوقع التكذيب لكل من أخبره ﴿ بالصدق ﴾ / ٤٩٥
[أى -[1]] الإخبار بأن الله واحد، و أنه يبعث الخلائق للجزاء المطابق

(١) زيد من م و مد (٢-٢) من م و مد . و فى الأصل و ظ : قه .

كل منهما للواقع لما دل على ذلك من الدلائل المشاهدة[1] ﴿ إذ جآءه[2] ﴾ أي من غير توقف و لا نظر في دليل، كما هو دأب المعاندين، أولئك هم الكافرون لهم ما يضرهم من عذاب جهنم، ذلك جزاء المسيئين.

و لما كان قد تقرر كالشمس أنه لا يسوغ في عقل عاقل ترك الخلق سدى، فكان يوم الدين معلوما[3] قطعا، و كان معنى هذا الاستفهام الإنكاري نفي مدخوله فترجمته: ليس أحد أكذب منهم، و كان عرف اللغة في تسليط هذا النفي على صيغة أفعل [إثبات مدلول أفعل -[3]] ليكون المعنى أنهم أكذب الخلق، فكان التقدير: أليس هذا الكاذب المكذب عاقلا يخشى أن يحاسبه الله الذي خلقه؟ أليس الله المتصف بجميع صفات الكمال يحاسب عباده كما يحاسب كل من الخلائق من تحت يده؟ أليس يحبس الظالم منهم في دار انتقامه كما يفعل أدنى الحكام؟ أليس دار انتقامه جهنم التي تلقى داخلها بعبوسة و تجهم؟ نسق به قوله: ﴿ أليس في جهنم ﴾ أي النار التي تلقى داخلها بالتجهم و العبوسة كما [كان -[4]] يلقى الحق و أهله ﴿ مثوى ﴾ أي منزل مهيأ للإقامة فيه على وجه اللزوم لهم. هكذا كان الأصل، و لكنه قال تعميما و تعليلا بالوصف مبينا أن الكذب كفر أي ستر للصدق و إظهار لما لا حقيقة له. و التكذيب بالصدق كذلك ﴿ للكفرين ﴾ أي الذين ستروا كذبهم فالبسوه ملابس[5] الصدق و ستروا الصدق الذي كذبوا به،

(١) من م و مد، و في الأصل و ظ: المشاهدة (٢) من ظ و م و مد، و في الأصل: معلوم (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) زيد من م و مد (٥) من م و مد، و في الأصل و ظ: ما لابس.

ذلك جزاء المسيئين لأنهم ليسوا بمتقين، فأقام سبحانه هذه المقدمة دليلا على تلك المقدمات كلها.

و لما ذكر [سبحانه الظالمين بالكذب ذكر - [1]] أضدادهم الذين يخاصمونهم عند ربهم و هم المحسنون بالصدق [فقال - [1]] : ﴿ و الذى ﴾ أى الفريق الذى ﴿ جآء بالصدق ﴾ أى الخبر المطابق للواقع، فصدق على الله، و تعريفه يدل على كماله، فيشير إلى أن الإتيان بـه ديدنه لايتعمد[2] كذبا ﴿ و صدق به [3] ﴾ أى بكل صدق سمعه و قام عليه الدليل، و ليس هو بجموده عدو[4] ما لم يعلم، فهو يكذب بكل ما لم يسمع، فمن [5]أعدل منه[5] لكونه صدق على الله و صدق بالصدق إذ جاءه و استمر عليه، و لعله أفرد الضمير إشارة إلى قلة الموصوف بهذا الوصف من الصدق، و هذا الفريق هو[6] الرسل و أتباعهم، و لذلك حصر التقوى فيهم، فقال مشيرا بالجمع إلى عظمتهم و إن كانوا قليلا: ﴿ اولٓئك ﴾ أى العالو الرتبة ﴿ هم ﴾ أى خاصة[7] ﴿ المتقون ﴾ الذين جانبوا الظلم، فليس لجهنم عليهم سبيل، و لا لهم فيها منزل و لا مقيل، بل الجنة منزلهم، أليس فى الجنة منزل للمتقين؟ فالآية من الاحتباك: ذكر أولا المثوى فى

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) زيد فى الأصل: به، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٣) ليس فى الأصل فقط (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: عدوا (٥ - ٥) من مد، و فى الأصل و ظ و م: عدل عنه - كذا. (٦) من ظ و مد، و فى الأصل و م: هم (٧) زيد فى الأصل: هم، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.

جهنم دليلا على حذف ضده [ثانيا . و الاتقاء ثانيا دليلا على حذف ضده -[1]] أولا . و سره أنه ذكر [أنكأ -[1]] ما للجرم من الكفر و سوء الجزاء . و أسرّ ما للسلم من قصر التقوى عليه ، و ذكر أحب جزائه إليه . و الإشارة إلى عراقته فى الإحسان ، و فى الآيات احتباك [آخر -[1]] و هو أنه ذكر الكذب و التكذيب أولا دليلا على الصدق و التصديق ثانيا ، و الاتقاء و جزاءه و ما يتبعه ثانيا دليلا على ضده أولا ، و سره أنه ذكر فى شق المسيء انكأ ما يكون من الكذب و التكذيب فى اقبح مواضعه ، و لاسيما عنـــد العرب ، و أسر ما يكون فى شق المحسن من استقامة الطبع و حسن الجزاء .

و لما مدحهم على تقواهم . قال فى جواب / من سأل عن ثوابهم[2]. ٤٩٦ /
فقال [لافتا القول إلى صفة الإحسان تعريفا بمزيد إكرامهم -[3]] : ﴿ لهم ما يشآءون ﴾ أى يتجدد لهم إرادته متى أرادوه ﴿ عند ربهم ﴾ أى المحسن إليهم اللطيف بهم فى الدنيا و الآخرة لأنهم سلموا له فى الأولى ما يشاء ، فسلم لهم فى الأخرى ما يشاؤن . و لما كان هذا أعظم الجزاء ، مدحه على وجه بين علته و أوجب عمومه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أى الثواب الكبير ﴿ جزٰٓؤا المحسنين ﴾ ى كل من اتصف بالإحسان كما تصفوا به بالتقوى ، فأحبه الله سبحانه كما أحبهم ، فكان سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، و رجله التى

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الاصل : ثواب هؤلاء المطيعين و ما اعد لهم (٣) زيد من م و مد .

يمشي بها .

و لما كان العاقل من قدم فى كل أمر الأهم فالأهم فميز[1] بين خير الخيرين فأتبعه . و شر الشرين فاجتنبه . كان المحسن من جعل أكبر ذنوبه نصب عينيه[2] و عمل على هدمه . فلذلك علل الإحسان بقوله : ﴿ ليكفر ﴾ أى يستر سترا عظيما كأنه قال : المحسنين الذين أحسنوا لهذا الغرض ، و يجوز أن يكون التعليل للجزاء ، و[3]عبر بالاسم[3] الأعظم لفتا عن صفة الإحسان [إشارة -[4]] إلى عظيم الاجتهاد فى العمل [و -[5]] الإيذان بأنه لا يقدر على الغفران لمن يريد إلا مطلق التصرف فقال : ﴿ الله ﴾ أى الذى نصب المحسن جلاله و جماله بين عينيه ، فاستغرق فى صفاته ابتغاء مرضاته ، فعبده كأنه يراه ، و حقق الأمر باعترافهم بالخطأ[6] و قصدهم التكفير لما أهمهم فعلهم له بقوله : ﴿ عنهم اسوأ ﴾ العمل ﴿ الذى عملوا ﴾ و تابوا عنه بالندم و الإقلاع و العزم على عدم [العود -[5]] و قد علم أنه إذا محى الأكبر انمحى الأصغر لأن الحسنات يذهبن السيئات ، فلله در أهل البصائر [و الإخلاص -[5]] فى الإعلان [و السرائر -[5]] . و لما أخبر بالتطهير من [7]أوضار السيء[7] ، أتبعه [الإخبار -[4]] بالتنوير بأنوار الحسن فقال : ﴿ و يجزيهم اجرهم ﴾

---

(١) من م و مد . و فى الأصل و ظ . ميزه (٢) فى م و مد : عينه (٣-٣) من م و مد . و فى الأصل و ظ : عظم عن الاسم (٤) زيد من م و مد (٥) زيد من ظ و م و مد (٦) من م و مد . و فى الأصل و ظ . بالخطاب (٧ - ٧) من م و مد . و فى الأصل و ظ : أوصاف المسيء .

أى الذى تفضل عليهم بالوعد به .

و لما كان تعالى مفضلا يزيد العمل الصالح و يربيه، زاد الجار فى الجزاء إعلاما [١]بأنــــه يجعل[١] الأعمال الصالحة كلها مثل أعلاها فقال: ﴿ باحسن ﴾ . و لما كان مقصود هذه السورة أخص من مقصود سورة النحل، وكانت «الذى» [و -[٢]] «من» أقل إبهاما من «ما» قال: ﴿ الذى ﴾ أى العمل الذى، و هو كالأول من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه كخاتم فضة. و أشار إلى مداومتهم على الخير بالتعبير بالكون و المضارع فقال: ﴿ كانوا يعملون ﴾ يجددين له وقتا بعد وقت لأنه[٣] فى طبائعهم. فهم عريقون فى تعاطيه، فمن كان فى هذه الدار محسنا فى وقت ما يعبد الله كانه يراه فهو فى الآخرة كل حين يراه، قال القشيرى، ثم يجب أن يكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب، و أحسن الثواب الرؤية، فيجب ان يكون على الدوام. و هذا استدلال قوى .

و لما فهم من قوله "وكذب بالصدق اذ جاءه" أن المشركين يكذبونه. و كان من طبع الآدمى الاهتمام بمثل ذلك و لاسيما إذا كان المكذب كثيرا و قويا، و تقرر أنه سبحانه الحكم العدل بين المتخاصمين و غيرهم فى الدنيا و الآخرة. و لزم كل سامع الإقرار بالآخرة، و بشر المحسنين و حذر المسيئين . و كان من المعلوم أنهم يحذرونه آلهتهم كما يحذرهم إلهه، حسن[٤] كل الحسن قوله مقرا للكفاية غاية الإقرار، و منكرا

(١-١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بجعل (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) من مد، و فى الأصل و ظ و م: كأنه (٤) فى ظ: احسن.

لنفيها كل الإنكار: ﴿ اليس الله ﴾ أى الجامع لصفات العظمة كلها المنعوت بنعوت الكمال من الجلال [و الجمال -[1]] ، و أكد المراد بزيادة الجار لما عندهم من الجزم بأنهم غالبون فقال: ﴿ بكاف ﴾ و حقق المناط بالإضافة فى قوله: ﴿ عبده ﴾ أى الخالص له الذى لم يشرك به أصلا كما تقدم فى المثل ممن كذبه و قصد مساءته . فينصره عليهم حتى يظهر دينه و يعلى امره و يغنيه عن أن يحتاج إلى غيره او يجنح إلى سواه ، باعتقاد أن فى يده شيئا يستقل به ، و هذا لاينافى السعى فى الأسباب مع اعتقاد أنها بيد الله ، فان شاء ربط بها المسببات ، و إن شاء اعقمها[2] ، بل السعى أكمل[3] ، لأن ترتيب الأسباب بوضع الحكيم فالسعى فى طرحها ينافى وضع الحكمة ، و قرأ حمزة و الكسائى و أبو جعفر[4] : عباده - بالجمع بمعنى الرسول و أتباعه .

و لما كان الجواب قطعا: بلى ، إنه ليكفى من يشاء ، و الأصنام الممثلون بالشركاء المتشاكسين لا يكفون من تولاهم ، بنى على ذلك حالا[5] عجيبا من أحوالهم ، فقال معجبا منهم و متهكما بهم: ﴿ و يخوفونك ﴾ أى عباد الأصنام يعلمون أن الله يكفى من أراد و[6] أن الأصنام لا كفاية عندها بوجه و الحال أنهم يخوفونك . و لما كان الخوف ممن له اختيار ، فان كان عاقلا كان أقوى لمخالفته ، وكان من المعلوم بديهة أنه لا اختيار لهم

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اعمقها .
(٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بالاكمل (٤) راجع نثر المرجان ٦/١٥١ .
(٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كالا (٦) سقط من ظ .

فضلا عن العقل ، قال تهكما بهم بالتعبير بما يعبر به عن الذكور [العقلاء -[1]] لكونهم ينزلونهم بالعبادة و غيرها منزلة العقلاء مع اعترافهم بأنهم لا عقل لهم ، فصاروا بذلك ضحكة و شهرة بين الناس : ﴿ بالذين ﴾ و بين حقارتهم بقوله : ﴿من دونه ط﴾ و هم معبوداتهم ضلالا عن المحجة فيقولون : إنا نخشى عليك أن يخبلك آلهتنا كما قالت عاد لهود عليه السلام " ان نقول الا اعترىك بعض آلهتنا بسوء " و سيأتى التعبير عنهم بالتأنيث زيادة فى توبيخهم .

و لما كان من الحق الواضح كالشمس أن ما قالوه لايقوله عاقل ، و كان التقدير : فقد أضلهم الله إهانة لهم و هداك إكراما لك ، بين أنه سبحانه قسرهم على ذلك ليكون إضلاله لهم آية كما ان هداه لمن هداه آية . فقال مخففا[2] عنه صلى الله عليه و سلم فى إذهاب نفسه عليهم حسرات دامغا لقدرية : ﴿ و من يضلل الله ﴾ أى الذى له الأمر كله فلا يرد[3] أمره ﴿ فما له ﴾ لأجل أنه [هو -[4]] الذى أضله ﴿من هاد ج﴾ أى يخفض من حزنك عليهم ﴿ و من يهد الله ﴾ أى الذى لايعجزه شىء أبدا[5] ﴿ فما له من مضل ط﴾ فهو سبحانه يهدى من شاء[6] منهم إن أراد .

و لما لم تبق شبهة و لا شىء من شك أن الهادى المضل إنما هو الله وحده و أنه جعل شيئا واحدا سببا لضلال قوم ليكون ضلالهم

(1) زيد من ظ و م و مد (2) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : محققا .
(3) من ظ و م و مد . و فى الأصل : فلا يراد (4) زيد من م و مد .
(5) سقط من ظ و م و مد (6) من ظ و م و مد . و فى الأصل : يشاء .

فى

فى الظاهر علة للنقمة، و هدى لآخرين فيكون هداهم سببا للنعمة، بلغ النهاية فى الحسن [قوله ـ ١] : ﴿ أليس الله ﴾ أى الذى بيده كل شىء ﴿ بعزيز ﴾ أى غالب لما يريد فى إضلاله قوما يدعون أنهم النهاية فى كمال العقول لما هدى به غيرهم ﴿ ذى انتقام ﴾ أى له هذا الوصف، فمن أراد النقمة منه سلط عليه ما[٢] يريد مما يحزنه و يذله كما [أنه ـ ١] إذا أراد يعميه عن أنور[٣] النور و يضله.

و لما علم بهذه البراهين أنه سبحانه المتصرف فى المعانى بتصرفه فى القلوب بالهداية و الإضلال، و كان التقدير : فلئن قررتهم بهذا الاستفهام الإنكارى ليقولن : بلى ! عطف عليه بيان أنه الخالق للذات كما أنه المالك للمعانى و الصفات، فقال مفسدا لدينهم باعترافهم بأصلين : القدرة التامة [له ـ ١] و العجز الكامل لمعبوداتهم : ﴿ و لئن سألتهم ﴾ أى فقلت لمن شئت منهم فرادى أو مجتمعين : ﴿ من خلق السموات ﴾ أى على ما لها من الاتساع و العظمة و الارتفاع ﴿ و الارض ﴾ على ما لها من العجائب و فيها من الانتفاع ﴿ ليقولن ﴾ بعد تخويفهم لك [بشركائهم الذين هم من جملة خلق من أرسلك بما انت فيه : الذى خلقها ﴿ الله ﴾ أى وحده الذى لاسمى له و لا إلباس بوجه فى أمره، ولايصدهم عن ذلك الحياء / ٤٩٨ من التناقض و [لا ـ ٤] الخوف من التهافت بالتعارض[٥]

---

(١) زيد من م و مد. (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ : مما. (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ : أنوار. (٤) زيد من ظ و م و مد. (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ : التناقض.

و لما كان هذا مخبرا[1] لأنه بين و لابد أنهم لا يقبلون و لا يعرضون، كان كأنه قيل: فما ذا أصنع؟ فقال: ﴿قل﴾ مسببا عن اعترافهم له سبحانه بجميع الأمر قوله مقررا بالفرع بعد إقرارهم بالأصل، و مقرعا بتخويفهم ممن ليس له أمر بعقد و لا حل: ﴿افرءيتم﴾.

و لما كان السائل النصوح ينبغي [له[2] -] أن ينبه الخصم على محل النكتة[3] لينتبه من غفلته فيرجع عن غلطته، عبر بأداة ما لا يعقل عن معبوداتهم بعد التعبير عنها سابقا بأداة الذكور العقلاء بيانا لغلطهم، فقال معبرا عن مفعول "رايت" الأول و الثاني جملة الاستفهام، ﴿ما تدعون﴾ اى دعاء عبادة، [و -[4]] قرر بعدهم عن التخويف بهم بادعاء إلهيتهم بقوله: ﴿من دون الله﴾ أي الذي هو ذو الجلال و الإكرام فلا شيء إلا و هو من دونه و تحت قهره، [و لما كانت العافية اكثر من البلوى، أشار إليها بأداة الشك و نبه على مزيد عظمته سبحانه باعاده الاسم الأعظم فقال -[5]]: ﴿ان ارادنى الله﴾ اى الذى لا راد لأمره. ولما كان درأ المفاسد مقدما قال: ﴿بضر﴾ أي إن أطعتكم[6] في الجنوح إليها خوفا منها. و بالغ في تنبيههم نصحا[7] لهم ليرجعوا عن ظاهر غيهم بما ذكر من دناءتها و سفولها بالتأنيث بعد سفولها بعدم العقل مع دناءتها بالعجز و بعد التهكم بهم بالتعبير عنها بأداة الذكور العقلاء فقال:

---

(١) من م و مد، و في الأصل و ظ: مخبرا (٢) زيد من ظ و م و مد. (٣) من ظ و م و مد، و في الأصل: النكتة (٤) زيد من م و مد (٥) زيد من مد (٦) من ظ و م و مد، و في الأصل: الهتكم (٧) من ظ و م و مد، و في الأصل: نصا.

﴿ هل هن ﴾ أى هذه الأوثان التى تعبدونها ﴿ كٰشفٰت ﴾ أى عنى مع اعترافكم بأنه لاخلق لها و أنها مخلوقة لله تعالى ﴿ ضره ﴾ أى الذى أصابنى به نوعا من الكشف، لأرجوها[1] فى وقت شدتى[2] ﴿ او ارادنى برحمة ﴾ لطاعتى إياه فى توحيده[3]. و خلع ما سواه من عبيده ﴿ هل هن ممسكٰت ﴾ أى عنى ﴿ رحمته ﴾ أى لأجل عصيانى لهن نوع إمساك، لأطيعكم فى الخوف منهن - هذه قراءة أبى عمرو[4] بالتنوين و إعمال اسم الفاعل بنصب ما بعده، و هو الأصل فى اسم الفاعل، و الباقون بالإضافة. و "لا فائدة" غير التخفيف، و قد يتخيل منها أن الأوثان مختصة بهذا المعنى معروفة.

و لما كان من المعلوم أنهم يسكتون عند هذا السؤال لما يعلمون من لزوم التناقض إن أجابوا بالباطل، و من بطلان دينهم إن أجابوا بالحق، وكان الجواب قطعا عن هذا: لا ! سواء نطقوا أو سكتوا، تحرر أنه لامتصرف بوجه إلا الله، فكانت النتيجة قوله: ﴿ قل ﴾ إذا ألقمتهم الحجر: ﴿ حسبى ﴾ أى كافى ﴿ الله ﴾ الذى أفردته بالعبادة لأن له الأمر كله مما يخوفونى به و من غيره ﴿ عليه ﴾ وحده لأن له الكمال كله ﴿ يتوكل المتوكلون ﴾ أى الذين يريدون أن يعلو أمرهم كل أمر، و أمره بالقول إعلاما بأن حالهم عند هذا السؤال التناقض

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: لارجوتا (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: صرتى (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: توحيد (٤) راجع نثر المرجان ٦ / ١٠٤ (٥ - ٥) من مد، و فى الأصل و ظ: لا افادة، و فى م: لافادة.

لظاهر جدا .

و لما كانوا مع هذه الحجج القاطعة ، و الأدلة القامعة و البراهين
الساطعة ، التي لا دافع لها بوجه ، كالبهائم لا يبصرون إلا الجزئيات حال
وقوعها ، قال مهددا مع الاستعطاف : ﴿ قل يٰقوم ﴾ أى [يا - ١]
أقاربي الذين أرتجيهم ٢ عند الملمات ، و فيهم كفاية في القيام بما ٣
يحاولونه ﴿ اعملوا ﴾ أى افعلوا أفعالا مبنية على العلم ﴿ على مكانتكم ﴾
أى حالتكم التى ترتبتم فيها و جمدتم عليها لأنه جبلة ٤ لكم من الكون
المكنة لتبصروا حقائق الأمور ، فتنتقلوا عن أحوالكم السافلة إلى المنازل
٤٩٩ / العالية . فكأنه يشير / إلى أنهم كالحيوانات العجم ، لا اختيار لهم و يعرّض
بالعمل الذي مبناه العلم و المكانة التى محطها الجمود بأن أفعالهم ليس
فيها ما ينبني على العلم ، و إنما هي جزاف لا اعتبار لها و لا وزن لها .
ثم اجاب من عساه أن يقول له منهم : فما ذا تعمل أنت ؟ بقوله :
﴿ انى عامل ج ﴾ على كفاية الله لى ، ليس لى نظر إلى سواه ، و لا أخشى
غيره ، و ليس لى مكانة ألتزم الجمود عليها ، بل انا واقف مع ما يرد
من عند الله ، إن نقلني انتقلت ، و إن أمرني بغير ذلك امتثلت ، و أنا
مرتقب كل وقت [للزيادة ، ثم سبب عن قول من لعله يقول منهم :
و ما ذا عساه يكون قوله ؟ إيذانا بأنه - ٥] على ثقة من أمره ، لأن المخبر
له [به - ١] الله : ﴿ فسوف تعلمون لا ﴾ أى بوعد لا خلف فيه

(١) زيد من م و مد (٢) في ظ و م و مد : ارجيهم (٣) في ظ و م : مما .
(٤) من ظ و م و مد . و في الأصل : حبلا (٥) زيد من ظ و م و مد .

من

﴿ من ياتيه ﴾ أى منا و منكم ﴿ عذاب يخزيه ﴾ بأن يزيل عنه كل شيء يمكنه أن يستعذبه ﴿ و يحل عليه ﴾ اى يجب فى وقته، من حل عليه الحق يحل بالكسر أى وجب، و الدين: صار حالا بحضور أجله ﴿ عذاب مقيم ﴾ لإقامته على حاله و جموده على ضلالته، و من يؤتيه الله انتصارا يعليه و ينقله إلى نعيم عظيم، لانتقاله بارتقائه فى مدارج الكمال، بأوامر ذى الجلال و الجمال، و لقد علموا ذلك فى قصة المستهزئين ثم فى وقعة بدر فان من أهلكه الله منهم جعل[1] إهلاكه أول عذابه و نقله به إلى عذاب البرزخ ثم عذاب النار، فلا انفكاك له من العذاب، و لا رجاء لحسن المآب.

و لما تجلت عرائس هذه المعانى آخذة بالألباب، و لمعت سيوف تلك المبانى من[2] المثانى قاطعة للرقاب، و ختمها بما ختم من صادع[3] الإرهاب، أنتجت و لابد قوله معللا لإتيان ما توعدهم به مؤكدا لما لهم من الإنكار لمضمون هذا الإخبار: ﴿ انآ انزلنا ﴾ أى بما لنا من باهر العظمة و نافذ الكلمة. و لما كان توسط الملك خفيا، لم يعده فأسقط حرف الغاية إفهاما لأنه فى الحقيقة بلا واسطة بعد ان أثبت وساطته أول السورة [فقال -[4]] مقرونا بالأمر بالعبادة، إشارة إلى بداية الحال. فلما حصل التمكن فصار الكتاب خلقا له صلى الله عليه و سلم و صار ظهوره فيه هاديا لغيره، نبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عليك﴾ اى خاصة

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: جعله (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عن (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: صارع (٤) زيد من م و مد.

لا على غيرك من أهل هذا الزمان، لأنك عندنا الخالص لنا دون أهل القريتين و دون أهل الأرض كلهم، لم يكن [لشيء - ١] دوننا فيك حظ ﴿ الكتب ﴾ الجامع لكل خير لكونه فى غاية الكمال بما دل عليه «ال» ﴿ للناس ﴾ ٢عامة لأن رسالتك عامة ﴿ بالحق ج ﴾ مصاحبا له، لا يقدر الخلق كلهم على أن يزيحوا معنى من معانيه عن قصده، و لا لفظا من ألفاظه عن سبيله و حده. بل هو معجز فى معانيه - حاضرة كانت أو غائبة - و نظومه، و ألفاظه و أسماء سوره و آياته و جميع رسومه، فلابد من إتيان ما فيه من وعد و وعيد.

و لما تسبب عن علم ذلك وجوب المبادرة إلى الإذعان له لفوز الدارين، حسن جدا قوله تعالى تسلية له صلى الله عليه و سلم لعظيم ما له من الشفقة عليهم و تهديدا لهم: ﴿ فمن اهتدى ﴾ أى طاوع الهادي ﴿ فلنفسه ج ﴾ أى فاهتداؤه خاص نفعه بها ليس لك فيه إلا أجر التسبب ﴿ و من ضل ﴾ أى وقع منه ضلال بمخالفته٣ لداعى الفطرة ثم داعى الرسالة عن علم و تعمد، أو إهمال للنظر و تهاون. و لما كان ربما وقع فى وهم أنه يلحق الداعى بعد البيان من إثم الضال، و كان السياق لتهديد الضالين، زاد فى التأكيد فقال: ﴿ فانما يضل عليها ج ﴾ أى ليس عليك شيء من ضلاله، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

و لما هدى السياق إلى أن التقدير: فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم

(١) زيد من م و مد (٢) زيد فى الأصل و ظ: أى، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بمخالفة.

على الهدى ، عطف عليه قوله : ﴿ و مآ انت ﴾ أى فى هذا الحال ، و لمزيد العناية / بنفى القهر قدم أداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم بوكيل ع ﴾ لتحفظهم /٥٥٠
عن الضلال ، فان الرسالة إليهم لإقامة الحجة لا لقدرة الرسول على هدايتهم و لا لعجز المرسل عن ذلك .

و لما كان الوكيل فى الشىء لا تصلح وكالته فيه إلا إن كان قادرا عليه بطريق من الطرق ، و كان حفظهم على الهدى و عن الضلال لا يكون إلا الحاضر لايغيب و لايعتريه نوم و لايطرقه موت ، لم تصح وكالة أحد من الخلق فيه ، و كان كأنه قيل : لأنه[1] لو وكل إليك أمرهم لضاعوا عند نومك و موتك ، فدل عليه بما أدى معناه و زاد عليه من الفوائد ما يعرف بالتأمل من تشبيه الهداية بالحياة و اليقظة و الضلال بالموت و النوم ، فكما أنه لايقدر على الإماتة و الإنامة إلا الله فكذلك لايقدر على الهداية و الإضلال إلا الله ، فمن عرف هذه الدقيقة عرف سر الله فى القدرة ، و من عرف السر فيه هانت عليه المصائب ، فهى تسلية له صلى الله عليه و سلم ، [2]لفت القول إلى التعبير بالاسم الأعظم لاقتضاء الحال له ، و أسند التوفى إليه سبحانه لأنه فى بيان أنه لايصلح للوكالة غيره أصلا[2] ، فقال : ﴿ الله ﴾ أى الذى له مجامع الكمال ، وليس لشائبة نقص إليه سبيل ﴿ يتوفى الانفس ﴾ التى ماتت عند انقضاء

---

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لأن (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من م .

آجالها، أى يفعل فى وفاتها فعل من يجتهد فى ذلك بأن يقبضها وافية لايدع شيئا منها فى شيء من الجسد. [١]و عبر عن جمع الكثرة بجمع القلة إشارة إلى أنها و إن تجاوزت الحصر فهى كنفس واحدة، و لعله لم يوحده لئلا يظن أن الوحدة على حقيقتها[١] ﴿حين موتها﴾ أى منعها من التصرف فى أجسادها فى هذه الحياة الدنيا كائنة فى مماتها محبوسة فيه مظروفة له. و عطف على الأنفس قوله: ﴿و التى﴾ أى و يتوفى الأنفس التى ﴿لم تمت﴾ لأنها لم تنقض آجالها حين نومها كائنة ﴿فى منامها ج﴾ بمنعها من التصرف بالحس و الإدراك [ما دام النوم موجودا مظروفة له لا شيء منها فى الجسد على حال اليقظة، فالجامع بينهما عدم الإدراك -[٢]] و الشعور و التصرف، و لو قيل: بموتها و بمنامها، لم يفد أن كلا من الموت و الوفاة آية مغايرة للأخرى.

و لما كان النوم منقضيا، دلنا بقرانه بالموت على أن الموت أيضا منقض، و لابد لأن الفاعل لكل منهما واحد، فسبب عن ذلك قوله: ﴿فيمسك﴾ أى فيتسبب عن الوفاتين أنه يمسك عنده ﴿التى قضى﴾ أى ختم و حكم و بت بتا مقدرا مفروغا منه. و قراءة البناء للمفعول[٣] موضحة لهذا المعنى بزيادة اليسر و السهولة ﴿عليها الموت﴾ مظروفة لمماتها، لاتقدر على تصريف جسدها ما دام الموت محيطا بها كما أن النائمة كذلك ما دام النوم محيطا بها ﴿و يرسل الاخرى﴾ اى التى أخر موتها، و جعلها مظروفة للمنام لأنها لم ينقض أجلها الذى

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من م و مد (٣) راجع نثر المرجان ٦/١٥٧.

ضربه

ضربه لها بأن يفنى المنام فيوقظها لتصريف أبدانها ، و يجعل ذلك الإمساك للميتة ، و الإرسال للنائمة ﴿إلى[1] أجل مسمى﴾ لبعث[1] الميتة[2] و لموت[3] النائمة ، لا يعلمه غيره ، فاذا جاء ذلك الأجل أمات النائمة و بعث الميتة . و قد ظهر من التقدير الذى هدى إليه قطعا السياق أن النفس التى تنام هى التى تموت و هى الروح ، قال ابن الصلاح فى فتاويه : و هو الأشبه بظاهر الكتاب و السنة - انتهى . و روى الطبرانى فى الأوسط - قال الهيثمى[4]: و رجاله رجال الصحيح - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تلتقى[5] أرواح الأحياء و الأموات ، فيتساءلون بينهم ، فيمسك الله أرواح الموتى و يرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها . و روى البخارى[6] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى / صلى الله عليه و سلم قال : إذا أوى أحدكم إلى ٥٠١ /
فراشه فليقل " باسمك ربى وضعت جنبى اللهم إن أمسكت نفسى فارحمها و إن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " و ظهر أيضا أن الآية من الاحتباك : ذكر الحين أولا دليلا على تقدير مثله فى النوم ثانيا ، و المنام ثانيا دليلا على حذف الممات أولا .

و لما تم هذا على هذا الأسلوب الرفيع ، و النظم المنيع ، به على عظمته و ما فيه من الأسرار بقوله مؤكدا قرعا لمن يرميه بالأساطير و غيرها من الأباطيل : ﴿إن فى ذلك﴾ أى الأمر العظيم من الوفاة

(١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كبعث (٢) فى مد : الموتى (٣) من ظ و م و مد . و فى الأصل : موت (٤) فى مجمع الزوائد ٧ / ١٠٠ (٥) من مد و مجمع الزوائد ، و فى الأصل و ظ و م : تتلقى (٦) راجع صحيحه ٢/٩٣٥ (الدعوات) .

و النوم على هذه الكيفية و العبارة عنه على هذا الوجه ﴿ لأيت ﴾ أى على أنه لايقدر على الإحياء و الحفظ غيره، و أنه قادر على البعث و غيره من كل ما يريده ﴿لقوم﴾ أى ذوى قوة فى مزاولة الأمور. و لما كان هذا الأمر لايحتاج إلى غير تجريد النفس من الشواغل و التدبر قال: ﴿يتفكرون ه﴾ أى فى عظمة هذا التدبير ليعلم[1] به عظمة الله، و ذلك أن النفس جوهر روحانى له فى التعلق بالبدن ثلاث حالات: إحداها أن يقع ضوء النفس على البدن كله ظاهرا و باطنا، و ذلك هو الحياة مع اليقظة، و ثانيتها انقطاع ضوء النفس عن البدن ظاهرا لا باطنا، و ذلك[2] بالنوم، و ثالثها انقطاع ذلك ظاهرا و باطنا و هو بالموت، [3]فالموت و النوم[3] من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام، و النوم انقطاع ناقص، فلا يقدر على إيجاد شيء واحد على نوعين، ثم يجعلهما فى شيء واحد على التعاقب و يفصل كلا منهما من الآخر إلا هو سبحانه، و كما قدر على إنهاء الموتة الصغرى بحد جعله لها فهو قادر على إنهاء الكبرى بمثل ذلك.

و لما انتج هذا ، لابد نحو أن يقال توعدا لهم: هل علموا أنه لايقوم شيء مقامه، و لا [يكون ـ[4]] شيء إلا باذنه، و لايقرب أحد من القدرة على شيء من فعله، فكيف بالقرب[5] من رتبته فضلا عن

(١) فى م و مد : لتعلم (٢) زيد فى مد : هو (٣ - ٣) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فالنوم و الموت (٤) زيد من م و مد (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : بالعرب .

مماثلته، فرجعوا عن ضلالهم، عادله بقوله: ﴿ ام اتخذوا ﴾ أى كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلائل عندهم ان أخذوا ﴿من دون الله﴾ اى[1] الذى لا مكافئ له و لامدانى ﴿شفعآء﴾ أى تقربهم إليه زلفى فى الدنيا و فى الآخرة على تقدير كونها مع قيام الأدلة الشهودية عندهم على أنه[2] لايشفع أحد إلا عند من يصح أن يكافئه بوجه من الوجوه، و لذلك نبـه على المعنى بقوله معرضا عنهم إشارة إلى سفولهم عن الفهم: ﴿قل اولو﴾ أى أيتخذونهم لذلك [و لو -[3]] ﴿كانوا لايملكون شيئا﴾ أى لا تتجدد لهم هذه الصفة ﴿ و لايعقلون ه ﴾ كما يشاهد من حال أصنامكم.

و لما نفى صلاحية أصنامهم لهذا الأمر، أشار إلى نفيه عما سواه بقصر الأمر عليه فقال: ﴿ قل لله ﴾ أى المحتوى على صفات الكمال وحده ﴿الشفاعة﴾ أى هذا الجنس ﴿جميعا﴾ فلا يملك أحد [4]سواه منها[4] شيئا لكنه يأذن إن شاء فيما يريد منها لمن يشاء من عباده. و لما كان كل ما سواه ملكا له. و كان من المقرر أن المملوك لايصح أن يملك شيئا يملكه سيده، لأن الملكين لايتواردان على شيء واحد من جهة واحدة، علل [ذلك -[3]] بقوله: ﴿ له ﴾ أى وحـــده ﴿ ملك السموت و الارض﴾ أى التى لا تشاهدون من ملكه سواهما و الشفاعة من ملكهما.

---

(١) سقط من م و مد (٢) من ظ و مد، و فى الأصل و م: انهم (٣) زيد من ظ و م و مد (٤ - ٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: منها سواه.

و لما كان المملوك ملكا ضعيفا قد يتغلب على مالكه فيناظره فيتأهل للشفاعة عنده، نفى مثل ذلك فى حقه سبحانه بقوله دالا على عظمة القهر ٥٠٢ / بأداة التراخي فقال: ﴿ ثم اليه ﴾ أى لا إلى غيره / ﴿ ترجعون ﴾ معنى فى الدنيا بأن ينفذ فيكم جميع أمره و حسا ظاهرا و معنى فى الآخرة .

و لما دل على أن شفعاءهم ليست بأهل للشفاعة ، و على أن الأمر كله مقصور عليه ، و ختم بأنه لابد من الرجوع إليه المقتضى لأن تصرف الهمم كلها نحوه ، و توجه العزائم جميعها[1] تلقاءه ، و لأنه لا يخشى سواه و لا يرجى غيره ، ذكر حالا من أحوالهم فقال: ﴿ و اذا ﴾ أى[2] الحال ما ذكرناه و إذا ﴿ ذكر ﴾ [3]و أعاد الاسم الأعظم و لم يضمره تعظيما لأمره زيادة فى تقبيح حالهم فقال[3]: ﴿ الله ﴾ اى الذى لا عظيم غيره و لا أمر لسواه ﴿ وحده ﴾ أى دون شفعائهم التى قد وضح أنه[4] لا شفاعة لهم: ﴿ اشمأزت ﴾ أى نفرت كراهية و ذعرا و استكبارا مع تمعر[5] الوجه و تقبضه قلوبهم - هكذا كان الأصل ، و لكنه قال: ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون ﴾ أى لا يجددون[6] إيمانا ﴿ بالآخرة ج ﴾ بيانا لأن الحامل لهم على ذلك إضاعة اعتقاد ما ختم به الآية من الرجوع

(١) زيد فى الأصل: إليه أى ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٢) زيدت الواو فى الأصل وظ و لم تكن فى م ومد فحذفناها (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : انهم (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : تمحر (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : لا يتجددون .

إليه الذى أتمه و أظهره رجوع الآخرة ﴿ و اذا ذكر الذين ﴾ و بكت بهم فى رضاهم بالأدنى فقال: ﴿ من دونه ﴾ أى الأوثان، و أكد فرط جهلهم فى اتباعهم[1] الباطل و جمودهم عليه دون تلبث لنظر فى دليل، أو سماع لقال أو قيل، بقوله: ﴿ اذا هم ﴾ أى بضمائرهم [المفيضة - [2]] على ظواهرهم ﴿ يستبشرون ﴾ أى فاجأوا طلب البشر و إيقاعه[3] و تجديده على سبيل الثبات فى ذلك كله[3] سواء ذكر معهم الله أو لا، فالاستبشار حينئذ إنما هو بالانداد[4]، و الاشمئزاز و الاستبشار متقابلان لأن الاشمئزاز: امتلاء القلب غما و غيظا فيظهر أثره، و هو الانقباض فى أديم الوجه، و الاستبشار: امتلاء القلب سرورا حتى يظهر أثره، و هو الانبساط و التهلل فى الوجه - قاله[5] الزمخشرى[3]. و العامل فى «إذا» الأولى هو العامل فى الفجائية، أى فاجأوا الاستبشار وقت هذا الذكر، و عبر بالفعل أولا و بالاسمية ثانيا، ليفيد ذمهم على مطلق الاشمئزاز و لو كان على أدنى الأحوال، و على ثبات الاستبشار تقبيحا لمطلق الكفر، ثم الثبات عليه فتحا لباب التوبة[3].

و لما نفى صلاحية الوكالة على الناس فى الهدى و الضلال لغيره [ء - [2]] دل على ذلك بملكه و ملكه و أخبر بتعمدهم الباطل، أنتج ذلك وجوب اللجاء إليه[6] و الإعراض عما سواه و قصر العزم عليه[6] فقال

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: اتباع (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بالانذار (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قال (٦) زيد من م و مد.

معلما بذلك و معلما لما يقال عند مخالفة الداعى باتباع الهوى : ﴿ قل ﴾ أى يا من نزل عليه الكتاب فلا يفهم عنا حق الفهم غيره راغبا إلى ربك فى أن ينصرك عليهم فى الدنيا و الآخرة : ﴿ اللهم ﴾ أى يا الله، و هذا نداء محض و يستعمل أيضا على نحوين آخرين ـ ذكرهما ابن الخشاب الموصلى فى كتابه النهاية شرح الكفاية ـ أحدهما أن تذكر لتمكين الجواب فى نفس السائل كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لضمام بن ثعلبة رضى الله عنه حيث قال : الله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس، فقال : اللهم نعم - إلى آخر ما قال له، و سره أن المسئول إذا ذكر الله فى جوابه كان ذكره إياه[1] أبعث للسائل على[2] تصديقه لأنه أوقر فى صدره إن لم يتصد لذكر الله و لم يكن بصدده ، و هو ممن يدين باستعمال الكذب، و الثانى أن[3] يدل به على الندرة[4] و قلة وقوع المذكور كقول المصنفين : لا يكون كذا [اللهم ـ[5]] إلا إذا[6] كان كذا ـ كأنه استغفر الله من جزمه أو [لا ـ[7]] يسد الباب فى أنه لا يكون غير ما ذكره فقال : اللهم اغفر لى ، فانه يمكن ان يكون كذا ـ انتهى . ثم أبدل عند

٥٠٣/ سيبويه و وصف عند / غيره [فقال ـ[7]] : ﴿فاطر﴾ أى مبدع من العدم ﴿السموت﴾ أى كلهم ﴿و الارض﴾ أى جنسها . و لما كانت القدرة

---

(١) سقط من م (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : عن (٣) من م و مد ، و فى الأصل وظ : انه (٤) من م و مد ، و فى الأصل وظ : الندارة . (٥) زيد من م و مد (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ان (٧) زيد من ظ و م و مد .

لا تتم إلا بتمام العلم قال: ﴿ عٰلم الغيب و الشهادة ﴾ أى ما لايصح[1] عليه للخلق و ما يصح[1] .

و لما كان غيره سبحانه لا يمكن له ذلك ، حسن التخصيص فى قوله: ﴿ انت ﴾ أى وحدك ﴿ تحكم بين عبادك ﴾ أى أنا و هم و غيرنا فى الدنيا و الآخرة لامحيص عن ذلك و لايصح فى الحكمة سواه كما أن كل أحد يحكم بين عبيده و من تحت أمره لا يسوغ فى رأيه غير ذلك ﴿ فى ما كانوا ﴾ أى دائما[2] بما اقتضتــــه جبلاتهم التى جبلتهم عليها ﴿ فيه يختلفون ٥ ﴾ و أما غيرك فانه لايعلم جميع ما يفعلون ، فلا يقدر على الحكم بينهم ، [3]و أما غير ما هم عريقون فى الاختلاف فيه فلا يحكم بينهم فيه لأنه أما ما هيئوا بفطرهم السليمة و عقولهم القويمة للاتفاق عليه فهو الحق ، و أما ما يعرض لهم الاختلاف فيـه لاعلى سبيل القصد أو بقصد غير ثابت فهو مما تذهبه الحسنات فعرف أن تقديم الظرف إنما هو للاختصاص لا للفاصلة[3] .

وَ لما كان التقدير: فيعذب الظالمين فلو علموا ذلك لما ظنوا بادعائهم له سبحانه ولدا و شركاء يقربونهم إليه زلفى جهلا منهم بجلاله و نزاهته عما ادعوه له و كماله ، عطف عليه تهويلا للأمر قوله: ﴿ و لو ان ﴾ و كان الأصل: لهم - ولكنه قال تعميما وتعليقا بالوصف: ﴿ للذين ظلموا ﴾ أى وقعوا

---

(١) من ظ و م و مد . و فى الأصل : يصلح (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : كاينا (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م .

فى[1] الظلم فى شيء من الأشياء و لو قل ﴿ ما فى الارض ﴾ و لما كان الأمر عظيما أكد ذلك بقوله: ﴿ جميعا ﴾ و زاد فى تعظيمه بقوله: ﴿ و مثله ﴾ و قال: ﴿ معه ﴾ ليفهم بدل الكل [جملة -[2]] لا على سبيل التقطيع ﴿ لافتدوا ﴾ أى لاجتهدوا فى طلب أن يفدوا ﴿ به ﴾ أنفسهم ﴿ من سوٓء العذاب ﴾ و بين الوقت تعظيما له و زيادة فى هوله فقال: ﴿ يوم القيٰمة[4] ﴾ روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال: يقول الله عز و جل لأهون أهل النار عذابا: لو أن لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا و أنت فى صلب آدم عليه السلام أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى. قوله: أردت أى فعلت معك بالأمر فعل المريد و هو معنى قوله فى رواية: قد سألتك.

و لما كان التقدير: و لو كان لهم ذلك و افتدوا به ما قبل منهم و لا نفعهم، لأن ذلك الوقت وقت الجزاء لا وقت العمل، و اليوم وقت العمل لا وقت الجزاء، فلو أنفقوا فيه أيسر شيء على وجهه قبل منهم، عطف عليه من أصله لا على جزائه قوله [4]معظما الأمر بصرف القول إلى الاسم الأعظم[4]: ﴿ و بدا ﴾ أى ظهر ظهورا تاما ﴿ لهم ﴾ فى ذلك اليوم ﴿ من الله ﴾ أى الملك الأعظم، و هول أمره بإبهامه ليكون ضد " فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين " فقال: ﴿ ما لم يكونوا ﴾ بحسب

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: من (٢) زيد من ظ م و مد (٣) راجع من صحيح البخارى أبواب الرقاق و من صحيح مسلم أبواب المنافقين (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م.

جبلاتهم

جبلاتهم و ما فطروا عليـــه من الإهمال و التهاون ﴿ يحتسبون ه ﴾ أى لم يكن فى طبائعهم أن يتعمدوا[1] أن يحسبوه و تجوزه[2] عقولهم من العذاب، و ما كان كذلك كان أشق على النفس وأروع للقلب ﴿و بدا لهم﴾ أى ظهر ظهورا تاما كأنه فى البادية لامانع منه ﴿ سيا‌ٰت ما[3] ﴾ و لما كان فى سياق الافتداء، و كان الإنسان يبذل عند الافتداء فى فكاك نفسه الرغائب و النفائس، عبر هنا بالكسب الذى من مدلوله الخلاصة و العصارة التى هى سر الشىء فهو / أخص من العمل، و لذا جعله الأشعرى مناط /٥٠٤
الجزاء، فقال مبينا[4] أن خالص عملهم ساقط فكيف بغيره، وهذا بخلاف ما فى الجاثية ﴿ كسبوا ﴾ أى [5]الشىء الذى[5] عملوه برغبة مجتهدين فيه لظنهم نفعه و أنه خاص أعمالهم و أجلها [5]و أنفعها[5] ﴿و حاق﴾ أى أحاط على جهة اللزوم و الأذى ﴿بهم ما﴾ أى جزاء الشىء الذى ﴿ كانوا به﴾ أى دائما كأنهم[6] جبلوا عليه ﴿ يستهزءون ه ﴾ أى يطلبون و يوجدون الهزء و السخرية به[7] من النار و جميع ما كانوا يتوعدون به .

و لما أخبر عن ظهور هذا لهم، علله بأنهم كانوا يفعلون ما لم يكن فى العادة يتوقع منهم، و هو مجازاة الإحسان بالإساءة و قد كانوا جديرين

---

(١) من مد، و فى الأصل و ظ و م : يعتمدوا، و زيد بعده فى الأصل : إلى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل : يجوز (٣) ليس فى الأصل فقط (٤) زيد فى الأصل و م : اى، و لم تكن الزيادة فى ظ و مد فحذفناها (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) من ظ و مد، وفى الأصل وم : كانوا (٧) من م و مد، وفى الأصل وظ : بهم .

بضده فقال : ﴿ فاذا ﴾ أى وقع لهم ذلك بسبب أنهم إذا مسهم، ولكنه أخبر عن النوع الذى[1] هم منه بما هو مطبوع عليه فقال: ﴿ مس الانسان ضر ﴾ أىّ ضر كان [2]من جهة يتوقعها كما تقدم فى التى [فى - [3]] أول السورة، ويجوز أن يكون مسببا عن الإخبار باقتدائهم بما يقدرون عليه وأن يكون مسببا عن اشمئزازهم من توحيد الله تعجبا من حالهم فى تعكيسهم وضلالهم، وتقدم فى الآية التى فى أول السورة سر كونها بالواو، [4]ولفت القول إلى مظهر العظمة دالا على أن أغلب الناس لا يرجى اعترافه بالحق وإذعانه لأهل الإحسان إلا إذا مس باضرار فقال[5] : ﴿ دعانا ز ﴾ عالما بعظمتنا دون آلهته مع اشمئزازه[5] من ذكرنا واستبشاره بذكرها .

ولما كان ذلك الضر عظيما يعد الخلاص عنه من جهة أنه لا حيلة لمخلوق فى دفعه، أشار إلى عظمته [4]وطول زمنه[4] بأداة التراخى فقال [4]مقبحا عليه نسيانه للضر مع عظمه فى نفسه ومع طول زمنه[4]: [6]﴿ ثم اذا خولنه ﴾ أى أعطيناه على عظمتنا متفضلين[7] [عليه - [8]] [4]محسنين القيام بأمره وجعلناه خليقا بحاله جديرا بتدبيره[4] على غير عمل عمله محققين لظنه الخير فينا وأحسنا تربيتنا له والقيام عليه مع ما فرط

---

(١) فى م : الذين (٢) العبارة من هنا إلى «أول سورة» ساقطة من م (٣) زيد من مد (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) زيد فى الأصل و ظ : فى حال ضرورة، ولم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٦) زيد قبله فى الأصل : فقال، ولم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٧) من مد، وفى الأصل و ظ و م : مفضلين (٨) زيد من ظ و م و مد .

في حقنا ﴿ نعمة منا لا ﴾ ليس [١]لأحد غيرنا[١] فيها شائبة منّ [١]و لولا عظمتنا ما كانت ﴿ قال ﴾ [٢]ناسيا لما كان فيه من الضر و إن [٣] كان قد[٣] طال أمده ، قاصرا لها على نفسه [٤]غير متخلق بما نبهناه على التخلق به من إحساننا إليه و إقبالنا عليه عند إذعانه[٤] ، مذكرا[٥] لضميرها تفخيما لها ، [٤]و بنى الفعل للمجهول إشارة إلى أنه لا نظر له في تعرف المعطى من هو يشكره ، و إنما نظره في عظمة النعمة و عظمة نفسه ، و أنها على مقدار ما[٤] : ﴿ إنمآ أوتيته ﴾ أي هذا المنعم به عليّ الذي هو كبير و عظيم [لأني عظيم -[٦]] فانا أعطى على مقداري ، [٧]و « ما » هي الزائدة[٨] الكافة لأن للدلالة على الحصر ، و يجوز أن تكون موصولة هي اسم إن و خبرها قوله : ﴿ على ﴾ أي إيتاه مستعليا متمكنا على ﴿ علم ﴾ أي عظيم ، وجد مني بطريق الكسب و الاجتهاد و وجوه الطلب و الاحتيال ، فكان ذلك سببا لمجيئه إليّ [٤]أو علم من الله باستحقاقه له[٤] .

و لما كان التقدير : ليس كذلك و [لا -[٦]] هي نعمة ، قال [٤]دالا على شؤم ذلك المعطى و حقارته[٤] [لأنه من أسباب إضلاله بالتأنيث -[٩]]

(١-١) من ظ و م و مد ، و في الأصل : لاحدنا (٢) زيد في الأصل : أي هذا القائل ، و لم تكن الزيادة في ظ و م و مد فحذفناها ، و العبارة من بعدها إلى « قد طال أمده » ساقطة من م (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ و مد . (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من م و مد ، و في الأصل و ظ : تذكرا (٦) زيد من م و مد (٧) العبارة من هنا إلى « مستعليا متمكنا على » ساقطة من م (٨) من ظ و مد ، و في الأصل : الزيادة (٩) زيد من ظ و مد .

﴿بل هى﴾ أى العطية و النعمة ﴿فتنة﴾ لاختباره هل يشكر أم[1] يكفر لتقام عليه الحجة ، فان أدت إلى النار كانت استدراجا ؛ و أنث الضمير تحقيرا لها بالنسبة إلى قدرته سبحانه و تعالى و لأنها أدت إلى الغرور بعد أن ذكر ضميرها أولا تعظيما لها لإيجاب شكرها .

٥٠٥/ و لما كان من المفتونين [2]من ينتبه[2] و هم الأقل ، [قال جامعا تنبيها على إرادة الجنس و ان تعبيره أولا بافراد الضمير إشارة إلى أن أكثر الناس كأنهم فى ذلك الخلق النحس نفس واحدة - [3]] : ﴿[4]و لكن أكثرهم﴾ أى أكثر هؤلاء القائلين لهذا الكلام ﴿لا يعلمون ه﴾ أى لا يتجدد لهم علم أصلا لأنهم طبعوا على[5] الجلافة و الجهل و الغباوة ، فلو أنهم إذا دعونا و هم فى جهنم أجبناهم و أنعمنا عليهم لكفروا نعمتنا و نسبوها إلى غيرنا كما كانو يفعلون فى الدنيا سواء .

و لما كان كفار قريش مقصودين بهذا[6] قصدا عظيما و إن كان شاملا باطلاقه غيرهم من الأولين و الآخرين قال موضحا لذلك : ﴿قد قالها﴾ أى مقالتهم " انما اوتيته على علم " ﴿الذين من قبلهم﴾ أى ممن هو أشد منهم قوة و أكثر جمعا كما قال قارون و من رضى حاله فتمنى ماله ﴿فما اغنى عنهم﴾ أى أولئك الماضين ﴿ما كانوا﴾ بما اقتضته

---

(١) من ظ و م و مد و فى الأصل : او (٢ - ٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : اينتبه (٣) زيد من مد (٤) زيد قبله فى الأصل و ظ : لأنه من أسباب اضلاله بالتأنيث ، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٥) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : فى (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لهذا .

جبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ أى يجددون على الاستمرار كسبه من المال و الجاه و إن كان ملء السهل و الجبل : ﴿فاصابهم﴾ أى [1]إصابة شديدة بما دل عليه تذكير الفعل - أى[1] تسبب عن عدم الإغناء أنه أصابهم ﴿ سيات ما كسبوا ﴾ أى وبال ذلك و ما يسوءه من آثاره ﴿ و الذين ظلموا ﴾ أى أوقعوا الأشياء فى غير محالها ﴿ من هؤلاء ﴾ أى قومك[2] الذين لا يتدبرون القرآن [1]فانهم لو تدبروا آياته عرفوا و لكن سبق عليهم العمى[1] ﴿سيصيبهم﴾ أى [3]إصابة شديدة جدا بوعد لاخلف فيه[3] كما أصاب [4]من اصاب[4] من قبلهم ﴿سيات ما كسبوا﴾ أى عملوا برغبة و سرور[5] يظنون أنه نافع لهم ﴿ و ما هم بمعجزين ﴾ و إن ظنوا أن مالهم حصن[6] لهم و عملوا من الأشر و البطر فيه أعمال من يظن أنه لا تناله مصيبة فى الدنيا و أنه[7] لا يبعث إلى ما أعددنا له من الأهوال فى الآخرة، و لقد أصابهم ذلك، فأول ما أصابهم ما كشف عنه الزمان من وقعة بدر ثم ما تبعه إلى ما لا آخر له .

و لما ثبت أن الضار النافع إنما هو الله، من شاء أعطاه، و من شاء منعه، و من شاء استلبه و وضعه بعد ما رفعه، و كان التقدير: ألم

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م و مد (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اقوامك (٣-٣) فى م و مد: بوعد لا خلف فيه إصابة شديدة جدا (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) زيدت الواو بعده فى الأصل، و لم تكن فى ظ و م و مد فحذفناها (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل: حصنا (٧) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لأنه .

يعلموا أن ما جمعه من قبلهم لم يدفع عنهم امر الله، عطف عليه قوله: ﴿ أو لم ﴾ و لما كان السياق لنفى العلم عن الأكثر، و كان مقصود السورة بيان أنه صادق الوعد و مطلق العلم كافٍ فيه، عبر بالعلم بخلاف ما مضى فى الروم فقال: ﴿ يعلموا ﴾ [أى -[1]] بما رأوا فى أعمارهم من التجارب. [2]و لفت الكلام إلى الاسم الأعظم تعظيما للمقام و دفعا للبس و التعنت بغاية الإفهام[2]: ﴿ ان الله ﴾ أى الذى له الجلال و الجمال ﴿ يبسط ﴾ أى هو[3] وحده ﴿ الرزق ﴾ غاية البسط ﴿ لمن يشآء ﴾ و إن كان لا حيلة له و لا قوة ﴿ و يقدر ﴾ أى يضيق مع النكد بأمر قاهر على من هو أوسع الناس باعا فى الحيل و أمكنهم فى الدول، و من المعلوم أنه لولا أن ذلك كله منه وحده لما كان أحد ممن له قوة فى الجسم و تمكن فى العلم فقيرا أصلا.

و لما كان هـــذا أمرا لا ينكره أحد، عـــده مسلما و قال: ﴿ ان فى ذلك ﴾ أى الأمر العظيم، و أكده لأن أفعالهم أفعال من ينكر أن يكون فيه عبرة ﴿ لأيٰت لقوم ﴾ ذوى قوة و همم علية[4] ﴿ يؤمنون ﴾ أى هيئوا لأن يوجد منهم الإيمان فيجددوا التصديق فى كل وقت تجديدا مستمرا بأن الأمور كلها من الله فيخافوه و يرجوه و يشكروه و لا يكفروه، و أما غيرهم فقد حقت عليه الكلمة بما هيئ له من عمل النار، فلا يمكنه الإيمان فليس له فى ذلك آيات لأنها لا تنفعه.

(١) زيد من م و مد (٢ - ٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) سقط من م.
(٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عالية.

و لما حذر سبحانه فى هذه السورة و لاسيما فى هذه الآيات فطال التحذير، و أودعها / من التهديد و صادع الإنذار و الوعيد العظيم الكثير، و ختم بالحث على الإيمان، و النظر السديد فى العرفان، و كانت كثرة الوعيد ربما أيأست و نفرت و أوحشت، و صدت عن العطف و أبعدت، قال تعالى مستعطفا مترفقا بالشاردين عن بابه متلطفا جامعا بين العاطفين، كلام ذوى النعمة على لسان نبى الرحمة [1]صارفا القول إلى خطابه بعد أسلوب الغيبة: ﴿قل﴾ أى يا أكرم الخلق و أرحمهم بالعباد[1]. و لفت عما تقتضيه " قل " من الغيبة إلى معنى الخطاب زيادة فى الاستعطاف، و زاد فى الترفق بذكر العبودية و الإضافة إلى ضميره عريا عن التعظيم فقال: ﴿ يا ﴾ أى ربكم المحسن إليكم يقول: يا ﴿ عبادى ﴾ فلذذهم بعد تلك المرارات بحلاوة الإضافة إلى جنابه تقريبا من بابه. و لما أضاف، طمع المطيعون أن يكونوا هم المقصودين، فرفعوا رؤسهم، و نكس العاصون و قالوا: من نحن حتى يصوب نحونا هذا المقال؟ فقال تعالى جابرا لهم: ﴿ الذين اسرفوا ﴾ أى تجاوزوا الحد فى وضع الأشياء [فى غير - [2]] مواضعها حتى صارت لهم أحمال ثقال ﴿ على[3] انفسهم ﴾ فأبعدوها عن الحضرات الربانية، و أركسوها فى الدنايا الشيطانية، فانقلب الحال، فهؤلاء الذين نكسوا رؤسهم انتعشوا و زالت [3]ذلتهم و الذين رفعوا[3]

(١-١) وقع ما بين الرقمين فى الأصل و ظ بعد « عن التعظيم فقال » مع تقدم «قل أى يا أكرم الخلق و أرحمهم بالعباد » و الترتيب من م و مد (٢) زيد من ظ و م و مد (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من ظ .

[1]رؤسهم أطرقوا و زالت صولتهم[1] - قاله القشيري، و أفهم تقييد الإسراف أن الإسراف [على الغير - [2]] لا يغفر إلا بالخروج عن عهدة ذلك الغير ﴿لا تقنطوا﴾ أي ينقطع رجاؤكم و تيأسوا و [3]تمتنعوا[3] - [4]و عظم الترجية بصرف القول عن التكلم و إضافة الرحمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الجلال و الإكرام فقال[4]: ﴿من رحمة الله[4]﴾ أي إكرام المحيط بكل صفات الكمال، فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التي هي باب الرحمة، و لعظم المقام أضاف إلى الاسم الأعظم، ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد لظنهم أن كثرة الوعيد منعت الغفران، و حتمت الجزاء بالانتقام، و كرر الاسم الأعظم تعظيما للحال، و تأكيدا بما فيه من معنى الإحاطة و الجمع لإرادة العموم: ﴿ان الله﴾ أي الجامع لجميع نعوت [5]الجمال و[5] الجلال و الإكرام، فكما أنه متصف بالانتقام هو متصف بالعفو و الغفران ﴿يغفر﴾ إن شاء ﴿الذنوب﴾ و لما أفهمت اللام الاستغراق أكده فقال: ﴿جميعا[4]﴾ و لا يبالي، لكنه سبق منه القول أنه إنما يغفر الشرك بالتوبة عنه، و أما غيره فيغفره إن شاء بتوبة [6]و إن شاء بلا[6] توبة، لا يقدر أحد أن يمنعه من شيء من ذلك.

و لما كان لا يعهد في الناس مثل هذا بل لو أراد ملك من ملوك الدنيا العفو عن أهل الجرائم، قام عليه جنده [4]فانحل عقده و انثلم حده[4]،

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من م و مد، و في الأصل و ظ: تتمتعوا (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من م. (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م و مد (٦ - ٦) في ظ و م و مد: و غير.

علل

علل هذه العلة بما يخصه[١]، فقال مؤكدا لاستبعاد ذلك بالقياس على ما يعهدون: ﴿ انه هو ﴾ أى وحده ﴿الغفور﴾ أى البليغ المغفرة بحيث يمحو الذنوب مهما شاء عينا و أثرا، فلا يعاقب و لا يعاتب ﴿الرحيم ﴾ أى المكرم بعد المغفرة و لا يقدر أحد[٢] أصلا على نوع اعتراض عليه، و لا توجيه طعن إليه.

و لما كان التقدير: فأقلعوا عن ذنوبكم، فانها قاطعة عن الخير، مبعدة عن الكمال، عطف عليه استعطافا قوله دالا على أن الغفران المتقدم إنما هو إذا شاء التفضل سبحانه بتوبة و بغير توبة: / ﴿و انيبوآ﴾ / ٥٠٧
أى ارجعوا بكلياتكم و كلوا حوائجكم و أسندوا أموركم و اجعلوا طريقكم ﴿الى﴾ [٣]و لفت الكلام إلى صفة الإحسان زيادة فى الاستعطاف فقال[٣]: ﴿ ربكم ﴾ أى الذى لم تروا إحسانا إلا و هو منه ﴿ و اسلموا له ﴾ أى أوجدوا إسلام جميع ما ملكه لكم من الأعيان و المعانى متبرئين عنه لأجله فانه لو شاء سلبكموه. فاذا لم تكونوا مالكيه ملكا تاما فعدوا أنفسكم عارية عنه غير مالكة له و لا قادرة. و كان الذى لكم بالإصالة ما كان.

و لما كان ذلك شديدا[٤] لأن الكف عما أشرفت النفس على بلوغ الوطر منه فى غاية المرارة[٥]. قال مهددا لهم دالا بحرف الابتداء على

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لايخصه (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: احدا (٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: شديد (٥) من ظ و م و مد، و فى الأصل: المرار.

رضاه منهم بايقاع ما أمر به فى اليسير[1] من الزمان لأنه لايقدر أحد أن يقدر الله حق قدره باستغراق الزمان فى الطاعة و إن كان إبهام الآجل يحدو العاقل على استغراقه فيها : ﴿ من قبل ان ياتيكم ﴾ أى و أنتم صاغرون ﴿ العذاب ﴾ أى القاطع لكل العذوبة المجرّع لكل مرارة و صعوبة . و لما كان الإنسان ربما توقع ضررا فى إقدامه على ما له فيه لذة ، و حاول دفعه[2]، قال معظما لهذا العذاب مشيرا بأداة التراخى إلى أنه لايمكن دفعه و لوطال المدى : ﴿ ثم لاتنصرون ﴾ أى لايتجدد لكم نوع نصر أبدا .

و لما أمر برؤية الأمور كلها من الله و إسلام القياد كله إليه ، [أمر - [3]] بما هو أعلى من ذلك ، و هو المجاهدة بقتل النفس فقال : ﴿ و اتبعوآ ﴾ أى عالجوا أنفسكم و كلفوها أن تتبع ﴿ احسن مآ انزل ﴾ واصلا[4] ﴿ اليكم ﴾ على سبيل العدل كالإحسان الذى هو أعلى من العفو الذى هو فوق الانتقام باتباع هذا القرآن الذى هو أحسن ما نزل[5] من كتب الله و باتباع أحاسن ما فيه ، فتصل من قطعك و تعطى من حرمك و تحسن إلى من ظلمك . هذا فى حق الخلائق و مثله فى عبادة الخالق بأن تكون «كأنك تراه» الذى هو أعلى من استحضار «انه يراك» الذى هو اعلى من أدائها مع الغفلة عن ذلك .

---

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : السير (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : رفعه (٣) زيد من ظ و م و مد (٤) سقط من م (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : أنزل .

و لما كان هذا شديدا على النفس ، رغب فيه بقوله [1]مظهرا صفة الإحسان موضع الإضمار[1] : ﴿ من ربكم ﴾ أى الذى لم يزل يحسن إليكم و أنتم تبارزونه بالعظائم . و لما كان من النفوس ما هو كالبهائم لاينقاد إلا بالضرب ، قال منبها أيضا على رفقه باثبات الجار : ﴿ من قبل ان ياتيكم ﴾ [أى - [2]] على ما بكم من العجز عن الدفاع ﴿ العذاب ﴾ أى الأمر الذى يزيل ما يعذب و يحلو لكم فى الدنيا أو فى الآخرة . و لما كان الأخذ على غرة أصعب على النفوس قال : ﴿ بغتة ﴾ و لما كان الإنسان قد يشعر بالشىء مرة ثم ينساه فيباغته ، نفى ذلك بقوله : ﴿ و انتم لا تشعرون ﴾ أى ليس عندكم شعور باتيانه لا فى حال إتيانه و لا قبله بوجه من الوجوه لفرط غفلتكم ، ليكون أفظع ما يكون على النفس لشدة مخالفته لما هو مستقر فيها و هى متوطنة[3] عليه من ضده .

و لما كان للانسان عند وقوع الخسران أقوال و أحوال لو تخيلها قبل هجومه لحسب حسابه فباعد اسبابه . علل الإقبال [على الاتباع - [2]] بغاية الجهد و النزاع فقال : ﴿ ان ﴾ أى كراهة ان ﴿ تقول ﴾ و لما كان الموقع للانسان فى النقصان إنما هو حظوظه و شهواته المخالفة لعقله ، عبر بقوله : ﴿ نفس ﴾ اى عند وقوع العذاب لها ، و إفرادها و تنكيرها كاف / فى الوعيد لأن كل أحد يجوز أن يكون هو المراد ﴿ يحسرتى ﴾ / ٥٠٨
و التحسر : الاغتمام على ما فات و التندم[4] عليه ، و ألحق الألف بدلا من الياء

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من م و مد (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : موطنه (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الندم .

تعظيما له ، أى يا طول غماه لانكشاف ما فيه صلاحى عنى و بعده منى فلا وصول لى إليه لاستدراك[1] ما فات منه[2] ، و ذلك عند انكشاف أحوالها ، و حلول أوجالها و أهوالها ، [3] و دل على تجاوز هذا التحسر الحد قراءة[4] أبى جعفر[5] «حسرتاى» بالجمع بين العوض و هو الألف و المعوض عنه و هو الياء ، و حل المصدر لأن ما حل إليه أصرح فى الإسناد و أفخم ، و أدل على المراد و أعظم ، فقال : ﴿على ما فرطت﴾ أى بما ضيعت[6] فانفرط منى نظامه ، و تعذر انضمامه و التئامه .

و لما كان حق [كل - [7]] أحد قريبا منه حسا أو معنى حتى كأنه إلى جنبه ، [8] و كان بالجنب قوام الشيء و لكنه قد يفرط فيه لكونه[9] منحرفا عن الوجاه و العيان ، فيدل التفريط فيه على[10] نسبة المفرط لصاحبه إلى الغفلة عنه ، و ذلك أمر لا يغفر ، قال : ﴿فى جنب﴾ [11] و صرف القول إلى الاسم الأعظم لزيادة التهويل بقوله[11] : ﴿الله﴾ أى حق الملك الأعظم الذى هو غير مغفول عنه و لا متهاون به .

و لما كان المضرور المعذب المقهور يبالغ فى الاعتراف ، رجاء

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : لاستدراكات (٢) من م و مد . و فى الأصل و ظ : فيه (٣) العبارة من هنا إلى «وأعظم فقال» ساقطة من م (٤) من مد ، و فى الأصل و ظ : قرا (٥) راجع نثر المرجان ٦ / ١٧٢ (٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : ضيقت (٧) زيد من م و مد (٨) العبارة من هنا إلى «أمر لا يغفر» ساقطة من م (٩) من مد ، و فى الأصل و ظ : لكنه (١٠) من ظ و مد . و فى الأصل : الى (١١–١١) سقط ما بين الرقمين من م .

القبول و الانصراف، قال مؤكدا مبالغة فى الإعلام بالإقلاع[1] عما [كان -[2]] يقتضيه حاله، و يصرح به مقاله، من[3] أنه على الحق و أجد الجد: ﴿ و ان ﴾ أى و الحال أنى ﴿ كنت ﴾ أى كان ذلك فى طبعى ﴿ لمن السخرين ۙ ﴾ أى المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم فى غير منزلتها، و ذلك أنه ما كفانى المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة، أى تقول: هذا لعله يقيل منها و يعفى عنها على عادة المترفقين فى وقت الشدائد، لعلهم يعادون إلى أجمل العوائد.

و لما كانت النفس إذا وقعت فى ورطة لاتدع وجها محتملا حتى تتعلق بأذياله، و تمت بحباله و تفتر بمحاله، قال - حاكيا كذبها حيث لايغنى إلا الصدق: ﴿ او تقول ﴾ [أى - [4]] عند نزول ما لا قبل لها به ﴿ لو ان ﴾ [5]و أظهر و لم يضمر إظهارا للتعظيم و تلذذا بذكر الاسم الشريف فقال[5]: ﴿ الله ﴾ أى الذى له القدرة الكاملة و العلم الشامل ﴿ هدىنى ﴾ أى ببيان الطريق ﴿ لكنت ﴾ أى ملازما[6] ملازمة المطبوع على كونى ﴿ من المتقين ۙ ﴾ أى الذى لايقدمون على فعل ما لم يدلهم عليه دليل.

و لما ذكر حالها فى الاعتراف بالبطلان، ثم الفزع إلى الزور

(١) زيد فى الأصل و ظ: قال، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها (٢) زيد من ظ و مد (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فى (٤) زيد من م و مد. (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من م (٦) زيد فى الاصل و ظ: له، و لم تكن الزيادة فى م و مد فحذفناها.

و البهتان ، اتبعه التمنى الذى لا يفيد غير الخسران ، فقال : ﴿ او تقول ﴾ أى تلك النفس المفرطة ﴿ حين ترى العذاب ﴾ أى [الذى ـ١] هاجها٢ للرحمة أو النقمة : ﴿ لو ان ﴾ أى يا ليت ﴿ لى كرة ﴾ أى رجعة إلى دار العمل لأتمكن منه ﴿ فاكون ﴾ أى فيتسبب عن رجوعى إليها أن أكون ﴿ من المحسنين ه ﴾ أى العاملين بالإحسان الذى دعا إليه القرآن . ٣هذا الإعراب ـ و هو عطفه على الجواب ـ أوفق لبقية الآيات التى من سلكه٣ .

و لما حذر سبحانه بما يكون للمأخوذ من سيء الأحوال و فظيع الأهوال ، و كان معنى ما تقدم من كذبه و تمنيه أنه ما جاءنى بيان و لا كان لى وقت أتمكن فيه من العمل ، قال تعالى مكذبا له : ﴿ بلىٰ ﴾ أى قد كان لك الأمران كلاهما ﴿ قد جآءتك ﴾ ولفت القول إلى التكلم
/٥٠٩ مع تجريد الضمير عن مظهر العظمة لما تقدم من / موجبات استحضارها إعلاما بتناهى الغضب بعد لفته إلى تذكير النفس المخاطبة المشير إلى أنها فعلت فى العصيان فعل الاقوياء الشداد من التكذيب و الكبر مع القدرة فى الظاهر على تأمل الآيات ، و استيضاح الدلالات . و المشى على طرق الهدايات ، بعد ما أشار تأنيثها إلى ضعفها عن حمل العذاب و غلبة النقائص لها فقال : ﴿ أيتى ﴾ على عظمتها فى البيان الذى ليس مثله بيان فى وقت كنت فيه متمكنا من العمل بالجنان و اللسان و الأركان

---

(١) زيد من م و مد (٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : هاجها .
(٣ ـ ٣) سقط ما بين الرقمين من م .

﴿ فكذبت بها ﴾ جرأة على الله و قلة مبالاة بالعواقب ﴿ و استكبرت ﴾ أى عددت نفسك كبيرا عن قبولها ﴿ و كنت ﴾ اى كونا كأنه جبلة لك لشدة توغلك فيه و حرصك عليه ﴿ من الكفرين ه ﴾ أى العريقين فى ستر ما ظهر من انوار الهداية للتكذيب تكبرا لم يكن لك مانع من الإحسان إلا ذلك لا عدم البيان [١] و لا عدم الزمان القابل للعمل ٠ ٥

و لما كان قد تعمد الكذب عند مس العذاب فى عدم البيان[١] و الوقت القابل ، قال تعالى محذرا من حاله و حال أمثاله ، [٢]و لفت القول إلى من لايفهمه حق فهمه غيره تسلية له و زيادة فى التخويف لغيره[٢] : ﴿ و يوم القيمة ﴾ أى الذى لايصح فى الحكمة تركه ﴿ ترى ﴾ أى يا محسن ﴿ الذين كذبوا ﴾ [٢]و زاد فى تقبيح حالهم فى اجترائهم بلفت ١٠ القول إلى الاسم الأعظم فقال[٢] : ﴿ على الله ﴾ أى الحائز لجميع صفات الكمال بأن وصفوه بما لا يليق [به - [٣]] و هو منزه عنه من أنه فعل ما لايليق بالحكمة من التكليف مع عدم البيان ، و من خلق الخلق يعدو بعضهم على بعض من غير حساب يقع فيه الإنصاف بين الظالم و المظلوم ، أو ادعوا له شريكا أو نحو ذلك ، قال ابن الجوزى : و قال الحسن : هم ١٥ الذين يقولون : إن شئنا فعلنا ، و إن شئنا لم نفعل - انتهى . و كأنه عنى المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه و ابتدعوا قولهم : إنهم يخلقون أفعالهم ، و يدخل فيه كل من تكلم فى الدين بجهل ، و كل من كذب و هو

(١-١) سقط ما بين الرقمين من ظ (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) زيد من ظ و م .

يعلم أنه كاذب فى أى شيء كان، فانه من حيث أن فعله فعل من يظن أن الله لا يعلم كذبه أو[1] لا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله - تراهم بالعين حال كونهم ﴿ وجوههم مسودة ﴾ [2]مبتدأ و خبر، و هو حال الموصول[2] أى ثابت سوادها زائد البشاعة و المعظم فى الشناعة بجعل ذلك أمارة عليهم ليعرفهم من رآهم بما كذبوا فى الدنيا فانهم [لم -[3]] يستحيوا من الكذب المخزى، أليس ذلك زاجرا عن مطلق الكذب فكيف بالكذب على الله الذى جهنم سجنه فكيف بالمتكبرين عليه ﴿ أليس فى جهنم ﴾ أى[4] التى تلقى من تلقى فيها بالتجهم[5] و العبوسة ﴿ مثوى ﴾ أى منزل ﴿ للمتكبرين ﴾ الذى تكبروا على اتباع أمر الله .

و لما ذكر حال الذين أشقاهم، أتبعهم حال الذين أسعدهم، فقال عاطفا لجملة على جملة[6] لا على « ترى » المظروف ليوم القيامة، إشارة إلى أن هذا فعله معهم فى الدارين و إشارة إلى كثرة التنجية لكثرة الأهوال كثرة تفوت الحصر: ﴿ و ينجى ﴾ [7]أى مطلق إنجاء لبعض من اتقى بما أشارت إليه قراءة يعقوب بالتخفيف[8]، و تنجية عظمية لبعضهم بما أفادته قراءة الباقين بالتشديد، و أظهر و لم يضمر زيادة على تعظيم حالهم و تسكين قلوبهم ﴿ الله ﴾ أى يفعل بما له من صفات الكمال فى نجاتهم فعل المبالغ فى ذلك ﴿ الذين اتقوا ﴾

---

(١) من م و مد . و فى الأصل وظ : « و » (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م.
(٣) زيد من ظ وم و مد (٤) سقط من م (٥) من ظ ومد، و فى الأصل وم : فى التجهم (٦) من ظ و م و مد، و فى الأصل : حمله (٧) العبارة من هنا إلى « تسكين قلوبهم » ساقطة من م (٨) راجع نثر المرجان ٦/١٧٥ .

أى

اى[1] / بالغوا فى وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم فى الدنيا من / ٥١٠
المخالفات حماهم هناك من العقوبات ﴿ بمفازتهم ز ﴾ أى بسبب أنهم عدوا أنفسهم فى مفازة بعيدة[2] مخوفة فوقفوا[3] فيها عن كل عمل إلا بدليل لئلا يمشوا بغير دليل فيهلكوا، فأدتهم تقواهم إلى الفوز، و هو الظفر بالمراد [4]و زمانه و مكانه[4] الذى سميت المفازة به تفاؤلا، و لذلك فسر ابن عباس رضى الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة لأنها[5] سبب الفوز، [4]و قرئ بالجمع باعتبار أنواع المصدر[4]، و ذلك كله بعناية[6] الله بهم فى الدارين، فمفازة كل أحد فى الآخرى على قدر مفازته بالطاعات[7] فى الدنيا.

و لما كان كأنه قيل: ما فعل فى تنجيتهم؟ قال ذاكرا [8]نتيجة التنجية[8] ﴿ لايمسهم السوء ﴾ أى [4]هذا النوع[4] فلا يخافون ﴿ و لا هم يحزنون ه ﴾ أى و لايطرق بواطنهم حزن على فائت لأنهم لايفوت لهم شىء أصلا.

و لما كان المخوف منه و المحزون عليه جامعين لكل ما فى الكون فكان لايقدر على دفعهما إلا المبدع القيوم، قال مستأنفا أو معللا [4]مظهرا الاسم الأعظم تعظيما للمقام[4]: ﴿ الله ﴾ أى المحيط بكل شىء قدرة و علما

---

(١) زيد فى الأصل: الذين، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها.
(٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: باعده (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: فوفوا (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) من م و مد، و فى الأصل وظ: بانها (٦) من ظ وم ومد، وفى الأصل: بعيانة (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بالطاعة (٨-٨) من م و مد، و فى الأصل و ظ: تنجية النتيجة - كذا.

الذى بجامع ﴿ خالق كل شىء ﴾ فلا يكون شىء أصلا إلا بخلقه، و هو لايخلق ما يتوقعون منه خوفا. و لايقع لهم عليه حزن. و لما دل هذا على القدرة الشاملة، كان و لابد معها من العلم الكامل قال: ﴿ و هو ﴾ [1] و عبر بأداة الاستعلاء لأنه من أحسن مجزآتها [2] ﴿ على كل شىء ﴾ أى مع القهر و الغلبة ﴿ وكيل ﴾ أى حفيظ لجميع ما يريد منه، قيوم لا يعجز يلم[3] بساحته و لاغفلة.

و لما كان الخافقان خزائن الكائنات، و كان لايتصرف فى الخزائن إلا ذو المفاتيح، قال دالا على وكالته: ﴿ له ﴾ أى وحده ﴿ مقاليد ﴾ واحدها مقلاد مثل مفتاح، و مقليد مثل قنديل، و هى المفاتيح و الأمور الجامعة القوية و هى استعارة لشدة التمكن من ﴿ السموٰت ﴾ أى جميع أعدادها ﴿ و الارض ﴾ أى جنسها، خزائنهما وأمورهما و مفاتيحهما الجامعة لكل ما فيهما، فلا يمكن أن يكون فيهما شىء و لا أن يتصرف فى شىء منهما و لا فيهما احد إلا باذنه [4] فلا بدع فى تنجيته الذين اتقوا [4].

و لما كان التقدير: فالذين آمنوا بالله و تقبلوا آياته أولئك هم الفائزون، عطف عليه قوله الذى اقتضاه سياق التهديد: ﴿ و الذين كفروا ﴾ أى لبسوا ما اتضح لهم من الدلالات، و جحدوا أن تكون الأمور كلها بيده ﴿ بآيٰت الله ﴾ [أى -[5]] الذى[6] لا ظاهر غيرها، فانه

---

(١) العبارة من هنا إلى « أحسن مجزآتها » ساقطة من م (٢) من ظ و مد، و فى الأصل: مجازاتها (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: يسلم.
(٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م (٥) زيد من م و مد (٦) من مد، و فى الأصل و م: التى، و فى ظ: الذين.

ليس فى الوجود إلا ذاته سبحانه و هى[1] غيب لا يمكن المخلوق دركها، و أفعاله و هى أظهر الأشياء. و صفاته و هى غيب من جهة شهادة من جهة أخرى ﴿ اولـٰئك ﴾ البعداء البغضاء ﴿هم﴾ خاصة ﴿الخـٰسرون ۝﴾ فانهم خسروا نفوسهم[2] و كل شيء يتصل بها على وجه النفع. لأن كفرهم أقبح الكفر من حيث أنه متعلق بأظهر الأشياء.

و لما قامت هذه الدلائل كما ترى قيام الأعلام، فانجابت دياجير الظلام، و كان الجهلة قد دعوه صلى الله عليه و سلم – كما قال المفسرون فى[3] أول سورة[4] ص – إلى أن يكف عن آلهتهم، و كان الإقرار عليها عبادة لها، تسبب عن ذلك أمره صلى الله عليه و سلم بما يصدعهم به بقوله: ﴿ قل ﴾ و لما كان مقام الغيرة يقتضى محو الأغيار، و كان الغير إذا انمحى تبعه جميع أعراضه، قدم الغير[5] المفعول [لأعبد المفعول –[6]] –على تقدير «أن» – لتامر / فقال: ﴿ افغير الله ﴾ أى[7] الملك الأعظم الذى / ٥١١
لا يقر على فساد أصلا.

و لما كان تقديم[8] الإنكار على فعلهم لهم ارجع، و تأخير ما سبق من الكلام لانكاره أروع، وكان مد الصوت أوكد فى معنى الكلام و أفزع و أهول و أفظع، [9] قال صارفا الكلام إلى خطابهم، لأنه[9]

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: هو (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: انفسهم (٣) سقط من م و مد (٤) سقط من ظ و م و مد (٥) العبارة من هنا إلى «ان لتامر» ساقطة من م (٦) زيد من ظ و مد (٧) سقط من ظ (٨) فى م: تقدم (٩ – ٩) سقط ما بين الرقمين من م.

[1]أقعد فى إرهابهم و أشد فى إكتئابهم[1]: ﴿ تأمروٓنّى ﴾ بالإدغام المقتضى للمد فى قراءة أكثر القراء. [2]و لعل الإدغام إشارة إلى أنهم حاولوه صلى الله عليه و سلم فى أمر آلهتهم على سبيل المكر و الخداع[1]. و لما قرر الإنكار لإثبات الأغيار، أتم تقرير ذكر العامل فى "غير" فقال [حاذفا -[3]] «أن» المصدرية لتصير صلتها فى حيز الإنكار: ﴿ اعبد[3] ﴾ و هو مرفوع لأن «أن» لما حذفت بطل عملها، و لم يراع أيضا حكمها ليقال: إنه يمتنع نصب «غير» بها لأن معمول الصلة لايتقدم على الموصول[4].

و لما كانت عبادة غير الله أجهل الجهل، وكان الجهل محط كل سفول، قال: ﴿ايها الجهلون ﴾ أى العريقون فى الجهل، و هو التقدم فى الأمور المنبهمة بغير علم - قاله الحرالى فى سورة البقرة.

و لما كان التقديم يدل على الاختصاص، و كانوا لم يدعوه للتخصيص، بل للكف المقتضى للشرك، بين أنه تخصيص من حيث [أن -[5]] الإله غنى عن كل شىء فهو لايقبل عملا فيه شرك، و متى حصل أدنى شرك كان ذلك العمل كله للذى أشرك، فكان التقدير بيانا لسبب أمره بأن يقول لهم ما تقدم منكرا عليهم: قل كذا، فقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك وجوب التوحيد، فعطف عليه قوله مؤكدا لأجل ما استقر فى النفوس من ان من عمل لأحد شيئا فى

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من مد (٣) وقع فى الأصل و ظ و م بعد «غير فقال» و الترتيب من مد (٤) العبارة من «أن المصدرية» إلى هنا ساقطة من م (٥) زيد من ظ وم و مد.

سواء كان على وجه الشركة أو لا، ﴿و لقد﴾ و لما كان الموحى معلوما له صلى الله عليه و سلم، بنى للمفعول قوله: ﴿ اوحى اليك ﴾ و لما كان التعميم أدعى إلى التقبل قال: ﴿ و الى الذين ﴾ و لما كان الإرسال إنما هو فى بعض الزمان لبعض الناس قال: ﴿ من قبلك ج ﴾ و لما كان الحكم على قوم ربما كان حكما على المجموع [مع قيد الجمع خص بيانا لأنه مع كونه حكما على المجموع -[1]] حكم على [كل -[1]] فرد، و لأن خطاب الرئيس خطاب لأتباعه لأنه مقتداهم.

و لما كان الموحى إليهم انه من أشرك حبط عمله سواء كان هو أو غيره، صح قوله بالإفراد [2]موضع نحو أن الإشراك محبط للعمل [3]و قائم[3] مقام الفاعل، و عدل عنه إلى ما ذكر لأنه أعظم فى النهى و أقعد فى الزجر لمن يتأهل له من الأمة، و أكد لأن المشركين ينكرون معناه غاية الإنكار: ﴿ لئن ﴾ أى اوحى إلى كل منكم هذا اللفظ و هو و عزتى لئن ﴿ اشركت ﴾ [اى -[1]] شيئا من الأشياء فى شىء من عملك [بالله -[1]] - و هو من فرض المحال، ذكره هكذا ليكون أروع للأتباع، و الفعل بعد إن الشرطية للاستقبال. فعدل هنا عن التعبير بالمضارع للمطابقة بين اللفظ و المعنى لأن الآية سيقت للتعريض بالكفار فكان[4] التعبير بالماضى أنسب ليدل بلفظه على أن من وقع منه شرك

---

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) العبارة من هنا إلى «غاية الإنكار» ساقطة من م (٣-٣) فى مد: القائم (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لكان.

فقد خسر ، و بمعناه على أن الذى يقع منه ذلك فهو كذلك .

و لما تقرر الترهيب أجاب الشرط و القسم بقوله : ﴿ ليحبطن ﴾ أى ليفسدن فيبطلن عملك فلايبقى له أثرا ما من جهة القادر فلأنه أشرك به فيه و هو غنى لايقبل إلا الخالص ، لانه [لا - ١] حاجة به إلى شىء ، و أما من جهة غيره فلأنه لايقدر على شىء . و لما كان السياق للتهديد ، و كانت العبادة شاملة لما تقدم على الشرك من الأعمال

٥١٢/ و ما تأخر عنه ، لم يقيده / بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده فى آية البقرة و قال : ﴿ و لتكونن ﴾ [اى - ١] لأجل حبوطه ﴿ من الخسرين ه ﴾ فان من ذهب جميع عمله لاشك فى خسارته ، و الخطاب للرؤساء على هذا النحو - و إن كان المراد به فى الحقيقة أتباعهم - أزجر للأتباع ، و أهز للقلوب منهم و الأسماع .

و لما كان التقدير قطعا : فلا تشرك ، بنى عليه قوله : ﴿ بل الله ﴾ [أى - ١] المتصف بجميع صفات الكمال وحده ٢ بسبب هذا النهى العظم و التهديد الفظيع ٢ مهما وقعت منك عبادة ما ﴿ فاعبد ﴾ أى مخلصا له العبادة ، فحذف الشرط و عوض عنه بتقديم المفعول . و لما كانت عبادته لايمكن أن تقع إلا شكرا لما له من عموم النعم سابقة و لاحقا ، و شكر المنعم واجب ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ و كن من الشكرين ه ﴾ أى العريقين فى هذا الوصف لأنه جعلك خير الخلائق .

و لما كان التقدير : فما أحسن هؤلاء و لا أجملوا حين دعوك

---

(١) زيد من م و مد (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م .

للاشراك

للاشراك بالله، و ما عبدوه حق عبادته إذ أشركوا به، عطف عليه قوله: ﴿ و ما قدروا ﴾ [1]و أظهر الاسم الأعظم فى أحسن مواطنه فقال[1]: ﴿ الله ﴾ أى الملك الأعظم ﴿ حق قدره ﴾ أى [ما - [2]] عظموه كما يجب له فانه لو استغرق الزمان فى عبادته و خالص طاعته بحيث لم يخل شيء منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف إذا خلا بعضه عنها فكيف إذا عدل به غيره.

و لما ذكر[3] تعظيم كل شيء ينسب إليه، دل على باهر قدرته الذى هو لازم القبض و الطى بما يكون من الحال فى طى هذا الكون، فقال كناية عن العظمة بذلك: ﴿ و الارض ﴾ أى و الحال أنها، و قدمها لمباشرتهم لها و معرفتهم بحقيقتها. و لما كان ما يدركون منها من السعة و الكبر[4] كافيا فى العظمة[5] و إن لم يدركوا أنها سبع، أكد بما يصلح لجميع طبقاتها تنبيها للبصراء على أنها سبع من غير تصريح به فقال: ﴿ جميعا ﴾ و لما كان أحقر ما عند الإنسان و أخفه عليه ما يحويه فى قبضته، مثل بذلك[6] فى قوله مخبرا عن المبتدأ[7] مفردا بفتح القاف لأنه أقعد فى تحقير الأشياء العظيمة بالنسبة إلى جليل عظمته[7]: ﴿ قبضته ﴾.

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد من ظ و م و مد (٣) من مد، و فى الأصل و ظ و م: كان (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: البر. (٥) زيد فى الأصل: قال، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٦) من مد، و فى الأصل و ظ و م: ذلك (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م و مد.

و لما كان فى هذه الدنيا من يدعى الملك و القهر و العظمة و القدرة ، وكان الأمر فى الآخرة بخلاف هذا لانقطاع الأسباب قال: ﴿يوم القيٰمة﴾ و لا قبضة هناك حقيقة و لا مجازا ، و كذا الطى و اليمين ، و إنما [1]تمثيل و تخييل[1] لتمام القدرة . و لما كانوا يعلمون أن السماوات سبع متطابقة بما يشاهدون من سير النجوم ، جمع ليكون مع "جميعا" كالتصريح فى جميع الأرض أيضا [فى قوله -[2]]: ﴿ و السمٰوٰت مطويٰت ﴾ و لما كان العالم العلوى أشرف ، شرفه عند التمثيل باليمين فقال: ﴿بيمينه[4]﴾ و لما كان هذا إنما هو تمثيل بما نعهد و المراد به الغاية فى القدرة ، نزه نفسه المقدس عما ربما تشبث بـه المجسم[3] و المشبه فقال: ﴿ سبحٰنه ﴾ أى تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص و ما يؤدى إلى النقص من الشرك و التجسيم و ما شاكله ﴿ و تعٰلى ﴾ علوا لايحاط بـه ﴿ عما يشركون ﴾ أى إن علوه عن ذلك علو من يبالغ فيه ، فهو فى غاية من العلو لايكون وراءها غاية لأنه لو كان له شريك لنازعه[4] هذه القدرة أو بعضها[5] فمنعه شيئا[6] منها . و هذه معبوداتهم لاقدرة لها على شئ ،

٥١٣ روى البخارى فى صحيحه فى التوحيد[7] و غيره عن / عبد الله رضى الله عنه قال: جاء حبر من اليهود إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقال: إذا

(١-١) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: تخييل و تمثيل (٢) زيد من م و مد .
(٣) من مد ، و فى الأصل و ظ: المتجسم ، و فى م: المجتسم (٤) زيد فى الأصل: فى ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٥) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: بعضه (٦) من ظ و م و مد ، و فى الأصل: شئ .
(٧) راجع ٢ / ١١٠٣ و ١١١٩ .

كان

كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع ، و الأرضين على إصبع ، و الماء و الثرى على إصبع ، و الخلائق على إصبع ، ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك ، فلقد رأيت النبي صلى الله عليه و سلم[1] يضحك حتى بدت نواجذه - تعجبا [و تصديقا -[2]] لقوله - ثم قال النبي صلى الله عليه و سلم " و ما قدروا الله حق قدره - إلى : يشركون " و روى الشيخان[3] عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : يطوى الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون [ثم يطوى الأرضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون -[4]] ، و للبخارى[5] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، و يطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض .

و لما دل على عظيم قدره[6] بعض ما يكون يوم القيامة ، أتبعه ما لا يحتمله القوى من أحوال ذلك اليوم دليلا آخر ، فقال دالا على عظيم قدرته و عزه [و -[7]] عظمته بالبناء للمفعول : ﴿و نفخ فى الصور﴾ أى [7]القرن العاطف للأشياء المقبل بها بخصوصته المميل لها عن أحوالها العالى عليها[8]

---

(١) زيد فى الأصل : و هو ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها .
(٢) زيد من م و مد (٣) راجع من صحيح مسلم ٢/٣٠٧ ، و لم نفز بهذا اللفظ فى صحيح البخارى (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) راجع من صحيحه ٢/١٠٩٨ .
(٦) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : قدرته (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م .

فى ذلك اليوم بعد بعث الخلائق و هى النفخة الأولى بعد البعث[1] التى هى بعد نفختى الموت و البعث المذكورتين فى سورة يٰس، و المراد بها - و الله أعلم - إلقاء الرعب و المخافة و الهول فى القلوب إظهارا للعظمة و ترديا بالكبرياء و العز فى عزة يوم المحشر ليكون أول ما يفجأهم [2]يوم الدين[2] ما لايحتمله القوى، و لا تطيقه الأحلام و النهى، كما كان آخر ما فجأهم فى يوم الدنيا و أن افترقا فى التأثير، فان تلك أثرت[3] الموت، و هذه أثرت[3] الغشى لأنه لا موت بعد البعث[4]، و هى الثالثة من النفخات ﴿ فصعق ﴾ أى مغشيا عليه ﴿ من فى السمٰوٰت ﴾ و لما كان المقام التهويل، و كان التصريح أهول، أعاد الفاعل بلفظه[5] فقال: ﴿ و من فى الارض ﴾.

و لما كان منهم من لايصعق ليعرف دائما أنه فى كل فعل من أفعاله مختار قادر جبار، استثناه فقال: ﴿ الا من شاء الله ﴾ [أى -[6]] الذى له مجامع العظمة و معاقد العز، فيجعل الشيء الواحد هلاكا لقوم دون قوم، و صعقا لقوم دون قوم، يجعل ذلك الذى كان به الهلاك به الحياة، و ذلك الذى كان به الغشى به الإفاقة و إن كان بالنسبة اليهم على حد سواء، إعلاما بأن الفاعل المؤثر الفعالُ لما يريد لا الأثر، قيل: المستثنون الشهداء، و قيل: غيرهم ﴿ ثم نفخ فيه اخرى ﴾

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: البعثة (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م.
(٣) من مد، و فى الأصل و ظ: اكثرت (٤) العبارة من « كما كان آخر » إلى هنا ساقطة من م (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بنفسه (٦) زيد من م و مد.

أى نفخة ثانية من هذه، و هى رابعة من النفخة المميتة، و دل على سرعة[1] تأثيرها بالفجاءة فى قوله: ﴿فإذا هم قيام﴾ أى قائمون كلهم ﴿ينظرون ۝﴾ أى يقلبون أبصارهم أو ينتظرون ما يأتى بعد ذلك من أمثاله من دلائل العظمة، و هاتان النفختان هما المرادتان فى حديث تخاصم اليهود مع المسلم الذى لطم وجهه، و فى آخره: يصعق الناس يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور[2] - و قد رواه البخارى فى الخصومات فى موضعين[3]، و فى أحاديث الأنبياء فى موضعين[4]، و فى الرقاق[5] / و فى ٥١٤ /
التوحيد[6] و مسلم فى الفضائل و أبو داود فى السنة، و النسائى فى التفسير و النعوت، و بتفصيل رواياته و جمع ألفاظها يعلم أن ما ذكرته هو المراد، روى البخارى و مسلم فى أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضى الله عنه [قال -[7]]: بينما يهودى يعرض سلعة له - و قال البخارى: سلعته - أعطى بها شيئا كرهه أو لم يرضه. قال: لا و الذى اصطفى موسى على البشر! فسمعه رجل من الأنصار فلطم -[8] و قال[8] البخارى: فقام فلطم - وجهه،

(١) سقط من م (٢) من م و مد، و فى الأصل و ظ: الصور (٣) تحت باب ما يذكر فى الأشخاص و الخصومة بين المسلم و اليهودى ١/٣٢٥ (٤) تحت باب قول الله عز وجل « و واعدنا موسى ...... » ١/٤٨١ و تحت « باب وفاة موسى عليه السلام و ذكره بعده» ١/٤٨٤ (٥) تحت باب نفخ الصور ٢/٩٦٥.
(٦) تحت باب قوله « و كان عرشه على الماء » ٢/١١٠٤ (٧) زيد من م و مد.
(٨-٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: وجهه و فى.

قال : تقول : و الذى اصطفى موسى على البشر و رسول الله صلى الله عليه و سلم بين أظهرنا ، فذهب اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا [1]أبا القاسم[1] إن لى ذمة و عهدا ، و قال : فلان لطم وجهى ، - و قال البخارى : فما بال فلان لطم وجهى ؟ - فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لم لطمت وجهه ؟ قال : قال يا رسول الله « و الذى اصطفى موسى على البشر » و أنت بين أظهرنا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى عرف الغضب فى وجهه ، ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله فانه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السماوات و من فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث - و فى رواية لمسلم : أو فى أول من بعث - فاذا موسى آخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلى و لا أقول : إن أحدا أفضل من يونس بن متى ، و فى رواية للبخارى فى تفسير الزمر[2] : إنى من أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة فاذا أنا بموسى[3] متعلق بالعرش فلا أدرى أكذلك كان أم بعد النفخة ، و فى رواية للبخارى فى الخصومات و الرقاق و أحاديث الأنبياء و هى لمسلم أيضا قالا[4] : استب رجلان : رجل من المسلمين و رجل من اليهود - و فى رواية لمسلم : رجل من اليهود و رجل من المسلمين - فقال المسلم : و الذى اصطفى محمدا

(١) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : رسول الله (٢) راجع ٢ / ٧١١ .
(٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : موسى (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : قال .

صلى

صلى الله عليه و سلم على العالمين ، قال البخاري في كتاب التوحيد و أحاديث الأنبياء : في قسم يقسم به ، فقال اليهودي : و الذي اصطفى موسى على العالمين ، قال البخاري : فغضب المسلم عند ذلك فلطم وجه اليهودي ، و قال مسلم و كذلك[١] البخاري في التوحيد و الخصومات و أحاديث الأنبياء : فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأخبره بما كان من امره و أمر المسلم ، قال البخاري في الخصومات : فدعا النبي صلى الله عليه و سلم المسلم فسأله عن ذلك فأخبره - ثم اتفقا : فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : لا تخيروني على موسى فان الناس يصعقون - قال البخاري في الرقاق و الخصومات و أحاديث الأنبياء و نسخة في التوحيد : يوم القيامة فأكون في[٢] أول من يفيق ، و في رواية له في الخصومات : فأصعق معهم ، و في رواية له في الرقاق و في رواية في التوحيد و هي رواية لمسلم و أبي داود : فأكون أول من يفيق ، فاذا موسى باطش بجانب العرش ، و قال أبو داود : في جانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ، و في رواية : فلا أدرى أكان ممن[٣] صعق فأفاق قبلي أو اكتفى بصعقة الطور ، و في رواية للبخاري في أحاديث / الأنبياء : فلا أدرى /٥١٥
أكان فيمن صعق فأفاق أو كان ممن استثنى الله - و لم يذكر « قبلي » ، و روى الحديث الترمذي في تفسير سورة الزمر[٤] و ابن ماجه في الزهد[٥] :

(١) في م و مد : كذا (٢) سقط من م (٣) من م و مد ، و في الأصل و ظ : فيمن (٤) راجع ٢ / ١٥٦ (٥) راجع ٢ / ٣٢٦ .

قال : قال اليهودى ، و قال ابن ماجه : رجل من اليهود بسوق المدينة : و الذى اصطفى موسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يدا فصك بها وجهه - و قال ابن ماجه : فلطمه - قال : تقول هذا وفينا نبى الله صلى الله عليه و سلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : و نفخ فى الصور - و قال ابن ماجه : تقول هذا و فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : قال الله تعالى : و نفخ فى الصور - فصعق من فى السموٰت و من فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون ، فأكون أول من رفع رأسه فاذا موسى آخذ - و قال ابن ماجه : فاذا أنا بموسى آخذ - بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أرفع رأسه قبلى أم كان ممن استثنى الله ، و من قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب ، و قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . و فى رواية للبخارى فى الرقاق : يصعق الناس حين يصعقون . فأكون أول من قام . فاذا موسى آخذ بالعرش ، فما أدرى أكان فيمن صعق . قال : و رواه أبو سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم ، و للبخارى فى الخصومات عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه و سلم جالس جاء يهودى فقال : يا أبا القاسم ! ضرب وجهى رجل من أصحابك . قال : من ؟ قال : رجل من الانصار ، قال : ادعوه ، قال : ضربته ؟ قال : سمعته بالسوق يحلف « و الذى اصطفى موسى على البشر » قلت : أى

خبيث[1] على محمد، فأخذتنى غضبة ضربت وجهه، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: لا تخيروا بين الأنبياء، فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق [عنه -[2]] الأرض - و فى رواية فى أحاديث الأنبياء: فأكون أول من يفيق - فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أكان فيمن[3] صعق ام حوسب بصعقته الأولى، و فى رواية فى أحاديث الأنبياء: فلا أدري أفاق قبلى أم حوسب بصعقة الطور، [4]و الله أعلم[4] - هذا ما رأيته من ألفاظ الحديث فى الكتب الستة، و أما معنى صعق فانه صاح و مات فجاءة أو غشى عليه. قال فى القاموس[5]: الصاعقة الموت و كل عذاب مهلك و صيحة العذاب، [و صعق -[2]] كسمع صعقا و يحرك[6] و صعقة و تصعاقا[7]: غشى عليه. و الصعق محركة: شدة الصوت، و ككتف: الشديد الصوت. و قال عبد الحق فى الواعى: الأزهرى: الصاعقة صوت الرعد الشديد الذى يصعق منه الإنسان، أى يغشى عليه يقال: صعقتهم الصاعقة - يعنى بالفتح - و أصعقتهم - إذا أصابتهم[8] فصعقوا و صعقوا، و منه حديث الحسن: ينتظر بالمصعوق ثلاثا ما لم يخافوا عليه نتنا - يعنى الذى مات فجاءة. قال: و الصاعقة مصدر جاء على فاعلة، تقول: سمعت صاعقة الرعد و ثاغية[9] الشاه. و قوله

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: حبيب (٢) زيد من ظ و م و مد.
(٣) فى م: ممن (٤ - ٤) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد (٥) ٢ / ٢٤٩.
(٦) من مد و القاموس، و فى الأصل و ظ و م: تحرك (٧) من ظ و م و مد و القاموس، و فى الأصل: تصيعاقا (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: اجابتهم (٩) من م و مد، و فى الأصل و ظ: باغية.

"وخر موسى صعقا" أى مغشيا عليه، دل على ذلك قوله سبحانه "فلما افاق" إنما يقال: أفاق من العلة والغشية وبعث من الموت. قال:
/٥١٦ وجملة الصاعقة الصوت / مع النار، وقال أبو عبد الله ـ [يعنى ـ[1]] القزاز ـ: الصعق هو أن يسمع الإنسان صوت الهدة الشديدة فيصعق لذلك عقله، واشتقاق الصاعقة من هذا، سميت صاعقة لشدة صوتها وتقول: إنه لصعق، أى شديد الصوت. وكذا هو صعاق ـ انتهى. فتحرر من هذا أن الصعق يطلق على الموت فجاءة، وعلى الغشى كذلك، وأن الإفاقة لا تكون إلا عن[2] غشى لا عن موت، فعلم أن الصعقة فى هذه الآية إنما هى غشى، لأن الثانية عنها إفاقة، وأيضا فمن الأمر المحقق أنه لايموت أحد من أهل البرزخ فكيف بالأنبياء عليهم السلام، فالصواب حمل الصعقة المذكورة فى الحديث على الغشى أو ما يشبهه، ويؤيده التجوز لأن تكون صعقة الطور جزاء عنها، وعلى تقدير أن تكون غشيا إن قلنا أنه يكون بنفخة الإماتة يلزم عليه أن لا يكون للغشى ولا لعدمه مدخل فى الشك فى أن موسى عليه السلام أفاق قبل أو لم يحصل له غشى أصلا. لأن الذى يكون به بطشه بالعرش ـ وهو بروحه وجسده ـ إنما هو البعث من الموت لا الإفاقة من الغشى ولا عدم الغشى قبل البعث. فالذى يوضح الأمر ولا يدع فيه لبسا أن يكون ذلك بعد البعث. وتكون حينئذ النفخات أربعا: الأولى لإماتة الأحياء، الثانية لإحياء جميع الموتى، وهاتان هما المذكورتان فى سورة يس،

(١) زيد من ظ و م و مد (٢) من م و مد. وفى الأصل و ظ: من.

و لذلك

و لذلك لما ذكرها صرح فى أمرها بما لا يحتمل غيره "ما ينظرون الاصيحة واحدة تاخذهم و هم يخصمون فلا يستطيعون توصية و لا الى اهلهم يرجعون و نفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث إلى ربهم ينسلون" الثالثة لابتدائهم بعد البعث بالهول الشديد، و الحال يقتضيه لأن ذلك اليوم يوم الأهوال و الأرعاب و الأرهاب، و إظهار العظمة و الجلال لتقطيع الأسباب، و الذى يدل عليه فى هذا الحديث قوله صلى الله عليه و سلم فى كثير من رواياته «فان الناس يصعقون يوم القيامة» فان يوم القيامة اسم للوقت الذى أوله البعث و آخره تكامل دخول [كل - [1]] فريق إلى داره و محل استقراره، و أما صعقة الموت فانها فى دار الدنيا و هى الانامة لا للاقامة[2]، و يضعف حمله على ما قبل البعث الروايات الصحيحة الجازمة بأن[3] النبى صلى الله عليه و سلم أول من تنشق عنه الأرض، و ما حكاه الكرمانى من الإجماع على ذلك و لا فخر فيه إلا بحصول البعث [لا - [4]] باظهار الجسد من غير بعث، فهذا الجزم ينافى ذلك الشك، فاذا كان المراد بما فى الحديث الغشى كانت نفخة أخرى للايقاظ منه، و هاتان المرادتان بما فى هذه السورة كما فى رواية الترمذى و ما فى النمل، و لذلك عبر عنها بالفزع، و يؤيد ذلك التعبير فى رواية البخارى فى التفسير بالنفخة الآخرة[5]، و النبى صلى الله عليه و سلم قد أوتى

(١) زيد من م و مد (٢) فى م : الافاقة (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل : لأن (٤) زيد من ظ و م و مد (٥) من م و مد، و فى الأصل و ظ : الأخرى.

جوامع الكلم، و اختصر له الكلام اختصارا، و لو انهما نفختان فقط كان التعبير بالآخرة قاصرا عما تفيده الثانية مع المساواة فى عدة الحروف، و هو مما لايظن ببليغ، فكيف بأبلغ الخلق المؤيد بروح القدس صلى الله عليه و سلم، فكان العدول عن الثانية إلى الآخرة مفيدا أنها أربع، و لعل ذلك معنى "امتنا اثنتين و احييتنا اثنتين" و سميت إماتة لشدة الغشى بها لعظم أمرها و معنى زلزلة الساعة / التى تسكر،
/٥١٧
و يؤيده التعبير عن القيام منها بالإفاقة[1] لابالبعث، و لا يعكر على هذا شيء إلا رواية البخارى فى الخصومات: فأكون أول من تنشق عنه الأرض فاذا أنا بموسى - إلى آخره، فالظاهر أن راويها وهم، أو روى بالمعنى فما وفى بالغرض، و الراجح روايات من قالوا: فأكون أول من يفيق - بالكثرة و بزوال الإشكال، هذا ما كان ظهر لى فى النظر فى المعنى و تطبيق الآيات و الأحاديث عليه، ثم رأيت شيخنا حافظ عصره أحمد بن على بن حجر الكنانى العسقلانى المصرى رحمه الله نقل ما جمعت به بين الروايات فى كتاب الأنبياء من شرحه[2] للبخارى عن القاضى عياض فقال: و قال عياض: يحتمل أن يكون المراد صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السماء و الأرض. و أقره على ذلك ثم نقل عن ابن حزم عين[3] ما قلته فى النفخات فقال ما نصه[4]: تكميل: زعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع: الأولى نفخة إماتة[5] يموت فيها من بقى فى الأرض،

---

(١) من م و مد، و فى الأصل و ظ: بالامامة (٢) راجع فتح البارى ١٣/٢٥٨ (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل: عنى (٤) راجع فتح البارى ١٣/٢٥٩ (٥) من الفتح، و فى الأصول: الإماتة.

حيا، ثانيها نفخة إحياء فيقوم كل ميت، و الثالثة نفخة فزع و صعق [1]يفيقون منها[1] كالمغشى عليهم، لايموت منها أحد، و الرابعة إفاقة من [ذلك -[2]] الغشي، ثم رده شيخنا بأن الصعقات أربع، و لا يستلزم كون النفخات أكثر من اثنتين، و ذلك أنه ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت من كان حيا و يغشى على من كان ميتا، [3]فهاتان صعقتان[3] في النفخة الأولى، و ينفخ النفخة الثانية فيفيق من كان مغشيا عليه و يحيي من كان ميتا، فهاتان اثنتان في النفخة الثانية، و هذا الرد مردود لمن حقق ما قلته بأدنى تامل، و يلزم عليه أن يكون أصفياء الله أشد حالا و فزعا ممن تقوم عليهم الساعة و هم شر عباد الله، و العجب أن الذى رده على ابن حزم سلّمه لعياض - والله الموفق.

و لما ذكر إقامتهم بالحياة التى هى نور البدن، أتبعه إقامتهم بنور جميع الكون ظاهرا بالضياء الحسى، و باطنا بالحكم على طريق العدل الذى هو نور الوجود الظاهرى و الباطنى على الحقيقة كما أن الظلم ظلامة كذلك فقال: ﴿ و اشرقت ﴾ [4]أى أضاءت إضاءة عظيمة مالت بها إلى الحمرة[4] ﴿ الارض ﴾ أى التى أوجدت لحشرهم. [4]و عدل الكلام عن الاسم الأعظم إلى صفة الإحسان لغلبة الرحمة لاسيما فى ذلك اليوم فانه لايدخل أحد الجنة إلا بها فقال[4]: ﴿ بنور ربها ﴾ أى الذى رباها بالإحسان إليها بجعلها محلا للعدل و الفضل، لا يكون فيها شيء غير ذلك أصلا،

(١-١) من الفتح، و فى الأصول: يبقون فيها (٢) زيد من الفتح.
(٣-٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فهذان الصعقتان (٤-٤) سقط ما بين الرقمين من م.

و ذلك النور الذى هو شىء واحد يبصر به قوم دون آخرين كما كانت النفخة تارة للهلاك و تارة للحياة .

و لما كان [1]العلم هو النور فى الحقيقة ، و كان الكتاب أساس العلم و[1] كان لذلك اليوم من العظمة ما يفوت الوصف و لذلك[2] كذب به الكفار أتى فيما[3] يكون فيه باذنه بصيغة المجهول [4]على طريقة كلام القادرين[4] إشارة إلى هوانه و أنه طوع أمره لا كلفة عليه[4] فى شىء من ذلك ، و كذا ما[5] بعده من الأفعال زيادة فى تصوير عظمة اليوم بعظمة الأمر فيه فقال : ﴿ و وضع الكتب ﴾ أى الذى أنزل إلى كل أمة لتعمل به .

[1]و لما كان الأنبياء أعم من المرسلين ، و كان للنبى و هو المبعوث ليعمل من أمره أن يأمر بالمعروف ، و قد يتبعه من أراد الله به الخير ، و كان عدتهم مائة ألف و أربعة و عشرين ألفا ، و هي قليلة جدا / بالنسبة /٥١٨
إلى جميـــع الناس ، عبر بهم دون المرسلين و بجمع القلة فقال[1] : ﴿ و جاىٓء بالنبين ﴾ للشهادة على أممهم بالبلاغ . [1]و لما كان أقل ما يكون الشهود ضعف المكلفين ، عبر بجمع الكثرة فقال[1] : ﴿ و الشهدآء ﴾ أى الذين وكلوا بالمكلفين فشاهدوا أعمالهم فشهدوا بها و ضبطوها فأصلت الأصول و صورت الدعاوى و أقيمت البينات على حسبها من

(١ - ١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : كذلك (٣) من م و مد ، و فى الأصل و ظ : بما (٤) فى م : عنه (٥) فى م و مد : هما .

طاعة أو معصية، و وقع الجزاء على حسب ذلك، فظهر العدل [1]رحمة للكفار[1]، و بان الفضل [1]رحمة للمسلمين[1] ﴿ و قضى بينهم ﴾ أى بين العباد الذين فعل ذلك كله لأجلهم . [1]و لما كان السياق ظاهرا فى عموم الفضل عدلا و فضلا كما يأتى التنبيه عليه قال[1]: ﴿ بالحق ﴾ بأن يطابق الواقع من المثوبات و العقوبات ما وقع الخبر به فى الكتب على ألسنة الرسل .

و لما كان المراد كمال الحق باعتبار عمومه لجميع الأشخاص و الأعمال ،[2] كان ربما طرقه احتمال تخصيص ما ، أزال ذلك بقوله : ﴿ و هم ﴾ [1]أى باطنا و ظاهرا[1] ﴿ لا يظلمون ۝ ﴾ أى لا يتجدد لهم ظلم فى وقت أصلا ، فلا يزادون فى جزاء السيئة على المثل شيئا و لا ينقصون فى جزاء الحسنة عن العشر شيئا .

و لما كان ذلك ربما كان بالنسبة إلى ما وقع فيه الحكم ، و ليس نصا فى شمول الحكم لكل عمل ، نص عليه بقوله ، [[3]ذاكرا الوفاء و العمل لاقتضاء السياق ذلك بذكر الكتاب و ما فى حيزه من النبيين و الشهداء و القضاء الحق ، و ذلك كله أليق بذكر العمل المؤسس على العلم ، و الوفاء الذى هو الركن الأعظم فى الحق و مساق العلم ، و العلم و الوفاء أوفق لجعل العمل نفسه هو الجزاء بأن يصور بما يستحقه من الصور المليحة إن كان ثوابا ، و القبيحة إن كان عقابا ، و الفرق بينه و بين العقل المؤسس

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) زيد فى ظ : له (٣) زيد ما بين الحاجزين من مد .

على الشهوة و قوة الداعية] : ﴿ و وفيت كل نفس ﴾ و لما كانت التوفية فى الجزاء على غاية التحرير و المبالغة فى الوفاء و المشاكلة فى الصورة و المعنى ، جعل الموفى نفس العمل فقال : ﴿ ما عملت ﴾ أى من الحسنات ، و لذلك عبر بالعمل الذى لا يكون إلا مع العلم [و أفهم الختام تقدير « و الله أعلم بما يعملون » -١] .

و لما كان المراد بالشهداء إقامة الحقوق على ما يتعارفه العباد و كان ذلك ربما أوهم نقصا فى العلم قال : ﴿ و هو اعلم ﴾ اى من العاملين و الشهداء عليهم ﴿ بما يفعلون ع ﴾ أى بما عمل [به -١] بداعية من النفس سواء كان مع مراعاة العلم أو لا . [فالآية من الاحتباك : ذكر ما عملت أولا يدل على ما فعلت ثانيا ، و ذكر ما يفعلون ثانيا يدل عليه ما يفعلون أولا ، و سره أن ما ذكر أوفق للمراد من نفى الظلم على حكم الوعد بالعدل و الفضل لأن فيه الجزاء على كل ما بنى على علم ، و أما المشتهى فما ذكر أنه يجازى عليه بل الله يعلمه -١] .

و لما كان الأغلب على هذه المقامات التحذير ، قدم فى هذه التوفية حال اهل الغضب فقال : ﴿ و سيق ﴾ [أى -٢] بأمر يسير من قبلنا بعد إقامة الحساب سوقا عنيفا ﴿ الذين كفروآ ﴾ أى غطوا أنوار عقولهم ، فالتبست عليهم الأمور فضلوا ﴿ الى جهنم ﴾ أى الدركة التى تلقاهم بالعبوسة كما تلقوا الأوامر و النواهى و القائمين بها بمثل ذلك ، فان ذلك لازم لتغطية العقل ﴿ زمرا ﴾ أى جماعات فى تفرقة

(١) زيد ما بين الحاجزين من مد (٢) زيد من ظ و م و مد .

بعضهم على[١] إثر بعض[٢] - قاله أبو عبيد - أصنافا مصنفين، كل شخص مع من[٣] يلائمه فى الطريقة و الزمرة، مأخوذة من الزمر و هو صوت فيه التباس كالزمر المعروف لأن ذلك الصوت من لازم الجمع .

و لما كان إغلاق الباب المقصود عن قاصده[٤] دالا على صغاره، دل على أن أمرهم كذلك بقوله ذاكرا غاية السوق: ﴿حتى اذا جآءوها﴾ أى على صفة الذل و الصغار، [٥]و أجاب «إذا» بقوله[٥]: ﴿فتحت ابوابها﴾ أى بولغ كما يفعل فى أبواب السجن لأهل الجرائم بعد تكاملهم عندها فى الإسراع فى فتحها ليخرج إليهم ما كان محبوسا باغلاقها من الحرارة التى يلقاهم ذكاؤها و شرارها على حالة هى أمر من لقاء السهام التى اختاروها فى الدنيا على تقبل ما خالف أهويتهم من حسن الكلام .

و لما كان المصاب ربما رجا الرحمة، فاذا وجد من يبكته كان تبكيته أشد عليه مما هو فيه قال: ﴿و قال لهم خزنتهآ﴾ إنكارا عليهم و تقريعا و توبيخا: ﴿الم ياتكم رسل﴾ و لما كان قيام الحجة بالمجانس أقوى قال [٥]واصفا لرسل[٥]: ﴿منكم﴾ أى لتسهل عليكم مراجعتهم .

و لما كانت / المتابعة بالتذكير أوقع فى النفس قال [٥]آتيا بصفة أخرى / ٥١٩
معبرا بالتلاوة التى هى أنسب لما يدور عليه مقصد السورة من العبادة لما للنفوس من النقائص الفقيرة إلى متابعة التذكير[٥]: ﴿يتلون﴾ أى يوالون ﴿عليكم ايٰت﴾ و لما كان أمر المحسن أخف على النفس

(١) سقط من م (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: بعضهم (٣) فى م: ما.
(٤) من ظ و م و مد، و فى الأصل: قاصد (٥-٥) سقط ما بين الرقمين من م.

[1]فيـــكون أدعى إلى القبول[1] قالوا: ﴿ ربكم ﴾ أى بالبشارة إن تابعتم . و لما كان الإنذار أبلغ فى الزجر قالوا: ﴿ و ينذرونكم لقآء يومكم ﴾ و لما كانت الإشارة أعلى فى التشخيص قالوا: ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى يوم البعث كله، أى من الملك الجبار إن نازعتم، فالآية من الاحتباك: ذكر الرب أولا دلالة على حذف الجبروت ثانيا و الإنذار ثانيا دليلا على البشارة أولا ﴿ قالوا بلى ﴾ أى قد أتونا و تلوا علينا و حذرونا .

و لما كان عدم إقبالهم[2] على الخلاص مما وقعوا فيه مع كونه يسيرا من أعجب العجب، بينوا موجبه بقولهم: ﴿ و لكن حقت ﴾ أى وجبت وجوبا يطابقه الواقع، لايقدر معه على الانفكاك عنه ﴿ كلمة العذاب ﴾ أى التى سبقت فى الأزل علينا ـ هكذا كان الأصل، و لكنهم قالوا: ﴿ على الكفرين ﴾ تخصيصا بأهل هذا الوصف و بيانا لأنه موجب دخولهم و هو تغطيتهم للأنوار التى أتتهم بها الرسل .

و لما فرغوا من إهانتهم بتبكيتهم، أنكوهم بالأمر بالدخول، و عبر بالمبنى للمفعول إشارة إلى أنهم وصلوا إلى أقصى ما يكون من الذل بحيث أنهم يمتثلون قول كل قائل جل أو قل، فقيل فى جواب من كأنه قال: ماذا وقع بعد هذا التقريع؟: ﴿ قيل ﴾ أى لهم جوابا لكلامهم: ﴿ ادخلوآ ابواب جهنم ﴾ اى طبقاتها المتجهمة لداخليها . و لما كان الإخبار بالخلود حين الدخول أوجع لهم قالوا: ﴿ خلدين ﴾[3] أى

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الاقبال (٣) العبارة من هنا إلى «الخلود» ساقطة من م .

مقدرين[1] الخلود ﴿ فيها[2] ﴾ و لما كان سبب كفرهم بالأدلة هو التكبر، سبب عن الأمر بالدخول قوله[3] معرى عن التأكيد لأنه يقال فى الآخرة و لاتكذيب فيها يقتضى التأكيد و لم يتقدم منهم هنا كذب كالنحل بل اعتراف[3] و تندم ﴿ فبئس مثوى ﴾ أى منزل و مقام ﴿ المتكبرين ﴾ أى الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب عليهم، فلذلك تعاطوا أسبابها .

و لما ذكر أحوال الكافرين، أتبعه أحوال أضدادهم فقال : ﴿ و سيق ﴾ و سوقهم إلى المكان الطيب يدل على أن موقفهم كان طيبا لأن من كان فى أدنى نكد فهيئ له مكان هنىء لايحتاج فى الذهاب إليه إلى سوق، فشتان ما بين السوقين ! هذا سوق إكرام، و ذاك سوق إهانة و انتقام، و هذا لعمرى من بدائع أنواع البديع، و هو أن يأتى سبحانه بكلمة فى حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم، و يأتى بتلك الكلمة بعينها و على هيئتها فى حق الأبرار فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم، فسبحان من أنزله معجز المبانى، متمكن المعانى، عذب الموارد و المثانى .

و لما كان هذا ليس لجميع السعداء بل للخاص منهم، دل على ذلك بقوله : ﴿ الذين اتقوا ﴾ أى لا جميع المؤمنين ﴿ ربهم ﴾ أى الذين كلما زادهم إحسانا زادوا له هيبة، روى أحمد و أبو يعلى[4] و ابن حبان فى صحيحه

---

(١) من مد، و فى الأصل و ظ : مقدورين (٢) العبارة من هنا إلى « و تندم » ساقطة من م (٣ - ٣) سقط ما بين الرقمين من ظ (٤) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠ / ٣٣٧ من رواية أحمد و أبى يعلى .

عن أبي سعيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: يوما كان مقداره خمسين ألف سنة، فقيل: ما أطول هذا اليوم؟ قال[1] النبي صلى الله عليه و سلم: و الذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة. و روى الطبرانى[2] و ابن حبان فى صحيحه[3] عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: تجتمعون[4] يوم القيامة - فذكر الحديث حتى قال: قالوا: فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: توضع لهم كراسى[5] من نور و يظلل عليهم الغمام[6] يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار. [7]و يمكن أن يكون السوق إشارة إلى قسر المقادير للفريقين على الأفعال التى هى أسباب الدارين[7] ﴿الى الجنة زمرا﴾ أهل الصلاة المنقطعين إليها المستكثرين منها على حدة، و أهل الصوم كذلك - إلى غير ذلك من الأعمال التى تظهر آثارها على الوجوه.

و لما ذكر السوق، ذكر غايته بقوله: ﴿حتى اذا جاءوها﴾ و لما كان إغلاق الباب عن الآتى يدل على تهاون به، و فى وقوفه إلى أن يفتح له نوع هوان قال: ﴿و فتحت﴾ أى و الحال أنها قد فتحت ﴿ابوابها﴾ اى إكراما [لهم -[8]] قبل وصولهم إليها بنفس الفتح و بما يخرج إليهم

---

(١) تكرر فى الأصل و ظ فقط (٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/٣٣٧ من رواية الطبرانى (٣) من ظ و م و مد، و فى الأصل و صحيحهما.
(٤) من م و مد و المجمع، و فى الأصل و ظ: يجمعون (٥) فى المجمع: منابر.
(٦) زيد فى الأصل: حتى، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد و المجمع فحذفناها (٧-٧) سقط ما بين الرقمين من م (٨) زيد من م و مد.

من رائحتها، و يرون من زهرتها و بهجتها، ليكون ذلك لهم سائقا ثانيا إلى ما لم تروا مثله و لا رأوا عنه ثانيا.

و لما ذكر إكرامهم بأحوال الدار، ذكر إكرامهم بالخزنة الأبرار، فقال عطفا على جواب "إذا" بما تقدره[1]: تلقتهم خزنتها بكل ما يسرهم: ﴿و قال لهم خزنتها﴾ أى حين الوصول: ﴿سلم عليكم﴾ تعجيلا للسرة لهم بالبشارة بالسلامة التى لاعطب فيها. و لما كانت دارا لاتصلح إلا للطهرين قالوا: ﴿طبتم﴾ أى صلحتم لسكناها، فلا تحول لكم عنها أصلا. ثم سببوا عن ذلك تنبيها على أنها دار الطيب، فلا يدخلها إلا مناسب لها، قولهم: ﴿فادخلوها﴾ فأنتج ذلك ﴿خلدين ه﴾ و لعل فائدة الحذف لجواب 'إذا' أن تذهب النفس فيه من الإكرام كل مذهب و تعلم أنه لا يحيط به الوصف، [2]و من أنسب الأشياء أن يكون دخولهم من غير مانع من إغلاق باب أو منع بواب، بل مأذونا لهم مرحبا بهم إلى ملك الأبد[2].

و لما كان التقدير: فدخلوها[3]، عطف عليه قوله: ﴿و قالوا﴾ أى جميع الداخلين: ﴿الحمد﴾ أى الإحاطة بأوصاف الكمال، [2]و عدلوا إلى الاسم الأعظم حثا لأنفسهم على استحضار جميع ما تمكنهم معرفته من الصفات فقالوا[2]: ﴿لله﴾ اى الملك الأعظم ﴿الذى صدقنا وعده﴾ فى قوله "تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا" فطابق قوله الواقع

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: تقديرا (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) من م و مد، و فى الأصل و ظ: فدخلوه.

الذي وجدناه[١] في هذه الساعة ﴿ و اورثنا ﴾ كما وعدنا ﴿ الارض ﴾ التي لا أرض في الحقيقة غيرها و هي أرض الجنة التي لا كدر فيها بوجه و فيها [كل[٢]] ما تشتهي الأنفس و تلذ الأعين ، بأن جعل حالنا فيها في تمام الملك و عدم التسبب في الحقيقة فيه حال الوارث الذي هو

٥ بعد موروثه و لاشيء بعده و لامنازع له [٣]حال كوننا ﴿ نتبوا ﴾ أي نتخذ منازل هي أهل لمن خرج منها أن يشتهي العود إليها ، [٣]و بينوا الأرض بقولهم في موضع الضمير[٣] : ﴿ من الجنة ﴾ أي كلها ﴿ حيث نشآء ج ﴾ لاتساعها فلا حاجة لأحد فيها أن ينازع أحدا في مكان أصلا ، و لايشتهي إلا مكانه . و لما كانت بهذا الوصف الجليل ،

١٠ تسبب عنه مدحها بقوله : ﴿ فنعم ﴾ [٣]أجرنا - هكذا كان الأصل ، و لكنه قال[٣] : ﴿ اجر العملين ﴾ ترغيبا في الأعمال و حثا على عدم الاتكال .

و لما ذكر سبحانه الذين ركب فيهم الشهوات ، و ما وصلوا إليه من المقامات ، أتبعهم اهل الكرامات الذين[٤] لاشاغل لهم عن العبادات . فقال صارفا الخطاب لعلو الخبر إلى اعلى الخلق لأنه لايقوم بحق هذه

١٥ الرؤية غيره : ﴿ و ترى ﴾ معبرا بأخص من الإبصار الأخص من النظر كما بين في البقرة في قوله تعالى " و ان القوة لله جميعا " ﴿ الملٓئكة ﴾ القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿ حآفين ﴾ أي محدقين و مستديرين و طائفين في جموع لايحصيها إلا الله . من الحف وهو الجمع . و الحفة

(١) من م و مد . و في الأصل و ظ : وجدنا (٢) زيد من ظ و م و مد .
(٣-٣) سقط ما بين الرقمين من م (٤) في م : للذين .

و هو

[1]وهو جماعة الناس، و الأعداد الكثيرة، و هو جمع حاف، / و هو ١٢١ /
الواحد من الجماعة المحدقة[1] .

و لما كان عظم الشيء من عظم صاحبه، و كان لايحيط بعظمة العرش حق الإحاطـة إلا الله تعالى، أشار إلى ذلك بادخال الجار فقال: ﴿من حول العرش﴾ [2]أي الموضع الذي يدار فيه به و يحاط به منه، من الحول و هو الإحاطة و الانعطاف و الإدارة[2]. محدقين ببعض أخفته أي جوانبه التي يمكن الحفوف بها بالقرب منها يسمع لحفوفهم صوت بالتسبيح و التحميد و التقديس و الاهتزاز خوفا من ربهم، فادخال " من " يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لايحصيه إلا الله، لايملأون ما حوله، [1]حال كونهم[1] ﴿يسبحون بحمد﴾ [1]و صرف القول إلى وصف الإحسان مدحا لهم بالتشمير لشكر المنعم و تدريبا لغيرهم فقال[1]: ﴿ربهم ج﴾ أي يبالغون في التنزيه عن النقص [2]بأن يتوهم متوهم[2] أنه محتاج إلى عرش أو غيره، و أن يحويه مكان. متلبسين[1] باثبات الكمال للمحسن إليهم بالزامهم بالعبادة من غير شاغل يشغلهم، و لامنازع من شهوة أو حظ يغفلهم، تلذذا بذكره و تشرفا بتقديسه، و لأن حقه إظهار تعظيمه على الدوام كما أنه متصل الإنعام.

و لما تقدم ذكر الحكم بين أهل الشهوات بما برز عليهم من الشهادات،

(١-١) سقط ما بين الرقمين من م (٢) العبارة من هنا إلى « يحويه مكان » ساقطة من م (٣) زيد في الأصل: إلى، و لم تكن الزيادة في ظ و مد فحذفناها (٤) في م و مد: ملتبسين.

ذكر هنا الحكم بينهم و بين الملائكة الذين[1] فاوضوا فى أصل خلقهم بقولهم "اتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء" الآية فقال: ﴿وقضى بينهم﴾ أى بين أهل الشهوات و أهل العصمة و الثبات. [2]و لما كان السياق عاما فى الترغيب و الترهيب عدلا و فضلا، بخلاف سياق سورة يونس عليه السلام، قال[2]: ﴿بالحق﴾ بأن طوبق بما أنزلنا فيهم فى الكتب التى وضعناها لحسابهم الواقع، فمن طغي منهم أسكنناه لظى بعدلنا، و من اتقى نعمناه فى جنة المأوى بفضلنا، لجهادهم ما فيهم من الشهوات حتى ثبتوا على الطاعات، مع ما ينزعهم من الطبائع إلى الجهالات، و أما الملائكة فأبقيناهم على حالهم فى العبادات: ﴿وقيل﴾ [أى من -[3]] كل قائل: آخر الأمور كلها ﴿الحمد﴾ أى الإحاطة بجميع[4] أوصاف الكمال[5]. [6]و عدل بالقول إلى ما هو حق بهذا المقام فقال[6]: ﴿لله﴾ ذى الجلال و الإكرام، علمنا ذلك فى هذا اليوم عين[7] اليقين كما كنا فى الدنيا نعلمه علم اليقين.

و لما كان ذلك اليوم أحق الأيام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق و انفتاح البصائر و سعة الضمائر[8]، [6]قال واصفا له سبحنه بأقرب الصفات إلى الاسم الأعظم[6]: ﴿رب العلمين ع﴾ أى الذى ابتدأهم،

---

(١) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الذى (٢-٢) سقط ما بين الرقمين من م (٣) زيد من م و مد (٤) من م و مد، و فى الأصل و ظ: لجميع (٥) زيد فى الأصل: لله، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٦-٦) سقط ما بين الرقمين من م (٧) من ظ و م و مد، و فى الأصل: همه (٨) من ظ و م و مد، و فى الأصل: الضمير.

أولا من العدم و اقامهم ثانيا بما رباهم به من التدبير ، و أعادهم ثالثا بعد إفنائهم بأكمل قضاء و تقدير ، و أبقاهم رابعا لا إلى خير ، فقد حقق وعده كما أنزل فى كتابه و صدق و عيده لأعدائه كما قال فى كتابه ، فتحقق أنه تنزيله ، فقد ختم الأمر باثبات الكمال باسم الحمد عند دخول الجنان و النيران كما ابتدأ به عند ابتداء الخلق فى أول الإنعام ، فله الإحاطة بالكمال فى أن الأمر كما قال كتابه على كل حال ، فقد انطبق آخرها على أولها بأن الكتاب تنزيله لمطابقة كل ما فيه للواقع عند ما يأتى تأويله ، و بأن الكتاب الحامل على التقوى المسبية للجنة أنزل للابقاء الأول ، فن أتبعه كان [له -[1]] سببا للابقاء الثانى ، و هذا الآخر هو عين [2]أول سورة[2] غافر فسبحان من أنزله معجزا[3] نظامه ، فأتنا[4] القوى أول كل شىء منه و ختامه ، [5]و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و أهل بيته الطيبين الطاهرين و صحابته أجمعين[5] .

---

(١) زيد من م و مد (٢-٢) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : الأول سورة.
(٣) زيد فى الأصل : محور اوله و ختامه ، و لم تكن الزيادة فى ظ و م و مد فحذفناها (٤) من ظ و م و مد ، و فى الأصل : فاتنا (٥ - ٥) سقط ما بين الرقمين من ظ و م و مد .

٥ ٥ ٥ ٥ ٥

خاتمة الطبع

لقد تم - و الحمد لله - طبع الجزء السادس عشر من تفسير "نظم الدرر في تناسب الآيات و السور" للشيخ العلامة برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي رحمه الله تعالى يوم الجمعة سلخ ذى القعدة سنة ١٤٠٠ ﻫ = العاشر من آكتوبر سنة ١٩٨٠ م، تحت إشراف مدير الدائرة و سكرتيرها صاحب الفضيلة السيد شرف الدين أحمد، قاضى المحكمة العليا سابقا - بارك الله جهوده. و ضاعف له أجوره.

و تولى مهمة تصحيحه و التعليق عليه مصحح الدائرة أخى الفاضل محمد عمران الأعظمى الأنصارى العمرى (أفضل العلماء - جامعة مدراس) و قام بقراءة ملازمه مصحح الدائرة السيد الفاضل القاضى محمد عطاء الله النقشبندى القادرى (كامل الجامعة النظامية) - حفظهما الله.

و اهتم بتنقيحه و إنهائه خادم العلم و العلماء مقدم هذه الخاتمة - كان الله له و لوالديه.

و يليه الجزء السابع عشر باذن الله و مشيئته مستهلا بسورة غافر.

و نهائيا نسأل الله مولانا الكريم أن ينفعنا بـه و يوفقنا لما يحبه و يرضاه. و هو المسؤل لحسن الخاتمة، و نصلى و نسلم على من علم فواتح الخير و خواتمه سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه أجمعين، و اخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المستمسك بحبل الله المتين

المفتى محمد عظيم الدين

رئيس قسم التصحيح بدائرة المعارف العثمانية